

تاريخ مصر

من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل

تأليف: المستر جورج يانج تعريب: علي أحمد شكري



الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

تاريخ مصر

من عهد المماليك
إلى نهاية حكم إسماعيل

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ

⑤

تَارِيخُ مِصْرَ

مِنْ عَهْدِ الْمَمَالِكِ
إِلَى نَهَايَةِ حُكْمِ إِسْمَاعِيلَ

تَأْلِيفُ

المسترجوع يانج

تَعْرِيبُ

على أحمد شكري

وَبَرَأَيْتُ الْكِتَابَ أَهْمَ مَا وَقَعَ مِنْ الْأُحْدَاثِ فِي مِصْرَ
إِلَى نَهَايَةِ حُكْمِ إِسْمَاعِيلَ بِأَسَاسٍ مُقَرَّنَةٍ بِالْأُصُولِ
مِنْ سَنَةِ ١٧٦٠ - ١٨٨٠

مَكْتَبَةُ مَدْبُورِي

القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الملك فؤاد الاول ملك مصر



الأمير فاروق أمير الصعيد



محمد علي باشا مؤسس الأسرة المحمدية العلوية
بملابسه المصنوعة في مصر



بطل حروب الاستقلال ابراهيم باشا
في لباسه العسكري



الخديو اسماعيل باشا



السلطان حسين كامل

مِصْرُ

من عهد المماليك إلى نهضة حكم اسماعيل

مقدمة للمعرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله الأمين من بعث بالحق
وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد فقد كثرت الكتب
التي تعالج المسألة المصرية من بعض نواحيها . وهذا الأكتاف
دليل على أن تاريخ مصر ما يزال موضع اهتمام العالم في الخارج وهو في
نظرنا علامة طيبة . لأن الاهتمام بقضيتنا يفيدنا كثيرا إذ أنه يذكر
الرأى العام في البلاد المتمدينة بأن هناك أمة عريقة على ضفاف النيل
تنشد الحرية والاستقلال شعارها « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا »
لا تبغى الاعتداء على أحد من جيرانها كما أنها تنتظر منهم ألا يتطلعوا إلى
الاعتداء عليها ، أمة وادعة تريد التخلص من قيودها لتأخذ مكانها بين الأمم
الأخرى ولتكون همزة وصل بين مصر الفراعنة ومصر القرن العشرين .
وفضلا عن تنوير الأذهان في الخارج فإن للتاريخ أهمية أخرى تزيد عن هذه
بأنضعاف فهم من الأمة بمثابة المرأة يبصر فيها الإنسان ما قطعت أمة في الماضي
من شتى المراحل وما طرأ عليها من التطورات كما أنه درس يتعلم منه الإنسان

كيف يعد للمستقبل عدته مع اتقاء مواطن الزلل واجتناب العثرات. ومن هنا كانت دراسة التاريخ حافزة للهمم الراكدة. ومن هنا أيضاً ترى اعتزاز الشعوب العريقة بتاريخها وحرصها على تعليمه الأبناء والأحفاد. ولن تجد أمة ضربت بسهم في المدنية والحضارة إلا منكبة على دراسة تاريخها جيلاً جديلاً وتكشف غوامضه مرحلة مرحلة إلى اليوم الذي تعيش فيه. وبعكس هذا ترى الأمم المتأخرة قانعة بترديد مفاخر الأسلاف مستكنة إلى مجدها التالد.

فالاهتمام بالتاريخ في أمة من الأمم هو إذن دليل رقيها ورمز نهضتها وباعث همتها. ويدخل في هذا طبعاً العناية بنشر هذا التاريخ في داخل البلاد وخارجها.

اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر

ونحسب أن جلالة الملك كان يؤمن بهذه العقيدة حتى قبل تبوؤ العرش. ولذا صرح مرة وهو بعد أمير بتلك الجملة الذهبية الخالدة وهي: «إن مجدنا الماضي وتقاليدها المقدسة مما يشجعنا على السير ببلادنا في وقت نهضتها الجديدة في طريق الكمال البشري الذي كان يبدو من خلال سلسلة جهود الأمم ومن مغامرات الفلاسفة في كل عصر وفي كل موطن ومنذ عهد أرسطاطاليس إلى أيام ليو تو استوى - بأنه الحلم الذهبي الذي علقت به القرون التي يخطئها العداء والنار القائم وسط الأفق الأسمى للجنس البشري». وقال سموه في موطن آخر:

«متى حرصت الأمة على تنمية شعور الأجلال نحو أسلافها والأكابر من أعمال أبطالها تستطيع أن تتعلم سر مستقبلها وتقدره حق قدره لأنها تكون وقتئذ قد وصلت إلى أسمى مراتب المدنية.»

ومن هنا كان اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر منذ أقدم العصور

وتشجيعه لبعض العلماء الذين يقوون بكتابة ذلك التاريخ. ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بك بعيدا في هذه الناحية. فلقد سمعت أن جلالة كلف المسيو هانوتو - وزير خارجية فرنسا سابقا - بكتابة تاريخ مصر منذ بدء الخليقة إلى العصر الحاضر في سبعة مجلدات وقد أخرج فعلا الأجزاء الثلاثة الأولى وأصبح الباقي وشيك الظهور.

ثم كتاب «الوجيز في تاريخ مصر» ويشمل تاريخ مصر القديم إلى نهاية حكم اسماعيل باشا ويقع في أربعة أجزاء ظهر منها ثلاثة إلى الآن. وكتاب «الفن المصرى في عصور التاريخ» الذى قامت لجنة بإشراف السير دنيسن روس بإخراجه بإيعاز وتعزید جلالة الملك.

هذا فيما يختص بتاريخ مصر العام. ولكن الأمم المتحضرة كما قلنا تعنى بتاريخها إلى اليوم الذى تعيش فيه. وهذه الحقيقة لم تفت جلالة الملك. فان ظهور محمد على باشا يعتبر مرحلة فاصلة في تاريخ مصر أو هو حقاً بمثابة نقطة التحول من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث. لذلك أولاه جلالة ما يستحقه من العناية والاهتمام.

ومن هنا ترى جلالة لا يستكثر نفقة ولا يستعظم مجهودا في سبيل جمع شتات الوثائق والمستندات الخاصة بعهد محمد على وما تلاه من العهود إلى اليوم. ونحسب أنك سوف تدهش إذا سمعت بما يبذله جلالة في هذه الناحية من جهود ونفقات وهو بعد الربان الذى لا يتسع له الوقت ولا يستطيع أن يغفل لحظة واحدة عن ملاحظة دقة سفينة الدولة خشية ارتطامها بالصخور والشعاب.

وعلى سبيل التذليل - لأعلى سبيل الحصر - نقص عليك طرفا من هذه الجهود الجبارة لتدرك أهمية العمل الذى يقوم به أبو الفاروق. فالوثائق والمعلومات الخاصة بمصر منذ عهد محمد على إلى نهاية حكم

اسماعيل موزعة بين لندن وباريس وايطاليا وفينا ووشنطن ووارصوفيا
وبتروغراد وآثينا عدا ما هو موجود منها بمصر . فقل تظن أن جلالته
تراجع أمام ما يقتضيه الحصول على تلك المستندات من جهود ونفقات ؟
كلا وربك .

بل عهد إلى المسيو دوان من كبار مديري شركة قناة السويس بجمع
الوثائق بين لندن وباريس وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الخاص .
وقد وفق المسيو دوان في مهمته وحصل على كافة المستندات ونشرت
الجمعية الجغرافية بعضها وسيظهر قريبا باقيها .

ولم يكتف المسيو دوان المذكور بهذا المجهود بل وضع كتابا عن
تاريخ اسماعيل في خمسة أجزاء وهو تحت الطبع في ايطاليا وقد ظهر منه
الجزء الأول .

ثم عهد إلى السنيور أنجلوسان ماركو من أساتذة التاريخ في المدارس
الإيطالية بجمع المستندات الموجودة في ايطاليا وهي تقتضى مجهودات
خاصة لانقسام الدولة الإيطالية وقتئذ إلى عدة دويلات صغيرة لكل منها
دار محفوظاتها ولأن هذه الدور لم تتحد بعد في دار واحدة . ولذا كانت
الصعوبة في الحصول على تلك المستندات مما يفوق التصور .

وبرغم هذه المصاعب فإن الأستاذ سان ماركو قد وفق إلى جمع هذه
الوثائق وطبع منها إلى اليوم حوالى خمسة أو ستة مجلدات ولا يزال باقيها
تحت الطبع . وهو جاد في الحصول على محفوظات النمسا .

ووثائق وشنطن وقد نسخت في نحو ٢٠ مجلد وتشمل كل ما كتب
عن مصر منذ عهد محمد على إلى نهاية عهد اسماعيل .

ثم وثائق بولونيا ويقوم بجمعها بإيعاز جلالته أحد كبار الأخصائيين
وتشمل الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٣٣ - ١٨٣٦ وهي الفترة التي

نشبت فيها الحرب السورية ووقع فيها اختيار محمد علي حلي بعض كبار الضباط البوالين لتدريب جيشه .

والوثائق الروسية ويقوم بجمعها رينه قطاوى بك مدير عام شركة كوم امبو .

ووثائق آثينا وقد شرع المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى فى طبعها .

وعدا هذا كله توجد مجموعة كتب تاريخية ورسائل قيمة وضعها أعلام التاريخ خاصة بمصر وطبعتها الجمعية الجغرافية على حساب الجيب الملكى الخاص نذكر منها على سبيل المثال (١) كتاب « ميناء السويس » مؤلفه المسيو جونديه (٢) « وأطلس تاريخى خاص بمدينة اسكندرية ومينائها » للمؤلف السابق (٣) « وعمارة نابليون البحرية فى شواطئ مصر » بقلم المسيو دوان (٤) « وصحراء مصر الشرقية - أو من النيل إلى البحر الأحمر » بقلم المسيو ريموندى (٥) « واكتشاف افريقيا فى العصور الوسطى » مؤلفه المسيو دى لارونسيير الخ . عدا سلسلة كتب قيمة أخرى خاصة بأهم ما وقع من الأحداث فى عهد ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير وكلها قد طبعت على نفقات الجيب الخاص .

وزيارة واحدة يقوم بها الباحث إلى إدارة المحفوظات بالسراى الملكية تبين له الحركة الدائمة فى جمع وترتيب شتى المستندات والوثائق التاريخية الخاصة بمصر وهى حركة تستمد الهمة والنشاط من جلالته رأسا .

وليس شك فى أن هذه المجموعات تنطق عن نفسها بنفسها . وإنه لما يثلج صدر المصرى أن يرى كل هذا الاهتمام بتاريخ مصر من جلالة صاحب العرش .

وإذا كان جلالته قد سن لشعبه هذه السنة الطيبة فلا أقل من أن يقتدى الكتاب بمثله السامى وأن يغنوا على الأقل بنقل ما يدونه أعلام

المؤرخين الأجانب عن مصر . ومن هنا اتجهت نيتنا إلى ترجمة كتاب المستر يانج الذى وإن كان قد توخى إنصاف المصريين كأمة ، إلا أنه قد أثار غبار الجدل حول عدة مسائل بعضها دينى وبعضها سياسى وكان فى كلا الحالين يصدر عن رأى غير ناضج يتأثر بظواهر الأشياء وقشور هادون العناية باللباب أو تحرى بواطن الأمور .

وكما أنك لا تستطيع استيعاب الصورة من كافة نواحيها وتقدير ما أودعه فيها الفنان من معجزات الفن إلا إذا تراجمت عنها إلى الورا . قليلا كذلك ليس يسعك الحكم على الحوادث التاريخية حكما صحيحا مجردا من التحيز والهوى أو أن تربط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها إلا إذا باعد الزمن بينك وبينها حتى يتلاشى أو يخف — على الأقل — تأثرك بها . هنالك — وهنالك فقط — يمكن اعتبار حكمك على الأشياء حكما نزيها بعيدا عن الغايات .

ويدخل فى هذه الملاحظة ما تواضع عليه أعلام المؤرخين إلى يومنا هذا وهو ألا يكتب تاريخ الأمم فى حياة الأشخاص الذين قاموا بالادوار الرئيسية فيه . وإلا كان المؤرخ فى أغلب الأحيان واقعا تحت تأثير أولئك الأشخاص فيكون حكمه عليهم غير حكمه مما لو انتظر حتى يصبحوا فى ذمة التاريخ .

ولعل الحكمة فى ذلك أن هناك أسراراً خطيرة تكتنف حياة أبطال الرواية وتلقى ضوءاً باهراً على أعمالهم وتصرفاتهم ويغلب ألا ترى ضوء النهار إلا بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة . ومن هنا كان تواضع المؤرخين على ألا ينشروا تاريخ أمة معاصرة إلا بعد أن يصبح أبطال الرواية فيها فى ذمة التاريخ وبعد أن تصبح المستندات والوثائق الخطيرة فى متناول الأيدي وبذا تجتمع لديهم المادة التى يستطيعون بالاعتماد

عليها ان يمشوا في سرد تاريخ تلك الامة وهم عالمون أنهم يكتبونه بالطريقة النزيهة التي ينبغي أن يكتب بها .

ولكن صاحبنا المستريانج حاول لسوء الحظ تخطي ما اصطلاح عليه جمهرة المؤرخين وأن يكتب تاريخ مصر في أثناء حياة أبطال الرواية ولذا لم يأمن الشطط والوقوع في الخطأ في أكثر من موضع وبخاصة في تاريخ مصر منذ نشوب الحرب العالمية .

ولقد كانت النية متجهة في بداية الأمر إلى إخراج ترجمة كتابه جملة واحدة ولكننا عند ما رأينا أن معظم ما كتبه في السنوات التي تلت نشوب الحرب فضلا عن أنه حديث العهد وحاضر في الأذهان فهو مشوش وينقصه الاتئناس بالمستندات والشواهد التي لم تكن في متناول المؤلف عند ما وضع كتابه .

لهذا رأينا أن نكتفي بذكر ما أورده عن أمراء مصر إلى نهاية عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا . لكن لما كان ما أورده خاصا بعهد منشيء مصر الحديث الحاج محمد علي باشا الكبير وعهد حفيده اسماعيل باشا في حاجة إلى شيء من الأسباب رأينا أن نضيف إليه من الحواشي المتضمنه من المعلومات القيمة ما هو كفيل بأن يملأ كل مصرى فخرا ويجعله يتيه إعجابا بتاريخ هذه الأسرة العلوية المجيدة التي اصطقتها العناية الإلهية لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة . ونسارع إلى الاعتراف بأن هذه الحواشي لم يكن لنا أى فضل إلا في اقتباسها عن المصادر التي أشرنا إليها في السياق . فهي ليست من عندنا . وقد أوردناها لتكون أكثر دلالة وأبعد أثرا في الإقناع على صحة نظريتنا مما لو اكتفينا بسرد أقوالنا وحدها .

نظرة إجمالية في تاريخ مصر

كأنما اختصت العناية السماوية الأسرة المحمدية العلوية بتلك المهمة النبيلة انشانة مهمة الانتقال بمصر من مجرد ولاية تركية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة . ويظهر أن هذه المهمة قد حرص على الاضطلاع بها الأبناء والأحفاد بعد الأجداد والآباء .

محمد علي باشا

فلقد ظهر ساكن الجنان الحاج محمد علي باشا الكبير على المسرح السياسى ومصر عبارة عن إحدى ولايات الأمبراطورية العثمانية فما لبث أن ولى وجهه شطر العمل على استقلالها وتوسيع حدودها وانتزاع هذا الاستقلال على ظبي السيوف . وما كانت حروبه فى الشام وبلاد العرب والسودان إلا تمهيداً لهذه الغاية النبيلة وأثنى كانت الدول الأوروبية قد تألبت عليه فى موقعة نافارين كما تألبت عليه بعد حروب الشام وأبت إلا حرمانه من جنى ثمار انتصاراته التى اهتزت لها أوربا فان ذلك لم يمنعه من أن ينال لمصر استقلالها الداخلى مع بقاء السيادة العثمانية الأسمية بمقتضى معاهدة لندن المعقودة فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠

ونظرة واحدة إلى صرامة الشروط الواردة فى تلك المعاهدة تقنعك بما تنطوى عليه من ميل إلى الانتقام من هذا الرجل العظيم الذى أقضت حركاته مضجع أوربا وجعلتها تتربص به الفرص للتخلص من نفوذه المتغلغل فى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ويأبى سوء الحظ إلا أن يرفض محمد علي هذه المعاهدة ارتكائاً إلى مساعدة فرنسا . ولو قبلها برغم ما انطوت عليه من الأجحاف لفاز بحكم سوريا مدة حياته ولو فر على الجيش المصرى المارابط فى الشام ما تكبده

من الخسائر المادية والمعنوية الفادحة بسبب استئناف القتال لا بين مصر وتركيا بل بينها وبين تركيا وحلفائها .
وعلى كل فقد تم الاتفاق فيما بعد بين محمد علي وبين الكومندور نايبير
الإنجليزى على الانسحاب من سوريا ورد الأسطول التركى إلى الباب
العالى وإخلاء أدنة وبلاد العرب وكريت فى مقابل تخويل محمد على ملك
مصر الوراثى بضمانة الدول .

وقد تشبثت تركيا بطلب خلع محمد على بسبب انقضاء المهلة المشار إليها فى
المادتين الأولى والثانية من معاهدة لندن وشجعها فى تشبثها هذا لورد بونسونى
سفير بريطانيا فى الاستانة ولكن اللورد بالمرستون وزير الخارجية رأى
أن يفرض الأزيمة باجازه الاتفاق الذى توصل إليه الكومندور نايبير .

اسماعيل باشا

وكأنما أراد اسماعيل أن يحذو حذو جده العظيم فى الوصول بمصر
إلى دولة مستقلة ذات سيادة بعد أن وقفت بها الخطى فى عهد عباس وسعيد .
ولكنه وإن اتحد مع جده فى الغاية إلا أنه اختلف عنه فى الأسلوب
والوسيلة . فلقد أراد أن يجرب حظه لقطع الصلة التى تربط بلاده بتركيا
وإعلان استقلال مصر فى أثناء الاحتفال بافتتاح قناة السويس . وفى
سبيل هذه الغاية ابتاع المدافع والبنادق وسائر معدات القتال ليدافع عن
مصر إذا ماهاجمتها تركيا . وفى سبيلها أيضاً تجاوز عدد الجيش الحدود
المنصوص عليها فى فرمانات السابقة فأصبح ١٨٠.٠٠٠ بعد أن كان
١٨.٠٠٠ كل ذلك ليكون على قدم الاستعداد إذا حزب الأمر . وإذ رأى
أن الجوى السياسى لا يساعد على تحقيق أمنيته أيقن — وهو ذلك الرجل
العملى العظيم — أن محاولة انتزاع استقلال مصر من تركيا بحدا الحسام مع
ما تقتضيه هذه المحاولة من التضحيات المادية والمعنوية تعتبر خاسرة حتماً .

ولم يفته الدرس القاسى الذى تعلبه جده العظيم محمد على عند ماتألبت عليه أوربا وحرمة ثمرات انتصاراته . فرأى أن يلجا إلى ما هو أقل كلفة من ضياع الأرواح ألا وهو المال باعتباره أخف الأمرين هذا فضلا عن أن لغته أشد فعلا فى النفوس وأدنى للنجاح من لغة الحسام والمدفع . فراح ينفق المال كما قرره الميسودى فريسينيه لاستخلاص حقوق مصر عن طريق الفرمانات . ولم يكن الطامعون فى أمواله قاصرين على رجال الاستانة من السلطان فما دونه كلا بل كان كثير من ساسة الدول الأوربية وكبار رجال صحافتها لا يتحركون خطوة فى سبيل المرافقة على رد بعض الحقوق إلى مصر إلا إذا تذوقوا الشهد من بين أصابع اسماعيل وأجزل لهم العطاء .

ولطالما أنفق رسوله فى الاستانة ابراهام بك الأرمنى آلاف الجنيهات فى سد أبواب الدسائس ضد اسماعيل بسبب نظام الوراثة المتبع وقتذاك وفى سبيل حمل الدول وتركيا على إصلاح النظام القضائى فى مصر وإنشاء المحاكم المختلطة التى تعد فى طليعة مفاخر العهد الاسماعيلى . لأنها تحقق أمنية طالما طمحت إليها نفس اسماعيل وهى أن تتولى الفصل فى المنازعات بين رعايا الدول الأجنبية الموجودين فى مصر محاكم مصرية تحكم باسم أمير البلاد .

بل إن الحفلات الرائعة التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس وما أنفق فى خلالها من النفقات لتعتبر قبل كل شىء بمثابة « هدية » قدمها اسماعيل لأصحاب التيجان ليضمهم إلى جانبه فى جهاده المتواصل لتحقيق استقلال مصر .

وليس يستطيع من يستعرض عهد اسماعيل الزاهر أن يمر سراعا دون أن يقف برهة أمام تلك السحابة المظلمة التى حاول خصوم ذلك الرجل العظيم أن تظل متجمعة فى الأفق حول اسمه وهى خاصة بالديون

أو القروض التي قالوا إنه اقترضها فأنفقها في أى شيء؟ في إشباع شهواته !! ولكن إذا كانت دولة الباطل ساعة فان دولة الحق إلى قيام الساعة . ذلك أن ما اقتراه خصوم اسماعيل خاصاً بهذه القروض أخذ يذوب . الآن ذوبان الجليد تحت أشعة الشمس بما يتكشف للعالم كل يوم من بطون المحفوظات والسجلات التي كانت مجهولة لدى جمهرة الكتاب الذين حملتهم المغرضة على اسماعيل اعتماداً على الأوهام والاستنتاجات الخاطئة دون أن يدعموا اتهاماتهم بالأدلة والبراهين .

ولقد أغرق المغرضون من كتاب الأفرنج في الطعن على اسماعيل وتشويه سمعته وتسميم عقول المصريين من ناحيته حتى أصبحت أية محاولة من كاتب مصرى كصاحب هذه السطور لنقض ماعلق حول اسم ذلك الخديو من الأباطيل تقابل بالاستغراب والدهشة بل ويعتبر البعض مثل هذه المحاولة بمثابة عمل جرىء يقوم به الإنسان ضد التاريخ !! كأنما ينبغي أن يعتبر مانسجه كتاب الأفرنج من الترهات حول اسم اسماعيل حقيقة تاريخية لا يأتينا الباطل من بين يديها ولا من خلفها !! ولكننا رأينا بعد طول البحث والتقصي أن هذا الخديو كان مظلوماً حقاً وأن التاريخ لم ينصفه مطلقاً . وإذا كان كتاب الأفرنج قد أوسعوه النقد ظلماً وعدواناً فلا أقل من أن يتسع صدر القراء الكرام لتتبع ما أوردناه في هذا الكتاب خاصاً باسماعيل — وكثير منه لم يطلع عليه قراء العربية قبل الآن — ليتبينوا مبلغ ما أصاب خديوهم المعظم من حيف وإذن يصبح اسماعيل موضع فخارهم وإعجابهم باعتباره الرجل الذى حاول في سنوات قلائل أن يجعل مصر قطعة من أوروبا .

وإذا كان ما أوردناه في هذا الجزء بأ كمله عن اسماعيل لا يعتبر في الواقع إلا تباريحاً موجزاً فمن المعقول ألا تتسع هذه الكلمة لتفصيل

إصلاحاته المتشعبة التي ماتزال مصر مدينة له بها إلى اليوم .
ولعل أسوأ ما أصاب البلاد بعد أن أولاها اسماعيل ظهره هو الثورة
العراية التي لا نبالغ إذا قلنا إنها ربما كانت لا تقع لو ظل اسماعيل على
عرش مصر . لأنه بفضل ما حبته به الطبيعة من إصالة الرأى وبعد النظر
والقدرة على تصريف الأمور تصريفا عمليا كان جديراً بأن لا يدع أسبابها
تنزلق في الطريق الذي أدى بالبلاد إلى الهاوية الخطرة في النهاية بل لاستطاع
إزالة أسباب التذمر أولاً بأول ولو كان أجدر على تسيير الحوادث في غير
الاتجاه الذي اتجهت فيه وانتهت بما انتهت إليه من النتائج المحزنة التي مازلنا
نعانى كربها إلى اليوم .

جلالة الملك فؤاد

ولقد كان نشوب الحرب العالمية الماضية مرحلة من مراحل الانتقال
في تاريخ مصر . وإذا كانت هذه المرحلة قد امتازت بظهور القومية المصرية
بمظهرها الرائع فأنها كذلك امتازت بظهور الربان الأعظم الذي تسلم
الدفة في وقت قامت فيه الأعاصير الهوجاء حول السفينة وكادت تدفعها
إلى الارتطام بالصخور القائمة في طريقها . هذا الربان الماهر لا تغمض له
جفن بينما الآخرون نيام ولا يفتأ يرقب السماء بلا ضجر ولا ملل ليتبين
ما عسى أن تخطه يد القدر في أفق مصر مما فيه الخير والأسعاد لهذا
البلد الأمين .

هذا الربان هو جلالة الملك فؤاد الأول الذي حمل الراية بعد أبيه
العظيم وسار مترسماً خطواته وخطوات جده الكبير في سبيل الانتقال
بمصر من مجرد ولاية تركية ممتازة إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

ولسنا نذكر إلا الواقع إذا قلنا إنه كم من مرة اكفهر فيها جو السياسة

المصرية وعصفت بالبلاد العواصف فلم تجد الأمة من تشخص إليه
بأبصارها ليخرج بها من الظلمات إلى النور سوى سيد البلاد وملاذها
الأسنى جلالة الملك فؤاد .

وسل العارفين ببواطن الأمور ينبؤوك بحديث تلك العواصف بما
لم يتصل نبأه بالجمهور وكيف ساعد الربان على دفع الضر وكشف المكروه
دون أن يأخذ لنفسه ولو نصيباً ضئيلاً من نخر تخليص البلاد من المحنة
وفي هذا المثل الأعلى على إنكار النفس .

بعض أعمال جلالة الملك

ولسنا نحسبها مجرد صدقة أن الملك فؤاد يترسم خطوات أبيه في كل
ما من شأنه رفع مصر . فكما كان هم اسماعيل أن يجعلها موضع نظر العالم
في الخارج والداخل بما أشرنا إليه في سياق الكتاب إذا بعاهلها الحال
يحرص على أن تكون ممثلة خير تمثيل في الخارج مع جعلها تتجلى
كالعروس ليلة الزفاف في الداخل . وليست المفوضيات السياسية والمؤتمرات
الدولية العديدة التي اشتركت وتشترك مصر فيها بل وليست رحلات
جلالة الملك في أوروبا - نقول ليس هذا كله سوى إعلان عن مصر أمام
العالم المتمدين ومحاولة حميدة لفهم أمم الأرض طراً أن مصر فؤاد هي
سليمة مصر الفراعنة .

فأينما أدار الإنسان بصره وجد آثار الملك . ولا تكاد تسير في ناحية
من نواحي الحياة في مصر إلا وجدت طابع فؤاد عليها كأنما كان يقيم الدليل
العملى على تصريحه وهو بعد أمير للسيو ييرتى مارت مكاتب جريدة
جيل بلاس « ليس شيئاً أن تكون أميراً بل الشئ الكثير أن تكون
نافعاً . »

ولا نخالك تطالبنا بأن نسرد عليك في صفحات معدودة أعمال المليك قبل اعتلائه الأريكة المصرية وبعدها لأنها خليقة بمجلد ضخمة . ولكننا لانرى محيصا من إلقاء نظرة عاجلة عليها للتذكير والعظة .

فمن ذا الذى لم يسمع « بالأمير » فؤاد وولعه - حتى قبل اعتلائه العرش - بما يفيد البلاد من الناحية العلمية . وإذا ذكرنا تاريخه فى هذه الناحية كانت الجامعة المصرية أول ما يواجه الباحث فى حياة ذلك « الأمير » النشط . فكلنا نعرف الحركة القومية التى كانت ترمى فى سنة ١٩٠٦ إلى انشاء جامعة أهلية لسد ظمأ البلاد وتعطشها إلى العلم . وإنما جأرت الأمة بطلب جامعة أهلية لتكون بعيدة عن تأثير سياسة التعليم التى كانت قاصرة وقتذاك على تعليم النشء القشور دون اللباب .

فما كادت الفكرة أن تحتمر حتى اتجهت الأنظار إلى اختيار « الأمير » فؤاد لرأسه المشروع كضمان لاستمرار سيل التبرعات لإنشاء هذا المعهد القومى . ونحسب أن التوفيق فى اختيار « سموه » لهذا المنصب العلمى كان بمثابة ضمان للسير بالمشروع إلى نهايته الطبيعية حتى أينع وأصبحت قطوفه دانية وصارت البلاد الآن تنفياً ظلالة فى عهد أبى الفاروق . فلقد ظل « الأمير » فؤاد رئيساً للجامعة إلى سنة ١٩١٣ حيث كاد عرش ألبانيا أن يظفر بسموه لولا أن قدر الله لمصر أن يظل لها أميرها ليلعب دوره المهم فى مستقبلها السياسى .

وحكاية الانتقال بالجامعة من مرتبتها المتواضعة السابقة إلى مكاتها المزدهرة الحاضرة منذ جلوس جلالة الملك فؤاد على العرش قرية العهد بنا بحيث نستطيع الاكتفاء بنظرة عاجلة لنلقيا عايتها قبل الانتقال إلى سرد أعمال جلالاته الأخرى .

فى ١١ مارس سنة ١٩٢٥ عنى جلالاته بتوسيع نظام الجامعة وجعلها معهداً أميرياً ليكفل لها الحياة الطبية . ثم تفرع عن الجامعة أقسام أربعة

أو كليات اربع وهى كليات الآداب والعلوم والقانون والطب
وفي سنة ١٩٢٧ تم تنظيم الجامعة نهائيا واحتفل في العام التالى بوضع
الحجر الأساسى لبنائها الحاضر فى الجيزة .

ولا يفتأ جلالته يعنى بأمرها ويتعهد بها برعايته حتى أصبحت وهى أحدث
الجامعات عهدا تعد فى طليعتها قدراً .

وإلى جانب الجامعة تجدد الجمعية الجغرافية التى أنشأها اسماعيل باشا
فى سنة ١٨٧٥ وكان أهم أغراضها ارتياد القارة الأفريقية واكتشافها .
فلقد كادت هذه الجمعية أن تصبح فى علم النسيان فى سنة ١٩١٤ لولا أن
تداركها الأمير فؤاد فنفخ فيها من روحه وأنشأها نشأة أخرى .

ومعهد الأحياء المائية الذى ابتكره فى سنة ١٩١٢ وجمعية الاقتصاد
السياسى وهو واضع برنامجها ثم جمعية مقاومة الحشرات والجمعية الملكية
لعلم أوراق البردى ومشروع معهد الصحراء الذى بدأ ينهض الآن رويدا
رويدا وتم بناؤه فى ضاحية هليوبوليس ، كل هذه المعاهد تنطق بما
لجلالته من يد بيضاء عليها .

وإذا انتقلنا إلى المعارف العمومية وفضل الملك عليها رأينا العجب
العجاب . فلقد كان أول ما اتجهت إليه العناية الملكية تعميم التعليم الابتدائى
وجعله إلزاميا ومجانا . وهى نعمة ستذكرها الأجيال المقبلة لفؤاد الأول
بالحمد والثناء وحسبك أنها تؤدى إلى القضاء على الأمية فى وادى النيل .
وكما عنى محمد على الكبير بارسال البعثات إلى الخارج فقد أولاهها
الملك عنايته أيضاً حتى أصبح لكل وزارة أو مصلحة من مصالح الحكومة
بعثة فى الخارج . كذلك اقتدى بحجده الأعظم فى إنشاء مدرسة للبحرية هى
المدرسة الفاروقية .

وقد تدهش عندما تعلم أن عدداً عديداً من رجال البعثات تدفع
نفقاتهم من الجيب الملكى الخاص .

وما دمننا بصدد المعارف العمومية فلا بد من الوقوف هنيهة لأنعام
النظار فيما تقوم به إدارة الأوقاف الملكية في هذه الناحية وما تسنه في
مدارسها من سنن صالحة سوف تبقى غرة ناصعة في جبين نظام التعليم في
الجيل الحاضر .

فنظرا لأن هذه المدارس منسوبة إلى جلالته فقد شاءت إرادته أن
تكون المثل الأعلى بين كافة مدارس القطر لافرق في ذلك بين المدارس
الأميرية أو الأهلية وأن يتضمن برنامجها بين ما يتضمنه تعليم طلبتها اللغة
الفرنسية وعلم الأخلاق فكانوا بذلك أسبق طلبة مدارس القطر إلى تعلم
هاتين المادتين .

وتحقيقا لرغائب جلالة الملك عنيت الأوقاف الملكية بفتح عدة
مدارس أخرى منها مدرسة ثانوية وهي مدرسة الخديو اسماعيل الملكية
وقد افتتحت بعد ارتقاء عظمة « السلطان » فؤاد الأريكة باشهر (سبتمبر
سنة ١٩١٨)

وناحية طريفة تدل على اهتمام الملك بكل شيء مما لم يسبقه إليه أمير
آخر هي اهتمامه بالخط العربي وتحسينه . ولذا انشأ مدرستين لتعليمه كما
أمر بادخال حروف التاج في المدارس والمصالح الأميرية . وفي نهاية سنة ١٩٢٥
أمر بتعليم الطلبة في المدرستين الأخيرتين فن التذهيب .

ولمدارس الأوقاف الملكية بعثاتها في الخارج كما لها فرقها الكشافة
التي أصبحت ثلاثاً . ولعله يدهشك أن تعلم أن أول فرقة كشافة قامت في مصر
هي التي أنشئت في سنة ١٩١٨ في مدرسة الخديو اسماعيل الثانوية بإيعاز
جلالته كما أنشئت فرق كشافة أخرى في جميع مدارس الديوان وفرقة
للرشدات والزهرات بمدرسة البنات . وتمتاز هذه المدارس بحسن نظامها
ودقة إدارتها . وحسبك دليلاً على اهتمام سيد البلاد بالكشافة برغم
كثرة شواغله الأخرى أن أصبح سمو أمير الصعيد كشاف مصر الأعظم

ولهذا الاختيار مغزاه الخطير كما لا يخفى .

وما فتئت إدارة الأوقاف الملكية تعنى بشؤون التعليم حتى بلغ ماتحت اشرافها من المدارس ما يأتى :

مدرستان ثانويتان وأربع ابتدائية للأولاد وواحدة للبنات وواحدة لتحسين الخطوط الملكية وقسم لتحفيظ القرآن الكريم .

وبعد أن كان عدد الطلبة فى جميع هذه المدارس ٢٠٢١ فى سنة ١٩٢٢ إذا به يرتفع إلى ٣٤٦٩ فى سنة ١٩٣١ . وكأن هذه الجهود الجبارة وما تتطلبه من نفقات هائلة تقوم بها إدارة الأوقاف الملكية لم تكف فى إشباع رغبة أبى الفاروق فى تعليم أبناء شعبه فرأى أن يقرب مناهله من أبناء الطبقة الدنيا ولذا ترى نسبة المجانية بلغت فى سنة ١٩٣١ فى مدارس الديوان ٣٩ ٪

ولعل مما تقر له عين جلالته أن يرى هذه النفقات الهائلة تؤتى ثمرها . فان المدارس المذكورة برغم حداثة عهدها كانت تتيحها الأولى فى معظم السنوات فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية بقسميها لامن حيث نسبة الناجحين فقط بل ومن حيث تفوقهم على أقسام المدارس الأخرى مما جعلها فى طليعة مدارس القطر بلا جدال .

وليس يسع الإنسان أن يغفل نصيب الأزهر من عناية صاحب العرش . فان تلك الجامعة العظيمة التى هى بلارب أقدام وأعظم جامعات الأرض طرا قد أخذت تتطور بسرعة مدهشة كما أنها بدأت تسد حاجة قاصديها من طلاب العلم من الأقطار الإسلامية .

وقد تظن أن مشاغل الملك فؤاد العديدة التى سردنا عليك طرفا منها قد أنسته الناحية الإنسانية . ولكن الواقع غير ذلك .

فاذا ذكرت الإنسانية ومبلغ خان جلالته عليها فأمامنا جمعية

الأسعاف. فسل القائمين بشؤونها يخبروك بما فعله « الأمير » فؤاد لاجلها. فلقد تولى رئاستها في سنة ١٩١٠ وهى تسير حثيثا فى سبيل التلاشى والفناء ولا يسمع بها إلا قليلون. فما هو أن التفت إليها حتى دبت فيها الروح من جديد وأصبحت الآن ملء الاثواء والاسماع .

وقد كان من أثر جهوده الحميدة المتواصلة عقب توليته رئاستها أن منحها الحكومة وكذا وزارة الأوقاف إعانة . ثم إذا بهذه الجهود تتمخض عن دار ومستشفى وعيادة أقامتها الجمعية المذكورة التى ما لبثت أن افتتحت لها فرعا فى ضاحية هليوبوليس وآخر فى حلوان وثالث فى الجيزة . هذا عدا المراكز العديدة فى كافة أنحاء القطر .

ولكىما تدرك مبلغ اتساع نطاق هذه الجمعية فبحسبك أن تعرف أن مجموع حالات الأسعاف فى سنة ١٩٠٨ بلغت نحو ١٦٣٨ فصارت ٦٩٩٣ فى سنة ١٩٣١ ثم ٤٢٦٧٩٨ فى سنة ١٩٣٢ وهذا بين إسعافات مستعجلة ونقل مرضى وعيادات وعمليات بسيطة وكشف أشعة وزيارات طبية الخ الخ هذا عدا إعطاء مصل الدفتريا لنحو ١٦٠٠٠ طفل . إزاء هذا كله كان طبيعياً أن تشعر الحكومة بأهمية هذه الجمعية وتؤمن بضرورتها للبلاد وخاصة بعد اعتلاء جلالته الأريكة . فوحدت جمعيات الأسعاف فى الأقاليم واندجت فى اتحاد كبير يشرف على الجميع .

وفى سنة ١٩٢٧ افتتح جلالته قسم الجراحة التابع للجمعية وتبرع له بمبلغ ٥٠٠ جنيه كما تبرع فى سنة ١٩٣١ بمبلغ ١٠٠٠ جنيه لتوسيع إدارة الجمعية هذا عدا مبالغ ٥٠٠ جنيه تبرع به جلالته بمناسبة احتفال الجمعية بيوبيلها الفضى فى ١٩ ابريل سنة ١٩٣٣ وقد أصبحت عيادتها تعالج يوميا ما لا يقل عن ١٠٠٠ شخص ولا تقوم بالعلاج فى أثناء النهار فقط بل هناك خدمة خاصة بمعالجة المرضى وإسعافهم ليلا . هذا عدا الأجهزة

الخاصة المستعملة في حالة الوضع في دور الحوامل أنفسهم .
فلا عجب اذا رأينا الانسانية في شخص جمعيتي الاسعاف والهلال
الاحمر التي تولى جلالته رئاستها في سنة ١٩١٦ تشكر للمليك بره بهما
وعطفه عليهما .

وناحية أخرى من النواحي الانسانية التي لم يسبق أحد جلالته إليها .
ولهذه الناحية طرافة خاصة لانها قامت في بلد لم يدرك بعد أهمية الأعمال
الاجتماعية .

ففي سنة ١٩١٦ اهتم سموه الأمير « فؤاد » بإنشاء دار في الاسكندرية
لتعليم البنات الفقيرات الأشغال اليدوية . وتعميماً لفائدة المشروع لم يجعله
قاصراً على بنات جنسية دون أخرى بل جعله عاماً لكافة الجنسيات بلا
فرق بين المذاهب والأديان .

وكانت غاية هذا المشغل تعليم البنات صناعة شريفة يكتسبن بها
القوت وتنمية مواهبهن الفنية وبخاصة شغل الدتلا والتطريز مع مراعاة
النماذج التي كانت شائعة في عهد ازدهار الفن الروماني واليوناني أو المصري
القديم أو الفن القبطي أو العربي .

وكم توجس الناس خيفة من فشل هذا المشروع . ولكن عزيمة أبي
الفاروق لا تعرف الفشل إذ مامن مشروع أولاه عنايته حتى نما وترعرع
وآتى ثمره .

وما هو أن دار الفلك دورته حتى بلغ عدد البنات ١٦٤ بعد أن كان
١٠ ومن ثم أخذت الأدلة تترى على نجاح المشروع وسيره الخيثة في

طريق النجاح إذ بلغ عدد نزيلاته في سنة ١٩٣٤ نحو ٢٨٠
ولا تزال أسر عديدة أخنى عليها الدهر وكنتم اسمها عن الناس تدعو
بالخير لجلالة المليك وتشكر له عنايته بتعليم بناتها صناعة شريفة يكسبن بها
العيش .

وكانما شاءت العناية الالهية أن تبرهن للبلاء على أن سمو « الأمير »
فؤاد كان موقفا في مشروعه . فلقد أقيم في سنة ١٩١٧ في حديقة رشيد
بالأسكندرية معرض عام للأشغال اليدوية المقدمة من هذا المشغل . وقد
أم المعرض أعيان الثغر ورجال السلك السياسى وغيرهم .. ولشد ما كانت
دهشتهم لطرافة النماذج المعروضة فاقبلوا عايتها متسابقين إلى اقتنائها . وقد
بلغ مقدار المبيعات في هذا المعرض ٤٠٠٠ جنيه دخل خزانة المشغل
فكان بمثابة نواة صالحة تضمن نموه المطرد ونشاطه في خدمة الغاية التي
أنشئ من أجلها .

وضمانا للمستقبل هذا المشغل أمر جلالته أخيراً بضمه إلى الأوقاف
الملكية فتحول إلى مدرسة تسير مع بقية مدارس الديوان في معارج
الفلاح والنجاح .

ولا تنس في النهاية فضل جلالة الملك على الآداب والفنون الجميلة ولا
مابلغته الموسيقى العربية في عهده الزاهر وحسبك أمره الكريم بعقد مؤتمر
في سنة ١٩٣٢ جمع كبار الأخصائيين من بلاد أوروبا والشرق العربى
للاستشارة برأيهم في رفع شأن الموسيقى العربية .

هذا وغيره هو بعض ماوسعه المقام . ونعتذر للقارئ إذا كنا لم نخط
بكافة أعمال الملك فلم تخصص هذه الصفحات إلا لآلقاء نظرة عامة عليها
ولتذكير الشعب بما يفعله مليكه من أجله . ويطيب لنا في هذا المقام أن
نقول إن جلالته أنفق من جيبه الخاص منذ اعتلائه العرش إلى نهاية
سنة ١٩٣١ ما يزيد عن ٤٠٠.٠٠٠ جنيه مصرى في الشؤون العلمية
والتبرعات الخيرية . وبحسبنا أن نقول إن مصر الملك فؤاد يصح من حيث
الحضارة والعلوم أن تقارن بكثير من الدول الأوروبية بل قد لا نكون
مبالغين إذا قلنا إن في حياة مصر العامة كثيراً من النواحي تحسدها عليها دول
أوروبية عديدة .

ويأتى بعد كل هذا أو قبله على الأصح انتقال البلاد في عهد أبى الفاروق من سلطنة إلى دولة مستقلة ذات سيادة تتمتع فى الداخل بالنظام البرلمانى كما تتمتع فى الخارج بالتمثيل السياسى .

نعم إن استقلال مصر ما زال مقيداً بالتحفظات الأربعة . ولكن قضية مصر قد خُطت بلا شك فى عهد الملك فؤاد خطوات واسعة إلى الأمام لم تخطها لا فى عهد محمد على ولا فى عهد اسماعيل . وبالرغم من انتصارات محمد على الباهرة وقرب استيلائه على الاستانة أجمعت كلبة الدول فى معاهدة لندن على إبقاء مصر تحت السيادة العثمانية .

أما اسماعيل باشا فإن الدول رفضت موافقته على إعلان استقلال مصر . ولكن هذا الاستقلال قد تحقق فى عهد الملك فؤاد وأصبحت دول الأرض جميعاً تعترف باستقلال مصر كما هو مشاهد الآن .

ونقف الآن عند هذا الحد وندعو الله أن يمد فى عمر جلالة الملك فؤاد ليصل بسفينة البلاد إلى شاطئ السلامة وأن يقر عينيه بولى عهده الأمير فاروق أمير الصعيد وأن يوفق مواطنينا إلى الهدى والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

على أحمد شكري

مصر فى مارس سنة ١٩٣٤

الفصل الأول

مولد مصر الحديثة

نابليون - محمد علي - بالمرستون

« وأغلق على العربيين في يد مولى قلس فيتسلط عليهم ، ملك عزيز »

« يقول السيد رب الجنود - أشعيا الاصحاح التاسع عشر الآية الرابعة »

مصر الحديثة كأمة تبدأ من الحرب العالمية فقط ، واسكنها كدولة تحكم نفسها بنفسها فانها تبدأ من الحرب العظمى التي وقعت منذ قرن مضى . ولهذا يمكن القول بأن مغامرات صاحبتنا كليوباتره مع صديقتها أنطونيوس التركي ومع قيصرها البريطاني جاءت في ربيع سياسة يومنا الحاضر أى عند ما التهم لهيب الثورة الفرنسية كافة الأنظمة السياسية المعمول بها في القرن الثامن عشر وأذاب ما حولها من الجليد . وليس يخفى أن كلاب الربيع - ونعني بها جيوش نابليون - هبطت الشرق يصحبها وابل من الأفكار والمعاهد الجديدة فأنعشت بها موات الولايات التي لفحها الهجير في الأمبراطورية العثمانية التي كانت وماتزال تشغل شرقي أوربا وشمالي أفريقيا . ومن ثم بدأت تزدهر تحت هذا المطر المخصب أمة جديدة وشرع أناس مسلحون يحشدون حيث لم يكن من قبل سوى سككون الصحراء ووديان العظام النخرة . وماذا عسى أن يكون أدل على قوة سحر بطلتنا « مصر » من أن يسعى اليها نابليون العظيم محاولا اقتناص قابها ؟

فنند تدهور مدينة الفراعنة وانقراضها ومصر خاضعة للفتاحين الأجانب . وقد صار زمام الحكم الأجنبي بعد الفتح العربي إلى أيدي طائفة المماليك وهم الجنود الخدم . لأن لفظة « مملوك » كان معناها في الأصل الرقيق الأبيض الذكر . والشرقيون في أوج عزهم - أى في عهد صلاح الدين - هم أول من أدخل المماليك إلى مصر . وقد كانوا بادىء بدء ميليشيا ذليلة

ثم تحولوا إلى طبقة عسكرية وأخيراً أصبحوا الطبقة الحاكمة . ثم جاء الأتراك فاقفوا آثار الشرقيين في جنودهم الانكشارية . وفي الواقع كان الشرق منذ بزوغ شمس الإسلام أخصر طريق إلى الحول والسلطة . وهذا هو صلاح الدين نفسه بدأ حياته كرفيق مثل كثيرين غيره من السلاطين الأولين . وفي مصر شهدنا أغرب الأمثال على تطور طائفة أجنبية وانتقالها من حراسة الرقيق إلى أن أصبحت الطبقة الأرستقراطية القابضة على ناصية الحكم . ومن الغريب أيضاً أن هذه الطائفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها في الأهالي الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك بهم . ولقد بلغ من قوة المماليك في سنة ١٢٥٠ أنهم اغتالوا أحد السلاطين الفاطميين وتولوا بعده ترشيح السلاطين من بين زعمائهم .

أما كيف استطاع هؤلاء المماليك أن يبسطوا سلطانهم الأجنبي على مصر نحواً من خمسة قرون فيرجع إلى كونهم كانوا يغذون صفوفهم بأرقى عناصر الأرقاء المحررين من أجناسهم البيضاء في القوقاز والتي لا جدال في أنه لا يوجد ما يفوقها في كافة أنحاء العالم .

وكان معظمهم من جورجيا - أو الخرز - وهم يعرفون بالخرز (بضم الحاء) ولا يزال المصريون يصفون حكمهم بحكم « الغز » وهو تحريف للفظلة الخرز . وقد كان المماليك يحرصون على التزاوج فيما بينهم وبين أنفسهم ولما لم يكن هذا وحده كافياً لأنقاذ جنسهم واستمرار استبدادهم اضطروا إلى إدخال دم جديد في عنصرهم . لأن عائلاتهم كان مثلها كمثل عائلات كل من استولى على مصر من الأجناس الآرية ، الأخرى التي انقرضت في الجيلين الثاني والثالث . وقد عجز المماليك عن تكوين طبقة وراثية بالرغم مما كان لهم من سيطرة مالية ونظام إقطاعي في البلاد . ثم إن سلطانهم الأجنبي يضاف إلى اختلافهم مع الأتراك - وهم أغراب مثلهم - كانت نتيجتهما جمع شمل العرب المتمصرين والنوبيين بل والأقباط برغم ما كان بينهم من اختلاف في الجنس والعقيدة الدينية لأنهم كانوا جميعاً تحت نير واحد .



الأوطه باشى (أبو طبق) ووراءه الجنود فى طريقه إلى القلعة
لأعلان الوالى بقرار العزل

وبفضل ما فرضه المماليك على أرض مصر الخصبة وعلى فلاحيهما الوادعين
من الضرائب وما حصلوه من المكوس على تجارة « الترانسيت »
بين أوروبا وآسيا — استطاعوا أن يكون لهم من الحول ما يكفي للدفاع
عن سلطانهم حتى بسط الأتراك سيطرتهم على البواغيز وأنشأوا لهم
إمبراطورية شاسعة فى شرق أوروبا وغرب آسيا . أما آخر سلاطين
المماليك فقد شنقه السلطان سليم فى سنة ١٥١٧ . وقد ورث
سلاطين آل عثمان عن المماليك فى الشرق هيبتهم ومكاتهم ولم يمسوا
نفوذهم السياسى فى مصر بشئ بل اقتصروا على جعل هذا النفوذ خاضعا
لسلطة الباشا العثمانى واستبدلوا الانكشاريين أرقاءهم المشاة بفرسان
المماليك . ولكن سرعان ما أخذ زعيم المماليك بصفته « بيك » القاهرة

(..) إذا لم يحز الوالى ثقة شيخ البلد وأعوانه يقرر هذا عزله ويبعث إليه رسالة
العزل مع رسول يدعى أوطه باشى (ويسمى أبوطبق لأنه يلبس قبة تشبه الطبق) .
فيركب الأوطه باشى حمارا (لعدم سماح القانون بركوب الخيل أو البغال) . ويذهب إلى القلعة
فى موكب من المتفرجين حاملا فرمان العزل وهناك يقول للوالى « انزل يا باشا » . فينزل فى الحال
وتزول كل سلطته . ولا يعارض الباشا فى فرمان المذكور حتى ولو تعدى أمر عزله إلى قتله .

ينافس الباشا سلطته وكان ديوان مصر مكونا وقتئذ من يكووات الممالك باعتبارهم ممثلين لاربع وعشرين مديرية ومن قادة السبعة القيايق الانكشارية. فلما أخذت سلطة العثمانيين في أسباب الضعف والوهن شرع الممالك يحدون من نفوذ الباشاوات في مصر حتى صار عدما . فكان أشبه شيء بما صنعه الانجليز فيما بعد مع الخديو . لابل أن سلوك الممالك مع من لا يلائمهم من الباشاوات كان سلوكا مختصرا وقاسيا أكثر من سلوكنا . فقد كانت عاداتهم في مثل هذه الأحوال أن يرسلوا الى الباشا المذكور مندوبا في عباءة سوداء تنذر بالنحس فيصيح به « انزل » فينزل صاغرا من على العرش . واينما ولى الباشا وقتئذ وجهه فانما يترتب ذلك فقط على ما يكفيه من الوقت لمغادرة البلاد . ويلاحظ بهذه المناسبة أن جنود الانكشارية بسبب عدم مراعاة التدقيق في اختيارهم ونظرا لفرقتهم في طول البلاد وعرضها ، لم يستطيعوا الاحتفاظ بنشاطهم الأدبي وكفايتهم العسكرية كما فعل الممالك من قبل

ولما كانت سلطة الممالك وإدارتهم أجنبية فمن المهم أن نقارن بينها وبين إدارتنا لتبين هل السر في بقاء حكمهم زهاء الخمسة قرون - بينما لم يمكث حكمنا سوى خمسة عقود - يرجع إلى أنهم لم يقتصروا على الاحتفاظ بحامية عسكرية وبحكومة ، أم لأنهم عرفوا فوق ذلك كيف يكونون طبقة من الحكام والأعيان في بلاد لا مجال لمحو الجنس الأبيض منها . ثم أن هبة الممالك لمصر كانت فنية بينما كانت هبتنا لها علمية . وإلا فمن ذا الذي يسعه أن ينكر أن لما أنشأناه من سدود النيل وبنوك الأراضي أو لخبرائنا الزراعيين ، فوائد تفوق قصور الممالك ومساجدهم وتقاليدهم الفنية ؟ نعم إن قطننا كان سبيا في جلب التجارة الأجنبية إلى مصر ، ولكن التوفيق في رواج حركة السائحين يرجع إلى ثقافة الممالك وهم الذين لا يجادل أحد

فى أنهم أبهظوا عاتق الآهالى المصرىين أضعاف ما أبهظناهم . فلقد كانت الضرائب توازى نتاج الأرض ما خلا النزر اليسير بما لا يكاد يكفى لسد رمق الفلاحين ثم إن المكوس على تجارة الترانسيت كانت معادلة لثمن البضائع الأساسى بما حال دون مزاحمة طريق البحر حول رأس الرجا الصالح . ولقد أدى شجارهم مع الأتراك على استقلال مصر إلى استمرار القلاقل وجاء اعتناقهم الاسلام ضعفا على إبالة إذ قطع صلة البلاد بحركة الترقى الأوروبى . ولقد تبادر إلى الأذهان حيناً من الدهر أن نظام الممالك هذا الذى بسط الأرقاء البيض ظله على شعوب آسيا وأفريقيا قد يخضع العالم للدولة الإسلامية الشرقية فىكون أشبه بما عملناه نحن فى صدد النظام الاستعمارى التجارى . فقد أخضعنا به العالم لمدنية أوربا الصناعية . ومن غرائب الصدف أن أسطول الممالك - فى نفس الوقت الذى هدم فيه الأتراك نفوذهم - كان ينازع البرتغاليين مستقبل الأمبراطورية الهندية . وقد غلب على أذهان الناس فى نهاية القرن الثامن عشر أن الممالك برىاسة على بك سوف يخلفون الأتراك فى الأمبراطورية العثمانية ، ولكن وفاة على بك المذكور كانت خاتمة مجدهم . وقد حل فى امبراطورية العالم رقيق الأجور محل رقيق الحروب . ثم إن فن الممالك العسكرى قد صار عتيقا . أما جيوشهم فكانت ماتزال مؤلفة من فصائل اقطاعية يشرف عليها رئيسها . وهذه الفصائل تتألف بدورها من بعض باشاوات أو بكوات الممالك العديمى الأهمية أو من رجال السلاح وعدد عديد من الجنود المشاة والأتباع . وأما فئهم العسكرى فانه كان قريب الشبه بفن الصليبيين وبعضها أخذ فعلا عنهم . ولقد كان الممالك وأيم الحق مبدعين حتى فى أيام الحراب والبنادق العتيقة ولكن هذه الأدوات قد فات أو انها فلم تعد صالحة للحرب .

ونحن الذين - مازلنا نحتفظ بالفرق الراكبة التى تكلفنا نفقات



بماهظة ونجعل من معركة « بلا كلافا »
قاعدة للفنون العسكرية قد نشعر
بشيء من العطف على ما أظهره
المماليك من الأقدام والبسالة عند
مهاجمتهم لنا بليون.

ولا جدال في أن المماليك بين
كافة من استولى من الأجانب على
مصر يعتبرون أكثرهم نفقات
وأقلهم كفاية . فان كل فارس من

فرسانهم الاثنى عشر ألفاً أو الخمسة
عشر ألفاً بلغ متوسط نفقاته نحو ١٠٠٠ جنيه في العام بينما بلغت نفقات
غزواتهم لسوريا بقيادة علي بك في سنة ١٧٦٩، ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٦ جنيه.
وكان مقبض خنجر علي بك يساوي ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ جنيه. وبما أن عدد سكان
مصر وقتئذ كان يتراوح بين مليونين أو ثلاثة ملايين فقد كان بديهاً أن
كافة ما كان يجمعونه ثمناً لانتاج التربة المصرية الخصبة ابتلعه أولئك
المماليك وأعيانهم. وقد حال كبرياء هؤلاء السادة وجهلهم دون التأثير
بأي ضغط نشأ بسبب اتجاه المدينة نحو الشرق .

كان هذا الابتزاز سبباً في أن مصر لم تعد بعد طريقاً بين أفريقيا وأوروبا،
كما انحطت الاسكندرية الى مدينة حقيرة لصيد الاسماك يقطنها نحو
٨٠٠٠ نسمة . والغريب ان المماليك بالرغم من ذلك كله لم يستعينوا
بالاجانب فقد منعوا الانجليز من شق الطريق البرى لتوصيل مياه البحر
الابيض بمياه البحر الاحمر . وطردهوا الجالية الفرنسية وهي التي كانت
تحرك دولا ب التجارة المحلية (سنة ١٧٧٩) .

ولطالما تربصت فرنسا ولبثت ترقب بانتباه ما كان في الطريق البرى من الفرص الملائمة لها في النزاع الذي كان قائماً بينها وبين إنجلترا حول الاستيلاء على الامبراطورية الهندية . ولقد اقترح لينتزر الألماني فعلاً على لويس الرابع عشر احتلال مصر وكان قصده من ذلك أن يصرفه عن التوسع نحو الرين (كما ورد في كتاب أعمال فون لينتزر المجلد الثاني)

وبعد ذلك بقرن كامل كتب قولنى يقول ما ملخصه : إن إستيلاء الفرنسيين على مصر كفيل باعادة الامبراطورية الهندية إلى أحضان فرنسا ، وإن قوة الممالك ليست إلا حديث خرافة فلم يكن ثمة محيص والحالة هكذا من أن تدور رحا الحرب العالمية عاجلاً أم آجلاً بين الثورة الفرنسية والنظام العتيق في هذا الدهليز الواقع خلف عرش آسيا .

وكانت مهاجمة الامبراطورية البريطانية هي الغاية التي جاهر بها نابليون من حملته التي أرسلها إلى مصر في سنة ١٧٩٨ . فقد وصفها مجلس الديركتوار بأنها بمثابة الجناح الايمن للغارة على إنجلترا . أما غايته الحقيقية فكانت ترمى إلى اتخاذ مصر ميداناً للقتال فإما أن يخرج منها إلى امبراطورية الغرب أو يتخذها - في حالة حبوط مساعيه - قاعدة لتأسيس امبراطورية شرقية . ومع إن مستقبله السياسى في باريس كان وقتئذ غامضاً ومحفوفاً بالشكوك ، فإن مجلس الديركتوار ابتهج ايما ابتهاج بتركه يستخدم موارد فرنسا في مغامرات نائية تريح بال الجمهورية من فاتح إيطاليا غير المرغوب فيه ومن قواده المتمردين وفعلاً كان تجهيزها - وهي التي اشتملت بين ما اشتملت عليه على ١٢٢ أخصائياً وعالماء مصرولوجياً - يدل على أن المسألة كانت مسألة انشاء امبراطورية أكثر مما كانت مجرد نزهة عسكرية . وقد كتب تاليران إلى مجلس الديركتوار في ١٠ يونية سنة ١٧٩٨ بأنها « الحملة التي سوف تهدم سلطان بريطانيا في الهند » . ولكن

يغلب على الظن أن تاليران كان أكثر اهتماماً بالتخلص من نابليون منه



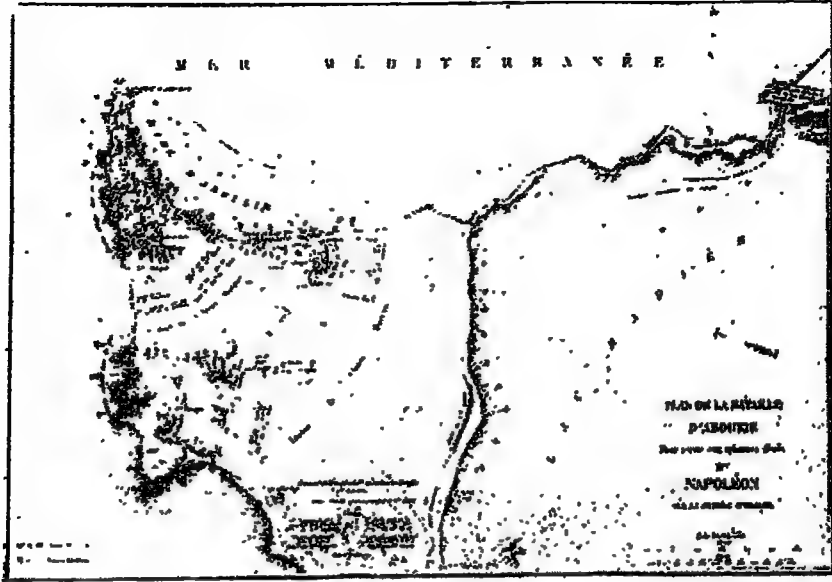
نابليون بونابرت

بهزيمة بريطانيا . ومع أن نابليون كان قد بدأ يرأسل « تيدو صاحب »
وقبائل مراتا الذين كانوا في قتال معنا ، فانه كان يصعب على الانسان أن
يتصور كيف أن مجرد إرسال تجريدة فرنسية إلى مصر تستطيع بدون
السيطرة على البحر اخراجنا من الهند . فان مواصلاتنا كانت حول
رأس الرجا الصالح . ثم ان سيطرتنا على البحر الأبيض حالت دون أى



معركة النيل أو معركة أبو قير

المعركة الفاصلة بين الأسطول الانجليزى بقيادة الاميرال « نلسون » والأسطول الفرنسى بقيادة الاميرال « برويه ». وقد وقعت السفن الفرنسية وعددها ١٣ عدأربع فرطافات أمام العمار الانجليزية التى كانت مكونة من ١٣ ماعونة وسفينة تحمل ٥١ مدفعاً. وبلغت قوة الجانب الفرنسى ١١٩٦ مدفعاً و ١١٢٣٠ ملاحاً حين أن الجانب الانجليزى كان ١٠١٢ مدفعاً و ٩٠٦٨ ملاحاً. ومع أن الغلبة كانت فى الجانب الفرنسى فان نلسون لم يتردد فى الاشتباك بخصومه قائلاً قبل أن تحين هذه الساعة من يوم غد سأكون قد حصلت على رتبة لورد أو على مكان أدفن فيه فى كندرائية وستمنستر. واستمرت المعركة إلى حوالى منتصف الليل ودارت فيها الدائرة على العمار الفرنسية التى تفرقت أيدى سباً. وقد قتل الاميرال برويه وهو على جسر سفينه التى كانت تحمل راية الاميرال بينما أصيب نلسون بجرح فى الرأس عاقه عن العمل.

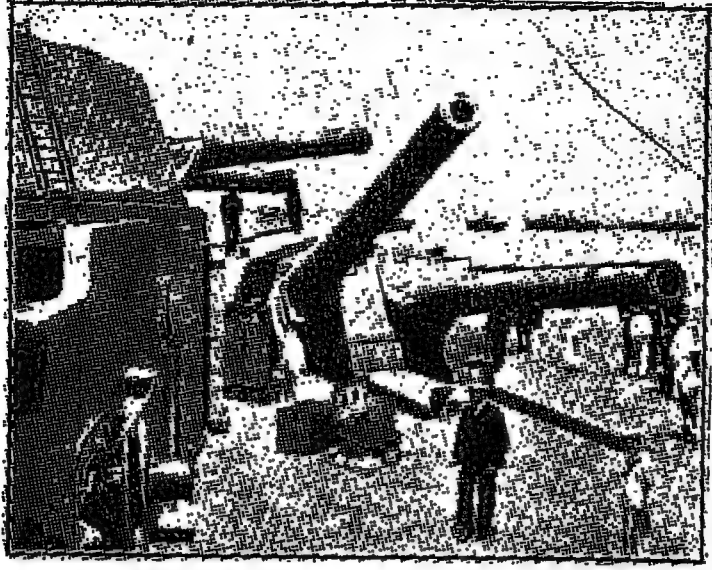


معركة أبو قير

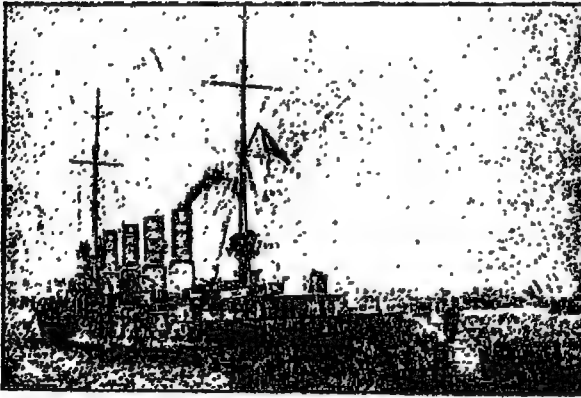
وقد وقفت الحامية الفرنسية على اليابسة بينما أمطرتها السفن البريطانية وابلامن القنابل
« مائتان الصورتان أهداما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب

أما الشرح فنقول عن جريدة الانجيشيان غازيت . »

اتصال منظم بين فرنسا ومصر اللهم إلا ما ندر . وفي الواقع لقد أفلتت
الحملة الفرنسية من المدافع الانجليزية لأن وزارة البحرية لم تسمح للأميرال
نلسون إلا بيارجة واحدة فقط مما أدى إلى وصول الأسطول البريطاني
إلى مالطة بعد رحيل العمارة الفرنسية منها بضع ساعات فقط . كذلك
وصل متأخراً إلى كريد وأيضاً إلى الاسكندرية ولكنه استولى فعلاً على
أدوات المصلولوجيين المائة والاثنين والعشرين وهي كارثة وإن اعتبرت
وقتنذ أنها نذير النحس إلا أنها لم تكن مما لا يعوض . ولئن وجد الآن
بيننا من يخامرهم الشك فيما عسى أن يكون الفرق بين سيادة بريطانيا البحرية
مع وجود مثل نلسون وبينها مع عدم وجوده فما علينا إلا أن نقارن بين
ما حدث عندما سمح الأسطول البريطاني بأن يفلت الفرنسيون من



البارجة جوين



البارجة برسلاو

قبضته إلى القاهرة
وما حدث بعد
ذلك بنحو قرن
تقريباً عند ما
سمح للألمان بأن
تقلت البارجتان
جوين وبرسلاو
إلى الاستانة. ولما

لم يكن نلسون بالشخص الذي يدع فرصة ثانية تمر دون انتهازها فقد
صمم من فوره على اقتفاء أثر الأسطول الفرنسي حيث كان رابضاً في
خليج أبي قير وهناك قضى عليه القضاء المبرم في أول أغسطس سنة



الاميرال نلسون قائد الاسطول البريطانى

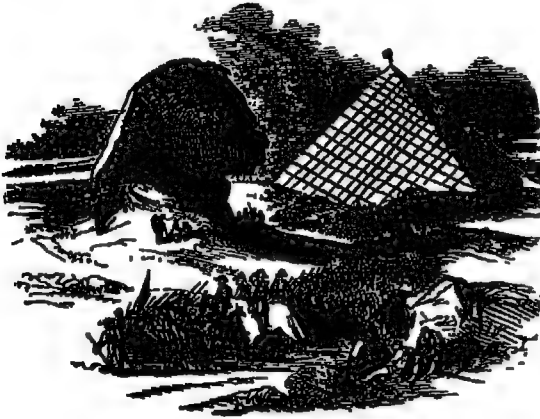
ولما أن رأى نابليون
نفسه معلقاً في الهواء لم يشأ
إضاعة الوقت سدى فاحتلال
مصر عسكرياً لم يكلفه متاعب
كبيرة لأن الجيش الفرنسى
وعسده ٤٠.٠٠٠ زحف
بطريق الصحراء بشكل مربع
مخوف على القاهرة وكان رسل
المدنية الحديثة المائة والاثنتان



بونايرت في معركة إيلوا بالقرب من امبابه
والعشرون في قلب الجيش بينما عسكر أقطاب الاسلام القدماء في عرض
الآفاق ووقفوا يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والازدراء وأخيراً برر

أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً . وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلى الفرنسيين حتى صار على بضع خطوات منهم . وهناك طلب مبارزة الكولونيل . ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش — لأن البدو المجتمعين كانوا قد قطعوا عليهم طريق الاتصال بسفن المؤونة — أجابوا على طلب المبارزة باطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء .

وما كانت معركة الاهرام التي نشبت على أثر ذلك وحاول فيها الممالك منع دخول الفرنسيين إلى القاهرة سوى تكرار لهذا الحادث ولكن على مقياس أكبر فقد اشترك



نابليون وجنوده في معركة الاهرام

فيها نحو ١٠.٠٠٠ فرسان الممالك وبضعة آلاف من مشاة الانكشاريين وعدد من المجندين المصريين . ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه

النيل . هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة (١)

(١) معركة ايلوا أو معركة امبابية أو معركة الاهرام تلخص فيما يلي : في يوم ٢١ يولية سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون على بعد ميلين من امبابية فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابية امامهم وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية . فلما رأى بونا برت حسن استعدادهم التفت الى جنوده وقال جملته المأثورة و اعلبوا أن خمسين قرنا تنظر اليكم من قم هذه الاهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما يأول اليه أمركم مع هؤلاء الممالك ، ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه =

على أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكرو والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا



الجنرال ديزيه

مربعات ديزيه ورينيه . ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الاكيد . ومنذ ذلك الحين لم يصبح لهذه الشركة الحرة القوقازية باعتبارها قوة عسكرية شأن يفوق مالفياق الباشوزق من الالبانيين أو فصائل الانكشارية التركية . أما بصفة حزب سياسي فقد ظل المماليك محتفظين بسيطرتهم إلى أن هدمها محمد علي . وأما بصفتهم أعياناً فإن من ذريتهم من لا يزال

بين زعماء أحزاب البرلمانية إلى اليوم . وليس معنى هذا أن لهم أهمية كطبقة كلا ، بل لأنهم بعد أن انتهت طريقتهم الخاصة في التجنيد أخذت عملية الانحطاط والفناء تفعل فيهم فعلها بسرعة .

وما أن دخل الفرنسيون القاهرة (٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨) حتى بادر نابليون من فوره بتأسيس جنين الامبراطورية في عاصمة الخلفاء

== بالتقدم نحو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار . ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار باطلاق النار على ديزيه وجاعته وحملهم على الوقوف بشكل مربع . ثم هجم أيوب بك ورجاله وهو يصيح . ويل لكم أيها الكفار الملاعين قد ساقكم كبرياؤكم إلى أرضنا مهلاً اتنا ستملاً القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكروا أعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات أحدنا فانه يذهب شهيداً إلى النعيم والذي يبقى حياً فله السعادة إلى آخر أيامه . ثم التحم الجيشان بعد تقدم مسيرة الفرنسيين ودارت المعركة إلى أن تقهر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلى الصعيد واستولى بونا برت على امبابية .

القديمة . وقد بذلت مساع هائلة لتخفيف حدة التعصب الديني ولتعلم المبادئ الثورية . وكان نابليون يبدأ منشوراته بالديباجة الاسلامية المألوفة . بل أنه جعل ينحونحوالحكام المسلمين في الكتابة^(١) . وقد طرحت على بساط البحث فعلا فكرة اعتناق الحملة الفرنسية بأسرها ونابليون نفسه العقيدة الاسلامية . وكانت أول دفعة في سبيل تنفيذ هذه الفكرة أن « مينو » وهو ثالث قواده اعتنق الاسلام فعلا وأنشأ له ضريحاً ثم بدأ بإنشاء مسجد .

(١) بعد دخول بونايرت القاهرة جمع العلماء وطلب إليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم . فوقع اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة : عبد الله الشرقاوى وخليل البكرى ومصطفى الصاوى وسليمان الفيومى ومحمد المهدي الكبير وموسى السرسى ومصطفى الدمنهورى واحمد العريشى ويوسف الشبرخيتى ومحمد الدواخلى . ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى واحتفل بونايرت بافتتاح الديوان وأكرم أعضائه وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة . وهذه الصور ما تزال محفوظة في معرض فرساي . وترى بعض الصور في ص ٣٨ . وهو أول ديوان وطنى ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

ولد الشيخ الشرقاوى الشافعى في سنة ١١٥٠ هـ وكان من أعلم أهل عصره وكان فقيراً في بادىء الامر ثم اتسعت حاله واكتسب مالا عظيماً فاشترى الأبنية والقصور والحمامات الخ . وتوفي سنة ١٢٢٧ هـ

والسيد خليل البكرى من سلالة أبى بكر الصديق تولى نقابة الإشراف بمصر ومشيخة السجادة وتأييد منصبه فيها بعد مجيء بونايرت فاستولى على أوقافها . كان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عند الفرنسيين حتى أن أمراء الممالك الهاريين كانوا يوسطونه لدى الفرنسيين في العفو عنهم . وبعد خروج الفرنسيين عادت نقابة الإشراف إلى السيد عمر مكرم وتوفي سنة ١٢٣٢ هـ

أما الشيخ محمد المهدي الكبير فقد ولد قبطياً وأبوه اسمه ايفانيوس فضل الله . ولما ولد سمي هبة الله . كان أبوه كاتباً في بيت سليمان كاشف قلباً ترعرع هبة الله أعجب به الكاشف وأراد جعله من مماليكه ولم تكن نزعتة عسكرية فأدخله الأزهر وهنا اعتنق الاسلام وسمي محمد المهدي وكان زكياً وما زال يرتقى حتى صار من كبار العلماء ثم أصبح من أهل الثراء حتى جاء الفرنسيون فأصبح صاحب الحظوة عندهم حتى لقبوه بكاتم السر .



الديوان الخصوصى وهو أول مجلس شورى وطنى فى مصر أنشأه نابليون سنة ١٧٩٨



الجنرال مينو أو الحاج عبد الله مينو

وهم على التوالى البابا وفرسان مالطة . ثم أنهم أسموا أنفسهم رسل الحضارة

وكانت ألقاب الشرف
توزع بالتساوى فى كافة
الاحتفالات والأعياد
الرسمية . وكانما أراد
الفرنسيون أن يسبقوا
شيوعى روسيا فلقبوا
أنفسهم بمحررى مصر
من نير الأجنبى سواء
الممالك الشرا كسة
أم الباشوات الاتراك .
وانتحلوا لأنفسهم
الفضل فى القضاء على
أعداء الاسلام القدماء



الشيخ خليل البكري



الشيخ عبد الله الشرقاوي



الشيخ محمد المهدي

الأوربية وقد بدأ المصلوحيون والاختصاصيون أعمالهم فأسسوا معهد مصر على طراز معهد فرنسا ووضعت التصميمات فعلا لشق قناة عبر برزخ السويس وأعيد تنظيم الإدارة. وسرعان ما بدأ العمل بالنظام المالي الإسلامي تحت إشراف الفرنسيين بكفاءة كانت رابحة أكثر مما كانت محبوبة من الشعب.

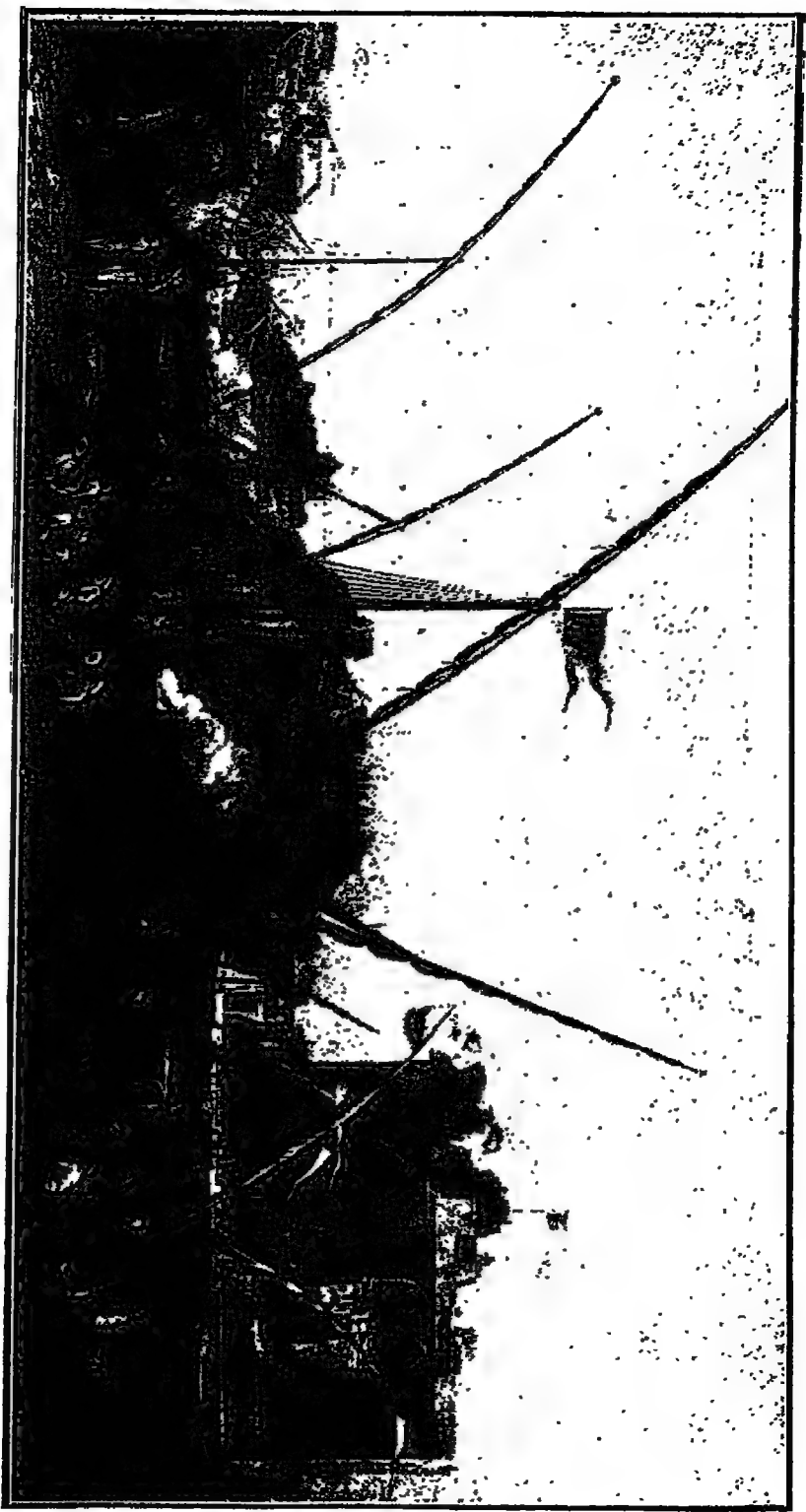
أما الثورة التي لم يكن مناص منها فان كفاءة النظام المالي قد عجّلت بنشوبها بقدر ما عجّزت الدعاية الإسلامية عن منعها طويلا. وكان الشعور الوطني في مصر إلى ذلك الحين موجودا فعلا، ولكنه اتخذ شكل نفور سلبي من تلك الإدارة الغير مصرية التي هيمن عليها أجنب كفار. وسرعان



مراد بك

ما تبين للفرنسيين بعد وقوع
فتنة القاهرة (٢١ أكتوبر
سنة ١٧٩٨)^(١) أنهم لم
يفتحوا مصر بعد بالرغم من
أنهم قضوا على مستعبدتها .
وعلى أن هذه الفتنة قد قمعها
«جينو» بشدة أوقعت الرعب
في كل من كانت تحدثه نفسه
بالإقدام على مثلها . وقد كتب
نابليون بهذه المناسبة إلى «مينو»
(٣١ يوليو سنة ١٧٩٨)

(١) هذه الثورة من الأهمية بحيث ينبغي ذكر قصتها هنا . وتلخص في أنه في يوم
٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ جاء إلى الشيخ البكري جمع كبير من أولاد الكتائب والفقهاء
والعميان والمؤذنين وأرباب الوظائف والمستحقين من خدمة الأوقاف وغيرهم وشكوا
من قطع مرتباتهم وخبزهم لأن الأوقاف تعطل إرادها واستولى على نظارتها غير المسلمين .
فوعدهم بالمساعدة على نيل حقوقهم إن قدموا شكواهم إلى الديوان . واجتمع
المشايع في الأزهر في اليوم التالي وأرسلوا القراء يطوفون الأسواق ويقولون «فليذهب
كل من يوحد الله إلى الجامع الأزهر هذا يوم الجهاد في محاربة الكفار وأخذ الثار»
فاحتشدت الجماهير أمام الجامع الأزهر ويمموا شطر بيت القاضي وبدأت أعمال النهب
والتهريب . فذهب الجنرال دييوى قائممقام القاهرة يستطلع الخبر فرماه بعضهم من
النوافذ بحربة كانت القاضية على حياته . وتفاقت الحالة والفرنسيون لا يستطيعون
دخول المدينة إلى أن ركب نابليون في مقدمتهم وتوجه شطر الأزهر وطلب من
العلماء وقف الرعاع عن التجمهر . ولكنهم لم يصدعوا لأمره وكان قد بلغه نبأ عزم
بعض العربان على دخول القاهرة . فأرسل إلى العلماء أحداً ركان حربه ولكن الثائرين قتلوه .
وفي تلك الاثناء وصل كليبر من الاسكندرية بجيشه . فهجم الفرنسيون وأطلقوا في الساعة
الثالثة بعد الظهر مدافعهم على خط الأزهر وظلت القنابل تنساقط إلى السماء . فأجمع رأى =



حفلة فتح الخليج في يوم ١٣ مسرى أيام بونابرت. وقد اشترك فيها نابليون مراعاة للمعاداة الوطنية. وكان الخليج نهرًا يصل ما بين النيل والبحر الأحمر
فكانت السفن في البحر المتوسط تصعد إلى النيل ثم تدخل الخليج ومنه إلى البحر الأحمر

يقول انى أطيح خمس أو ست رؤوس يومياً فى شوارع القاهرة . ولا ريب



نابليون بونابرت بلباسه الشرقى

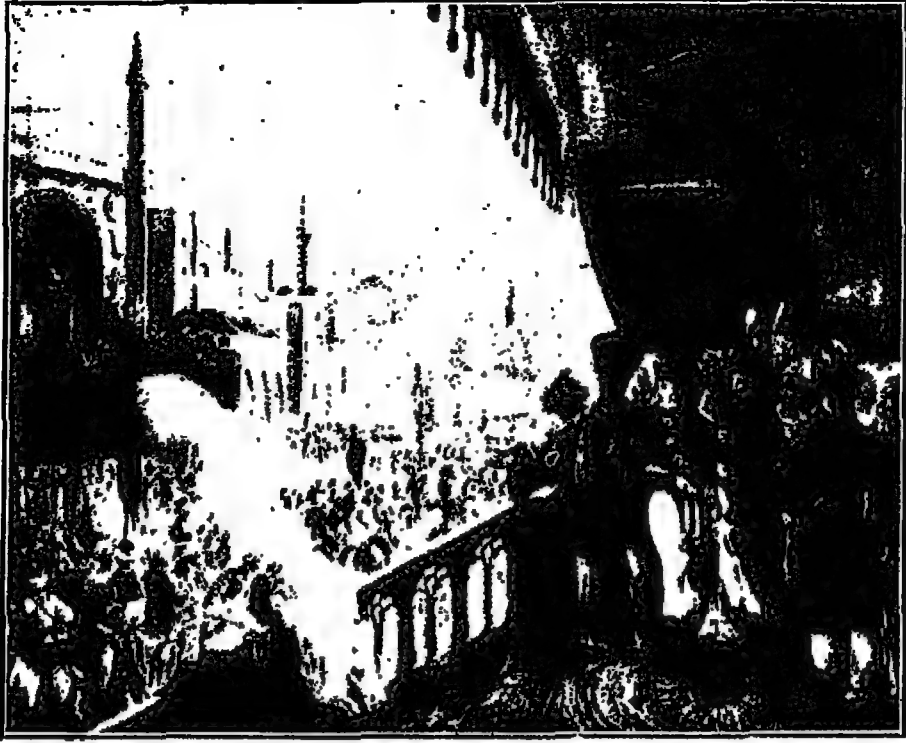
فى أن هذه الفتنة كانت من أشد ما عاناه الفرنسيون منذ هبوطهم أرض مصر . أما فى حصار الأزهر — مركز الثقافة الإسلامية — فإن خسارة المصريين باغت من الفداحة ما بلغته خسارة المماليك فى موقعة الأهرام .

== المشايخ على التسليم وذهبوا إلى نابليون يستعطفونه فعفا عنهم بعد أن وبخهم أشد توخيخ . ثم دخلت فرسان الفرنسيين إلى محن الجامع الأزهر وكسروا قنابله ومحووا ما على جدرانها من الآيات القرآنية . وفى يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر خرج الناس للصلاة فإذا بالخیل تهاجمهم . وفى صباح الأربعاء بعث المشايخ يطلبون من بونابرت اخراج الخيل من الجامع فرفض طلبهم إلا إذا جاؤوه بزعماء الثورة . ثم جعل يقتص من كل من تقع عليه الشبهة رجالاً ونساء حتى قتل من المشايخ ١٢ دفعة واحدة ووضع جثثهم فى أكياس ألقامها فى النيل وصمم على اتباع الصرامة مع المصريين ومنع المشايخ من المباحثة فى الديوان وحصر عملهم فى بث المنشورات بين الشعب لتهذبة ثائرتة .

وهكذا تبين لأول مرة ان المصريين يقاتلون من أجل غاية وطنية ظلت منذ ذلك الحين حجر الزاوية في حركتهم القومية .
أجل أن مصر قد خضعت فيما بعد ، ولكن كان لا يزال على نابليون أن يحسب حساب الامبراطوريتين البريطانية والعثمانية . نعم كان في وسعه التغلب على كل منهما بمفردها ، أما وقد تألبتا عليه فقد كانتا فوق طاقته على التحقيق . ولم تجد السياسة البريطانية — وهى التى عرفت بالجنوح دائماً إلى التقلب مع الدول الأخرى دون أن تغنى عناية خاصة



نابليون وحاشيته يحتفلون بمولد النبي وكان المشايخ قرروا عدم اقامة الاحتفال لعدم وجود المال فأعطاهم نابليون ٣٠٠ ريال وأمر باقامة الاحتفال كالمعتاد واشترك فيه الجنود الفرنسيون وأحرقوا الصواريخ أمام دار البكرى والذى قلد فى ذلك اليوم فروة وتقلد نقابة الاشراف باختيار حلفائها — أية صعوبة فى أثارة نخوة الأتراك وتحريضهم



بونابرت يحضر حفلة وفاء النيل



بركة حديقة الازبكية من جهة الجنوب قبل تجفيفها وهي من بعض الاصلاحات التي عني بها الفرنسيون



نابوليون يحتفل بعيد الجمهورية في القاهرة

على استرجاع أخصب ولاية في امبراطوريتهم في (سبتمبر سنة ١٧٩٨).
ولمذ خيل إلى نابليون أنه سوف يقاتل الأتراك وخدمهم شرع من فوره
في غزو سوريا (مارس سنة ١٨٩٩) والزحف على الاستانة . وفي يافا
قتل أحد الجنود الفرنسيين من حاملي الراية البيضاء فذبح ألف من
الاسرى الاتراك انتقاماً لهذا العمل مما صبغ الحملة الفرنسية بوحشية
كانت على التحقيق سبباً في هزيمة الفرنسيين في نهاية الأمر . ثم اجتاحت
يافا ولكنها اتقمت من الجيش الفرنسي بتفشي الطاعون بين صفوفه (١) .

(١) تلخص قصة قتل حامية يافا في أن بونايرت عند ما وصل المدينة أمر بمهاجمتها
في ٤ مارس سنة ١٧٩٩ وكانت حاميتها أخلاطاً من الأتراك والمغاربة والأرناطة
والأكراد. فلما اخترقوا أسوارها تتبعوا حاميتها إلى أن أعلن الأرناطة ومنهم تتألف أغلبية =



الشيخ السادات هـ

وبدا الهجوم على عكا حيث
كان يقم أحد الممالك المدعو
« أحمد الجزار » وهو رجل طالماعات
في البلاد السورية فسادا . وهنا
تدخلت في الأمر قوة بريطانية
البحرية بوصول عمارة السير سدني
سميث التي كانت تحاصر الاسكندرية.
فان « الجزار » بعد أن كادت
موارده أن تنضب قد زود بالمؤن

الحامية . نحن نسلم لكم أنفسنا إذا أمتمونا على حياتنا ، فوعدهم أركان حرب بونايرت
بهذا . فاستسلموا فقادهم موثقين وعددهم ٤٠٠٠ حتى أتى بهم المعسكر الفرنسي . فلما
راهم بونايرت قال للقادم « ماهذه الجماهير ؟ » قال « هي حامية المدينة قد سلمت وجئنا
بهم إليك » قال « ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعتمدكم زاد يكفيهم أو مراكب
تنقلهم إلى مصر أو فرنسا وإذا أرسلناهم في البر فن يتولى خفارتهم ؟ »

فأجابه قائلا « إنا قبلنا تسليمهم حقناً للدماء » فقال بونايرت « نعم يجب أن تفعلوا
ذلك ولكن مع الأطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الأشداء
المجندين » . ثم أمرهم بالجلوس مكتوفي الأيدي أمام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا
عليهم شيئا من البقساط الجاف والماء .

وعقد نابليون مجلساً في خيمته للتفكير في أمر الأسرى وبعد عدة جلسات وكثير
من التردد قرر إعدامهم جميعاً . وفي ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ خرجوا بهم بعد الظهر إلى
الصحراء خارج يافا وقسموهم فرقا وأطلقوا عليهم الرصاص فقتلوه جميعاً . فلما بلغت
هذه الفعلة مسامع « الجزار » في عكا صمم على الاستبسال في القتال خوفاً من أن يصيبه
مثل ما أصاب أهل يافا .

هـ في سنة ١١٩٩ هـ جاء الجيش التركي وهزم الممالك فجمع القائد التركي قبطان باشا
أمتعتهم ونساءهم وعرضهم للبيع في قصر العيني . وهنا تصدى له الشيخ السادات فنهذه من بيع
النساء قائلا : « قد أرسلت اليك المعاقبة إبراهيم بك ومراد بك وليس لهلك شرائتنا والطعن في
عادتنا فاستثنى قبطان باشا المحظيات الحوامل من البيع . ولما جاء نابليون مصر استدعى
الأعيان ومنهم الشيخ السادات فأهداه خاتماً من الماس .



جيش ديزيه يصل الى أسوان متعباً جنود مراد بك وهو آخر ما وصل اليه الفرنسيون في الصعيد



حيفا وخليج عكا

وأرسلت إليه النجيدات والضباط الذين شرعوا في تنظيم خطط الدفاع. وفي الوقت نفسه اجتاز جيش تركي نهر الأردن وأخذ يهدد مؤخرة الفرنسيين. فكر عليه نابليون بمساعدة قائديه كبير وجينو وهزمه في موقعة جبل كابور واستولى بعد ذلك عنوة على أسوار عكا (ابريل سنة ١٧٩٩) ^(١).

ولكن عكا كانت آخر ما وصل اليه نابليون في سبيل إنشاء إمبراطوريته الشرقية لأنها (عكا) رأت أن لا يخلص لها من الكارثة التي حلت بيافا من قبل إلا بالمقاومة العنيفة. وقد استبسل الأهالي في القتال حتى طردوا الفرنسيين من داخل المدينة بعدما أضناهم قتال الشوارع. وإذا فشلت الهجمة الرابعة عشر رفع الفرنسيون الحصار بعد أن فتك فيهم الطاعون شرفتك وأصبحوا مهددين بجيش تركي جديد. ولم يكن الفشل وحده نصيب نابليون بل خدشت سمعته أيضاً لأن حنقه الشديد على الانجليز دفعه إلى

(١) بعد أن قل نابليون حامية يافا قصد إلى عكا حيث كانت قد تحصنت تحصيناً منيعاً بهمة واليها أحمد باشا الجزائر وهو الرجل الوحيد الذي كان يعتمد عليه الباب العالي في سوريا. ثم أمر بونابرت بتسيير الجنود إلى المدينة. وكانت عمارة السيرسدي سميت قد زادت الجزائر تمسكا بالدفاع. وفي ٢٠ مارس سنة ١٧٩٩ بدأ القتال واستبسل الجزائر واستنجد بقوات صيدا ودمشق وحلب بينما كانت المدرعات الانجليزية تشد أزره.

وضرب بونابرت الحصار على عكا وأرسل بعض جنوده إلى صفد وصور وطبريا وغيرها فعادوا بالخيرات والمؤونة. ثم وصلت المدرعات الفرنسية من اسكندرية ومعها المئون. وفي يوم ٩ مايو وهو اليوم الخمسون للحصار هجم الفرنسيون هجوماً عاماً ولكن الحامية بمساعدة العمارة الانجليزية والنجدة التركية بقيادة حسين بك، صدت هجومهم هذا وهجوم اليوم التالي. فانس بونابرت من فشله هذا وخرجت عليه المدن السورية الأخرى وانضمت إلى الباب العالي. ووزع السر سميت منشورات على مشايخ لبنان يستفزهم فيها ضد بونابرت مما حملهم على الكف عن توريد البارود والخبز للفرنسيين. وهنا قرر نابليون العودة إلى مصر وهو يسحب ذبول الانكسار.

رفض اقتراح سدنى سميث بترحيل الجرحى الفرنسيين وعددهم ١٢٠٠٠ وأن يؤثر تركهم تحت رحمة الأتراك الذين أفنؤهم على بكرة أيهم . على أن قائديه « لان » و « مورات » ماعتما أن أنقذاه مرة أخرى بانتصار باهر أحرزاه فى جهة أبى قير (١٤ يوليو سنة ١٧٩٩) بجيشهما البالغ عدده ٦٠٠٠ ضد جيش الانكشاريين وكان يباغ ١٨٠٠٠



معركة أبو قير ٢٥ يونيه سنة ١٧٩٩

وبعد استيعاب الصحف التى حرص الانجليز على ارسالها إليه بمهارة سياسية قرر نابليون العودة إلى فرنسا . وفعلأ أقلع إليها فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ بصحبة معظم قواده تاركا زمام الأمور لكبير^(١) . ولكن مصر

(١) بعد عودة بوناپرت من حصار عكا تسلم رسائل عديدة من فرنسا باضطراب الحالة فيها والحاح من مجلس الديركتوار بعودته حالا الى باريس . فكتم بوناپرت الامر عن رجاله ماعدا الاميرال غاتوم الذى كلفه باعداد بارجتين لنقله . ولكيما لا يشتبه المصريون فى الامر عاد الى القاهرة فى موكب الظافرين ثخرج الاعيان الى لقائه تصحبهم الموسقى . وبعد قليل نزل الى الاسكندرية متظاهراً برغبة التجول فى الوجه البحرى ثم كتب =

وامبراطورية الشرق ظلت إلى آخر أيامه متسلطة على عقله وكثيراً ما علقت



الجنرال كليبر

أحلامه بحراس الممالك
وبالجياذ العربية والدسائس
الشرقية كما أنه كان بعد ذلك
يقرب إليه كل من اشترك
معه في الحملة المصرية (١)

وكانت عكا هي خاتمة
المشروع المصرى من حيث
علاقتة بأوربا. ولعلها كانت
أيضا خاتمة في مصر لو لم
ترفض الحكومة البريطانية
إبرام اتفاقية العريش (٢٤)

== إلى كليبر واليه على الغرية يوليه القيادة العامة على مصر وبين له وجوب المحافظة على
الاحتلال خيفة أن تأتي دولة أخرى فتختطف ماجته فرنسا من الثمار ووعدته بارسال
نجدة اليه من فرنسا وأسر اليه بالسبب الذى دعاه الى ترك مصر بهذه السرعة وكتب
الى جنوده يأمرهم بالطاعة كليبر وأوهمهم بأنه سيعود من فرنسا بعد ثلاثة أشهر .
ثم عهد بقيادة الاسكندرية الى الجنرال مينو . وفى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ قرر السفر
من الاسكندرية فركب جواده وسار بمن معه الى جهة العجى فزل هو ورجاله
الى البارجتين حوالى الساعة العاشرة مساء فاقلعتا بهم فى صبيحة اليوم التالى عائدين الى
فرنسا .

(١) للوقوف على ما خطر بعد ذلك من الاحلام الخاصة بالفتوحات الشرقية راجع
كتاب فاندال المسمى « نابليون واسكندر الاول » المجلد الاول باريس سنة ١٨٩١ وكتاب
دريو المسمى « سياسة نابليون الشرقية » باريس سنة ١٩٠٤ وكتاب رولوف المسمى « سياسة
نابليون الاول الشرقية » وبارما سنة ١٩١٦ .

يناير سنة ١٨٠٠) التي وضعها سيدنى سميث ونص فيها على ترحيل الجيوش الفرنسية في السفن التركية . فأدى هذا الرفض إلى إطالة أجل الاحتلال الفرنسي مدة أخرى . وفي هليو بوليس (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) هزم ١٠٠٠٠ ر ١٠ جندى فرنسى نحو ٨٠٠٠٠ ر جندى تركى ونشبت في القاهرة بعد ذلك فتنة أخرى اخمدت بعد حصار أسابيع بشدة مصحوبة بهدر دماء غزيرة، ولعل ثورة مصر وقتئذ كانت تدل على ما في نفوس الأهليين من حرارة . وكأتما شاءت المقادير أن تحدث في ذلك الحين مأس كالتى حدثت بعد ذلك بقرن كامل إذ أن أحد الطلبة الأزهريين اغتال كبير ذلك الجندى الصلب الرأى الشديد الوطأة . وأخيراً أعادت السلطة والأدارة الفرنسية الأمور إلى مجاريها واستأنف المصريون من عاشوا بعد الفتنة أعمال التبويب وجمع الآثار^(١) . وقد ولى الأمر مينو

(١) لما كانت الحوادث التى انتهت بانسحاب الفرنسيين من مصر وما تلا ذلك من ظهور محمد على باشا الكبير على جانب عظيم من الاهمية رأينا أن نجمل ما ذكره عنها صاحب كتاب « تاريخ مصر الحديث » ، فى ما يلى « المغرب » ،

بعد انسحاب بوناپرت من مصر

كان بوناپرت يرمى بحملته على مصر أن تأخذ شكل احتلال دائم . ولكن كبير كان على عكس هذا الرأى تماماً ولذا لم يتردد بعد سفر نابليون فى أن يصارح ولادة الامور فى فرنسا بجملة الامور فكان عما قاله ، إن أعداء فرنسا فى مصر لا يقتصرون على الممالك بل قد انضمت اليهم تركيا وانجلترا وروسيا هذا بينا القوات الفرنسية هبطت الى نصف ما كانت عليه وهم متفرقون فى أنحاء البلاد تنقصهم المعدات والملابس هذا فضلا عن خسارة ١٢ مليون فرنك بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بأمر بوناپرت . ولئن كان الممالك قد تشتتوا فلا ينبغى اغفالهم من الحساب كلية لان مراد بك مايزال فى الصعيد مع قوة كبيرة ، هذا بينا الصدر الاعظم يسير لمحاربتنا فى حملة عظيمة . وقد غادر دمشق الى عكا . ثم ان حصوننا ضعيفة وافضل ما أراه مخاينة الباب العالى لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علت أن عمارة عثمانية رست . أمام دمياط . »

وانصرف كبير الى الاصلاحات برغم انه كان يستصوب الانسحاب من مصر =

المسلم فجعل باكورة أعماله وضع نظام يتضمن المصالحة والتساهل مع

== نهائيا . وكانت تركيا قد أرسلت صدرها الاعظم يوسف باشا في جيش كبير وحشدت .
في الوقت نفسه عمارة لمراقبة عمارة السير سدن سميت بحرا . فرست العمارة العثمانية
في دمياط وأخرجها الفرنسيون منها .

ولما قدم يوسف باشا الى يافا بدأ بمفاوضة كليبر فأسفرت المفاوضات عن اتفاقية
الغريش ٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ ولكن الاتراك عبثوا بها في ٢٣ ديسمبر ودخلوا العريش
بما جعل كليبر يعنف السير سميت على هذا العمل .

اتفاقية العريش الاولى

ثم عقد مؤتمر ثان في العريش في ٢٤ يناير وأسفر عن معاهدة العريش وتقضى
بانسحاب الفرنسيين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وأبي قير فقرنسا .
ولشد ما كان ابتهاج كليبر والفرنسيين بهذه الاتفاقية كما ابتهاج بها الشعب والممالك
وكان من أثرها أن الممالك المعسكرين في أقاصى الصعيد عادوا بأسرهم وذرائعهم الى
القاهرة بينما الصدر الاعظم كان يسير قاصدا العاصمة . فلما وصل الى بليس خرج
العلماء والمشايخ باذن كليبر لملاقاته وتقديم فرائض الطاعة لجلالة السلطان .

نقض الاتفاقية

وبينما كان كليبر وجنوده يعدون العدة للرحيل من مصر اذا بالسير سدن سميت يبعث
إليه كتابا يتضمن نقض الاتفاقية بنا . على أمر تركيا ومطالبة الفرنسيين بتسليم أنفسهم
وسلاحهم كما يفعل أسرى الحرب مع التخلي عن كل ما لهم من المراكب والمؤن في الاسكندرية .
فاستشاط كليبر غضبا وأعد العدة لاستئناف الكفاح واتهم الانجليز بنقض الاتفاقية
وطلب الى جنوده الاستبسال في القتال قائلا لهم — كما يرى في الصورة المنشورة في
صفحة ٥٣ — « لستم تملكون في مصر الا بقعة الارض التي تقفون عليها فان تقهقروا
خطوة واحدة حق عليكم الفناء » .

ثم اصطدم بجنود الصدر الاعظم وقهقروا الى الصالحية هذا بينما ناصيف باشا قائد
جيش الصدر الاعظم تمكن من دخول القاهرة هو وبعض الممالك فاستثاروا الاهالى
وحدثت مذبحه . وتمكن كليبر بعد عودته الى القاهرة من تسكين الحال بعد معارك شديدة
اختلف في أثنائها ناصيف باشا وأمر كليبر أن ينادى في الناس « وما النصر الا من عند
الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالصبر . وعليه فان الصارى عسكر يعفو عن
أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموما ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » ==

الشعب . ولكن هذا الرجل الثابه البدن ما كان ليحتمل أن ينجح برغم شوقيته المصطنعة أكثر مما نجح من جاء بعدهم بقرن كامل من الأحرار

ولما كف الناس عن القتال أمر كبير بتظيف الاسواق ورفع جثث القتلى من الطرق العامة والحارات وانارة المدينة ثلاثة أيام احتفالا بالنصر وأعد للعلماء والمشايخ وليمة نفحة . وجعل يعنفهم على خيانتهم فأجابه الشيخ المهدي : « اننا لم نأت خيانة وما كان اتحادنا مع الاتراك الا بأمر منك . »

ولما علم مراد بك بانتصار الفرنسيين جاء الى ضواحي القاهرة للانضمام اليهم ومالبث أن اجتمع بكبير وتعاهدا على الاتحاد وتهاديا الهدايا الفاخرة وكافأه كبير على صداقته بأن عينه واليا على مصر العليا .

مصرع كبير

ولما اطمان بال كبير من ناحية مصر وخاصة بعد اتحاده مع الممالك انصرف من جديد الى أعمال الإصلاح . وفي ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ دعاه أركان حربه الجنرال داماس الى تناول الغداء في داره بأول شارع بولاق قرب الازبكية . وبعد الغداء خرج كبير مع مهندس الحملة المسيو بروتين يتمشيان في الرواق الممتد من بيت الجنرال الى ديوان الجيش . وبينما هما يتحادثان فاجأهما من آخر الرواق رجل في ثياب خلقة شاهر اخنجره ، فطعن كبير في صدره فصرخ مناديا الحرس . وما كاد يهجم عليه بروتين حتى طعنه كما طعن كبير . حتى اذا سقط المهندس الى الارض عاد الرجل الى كبير فطعنه مرتين حتى أجهز عليه . ولما سمع ضجيج الحرس اختبأ خلف الحائط ثم اخفى . ولم يجد الحرس الا هذين الرجلين يتخبطان في دمهما فعادوا بهما الى الدار ولكن كبير فاضت روحه في الحال . أما المهندس فقد ظل أياما تحت العلاج .

وانطلق المنادون في المدينة ينادون بالقبض على القاتل ومالبث أن قبض عليه فعرض على المهندس بروتين فتعرف عليه .

ولما أخذت أقواله اعترف بأن اسمه سليمان الحلبي وقد التقى به أحد الانكشارية في القدس وكان قد ذهب اليها للبحث عن رجل يقتل كبير . فطاوعه سليمان على تنفيذ رغبته في مقابل أعفاء أبيه من الضرائب الفادحة التي يتقاضاها منه والى الولاية . لجأ به الى غزة وزوده بكتاب توصية من أغا غزة الى علماء الازهر . ثم برح سليمان غزة في ٨ مايو ووصل الى القاهرة في ١٤ منه ونزل في بيت مصطفى أفندي ليلة . ولما تمشى بعض العلماء وفتحهم في الامر أبوا مشاركته في الجريمة ولكنه ظل يتربص بكبير =

البريطانيين في أمثال هذه المداعبات . وفي الواقع يوجد تشابه غريب بين



الجنرال كليبر يخطب في جنوده ويستحثهم على القتال

تجارب الفرنسيين في حقبة الحرب هذه وبين تجاربنا فيما واجهنا من الكوارث في خلال الحرب العالمية بحيث يصعب على الإنسان ألا يصدق

== الى أن سنحت الفرصة المؤاتية . ثم عين الجنرال مينو لفحص القضية وصدر الحكم باعدام ثلاثة من المشايخ لتقصيرهم في التبليغ عن نية القاتل بعد معرفتها . أما سليمان نفسه فقد حكم عليه بالاعدام على الخازوق وكان اعدامه هو والمشايخ الثلاثة بعد دفن القائد كليبر .

من مقتل كليبر الى انسحاب الحملة الفرنسية

|| وعين الجنرال عبد الله مينو قائدا عاما بدلا من كليبر وولد له غلام اسماء سليمان ==



سليمان الحلي قاتل كبير

أنه وجد في مصر منذ قرن
روح وطني يقظ بالرغم من
أنه لم يتجل بشكل معين .

وسرعان ما انتهت
التجربة الفرنسية بانزال تجريدة
انجليزية بقيادة أبركرومبي في
الاسكندرية قوامها ١٦٠٠٠
جندى فالتحمت بجيش مينو
في موقعة كانوباس ودحرته .
ولكن أبركرومبي نفسه سقط
قتيلا وجرح السير جون مور .
وتلت ذلك معارك عديدة
كانت فيها الحرب سجالا بين

== ولما كانت إنجلترا ما فتئت تعمل على اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها
في الهند فقد أرسلت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ سفينة و ١٦٠٠٠ جندى بقيادة السير
رلف أبركرومبي فوصل الى أبي قير في ٢ مارس سنة ١٨٠١ وشاهد ، ثار العاصفة الفرنسية
التي حطمها الاميرال نلسون . ومالبث الانجليز أن نزلوا الى البر واصطدمت طلائعهم
بحامية الاسكندرية بعد أن انضمت اليها حامية الرحمانية . وفي ٤ مارس وصلت العماره
الانجليزية . وفي ١١ منه احتل الانجليز أبا قير وهاجوا الاسكندرية . فاسقط في يد
مينو وبرح القاهرة في ١٢ منه قاصدا الى الاسكندرية فلم يصلها الا في ١٩ وكان الانجليز
قد تحصنوا بجوارها أشد تحصين .

وفي ٢١ مارس هجم مينو برجاله على الانجليز حوالى الساعه ثلاثه صباحا ولكن
الانجليز كانوا قد أعدوا للامر عدته . فدارت معركة حامية وارعد الفرنسيون ولكن
الجنرال أبركرومبي أصيب بجرح قتال لم يمهله الا بضعة أيام وتولى قيادة العماره
الجنرال هتشنسون .

الفريقين. وأخيرا وبعد مفاوضات معقدة سلم الجيش الفرنسي في القاهرة سلاحه (٢٧ يونه سنة ١٨٠١) وسلم بعده بشهرين جيش مينو في

== وارتاح الفريقان الى يوم ٢٥ منه حيث وصلت للانجليز نجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا. ومن ثم ذهبت قوة انجليزية بقيادة الكولونيل سينسر فاحتلت بور سعيد بعد أن استنجدت حاميتها بالجنرال ييليار في القاهرة فاعتذر بقله جنوده فاستغاثت بمينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع. ٢

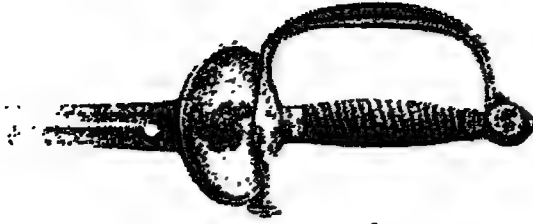
واصبحت الجيوش الفرنسية مقسمة الى قوات لا تقوى على الدفاع. فالجنرال ييليار في القاهرة وقوته تبلغ ٥٠٠٠ وهو يتأهب لصد القوة العثمانية الراحفة على القاهرة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا. وحامية الرحمانية وقد خارت قواها بعد سقوط رشيد. والجنرال مينو المحصور في الاسكندرية وقد قطع عنه الانجليز المياه كما قطعوا الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط.

وفي ٨ مايو زحف الاتراك والانجليز بطريق النيل فاستولوا على العطف ثم على الرحمانية. وفرت حاميتها الى القاهرة. فعقد ييليار مجلسا حريا للبت في الامر بعد ما كادت أن تحيط بهم جيوش الاعداء. فهتشنسون من جهة والصدر الأعظم من الجهة الأخرى. وكان هذا قد استولى على دمياط وزحف على القاهرة في ٣٠٠٠٠ حتى عسكر في بليس في ١١ مايو.

وكان مراد بك بعد محالفة الفرنسيين قد ذهب الى جوار ربه فتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسى. فلما علم بقدوم الاتراك والانجليز نقض المحالفة. وبحث المجلس الحربى برئاسة ييليار في الامر من جميع نواحيه. فرأى أن الجيش وهو لا يزيد عن ١٢٠٠٠ نصفهم جرحى ومرضى لا يترك أمامهم الا أحد أمرين. أما السير بهذا الجيش بطريق النيل لملاقاة مينو أو السير الى دمياط باعتبارها صالحة للحصار اذا طال.

ثم حدثته نفسه بمحاكاة كبير وخرج في ٥٠٠٠ مقاتل في ١٦ مايو لملاقاة الاتراك والانجليز ولكن مالبث أن تقهقر أمامهم.

وفي ٣ مايو وصل هتشنسون بطريق فرع رشيد الى الجيزة بينما وصل يوسف باشا من الجهة الأخرى. فلما رأى ييليار نفسه محصورا في القاهرة عقد مجلسا حريا أقر على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أو دمياط. ثم بعث رسولا الى المعسكر الانجليزى وبعد المفاوضة تقرر سحب الجيوش الفرنسية في القاهرة انسحابا قانونيا بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانجليز. وكتبت بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونه ثم أبرمت في ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٥ يوما. ==



السيف الذى أهدها الجبرال ديزيه للمعلم يعقوب



المعلم يعقوب القبطى

الاسكندرية بشروط

تشابه كثيراً شروط

اتفاقية العريش التى لم

تبرم . وقد تضمنت

شروط الهدنة تسليم

«الكتالوج» الفنى والآثار العلمية

أيضاً . ولكن المصلوحين أثاروا

عاصفة احتجاج شديدة كانت

نتيجتها احتفاظ فرنسا بهذه التحف .

أما مصر نفسها فقد أعيدت

إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية

ولكن الجنود البريطانيين لم ينسحبوا

منها إلا بعد أن نشبت حرب أوربية

جديدة فى سنة ١٨٠٣ وتبين وقتئذ

== وفى ١٠ يولية برح ييلار القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ جندى قاصدين الى رشيد على أن يسافروا منها الى فرنسا . وفى ٧ أغسطس ركبوا السفن عائدين الى بلادهم . وفى ٢ نوفمبر عقد مينو ومن معه من الجنود فى الاسكندرية معاهدة الانسحاب وانسحبوا فى خلال الشهر نفسه كانسحاب زميلهم ييلار .

وليس شك فى أن هذه المعاهدة لا تختلف فى شيء جوهرى عن معاهدة العريش السابقة التى عقدت فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ أى بما يقرب من العامين . ولم تكن نتيجة تأخير تنفيذ المعاهدة الاولى الا زيادة سفك الدماء .

وعلى هذه الصورة انتهت الحملة الفرنسية بعد أن لبثت فى مصر نحو ثلاث سنوات ونيف اكدت بالحروب والثورات والفتن . وقد عاد الفرنسيون بخفي حنين تاركين المصريين وهم أشد ما يكونون تمسكا بعقيدتهم الوطنية . وبعد أن فتح بونايرت أعين انجلترا الى خطورة طريق الهند .

ولد لمعلم يعقوب القبطى فى سنة ١٧٤٠ فى ملوى ودخل خدمة سليمان باشا كبير ==

أن الشجار مع تركيا من أجل مصر عمل بعيد عن الحكمة السياسية .
ففي هذا الفصل الأول من قصة مصر الحديثة يرى الانسان كيف
أدركت عبقرية نابليون أهمية مركز مصر من الواجهة الدولية وكيف كان
تشبته بفتحها سبباً في تغير مجرى التاريخ الاوربي فلولم تمنع قوة بريطانيا
البحرية نابليون من إعادة انشاء الامبراطورية اللاتينية الشرقية لما تعرضت
الحضارة الاوربية في القرن التاسع عشر لهزة قيام الامبراطورية الفرنسية
الفجائی ولا لعبء تدهور الامبراطورية العثمانية البطيء .

وقد قال نابليون بهذه المناسبة وهو في منفاه في جزيرة القديسة
هيلانة « لو أتت استوليت على عكا لوصلت إلى الأستانة ولأُست
أسرة فيها » . ولعله كان من سوء حظ انجلترا ومصر وأوربا جميعاً أنه
أخفق في مشروعه هذا .

على أن ما أحدثه نابليون من الفراغ سرعان ما امتلأ بمجازف آخر
نهج منهجه واحتذى حذوه الا وهو محمد على ^(١) الذي أجمع المؤرخون

== الانكشارية لجمع ثروة عظيمة وقد حارب إلى جانب مولاه وكثيراً ما دخل في
المنازعات والحروب التي وقعت بين حزب مراد بك وجيش قبطان باشا سنة ١٦٨٦
ولهذه الصفات الحرية والادارية دخل يعقوب في خدمة الفرنسيين بعد نزول بونايرت
الى مصر . فالتحق بجيش الجنرال ديزيه وأبدى من ضروب البسالة ما جعل الجنرال
يقلده سيف الشرف ثم دعاه كبير لتظيم مالية البلاد . ثم تسلم قيادة الفرقة القبطية بوظيفة رئيس
ثم صار مستشارا لمدير الايرادات العامة وأخيرا منحه الجنرال مينو رتبة جنرال مساعد
لبليار في مارس سنة ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الانجليزية التركية فاصابه
ما أصاب جيش بليار وسلم مع الفرقة القبطية عند تسليم المدينة في يونية سنة ١٨٠١ وغادر
القاهرة مع الفرنسيين إلى فرنسا . والمعلم يعقوب هو الذي وضع مشروع استقلال مصر
وقد وجدت منه نسخة في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم ٧٨ مجلد ٣٨
(١) قد رأيت كيفية انسحاب الحملة الفرنسية من الاسكندرية والآن نقص عليك
باختصار الادوار التي اجتازتها البلاد الى أن ظهر فيها محمد علي ملخصاً عن بعض ==

بلا استثناء على أنه مثنى مصر الحديثة بالرغم من أنه كان في خلقه ونشأته أقرب الى أهل العصور الوسطى . وقد حقق للامة المصرية المتنبلة — كما

== المصادر العصرية وأخصها كتاب « تاريخ مصر الحديث » « العرب »

قد تسلم يوسف باشا الصدر الأعظم زمام الحكم في القاهرة باسم جلالة السلطان ومساعدة الجنرال هتشنسون بينما ظل حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية حاكم الاسكندرية . وعسكر الانجليز في مصر القديمة بينما عسكر بقية المماليك تحت زعامة كبيرهم عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالنى في الجيزة .

ودبر الصدر الأعظم وقبطان باشا مكيده للتخلص من المماليك وأرهمهم بأعداد ولية لهم في أبى قير فلما لبى المماليك الدعوة مالبثوا أن أدركوا الشرك الذى نصب لهم فحاولوا الفكك منه ففجأ البرديسى واثان آخران وقتل بعض الزعماء هذا في حين أن الصدر الأعظم في القاهرة أرسل من رجاله من هاجم المماليك في الجيزة وأحرقوا بيوتهم فالتجأوا الى الانجليز فلم يضتوا عليهم بالحماية .

وانسحب الجنود الانجليز من مصر نهائيا وبقيت البلاد يتنازعها العثمانيون والمماليك ولما كان لابد من تعيين وال فقد اتفق الصدر الأعظم وقبطان باشا على مطالبة الباب العالي بتعيين خسرو باشا واليا على مصر بصفته كخيا قبطان باشا . فلبى الباب العالي طلبهما .

وما أن تولى خسرو باشا حتى حاول القضاء على بقية المماليك وقد أصبحوا تحت زعامة البرديسى والالنى . ولكن محاولته فشلت لان المماليك كانوا أصحاب الكلمة في الصعيد بينما لم يكن يدين للباب العالي بالطاعة سوى القاهرة والاسكندرية .

ولما عجز خسرو عن دفع رواتب الجند ثاروا عليه في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ وأحاطوا بالخازندار في بيته . فامر خسرو بإطلاق النار عليهم فتوسط أركان حربه طاهر باشا في الأمر وحاول حل النزاع بالحسنى . ولكن خسرو اتهمه بمالأة الثائرين . فاغتاظ طاهر وانضم الى العصاة فعلا وأمرهم بهدم الأسوار . فاستولى الرعب على خسرو وفر بحاشيته وأسرته على ضفة النيل الشرقية الى المنصورة ومنها الى دمياط . وإذ ذاك خلا الجو لطاهر باشا فجمع القضاة وأعضاء الديوان فاخثاروه قائمقام على مصر الى أن بيت الباب العالي في تعيين والى بدلا من خسرو باشا .

وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب اثنان من الأغوات وهما موسى واسماعيل يشكوان الى طاهر باشا من تأخر مرتباتهما فاخذ يعنفهما فلم يطيقا على ذلك صبرا . فلما اشتد الخصام بينهما استلا سيفيهما وقطعا رأسه وألقياه من النافذة واشعلا النار في القصر ==

حقق من قبل معاصراه منشأ أمتي الصرب واليونان - أول مرحلة في سبيل السيادة الوطنية ، الا وهى الانفصال الإدارى عن الامبراطورية العثمانية . إلا أنه اختلف عنهما فى أنه لم يكن من أبناء الأمة الجديدة ولذا



المعلم يعقوب ومعه اثنان من كبار الطائفة القبطية كانت سياسته شخصية أكثر عما كانت قومية وكان مثله كمثل نابليون عند ما طمح إلى اتخاذ مصر قنطرة لايجاد امبراطورية شرقية . لأن القاهرة كانت عاصمة الخلافة إلى أن نقاهما السلطان سليم إلى الاستانة . فلم يك ثمة ما يحول سياسياً وجغرافياً دون اتخاذها - بسبب اشرافها على البرزخ بين آسيا وأفريقيا ولتحكمها فى المواصلات البحرية بين أوروبا وآسيا - بدلا من الاستانة المشرقة على البرزخ بين أوروبا وآسيا والمتسلطة على الممر البحرى بين الامبراطورية الروسية وأوروبا . ولكن محمد على لم يكن يطمح حتى إلى هذا ولا كان اهتمامه بمصر ليلغ إلى هذا الحد . وأغلب الظن أنه لو استطاع فتح الاستانة لجعلها كما أراد أن يجعلها نابليون مركز امبراطورية جديدة هناك بدلا من القاهرة .

== وهكذا انتهى أمر طاهر باشا صديق محمد على على يدى الهذيين الاغوين لا كما ذهب اليه المستر يانج .

وهنا أصبحت مصر بلا وال فساحت الفرصة لمحمد على ليحتل القلعة برجاله ومن ثم بدأ نجمه فى الصعود وأخذ نوره يفيض على هذا القطر الذى مزقه الخلافات كما مر بك .

وقد فشل محمد علي في الوصول إلى الاستانة كما فشل سلفه نابليون
وللسبب عينه . وكان محمد علي كلما قارب الاستانة ازداد مركزه في مصر
حرجا وازدادت معارضة انجلترا له اشتداداً . على أنه كان أدنى إلى النجاح
من سلفه لأن جيوشه وصلت فعلاً إلى الاستانة بينما لا تزال ذريته ملوكاً
مستقلين يجلسون على عرش مصر . أما تعليل نجاحه بالرغم من نقص
استعداداته إذا قيست باستعدادات نابليون فيرجع إلى ثلاثة أسباب
رئيسية : أولها أنه كان مسلماً صميماً ولم يك مجرد أحد المتشيعين للإسلام
كما كان شأن نابليون . ثانياً أن الدول والباب العالي كانوا جميعاً منهمكين
إبان زحف محمد علي في الكفاح النهائي للتخلص من نابليون . ثالثاً أن



ارناؤوط محمد علي

محمد عليا اكتسب ثقة المصريين وتأيدهم .
ويلوح أن ماروي عن مخاطرات محمد علي
لم يراع فيه ما أصابه من التوفيق في توحيد
صفوف الشعب وجعلها كتلة مترابطة
خلفه تمهيداً لإنشاء دولة مصرية مستقلة
عن الباب العالي وعن الدول . فمن أجل
هذا يصح أن يقال أن مصر الحديثة
أوجدت محمد علياً بقدر ما أوجدتها هو .

وكان محمد علي كبقية المصلحين الحديثين في الامبراطورية العثمانية من
مسلمى مكدونيا . وقد كان أبوه من رجال الأرانطة . وكان مولده في «قوله»
في سنة ١٧٦٩ فغنى الباشا التركي بنشأته وشرع يدربه على أساليب الإدارة
التركية^(١) . وقد ألبى أحسن بلاء في جباية الخراج وأصاب بعض الثروة من

(١) لعل القارى قد لاحظ في كتاب المستر يانج أن المؤلف قد أجمل في شرح
بعض الشؤون التي يهم المصريين الاطلاع على تفاصيلها واسهب من الناحية الأخرى ==

الاتجار بالتبغ . ثم ما عثم أن ألحق بخدمة خسرو باشا الذى صار فيما بعد من ألد أعدائه وقد وفق إلى قيادة إحدى الفصائل الالبانية . ولما كان

فى بعض المواقف التى لا تغنيهم كثيراً ، ولذلك رأينا أن تفصل بعض ما أجمله ليكون الكتاب الحالى صورة صحيحة لتاريخ مصر فى العصر الحديث .

ولما كانت نشأة محمد على مؤسس الأسرة العلوية وسيرته المجيدة الباهرة وكيفية تغلبه على خصومه إلى أن أصبح والياً على هذا القطر الذى أصبح منذ ذلك الحين يتظلل برعاية هذه الأسرة الكريمة بميامهم المصريين جميعاً الاطلاع عليه قد رأينا أن نقبس مرة أخرى عن « تاريخ مصر الحديث » الترجمة الآتية : « المغرب »

محمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية

١٨٠٥ - ١٨٤٨

نشأته وشيئته

ولد محمد على باشا فى مدينة قوله من أب اسمه إبراهيم أغا وكان له من الأولاد سبعة عشر وقد توفوا جميعاً ما عدا صاحب الترجمة . وفى سنة ١٧٧٣ توفى الوالد وزوجته تاركا محمداً علياً وله من العمر أربع سنوات .

وسرعان ما كفله عمه طوسون أغا ولكنه قتل بعد ذلك فأصبح الغلام يتيماً . ثم كفله « جربتجى براوسطة » صديق أبيه فلبث بين أولاده وأهله يتعلم ما يتعلمه الصغار فى ذلك الزمان وأن كالألعاب السيف والجريد وغيرهما حتى إذا بلغ أشده انخرط فى سلك الجهادية تحت إدارة مريه . فأظهر فى جباية الضرائب ضروباً شتى من المهارة والبسالة جعلت جربتجى يرقيه إلى رتبة بلوك باشى ويؤوجه إحدى السيدات ذوات الحطام والنشب . فترك الجهادية وتعاطى التجارة وخاصة تجارة التبغ باعتبارها أروج السلع وأكثرها انتشاراً فى بلاده . وأغرم بالتجارة وبرع فيها حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظيمة لدى عملائه وهذا سر عنايته بها وتشجيعه إياها عند ما ولى أمر مصر فيما بعد .

وظل يزاول التجارة حتى سنة ١٨٠١ عند ما صمم الباب العالى على إخراج الفرنسيين من مصر بمساعدة إنجلترا . فبعث اليهم عمارة حسين باشا قبطان كما بعث لهم تجريدة « الصدر الأعظم » على نحو ما مر بك .

وكان محمد على بين رجال العبارة وقد تجند فى جملة من تجند فى براوسطة بصفته معاوناً لعلى أغا من مريه على ثلاثمائة جندي البانى (أرناؤوط) . ولما وصلت العبارة إلى أنى قير وهزمها الفرنسيون عاد على أغا إلى بلاده تاركا تحت قيادة محمد على الذى كان قد ترقى إلى رتبة ييكاشى .

الجنود الالبانيون بمثابة السلسلة الفقيرة في الجيش العثماني وهم الدعامة التي كانت سلطة الأتراك في مصر ترتكز عليها ، فقد كان من يتولى قيادة

== وأخيراً تمت للعثمانيين بمساعدة الانجليز الغلبة على الفرنسيين وشرعوا يهتمون بتوطيد سلطة الباب العالي في البلاد .

وكان بين رجال التجربة العثمانية جماعات من الأرتناقووط والانكشارية والغليونجية ففرقت هذه الجماعات لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . أما الانجليز بقيادة هتشنسون فظلوا في الاسكندرية ريثما يولى الباب العالي والياً عثمانياً يكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال . فعين الباب العالي محمد خسرو باشا وكان في الأصل من عماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . وكانت معه أوامر سرية باعدام المماليك بأية وسيلة فشرع في محاربتهم وكانوا في الصعيد فاستغاثوا بالفرنسيين فلم يغشوهم .

محمد علي وخسرو باشا

وعادت حملة خسرو من الصعيد بالفشل . ثم حاربهم مراراً في أماكن مختلفة وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى إلى رتبة « سر ششمة » وأصبح قائداً لأربعة الاف من الالبانيين . فأمره خسرو بمد حملته ، ولكن محمداً علياً وصل بعد أن كانت حملة خسرو قد دارت عليها الدوائر . ونسب قائد هاهزيمة إلى تأخر وصول محمد علي لحقده خسرو عليه وأصر على إعدامه سرا . فطلب اليه بموافاته في منتصف الليل لمباحثته في بعض الشؤون الهامة فأدرك محمد علي الحيلة ورفض الدعوى .

ورأى محمد علي أن ينجو من اشراك خسرو بالاتحاد مع المماليك . وتمكن بواسطتهم من ارغام خسرو على الفرار إلى دمياط وعين بدله طاهر باشا . ولما قتل هذا احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والى الشرطة يطلب الولاية ولكن المماليك أخرجوه من القاهرة ذليلاً وسار الجميع متحدين إلى دمياط فأسروا خسرو وجاءوا به إلى القلعة حيث حجروا عليه .

ولما بلغ الباب العالي ما حدث في مصر ولى عليها علي باشا الجزائري فلما وصل القاهرة بدأ يكيد للمماليك ولمحمد علي فإلبث أن دارت الدائرة عليه .

الآل في والبرديسى

وكان النزاع على أشده بين الآل في والبرديسى وكان أولهما محبوباً لدى الانجليز وقد سافر إلى انجلترا فعلا . فلما عاد إلى مصر حاول البرديسى الكيد له ولكنه سافر إلى الصعيد . وما كاد يخلو النجو للبرديسى في القاهرة حتى أثار محمد علي ضده الجنود الالبانيين فطالبوه بمرتباتهم وجعلوا يتهددونه إلى أن غادر القاهرة إلى الصعيد في سنة ١٨٠٤ ==

إحدى فصائلها يعتبر في الواقع — وإن لم يكن بصفة رسمية — صاحب الكلمة المسموعة في السياسة المصرية .

وما كاد الفرنسيون ينزحون عن الديار حتى بدأت الأحزاب السياسية المختلفة في مصر تتشاجر فيما بينها على الزعامة . وكانت الأحزاب وقتئذ ثلاث شيع : الماليك والألبازون والأتراك . وكانت إنجلترا تؤيد الحزب الأول بينما كانت فرنسا تهضد الثاني . أما المصريون أنفسهم فكانوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل كانوا يوالون هذا الحزب حيناً ويشيخون عنه حيناً آخر .

أما الماليك فمع ذهاب هيبتهم ظلوا محتفظين بأبهرتهم وبعددهم كاملة . كذلك كان لهم نفوذهم السياسي نظراً لاستيلائهم على الأراضي من جهة ونظراً لما ورثوه من الجهة الأخرى من الكفاية السياسية من عنصر الخرز الذي كان منه معظم زعمائهم ولكن سطوتهم كحزب قائم بنفسه كانت في حكم الانتهاء . لأن الخرز كانوا بغضين إلى المصريين . وقد كان مما يدعو إلى

== وبقرار هذين الأميرين خلا الجو لمحمد علي وأصبح مستقلاً عن الماليك ومساعدتهم فرأى الاستعانة بالأتهاى على تحقيق أمانيه الأخرى . فجمع العلماء والمشايخ وقرروا الافراج عن خسرو باشا وإعادته إلى منصبه . ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً أخرج بعده إلى رشيد ومنها إلى الأستانة .

خورشيد باشا

ثم أشار محمد علي بتنصيب وال عثماني فواققه العلماء على فكرته واختاروا خورشيد باشا وكان وقتئذ في الاسكندرية على أن يكون هو (محمد علي) نائباً عنه في الأحكام بصفته قائم مقام . وأرسلوا إلى الباب العالي يسترحمونه بأقرار ما أبرموه فأجاب طلبهم بفرمان مؤرخ في مارس سنة ١٨٠٤

وشرع محمد علي في القضاء رويدا رويدا على قوات الماليك في عدة نواحي القطر إلى أن أصبحوا لا يزيدون عن ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ فارس بينما أخذت مالتهم في التدهور ==

الدهشة أن السياسة البريطانية اختارت هذه الارستقراطية الفانية لتكون حليفة لها . أما الشخص الذي رشحه الانجليز ليكون « باشا » مصر فقد كان من أشد بكوات الممالك جشعاً وأكثرهم جأً للرياسة الا وهو ألفي بك وقد حدثنا «دياباستي» في كتابه (الحوادث التاريخية المجلد الثامن) أن ألفي كان يمتاز بالكشك المتقل الذي كان يحمله في أسفاره وتشبيده قصرأ فخماً في القاهرة ليهدمه فيما بعد على أن يعيده بعد ذلك سيرته الأولى مرة أخرى وقد تركت أبته هذه أثراً كبيراً في دوائر لندن حتى أنه تألفت شركة لتمويله مؤقتاً . ولكن محمداً علياً أصدر الأوامر وأنفقهم في ضم الألبانيين إلى جانبه وإقصائهم عن خسرو «باشا» مصر وقتذاك (مايو سنة ١٨٠٣) . وفي الوقت نفسه أغرى الضباط الألبانيين بقتل طاهر صديقه ومنافسه الوحيد . ولا حاجة بنا إلى الاسهاب في تفصيل ما قطعه محمد علي من المراحل للانفراد بحكم مصر . وقد يستحسن أن نجمل هنا ما قام به من جلائل

= وكان الجنود الألبان مطيعين لمحمد علي بما أدخل الهم والحسد في قلب خورشيد وجعله يستقدم جندا من الدلاة أو المغاربة ليكونوا عدته إذا جد الجدد . واتفق ان كان محمد علي في الصعيد منهمكا في مقاتلة المماليك فأدرك مراد خورشيد فعاد إلى القاهرة مما جعل خورشيد يتوجس منه خيفة . وأخذ الدلاة يعيشون في البلاد فسادا حتى ضج الأهلون بالشكوى لخورشيد على غير طائل . فلما طفق الكيل أخذ العلماء والمشايخ يفكرون في التخلص من خورشيد ومغاربته وعقد الولاية لمحمد علي .

وفي يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ورد لمحمد علي مكتوب شريف بولاية جدة فألبسه خورشيد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وهو يعلل نفسه بقرب التخلص منه . ولما أخذ محمد علي يتأهب للخروج إلى جدة إذا بالجنود تجتمع لتطالبه « بالعودة » فقال لهم « هاهو الباشا طالوه بها » . وتولى عنهم عائدا إلى داره في «الزبكية» بالقرب من أو تيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا حبا له بقدر ما ازداد كرههم لخورشيد باشا .



ساكن الجنان محمد علي باشا منشىء الاسرة العلوية

الأعمال للتخلص من مزاحمة الرئيسين . فلقد كانت قد تمت له قيادة القوة العسكرية الوحيدة التي كان يمكن الاعتماد عليها ألا وهي الفصيلة اللبنانية ولكن لم تكن تمت له بعد السيطرة على الحزب السياسي الوحيد الذي يعتد به الا وهو حزب المالك . فرأى أن يكلف البرديسي زعيمهم بمضاعفة الضرائب ليتسنى دفع مرتبات اللبنانيين . فثار أهل القاهرة عليه فهدأ محمد على ثورتهم بأن أمر البرديسي برد أموالهم إليهم . وبعد أن أصبح بعمله هذا بطلا محبوباً من الشعب طرد البرديسي ومن معه من المالك وحل هو محلهم . فمال الأتراك ازدياد نفوذه هذا فأمره بمغادرة مصر هو ومن معه من اللبنانيين ولكن سرعان ما أثار فتنة جديدة اضطرب معها الوالي الجديد « خورشيد باشا » الى سحب هذا الأمر . على أن خورشيد دبر حيلة لابتعاد محمد على عن القاهرة بأن كلفه الخروج لمقاتلة المالك في الأرياف . ثم انتهز فرصة تغيبه واستولى على العاصمة بمساعدة

وبعد أيام ثلاثة ذهب رهط من العلماء والمشايخ الى دار محمد على منادين بصوت واحد « لا تقبل خورشيد واليا علينا » فقال لهم « ومن تريدون إذن ؟ » فقالوا « لا نريد أحداً سواك » فظاهر أولاً بالامتناع وجعل يكرر لهم النصيح بالاذعان والتزام السكينة فلما ازدادوا إلحافاً واصراراً لم يسعه إلا القبول . فأحضروا له الكرك والقفطان وألبسوه إياهما وبعثوا الى خورشيد بأن يغادر القلعة فأبى لحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بما أجمعوا عليه من الرأي . فورد فرمان بولاية محمد على بتاريخ ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وب عزل خورشيد الذي سرعان ما غادر القلعة راجعاً الى الاستانة .

رواج الدسائس لخلع محمد على

على أن المالك وعلى رأسهم ألقي بك لم ينفعوا عن الدس لمحمد على . وقد حاول زعيمهم أن يغري انجلترا بالتدخل في شؤون البلاد للتخلص من محمد على ووعداها بوضع مفاتيح القطر في يدها اذا ارتاح باله من هذا المزاحم الخطير . فراحت تلح على الباب العالي بارجاع سلطة المالك الى البلاد ضامنة أمانة الألق وخضوعه لأوامر الدولة . فأصنى الباب العالي لاغرائها وعفا عن المالك باسم كبيرهم الألق . وكان ذلك =

فصيالة من الجنود الأكراد. ولكن هؤلاء الجنود كانوا قساة القلوب غلاظ الأباد لهم وجوه هي أشبه بوجوه الطيور الجارحة وسرعان ما جعلوا أهل القاهرة يترحمون على أيام الالبانيين مستعبدتهم السابقين. وقد ذهب وفد للطالبة بارجاع محمد على إلى العاصمة فأجيب إلى طلبه. ثم طلب عزل خورشيد وفعلا انتخب محمد على والياً مكانه. فحاصر خورشيد في القاعة ولكن هذا الأخير صدرت الأوامر باستدعائه واحتل محمد على القلعة في (أغسطس سنة ١٨٠٥) ثم صدر فرمان بجعله والياً على مصر. وقد أعلن هذا وسط الهتاف والسرور العام (نوفمبر سنة ١٨٠٥) وسرعان ما انقلب هذا الهتاف إلى رضى صادر من أعماق القلوب عند ما افتتح محمد على أعماله بحل مشاكل الدولة المالية بالاستيلاء على أملاك الأقباط الذين أثروا أثراً كبيراً بعد أن كانوا يقومون للمماليك بوظيفة جباية الضرائب واقراضهم النقود.

== في غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ وبعد أسبوعين وصلت عمارة عثمانية نقل موسى باشا واليا على مصر ومعه خط شريف إلى محمد على بالانتقال إلى ولاية سلا نيك وإعادة المماليك المصريين إلى مراكزهم في الامارات والأحكام.

على أن محمداً علياً صمد للامور بحزمه المعروف لجمع العلماء والمشايخ وبعض المماليك الذين انضموا اليه واستكتبهم كتاباً إلى الباب العالي بالتماس بقاء محمد على واستدعاء موسى باشا وأرسلوا نسخة من هذا الكتاب إلى قائد العمارة التي جاءت بموسى باشا. ولكن القائد رفض الكتاب وأصر على اخراج محمد على باشا. وهنا سعى سفير فرنسا في الاستانة حثيثاً وما زال بقبطان باشا حتى أقنعه بوجوب بقاء محمد على. فأرسل إلى العلماء يكلفهم بتكرار الطلب وارساله مع ابراهيم بك بن محمد على. وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ أقلت العمارة إلى الاستانة وعلى ظهرها قبطان باشا وموسى باشا و ابراهيم بك. وفي أواخر هذا الشهر أى في نوفمبر سنة ١٨٠٦ وردت ارادة شاهانية بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر مع عدم التعرض للمماليك. وفي الشهر التالى مات عثمان البرديسى. وفي ١٩ القعدة سنة ١٢٢١ مات محمد الآلى واذا ذاك تولى شاهين بك رئاسة المماليك. ولكن شوكتهم أخذت في الضعف والانحلال وبدا خلا الجو لمحمد على.

وكانت الامبراطورية العثمانية بحيث أنه إذا سهل على أحد تجار التبغ أن يصير والياً لأحدى الولايات في خلال سنوات قلائل لم يكن من السهل عليه الاحتفاظ بهذا



المركومة ستة أشهر. لأن قبطان باشا ما لبث أن جاء ذات يوم تصحبه عمارة تركية ويحمل في جعبته فرماناً شهنياً بنقل محمد علي إلى سلاطيك. ولكن أهالي الاسكندرية والقاهرة أظهروا شدة تمسكهم به مما جعل الباشا يقنع بأخذ رشوة قدرها

محمد علي يسير في شوارع القاهرة بعد توليته الحكم

الانجليز يقاومون محمدا عليا

== على أن الحكومة البريطانية ما لبثت أن رأت في تثبيت محمد علي باشا مساساً بمصالحها في مصر فجدت حملة من ٨٠٠٠ جندي بقيادة الجنرال فريزر لاعادة سلطة المماليك وكانوا قد تشتموا في طول البلاد وعرضها. فوصلت التجريدة الى الاسكندرية في ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ واستولت على المدينة بعد بضعة أيام ومكثت فيها زهاء ستة أشهر لا تستطيع التقدم خطوة واحدة الى الامام. ثم أرسلت فرقة منها الى رشيد فانتقض عليها الارافطة ومزقوها شر ممزق وجاءوا بالاسرى الى القاهرة.

وفي يوم ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ بويح السلطان محمود الثاني بالخلافة بدلا من السلطان مصطفى. وسرعان ما انسحبت الحملة الانجليزية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) ==



صورة المعلم جرجس الجوهري

... كيس وهى الشطر الأكبر من
ثروة المدعو جرجس الجوهري
المالى القبطى وأحد الزراع الذين
يؤدون الضرائب وقد سبق أن جرده
محمد على من أملاكه . ويدل هذا
العمل على أن الاستانة لم يكن يهمها
من أمر القاهرة سوى الحصول على
نصيبها من سلب مصر واعتقادها
أن مجال الربح فى عهد محمد على قد
يكون أوسع مما كان فى عهد المماليك .

وبعد أن توصل محمد على إلى اتفاق عملى مع الأتراك وجه اهتمامه
إلى تخليص مصر من الانجائز وهم الذين كانوا مايزالون يمدون بأموالهم
زعيمى المماليك البرديسى والآلفى فى غزواتهما ، الأول فى الصعيد والثانى
فى الدلتا . ومن الغريب أن الزعيمين المذكورين توفيا فى ساعة واحدة
« بعسر الحضم » كما قيل . فلم يبق الانجائز بعد ذلك إلا أن يعتمدوا فى
القتال على أنفسهم . وقد حاولوا مفاجأة الاستانة بعمل جرىء ففشلت
محاواتهم . وإذ ذاك تصد الفيس أميرال لويس ثغر الاسكندرية ومعه
قوة عسكرية صغيرة بتابع ٤٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر (١٧ مارس

من مصر بعد عقد اتفاق الصلح مع محمد على الذى رضى عنه جلالة السلطان وأدخل
الاسكندرية ضمن ولايته .

وتوسط بعضهم فى الصلح بين محمد على وبين المماليك فتم ذلك وجاء شاهين بك
الى القاهرة يحمل الهدايا كرمه محمد على وشيد له قصرا فى الجزيرة وتبودلت الزيارات
مع المماليك .



سنة ١٨٠٧) ولكن المماليك في
الدلتا كانوا قد تشتت شملهم كما
تقهقر من كان منهم في الصعيد إلى
أسيوط . ومع ذلك فإن الانجليز
أنزلوا جنودهم إلى البر واحتلوا
رشيد . ولكن سرعان ما أرغمت
حاميتهم على تسليم سلاحها بينما أجهز
محمد علي في ميدان القتال على باقي
الجملة وقتل نصف رجالها . ثم ساق

ساكن الجنان السلطان محمود

إلى سوق الرقيق في القاهرة نحو ٥٠٠ من الأسرى وسط عواميد خشبية
علقت فوقها خمسمائة من رؤوس القتلى الانجليز . وأخيراً جلا الانجليز عن
الاسكندرية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) وعقدوا مع مصر صلحا
منفرداً . وهكذا فإن محمد علي الذي ساعد الانجليز في سنة ١٨٠١ على قهر
الفرنسيين تمكن الآن وبدون أية مساعدة من أن ينزل بالانجليز خزيا
لا يذكر بجانبه منازل بالفرنسيين من قبل . ومنذ ذلك الحين أصبح يلعب
بجانب الاسلام وهازم الأجانب الذين دوخوا الأتراك والمماليك من قبل .
ولكن السيادة البحرية جعلت هذه الهزيمة عديمة الأثر في الموقف الأوربي
العام فلم تعرف أنبأوها في الخارج بسبب الحصر البحري . ولقد حدثنا
« دريو » عن هذه التقارير التي كان يبعث بها قناصل فرنسا في مصر فيما
بين ابريل و اكتوبر سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تفقد بل هي بلا شك محفوظة
في هويت هول .

والآن وقد خلا بال محمد علي من كافة أعدائه فقد رأى أن يتخلص
أيضاً من العدو الأخير ألا وهو المماليك الذين لم يطردوا نهائياً من الصعيد

إلا في سنة ١٨١٠ ، ولما كان محمد علي قد اعتزم بعد ذلك أن يخرج في إحدى غزواته في بلاد العرب فقد عقد نيته على الاجهاز أيضاً على المماليك جملة واحدة بصفتهم حزياً^(١) ، فأرسل يدعو رؤسائهم ويبلغ عددهم ٤٠٠ للحضور إلى القاهرة لمشاهدة الحفلة التي سوف تقام بمناسبة رحيل

(١) مذبة المماليك من الحوادث التي كان لها أثرها في تاريخ مصر ولذا رأينا أن نبين تفاصيلها .

مذبة المماليك

ما كاد الأمر يستتب لمحمد علي في مصر حتى بدأ ينظم شؤون البلاد الداخلية وينشئ جيشاً محترماً قوى العدد والعدد . وبينما هو ماض في اصلاحاته إذا بالسلطان محمود يكلفه بارسال تجريدة عسكرية إلى شبه جزيرة العرب لقمع الحركة الوهابية التي كانت قد استفحلت وعظم خطر هاجتي أصبح يخشى منها على كيان الامبراطورية العثمانية نفسها . فصدع محمد علي بالأمر وأخذ في اعداد المهمات اللازمة للحملة التي تقرر أن يرسلها تحت قيادة ابنه طوسون باشا .

بيد أنه فكر في أمر المماليك وخشى على أمن البلاد منهم فيما لو سارت الحملة قبل أن يفرغ من أمرهم ولذا بيت رأيه على اهلاكم جميعاً قبل مسير الحملة . وأنت تعرف أن المماليك بعد أن اضمحل شأنهم كانوا قد قنعوا بالتمتع بأرزاقهم وملتكاتهم وتفرقوا في أنحاء القطر فمنهم من سكن الصعيد ومنهم من أقام في القاهرة . وكان زعيمهم شاهين بك قد أذعن لمحمد علي وتصافيا فأقطعه محمد علي أرضاً بين الجيزة وبنى سويف والفيوم فالتجأ إليها .

أما قواد الحملة المراد تسييرها ضد الوهابيين فقد غادروا القاهرة في فبراير سنة ١٨١١ وعسكروا في الصحراء بالقرب من قبة العزب ولبثوا ينتظرون اتمام تجهيز الحملة ومعها طوسون باشا .

ثم تحدد يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله إلى قبة العزب ونادى المنادون في المدينة معلنين ذلك الخبر ودعى الأعيان والوجهاء ومن ضمنهم المماليك لمشاهدة حفلة الوداع وطلب إليهم الحضور بالملابس الرسمية .

وفي اليوم المحدد وهو يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ احتشد الناس عند القلعة وحضر شاهين بك في جمع من مماليكه فبالغ محمد علي في استقبالهم والترحيب بهم .

التجريدة العربية (فبراير سنة ١٨١١) ولكن ابراهيم زعيمهم المسن كان أحرص من أن يترك حصنه في بني سويف ، بل كان أشبه بالشعلب المذكور في الخرافة . ذلك أنه اكتفى بارسال الرد مصحوباً بقائمة بأسماء من جرتهم خطواتهم إلى عرين الأسد . ولكن شاهين الشاب خليفة ألفى بك خدع بأمل العودة لرؤية مباحج القاهرة بصحبة حاشيته وعددهم ٤٠٠ من البكوات ، فبالغ محمد علي في استتباعهم في القلعة وتقدم لهم أقذاح القهوة وأكب على مباسطتهم بأطيب الحديث والسمير . ثم بدأ الموكب بعد ذلك

== ثم أدبرت أقذاح القهوة . ولما حانت الساعة المعينة أمر محمد علي بالمسير فصار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين الممالك إلى الورا . يحيط بهم الفرسان والمشاة . ولما اقتربوا من باب العزب وهو أحد أبواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي أمر محمد علي فأغلقت الأبواب وأشار إلى الجنود الألبان (الارناؤوط) فجمعوا بغتة على الممالك فذعروا وحاولوا الفرار بالتسلق على الصخور ولكنهم أخفقوا في هذه المحاولة لأن الألبان كانوا أسبق منهم فقتلوا عليهم غرضهم لتعودهم على تسلق الصخور . أما المشاة فقد اقتحموا مؤخرة الممالك وفتحوا عليهم وابلا من الرصاص فحاول هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق أخرى ولكن تعذر عليهم ذلك لصعوبة المسلك على الخيول ، ولما ارتج عليهم ترجل بعضهم وحاولوا الفرار سعيًا على الأقدام والسيوف مشهرة في أيديهم . ولكن الجنود تداركهم بالرصاص من النوافذ فقتل شاهين بك أمام ديوان صلاح الدين . ثم نودي في المدينة بطلب القبض على الممالك وكان كل من جىء به إلى القلعة يلقي حتفه في الحال .

وبلغ عدد من دعى من الممالك إلى الولية : ٤٠٠ لم ينبج منهم إلا اثنان أحدهما أحمد بك زوج ابنة ابراهيم بك الكبير وكان متغيباً في إحدى القرى . والثاني أمين بك وقد حضر إلى القلعة متأخراً فانتظر عند باب العزب ريثما يخرج الموكب . فلما أغلقت الأبواب وسمع إطلاق الرصاص أدرك الحيلة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والشائع على الألسن أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فلما نشبت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة بالرسم المذكور في (ص ٧٣) . ولكن الاقرب إلى الحقيقة أن هذه الاشاعة مبالغ فيها ==



أمين بك المملوك الشارد

== ثم نودى فى الأسواق بأن شاهين بك زعيم المماليك قد لقي حتفه وراح الناس ينهبون بيوت المماليك .

وفى اليوم التالى نزل محمد على من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة آمرا الناس بوقف النهب وانذار من يخالف الأمر بالقتل . وقد قتل فى ذلك اليوم ٢٣ من بكوات المماليك عدا مئات من قتل منهم فى الأقاليم .

ونزل طوسون باشا فى اليوم التالى إلى الأسواق ومعه بعض الجنود لتسكين القلوب ووقف حركة النهب بينما دفن قتلى المماليك فى حفرة حفرت لهم فى القلعة .

فسار فيه الممالك وسط صفين من الألبانيين والآتراك حتى وصلوا إلى
درب لافكاك لداخله . وهنا أطلق الجنود النار عليهم فاستبسل بعضهم
وخلعوا معاطفهم وحايهم وصمدوا للقتال إلى أن خروا مضرجين
بدمائهم بينما تلقى البعض الآخر ما حل بهم بجلد ووقار وقد وافاهم حتفهم
وهم في الصلاة وهكذا قتلوا على بكرة أبيهم . وبينما كان هذا يجري هنا
طاحت رؤوس ألف منهم في القاهرة وفي الأرياف وانهت قصورهم .
ألا ان للشرق حقا طريقته المختصرة الناجعة للتخلص من الطبقات الحاكمة التي
ينزلها القضاء عن كراسي الحكم ! وقد دخل على محمد علي وهو في مخدعه الخلفي
طبيه الخاص فألفاه ينتظر وصول الأبناء فحياء بقوله : دإن هذا اليوم
حقاً ليوم جليل الشأن لسموكم . فلم يرد محمد علي إلا بأن طلب قدحاً من
الماء دون أن يفوه بكلمة واحدة لأن الرجل لم يكن يوماً رجلاً أقوال بل
رجلاً أفعال .



محمد علي بعد مذبحه الممالك

وبعد أن تم إبعاد الفرنسيين والبريطانيين والأتراك والمماليك عن مصر لم تبق فيها إلا سلطة أجنبية واحدة هي الجنود الألبان الملتفون حوله. وسنرى فيما بعد كيف أنه تخلص منهم بدورهم بمجرد أن أصبح في وسعه أن يحل محلهم أورطا مصرية وسودانية. ولقد أدم محمد على خدماً جليلاً أخرى لا تقل عن سابقتها بأن خلصها بسرعة وبلا مجهود شاق من المخاطرين الأغراب ممن كانوا قد توطنوا فيها. وهؤلاء الأغراب مع أنهم لم تمتد إقامتهم في مصر بصفة طبعات مختلفة، ومع أن الباشوات الأتراك



خروج موكب محمد على باشا من القلعة

والمماليك وحثالة الشراكسة والباشبوزق الألبان لم يكونوا في البلاد بعد ذلك كطبقات تتنازع السلطة فيما بين بعضها وبعض، فإن من ظل من بقاياهم على قيد الحياة سرعان ما اندمجوا في بعض لتكوين طبقة حاكمة جديدة. لذلك صار زمام الحكم فيما بعد في السياسة المصرية بيد أوتقراطيين يستندون أولاً إلى تعاضيد طبقة أرستقراطية شرقية نسميها للسهرولة الأرستقراطية التركية، وقوامها الطبقات الوسطى من الأرمن واليهود والأقباط. وسنرى

أنه بمعرفة أخلاق من جاء فيما بعد من الساسة المصريين ينبغي أن نعرف بالضبط إلى أي عنصر من هذه العناصر كانوا ينتمون مع العلم بأن الناس كثيراً ما يسمون أهالي جورجيا بالجرأكسة مع أنهم في الواقع عنصران مختلفان أخلاقاً وكفاءةً.

وقد اعتاد الناس أن يعزوا إلى محمد علي أنه مدن مصر على النمط الأوروبي . ولا ريب في أنه استغل التجارب الأوروبية — بقدر ما كان



زوجة محمد علي باشا وأم إبراهيم باشا تصل إلى مصر آتية من قوله يفهمها — لتعزيز مركزه وتوطيده . ولكنه ظل مع ذلك أوتقراطياً اسيوياً كما أن نظام حكمه كان شرقياً بحتاً اللهم إلا إذا استثنينا العنصر الشعبي الوحيد وهو حق التصويت على النمط الاسيوى — وهو عدم إقامة العراقل في سبيل الاتصال بالحاكم وعرض الأمر عليه . ولذلك

تعلم محمد على القراءة والكتابة العربية فيما بعد ليكون على اتصال مباشر بأرباب الحاجات . وقد قال عن نفسه مرة « ان الكتب الوحيدة التي تهمنى مطالعتها هي وجوه الناس وهي لا تخدعنى أبداً » . وكان يتكلم التركية باعتبارها لغة الطبقة الحاكمة . ثم أنه كان شديد التمسك بفضائل ونقائص الجنس الألبانى وهو الجنس الذى مد أوربا بعدد من رجالها السياسيين . وكان من حيث التعصب كالأتراك سواء بسواء يضاف إلى ذلك أنه كان يمتق العرب كعنصر ويحتقر الأقباط من أجل دينهم .

أما الدستور الذى أدخله فى سنة ١٨٢٦ فلم يكن شيئاً آخر عدا الديوان المعروف بعد أن أعيد تنظيمه فصار فى وقت واحد مجلساً للدولة ومجلساً خصوصياً ومجلساً للوزراء^(١) . ولقد خفض عدد المديريات إلى ١٢

(١) ليس من المستطاع طبعاً أن تأتى على كل ما قام به هذا العبقري النابغة من الإصلاحات وجلاتل الاعمال ولكن هذا لا يمنع من الإشارة هنا الى بعض تلك الإصلاحات ونبدأ بحديث الإصلاح الادارى تلخيصاً عما كتبه مؤلف « تاريخ مصر الحديث »
الإصلاح الادارى

فبعد أن دانت لمحمد على الامور شرع فى انشاء الدواوين ومنها ما يسمونه ديوان المعاونة وكانت مهمته النظر فيما تعرضه عليه الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات . ثم يأتى بعد ذلك ما يسمونه بالديوان الخديوى وكانت مهمته خاصة بأعمال ديوان الداخلية والخارجية والضابطة . وأنشأ بعد ذلك ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة كما أنشأ ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفيتش والحفانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس . وقد عهد رحمه الله بادارة معظم هذه الدواوين الى مديرين أو رؤساء مصريين وكانت جميعها ترجع فى أحكامها الى الديوان الرئيسى وهو ديوان المعاونة . وأنشأ للقضاء مجالس ونظم البريد وقضى بحمله برا على يد السعاة وبواسطة السفن بحرا . وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة أبنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة مع جعل المسافة بين البناء والآخر قصيرة ليتسنى فهم الإشارة .

وصارت بمثابة حكومات. ولكن المدير وصاحبه المأمور لم يكن بينهما وبين لقبيهما الفرنسيين الجديدين وهما الحاكم ومدير الشرطة أى شبه مطلقاً. وكان الموظفون العاملون هم عين الموظفين الوادعين الذين لاغنى للإدارة عنهم ألا وهم الأقباط. وقد ظلت الحكومة كما كان العهد بها من قبل أى حكومة مالية تضائية. أما النظام المالى فقد سار سيرته المألوفة من قبل أى بالكرباج الممزوج أحياناً بالبقيش. وليس ريب فى أن إحدى مزايا النظام الجديد الكبرى كانت أن حل محمد على واحد محل عشرين من المماليك.

على أن المعاهد السياسية إذا كان لم يطرأ عليها تغيير ما فإن الشؤون الاقتصادية قد أدخلت عليها تجديدات مهمة. فارتكنا على قواعد النظام الإسلامى القديم الذى لا يميز بين ما هو ملك للفرد وبين ما هو ملك للمجموع ولا بين ما هو نصيب المنتج من المكسب وبين نصيب الدولة منه، كان محمد على نفسه المالك الاسمى الوحيد والزارع دافع الضريبة الوحيد والتاجر الوحيد الذى كان يعامل الأجانب. وهكذا تحول نتاج البلاد وممتلكاتها إلى يد الحكومة التى أحلت لنفسها حق الاشراف عليه.

والعجيب أن هذه الثورة الاقتصادية التى لا يوجد ما يشابهها فى الأزمان الحديثة إلا ما هو حادث فى روسيا الشيوعية الآن لم تحدث إلا استناداً إلى أصح تعاليم الشريعة الإسلامية. ولا نقصد بهذا أن محمداً علياً كان يسمح بأن تقف تلك التعاليم فى سبيل تحقيق غاياته العلمانية. خذ

== أما الامن العام وتوطيده فقد أنشأ له فرقة الضابطة ووزعها فى أنحاء البلاد لتأمين السبل. وبذا اطمأن الأجانب على أرواحهم. لابل لقد أصبحت المواصلات التجارية سهلة ومأمونة وخاصة بين إنجلترا والهند عن طريق البحر حتى امتعاضت بها بريطانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح.

مثلا على ذلك أنه أبعد العلماء عن إدارة الأوقاف التي أصبحت فيما بعد ملكا لأفراد أسرته. ومن الناحية الأخرى امتدت يد الاعتداء إلى الممتلكات الشخصية من جهة المبدأ ولكن الاعتداء لم يكن بليغا من الناحية العملية. ولقد صودرت بطبيعة الحال أملاك الممالك الشاسعة. ولكن كل ما كان مطلوباً من أرباب الأتليان الآخرين هو أن يسلبوا إلى الدولة كل ما تمتلكه أيديهم فتعوضهم عنه بملك قيم جديد يدفعون عنه إيجاراتها جداً. وقد ظل للنواحي زمامها ومسحت الأرض مسحاَ عاماً من جديد مما ترتب عليه تحديد زمام كل قرية على أن يوزع العمدة هذا الزمام بين الأهالي.

وكانت النية متجهة بادية ذى بدء الى استخدام ما يتجمد من هذه العملية التجارية من الأرباح في سبيل استمرار التحسن الزراعى والصناعى. ولكن الشؤون العسكرية التهمت كلها فى النهاية. ولا جدال فى أن الفلاح وهو آمن على ما يمتلكه يداه وعلى حصته فى المحصول كان أيسر حالا بما لو كان يبيع غلته بنفسه ويدفع ما عليه نقداً.

على أن أهم ما قام من المصاعب فى سبيل تسير دقة هذه الدولة الاشتراكية كان فى العثور على الأشخاص الملائمين لهذه الإدارة الجديدة. لأن محمداً علياً لم يحاول أن يمرن أحداً من المصريين ولكنه لجأ فى أعماله التجارية مع الخارج الى الاشتراك مع قناصل الدول الاجنبية الموجودين فى مصر. وبديهي أن من آثار هذه الطريقة انها جعلت مندوبى الدول المحليين طوعاً وبنايه. وقد نصت معاهدة سنة ١٨١٨ المعقودة بين الدول العظمى والباب العالى على ترك تجارة مصر حرة ماعدا بعض مكوس تافهة ظلت على مقدارها الاصلى ولكن محمداً علياً بمساعدة شركائه القناصل ابتكر عدة حيل مكنته بأن يزوج بما لدولته من احتكارات بين سطور المعاهدة.

وغير خاف أن تسميته صناعات جديدة لم يكن بالعمل الهين إذا قيس بالتملص من التعهدات الدولية . فالمصانع التي انشئت لتكون كأمودج ينسج على منوالها كانت منبع خسارة هائلة منذ أنشائها ولو أن هذه الحقيقة لم تدرك بادی ذی بدء لعدم وجود طريقة منظمة لرصد الحسابات . وقد عدل عن المشروعات التي تكلف الخزائنة نفقات طائلة واحدا بعد الآخر لان الحرب كانت تستنفد أموال الدولة أولا بأول . على أن التحسينات الدائمة المهمة قد أدخلت على الزراعة وهي بلا ريب صناعة مصر الحقيقية^(١)

(١) لما كانت أعمال محمد علي في هذا الباب مما يشهد بعبقريته فلنجمل هنا بعض ما قام به رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

الإصلاح الزراعي

كانت بكورة أعمال محمد علي في هذا الباب أنه أمر بمسح كافة الأراضي المنزرعة في مصر وقسمها إلى مديريات وقسم كل مديرية إلى مراكز وأقسام وهذه إلى نواح وعين في كل منها من يقوم بإدارة أمورها هذا عدا من عينهم لجباية الضرائب . وقد وزع أراضي كل ناحية على سكانها وبذا أصاب كل فلاح قادر على العمل نصيباً يقوم بأوده . وجعل لمشايخ البلاد جانباً من الأرض أعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم وما كانت تكلفهم به الحكومة من المهام والشؤون .

وقد رأى بعد أن ارتاح باله من الأعمال العسكرية أن يلحظ الفلاحين بعين رعايته . فعهد إلى ضباط الجيش القدماء بأمر البلاد من الناحية الزراعية وفوض اليهم تعميرها وإصلاحها بأنفسهم . ومع ذلك لم يشأ حرمان الفلاح من ثمرة أتعابه بل قضى أن لا تسلم الأراضي للضباط أو المتعهدين متى كانت رائجة وقادرة على أداء الأموال المستحقة للخزائنة في مواعيدها . أما الاطيان الكاسدة فهي التي تحال إلى هؤلاء المتعهدين باختيار أربابها والمتعهد هو الذي يقوم بأداء المطلوب للحكومة . فراجت الزراعة بهذه الوساطة وتحسنت تحسناً عظيماً وظلت الأراضي في أيدي المتعهدين إلى زمن عباس باشا الأول وهو الذي استردها منهم .

وقد زادت بهذه الطريقة مساحة الأراضي الزراعية في أيامه عما كانت عليه في عهد المماليك . فقد كانت في العهد الأخير لا تزيد عن المليون وبعض المليون فدان ولكنها



يوسف أفندي مدير حدائق شبرا
وهو الذى أدخل زراعة اليوسف أفندي
في مصر فسمى باسمه .

مثال ذلك ان صانعا ميكانيكيا فرنسياً
جىء به لانشاء الانوال فاقترح زراعة
القطن الاجنبى وقد بلغ فعلا ما صدرته
مصر في سنة ١٨٣٨ نحو ٦٠٠٠٠ ر.
بالة . ثم أن أحد الهنود أدخل إلى
مصر زراعة الأفيون والنيلة. ونشط
الأرمن في زراعة تيل القنب الذى
كان يستعمل إلى ذلك العهد كمخدر.
ولكن محمدا عليا خصص الايراد
الناجم من هذا لأسطوله . وقد

== بلغت في عهد محمد علي في سنة ١٨٢١ نحو المليون فدان . على أن الامر لم يقف عندهذا
الحد . بل أخذت المساحة تتسع تدريجاً بما ابتكره محمد علي من الوسائل لتسهيل الري
وشق الترع وأنشاء الجسور والقناطر والسدود الخ . وبهذا بلغت مساحة الأراضى
المزروعة في سنة ١٨٤٠ نحو ٣٧٩١٢٢٦ فدان كما فصله الدكتور كلوت بك في
كتابه عن محمد علي .

ثم رأى خصب التربة المصرية فشرع يزرع فيها المحاصيل التي لم تكن معروفة فيها
من قبل . لجاء إليها بتقاوى القطن الأمريكى ثم نبات النيلة من الهند ونبات الأفيون
من آسيا الصغرى وجاء بالخبراء العارفين بزراعتها وأكثر من غرس الحدائق والاشجار
في القاهرة وضواحيها لتلطيف الحرارة الجو واستزاده للغيث — مثال ذلك مغارس الليمون
في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية مكان البركة المعروفة .

وأنشأ السدود في أبى قير وغيرها من الجهات وشق كثيراً من الترع وعمل على
تطهيرها وأنشأ الترع الصيفية لتنمية الزراعة الصيفية وعهد إلى المهندسين بأعمال الري
وأرسل عدداً من الشبان إلى أوروبا لدراسة فن الزراعة واتقانه .
وليس ريب في أن أهم مشروعاته في هذه الناحية القناطر الخيرية . وقد دفعه إلى بنائها ==
هذه الصورة مهداة للعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



تضاعفت أجور صغار العمال أربعة أمثالها بينما لم ترتفع أسعار الحاجيات إلا قليلا. نعم إن أثمان الواردات تضاعفت بسرعة فبلغ ثمن البن مثلا ضعفي ما كان عليه بينما ارتفع ثمن السكر إلى عشرة أضعافه ولكن ثروة البلاد العامة تضاعفت أيضا بسرعة. خذ مثلا على ذلك أن

ضرائب الاطيان التي بلغت في سنة لبنان باشا دى بلفون مهندس القناطر الخيرية ١٨٢١ نحو ٦٥٠.٠٠٠ ر. جنيه فانها قد بلغت ضعفها في خلال عشرة أعوام من ذلك التاريخ. كذلك تضاعفت إيرادات الجمارك وازدادت أرباح التجارة (١) من ١٠٠.٠٠٠ ر. جنيه إلى أربعة أمثالها في خلال المدة

== ما رآه من ضياع مياه فرعى النيل هدرا. فقرر رشيد تذهب مياهه في أراض غير صالحة للزراعة. بينما فرع دمياط لا تنكفي مياهه لرى الاراضى الصالحة التي يمر بها في أيام التحريق. ثم أن الصعيد تشبع فيه المياه في وقت التحريق لارتفاع أرضه وقد لا تروى إلا في زمن الفيضان. فأمر بإنشاء القناطر الخيرية على عرض فرعى النيل وأن تجعل لها بوابات حديدية تغلق وتفتح عند الاقتضاء. وهي وسيلة لارتفاع مياهها بما يزيد من مياه فرع رشيد باضافته إلى مياه فرع دمياط. ثم إذا جاء الفيضان قليلا أغلقت قناطر الفرعين فترفع المياه في الصعيد فترتوى أراضيه. وفي أيام التحريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض متعطشة إليها.

الاصلاح التجارى

(١) بعد أن كثرت حاصلات البلاد على محمد على بتشيط التجارة ورأى أن لابد من إنشاء ميناء تأوى اليه السفن التجارية فأثر الاسكندرية على دمياط ورشيد وشق فيها ترعة المحمودية نسبة للسلطان محمود الثانى. فعظمت حركة نقل البضائع بين الاسكندرية وداخل القطر وأصبحت لهذه الميناء أهمية كبيرة وقصدها التجار من كافة أنحاء العالم. ثم أصلح مرفأ بولاق وسهل أمام الأجانب سبل التوطن في مصر مما زاد حركة التجارة نشاطا == هذه الصورة مهداة للعرب من سمو الأمير عمر طوسون.



بوغوص بك هـ

الأنفة الذكر أما إيراد الدولة الذي كان في سنة ١٨٢١ دون المليون جنيه فقد أصبح الضعف في خلال العشرة الأعوام التالية ثم بلغ ضعف ذلك أيضاً بعد خمسة أعوام أخرى . على أن ما وضعه محمد علي من نظام محتكرات الدولة أدى إلى تنمية طرق جديدة للإنتاج دون أن يثبط ذلك من المشروعات الفردية (١)

ولم يختل هذا النظام إلا بعد أن ضربت الرشوة أطنابها وبعد أن اضطرت الدولة بسبب ما تكبدته من نفقات الحروب الأجنبية إلى انتهاز الفرص

وقد رأى توطيدا لأعماله التجارية هذه أن ينشئ مجاسا تجاريا مؤلفا من وطنيين وأجانب للحكم في القضايا التجارية .

احتكار حاصلات البلاد

(١) وقد عمل محمد علي على تصريف حاصلات البلاد بنفسه فاحتكر الحاصلات والمصنوعات وتولى بيعها رأسا للتجار السوريين والاوروبيين واليونان والارمن . وكان يتبع حركة الاسعار في الأسواق كسائر التجار فتارة يكون الكسب من نصيبه وطورا يكون بالعكس . وكان يبيع البضاعة تسليم الاسكندرية وينقلها على نفقته بواسطة السفن في وقت الفيضان . وكانت له في بولاق وكالات تخزن الاقطان والسكر والكتان والحناء وعلى تلك المخازن وكلاء لا يسلون منها شيئا إلا بأمر الباشا . وكان يدون أرباحه من هذه التجارة في دفاتر حكومته .

وقد ذكر كلوت بك أن ميزانية سنة ١٨٣٣ بلغ الدخل فيها ٦٢٢٧٧٨٧٥٠ فرنكا منها نحو ١٥٠٠٠٠٠ فرنكا من التجارة وبلغ الخارج ٤٩٩٥١٠٠٠ فرنكا ثلثها لنفقات الجيش وكان من أكبر أعوان محمد علي في المسائل التجارية والمالية بوغوص بك الارمني المتوفى سنة ١٨٤٤ .

هـ هذه الصورة مهداة للعرب من سمو الأمير عمر طوسون .

للعمل بالربا الفاحش. كذلك شرع الفلاح يحدد نتاجه بعد أن هبطت حصته فيه إلى السدس وبعد أن دفع إبراهيم ثمن هذا السدس بدلا من النقود عسلا أسودا رديئا جاء به من مصانع السكر الخاصة به وبعد أن اختلت الموازين وتلاشت الثقة بسبب الغش .

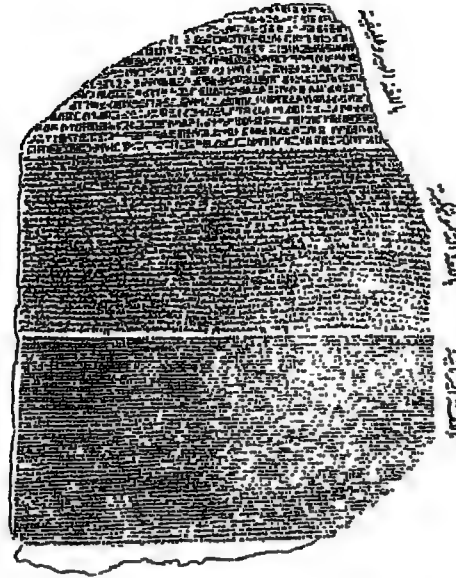
وهذا ما حدا بمحمد على إلى تسخير عمال الزراعة في العمل في مزارع الحكومة وهو حل منطقي يحتمله المصريون بصبر لا تقوى عليه أمة أوربية . ولم يكن محمد على برغم ما أسداه إياه شركاؤه الأجانب من المساعدة في تنمية ما طمحت إليه الدولة من مشروعات تجارية عظيمة موقفا حل التوفيق بل أنه تعرض بين آن وآخر إلى خسائر فادحة. مثال ذلك أنه باع في سنة ١٨١٦ مليون بوشيل من القمح (والأردب يعادل ١٠ بوشيل) بسعر البوشيل ٣ شلن ونصف . على أن عجزه عن تسليم القمح للمشتريين إلا بعد هبوط سعر البوشيل إلى شلن ونصف جعل ربانة السفن يرفضون تسلمه بل تركوه عرضة للتلف على الميناء . ولكن كان النظام على وجه العموم مفيدا للدولة وغير مرهق للفلاح . وكان بين ما أدت إليه من نتائج هذه التجارة التي باشرتها الحكومة شق ترعة المحمودية لتصل نهر النيل بالاسكندرية مما وفر على سفن الغلال مؤونة السفر إلى رشيد للوصول منها بطريق البحر إلى الاسكندرية .

ومن الغريب أن هذه الاشتراكية التي لا تجد حتى في وقتنا الحاضر أى تأييد فى الخارج متى كانت وليدة ثورة شعبية قد استقبلتها الصحف الأوربية منذ قرن مضى أحسن استقبال وعدتها من أكبر آثار ذلك الملك المجازف ولا زلنا نذكر تلك الرنة المألوفة التي كانت تجرى فى البلاغات الرسمية لذلك العهد . خذ مثلا ما كتبه القنصل باركر فى سنة ١٨٣١ اذ قال مانصه : « عند ما هبطت مصر سنة ١٨٢٦ كان من رأى الجميع أن الوالى

لن يظل على العرش أكثر من ستة أشهر أخرى وأنه سائر حتما إلى الخراب بسبب ما يقدم عليه من مشروعات جنونية لا تناسب بتاتا مع موارده. ومع ذلك فإن ما كان يظن وقتئذ أنه مشروعات مستحيلة التنفيذ لم تبلغ ضخامتها خمس ضخامة ما نفذ فعلا من المشروعات منذ ذلك الحين كلا ولا بلغت عظمتها عشر عظمتها ما هو معروض الآن على بساط البحث من المشروعات. ولما كنا والحالة هكذا قد شهدنا إنجاز بعض المشروعات كما شهدنا تقدما كبيرا في سبيل إنجاز البعض الآخر مما كان يعتبر إلى أربع سنوات خلت ضربا من المستحيلات أو حلما من أحلام رجل مسلوب العقل فإن من الانصاف أن نسلم بأننا نجعل كل الجهد مدى ما لدى هذا الرجل من موارد يلوح إلى أنها تكفي لتنفيذ مشروعاته ،^(١)

أما المساعدة الفنية الأجنبية فكان اعتماد محمد علي فيها على الفرنسيين وهم الذين كانت امبراطوريتهم في شمال أفريقيا حتى ذلك الحين عبارة عن مجرد حملة تأديبية موجهة ضد الجزائر بعكس سلطة بريطانيا البحرية التي كانت واقفة على الدوام بالمرصاد عند مدخل مصر الأمامي وهو الاسكندرية ومدخلها الخلفي وهو السويس. ولكن الفرنسيين رغم ذلك كله ما برحوا يهتمون بمصر إهتماما عظيما. فلا تنس علو كعبهم في فن الحرب

(١) لعلك سمعت الشيء الكثير عما أنشأه محمد علي من الصناعات المختلفة التي عفت آثارها مع ما توخاه رحمه الله من إنشاء المعامل واستجلاب الصناع من الاقطار الأوروبية. وكان مما أنشأه معامل عديدة لحليج القطن ونسجه ولتيلة وصنع الطرايش التونسية والورق والغزل وأنواع الاقشة من الحرير والكتان والقطن والصوف ومعامل الاسلحة المختلفة. ، المعرب ،



حجر رشيد

وهكذا صار شمبليون ^(١) أبا المصرا لوجية بدلا من منافسه يانج ، بينما أن

(١) قد رأيت مما مر بك أن بونا برت عند ما هبط مصر اصطحب معه عددا من المصرا لوجيين الذين يرجع إليهم الفضل في وضع أساس نهضة بلاد النيل من الناحية العلمية والثقافية . كذلك رأيت أنهم ظلوا يواصلون أعمالهم في مصر حتى بعد انسحاب الحملة الفرنسية . بقي أن تعلم أن أولئك المصرا لوجيين وجهوا اهتمامهم إلى دراسة اللغة القبطية ليتوصلوا عن طريقها إلى حل الرموز الهيروغليفية . وقد نحا شمبليون نحوهم في سنة ١٨١٨ في دراسة تلك اللغة ودراسة جغرافية مصر القديمة وكل ما كتب قديماً عن مصر والمصريين . وبينما هو جاد في دراسته عثر على الكتابة اليونانية المرسومة على المسلة المصرية التي وجدها بلزوني الايطالي في جزيرة البرية وأرسلها إلى أوروبا لفك طلاسمها . فبين شمبليون أن الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . وبما لفت نظره في الكتابة اليونانية أعلام وأسماء أعلام لا تترجم بينما وجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهيليجي . وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكررا مراراً فحكم بأن النقوش الهيروغليفية المذكورة هي اسم بطليموس . ثم ازداد اقتناعاً برأيه هذا عند ما رأى اسم بطليموس هذا واردا في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدى ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهيليجي كالنقوش التي على المسلة تماماً ==

الكولونيل سيف الذى حاربنا ملاحا فى موقعة الطرف الأغر ثم قاتلنا

ومن ثم أخذ شمبليون يتوسع فى مقابلة النقوش الهيروغليفية بما على المسلة من الكتابة اليونانية مستعيناً بمادرسه من اللغة القبطية إلى أن توصل إلى حل الرموز الهيروغليفية وأصبح هو صاحب الفضل الأول فى حل طلاس تلك اللغة. هذه هى خلاصة ما أورده صاحب «كتاب تاريخ مصر الحديث» .

«المعرب»
وإليك ترجمة ما هو منقوش على الحجر الرشيدى نقلا عن كتاب «تقويم النيل» لمؤلفه
سعادة المربي الكبير أمين باشا سامى .

ترجمة الكتابة التى على الحجر

فى اليوم الرابع من شهر خانيكس من السنة التاسعة الموافق لليوم الثامن عشر من شهر امشير عند المصريين قد صار بطليموس (ايفانيس) الصغير ملكا وظهر بمظهر والده على سرير ملكه وهو سيد البلادين البحرية والقبلىة المتصف بالقوة والبأس المدبر لأمور بلاد مصر المسدى إلى أهلها النعم الكثيرة صاحب الاحساسات الشريفة بالنسبة لآلهة البلاد بما أظهره من علامات الاحترام والتعظيم لها وفعل الخيرات فى معابدها . وهو الذى ظفر بأعدائه وصير الناس سعداء . بما أنه صاحب الأعياد التى استمرت ثلاثين سنة . وقد اختاره الاله (يتاح) (فتاح) وقواه الاله (رع) ولذا ظهر بمظهرهما فى البلاد البحرية والقبلىة . وهو صورة الاله (آمون) وابن الاله (رع) بطليموس ايفانيس دامت حياته محبواً من الاله (فتاح) بن بطليموس وارزينا كاهن الاسكندر والآلهة المدافع عنهم (حورس) الذى أخذ بثأر والده (أوزيرس) .

هذه الكتابة هى صورة محضر كتب بحضور رؤساء كهنة البلاد وحضور كتاب اللغة المقدسة (الهيروغليفية) والكهان المصريين وغيرهم تذكاراً لجلوس الملك بطليموس المحبوب عند الاله (فتاح) على كرسى الملك وحصل اجتماع فوق العادة فى مدينة منفيس وشهد الحاضرون بفضل بطليموس ونوهوا باحترامه للآلهة وافاضته الخير على المعابد وأهل البلاد القبلىة والبحرية . ولذا رأوا من الضروري كتابة هذا المحضر على حجر صلب وأن تكون كتابته بلغة الآلهة (الهيروغليفية) ولغة المكتوبات الاعتيادية (الديموتيكية) ولغة اليونان وان يوضع فى معابد الدرجة الأولى والثانية والثالثة بجوار تمثال الملك بطليموس وبجوار تماثيل كبراء الآلهة .



سليمان باشا الفرنساوى هـ

فما بعد جنديا في موقعة ووتارلو
قد صار اسمه سليمان باشا (١).
فشرع في تنظيم الجيش المصرى
وكاد يزوج بنا في حرب أخرى مع
الفرنسيين .

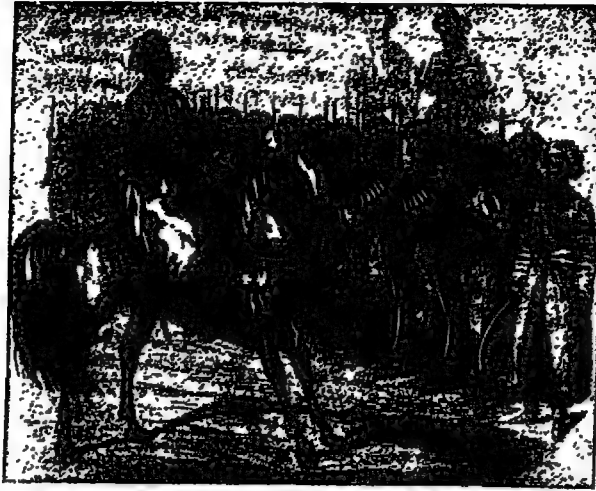
وتمت رجل فرنسى قدير آخر
هو كلوت بك الذى أخذ على عاتقه
القيام بمشروع بعيد المدى وهو

(١) الكولونيل سيف أو الجنرال سليمان باشا الفرنساوى (كما أصبح يعرف بهذا اللقب فيما بعد) هو صاحب الفضل بلا مدافع في تدريب الجيش المصرى على النظام الفرنسى في عهد محمد على . ولا بد قبل الخوض في حديث الكولونيل سيف أن نقف بك قليلا أمام الاصلاحات العسكرية التى أراد مؤسس مصر الحديثة أن يدخلها على جيشه قبل أن تتيح له الفرصة للتعرف بالكولونيل سيف . وقد كتب بهذه المناسبة صاحب « تاريخ مصر الحديث » فصلا شيقا في هذا الموضوع نلخصه فيما يلى :

« العرب »

لقد رأيت أن القوة العسكرية التى تولى محمد على أمرها عند ما هبط مصر كانت خليطا من الألبان (الأوناووط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية والغلونجية وغيرهم ولم يكن لهؤلاء نظام عسكرى عدا النظام العتيق الذى انتقل مع الزمن من الاجداد والآباء إلى الابناء والاحفاد . وكما بد محمد على من المصاعب في حمل أولئك المرتزقة على اتباع التدريب العسكرى الفرنسى الذى ابتكره بونابرت . ولكن الأرافطة عدوا ما أقدم عليه محمد على من البدع وهو لذلك ضلاله وكل ضلالة في النار فثاروا عليه فرأى من الحكمة أن يلجأ إلى تنفيذ رغائبه فيهم تدريجاً .

فاختار بعض فتيان الممالك وأرسلهم إلى الصعيد لتعلم أساليب الفن العسكرى الحديث على بعض الأساتذة الافرنج . وفي سنة ١٨٢٥ أنشأ في قصر العبنى مدرسة أعدادية أسماها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ طالب من أبناء الممالك وأبناء الأتراك والاكراة والألبان والارمن واليونانيين دون أن يكون فيهم ابن وطنى واحد . = هذه الصورة مهداة للعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



سليمان باشا يؤنب الممالك لأنهم أخفقا في إصابة صدره
ويلج عليهم في إطلاق النار عليه مرة أخرى

== فتعلموا القرآن والنحو وأداب اللغة التركية والفارسية والعربية بينما كانت لغة التدريس هي التركية . وتعلموا أيضاً الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الإيطالية لأن سائذتهم كانوا إيطاليين .

وقرر قرار محمد علي علي أن يرسل بعض أولئك الطلبة إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما لدرس الحركات العسكرية وصناعة بناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية . كما أرسل طلبة آخرين إلى إنجلترا لدرس الميكانيكا وسلوك البحار ونواميس السوائل . وإذ نظم الجند رأى أن الضرورة تقضى بإنشاء مدرسة طبية لإخراج أطباء الجيش . فأنشأت تلك المدرسة في سنة ١٨٢٥ واختار تلاميذها من أبناء الأرياف أو تلامذة الأزهر خلافاً للمدرستين الحربية والتجهيزية .

وأراد محمد علي استعجال ثمار جهوده في هذا الضدد فأرسل في سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذاً من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية إلى فرنسا لاقتان الفنون الحربية والطب والإدارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يجعله يستغنى فيه عن المعلمين الأجانب لأن الوطنيين كانوا إلى ذلك الحين قاصرين على درس العلوم في الأزهر وهي لا تعدو العلوم الدينية واللغوية . ثم أنشأ مدرسة الطبوجية وأنشأ في القاهرة مصانع لصب المدافع وكافة حاجيات الجند .

وفي هذه الأثناء ظهر على المسرح الكولونيل سيف وهو من أهل ليون وقد ولد ==

تهذيب الأمة المصرية وتعليمها . ويؤخذ من أقوال الثقات المعاصرين

== فيها في سنة ١٧٨٧ وسمى يوسف سيف . وكان أبوه صانعاً رقيق الحال فأراد الاستعانة في صناعته بولده يوسف . ولكن هذا كان ميالاً إلى العمل من نوع آخر أرقى من ذلك . فتمرد على أبيه فعاقبه هذا بادخاله في سلك الملاحة الحربية في سنة ١٧٩٩ وهو بعد في سن الثالثة عشرة . وكم كان اغتباط يوسف بركوب متن الاخطار وعبور البحار إلى أن وقعت معركة الطرف الأغر في سنة ١٨٠٥ بين الأسطولين الانجليزى والفرنسى . وقد أظهر الفتى يوسف من ضروب البسالة ما دل على حسن استعداده للشؤون العسكرية . وبدلاً من أن ينال مكافأة على بسالته هذه حكم عليه بالاعدام لأنه تشاجر مع أحد رؤسائه فانتقل العتاب إلى الملاكمة . وكان يوسف خشن الطبع عنيف الخلق فصبر حتى اعتدى عليه رئيسه وجرحه فأنهال عليه يوسف ومازال يضربه حتى كاد أن يقتضى عليه . على أن المقادير بعثت إلى يوسف بالمدعو الكونت بولدى سيغوريقال ، وكان يوسف خلصه من الموت مرة ف توسط في إلغاء الحكم العسكرى وإرسال الشاب إلى صفوف الجيش الفرنسى بايطاليا .

ووقع سيف أسيراً بأيدي النمساويين في أثناء الحرب الفرنسية النمساوية وظل عامين في الغربة . ثم انخرط في حملة نابليون على روسيا وأظهر من الشجاعة والاقدام ما لفت إليه نظر بونايرت بصفة خاصة . فأراد مكافأته بنيشان الليجيون دونور . فلما دعاه إليه لمح منه استخفافاً بهذا النيشان فحق عليه وحرمه منه . على أنه ما لبث أن رماه إلى رتبة كولونيل بعد عودة تلك الحملة المنكودة الحظ .

ولما أفل نجم بونايرت وطوحت به يد القدر إلى جزيرة القديسة هيلانة خرج سيف من الجندية وعكف على التجارة التماساً للعيش وكان حظه منها قليلاً . وما لبث أن سمع بأن العجم في حاجة إلى ضباط حاذقين في تدريب الجند فذهب إلى صديقه الكونت السالف الذكر يستكتبه كتاب توصية إلى الشاه فنصح له الكونت بالتوجه إلى محمد على باشا في مصر .

فجاء إلى القاهرة في سنة ١٨١٩ مزوداً بكتاب توصية . فأكرم محمد على وفادته وبعث به إلى السودان للبحث عن بعض المعادن . ولكنه عاد بلا جدوى إلى القاهرة في يوم عودة الجيوش المصرية مظفرة من الحرب الوهاية .

وإذ ذاك عهد محمد على إلى سيف بتدريب الجيش المصرى على أسس النظام العسكرى ==



محمد علی باشا فی موکبه
و خلفه سلیمان باشا الفرنساوی ثم ابراهیم باشا



كلوت بك

ان نظام التعليم في مصر لم يكن في سنة ١٨٣٠ يختلف كثيراً عنه في غرب أوروبا فقد كانت هناك وزارة للعارف وإدارة باهرة تضم مدارس ابتدائية وثانوية وفنية ويقال أن عدد تلاميذ هذه المدارس الأخيرة بلغ على الأقل ٩٠٠٠ تلميذ (١) بيد أنه يلوح أن قيمة محصول هذه الإدارة كانت موضع شك . فان

==الفرنسي . فقام الكولونيل بهمة أجل قيام وحارب تحت علم الحكومة المصرية في حروب

المورة و سوريا وتوفي بمصر سنة ١٨٦٠

على أن محمدا عليا لم يكتف بما تقدم من الاصلاحات العسكرية بل أنشأ في الاسكندرية ترسانة جاء إليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية وأسس فيها مدرسة جلب إليها الاساتذة من فرنسا وانجلترا وبنى حول الاسكندرية حصنا منيعاً كما بنى الحصون في مختلف الجهات .

(١) الآن وقد وصلنا إلى ذكر كلوت بك فلا نريد أن نعتذر للقراء عن كثرة الاقتباس مما كتبه الغير عن محمد علي باشا . فقد رأينا ورأى القراء معنا أننا أمام سيل جارف من الاصلاحات قام بها ذلك العبقري الفذ بما لم يتسع له كتاب المستر يانج الذي عربناه هنا . فانصافاً للحقيقة وتنويراً للاذهان لم نر مناصاً من استخراج هذه المعلومات النفيسة التي ظلت مدفونة في بطون الكتب مهما اتهمنا البعض بالتطويل . وإليك صفحة أخرى من صفحات محمد علي الناصعة عثرنا عليها في كتاب « مشاهير الشرق » للبرحوم مؤسس الهلال بمناسبة ذلك العصامي الكبير كلوت بك رأينا أن نلخصها هنا للمعرفة بعض أسداه محمد علي من الفضل لهذه البلاد فحسب بل وليرى القارىء مثلاً صالحاً من أمثلة الاعتماد على النفس يضربه لنا كلوت بك .

المعرب ،

عند ما رأى منشىء مصر الحديثة محمد علي الكبير أن ما وضعه المصلحون في إبان الحملة الفرنسية من البذرة الصالحة في تربة مصر لاسيل إلى نموه ان لم يتعهده بالسقاية — وقد رأيت فيما مريك مبلغ عنايته بها — التفت إلى الناحية العلمية فرأى == هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



كلوت بك ياتى أول درس فى التشريح على تلاميذه فى مدرسة الطب بمصر سنة ١٨٢٧
== أن يستقدم من أوروبا للإصلاح العلمى النطاسى الشهير الدكتور كلوت بك وكان قد
أراد فى بداية الامر أن يعنى الدكتور بتطبيب الجيش منعاً لتفشى الامراض وما لبث
ان امتد نشاطه الى نواح أخرى .

ولد أنطون برطلى كلوت فى مدينة جرينوبل بفرنسا فى سنة ١٧٩٣ من أبوين
فقيرين ونشأ نشأة الشظف والصبر واغرم منذ نعومة أظفاره بتشريح الحشرات
ودرس طبائعها . وفى سنة ١٨١١ توفى والده بعد أن نزح إلى برينول . وكان للوالد
صديق اسمه الدكتور سايه فلهج بمخايل النجاة على الغلام الطون فانتخذه مساعداً له فى
أعماله الطبية ولتتمر على الجراحة فانكب أنطون على كتب الطب والجراحة يستوعب
ما فيها فى أوقات فراغه ثم رأى أن برينول تضيق بما يجيش فى نفسه فسافر إلى مرسيليا
برغم نصيحة والدته إذ كان وحيداً . ولكنه لم يصادف فيها إلا الخيبة فهم بالالتحاق
بأحدى السفن بصفته جراحاً للملاحيا وسدا لحاجته وكان ذلك وهو فى سن التاسعة عشرة .
ولكن لحسن حظ انطون رفضه الربان وغرقت السفينة فى تلك الرحلة .
فدفعت الفاقة أنطون كلوت الى تعاطى مهنة الحلاقة لجعل يتردد على حلاق يعالج
بالفصد والجراحة الصغرى . ثم عاد إلى بلده راغماً والتحق بالمستشفى بعد كثرة الالتماس ==

الفصول كانت تغص بتلاميذ باكين انتزعوا عنوة من أحضان والديهم الساخطين . ثم لا يعرف بالضبط ماذا كان مصير هؤلاء التلاميذ بعد مغادرتهم المدرسة . ويجوز أن يعزى إلى ما قام به محمد على من التجارب التهديدية قسم كبير من سرعة التطور السياسى فى مصر إذا قورنت بغيرها من الولايات الأفريقية التابعة للإمبراطورية العثمانية .

على أن الفضل يعود بلا ريب للجيش فى أن هذه القوة المستبدة تقدمت بأ كبر خدمة لايجاد أمة مصرية . وإذا كانت مصر قد ظلت طيلة

= وانكب على المطالعة حتى بز أقرانه وان كان الفقر مازال يصاحبه .
وفى سنة ١٨١٧ أتم دروسه وعين طبيباً صحياً بعد أن درس العلوم بنفسه وأتقن اللغة اللاتينية على أحد القسس ونال درجة بكالوريوس فى العلوم .

وفى سنة ١٨٢٠ أحرز درجة الدكتوراه بعد عناء ليس بعده عناء . ومن ثم أصبح قابضاً على المفتاح الذى يستطيع التعيش به . فعاد إلى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الأيتام . ولكن أرباب السعايات تسبوا فى إقالته من هذا المنصب . فأكب على العمل مرة أخرى والف كتاباً عن استعمال آلات الولادة فى الأحوال الخطرة . ومن ثم أصبح دكتوراً يشار اليه بالبنان فى فن الجراحة وطبقت شهرته مرسيليا .

وفى سنة ١٨٢٥ اجتمع به الميسوتورنو أحد تجار الفرنسيين بمصر وكان قد عهد إليه محمد على باختيار طبيب بارع يليق بمنصب طبيب لجيشه . فحب اليه الذهاب إلى مصر فاجاب عن طيبة خاطر . فلما هبط مصر رأى أمامه باباً واسعاً للعمل الصالح والاصلاح الطبى . وكان موضع ثقة محمد على الذى لم يكن يتأخر عن تلبية ما يشير به عليه . فأسس بمشورته مجلساً صحياً ليستعين باعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية مرتبة على مثال المجالس الصحية الفرنسية . وتماماً للنظام العسكرى أنشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية . ولما كانت المستشفيات تحتاج إلى أطباء وتمورية وغيرهم ممن كانت تفقر البلاد اليهم اضطركلوت بك أن يعلم كلا من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك . واشهر المستشفيات التى بنيت بمشورته مستشفى أبى زعل وكان مقر الجند . وأنشئ فى المستشفى بستان للبنات .

القرون الوسطى كمجرد ولاية لا أكثر ولا أقل فسبب ذلك أن المصري لم يألف القتال منذ نشأته كلا ولا خطر يبال غيره بتاتا أنه سوف يضطر يوماً ما إلى القتال . بيد أنه كان لابد من إيجاد جيش على الطراز الأوربي كدعامة أولى لتوطيد النظام الجديد . وهو ما شرع محمد علي في تحقيقه

== وفي سنة ١٨٢٨ أسس المدرسة الطبية في القرية المذكورة . وقد أراد أن لا يقصر الطب على الجيش بل أن يتعلمه أبناء البلاد . وكان في أول عهد هذه المدرسة يقوم هو بالقاء الدروس بواسطة المترجمين . وبذلك ترجمت عدة كتب نفيسة في الطب والجراحة والعلوم الطبيعية وغيرها . ولئن كان التشريع أمراً منكراً في نظر الأهالي إلا أن كلوت بك حصل على إذن بالتشريع سرا وإن كان ذلك لم ينتج من محاولة أحد الأهالي قتله خلسة بخنجر ولكنه لم ينجح .

وفي سنة ١٨٣٢ سافر كلوت بك في ١٢ من تلامذة مدرسته هذه لامتحانهم في باريس فامتنحهم الجمعية العلمية الطبية وخرجوا من الامتحان بأرقى الشهادات وأسمائها . وها هي أسماؤهم .

أحمد الرشيدى وحسن الرشيدى ومحمد منصور وإبراهيم النبراوى وحسين المهياوى وعيسوى النحراوى ومصطفى السبكى ومحمد الشباسبى ومحمد السكرى ومحمد الشافعى وأحمد بخيت ومحمد على البقل .

ولشد ما كان سرور كلوت وابتهاجه بنجاح تلاميذه لأنهم كانوا بمثابة النواة في نشر الفوائد الصحية والطبية في مصر . وها نحن ننشر في الصفحة التالية صورة أحدهم المرحوم محمد علي باشا البقلى الجراح الشهير .

وفي سنة ١٨٣٨ نقلت المدرسة الطبية من أبي زعبل إلى القاهرة وهي المعروفة بمدرسة قصر العيني . وأنشئت فيها فصول درس القبالة يتعلمها النساء مراعاة للتقاليد الشرقية . وأنشأ هن مستشفى خاصاً بهن مما كانت له أكبر فائدة فيما بعد نظراً لتجرب النساء وعدم السماح للأطباء بالكشف عليهن عند الوضع .

وأنشأ بعد ذلك الاستشارات الطبية في القاهرة والاسكندرية وألحق بكل منها « أجزاخانة » ولشد ما كانت عناية كلوت بك بدفع غائلة وباء الكوليرا في سنة ١٨٣٠ مما جعل محمداً علياً ينعم عليه برتبة « بك » فكان أول من نال هذه الرتبة من الأجانب . كذلك ألعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة أوفسيه دى ليجيون دونور . كما أهده =

يادىء ذى بدء باستخدام رجاله الألبانيين باعتبارهم أقرب العناصر الحربية إليه . ولكن سرعان ما تبين أن تدريب الباشبورك الألبان أشق بمراحل من تنظيم طلبة المدارس الأقباط . فلا غرو أن محاولته تنظيم هؤلاء المأجورين



الدكتور محمد علي باشا البقلى الجراح الشهير

وجعلهم جنودا نظاميين كان نصيبهما من الخيبة والفشل نصيب المحاولة الأولى التى قام بها السلطان محمود الثانى لتنظيم الجنودية الانكشارية . من أجل هذا لم يتمكن محمد على من كبح جماح الفتنة التى سببتها محاولته هذه إلا بهدم السدود وغمر القاهرة بالمياه . على أنه بعد توزيعه الألبانيين بين حاميات الجهات وتشيتيت صفوفهم فى حملات الصحراء ومزجهم ببعض بقايا المماليك - بعد هذا كله حاول من جديد أن يشكل منهم جنوداً نظاميين فاستطاع

== الدول الأخرى عدة نياشين لمعاليته رعاياها أثناء الوفاء المذكور .

وعاد إلى باريس سنة ١٨٤٠ بعد مرافقته لإبراهيم باشا فى غزوة سوريا . ثم رجع إلى مصر وظل بها إلى أن انتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى وتوفى إبراهيم فعاد إلى مرسيليا فى سنة ١٨٦٠ وتوفى بها فى سنة ١٨٦٨



أول بعثة أرسلها محمد علي إلى أوروبا وترى أسماءها في الهامش *
أن يكون بعض أوط من هذا الخليط فعلا . على أن وجود أولاده وسط

== والآن وقد وصل بنا الحديث إلى ذكر الأرسليات فمن ذا الذي لم يسمع بالارساليات العلمية العظيمة التي أوقدها عزيز مصر محمد علي إلى الأقطار الأوربية للاعتراف من معين معارفها وعلومها ؟ وإذا كنا قد اقتبسنا بعض ما خطه المنصفون عن أعمال محمد علي وضروب إصلاحاته فترانا مسوقين هنا إلى أن تتم الفائدة ونضع أمام القارئ صورة من أعماله في سبيل رفع شأن العلم ملخصاً عما كتبه صاحب « تاريخ مصر الحديث » . ونحسب أننا لسنا في حاجة إلى الاعتذار عن الاسهاب في الاقتباس فان ما أسداه محمد علي إلى مصر من الناحية العلمية جدير بأن يسجل بما الذهب وهي الحق يقال صحيفة من نور باقية أبد الآبدين . فالتى بنا بالك لتشهد هذه المعجزات التي قام بها ذلك العبقري الكبير « العرب »

* في الصف الأعلى من اليمين إلى اليسار : مصطفى محرجي مهندس قناطر وجسور ورفاعة بك رافع ناظر مدرسة الآلسن وحسن بك ناظر البحيرة ومحمد يومي مدرس بمدرسة المهندسخانة والصف الثاني محمد علي مدرس بمدرسة الطب ومحمد شباسي مدرس بمدرسة الطب وعلى باشا مبارك (في الوسط) ووادي بن كليبو ولد في ليو ومختار بك ناظر المعارف والصف الأسفل محمد بك السكري مدرس بمدرسة الطب وأمين بك ناظر الكهرجالات ومظهر بك مهندس قناطر دجوه ومحمد شافعي ناظر المدرسة الطبية



يوسف بك حكيكيان
ناظر مدرسة المهندسخانة من سنة ١٨٣٤
الى سنة ١٨٣٨ بفرنسا



مصطفى مختار بك
وهو أول ناظر للعارف من تلامذة
بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا



الصفوف بمرتبة جنود بسيطة لم يمنع
استمرار أزيز الرصاص بالقرب
من آذان المدربين الفرنسيين. لهذا
رؤى أنه يستحسن أن يحل محل
الآلبان سودانيون. وقد جعل
ابراهيم يسوقهم أمامه إلى القشلاقات
حيث ظلوا معتقلين فيها إلى أن
ماتوا ميتة الضواري في أقفاصها.
ويقال أنه من بين ٢٠٠٠٠ سوداني

وجد نحو ٣٠٠٠ ارتضوا حياة رفاعه رافع بك أول ناظر لمدرسة اللغات والالسن

== ألف محمد على مجلساً للعارف العمومية غايته تعليم خدمة الحكومة الملكيين
والعسكريين ما يؤهلهم للقيام بأعمالهم. وفتح عدة مدارس لتعليم الشبان من أهل البلاد
وبعث بعضهم إلى أوروبا لاتمام دروسهم وبلغ عدد من أرسلهم إلى أوروبا في زمنه
٣١٩ تليذا أنفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه.



حسين باشا الاسكندراني ناظر البحرية من
تلاميذ بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا



لمير بك ناظر مدرسة المهندسخانة من
سنة ١٨٣٨ الى ١٨٤٩

== وقد رأيت أن المدارس في مصر كانت في بداية أمرها تابعة للعسكرية فاغتنم محمد علي فرصة عودة بعض طلبة إحدى الارساليات من أوروبا في سنة ١٨٢٦ وأنشأ مجلساً خاصاً بالمدارس سماه ديوان المدارس برئاسة مختار بك أحد الطلبة العائدين من أوروبا . وكان من أعضائه : كلوت بك وكياني بك وأرتين بك (والد يعقوب أرتين باشا) وهيكيان بك وأرين بك ورفاعة بك ويوي أفندي ولميروهامون وروزل (سكرتير) وليس يفوتنا هنا أن نذكر أن محمدا عليا ساوى في هذا المحل بين الفرنسيين والأرمن والمصريين وكان هم هؤلاء متجها نحو انشاء دولة اسلامية عربية في مصر عدا الدولة الاسلامية التركية .

وبعد أن تألف ديوان المدارس استأذن أعضاؤه محمدا عليا في الاكثار من المصريين في المدارس فأذن لهم ، فأنشأوا مدارس ابتدائية وثانوية في كافة انحاء القطر على نمط المدارس الفرنسية حيث كانوا يعلون المواد الآتية : القرآن والخط واللغة العربية والتركية والفرنسية ومبادئ الحساب والتاريخ والجغرافيا والرسم . وكانت اللغة العربية هي طبعاً لغة التدريس . وبعد سنوات قلائل أصبح عدد المدارس التابعة للديوان المذكور ٧٠ مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهي :



عبدى شكرى باشا ناظر المعارف من سنة
١٨٥٠ الى ١٨٥٤ وهو من تلاميذ
بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

الجيش واستمروا يخدمون فيه . فلما
أعيت محمدا عليا الحيل التجأ في النهاية
إلى تجنيد المصريين فجاء إليه بفقراء
الفلاحين أو بالمغضوب عليهم من
العمدوسيقوا طوائف طوائف إلى
القشلاقات وفي أيديهم الأغلال . وقد
توفي كثيرون منهم في أثناء الطريق
ولكن اقرباءهم صاروا فيما بعد خيرة
الجنود المشاة . فلما أبصر زعماء
الالبانيين ذات يوم ست أورط

اسم المدرسة	تاريخ تأسيسها	اسم المدرسة	تاريخ تأسيسها
مدرسة الموسيقى العسكرية	١٨٢٤	مدرسة طب الحيوان	١٨٣١
» الخزينة في قصر العنى	١٨٢٤	» التعدين	١٨٣٤
» الطب والصيدلة	١٨٢٧	» الهندسة	١٨٣٤
» الكيمياء العملية	١٨٢٩	» الزراعة	١٨٣٧
» المشاة	١٨٣١	» الولادة	١٨٣٧
» الفرسان	١٨٣١	» الادارة الملكية والحسابات	١٨٣٧
» الطوبجية	١٨٣١	» الألسن والترجمة	١٨٣٧
» البحرية	١٨٣١	» الصنائع والفنون	١٨٣٩

وبلغ عدد التلاميذ في هذه المدارس ٩٠٠٠ كانت الحكومة تنفق على تعليمهم
وطعامهم ولبسهم وسكناتهم وكان التلاميذ يدخلون المدارس كرهاً .

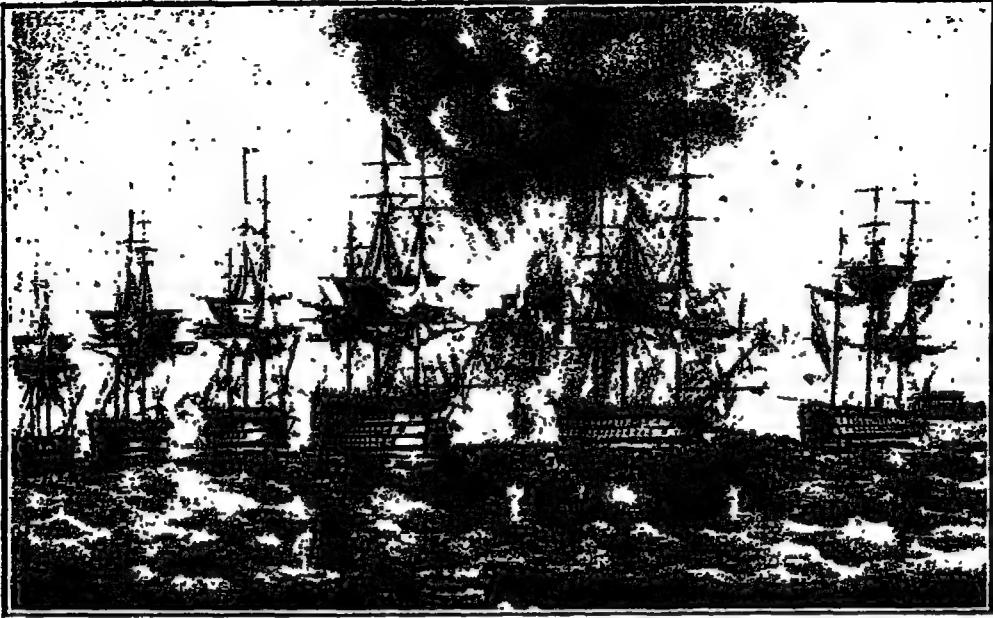
هذا فيما يتعلق بالتعليم الثانوى أما التعليم العالى فان ديوان المدارس قرر بحجز مصر
عن القيام به لعدم وجود الاساتذة القادرين من جهة ولخلو اللغة العربية من الكتب
اللازمة لهذه العلوم من جهة أخرى . ومن ثم قررت الحكومة ارسال البعثات الى أوروبا
مع اشتراط معرفة لغة البلاد التى يرسل اليها الطلبة . ولهذه الغاية أنشئت مدرسة مصرية
في ياريس تولى ادارتها مصرى اسمه اسطفان بك ووكيله الارمنى خليل افندى جراكيان =



المرحوم الدكتور درى باشا الأستاذ الأول في الجراحة بالقصر العيني
من الجنود النظاميين المصريين تجوب شوارع القاهرة يصحبهم ضباطهم
الفرنسيون ايقنوا أن يومهم قد فات فغادروا مصر في التماس مرعى
صالح جديد .

وفي سنة ١٨٢٣ كان لدى محمد علي ٢٠٠٠٠ جندي نظامي بلغوا في
سنة ١٨٢٦ نحو ٩٠٠٠٠ جندي . أما الطوبجية وهيئة أركان الحرب فقد
رفعها المدربون الفرنسيون إلى المستوى الأوروبي . ثم ان مصر بفضل
المساعدة الفرنسية أصبح لها أسطول في مياه البحر الأحمر وآخر في البحر

== وأخذت الحكومة الفرنسية تعين اساتذتها . وذهب الى هذه المدرسة نحو ٤ طالب
منهم بعض أمراء الاسرة الخديوية كالامير حلم والامير حسين ابنا محمد علي والامير
احمد والامير اسماعيل (الخديو) ابنا ابراهيم . وقد اتوى ابراهيم باشا الاهتمام بأمر هذه
المدرسة ولكن عاجلته المنية بعد عودته الى مصر من باريس فأغلقتها فرنسا في سنة ١٨٤٨
وليس يفوتنا أن نذكر هنا أن محمدا عليا هو الذي أنشأ المطبعة الاهلية بيولاقي
على انقاض المطبعة التي جاء بها بونا برت كما أنه هو الذي أنشأ الوقائع المصرية ،
وديوان المهندسخانة وأمر بترجمة عدة كتب مفيدة في لغات عديدة كالفرنسية
والتركية والفارسية .



معركة نافار بريشة المصور اليوناني كوستاس رومانيدس
المتوسط . وقد كانت السفن الحربية في مطهرها على الأقل جديدة بأسطول
إحدى دول الدرجة الثانية . وبينما كانت قطع الأسطول الأول الذي حطم في
موقعة نافار مشتراة من الخارج كانت قطع الأسطول الثاني من صنع مصر .
وقد بلغ عدد قطع الأسطول المصري في سنة ١٨٣٢ ثمانى مدرعات و ١٥
بارجة بينما كان عدد الملاحين ١٢٠٠٠ . أما عمارة البحر الأحمر التي
حملت الابل أخشابها عبر البرزخ فهي والحق يقال أول من قطع دابر
القرصان في تلك المياه .

وهكذا اجتازت مصر ثورة رفعتها من مجرد ولاية محتقرة تابعة
لإمبراطورية مضمحلة إلى مستوى دولة عسكرية تخطو خطوات واسعة
في سبيل التقدم والرقى . فلا غرو إذا هاج هائج أوروبا عند ما شهدت ما قام
به هذا الشرق الأوتقراطى من تجارب اشتراكية . وأمامنا صورة بهيجة
لهذا الباشا العنيف ذى الحواجب الكثة واللحية البيضاء المدية والطربوش
المعجم والسراويل الفضفاضة وقد شدت إلى حيازيمه أسلحته المرصعة

بالجواهر وهو مطرق الرأس يصغى إلى ما كتبه أرميا بنتام من خطابات مطولة في فلسفة السياسة بقصد تنويره وتثقيفه . إلا أنه برغم هذا كله لم يسمح للساسة الفرنسيين بأن يغيروا شيئاً من أساليبه . فإذا ما جاءه مثلاً خباز يشكو حيفاً أصابه من العمدة أمر بالقاء هذا في قرن الخباز ليحترق . ولكننا إلى جانب هذا نراه يصفح عن بائس عضه الجوع فحاول اغتياله (محمد علي) . وقد كان الصفح من أن الاستيثاق أن استغاثته الماضية ذهبت أدراج الرياح . وقد مضى محمد علي معظم أيامه على ظهور الجياد بينما كان نومه على سجادة بجوار سرير الفرسي ذي الأعمدة الأربعة^(١)



محمد علي باشا يستقبل سفراء الدول

صفات محمد علي وأخلاقه

(١) هذا ما يقوله المستر بانج عن صفات محمد علي ومناقبه وإليك صورة صحيحة عن أخلاق هذا العقري الكبير كما ذكرها صاحب « تاريخ مصر الحديث » وهي صفات جديرة بأن توحي إلى صاحبها باتيان ما أتاه من المعجزات « العرب »
كان محمد علي متوسط القامة عالى الجبهة أصلع الرأس بارز القوس الحاجبي اسود العينين غائرهما صغير الفم مع ابتسام كبير الأنف متناسب الملامح مع هيئة ووداعة

ولم يقتصر ما تركته هذه الثورة المصرية من الأثر في نفس أوربا على ما أثارته من الاهتمام بها بل كان لها فعلاً أثر معين في سير الحوادث



قواد جيش محمد علي يقسمون على القرآن بالتفاني في خدمته

أبيض اللحية كثيفها مع استدارة واسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة. كان بعيداً عن التألق ولذلك كان لباسه على طراز الممالك أى العامة أو الطربوش. ثم ابدل اللباس العسكري في أواخر أيامه بلباس واسع بسيط لا يميزه عن لباس أتباعه.

كان يكره التفاخر بالحاشية ولهذا لم يكن يخفر بابه إلا لرجل واحد. وإذا استوى في مجلسه لا يتخذ السلاح بل يجلس وفي يده حق السعوط والمسبحة. وكان ولعاً بلعبة البليارد والداما ولا يتعالى عن مجالسة صغار الضباط، أما جلساؤه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويلقبونه بمسيد الممالك أو مصلح الديار المصرية. وكان سليم القلب معدهاء وسياسة سريع التأثر لا يعرف الكظم وكان كريم النفس سخى العطاء إلى درجة الاسراف في بعض الأحيان. وكان شديد التفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته. وكان شديد الولع بالاطلاع ولا سيما على الأخبار السياسية. وكان يجل الصحف ويؤثر من تأثيرها في الحياة الاجتماعية ولذلك كانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن.

الأوربية. وكادت تسبب حرباً عامة في تلك القارة. ولما كنا لانروى تاريخ أوروبا بل تاريخ مصر فلن نفسح مجال الكلام عن هذا الجانب من نشاط محمد علي ونجاحه لأن غزواته في بلاد العرب والأناضول وبحر ايجه وما أحرزه من انتصارات ضد متعصي الأعراب وثوار اليونانيين وما أصيب به على أيدي أمراء البحر الانجليز وارسقراطيههم من الهزائم — كل ذلك لم يكن له أى أثر فعلي في تاريخ مصر.

وقد اتخذ محمد علي مبدأ جعله قاعدة سياسته الخارجية الا وهو رشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالاً داخلياً. أما مبدأ جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمى إلى إيقاع هذه الدول بعضها في بعض أو تحريضها على الباب العالي. وكان من رأيه أن

= وكان يستيقظ حوالى الساعة الرابعة صباحاً ويقضى نهاره في شئون الدولة. وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لأنه شرع يتعلم القراءة والكتابة في سن الخامسة والأربعين (وهذا ما ينطق بفضله وبعد نظره وصفاء ذهنه ويبرهن على ما حبه به الطبيعة من قوة الادراك والحدق والمعدرة على تصريف المعضلات السياسية). وكان حازم المعاملة مع لين ورقة وحسن أسلوب ، وكان شديد التمسك بالاسلام مع شدة احترامه لتعاليم الأديان الأخرى وبخاصة الدين المسيحى فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم بأهم أعماله كما قام الدليل على ذلك في كثير مما مر بك.

وبالجملة فلقد كان الرجل أباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصيراً مسعفاً لذوى قريبه وأباً حقيقياً لأولاده. وهل أدل على ذلك من الحزن الذى لازمه حتى اللحى بعد ما اختطفتهم يد المنون منه ، ولعمرك لا تلتفت يمتة أو يسرة سواء أفى مصر أم فى الشام أم فى السودان أم فى شبه جزيرة العرب إلا وجدت آثاراً ناطقة بما أثر ذلك الرجل الذى كان غرة فى جبين الدهر والذى أنشأ من العدم دولة كادت لولا الظروف المعاكسة أن تسير فى طليعة الدول الأخرى وأن تنبؤ المركز اللائق بها تحت قرص الشمس .



الشيخ محمد عبد الوهاب
مؤسس المذهب الوهابي

أنجح وسيلة للحصول على ما يشاء من
الآستانة هي في التظاهر بالقوة من جهة
وبحاجة تركيا اليه في الوقت نفسه من
الجهة الأخرى. ولما كانت أمام زميله
في الإصلاح الأواهو الخليفة السلطان
محمود مصاعب تربو على مصاعبه فانه
كان لا يفتقر عن المطالبة بكل ما يستطيع
أن تقدمه اليه مصر من المساعدة المالية
أو الحرية. وكان محمد علي بصفته من
أكبر أنصار الجامعة الإسلامية لا يرضى

بتقديم هذه المساعدة طالما كان في إمكانه التوفيق بينها وبين مصالحه الخاصة .
وقد كانت أول حرب أجنبية خاض بالجيش المصري غمارها هي
الحرب العربية : فان الأعراب قد صاروا خطراً يخشى منه على الامبراطورية
العثمانية ومصر . لان العودة الى التمسك بمبادئ الدين الاسلامي الصحيحة
واقْتفاء أثر السلف الصالح مما كان يبشر به محمد بن عبد الوهاب (١٦٩٥ -
١٧٩١) قد أدى الى جمع شمل العشائر في بلاد العرب ووحدها تحت
زعامة أسرة ابن السعود ^(١) وفعلاً وصلت هذه الحركة الى أوجها في عهد

(١) لعبت الحرب الوهابية دوراً مهماً في العلاقات بين مصر وسلاطين نجد مما
لا يزال أثره موجوداً الى اليوم ، ولما كان المذهب الوهابي لا يعرفه إلا القليلون خارج
الجزيرة العربية فقد رأينا أن نلقى عليه ضوءاً بسيطاً لتتسنى معرفة نشأة هذا المذهب
وكيفية انتشاره .

ولسنا نرجم بالغيب فيما نكتبه هنا . فلقد وقع اختيار حكومة جلالة ابن السعود على
مغرب هذا الكتاب في ربيع سنة ١٩٢٩ لمرافقة مستشار جلالتهم (الشيخ حافظ وهبه)
كسفير له في لبنان انعقاد مؤتمر البريد الدولي في لندن . ثم انتهزت الحكومة الحجازية
الفرصة وعهدت إلى مستشارها المذكور باجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية =

ابن السعود الثاني وهو الذي استولى على الاماكن المقدسة وصار يهدد بغداد ودمشق . وما حانت سنة ١٨٠٦ حتى كانت شبه جزيرة العرب قد اعتنقت المذهب الوهابي وأوصدت أبوابها في وجوه المسلمين الآخرين

== لانشاء مفوضية حجازية في العاصمة الانجليزية . ولما كان حضرة المستشار يجهل اللغة الانجليزية فقد كان من الطبيعي أن أقوم أنا بدور المترجم حينما دارت المحادثات بين حضرته وبين فخامة المستر هندرسن وكبار رجال وزارة الخارجية خاصة بهذا الموضوع . ولما كان حضرة الشيخ حافظ قد لاحظ أن الجمهور في إنجلترا لا يبرف عن الحركة الوهابية إلا القليل المشوه فقد رأى أن ينوره بالقاء خطبة في الموضوع عهد الى بوضعها باللغة الانجليزية والقائها في يوم ٥ يولية سنة ١٩٢٩ بدار الجمعية الآسيوية في لندن حيث كان الاجتماع برئاسة لورد اللني . وقد حضره جمهرة من أعلام الرأي وكبار المستشرقين الانجليز الذين تقاطروا على الدار لسماع كلمة رسمية عن هذا المذهب الذي كانوا يعدونه غريبا وغير مألوف .

ولهذا رأينا أن نقتطف هنا ما ورد عن التعاليم الوهابية ونشأة صاحبها في الخطبة المذكورة التي ألقيناها في دار الجمعية الآسيوية في لندن لأنها تعبر عن وجهة النظر الرسمية.

ظهور زعيم الوهابيين

ففي سنة ١٧٠٣ هـ ولد محمد بن عبد الوهاب في جهة العينة في شمالى مدينة الرياض عاصمة نجد . ف تلقى العلوم الابتدائية على أبيه وكان شيخاً فقيهاً فتمذهب بالمذهب الحنبلى ثم سافر فيما بعد لتمام دروسه في جهات الحسا والحجاز والبصرة . ومن ثم أصبح الشاب محمد حجة في الحديث وعلم الأصول واللغة كما اشتهر بالصلاح والتقوى والتقشف والمحافظة على قواعد الدين الأصلية البسيطة في النفور من البدع وشن الغارة عليها . ثم عكف على دراسة كتب ابن تيمية وتلاميذه وأخصهم ابن القيم وابن كثير وراقتهم إلى أبعد حد لأنها تدعوا إلى البساطة الاسلامية .

وكانت بلاد نجد عند ما غادرها محمد بن عبد الوهاب مسرحاً للخلافات الطائفية والحروب الأهلية هذا فضلا عن تفشى الخرافات الدينية . فلما عاد إليها بعد أسفاره الآتفة الذكر وألقى عصا تسياره في بلدته العينة وألقى بلاده على حالتها هذه شمر عن ساعده واعتزم أن يطهرها من أرجاسها وأن يعيدها إلى البساطة الاسلامية والدين الصحيح الخالى من الخزعبلات والبدع .

حتى الحجاج . ومن الجهة الاخرى فان قرصان الوهابيين سدوا منافذ البحر الاحمر وانتشروا يعيشون في المحيط الهندي فسادا . وهكذا أصبح في وسع الوهابيين أن يخزوا بالابر بهذه الأعمال امراطورتين اثنتين

== وكان ينشر دعايته بالطرق السلية وانصل بكبار الفقهاء والمسلمين في البلاد الاسلامية الاخرى وما برح يبشهم شكواه مما نزل بالاسلام وأحاط به من الخرافات التي ليست منه في شيء . ويناشدهم أن يهبوا هبة قوية لتطهيره والعودة به إلى سيرته الأولى .

وكان محمد بن عبد الوهاب لا ينفك عن المطالبة بتطبيق أحكام القصاص الواردة في القرآن الشريف ومنها الحكم بالرجم على امرأة عاهرة جاءت تلمس التوبة فصدّها عدة مرات - نقول لما كان هذا كذلك كان طبعيا أن تغضب تعاليم أمراء العرب الذين بدأوا يتوجسون خوفا منها . فبعث أمير الحسا إلى شيخ العينة ينذره بمهاجمة المدينة إن لم يطرد منها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وما كاد نبأ هذا الطرد أن يتصل ببعض أتباعه ومريديه في جهة الدرعية وأميرها محمد بن السعود حتى استأذنوه في استقدام الشيخ محمد فأذن لهم . فلما قابله أحسن وفادته وبالغ في إكرامه . وسرعان ما تعاقد معه على العمل سويا لتطهير الجزيرة العربية من الخرافات والبدع ونشر التعاليم الدينية الصحيحة بين أهل البدو والحضر ووعد بمساعدته ضد كل من يحاول الوقوف في وجه هذه الدعاية . ولأول مرة شعر الزعيم الوهابي بأن الله قد شد عضده وأن النصر سوف يؤاتيه حقا .

التعاليم الوهابية

أما أساس مذهب محمد بن عبد الوهاب فهو أن الله وحده هو كل شيء ولا يجوز التوسل إليه بسواه . وتلخص تعاليمه فيما يأتي :

- (١) الصلوات الخمس (٢) وصوم رمضان (٣) وتحريم المسكرات (٤) وتحريم الزنا (٥) وتحريم الخمر والميسر (٦) والزكاة (٧) ومنع شهادة الزور والتشدد في معاقبة فاعلها (٨) وتحريم الربا (٩) والحج (١٠) ومنع التدخين (١١) ومنع الرجال من الزينة ولبس الحرير لأنه من أدوات النساء . (١٢) وهدم المزارات والقباب على أضرحة الأولياء لأنه يعتبر من الوثنية ويشغل الناس عن التوجه لوجه الله تعالى (١٣) وفتح باب الاجتهاد أمام كل من يستطيع الاستنباط من أحكام القرآن (١٤) والا اعتماد لانسان إلا على ما يقدم من الأعمال الصالحة .

في موضعين من المواضع الحساسة. أما الامبراطورية التركية فاتهم وخزوها في سلطتها الدينية كما انهم وخزوا الامبراطورية البريطانية في قوتها البحرية. وهذا ما حمل الانجليز على مد أيديهم الى محمد على يدعونه الى عقد محالفة بحرية ضدهم. ولكن حذره من الانجليز كان أشد مما ينبغي كما يؤخذ من جوابه على اقتراح المستر بورخاردت مندوب جمعية افريقيا

== ولبت محمد بن عبد الوهاب ينشر الدعاية بالحكمة والموعظة الحسنة بينما كان محمد ابن السعود يبسط نفوذه على نجد وغيرها بالحسام. وأخيرا تزوج ابن السعود بآبنة محمد ابن عبد الوهاب فزادت الروابط بينهما توثقا ثم استولدها ابنه عبدالعزيز الذي خلف أباه محمد بن السعود عند وفاته في سنة ١٧٦٥

وقد استمرت الحروب الدينية بين القبائل العربية بسبب الدعاية الوهابية زهاء ستين عاما ازداد في خلالها أنصار ابن عبد الوهاب وأصبحوا جندا عديدين حمل بهم على أطراف جزيرة العرب.

وفي سنة ١٧٩١ توفي محمد بن عبد الوهاب وقام أولاده بعده بمهمة أيهم معتمدين على مساعدة ابن السعود. أما عبد العزيز بن السعود فقد كان عظيم الشجاعة شديد البطش وقد قتل غدرأ في أثناء الصلاة بيد أحد الفرص في سنة ١٨٠٣ خلفه ابنه سعود وكان قد تعود الكر والفر في حدائقه حتى أنه قاد الجحافل وهو في السنة الثانية عشرة من العمر. وانتشرت سطوة الأمير سعود وخشيت منه تركيا على أملاكها في الشام والعراق فأرسلت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فشتها. ثم حمل في ٢٠٠٠ رجل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقتلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فلي رجاله أوامره وهدموا القبور والأضرحة.

وفي ٢٧ ابريل سنة ١٨٠٣ استولى الأمير سعود على مكة ودخل الكعبة وأبطل التدخين وكف الناس عن تعاطي المسكرات وعكفوا على الصلوات وبعث كتابا إلى السلطان العثماني يطلب فيه عدم إرسال المحمل المصرى إلى الحجاز مصحوبا بالطبول والزمر.

وفي هذه السنة نفسها دخل الأمير سعود المدينة المنورة وأخذ في نشر سيادته على بلاد العرب حتى بلغت حدود مملكته في سنة ١٨٠٩ شمالا صحراء سوريا وجنوبا بحر العرب وشرقا الخليج الفارسي وغربا البحر الأحمر.

البريطانية في هذا الصدد . فقد أجاب بهذه العبارة التي كانت تعتبر بمثابة نبوءة تستوقف الانظار وهي قوله : ان السمك الكبير يبتلع السمك الصغير ولسوف تستولى انجلترا يوما ما على مصر كحصتها في تركة الامبراطورية العثمانية . فهو كما يلوح لم يشأ استعجال حلول ذلك اليوم . على أن محمداً علياً لم يتوان في تلبية نداء السلطان كلما ناشده المساعدة . بل انه أرسل كافة رجاله الالبان المزعجين ليستعيدوا الاماكن المقدسة .



محمد علي ينذر مندوبي الوهايين قائلا : سأرسل لكم ولدى ابراهيم
ليأتى بزعمائكم أحياء أو أمواتاً

== فهنا وبعد أن استفحل الخطر الوهابي السعودي وبلغ إلى هذا الحد رأى السلطان محمود الثاني أن يستعين بمحمد علي وإلى مصر على صد هذا الخطر فلي الأمر وبدأ بتنفيذه بعد أن خلا باله بذبح المماليك على نحو ما مريـك .

استعدادات محمد علي لصد الوهايين

فشرع محمد علي يعد حملة بقيادة ابنه احمد طوسون باشا وكتب في الوقت نفسه الى غالب شريف مكة يخبره بأنه سيرسل من ينقذه من الوهايين فأجابه هذا بالشكر ووعده بتقديم المساعدة .

وفما هم يعملون على استعادتها وقعوا في كمين نصب لهم ففقدوا ثلثي قواتهم. ولا ريب في أن محمداً علياً بتملصه من مواطنيه الثقلاء قد خلص أيضاً مصر من بقايا هؤلاء المرتزقين المزعجيين . وهناك اطمأن باله

== وعلم الأمير سعود بنواليا محمد على فأعد ١٥٠٠ جندي لصد المصريين وكانوا قد أبحروا من السويس ونزلوا إلى ينبع فاستولوا عليها وغادروها إلى معسكر الوهايين في صفر. والتحم الجيشان وأسفرت النتيجة عن فوز الوهايين في بداية الأمر حتى إذا وصل مدد جديد لطوسون باشا من مصر زحف على المدينة المنورة وهدم أسوارها وأرغم حاميتها الوهاية على التسليم مما كان له أكبر صدى في سائر أنحاء الحجاز . ثم زحف طوسون على مكة فأجلى الوهايين عنها وأرسل إلى أبيه بقائد حامية المدينة فبعث به مخفورا إلى الاسنانة فقتلوه فوراً .

ولما حل الصيف استعاد الوهايون بعض ما خسروه ورأى محمد على أن الأمر يتطلب ذهابه بنفسه إلى ساحة القتال فسار بجند عظيم إلى جدة فوصلها في ٢٨ أغسطس

سنة ١٨١٣

وفي ١٧ أبريل سنة ١٨١٤ توفي الأمير سعود زعيم الوهايين في درعية وحل محله ابنه عبد الله ولم يكن في كفاية أبيه فأنحلت عزائم القوم حتى إذا نشبت المعركة الكبرى بينهم وبين جنود محمد على في ١٠ يناير سنة ١٨١٥ وكان فيصل أخو الأمير عبد الله يقود القوة الوهاية ، دارت فيها الدائرة على الآخرين وتقدم طوسون إلى نجد ولكن تفاد المؤذن أضطره إلى وقف الزحف .

واقضت الظروف عودة محمد على إلى القاهرة قبل إتمام مهمته في الحجاز . فوصل العاصمة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ وشرع في تدريب الجند على النظم الأوروبية وأخصها النظام الفرنسي .

وعاد في هذه الأثناء طوسون باشا فوجد أن قرينته وضعت ولداً اسمه عباس ثم أصيب طوسون بالحمى وفارق بعدها الحياة عاجلاً .

ثم استأنف محمد على اهتمامه بمسألة الوهايين وكتب إلى عبد الله بن مسعود يكلفه باحضار الأموال التي أخذت من الكعبة وأن يتأهب للذهاب إلى الاسنانة . ولكن عبد الله اعتذر عن الحضور وقال : ان الأموال تفرقت في عهد أبيه ، وأرسل الهدايا إلى محمد على ولكن هذا رفض قبولها وأوسع الوفد تهديداً وأنذرهم بأنه مرسل اليهم ابنه إبراهيم في حملة قوية ليأتي بزعمائهم أحياء أو أمواتاً .

وأمكنه أن يرسل جنوده المصريين النظاميين الى بلاد العرب حيث استعادوا مكة وفتحوا طريق الحج (١٨١٢) ويجدر بنا أن نذكر في هذا المقام انه كان يوجد بين الحكام الموالين لمحمد علي رجل يدعى « ليث » وهو اسكتلندي ممن أخذوا أسرى في حملة فريزر . وقد اعتنق ليث الاسلام وظل يعمل بجهد الى أن وصل الى مقدمة الصفوف بمحض كده واجتهاده . على أن ابن السعود التجأ الى حرب العصابات



ابراهيم باشا يستقبل في خيمته الامير عبد الله أمير الوهابيين

== وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم بطريق النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى الاقصر ثم الى ينبع فالمدينة ولبت يترقب وصول أوامريه وقد انضمت اليه القبائل الموالية. ولما التقى الجيشان كانت لابراهيم الغلبة فقبض على الزعيم الوهابي الامير عبد الله وأرسله الى أبيه محمد علي فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ وفي ٢٠ محرم أرسله الى الاسنانة حيث حكموا عليه بالاعدام .

وكافأ السلطان ابراهيم باشا بأن سماه والياً على مكة . فلما اتصلت هذه الأنباء بدرعية دب الرعب في قلوب أهلها فهدموا المدينة وتركوها قاعاً صفصفاً فاحتلتها الجنود المصرية وبذا انتهت الحرب الوهابية .

وكان النجاح حليفه فيها الى حد أن محمدا عليا اضطر الى تولى القيادة بنفسه وهى غلطة كادت أن تكلفه ثمنا باهظا ولذا لم يكررها وجليه الخبر ان الاتراك انتهزوا فرصة تغيبه وبسطوا سلطانهم على القاهرة وبيتوا مؤامرة لاغتياله مما جعله يعجل بالعودة الى مصر حيث وطد سلطته بالوسائل المألوفة تاركا لابراهيم القيادة في بلاد العرب . وبعد أن توفي ابن السعود الكبير قمع ابراهيم الحركة الوهابية بقسوة صارخة وأسر زعيمهم عبد الله بن السعود وأرسله الى النطع في الاستانة (١٨١٦)
والآن وقد خلا بال محمد على فيما يتعلق بحدوده الشرقية فانه شرع يولى اهتمامه شطر الحدود الجنوبية ^(١) . فان المناطق الواقعة في أفريقيا

(١) سردنا عليك بعض ما اقتبسناه عن أعمال محمد على وهى لتعددتها وكثرة نواحيها جديرة بأن يفرد لها الانسان مجلدا بأكمله لا أن يحشرها حشرا في هامش كتاب كالذى نقوم بتعريبه هنا . ولكن هنا الاول - كما قلنا في بداية هذا الكتاب - هو ان نسد بعض الثغرات التى تركها المستريانج وأن نفصل بعض ما أجمله ما يهم المصريين الاطلاع عليه . ولم نأشأ سرد معلوماتنا شخصا بل توخينا الاقتباس عن المصادر الأخرى لأنها أبلغ في الاعتراف بعظم مزايا هذا المصلح الكبير .
وننتقل بك الآن إلى صفحة مجيدة أخرى فيها عظة لنا وهى الخاصة بفتح السودان .
وقد لخصناها عن كتاب « تاريخ مصر الحديث »
فتح السودان

سبق أن مر بك أن محمدا عليا أوفد الكولونيل سيف (أى سليمان باشا) عند هبوطه أرض مصر إلى السودان بقصد اكتشاف بعض المناجم وأن الكونيل سيف عاد بخنق حنين . ونقول لك الآن أن منشئ مصر الحديثة كان كثير الاهتمام بمسألة المعادن الثمينة التى سمع أنها مكنوزة في المناجم الواقعة في غرب النيل الأزرق ولذلك فكر في فتح السودان على أمل الحصول على تلك الكنوز هذا عدا ما يمكن أن يضع عليه يده من ضروب السلع التجارية القيمة والحاصلات الغريبة كالصمغ والريش والعاج والريق وهلم جرا . فحشد ما يبلغ ٥٠٠٠ من الجند النظامى وضم إليهم بعض البدو =

الوسطى ، تلك المناطق التي كان يجري فيها الى مصر مع مجرى مياه النيل
سيل لا ينقطع من الرقيق والعاج والذهب تد اجتذبت مطامع المغامرين.



قبائل الزنوج عند خط الاستواء

وكان مهاجرو المماليك وهم الذين وطدوا أنفسهم في السودان تدوققوا

وزود الجميع بنحو ثمانية مدافع وسير هذه الحملة بقيادة اسماعيل باشا أحد أولاده .
وفي يونية سنة ١٨٢٠ أفلعت الحملة في النيل فاجتازت الشلالات الستة إلى أن وصلت
شندى والمتمة . وقد أخضعت بسهولة كل ما مرت به من القرى والساكنين . ومن شندى
قصدت إلى سنار على النيل الأزرق وراء الخرطوم . ولعل قبيلة الشانقية هي الوحيدة
التي أبدت المقاومة ولكنها سرعان ما ألقت سلاحها وواصل المصريون زحفهم إلى أن
استولوا على سنار وكوردفان . ومن ثم سار اسماعيل باشا إلى جهة « فوغل » حيث
ظن انه عثر على مناجم الذهب .

وفتك الرباء في رجال الحملة ولكن وصلته نجدة تبلغ ٣٠٠ جندي بقيادة صهره
احمد بك الدقردار فأقامه على كوردفان وقصد هو إلى المتمة في الشاطيء الغربي . ثم عبر
النيل إلى شندى في البر الشرق لجباية المال وجمع الرجال . فاستدعى ملكها واسمه « نمر »
وقال له « أريد منك أن تأتي إلى قبل خمسة أيام بملء قارب هذا من الذهب وألفين من
العساكر » فحاول الرجل أن يستعطف اسماعيل ويحمّله على التنازل عن شيء من هذا =

انحدار هذا السيل الرابع فتقرر ارسال حملة مصرية صغيرة بقيادة اسماعيل الى أعلى النيل لاعادة انحدار هذا السيل تهديدا لاستخراج موارد ذلك القطر الخرافية . ولكن شبح المدن الذهبية جعل يتوارى ويتقهقر أمام تلك الحملة الى أن اضطرتها المستنقعات المهلكة مع ما تجمع حولها من جموع المتوحشين في المناطق الاستوائية الى أن تعود أدراجها (١٨١٢) وبينما كان اسماعيل منهمكا في توطيد الادارة المصرية في شرقي السودان احتلت قوة أخرى السودان الغربي بعد قتال عنيف بالقرب من كردفان وكان ذلك مؤذنا باندلاع الثورة في كل مكان حتى أن أحداها جعلت تتلو الاخرى بسرعة مدهشة مما كانت نتيجته أن اسماعيل نفسه ألقى في النار حيا هو وأركان حربه في احدى هذه الثورات بالقرب من شندى

== القدر . وأخيراً تم الاتفاق على قبول عرض عن الذهب وهو مبلغ ٢٠٠٠ ريال من الفضة فأجاب نمر الطلب ولكن لم تسعده الظروف بجمع القيمة في المدة المحدودة فجاء يطلب مد أجلها . فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلاً : « ان كنت لا تدفع المال فوراً فليس لك غير الخازوق جزاء »

فتقبل الملك نمر هذه اللطمة بالصمت ولكنه أضمر لاسماعيل الشر وصمم على الانتقام منه فظاهر بتطبيب خاطر اسماعيل ووعد به باتمام ما يريد . وفي تلك الليلة نفسها جاء نمر الى اسماعيل وقبل يده والتبس منه تشريف ولية أعدها اكراماً له فلبى اسماعيل الدعوة وذهب في نفر من أصدقائه قاصداً القصر الذى أعده نمر لنفسه وكان مصنوعاً من القش وليس به سوى منفذ واحد . وقد جمع وراء هذا القصر كثيراً من القش وسيقان الذرة لعلف خيول الباشا أثناء الزيارة . ولما استقر الباشا ورجاله في المكان اجتمع الرجال والنساء حوله ينفخون الارغول ويرقصون رقصاً سودانياً خاصاً . فطرب اسماعيل وضباطه لهذا الغناء والرقص وغفلوا عن تقلبات الزمان . ثم أخذ عدد المتفرجين من الاهالى يزداد شيئاً فشيئاً الى أن خرجت المدينة كلها واغتم نمر فرصة هذه الجلبة لاشعال القش والكوخ في عدة مواضع بينما كان أعوانه يجمعون المواد القابلة للالتهاب وإلقائها حول الآتون . فلما التهمت النار سقف المكان المعد لتناول الطعام ظهر الباشا وأصحابه ويدهم السلاح ولكن المجرمين جعلوا ==

فكان عقاب ذلك اجتياح السودان بنفس القسوة التي اجتاحت بها بلاد العرب من قبل . وهنا لك توطدت أقدام مصر في ربوعه بصفة دائمة . ومن ثم أنشئت عواصم جديدة في الخرطوم وفي كسلا وافتتحت طرق تجارية جديدة فيما بين سواكن ومصوع على البحر الاحمر . وفي أثناء زيارة محمد علي للخرطوم (١٨٣٨) أعلنت مصر - بتأثير الانجليز - ان النخاسة غير مشروعة ولكنها بالرغم من ذلك ظلت تجارة السودان الاساسية . وفي سنة ١٨٤٢ وصلت الجنود المصرية الى جوندوكورو . وهكذا ترامت حدود مصر حتى انتظمت مناطق لا تربطها بها أية رابطة جنسية ولا أرضية حقيقية ، أو بعبارة أخرى أن مصر صارت في الواقع امبراطورية قبل أن تكون أمة .

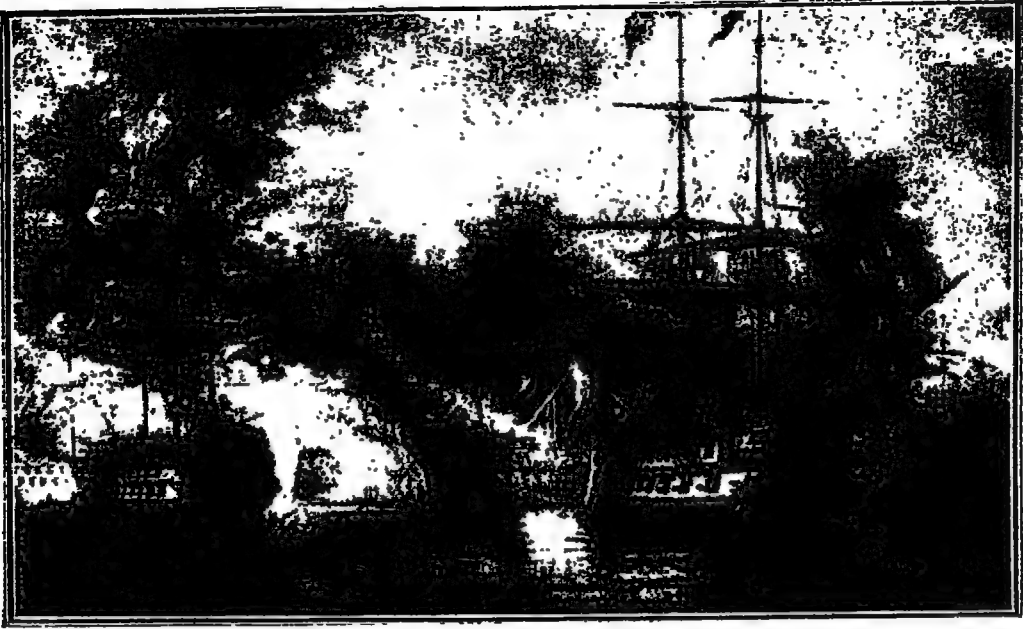
ولم تكن غاية محمد علي تختلف عن الغاية التي جعلها نابليون مطمح سياسته . فقد أراد كلاهما اتخاذ مصر مطية للوصول عن طريقها الى الامبراطورية العثمانية . لهذا تملك حب التوسع نحو الشمال كل حواسه . وقد كانت ثمت طريقان الى الاستانة . الا وهي الطريق البحرية بواسطة « بحر ايجه » والاخرى الطريق البرية بواسطة الاناضول . وهذا ما جعله يلبي من فوره نداء السلطان محمود بطلب المساعدة ضد اليونانيين وهم الذين أرادوا الوصول الى الاستقلال باثارة الفتن . ولقد كان في الجنود المصريين والاسطول المصرى الكفاية للقيام بما تقتضيه الاعمال الحربية والبحرية

== يرشقونهم بالسهام ويردونهم داخل الآتون إلى أن ماتوا محترقين . كل هذا ونمريضحك ضحك التشفي والانتقام .

واتصل نأ هذه الفاجعة باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظا وأقسم لينتقم من الفاعلين بقتل ٢٠٠٠ شخص من العدو بعد التفنن في تعذيبهم . وزحف بجيشه الصغير ولبت في المدينة حتى بر بقسمه . ثم هدأت الحالة وبذا تم فتح السودان وظل احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكوردفان لغاية سنة ١٨٢٤ حيث ابدل برستم بك .

المشتركة لكبح جماح اليونانيين أكثر من الاسطول والجيش العثمانيين الذين لم ينظما بعد تنظيماً تاماً فضلاً عن عدم إمكان الاعتماد عليهما . وهكذا تم إخضاع كريد بلا كبير عناء (١٨٢٣) ولئن كانت محاولة ابراهيم الاولى لغزو شبه جزيرة المورة قد فشلت (١٨٢٤) الا أن محاولته الثانية (١٨٢٥) قد قصمت ظهر الفتنة . يضاف الى هذا أنه جهزت حملة جديدة في السنة التالية لقطع دابر الفتنة نهائياً ومطاردة مثيريها الى آخر معقل لهم في ميسوا ونجى التي سلمت بعد حصار طويل . وما كادت الحامية تشق طريقها الى الخارج حتى وقعت مذبحه عامة ضد أهالى المدينة وكان يلوح في بدء الامر أن كل شيء انتهى على ما يرام . ولكن أهالى المورة أثاروا فتنة جديدة في مؤخرة ابراهيم بعد أن دب الشقاق بين المصريين وبين الاتراك الذين كان يقودهم خسرو باشا عدو محمد على القديم . وهنا بدأ الاسطول البريطاني يعرب عن سخط الطبقة الاستقرابية التي لم تكن تناست اليونان بفضل ما كان اورد بيرون ينفخه فيها من روح التذمر والاستياء من أجل هذا فان ابراهيم عند ما بدأ يطبق على اليونانيين سياسة الفناء التي أدت في الماضي الى إخضاع بلاد العرب والسودان رأى نفسه وجهاً لوجه ازاء شعور لا تنقصه المعدات لجعل أثره محسوساً . ومن جهة أخرى فان شعور بريطانيا الذي تهيج قليلاً ابان تطبيق سياسة الفناء ضد اليونانيين قد انقلب غضباً عنيفاً عند ما بدأ ابراهيم ينفهم الى مصر ويعاملهم معاملة الارقاء . ولكيما يوقف الانجليز هذه النخاسة دبوا مظاهرة بحرية من أساطيل الحلفاء في نافار كانت نتيجتها تحطيم الاسطولين المصري والتركي (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧) . وهى كارثة لم تخل من فائدة لمحمد على ما كان ليحسبها في بدء الامر . ثم ما عثم أن أيقن فيما بعد أن الاسطول التركي لم يرسل إلى نافار إلا وهو يحمل تعليمات معينة

بإبعاد جيش إبراهيم إلى الأستانة . والآن وقد تخلص إبراهيم من الأتراك
فانه راح يكتسح اليونان ويعامل أهلها كالأرقاء عند نفيتهم إلى مصر دون

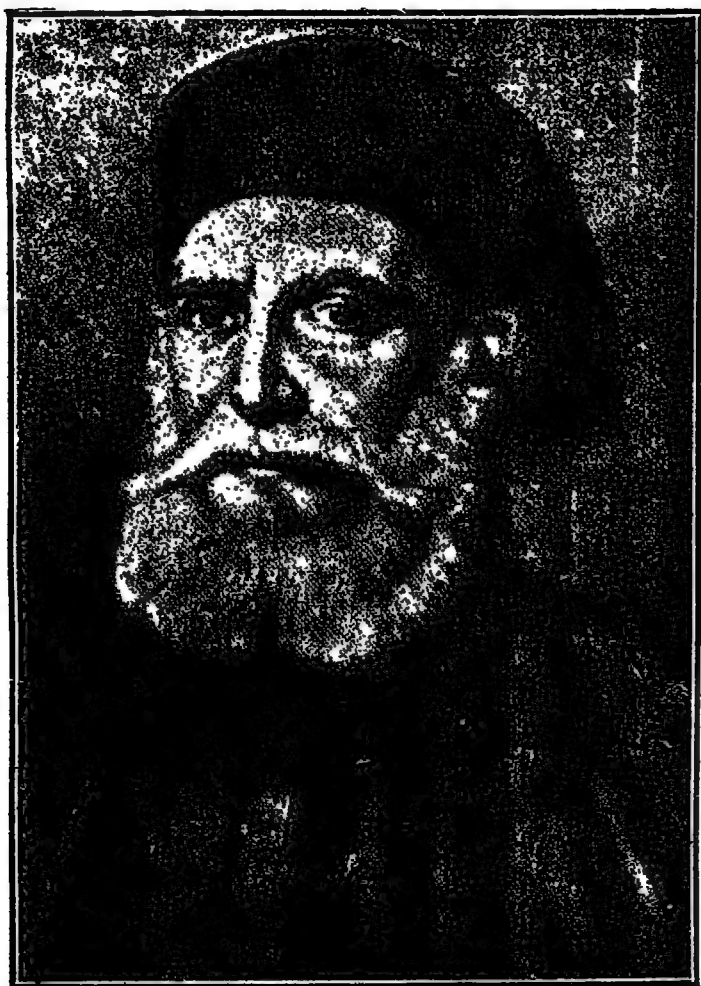


السفن المصرية التي اشتركت في معركة نافار

أى اكتراث بما أرسله إليه كادرنجتون الأميرال الانجليزى من الأذارات
الشديدة وقد تدمر إبراهيم من كادرنجتون فقال لمرجه الفرنسي « تالله إني
لم أشهد طيلة حياتي مثل هذا الفظ ولا سمعت كهذه النغمة التي يخاطبني بها »
وهذه على التحقيق أول مرة وإن لم تكن الأخيرة التي اصطدم فيها المزاج
البريطاني بالمزاج المصري . وسرعان ما وقع بنا كان في الحسبان . فان كادرنجتون
رابط بأسطوله أمام الاسكندرية وأرسل إنذاراً نهائياً هدد فيه بإطلاق
النار عليها . وفي الوقت نفسه نزلت حملة فرنسية في شبه جزيرة المورة
(سبتمبر سنة ١٨٢٨) وهنا اضطرت الجيوش المصرية إلى الجلاء عن
المورة بناء على اتفاق وضع بين الانجليز وبين محمد علي . وكان هذا الاتفاق

أول اعتراف رسمي بمركز محمد علي . وهكذا جاءت نتيجة الثورة المصرية شديده من بعض الوجوه بنتيجة الثورة الفرنسية. فأن كلتا الثورتين أدت إلى اتحاد الدول العظمى ضدها اوضع حد لتوسعها الاستعماري^(١) ثم اشتد الكفاح بين محمد علي والسلطان محمود عشر سنوات كاملة تمكنت في خلالها الجيوش المصرية من اكتساح الأمبراطورية العثمانية وكادت بانتصاراتها المتوالية أن تزعزع أركان السلم الأوربي . ذلك لأن السلطان وضع نصب عينيه التخلص من هذا الوالى العنيد بينما أن خسرو الصدر الأعظم كان يتعطش للانتقام لنفسه بما أصيب به من الفشل بابعاده عن مصر . من أجل ذلك انتهز الاثنان فرصة تغيب محمد علي في مكة حيث قصد إليها في مهمة كلفه السلطان قضاءها فأرسلا إلى القاهرة والياً آخر يدعى لطيف بك لتدبير مؤامرة لاغتيال محمد علي . وصدرت في الوقت نفسه أوامر بتعيين ابراهيم أميراً لمسكة أو بعبارة أخرى صار رئيساً لأبيه وهي تصرفات أدت إلى زيادة الشحنة بين محمد علي والسلطان . ثم جاءت مسألة كريد فزادت الطين بلة . فقد كان مقرراً من قبل أن تستولى مصر على سويا مكافأة لها على ما أسدته للأمبراطورية العثمانية من المعونة في إخماد فتنة اليونان . ولكن استعيج عن سوريا بكريد التي ظلت في قبضة المصريين من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤١ على أن محمداً علياً وقد أحفظ صدره هذا التصرف انتهز فرصة هزيمة الباب العالي في الحرب

(١) من المحقق أنه لولا اتحاد الدول ضد مصر وتركيا لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب التي عاد منها ابراهيم باشا إلى مصر وعلى رأسه أكاليل الغار وقد قدر بعضهم ماتكلفته مصر في حملة المورة بعشرين مليون فرنك وثلاثين ألف مقاتل .
المغرب ،



البطل ابراهيم باشا فاتح سوريا



الأمير بشير الشهابي

الروسية التركية فبدأ يغزو سوريا قبل أن يهاجمه أحد ^(١) وسرعان ما سقطت عكا في يد ابراهيم (مايو سنة ١٨٣٢) وهي التي دوخت نابليون من قبل وكان لهذا الانتصار صدى كبير وهيبة أكسبت الجيوش المصرية قوة على قوتها وجعلتها تندفع إلى الأمام وتتخطى من فتح إلى آخر عبر سوريا وبلاد الأناضول

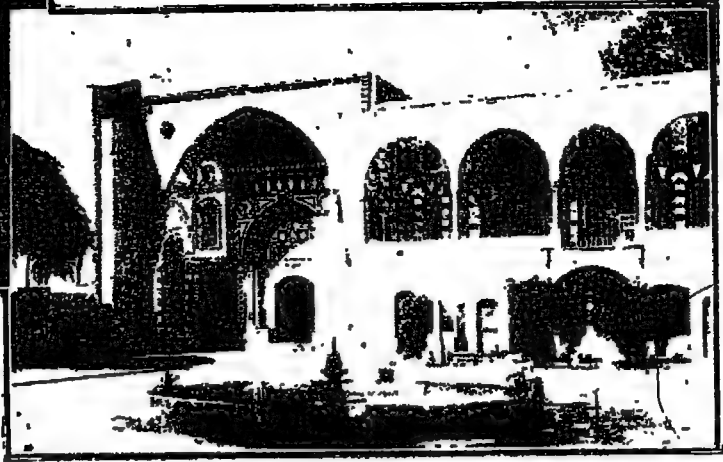
فتح سوريا

(١) يعتبر فتح سوريا وما أتاه ابراهيم باشا فيها من ضروب الإصلاح صفحة ذهبية خالدة في تاريخ محمد علي ولذا رأينا أن نشير إليها هنا بإيجاز . لقد رأيت مثلاً ما كان يجيش في صدر محمد علي من المطامع الكبيرة وما كانت تحدّثه به نفسه من العمل على جعل بلاده مصر دولة مستقلة عظيمة يحسب الغير حسابها . فما كاد أن يدب الخلاف بينه وبين السلطان ويستحل أمره حتى عقد النية على غزو سوريا تنفيذاً لخطّة سبق أن دبرها مع الأمير بشير الشهابي الكبير أمير لبنان عند مجيئه إلى القاهرة في سنة ١٨٢١ لالتماس شفاعته محمد علي بماله من الحظوة في أعين جلالة السلطان في العفو عن عبد الله باشا وإلى عكا .

وطيب محمد علي خاطر بشير وأسكنه في بني سويف وأرسل في طلب العفو المذكور ولبت ينتظر وصول الرد من الأستانة . ولكن سرعان ما انشغل باله بمحوادث المورة وتجريدة الحملة السالف ذكرها لتدوين اليونان . وفي أبان حرب المورة ورد الرد من الأستانة وفيه قبول شفاعته محمد علي وصدور العفو عن عبد الله باشا . فعاد الأمير بشير إلى وطنه مغتبطاً أشد الاغتياب بصدقة محمد علي مظهر استعداده الكلي لرد هذا الجميل بمثله وذلك بمساعدة محمد علي على تحقيق مطامعه في الشام متى حان الوقت الملائم لذلك .



شكل الصالون في
« بيت الدين »



« بيت الدين » وهو قصر الأمير بشير الشهابي الذي نزل فيه إبراهيم باشا عند غزو سوريا = ولشد ما كان ابتهاج عبد الله باشا بهذا العفو الذي حمّله إليه الأمير بشير . وكان المؤلف في أمثال هذه المناسبات الخاصة بالصلح أن تطلب الجنود العثمانية نفقات معينة ولكن عبد الله باشا لقلة ذات يده اضطر إلى فرض ضريبة على المقاطعات والتجأ إلى معونة الأمير بشير .

على أن عبد الله باشا قابل جميل الأمير بشير بضده ومن ثم ازداد الجفاء بينهما . ولما كان محمد علي قد استقر في روعه أن نجاحه في وساطة الشفاعة لعبد الله باشا سوف يضم الأخير والأمير بشير إلى جانبه عند قيامه بفتح سوريا فقد أحب أولاً أن يستوثق منهما . فابتدأ بالأمير بشير وأرسل طالباً بعض ما يحتاجه من الأخشاب لبناء السفن . فلي الأمير الطلب ولكن عبد الله باشا منعه . فقال ذلك محمداً علياً وعده بخالفه لأمر الدولة لأن السفن المراد انشاؤها كانت في الواقع للحكومة العثمانية . فقرر الاقتصار منه . ومن ثم جرد ضده في سنة ١٨٣١ حلة في البر والبحر بقيادة ولده إبراهيم باشا . وسارت الحملة البرية بطريق العريش قاصدة فلسطين . وسرعان ما استولت على غزة ويافا بينما كان إبراهيم قد ركب البحر مصحوباً بحاشيته على أن يلتقي بالجيش في يافا . ومن ثم سار في طليعة جنوده إلى عكا فبلغها في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٤٧ =



حيفا وخليج عكا

== فضرب عليها نطاق الحصار برا وبحرا حتى كان يوم ٢٦ القعدة من السنة نفسها لحمل عليها حمله صادقة انتهت بتسليم المدينة . وكان بين من استسلم عبد الله باشا نفسه فأرسله ابراهيم باشا بناء على طلبه إلى الاسكندرية فوصلها في ٣ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ ودخل على محمد علي فاستقبله استقبال الوزراء وعفا عن تقصيره السابق وبالغ في إكرامه وضيافته. وتخليدا لتاريخ فتح عكا أنشد الشاعر شهاب الدين هذين البيتين وقد نقلناهما مع الأبيات التالية الأخرى عن كتاب " تقويم النيل " لسعادة أمين باشا سامي :

لقد نصر الملك عزيز مصر وبلغه المنى عزاً وملكا

فنادته العلا أن طب وأرخ بمجد الامز تفتح ألف عكا

وفي ١٠ المحرم سنة ١٢٤٨ تحرك الجيش قاصداً دمشق فبلغ ضواحيها في ١٤ منه وما هي إلا ساعات حتى فر والها على باشا مصحوباً بالشوربجي والموظفين والأعيان عدا ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ من المشاة . ثم حضر إلى المعسكر نفر من الأهالي طالبين الأمن فأمنهم ابراهيم باشا . وعند شروق شمس اليوم التالي قصد إلى دمشق الأمير بشير في نحو ٥٠٠ من الفرسان والمشاة بينما ذهب إليها ابراهيم باشا فخرج إليه كبار الاعيان ومسحوا وجوههم بتراب أقدامه . وفي المساء دخل المدينة فأنشد بعضهم هذين البيتين ==

إلى أن بلغت أبواب الاستانة نفسها (فبراير سنة ١٨٣٣) هنالك



ابراهيم باشا داخلا عكا راجلا، على رأس جيشه
تدخلت روسيا في الأمر ورأت أن تحمي العاصمة التركية بجيوشها
وأساطيلها .

== تخليداً لتاريخ دخولها :

ولما جل شأن عزيز مصر ودان لعزه غرب وشرق
دعته الشام شرقى وأرخ يمين العز قد ملكت دمشق
وقد أمر محمد علي في يوم ٢٢ المحرم بعمل نيشان مكتوب عليه اسمه باحجار
الماس النفيسة وأرسله إلى ابنه تذكراً وتهنئة بفتح عكا .
وفي ٩ صفر سنة ١٢٤٨ انتقل صارى عسكر ابراهيم باشا في خمس فرق من الجند
قاصداً حص حيث كان ينتظر الجنود العثمانية بقيادة محمد باشا والى حلب وعثمان باشا
وعلى باشا والى دمشق السلف ذكره وغيرهم .

وفي ٨ يولية سنة ١٨٣٢ دارت معركة حامية بين الفريقين قتل فيها من الاتراك
٢٥٠٠ وأسر منهم ٢٠٠٠ بينما خسر جيش ابراهيم ١٦٢ جرحى و١٠٢ قتلى وفر
الباشوات نحو حماه تاركين معسكرهم وبداخله ٢١ مدفعاً استولى عليها ابراهيم باشا كما
استولى على أوراق مهمة نساها محمد باشا . وسلبت حمص وأنشد شاعرهم هذين البيتين ==



صورة تذكارية لدخول ابراهيم باشا عكا هذها معالي محمود نغرى باشا إلى دار الكتب الملكية.

== مغلداً تاريخ الاستيلاء عليها :

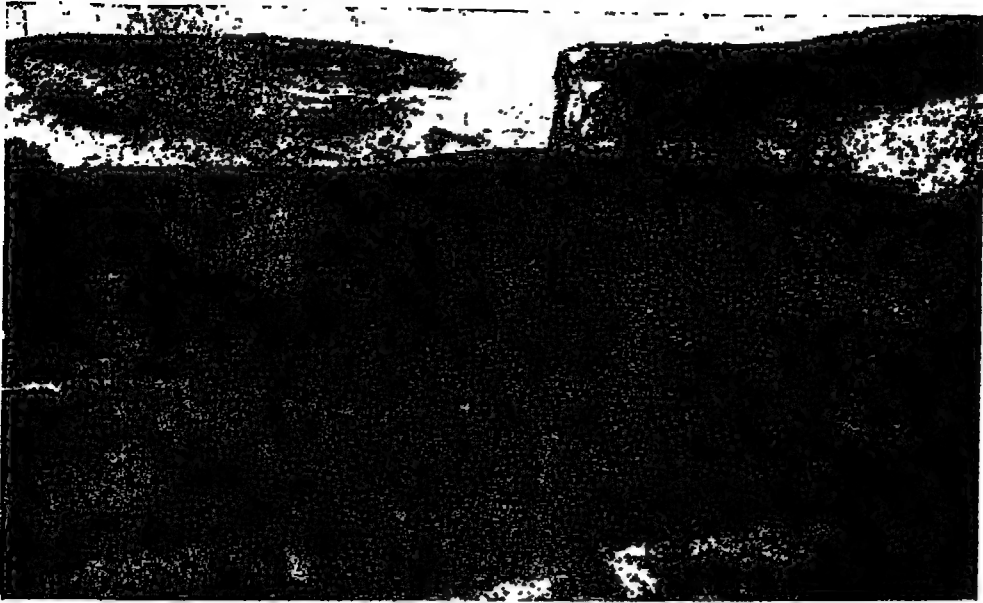
ياعزيزاً بمصر لازال يرقى في كمال ما أن يشاب بنقص
قر عيناً فالخط يدعوك أرخ حزت في جاء قوة ملك حص

وما كادت الركبان ان تسير بأبناء هذه الانتصارات حتى وقع الذعر في قلوب أهل
سوريا وأصبحوا يخشون سطوة هذا الفاتح العظيم . وما كاد أن يتحرك جيشه في ١١
صفر سنة ١٢٤٨ قاصداً حماه حتى استسلمت له المدينة بعد أن تخاذلت أمامه الجيوش
العثمانية وعددها يبلغ العشرة آلاف مقاتل . ففر منها نحو ألف وخمسمائة مقاتل ووقع
الباقيون في الأسر وقد أنشد بعضهم مؤرخاً يوم دخول حماه فقال :

عظيم مصر أدام الله سطوته حاز المالك من دان ومن قاصي
هذي حماة وهذي حص أرختا مجد حوى الشام واستولى على العاصي

وفي ١٤ صفر تحرك الجيش قاصداً المعرة ومنها إلى تل السلطان في طريقه إلى
حلب فوصلها في يوم ١٨ صفر وخرج إليه الأهليون يستقبلونه بالعز والجلال معلنين
طاعتهم للصاري عسكروا وأنشد شاعرهم :

الحظ أقبل بالبشائر والها وصفا الزمان وراقت الصبابة



البوابتان الشهيرتان عند مدخل مقاطعة كليكيافى الاناضول وهما تطلان على سهل جيهان
وقد نقرتهما يد الانسان ومنهما تبرت جيوش سميراميس واكر كسين وداريوس
واسكندر الأكبر وهرون الرشيد وجود فرى دى بويون وسليم الاول
وابراهيم باشا لغزو الاناضول

ودعا السرور عزيز مصره وورخا ازف المجال وهذه الشبهاء
وما كاد أن يستقر المقام براهيم باشا حتى أصدر فى اليوم التالى ١٥ صفر أمرا
بانتخاب أعضاء المجلس الذى أمر بإنشائه عقب استيلائه على دمشق وكان مجموع
الأعضاء ٢٢ شخصا . ولكى تعرف مبلغ حب هذا الفاتح العظيم فى إقامة موازين
العدل ومبلغ سهره على خير الرعية نسرد لك ترجمة الامر التركى الذى أصدر بهذه
المناسبة منقولاً عن كتاب "تقويم النيل" قال :

"انه بالنسبة للحديث القائل بأن كل راع مسؤول عن رعيته وجب علينا النظر
فى أمور الرعية وأحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه التى لا يحصل إلا
بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل الاحكام فيهم بالحق قد استحسنا تشكيل
مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الراى من الأعيان والأكابر والتجار
والوجوه للنظر فى القضايا والمشورة فيها . ولذلك قد اتخبتنا كم من عموم أهل الشام =



السيد محمد باشا شريف
والى ألوية الشام ثم ناظر المالية



محمود بك الأرتوطى ناظر الجهادية
وجد سعادة عزيز باشا عزت

== وأذناكم لسماع الدعاوى وبتحويل الشرعية فيها على الشرع الشريف والفصل في السياسية برأيكم وبعد المشورة وتداول الآراء بين أرباب المجلس جهراً واتفاق الآراء يحكم بما يتفق عليه ثم تقديم تقرير بما يتقرر لمتسلنا للتنفيذ . ويكون ذلك بغير ميل ولا غرض نفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف لكبير ولا لصديق ولا لوجيه . وكل من أخفى رأيه لعله أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجالس فيكون قد خالف أمره وبذلك يكون قد أوقع نفسه تحت الملامة . وقد صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم فاعتموا ثواب الرعية وخطه الخدمة الدينية الجليلة والحذر من الخلاف .

ولما وصلت جيوش ابراهيم باشا إلى عكا واستولت عليها وتجاوبت ارجاء الشام بأبناء هذه الانتصارات الباهرة استولى القلق على الباب العالي وأظلمت الدنيا في عينيه ورأى أن المسألة بعد أن كانت قاصرة على تأديب عبد الله باشا قد تحولت إلى فتح سوريا ومحاولة الزحف على دار الخلافة . فاستقر الرأي على إرسال جيش تركي بقيادة الصاري عسكر حسين باشا لصد ابراهيم باشا . وقد انضم إلى الأتراك محمد باشا والى حلب وغيره من البشوات المنهزمين . فتقدموا جميعاً إلى مضيق ييلان الشهير وحصنوه أشد تحصين . ولما وصل ابراهيم باشا في ٢ ربيع الأول إلى هذا المضيق شرع ينظم جيشه ويوزعه بين الرن والآكام . ثم نشبت المعركة حامية بين الفريقين فاسفرت عن هزيمة الأتراك وتركهم سلاحهم ومدافعهم عدا غنيمة كبرى بأيدي المصريين . وقد خرج أهالي ييلان للترحيب بالفاتح المصري وأنشد بعضهم قائلاً :

هاتان الصورتان أهداهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب



سريزي بك باشمهندس دار الصناعة

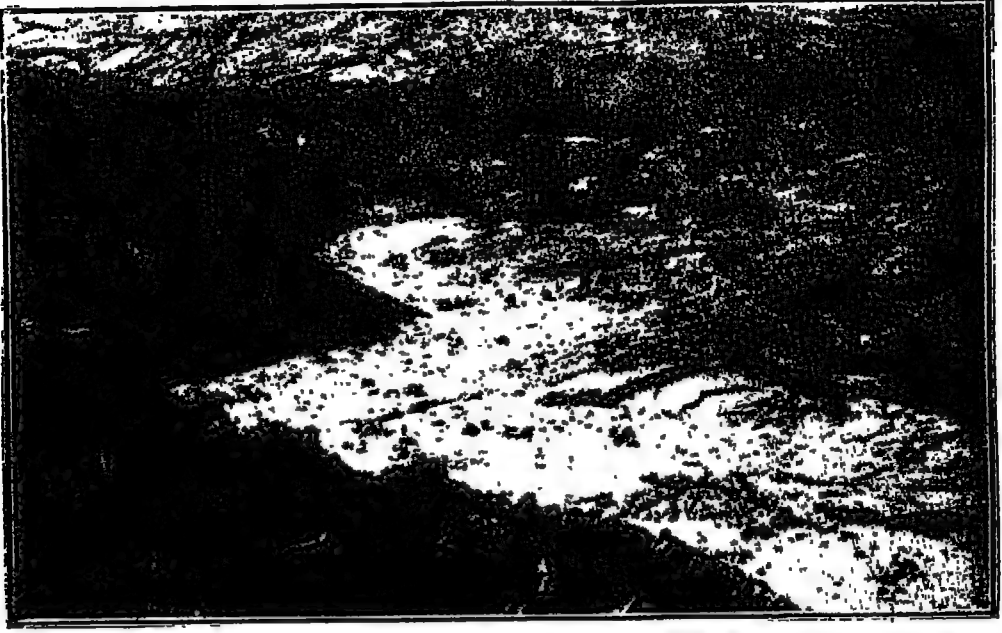


أدم بك

مدير المهمات

ملك مصر أدام الله صولته وزاد دولته حسناً وإحساناً
 علياً همته قالت مؤرخة مضيق ييلان حين الجهد في لانا
 وبعد هذا النصر الباهر واصل ابراهيم باشا زحفه بلا كبير مقاومة في آسيا الصغرى
 فاجتاز جبال طوروس قاصداً الاستانة. وكان قد علم بأن الباب العالي أخذ يعد
 جيشاً عرمرماً بقيادة رشيد باشا فشرع ابراهيم من ناحيته بجند الجنود ويتأهب
 للاقاة خصمه.
 وبينما كان هذا يجري في سوريا كان ناظر الجهادية محمود بك الارثوطي وهو جد
 صاحب السعادة عزيز عزت باشا منهمكاً في مصر باعداد المعدات وتجنيد الجنود وتزويدهم
 بالسلاح بأمر محمد علي باشا لسد النقص في صفوف القتال.
 وفي يوم ١٤ ربيع الثاني صدر أمر محمد علي باشا بتعيين قوله لي محمد شريف بك
 الكنتخدا حكاماً مستقلاً لولاية عريستان الملحقة بالحكومة المصرية وذلك بناءً على
 استحسان ابنه ابراهيم باشا.
 وفي يوم ١٦ جمادى الأولى عين أدم بك ناظراً للجهادية والمهمات الحربية وأخذ
 يهتم أيضاً بتجهيز المدافع اللازمة للحملة المصرية في سوريا.
 وتم وقتئذ صنع خمس سفن حربية بدار الصناعة بأسكندرية وبدى بإنشاء خمس
 سفن أخرى كل ذلك تحت مراقبة سريزي بك الفرنسي باشمهندس دار الصناعة.
 هذه الصورة أهداها للعرب سمو الأمير عمر طوسون

فانسحبت الجيوش المصرية ولكن روسيا ما عتمت أن طالبت
تركيا بـثمن هذه المساعدة وهي معاهدة (هونكاراسكلاسى) التى



صحراء الصفاء فى جهة جبل الدروز حيث وقعت المعارك بين ابراهيم باشا والدروز فى جهة اللجة

== وفى يوم ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ أرسلت إلى محمد على باشا انباء بأن ابنه ابراهيم باشا
التقى فى اليوم السالف الموافق أول ديسمبر سنة ١٨٣٢ بجيش رشيد باشا وعدده نحو
١٠٠٠٠ مقاتل بالقرب من قونية فشنت شمله وغنم المدافع والاسرى ومنهم سلاح
دار الصدر الاعظم وقائد الجيش محمد باشا الكريدلى . ومن ثم أصبح الطريق
للاستانة مفتوحاً أمام ابراهيم باشا فاخترق آسيا الصغرى وأصبح يهدد الاستانة .
وهنا بدأ الذعر يدب فى قلوب الدول الأوروبية وأقلقها ما أحرزه ابراهيم باشا
من الانتصارات الباهرة وخشيت أن يؤدى هذا الفوز إلى انهيار الامبراطورية
العثمانية وفتح باب المسألة الشرقية قبل الاوان المناسب . فقررت هذه الدول وفى
مقدمتها روسيا التدخل فى النزاع وأوفدت إلى مصر الامير مورافيف لاقناع محمد
على بضرورة وقف الزحف على الاستانة وتهديده فى حالة الامتناع .

وضعت الأمبراطورية العثمانية تحت رعاية روسيا وحمايتها (٨ يولية سنه ١٨٣٣) وقد قنع محمد على بالاستيلاء على سوريا وأدنة بمقتضى معاهدة « كوتاهيا » وبصدور فرمان شاهانى بمنحه الباشوية (٦ مايو سنه ١٨٣٣)

وهكذا أصبح قيام أمبراطورية فى الشرق الأدنى حقيقة واقعة من



جيش محمد على فى لباسه العسكرى

== وقد وفق الأمير فى مهمته وأرسل محمد على إلى ابراهيم بوقف الزحف . وبعد .
مفاوضات مضمينة وضع فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٤٨ الموافق ١٤ مايو سنة ١٨٣٣ مايسمونه « وفاق كوتاهيا » وبمقتضاه تكون سوريا قسما من المملكة المصرية وأن يكون ابراهيم باشا حاكمها وجايا لخراج أدنة .
ومن ثم رجع ابراهيم إلى سوريا ووجه اهتمامه إلى تدبير شؤونها بالعدل .
والانصاف وبني له بادية . بدء قصر فى انطاكية وأنشأ فيها القشلاقات وعين اسماعيل بك والياً على حلب كما جعل احمد منكلى باشا والياً على أدنة وطرسوس واحتفظ لنفسه بالنظر فى الشؤون والاجراءات العسكرية .



وقائع مصرية

الجده ناري الام والصلوة والسلام على سيد العرب والعجم اما بعد
 فان تحريرا لاورا الواقعة من اجتماع جنس خدام المتدجين في صحيفة
 هذا العالم ومن اختلافهم وسكانهم وسكونهم وبعادلاتهم ومنازلهم
 التي حصلت من احتياج بعضهم بعضا هي نتيجة الانقياد والبصر بالذبح
 والابقان والظهار للخدمة العربية ويجب معالته بطلون على كيفية
 الحال والزمان وهذا واضح لدى اولى الالاب ومن حيث ان الامور
 الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وفي انواع الصنائع التي
 باستعمالها يتاخر الرخا والتيسر في اسياب الحصول على الرفاهة وعلى
 الاجتناب والاحتراز عما يتبع منه الضرر والاذا خصوصا في مصر
 بل هي اساس نظام الملبدان وتدير احوالها فكم فكر حضرت اعدنا
 في النعم في ترتيب احوال الملبدان وعندها اعتدال امورها وتوحيدها
 وفي نظام القرى والملبدان ورفاهة سكانها وراحتهم ووضع ديوان الجبال
 فاصداس وضعه ان ترد الامور الجادة النافع من النفع والضرر الى
 الديوان المذكور وان ينقّب وينتقب فيه منها ما من ينفع الامانة حتى
 اذا نفع عند الملبدين فوعا النفع والضرر ينقّب ما منه نفع المصلحة
 وينقّب عنه ما منه يحصل الضرر وهذه الارادة الصالحة الصادقة من حضرة
 معادة ولي التمس وان كانت قد جرت في ديوان الجبال الى الان لانها لم تكن
 عروسة اتماما قاراد ولي التمس ان الاشارة الى ترد الى الديوان المذكور
 تنتفع وينتقب منها ما هو مفيد وتنتشر عواما مع بعض الامور التي تزد من
 مجلس المذاكرة الساي والامور والظواهر في ديوان الجبال والاشعار
 التي تأتي من اقطار الجبال والسودان ومن بعض جهات اخرى وتلك لا يكون
 كله نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التي هي مقصود ولي التمس وتوحيها
 لممارسة الملبدين النفع وباني الحكام الكرام الملبدين تدير الامور
 والمصالح ومن كون هذا التي من لاج في ضمير الذات البنية ولي التمس صدر
 امره الشريف بطبع الامور المذكورة وانتشارها عموما مستعينا بامر الله وسبب
 واشهرت بالوقائع المصرية وباتت حسن التبه

جواهر محمد خندان ورواها تصليط سلطان انبيا بتاوتلنقند بصره
 معلوم اوله كه نسخة مطبوعة عائدة منشورة صفوف مطورا ولان نوع بن
 آدمك الطبع عنت واجتماع واتلاف واختلاف ليدن نشئت ليدن حركات
 وسكان وبكديكره احتياج اقتضائه وانع اولان معاشرات
 وعاملا تلزمت معنى وقائع وماتى موافقى مطوخر برابله مائة ليدن
 فوئوتشرا وله رف مراح ومنه وانف وكثيبت حاله عارف اول لى زهر
 جهت نه وعمره ندى وبهر صورت ابقان وتصير مودى رسالت ابدوى
 فورا ودرمات قلوب اولى الالابدر سيما خطة مصر ويدا مصر كماله
 فزراعت وسجرات وانواع صنائع وحرف مواد ليدن سورده ظهور اولان
 حتى رفق امور اياهه موجب وقاه ورعا وله حتى اسياب عمكة نلى
 استحصائه سى وكوشش رورث ضرر وكرت اولان كيتايدن اجتناب
 واحترازه جهد وورث مرمابه نظام وستظام عارت تراولاد ومدار واية
 آسايش وراحت اهالى وعاد اولد يقدن فكر تديرى انتظام عارت
 قراولاد بصرف ورثى رويش وقايت وراحت فترى عاده وقعه اوله
 كلان اصف مرصحت معاتاد فمرك جنال ديوانك وضع وتليستند
 مراد معاتاد اعتباد اورانه لى اقليم مصرى ما مورلى معرفت به حسب
 المصلحة متابع ومصارف دائرته الثانى خصوصات واتمه جنال ديوانه
 لى اولد ديوانه تنقّب ونتيج فلتقى فائد مساحل اوله حتى صورته
 تولى واتقضا بولى نشر انوب هر مرصحت كورين منقبت ومشرت
 ما مورلك معلوم لى روى موجب نفع اولان انتقاب وستلزم ضرر
 اولان اجتناب اولن صورته لى اولوب بوارادة خبرية خديوى بوانه
 خدي جنال ديوانه اولد نفعه احرار وفتد ابيه به لايقيه نشر وعلان
 اولن سى مجلس اوريد مذكرة اولان ودوان خديويده رويش فلتان
 خصوصك وجار ومودان ولا تلتدن رساير الحراف واكادى كلان
 اخار واولد ندى فله انوب ذكر اولان وقايع مطبوعة به علاوة فلتقى
 مقصود اولان فوئوت حسته نلى حسن حصوله ندى وما مورين عظام
 وسائر سكام ذوى الاحترازك موافقى معلمت اولان صفوف اموره
 اتا لى مودى اوله حتى واضح اولد ندى ضمير الها مسمير حضرت داورى به
 لايح اولوب طبع ونخيل ليه تنقّبته امر واراد لى سايخ اولد يقدن
 حست بيا لله ليدن طبع وشبه معاشرت اولن سى وقايع مصرى تامة اسم
 وشهرت وريش در والله التوفيق

طبعت هذه الوقائع المصرية ببيت خالق البرية بمطبعة صاحبة الفتوحات السنة يرواق مصر الجية

صورة الصفحة الاولى من العدد الاول من جريدة الوقائع المصرية اتى انشأها ساكن الجنان محمد علي باشا ويرى الى الجانب الايمن المقال الافتتاحي باللغة التركية وترجمته باللغة العربية الى اليسار



الوجهة الأديية بعد أن تمكنت
جيوش الفلاحين من صد
مستعمرهم الأتراك في ثلاث
معارك حاسمة وهى معركة حمص ،
وبيلان وقونية . وكانت الجيوش
العثمانية قد اختل نظامها بما أدخله
عليها السلطان محمود من الإصلاحات
وتسرب إلى قلوبها اليأس من جراء

مانزل بها من الهزائم على أيدي الروس
وخارت قواها بسبب خيانة خسرو
الذى حرّم من تولى القيادة العليا على أن
يرجع إليه في أمور التعليم

الترحيب الذى استقبل به المصريون من الشعوب المستعبدة فى الامبراطورية
العثمانية سرعان ما تلاشى أثره برفع سوريا وفلسطين راية العصيان^(١) ولم

قيام الفتن وقمعها

(١) بعد أن وضع اتفاق كوتاهيا على ما امر بك عاد ابراهيم باشا الى سوريا وشرع
بدير أمورها بما تقضى به أصول العدالة والانصاف ولكن بحى الاصطياد فى
الماء العكر ما لبثوا أن نفخوا فى بوق الثورة فاشتعلت نار الفتن بما حل ابراهيم باشا
على معالجة الأمور بمنتهى الحزم واستعمال الصرامة مع من ثبتت إدانتهم . ولما كانت
حوادث العصيان وما تلاها من الالامية بمكان رأينا أن نقص عليك بعض تفاصيلها .
، العرب ،

فى أواخر سنة ١٢٤٩هـ وأوائل سنة ١٢٥٠ أى حوالى منتصف عام ١٨٣٤ ثارت
بعض الفتن فى جهة الساط والكرك وامتدت إلى القدس . ثم سرعان ما امتدت إلى
السامرة وجبال نابلس كل ذلك و ابراهيم باشا مقيم فى القدس .
وما كادت هذه الأنباء تصل بمحمد على باشا عزيز مصر حتى أصدر أوامره فى أوائل
صفر سنة ١٢٥٠ بارسال عدة الايات إلى غزة مزودة بمهمات ومدافعها . بل أن بعض =



أحد مشايخ الدروز

تقمع فتنة الدروز والموارنة إلا في سنة ١٨٣٨ ثم لاتنس بعد كل ما مريك أن العبء كان فادحاً بحيث كانت تنوء به قوة مصر . وأغلب الظن أن شعباً آخر عدا الشعب المصرى ما كان في مثل هذه الأحوال يتردد في المناداة بالثورة احتجاجاً على

== الألايات التي كانت قد حشدت لارسالها إلى الحجاز قد صدرت إليها الأوامر بالذهاب إلى الشام . ولم يكتب محمد علي بذلك بل جند بعض عربان قبيلتي أولاد علي والجميعات وبعث بهم إلى غزة وأمرهم باستعمال الصرامة مع العربان الثائرين .

وفي إبان شهر صفر سنة ١٢٥٠ تمكن ابراهيم باشا من هزيمة أشقياء العربان في جهات نابلس والقدس . ولكن هذه الهزيمة ساعدت على انتشار الثورة في كافة أنحاء سوريا مما حدا بمحمد علي إلى السفر من الاسكندرية في أواخر الشهر المذكور قاصداً إلى يافا حيث جعل وجهاء البلاد يتقربون منه . وقد اجتمع محمد علي بولده ابراهيم وتباحثا فيما ينبغي اتخاذه من الاجراءات لقصم ظهر الفتنة التي كانت مازال مستعرة وبخاصة في جهتي نابلس والقدس .

وأخيراً أدت أعمال ابراهيم إلى التغلب على الثوار وقمع الفتنة لا في جهة صفد وحدها بل وفي القدس ونابلس أيضاً . ثم توجهت الجنود المصرية إلى السلط والكرك فهدموها .

على أن الفتنة بعد أن نامت قليلاً عادت إلى الظهور مرة أخرى في جبال النصيرية حيث خرج جماعة من الأهالي للاشتباك بفرقة من الجنود المصرية كانت في طريقها من اللاذقية إلى حلب فأعادوها من حيث جاءت .

وكان الأمير بشير الشهابي قد أرسل في خلال ذلك الوقت ولده أميناً إلى محمد علي ليخبره بانتظار والده لأوامره بتسيير القوات اللازمة من صفد لقمع الثائرين . فأصدر إليه محمد علي الأوامر اللازمة . وما هو إلا قليل حتى اتحد ٧٠٠٠ من المصريين مع ٨٠٠٠ من الدروز والموارنة بقيادة الأمير خليل بن الأمير بشير أمير لبنان وسار الجميع إلى جبال النصيرية حيث تمكنوا من اخضاع الثائرين نهائياً وحملوهم على القاء سلاحهم ==



انموذج من سهر ابراهيم باشا على سير العدالة
كما تشهد بذلك كتبه الثلاثة المذكورة في هذه الصورة إلى والي نابلس سليمان أفندي
يأمره فيها باقامة العدل بالقسطاس المستقيم ويحذره من الانقياد للعواطف وحب الانتقام
= وزيادة في الاحتياط وخوفا من العودة إلى الثورة شرع ابراهيم باشا في نزع
سلاح السوريين. وقد تمكن من ذلك ولكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين .
وبعد أن خلا بال ابراهيم من نزع سلاح السوريين بدأ بمساعدة الأمير بشير في
الهجوم على أهالي الشوف والمثني في لبنان وتجريدهم من سلاحهم وبذا استتببت السكينة
في انحاء البلاد وهدأت الأحوال فيها واستأنف ابراهيم أعمال الإدارة الصالحة بما عهد =



حسين محمد كيان وأحد طلبة بعثة محمد علي
في فرنسا

قسوة محمد علي ولكن الفلاحين
بدلاً من ذلك كانوا يموتون بالآلاف
أو يفرون أو يشوهون أجسامهم
عمداً هرباً من الانخراط في سلك
الخدمة العسكرية البغيضة .

ولو كان محمد علي ترك وشأنه
لكان الأرجح أن يحجم عن تجديد
الكفاح ولكن بريطانيا ما كان
ليرضيها بحال ما أن تسد دولة شرقية
الطريق البري في وجهها. ولقد ترتب
على تخوف محمد علي من أنه إذا

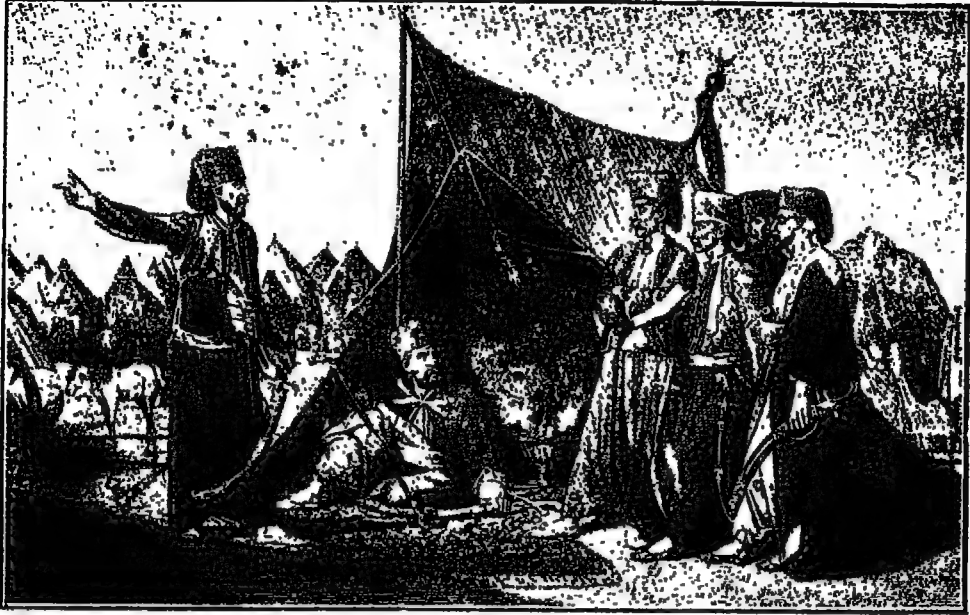
== فيه من الحزم المنطوي على حب العدالة والانصاف كما تشهد بذلك كتبه إلى وإلى نابلس
المنشورة في الصفحة السالفة. وقد طلب فيها معاملة الشائر محمد الصادق معاملة تنطوي على
العدل وعدم الانقياد لحكم العواطف . وزاد على ذلك أنه تهدده بالاعدام بعد إذ تبين
أن طلبه لإعدام الشائر المذكور كان بلا وجه حق . وقد جاء في الخطاب الثالث قوله
« إذا كنتم أعدتموه فوحي الكعبة سأبعث أجيبكم بخشيتين وأرمي رقبتم يدي ..
وإذا لم أفعل فلن أكون إبراهيم » .

على أن محمداً علياً أحب استخدام سوريا لتوسيع دائرة حكمه فشرع في جمع الرجال
والخيول بالوسائل القهرية ، مما غضب له الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩
وقرر إرسال تجريدة قوامها ٨٠٠٠ مقاتل تحت قيادة حافظ باشا وسيرها ضد
إبراهيم باشا بقصد إخراجه من سوريا .

تركيا تحاول إخراج إبراهيم باشا من سوريا

وكان شبح الذهب في الأقاليم الاستوائية ما يزال ماثلاً في مخيلة محمد علي . فعقد النية على
الذهاب إلى السودان للإشراف بنفسه على أعمال الكيمايين القائمين بالبحث على المعادن في
تلك المناطق النائية . وهكذا شخص إلى السودان تاركاً أمور مصر في أيدي حفيده عباس
الثاني وكان قديعين من قبل مديراً للقرية . ولشد ما كان اغتباط محمد علي عند ما رأى
الأمن موطداً في السودان والعدالة تجري مجراها في كافة ربوعه .

أعطاهما شبراً من الأرض أن تطمع في ذراع ثم فيما هو أكثر من ذلك
وهكذا دواليك ، أنه رفض بتاتاً منحها امتيازاً بإنشاء سكة حديدية عبر



جيش إبراهيم باشا في نصيبين

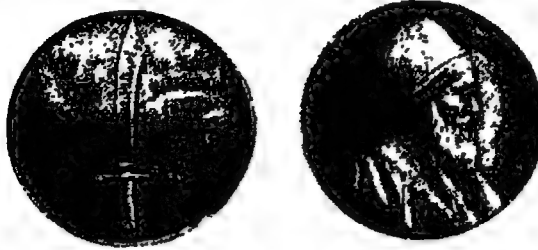
برزخ السويس (١٨٣٧) وإذ كانت لندن تنظر بعين السخط الشديد إلى
انتشار سلطة مصر على بلاد العرب حتى الخليج الفارسي فإنها انقلبت

== وبينما هو يجرى وراء سراب الذهب جاءتته أنباء الحملة التي جردها السلطان محمود
بقيادة حافظ باشا لإخراج إبراهيم باشا من سوريا . فاهتم لهذا الخبر وقفل راجعاً إلى
مصر بعد أن كتب إلى ولده إبراهيم يكلفه بالاستئصال في الدفاع . فصمم هذا على
حشد قواته في حلب وشرع يعد عدته للفتك بالحملة التركية المذكورة .

وكان السلطان محمود لم يكفه توجيه تلك الحملة الهائلة برآبل قرر في الوقت نفسه
إرسال عمارة بحرية إلى المياه المصرية . والآن فاسمع ما أنزله القدر بالقوات التركية
البرية والبحرية.

ففي ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ تقدم إبراهيم باشا من حلب لملاقاة جيش حافظ==

تناضل بشدة عن مبدأ أصيانة سلامة الامبراطورية العثمانية ولهذا احتلت عدن من قبيل الاحتياط لتكون بمثابة مخفر أمامى ضد مصر. ولكن فرنسا كانت من الناحية الأخرى تؤيد توسيع مصر. وسرعان ما وقعت الأزمة عند ماتين لمحمد على أن المعاهدة التجارية بين إنجلترا وتركيا (١٨٣٨) أصبحت خطراً على نظام التجارة الحكومية بأسره إذ كان يعرف أن ما تعقده تركيا من



مدالية لمحمد على باشا ضربت في باريس سنة ١٨٤٠

تذكراً للمعركة نصيين - الوجه الآخر للمدالية

المعاهدات يسرى مفعوله على مصر حتماً. ولذا طلب جعل مصر مستقلة

== باشا . وفى يوم ١٣ منه التقى به فى جهة نازيب فنشبت معركة عنيفة بين الفريقين مدة ثلاث ساعات دارت فيها الدوائر على الجيش التركى ففر هارباً إلى مرعش بعد ما غنمه ابراهيم باشا من المدافع والمهمات والأسرى . وقد قدرت خسائر القوة التركية ربيعاً بما يأتى ٦٠٠٠ قتلى و ١٦١٠٠ أسرى و ١٤٥ مدفع من جملة ١٦٠ مدفع . ثم راصل الجيش المصرى زحفه فاستولى على نصيين واحتل مدائن عنتاب وقيصرية وملطية .

وفى ١٩ من هذا الشهر نفسه (أى مايقابل سنة ١٨٣٩) وقبل أن تصل أنباء هذه الهزائم إلى الاستانة توفى السلطان محمود الثانى فجأة (وأشيع أن خسرو هو الذى دس له السم) وخلفه على العرش ابنه السلطان عبد المجيد خان وهو بعد فى سن الثامنة عشرة . وقد اعتلى العرش والدولة أشد ماتكون اضطراباً من جراء ما أحرزه ابراهيم من الانتصارات الباهرة .

أما العمارة البحرية فإن قائدها أحمد باشا القبودان بعد أن رأى خسرو باشا يتولى منصب الصدارة العظمى أجمع أمره على أن يسلم عمارته جملة واحدة لمحمد على بدون حرب أو كفاح . وقد تم هذا كله فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ وكانت لهزيمة ==

عن الأمبراطورية من الوجهة التجارية . ولكن السلطان محمود رد على هذا الطلب بأن أعلن أن محمداً علياً ناثراً . فبادر هذا بغزو سوريا . وهنا شرع إبراهيم من جديد يكرر انتصاراته القديمة بالرغم من انضمام الجنرال « فون مولتكه » الكبير إلى جانب الأتراك . وأخيراً اضطر السلطان إلى فتح باب المفاوضات مع محمد علي ولكنه انتقل إلى جوار ربه بعد أن دس له خسرو السم على الأرجح .

وقد أصبح هذا الأخير صديقاً أعظم في عهد عبد المجيد السلطان الجديد . وهنا أعلن قبودان باشا منافس خسرو وعدوه الآن — بتحريض

== فرح عظيمة في مصر عما جعل محمداً علياً يصدر أوامره بأقامة المهرجانات والأفراح بمناسبة حضور أحمد باشا المذكور وانزاله في قصر خاص كضيف على عزيز مصر . وفي ١٣ جمادى الأولى أرسل محمد علي كتاباً مطولاً إلى وزراء السلطنة العثمانية أعرب فيه عن ارتياحه لتبوء السلطان الجديد عرش السلطنة ويعلم خضوعه وعبوديته وينصح بأقصاء خسرو باشا عن منصب الصدارة بعد أن تكبت الدولة بمشورته السيئة . وقد دافع عن عمل أحمد باشا القبودان أحر دفاع قائلاً إنه كان موقفاً في ضم العمارة التركية المركبة من ٢٣ سفينة إلى العمارة المصرية حقاً للدماء ولتكون العمارتان عدة للدولة في مدلهات الخطوب .

وفي ٢٢ من هذا الشهر نفسه أصدر محمد علي منشوراً في كافة أنحاء القطر بأنه تبين من مكاتبة الصدر الأعظم أن جلالة السلطان الجديد أصدر نطقه الشاهاني بالعدول عن مجادلة والى مصر وصرف النظر عما حدث بينه وبين جتتمكان والده من أسباب الشحنة والخصام ووعد بارسال النيشان كالمعتاد ولهذا فهو يأمر باطلاق المدافع والدعاء باسمه في خطب المساجد .

فلو كان الحظ شاء أن يقع الاختيار لمنصب الصدارة على رجل آخر عدا خسرو باشا أو لو كان هذا الرجل رجل سلام لاتهمز فرصة جلوس جلالة السلطان الجديد على العرش ومبادرة محمد علي إلى اعلان خضوعه وعبوديته له لاعادة المياه إلى مجاريها وتوحيد الجهة إزاء الدولة الغربية التي كانت واقفة بالمرصاد ترقب أول فرصة لتحقيق أمانيتها في تقسيم تركه الرجل المريض .

الفرنسيين — أنه انضم الى محمد علي وفعلا سلبه الاسطول . هذا في حين أن الجنود العثمانية بدأت تتردد في ابداء ولائها (يولية سنة ١٨٣٣) وهكذا صارت تلك الأمبراطورية غنيمة باردة يسهل وقوعها في أيدي هذا الباشا العتيد .

على أنه كان من سوء الطالع بالنسبة لمطامع محمد علي الاستعمارية - بقدر ما كان من حسن الحظ بالنسبة لتكوين مصر كأمة - ان سياسة بريطانيا في هذه الازمة كانت نفس السياسة التي عرفت عن بالمرستون ، سياسة التورط المنطوى على الجرأة والنشاط . ولما كانت غايتنا التقليدية هي صيانة الأمبراطورية العثمانية ضد مطامع روسيا بالتآزر مع فرنسا فقد

ولكن ... نعم ولكن ... شاء سوء الحظ أن يدفع خسرو بتأثير حقه القديم على محمد علي بمتاسبة طرده من مصر - على مامر بك - إلى دس الدسائس بقصد الكيد لخصمه القديم مما كانت تتيجه ازالة النكبات بتركيا وبمصر جميعا .

الدول الأوروبية تكيد لمحمد علي

والآن فائق بالك إلى ماسنصرده عليك من هذه الدسائس كما لخصناها عن كتاب

» قويم النيل « لأمين باشا سامي

ففي أوائل شهر رجب (سبتمبر سنة ١٨٣٩) عرض لورد بونسني (سفير إنجلترا في الاستانة) على الباب العالي استعداد دولته لارغام محمد علي باشا على رد العارة التركية بشرط تخويلها حق ادخال سفنها الحربية (سفن إنجلترا) في خليج الدردنيل والبوسفور لصد روسيا عند الضرورة .

ولكن فرنسا ما كادت تعلم بهذا السعى حتى كلفت الاميرال لالند قائد أسطولها في المياه التركية (١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٩) بعدم الاشتراك مع السفن البريطانية في أية حركة عدائية ضد محمد علي .

وكان قناصل الدول في الاستانة قد خشوا عند سماع انضمام العارة التركية إلى محمد علي أن يواصل ابراهيم زحفه على الاستانة بعد أن فقدت الدولة كافة جيوشها وأساطيلها فتدخل روسيا طبقاً لأحكام معاهدة (هونكار اسكلاسي) وترسل جيشاً لمحاربته فأرسلوا في ١٦ جمادى الأولى (٢٨ يولية سنة ١٨٣٩) مذرة مشتركة إلى الباب العالي وقعها سفراء فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا بالا يقررشيتاً في صدد المسألة —



لورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا سابقاً

== المصرية إلا باطلاعهم واتحادهم وأبدوا له استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد علي لحل الأشكال . فقبل الباب العالي وبعد يومين اجتمع السفراء في دار الصدارة العظمى للتشاور فيما ينبغي إعطاؤه لمحمد علي . وكان من رأى سفيرى انجلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشام لتركيا وعارض في ذلك سفيراً فرنسا وروسيا وطلباً منح محمد علي ملك مصر ولايات الشام الأربع . ثم انحاز سفير روسيا إلى الرأى الأول فقرر بالأغلبية . وطلب كبير وزراء النمسا عقد مؤتمر دولى في فينا أو لندن لاتمام البحث في القضية المصرية ولكن طلبه هذا لم يقابل بالارتياح فوقفت المباحثات . وتوالت الحوادث إلى أن أصدر محمد علي أمراً إلى حفيده عباس باشا الأول في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ بأنه تحقق من وصول عمارق انجلترا وفرنسا إلى بيروت وأنه وإن كان إرسالهما لا يدل على قصد سىء مبيت إلا أن الضرورة تقضى باتخاذ الاحتياطات اللازمة الخ .

معاهدة لوندرا

وفي ١٥ جمادى الأولى الموافق ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ امضيت معاهدة لوندرا وصدق

كان يلوح أن الحل البديهي الوحيد هو أن لا نعارض في دخول محمد على الاستانة حيث ينشئ الأمبراطورية نشأة جديدة. بيد أن حلا كهذا كان يقتضى بطبيعة الحال تحولا في مسلك السخط الذى سلكه بالمرستون حيال محمد على مما كان حربا بان يسيء الى شخصيته بقدر ما كان يحط من هيئته. أضف الى هذا اعتقاده بان النظام الاقتصادى الذى كان يتبعه محمد على كان على وشك الانهيار وفى هذا الصدد كتب الدكتور بورنج وهو ممن يتحملون أكبر نصيب من التبعة عن سير علاقاتنا الخارجية يقول «ان قوة الباشا وهمية بحته بحيث يعتبر عاجزاً عن ابداء أية مقاومة جديدة» (راجع التقرير الخاص بمصر وكندا وكذلك الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠)

علما مندوب الدولة العلية بعد أن وافقت عليها روسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا وهى تنص على ماأتى :

أولاً : الزام محمد على بارجاع ما فتحه للدولة العلية والاحتفاظ لنفسه بالجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة عكا فى هذا القسم .

ثانياً : أن يكون لانجلترا الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع الى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريرهم على العصيان لشغل الجيوش المصرية فى الداخل حتى لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانجليزية .

ثالثاً : أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وانجلترا معا حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

رابعاً : أن لا يكون لأحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور مادامت القسطنطينية غير مهددة .

خامساً : يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندرا. وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على .

وهكذا ترى كيف فتحت هذه المعاهدة أبواب الشر وأكسبت الدول حقا بدخول مياه الاستانة للدفاع عن العاصمة التركية بما أنها حاولت تجريد محمد على من مغامته فى سوريا . لذلك لم يكن عجباً أن ينظر بعين السخط إلى هذه المعاهدة ويرفضها لأنها =

ثم إن تقارير القناصل التي كانت على ما يظن تردد رأى الدوائر الرسمية في إنجلترا جعلت ديدنها اظهار عيوب تجاريه الاقتصاديه دون الالتفات الى ما كانت ترمى اليه هذه التجاريب من الغايات . واذ كان بالمرستون في طليعة المستعمرين فقد كان دائماً على استعداد لان يأمر بقلب أوضاع العلاقات الدولية رأساً على عقب أو أن يصرم جبالها بتاتا حتى ولو أدى ذلك الى نشوب حرب أوربية . كل ذلك كان بالمرستون على استعداد لان يفعله حرصاً على مسألة شكلية خاصة بالهوية الامبراطورية . وليس من شأنها أن نبحث فيما اذا كان من حسن السياسة أو مما يخدم المصالح الامبراطورية أن ننضم

== بحفلة له وهو الرجل الذي كان قد أخضع سوريا بأسرها وأباد جيوش الدولة العلية وأساطيلها وأصبحت أمامه الطريق خالية إلى الأستانة هذا عدا ما كان لديه من القوات التي تذيب عن ١٤٦٠٠٠ من الجنود النظامية و ٢٢٠٠٠ من الباشيورك منها ١٣٠٠٠٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والبالقون متفرقون في الحجاز والسودان وكريدومعتر فلما رأت الدول رفضه معاهدة لوندرا عرضت عليه أخذ ولاية عكا ترضية له وأن يضمها إلى مصر في مقابل انسحابه من سوريا . ولكنه رفض هذا العرض أيضاً .

رفض محمد علي لمعاهدة لوندرا

وما كادت الدول أن تضع هذه القرارات فيما بينها - دون أن تخبر بها محمداً علياً - حتى شرع عزيز مصر من ناحيته يصدر الأوامر إلى حفيده عباس باشا طبقاً لما تقتضيه الحالة السياسية وتطوراتها . ونظراً لأهمية هذه الأوامر ننقل لك بعضها ملخصاً عن كتاب «تقويم النبيل» إذ هي برهان ناطق على مبلغ عدم اكتراث ذلك المصلح الكبير بتهديدات الدول وصدق عزيمته على مقاومتها وتضحيتها بكل شيء في سبيل رفعة مصر :

قضى ٢٢ جمادى الأولى أمره بالتريث في العمل ريثما تتجلى والحالة الحاضرة المنظور

بأن عواقبها غير حميدة . .

وفي ٣ جمادى الآخرة صدر أمره إليه بما أنه يرى من الحالة الحاضرة تحزب الدول الأجنبية وإعطاء قرار من مجلس لوندرا يمس مقاصدنا فلذلك يكون من الوجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة في سائر النقاط الحرة الكائنة على سواحل مصر والشام ==

الى روسيا العسكرية لالشيء سوى قهر حكومة لويس فيليب الصديقة
المسألة ولا غاظة الدولة الشرقية الوحيدة الناهضة . وعلى كل فان بالمستون
كتب إلى السفير البريطاني في باريس (٥ يونيو سنة ١٨٣٨) باللهجة الآتية :

== والقيام للدفاع حرباً وضرباً عند حشد دعا كرا الدولة . . . وعندما تحرك دول أوروبا
على مصر يكون حضوركم هنا بواسطة الوابورات بحراً أو براً والعسكر الواردة لطرفكم
من مضيق كوكك يصير إعادتهم إلى محلاتهم الأصلية عن طريق طرسوس أو من جهة
أخرى وعلى أي حال يلزم التبصر بالحزم واتباع ما يصدر لكم في هذا الشأن .
وفي ١٥ جمادى الآخرة أمر آخربأنه « غير معلوم صراحة نتيجة قرار لوندرا لأن
ولكن باستعمال المساعي بواسطة كتاب قناصل دول روسيا والنمسا وانجلترا صار الحصول
على شواهد القرار التي منها ذهاب تلك الخيالات الباطلة وبث الفن في أنحاء بر الشام
ومساعدة أهاليها في ذلك وإرسال ٦٠٠٠ عسكري من طرف الدولة العثمانية إلى قبرص
وإرسال أسلحة وبارود لتوزيعها على أهالي الشام أيضاً وصدر فرمان خطاباً للبر
بشير بالخروج عن طاعة محمد علي وإرسال صور من قرار لوندرا السابق ذكره بواسطة
وابور انجليزى لنشره بتلك الجهات بزعم تخليصهم من حكم محمد علي وهكذا من الحركات
غير السارة الحاصلة من تلك الدول وعزم دولة فرنسا على ارسال ١٠٠٠٠٠ عسكري
عند مسيس الحاجة وأنه يلزم استعمال الحزم وعدم تمكن خروج أجانب من البحر
إلى البر عند ورود سفن بحجة الكورتيئة منعاً من نشر مكاتبات مهيجة إنما يكون ذلك
بالشدة واتخاذ قانون الكورتيئة حجة للدفاع ومنع سائر الوسائط الموجبة
لاختلال الأمن .»

ولما كان ما ترتب على معاهدة لوندرا من النتائج الخطيرة له علاقة مباشرة بمستقبل
مصر فقد آثرنا أن توسع قليلاً في الاقتباس من المصادر الأخرى .

ففي هذا اليوم نفسه أبلغت نصوص معاهدة لوندرا رسمياً إلى محمد علي باشا وجاء
إليه قناصل الدول الأربع المتحدة يعرضون عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له
ولورثته وولاية عكاً له مدة حياته . ثم أمهلوه عشرة أيام لاعطاء جوابه . وبعد أن
أعطوه صورة كتابية من هذا العرض أبلغوه أنه يجدر به ألا يرتكن على مساعدة فرنسا
وأفهموه أن دولهم مصممة على تنفيذ هذه القرارات حتى ولو أدى الأمر إلى حرب
أوربية عامة.



ابراهيم باشا يواسى بنفسه الجرحى من رجاله فى ميدان القتال

== فكان جواب ذلك الجندى الكبير الرفض البات. وقد أفهمهم من ناحيته أنه مصمم على الاستبسال فى الدفاع إلى آخر قطرة من دمه

ثم مرت مهلة الأيام العشرة فخطر له القناصل ومعهم مندوب الدولة العلية فى يوم ٢٥ جمادى الآخرة (٢٤ أغسطس سنة ١٨٤٠) فأبلغوه أنه نظراً لرفضه قد سقط حقه فى ولاية عكا وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر وحدها له ولذريته .

فاستشاط غيظاً وأمر بطردهم من حضرته قاتلاً لهم . كيف يجوز أن أسمح لكم بالبقاء فى بلادى وأتم وكلاء أعدائى فى هذه الديار فانصرفوا .

ولكنهم أمهلوه عشرة أيام أخرى وأخبروه أنهم ليسوا مسؤولين بعد هذه المهلة عما يلحق به من الضرر .

وقبل أن يصلهم جواب محمد على بالقبول أو بالرفض كتبوا إلى سفراء الدول فى الاستانة . حدث فاجتمع هؤلاء بالصدر الأعظم وقر قرارهم على أخذ مصر والشام من محمد على .

« ينبغي علينا أن نؤيد السلطان بكل ما في وسعنا ، بمساعدة فرنسا اذا شاءت الاشتراك معنا ، وبدونها اذا رفضت ذلك » ثم أنه أبرق اليه فيما بعد (٨ يولييه سنة ١٨٣٨) يقول « ان الوزارة مجمعة على أنه لا يليق السماح لمحمد

== وانصرف محمد علي من ناحيته إلى تعزيز الاستحكامات وجمع الجنود . وفي ٢٧ رجب قطع قناصل روسيا والنمسا وانجلترا وبروسيا علاقاتهم مع مصر .

انسحاب ابراهيم باشا من الشام

وسرعان ما سيرت بريطانيا الجنود والجحافل فنزلت في صيدا بينما كان ابراهيم باشا قد التجأ إلى جبل لبنان وتحصن فيه . وتوجه الأميرال نايبير في الوقت نفسه في عمارة بحرية قوية قاصدا بيروت ف ضرب عليها نطاق الحصار وكان سليمان باشا الفرنساوى قد حصنها أشد تحصين ومعه فرقتان .

ولم تكتف السياسة الانجليزية بما جردته ضد الفاتح ابراهيم باشا من القوات البرية والبحرية بل نشطت في الدعاية للفت في عضد الجيوش المصرية . فقد أذيع كذبا أن ابراهيم باشا قتل في جبل لبنان وتشتت شمل رجاله .

ولعلك تستطيع أن تتصور كيف كان وقع ذلك النبأ المحزن من نفوس الجيوش المصرية . فقد ذهل له سليمان باشا الفرنساوى وخشى عواقبه . فقرر رأيه على الاستيثاق من صحته حتى إذا كانت الرواية صادقة ضم إليه ما بقى من جنود ابراهيم باشا واستمر في الدفاع .

فغادر بيروت بعد أن نصب عليها أحد أميرالايات الفرقتين وهو صادق بك ولكن هذا سرعان ما دب الخوف إلى قلبه ففرو ترك المدينة يستولى عليها الانجليز بلا كبير عناء . وما لبث أن اتصل صادق هذا بسليمان باشا فتحقق منه أن الاشاعة القائلة بقتل ابراهيم باشا هي محض افتراء بل هو على العكس ما زال على قيد الحياة ولذا فهو يأمره بالاستبسال في الدفاع إلى أن يعود إليه . فأسقط في يد صادق وتملكته الحيرة وخشى الوقوع في شر أعماله فلم يجد مخلصا سوى الارتقاء مع رجاله في أحضان الانجليز .

وبعد أن خلا بال الأميرال نايبير من ناحية بيروت اتجه إلى عكا وحاصرها . وسرعان ما سلبت له المدينة بعد فرار اسماعيل بك منها .

وهكذا استطاع الأميرال نايبير أن يقطع باسطوله خط الاتصال بين ابراهيم باشا في الجبل وبين مصر .

على بأن يعلن استقلاله وأن يفصل مصر وسوريا عن الامبراطورية



يان المواقع التي خاضها ابراهيم باشا أثناء فتح الشام
العثمانية... أما نحن فأننا لعل استعداد لأن نقدم للسلطان المساعدة البحرية

== ثم ما لبث أن قصد الأميرال المذكور إلى الاسكندرية في ١٥ رمضان سنة ١٢٥٦
بصحبة ست سفن حربية فعرض الصلح باسم الدول على محمد علي باشا فقبله وبعد
مفاوضات طويلة عقدت معاهدة نصت على جعل ولاية مصر وراثية لذرية محمد علي وأن
يكون لجلالة السلطان الحق المطلق في أن يختار من يشاء من ذرية محمد علي لملء منصب
الولاية على مصر.

اللازمة ضد محمد علي . وفي عزمنا إرسال اسطولنا إلى الاسكندرية .هـ لست أكتب هذا إلا على زعم أن فرنسا أمينة وأنه يمكن الاعتماد عليها . ولكن فرنسا كما تصادف لم تكن لا هذا ولا ذاك . فبينما كانت تتظاهر بأنها لا تريد أكثر من الاعتراف بولاية محمد علي وذريته على مصر وسوريا ،

== وبعد عقد المعاهدة أصدر محمد علي أمره إلى جنوده في الشام بالانسحاب فعادوا وعددهم ٧٠٠٠٠ بينما كان عددهم في بداية الزحف على الشام ١٣٠٠٠٠
فرمان محمد علي على ولاية مصر

وفي ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ (٢١ القعدة سنة ١٢٥٦) صدر فرمان همايوني بموافقة مندوبي الدول الأربع المتحدة المجتمعين في لوندرا بهيئة مؤتمر بتولية محمد علي على مصر .

الفرمان الهمايوني بتولية محمد علي واليا على مصر

وإليك أهم ما تضمنه فرمان من النصوص وهو في صيغة الخطاب لمحمد علي باشا :
« ... تثبيتكم في الحكومة المصرية المينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لندن صدرنا الأعظم وقد منحنكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي يانها :

(١) « متى خلا منصب الولاية المصرية تمهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكة من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا .

(٢) « إذا اقرضت ذريته الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أي كان في الولاية وإرثها .

(٣) « ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة .

(٤) « إن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنح رتباً ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه .

(٥) « جميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر أيضاً .

وبينما كانت تتظاهر بالعمل بالاتفاق مع الدول الأخرى إذا بها كانت تفاوض الباب العالي سراً وعلى انفراد لمصلحة محمد علي . فلما وقف بالمرستون على مساعيها هذه أرغم ملبورن تحت تأثير التهديد بالاستقالة

(٦) « كل ما هو مقروص على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملكي . ولكي لا يكون أهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للبضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية .

(٧) « ربع الإيرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تحصل في الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شيء ويؤدى إلى خزانة بابنا العالي العامة . (٨) « الثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والإدارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنوياً إلى البلاد المقدسة (مكة والمدينة) .

(٩) « يبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريق تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ .

(١٠) « ينظر فيما بعد فى تعيين لجنة مراقبة وملاحظة للوقوف على مقدار الإيرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقي الضرائب .

(١١) « تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضريبة باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخاناتنا العامة بالاستئانة سواء كان من قيل عيارها أو من قيل هيئتها وطرزها .

(١٢) « يكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ١٨٠٠٠ من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالي كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزداد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقاً فى ذلك الحين .

(١٣) « تتبع أيضاً فى مصر القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة المالكنا بشأن الخدمة العسكرية بأن يستبدل الجند بعد الخدمة مدة خمس سنوات بغيرهم من العساكر الجديدة .

على أن يرسل إلى محمد على انذاراً ينتهى أجله فى عشرة أيام بأن يتخلى عن سوريا . وهنا حاول الفرنسيون فتح باب المفاوضات من جديد ولكن

(١٤) « يجب أن لا تختلف حياة الملابس والعلامم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلامم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون ماثلة للملابس ورايات وعلامم رجالا وسفنتا .

(١٥) « للحكومة المصرية أن تعين ضابطان برية وبحرية حتى رتبة الملازم . أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لارادتنا الشاهانية .

(١٦) « لايسوغ لوالى مصر أن ينشئ من الآن فصاعدا سفناحربية إلا باذتنا الخصوصى .

(١٧) « يبطل هذا الامتياز ويلغى فى الحال عند عدم تنفيذ أى شرط من الشروط الخاضع لها اعطاء الامتياز الخاص بوراثه ولاية مصر .

فرمان الولاية على السودان

وفى نفس اليوم الذى صدر فيه فرمان السالف الذكر (أى فى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١) صدر فرمان شاهانى آخر بتولية محمد على واليا على السودان . وإليك أهم ماورد فيه وهو أيضا فى صيغة الخطاب .

(١) « . . . وقد قلدكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحكمة التى امتزمت بها تقومون بإدارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلىن .

(٢) « عليكم أن ترسلوا فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بياان الايرادات السنوية جميعها .

ولعل المادة الآلية من أهم مواد ذلك فرمان فانها ترمى إلى قطع دابر النخاسة طقاً لأوامر الشرع الاسلامى الحنيف وهى :

(٣) « حيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فىأسرون الفتيان من ذكور وأناث ويقونهم فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم ، وحيث أن هذه الأمور مما تنفضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرباها بل أنها =

بالمستون كان مصمما على إملاء التسوية التي يشاؤها. وولى الأميرال نايبير وجهه شطر سوريا بقصد مهاجمة ابراهيم فيها. وفعلا أنزل جنوده في بيروت (سبتمبر سنة ١٨٤٠) وفي الوقت نفسه اتهم الباب العالي

بـ أمور مخالفة للشريعة الحنيفة المقدسة وكلتا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحرم، ذلك مما لا ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادئ العدل والإنسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأموس على عرش السلطنة العلية، فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغي من الاعتناء لمنع حدوثها في المستقبل. ولا يبرح عن بالكم أن فيما عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على أسطولنا الملكي فقد عفوت عن جميع الضابطان والعسكر.

(٤) رقي المأمورين الموجودين في مصر نعم أنه بموجب فرماننا السلطاني السابق إن تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لأعتابنا الملوكية إلا أنه لا بأس من إرسال بيان بأسماء من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم الخ الخ.

فقبل محمد علي باشا هذه الشروط على مضض، وطلب من الدول مساعدته على تخفيف محتوياتها مع الزمن. فوعده الدول بذلك.

وفي ١٩ أبريل سنة ١٨٤١ وافق الباب العالي بناء على مذكرة من الدول على تحرير فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على الوجه الآتي كما ورد في كتاب «تقويم النيل» ونظراً لأهمية الموضوع رأينا أن نثبته بنصه:

«ان الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضاً وبمناسبتها قد منحت محمداً علياً باشا إحساناً جديداً هو التكرم منها باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الاتقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالي والدول المتحالفة. وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمد علي باشا وأولاده وأولاد أولاده بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالي منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال. وقد تنازل الباب العالي عن استيلائه على ربع إيرادات مصر وسبعين فيما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره وطريقة تحصيله بما يناسب حالة إيرادات الولاية أما عما خص التسميات في الرتب المختلفة في العسكرية المصرية فرخص لمحمد علي باشا أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الميرالاي فقط. أما التسمية»

هذه الفرصة فاعلن والاعتباط يملأ عطفه خلع محمد على وهنا اعلنت فرنسا (٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠) أنها تعتبر كل محاولة لتجريد محمد على

== لما فاق على هذه الرتبة فيجب عليه أن يعرض بشأنه إلى الباب العالي . أما ما كان متعلقاً بالادارة الداخلية وكان اتباعه واجبا في مصر كاتباعه في سائر الممالك العثمانية فيظهر أن محمدا عليا باشا لا يرغب في التكلم بشأنه بما ينبغي من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك في العقد المقرر التابع لمعاهدة المحالفة . ولكن كي لا يدع الباب العالي سيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه بأمر من الأمور كما لو حدث أن ارتكب محمد على في المستقبل أعمالا مخالفة لنقطة مهمة مسندة على المعاهدة المحكى عنها ، قد قرر وزراء الباب العالي والحالة على ما ذكر أمرا شديدا الأهمية وهو أن تطلب بادي بدي الايضاحات والتقارير الصريحة بهذا الصدد ولذلك تحرر هذا لسعادتكم رجاء إعطاء الايضاحات والتقارير المذكورة من قبلكم خطأ .

فلما أقرت الدول هذا الفرمان في ١٠ مايو سنة ١٨٤١ بادرت الحضرة الشاهانية في أول يونية سنة ١٨٤١ بتأييد ما جاء في هذا الفرمان . وفي ٢٠ يولية سنة ١٨٤١ صدر فرمان آخر يجعل ما تدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية في كل سنة ٨٠٠٠٠ كيسة أي ٤٠٠٠٠٠ جنيه .

والآن وقد رأيت هذه القرارات فلعلك تسائل معنا عما أفادته الدولة العلية من جراء تدخل الدول الأوروبية الأربع وهل كان ما أفادته يزيد أضعافا مضاعفة عما عسى كانت تجنيه لو أنها سدت باب التدخل في وجه الدول الأوروبية المذكورة وتصلحت رأساً مع محمد على وتركته يسطر سيادته على الشام ويؤدي لها حصتها من الوركو ؟ فاعلم يارعاك الله أن نكبة الامتياز التي ذاقت تركيا ومصر منها الأمرين إلى أن قبض الله لأولاهما أن تتخلص منها دفعة واحدة في معاهدة لوزان بينما ما تزال الأخرى تعاني ما تعاني منها - نقول أن تلك النكبة تبتدى بفرمان في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ اللذين ما كانا ليأخذا مكانهما في سجل الحوادث التاريخية لولم يأكل الحقد صدر خسرو باشا ويحفزه إلى الانتقام من غريمه القديم محمد على وذلك بالالتجاء إلى الدول الأجنبية والاستعانة بها عليه . وماذا عساك أن تقول في فداحة المصيبة التي جرها هذا الرجل على بلاده بهذين الفرمانين وفيهما حتمت الدولة العلية على نفسها أن تخضع هي وتجبر ==

من أملاكه سبياً للحرب. فكان جواب البارستون على ذلك ماقاله لسفيره في باريس وهو كما يأتي : « فل للسيو تيير إن فرنسا إذا أرادت الحرب فلن تتأخر عن تلبية طلبها ولكنها إذا بدأتها فلسوف تفقد حتما

مصر على الخضوع لجميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم في المستقبل بين الباب العالي والدول المتحالفة ؟ فهل هناك محل للدهشة إذا رأيت تركيا أولا ثم مصر تباعا لها ثنان من تلك الامتيازات ؟ وهل تعجب اذا كانت الدول الأوروبية استغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال وأصبح موقفها كوقوف « يهودى البندقية » الذى صورته لنا شكسبير وهو يحرص على « رطله من اللحم كاملا غير منقوص » ؟

وعلى كل فقد أصبح منح الامتيازات مما لا يتفق مع روح العصر الحاضر . ولا ريب في أن مصر واصله قريبا بحكمة جلالة مليكها فواد إلى الغاء الامتيازات والنخلص من ربقها كما تخلصت منها تركيا .

أما فيما يتعلق بالخراج أو الجزية التى فرضت على مصر فقد جاء فى كتاب « تقويم النيل » أن مصر ظلت تدفع ٤٠٠.٠٠٠ جنيه سنوياً لغاية سنة ١٨٦٥ ثم زيد هذا المقدار إلى ١٥٠.٠٠٠ كيسة أى ٧٥٠.٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضى فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتى سواكن ومصوع ومديرية النكا وتغيير ترتيب الوراثة فى خديوية مصر فى عهد سركان الجنان اسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة فى الأكبر من أولاده ثم أولاد الأكبر ثم فى أخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الاخوة على هذا الترتيب .

وفى أول يولية سنة ١٨٧٥ صدر فرمان بتحويل إدارة مدينة زيلع إلى سركان الجنان اسماعيل باشا بزيادة ١٥٠.٠٠٠ جنيه عثمانى على الخزينة . وفى ١٠ شعبان سنة ١٣٠٨ صدر أمر عال من المرحوم توفيق باشا الخديوى بالتعهد عن نفسه وعن خلفائه فى الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية للخوارج روتشيلد وأولاده بلوندر وروتشيلد اخوان يباريس والبنك المملوكى العثمانى من أصل الوركو الواجب على الحكومة المصرية للحضرة الشاهانية مبلغ ٢٨٠.٦٢٢ جنيه انجليزى و ١٨ شلنا و ٤ بنسات سنوياً لمدة ٦٠ سنة تبدأ من ١٠ ابريل سنة ١٨٩١

الأمر ، ثم بازدراء كل منهما للآخر فيما بعد ، كادا أن يزجاشعبيين غريين متصادقين إلى هاوية الحرب من أجل مسألة خاصة بالهيبة الامبراطورية ليس غير . أما أحدهما فكان مشاكساً بقدر ما كان الآخر «بلافاً» ولكن

== وبعد أن تكاملت صحته صمم على العودة إلى مصر في أواخر صيف سنة ١٨٤٦ وكان والده محمد علي باشا قد سافر إلى الاستانة بدعوة رسمية لتقديم فرائض العبودية للسلطان بمناسبة صدور فرمان الوراثة لأسرة محمد علي سنة ١٢٦٢ المقابلة لسنة ١٨٤٦ مشتملا على امتياز حكم القطر المصري بمصادقة الدول الأوربية . فوصلها في ١٩ يولية سنة ١٨٤٦ ونزل في سراى رضا باشا .

ولقد رحب جلالة السلطان محمد علي باشا عند ما تشرف بالمثل بين يدي جلالته بل إنه لما هم بتقبيل الأعتاب الشاهانية أمسكه جلالته بيديه وأجلسه إلى جانبه وسلخا نحو ساعة من الزمن في حديث صاف خرج بعده يلهج بالدعاء والشكر لجلالة الخليفة .

وأبت أخلاق محمد علي وتسامحه أن يترك الاستانة قبل أن يزور عدوه الاله القديم خسرو باشا فذهب لزيارته في قصره وقضيا وقا غير قليل يتذاكران أعمال الصبا ويتسم كل منهما في وجه الآخر وهو يذكر له الشاك والفخاخ التي كان أعدها لاقتناصه . وغادر محمد علي الاستانة في ١٧ أغسطس قاصداً قوله مسقط رأسه . فأنشأ فيها عدداً من الأبنية لتعليم الفقراء واعدة الضعفاء والمساكين .

ثم قفل راجعاً إلى الاسكندرية تخف الأهلون لاستقباله والبشر على وجوههم . ولما عاد إلى القاهرة تقاطر الناس للسلام عليه وتهنئته على ما ناله من تعطفات جلالة السلطان فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية التي أهداها له السلطان وهي تكاد تختطف الأبصار ببريقها .

ويظهر أن مر السنين وما تخللها من حوادث جلييلة قد أثقل ظهر محمد علي وأدى إلى اعتلال صحته فسافر في أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٤ الموافق لسنة ١٨٤٨ إلى الاسكندرية ومنها انتقل إلى ظهر إحدى السفن الفرنسية المخصصة له للقيام بنزهة بحرية انتجاعاً للصحة .

وهنا رأى عزيز مصر أن الأمور لم تعد تحتل التردد في تولية ابراهيم باشا . وفي شهر أغسطس سنة ١٨٤٨ توجه ابراهيم إلى الاستانة لأجل تثبيتته على ولاية مصر خلفاً لآبيه وقد ثبته السلطان نفسه .

شبح الحرب كان موجوداً على كل حال ولم يختلف إلا بفضل ما أبداه لويس فيليب من الحكمة عند ما عين جيزو مكان تيير. على أن ما أحرزناه من النجاح بفضل نشاط سياستنا الخارجية سرعان ما تلاه نجاح آخر أحرزته قوتنا البحرية ليس أقل من سابقه في الأهمية. ذلك لأن الاسطول التركي الفار قد تبين أنه أصبح عبءاً ثقيلاً على مصر بدلاً من أن يكون نجدة لها. لأن الاسطول

== وكانت نزهة محمد على البحرية في ابان ذلك موقفة . فقد زار كريد ومالطا. وبعد أن شعر بتحسن صحته صمم على الذهاب إلى مارسيليا في باريس لزيارة صديقه الملك لويس فيليب . ثم عاد إلى نيس وعرج على إيطاليا والتقى في نابولي بولده إبراهيم باشا وهو عائد إلى مصر لإدارة شؤون البلاد . وأرسل محمد على إلى كتخدا باشا في مصر أنه سيبارح الأراضي الإيطالية يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٦٤

ووصل إبراهيم باشا إلى الاسكندرية في ١٠ جمادى الأولى وأقام فيها إلى يوم الاثنين ١٣ منه ثم سافر إلى القاهرة .

أما محمد على باشا فكان قد أصدر في ٢٩ ربيع الثاني أى قبل اليوم الذى حدده لمغادرة إيطاليا إلى حفيده عباس باشا كتخدا آخر أمر موقع منه وهو كالآتى :

« كان قياى من نابولي في اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر الذى هو شهر ربيع الثانى وتيسر وصولى سالماً إلى الاسكندرية يوم تاريخه وكنت عازماً على الحضور إلى مصر لتسوية أمور مصالحنا لكن الأطباء أشاروا بعدم موافقة ذلك نظراً للوسم الحالى ولهذا يا ولدى يلزم حضورك هنا مستصحباً حضرات أحمد يكن باشا وشريف باشا مدير المالية وسامى باشا . »

وفي منتصف الساعة الخامسة من عصر يوم الجمعة ٢٤ شوال سنة ١٢٦٤ اجتمع الديوان المعتاد اجتماعه كل يوم جمعة بديوان الغورى بحضور العلماء والمشايخ وأشرف القاهرة ووقف الجنود والضباط في ميدان القلعة وفتح الفرمان الموجه إلى إبراهيم باشا بتوليته والياً على مصر والسودان .

ولما كانت مدة حكم إبراهيم لم تزد عن السنة والنصف سنة (أى من ابريل سنة ١٨٤٧ — نوفمبر سنة ١٨٤٨) فقد وجه عنايته بصفته جندياً إلى تقوية ثغور البلاد وتعزيز قواتها الحربية .

المصري قد نصب نفسه حارسا عليه وعلى بحارته المتذمرين . أما سوريا فانها باتت تمتقت المصريين بقدر ما كانت صديقة لهم عند دخولهم اليها . وأما الجيوش المصرية فقد هزمت فيما دار بينها وبين الأتراك من المعارك هذا في حين أن الحملة البريطانية التي كانت تطلق قنابلها على عكا قد وفقت إلى نصف ما كان يملكه ابراهيم من الذخيرة . وفي نفس الوقت الذي تقهقر فيه ابراهيم تقهقره المشووم من دمشق إلى غزة ظهرت عمارة نابيير أمام

== وفي خلال فترة حكمه القصير أصدر أمره بنشر جريدة رسمية أسبوعية تشتمل على كل ما يهم أهل القرى الاطلاع عليه من أخبار التجارة والزراعة والاعلانات الملكية وتوزيعها بين أهالي القرى .

كذلك وجه عنايته رحمه الله إلى شؤون الرعية وعمل على اختصار الاجراءات المتبعة في سير القضايا فعمد إلى تنظيم مجلس في القاهرة وسماه جمعية الحقانية الثانية واستند رئاسته إلى اسماعيل بك تيمور زاده .

وما لبث أن أصدر أمره الكريم بما ذكر في الوقائع المصرية بترجمة الكتب المرغوبة الخاصة بالقوانين والتراتيب والآداب وسائر العلوم والفنون النافعة من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية والعربية وطبعها ونشرها كوسيلة لتعميم الثقافة . ولما كان هذا لاسيل إلى تداركه إلا بالحصول على المترجمين البارعين في اللغات الأجنبية والتركية والعربية فقد جاء بالعدد اللازم منهم وأفرد لهم إدارة ترجمة خاصة عهد برئاستها إلى أمير اللواء كافي بك لأنه كان خبيراً باللغات الأفرنجية وعين رفاعة بك رافع رئيساً للقسم العربي .

وفي ٢٢ القعدة سنة ١٢٦٤ سافر عباس باشا كتنخدا باشا مصر إلى جدة قاصداً الحجاز لاداء فريضة الحج .

وظل إبراهيم سائرا في الحكم سيرته المرضية هذه حتى عاوده المرض وهو الرجل الذي كان لا يهرب الموت عندما كان يواجهه في ساحات القتال . ثم أخذت وطأته تشتد بسرعة حتى عاجلته المنية في يوم ١٤ الحجة سنة ١٢٦٤ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ولم تمض احدى عشرة ساعة حتى كانت جثته تحمل إلى مقرها الأخير في مدافن الأسرة الخديوية بجوار الامام الشافعي .

ويمكنك أن تصور لنفسك مبلغ وقع هذه الصدمة الهائلة على محمد علي الذي كان ما يزال يعاني آلام المرض الجسدى والعقلى .

ثغر الاسكندرية . وقد ختم نايير حديثه مع محمد على عند زيارته له في قصر رأس التين بهذه الجملة . « يميناً لأطلقن عليك القنابل ولأضعن قنبلة حيث تجلس الآن إذا لم تصغ إلى ندائى غير الرسمى ! » وهى شقشقة أريد بها استهواء الاسماع فى انجلترا ليس غير ، إذ كان فى وسع الباشا — لو أراد — أن يصبح فى مأمن من مدافع الاسطول بان ينسحب إلى القاهرة

== وعلى أثر وفاة ابراهيم عقد المجلس لتسيير دقة الأعمال الحكومية إلى حين عودة عباس باشا بن الحجاز . وقد أرسل فى طلبه فعاد إلى مصر على جناح السرعة ووصل القاهرة فى ٢٤ ديسمبر . وإذ لم يكن هناك اعتراض على توليته فقد صدر إليه فرمان الشاهانى بجعله والياً على مصر والسودان فاعتلى الأريكة . وكان محمد على ما يزال مقيماً فى الاسكندرية وقد اشتدت عليه وطأة المرض ونفدت كل وسائل الطب لانتقاذه .

وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ الموافق ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ انشبت المنية أظفارها فى ذلك الرجل الذى أنشأ أمة . ولم تكن ثمة دهشة لوفاته نظراً لطول مدة النزاع التى قضاهما رحمه الله .

وفى اليوم التالى نقلت جثته من قصر رأس التين إلى القاهرة حيث شيعت باحتفال مهيب إلى مرقدها الأخير فى جامع القلعة عملاً بوصيته .

وهكذا انتقل إلى الأبدية ذلك الرجل العظامى الكبير الذى خلف ميراثاً لتبليه يد الزمان وأسس دولة وحقق لها استقلالها وأتم لها وحدتها وشيد دعائم نهضتها وحضارتها وأتى بمفرده من جلائل الأعمال ما لا يستطيع مئات الرجال مجتمعين أن يأتوا بعشر معشاره . وكيف لا وهو الرجل الذى تمكن برغم أميته من إعلاء شأن الجيش المصرى وقد كان مركباً من عساكر غير نظاميين (باشى بوزوق) وجعله جيشاً نظامياً حتى أن تركيا لم تر من الغضاضة على نفسها أن تاجأ إليه لأعارتها بعض الضباط المصريين للمساعدة على تنظيم الجيش التركى الجديد بعد إبادة طائفة الانكشارية .

وقد بلغ عدد جيش محمد على فى سنة ١٨٣٧ نحو ٢١٧٥٨٣ جندي من المشاة والفرسان وغيرهم عدا ٦٣٣٠ ضابط .

أما القوة البحرية فقد بلغت فى تلك السنة ٣٠٢ ضابط و ١٤٨٤٠ بحار عدا ١٨ طيب ==

ولكن كان له من الحكمة والمهارة السياسية ما يجعله يفسح صدره للفريق الثاني حتى يفرغ جعبته من الألفاظ بشرط أن ينال هو مراده . ولهذا تظاهر بالنزول على إرادة السلطان والامتنال لتهديد المرستون فسلم سوريا التي كانت قد أفلت زمامها من يده فعلاً وتخلي عن كريد التي كانت عديمة الفائدة ولكنه نال في مقابل ذلك اعترافاً رسمياً يجعله والياً على مصر ويحصر نظام الوراثة في أسرته كما أنه حقق لمصر استقلالها الاقتصادي عن الامبراطورية العثمانية . وصفوة القول كانت مصلحة مصر فيما تخلى عنه محمد علي في حين أن ما اكتسبه كان لاغنى عنه لها .

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل كان لابد من إضاعة وقت آخر

== و ٦٨ صيدلى و ٦٨ كاتباً وغيرهم . وقد اشتمل الأسطول المصرى على ٦٨ سفينة مسلحة بما لا يقل عن ٩٥٠ مدفعاً وأربع سفن طرادة و ١٤٤ نقالة وكان مجموع القوتين البحرية والبرية في سنة ١٨٣٧ نحو ٢٥١٩١٨ هذا مع أن تعداد سكان مصر كما أثبتته الجمعية العلمية التي كانت مرافقة للحملة الفرنسية كان في سنة ١٨٠٠ لا يزيد عن ٢٤٦٠٢٠٠ ولكن هذا العدد تضاعف في عهد محمد علي حتى بلغ في سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨) بمقتضى التعداد الذى عمل وقتذاك نحو ٤٤٧٦٤٤٠ وهو التعداد الذى يرجع إليه في محفوظات الدفترخانة بالقلعة لمعرفة أفراد العربان عند طلب نسبتهم إلى قبائلهم لمعافاتهم من الخدمة العسكرية .

ثم ما قولك في رجل كانت إيرادات البلاد عند ما تولى شؤونها بعد انتهاء الاحتلال الفرنسى ثلاث سنوات وكسور تبلغ ١٥٨٧٢٤ جنيهاً تقريباً والمصروفات ١٣٥٨٨٧ جنيهاً تقريباً والفرق بينهما وقدره ٢٢٨٣٦ جنيهاً تقريباً يدفع كاتوة للدولة العلمية، فلم يحل عام ١٨٤٢ حتى بلغت الإيرادات ٣٢٠٢٠٥٥ جنيهاً تقريباً أى أن الإيرادات تضاعفت بنسبة ٢٠٠١٧ عما كانت عليه عند استلام محمد علي لإدارة سفينة البلاد ؟

وكيف لا يكون محمد علي معجزة العصر وهو الذى استطاع بمثل تلك الميزانية الضئيلة - إذا قيست بميزانية مصر في الوقت الحاضر - أن يدير حركة البلاد وينشئ فيها المصانع ودور الأسلحة والترسانات لإنشاء السفن البحرية وأن يجيش الجيوش الجرارة التي سجلت صفحات خالدة في تاريخ مصر سواء في فتح سوريا أو حرب المورة أو فتح ==

سدى على صفاف البوسفور والنيل وسكب كمية أخرى من المداد في وزارات الخارجية واهراق دماء زكية جديدة قبل أن يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ لأن بالمرستون كان قد صدع الائتلاف الاوربي مما شجع الباب العالي على رفض الأذعان للاتفاق . وأخيراً تمكنت النمسا أن تحصل من الباب العالي على خطين هما يونين باعلان استقلال مصر أحدهما في ١٣ ابريل والآخر في ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ ووافقت معاهدة لوندره (١٣ يولية سنة ١٨٤١) على أن تعهد بحكم مصر الى محمد علي بضمان من الدول ثم من بعده الى الأرشد فالارشد من أعضاء أسرته بعد استئذان حكومة الاسطانة . ثم حددت المعاهدة قيمة الجزية التي تدفعها مصر كما حددت الجيش فجعلته ١٨٠٠٠ على أن تبقى المناصب الرئيسية فيه قاصرة على طبقة الاتراك الحاكمة . ولهذا نص في الاتفاق على جعل التعيين لهذه

== السودان والحجاز هذا عدا أعماله المجيدة في بناء القناطر الخيرية وشق الترع وغير ذلك من أعمال الري وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا ؟ وقد قدروا عدد الطلبة الذين أرسلوا إلى أوروبا بنحو ٣١٩ طالباً كلفوا الخزانة المصرية ٢٧٣٣٦٠ جنبها هذا مع أن ميزانية التعليم في سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) لم تكن تزيد عن ٤٦٧٨٤ جنبها تقريباً وعدد الطلبة في المدارس يبلغ عن ٧٧٣٠ عدا تلامذة المدارس الحربية والمدرسة البحرية ومدرسة المعادن ومدارس أسوان وفرشوط والنخيلة وغيرها .

عناية محمد علي بالفلاح

ولقد عجب مستر ياجج . مؤلف الكتاب الحال لأن الفلاحين المصريين لم يشوروا على محمد علي أيام أن كان يحشدهم ويبعث بهم إلى سوريا لفتحها وفاته أن الفلاحين كانوا يتفانون في حبة هذا الرجل نظراً لسهره على مصالحهم وشدة عنايته بأمرهم ، وهل ترى مثالا على حب العدل والتفاني في خدمة الرعية أعلى من المثال الذي نسوقه إليك هنا ؟ فقد صدرت الوقائع المصرية في نهاية جمادى الآخرة سنة ١٢٥٢ وبها أمر وجهه محمد علي إلى مفتش عموم الفاوريقات جاء فيه :

« قد اطلعت على شرحكم المسطر على شقة معاون فاوريقات قبلي بشأن العمال والمهمات اللازمة لفاوريقة ملوى وعلم بما تنوه على هامشها حصول حبس الأشخاص الواردين بدون ضامن بنفس الفاوريقة . ألم أقل لك مرارا ان أولياء نعمتي اثنان : ==

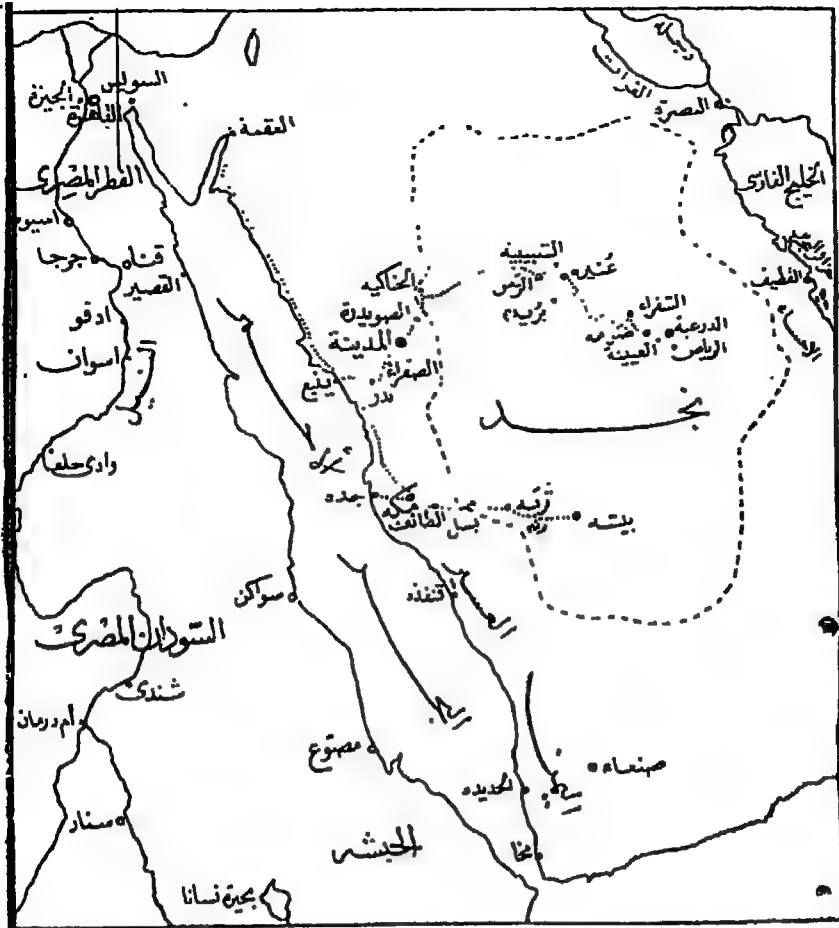
المراكز بموافقة السلطان ولا ريب في أن الأمر الأول حقق لمصر استقلالها من الوجهة الاقتصادية بينما جعلها الأمر الثاني خاضعة من الوجهة السياسية. نعم أن الباب العالي وافق على استقلال مصر الداخلى ولكنه استغل بمهارة عداء بريطانيا لمحمد على فاحتفظ لنفسه بحق التدخل في شؤنها . على أن أسوأ ما في هذا كله أن هذا التضيق وقف حجر عثرة في سبيل نمو الديموقراطية المصرية. إذ لا يخفى أن الجيش هو أول مراحل الانتقال إلى الحياة الديمقراطية من الحكم الاستبدادى في الشرق بقطع النظر عما إذا كان ذلك حكم السلطان أم حكم الوالى . ولكن الانجليز وحلفاءهم الاتراك قد عملوا على تعجيز نمو الامة المصرية بشكل خطير . وقد تبين فيما بعد أن هذه القيود كانت من الاسباب الرئيسية للاصطدام بالوطنية المصرية في عهد عرائى .

== أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح . وان قصدى من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود لأن أخذنا وعطانا ونيلنا هذا الشرف هو من وجوههم أى بسببهم فعليه ولكون أن الفلاح ولى نعم الجميع ألم يجب النظر إلى ما فيه أصول رفاهيته وزيادة يوميات أولئك الشغاليين ؟ فيلزم بوصوله عمل صورة مستحسنة لصرف أجورهم ليكون ذلك موجبا لرفاهيتهم وتشويقهم للصاحبة إذ بذلك تعود المنفعة عليها ويسر الجميع ويستوجب حضورهم للاشغال بانشراف قلب وبعد تقرير ما يلزم لما ذكر تعرض الكيفية لطرفا .

هذا وأمثاله قليل من كثير . ونحسب أننا لو أطلقنا القلم العنان لانتهى بنا الأمر إلى وضع مؤلف بحاله عن عهد محمد على لأن الانسان لا يلقى بنظرة على أية ناحية من النواحي الاجتماعية أو العمرانية أو العلمية أو ألح في عهد محمد على إلا وجد مجالا شاسعا للبحث والتقصى . لهذا رأينا الاكتفاء بما سردناه كتمودج بسيط نمائهم به من جلائل الأعمال ذلك المصلح الكبير الذى كان يعتبر بحق آية عصره ومعجزة زمانه .

نظرة إلى تاريخ ابراهيم باشا

وننقل الآن إلى ولده الذى كان يعتبر بمثابة ذراعه الايمن . فلقد نشأ ابراهيم كـ

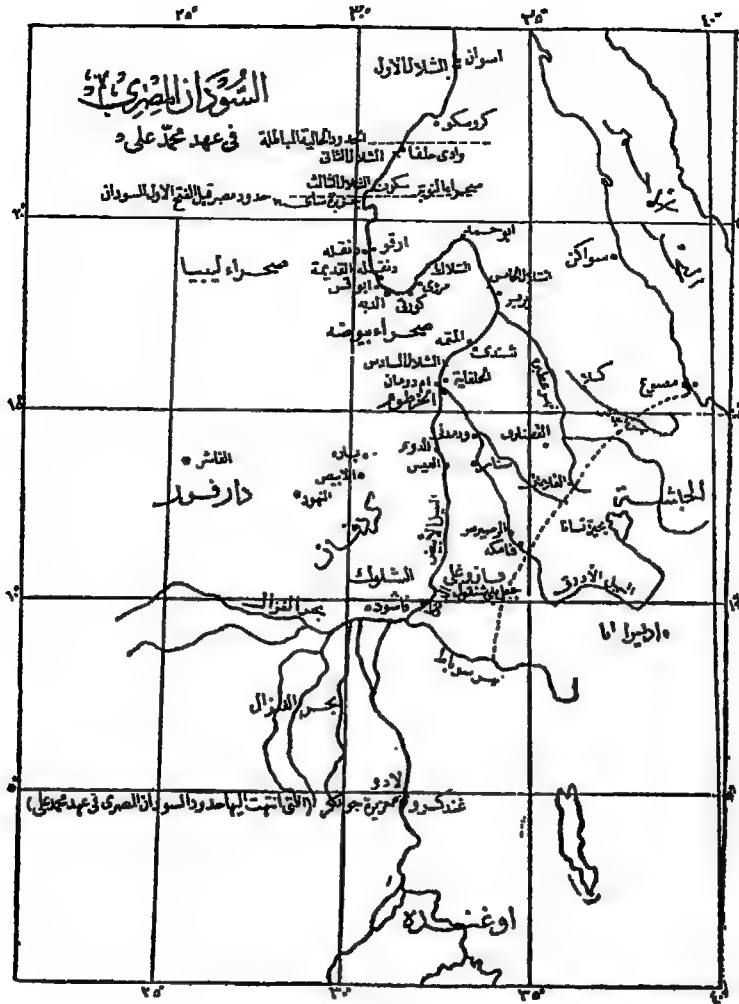


خريطة بلاد العرب وفيها بيان الجهات التي دخلها ابراهيم باشا في أثناء الحرب الوهابية

== مر بك وانصل تاريخه من البداية بتاريخ أبيه محمد علي . ولكننا نرى أن نرى اتما للفادة أن نقول كلمة عن نشأته وعن بعض أعماله الحربية التي لم يتسع لها المجال في الصفحات الماضية وبخاصة في الحرب اليونانية التي كانت أصدق برهان على غدر السياسة وتربصها الفرص للنكاية بمصر وقد اقتبسناها عن الجزء الثالث من كتاب تاريخ الحركة القومية ، لصديقنا الاستاذ البحاتة عبدالرحمن بك الراجحي المحامي . قال حضرته ما خلاصته :

إن ابراهيم هو أكبر أولاد محمد علي . ولد كأبيه في قوله وكان ذلك في سنة ١٧٨٩ وهبط مصر مع أخيه طوسون في سنة ١٨٠٥ . وما كاد يشب قليلا عن الطوق حتى قذف به والده إلى معركة الحياة نخاضها بجسارة الأسود وأبلى فيها أحسن بلاء .

وفي سنة ١٨٠٧ أي قبل بلوغ سن العشرين تولى منصب الدفتردارية المصرية وهو ==



خريطة السودان في عهد محمد علي

وقد وصلت الفتوحات المصرية فيه الى كسلا ثم الى حدود الحبشة شرقا وإلى غندكرو جنوبا وهي آخر نقطة وصلت اليها الاكتشافات الجغرافية لأن أوغنده أو مديرية خط الاستواء لم تكن قد اكتشفت بعد

== يعادل وزير المالية اليوم . وكان أجل عمل له في منصبه هذا أن أمر بمساحة أطيان القطر المصري .

ثم ولي المناصب الحربية الكبرى وتجلت مواهبه وبطولته في الحرب الوهاية حيث اصطحب معه لأول مرة في تاريخ القواد الشرقيين طائفة من الأوربيين ومن بينهم ==

ويظن المؤرخون أن عهد محمد على انتهى بحبوط مشاريعه الاستعمارية من الوجهة السياسية وأنه مات بعد ذلك بثمانية أعوام متأثراً من هذا الفشل . وهذا لعمر ك هو ما يقوله الانجليز في الاتفاق المذ لور لا ما يقوله المصريون . ولكنا لو أنعمنا النظر في المفاوضات التي أدت إلى هذا الاتفاق وذكرنا أن المرستون كان يهدد بياس الامبراطورية البريطانية كلها وأن الباب العالي كان يلجأ على التوالي إلى كل ما في جعبة سياسة الامبراطورية العثمانية من التدابير والحيل لخلع الأسرة المصرية وهدم الاستقلال المصري — إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا أن محمد على بتحقيقه

== الضابط الفرنسي فيسير مع أن ذلك لم يكن مألوفاً ولا شائعاً . ولكن ابراهيم باشا دفعته صدق فراسته إلى الاعتقاد بأن الشرق لا ينهض إلا إذا اقتبس الخبرة عن علماء أوروبا وقوادها .

ثم انضم ابراهيم إلى أخيه اسماعيل لمعاونته في فتح السودان . على أن أقامته هناك لم تطل بسبب ما ألم به من المرض . فترك لأخيه مهمة وضع الأسس التي أدت إلى فتح السودان نهائياً فيما بعد على ما تراه مبينا في الخريطة المنشورة في الصفحة السابقة . فلقد وصلت حدود السودان شرقاً إلى البحر الأحمر بعد أن فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ إقليم النكا (كسلا) . ثم استولت أيضاً على القصارف في غربي حدود الحبشة وكذلك القلابات . ثم دخلت سواكن ومصوع . ووصلت في الجنوب إلى غندكرو وهي آخر نقطة وصلت إليها الاكتشافات الجغرافية الإقليمية لأن إقليم أوغنده لم يكن قد اكتشف بعد .

الحرب اليونانية

وما كاد ابراهيم يعود من السودان إلى مصر حتى اكفهر الجو بسبب الحرب اليونانية فعهد إليه أبوه بقصم ظهر الفتنة اليونانية وتعليم اليونانيين درساً لا ينسونه في المستقبل . ولنا حاجة إلى الدخول في تفاصيل تلك الحرب . وبحسبنا أن نذكر طرفاً منها بعد أن اكتفينا بالالامع إليها في سياق الكلام على محمد على باشا . فلقد تجمعت في ثغر الاسكندرية عمارة مصرية تبلغ ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل تحمل ٢٢٠٠٠ جندي وقود و صفاها المسيو دريو بأنها تشبه الأرمادا (التي أعدها فيليب الثاني ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا في القرن التاسع عشر) وانه لم يرفى الشرق حملة تدانيتها في ضخامتها منذ حملة بونايرت فكان =

هذين الأمرين بصفة دائمة مع احاطتهما بسياس منع في شكل ضمان دولي قد جاء لمصر بمنافع كبيرة كثيرة في مقابل تخليه عن فتوحات كان الاحتفاظ بها مما ينوء به كاهله. أما فيما يختص بالقيود المشار إليها فإن الجيش أحسن وقتئذ القيام بواجبه وإن لم يكن ينتظر أن يعيره محمد على الأهمية السياسية التي فأت حتى السياسيين الذين جاءوا بعده بجيل كامل . ولم يكن محمد على بعد هذا الفشل أدنى إلى الاتهام بأوامر الانجليز مما كان قبله . وقد حل الجيش وأعيد الأسطول التركي إلى الاستانة ولكن الاسكندرية كانت حصونها من القوة والمنعة بحيث كان يستحيل معها فرض شروط صارخة أخرى قبل هدم هذه الاستحكامات كما وقع بعد جيل .

== الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوروبا عليه . وهكذا تنقلب الأطوار في سير التاريخ .

وسافرت هذه العمارة من الاسكندرية للاتصال بالأسطول التركي الآتي من الدردنيل بقيادة خسرو بلشا الذي كان قد ذاق الأمرين من الحراقات اليونانية (وهي سفن مشتعلة تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها كلية) .

وبعد مناوشات طويلة مضنية مدة خمسة أشهر أدرك ابراهيم أن قهر اليونانيين لا يتحقق إلا بمقاتلتهم برأ فاتهز الفرص وأنزل جنوده إلى بر الموره في جهة مودون . وبعد قليل نشبت أشد معارك الموره هولا وهي معركة نافارين . فقد حاصرها ابراهيم بحرا وزحف عليها برا وشتت شمل الجنود اليونانية . وبالجملة كانت معركة نافارين الأولى فاتحة الانتصارات في القارة الأوروبية .

ولما كانت نافارين واقعة على البحر وإلى شمالها جزيرة اسفاختريا التي حصنها اليونانيون أشد تحصين فان الامدادات كانت ماتزال تصل إليها من تلك الجزيرة . فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى سليمان باشا الفرنسي .

ونشبت عدة معارك تشيب لها الولدان انتهت باخضاع هذه الجزيرة مما أدى في النهاية إلى الاستيلاء على نافارين في ١٨ مايو سنة ١٨٢٥

ثم توالى المعارك وخضدت شوكة الثوار ووصلت نجدات مصرية جديدة وفتح الطريق أمام الجيش التركي فاحتل أثينا . ونشطت الحراقات اليونانية في غضون ذلك ==

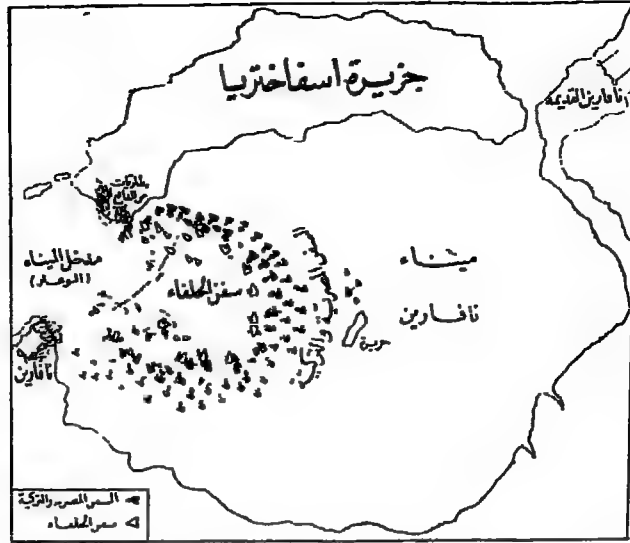


خريطة اليونان وفيها بيان الحرب التي اندلعت فيها السنة الثورة اليونانية والجهات التي استولى عليها ابراهيم باشا

== وحاولت الفتك بالاسطول المصرى فى الاسكندرية ولكن عادت بالحياة والفشل .
ومع أن الثوار اليونانيين قد غلبوا على امرهم فى شبه جزيرة الموره إلا أنهم انبثوا
فى الجزر المجاورة وبخاصة فى جزيرتى هيدرا واسبىزيا كما تراه فى الخريطة وأخذوا يعيشون
فى البحار فسادا فاستقر رأى محمد على على اعداد حملة جديدة لاستئصال شأفة الثائرين .
تدخل الدول الأوروبية

وقد حدثنا صديقنا المؤرخ المحقق الاستاذ عبد الرحمن الرافعي بك في كتابه الآف
الذكر عن تدخل الدول الاوربية لانهاد الثائرين قبل أن يستأصل شأفتهم ابراهيم باشا
فقال ما خلاصته :

إن المعارك السالفة الذكر وما أبداه الثوار من الاستبسال حركت في صدور الدول الأوروبية روح العطف على مطالبهم وذهب شعراؤهم وفي مقدمتهم لورد ديرون في إنجلترا وفيكتور هوغو وشاتو بريان في فرنسا يتغنون بمجد اليونان القديم ويضربون على الوتر الديني الحساس ليحملوا الدول على التدخل إلى أن تحركت روسيا في عهد قيصرها نيقولا الأول واعتزمت التدخل بمقردها لصالح اليونان . ولكن إنجلترا خشيت عاقبة انفرادها بالأمر فأنفذت الدوق ولنجتون سفيرا لها في روسيا وانفق الفريقان مبدئيا (٤ أبريل سنة ١٨٢٦) على تخويل اليونان استقلالاً داخلياً مع الاحتفاظ بالسيادة العثمانية .



خريطة موقعة نافارين وهي تبين موقف السفن المصرية أمام سفن الحلفاء

== وبعد سقوط ميسولونجي تجددت المفاوضات بين الدول وانضمت فرنسا إلى إنجلترا وروسيا وعقدت معاهدة لوندرا (٦ يولية سنة ١٨٢٧) على تخويل اليونان الاستقلال الداخلي وإبقاء السيادة العثمانية والمطالبة بوقف القتال بين الفريقين تمهيدا للاتفاق ومطالبة الباب العالي بقبول المعاهدة في خلال شهر وإلا التجأت الدول إلى القوة .

ولم تشترك النمسا في هذا المسعى نزولا على مبدأ مترنيخ وهو عدم مساعدة أية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية. ولما كان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا قرروا إرسال أساطيلهم إلى المياه اليونانية لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع وصول المدد المصري العثماني . فأنفذت إنجلترا إلى تلك المياه عمارة مركبة من ١٢ سفينة بقيادة الاميرال كودرينجتون ووصل بعده الاميرال ريني الفرنسي في عمارة مركبة من سبع سفن ثم وصل الاسطول الروسي من بحر البلطيق وعدده قطعه ثمان . وتولى القيادة العامة الاميرال لودرنجتون الانجليزي .

وصول الحملة المصرية إلى نافارين

وفي هذه الأثناء فرغ محمد علي من تجهيز الحملة وكلفها بالسفر إلى المياه اليونانية. فألقت من الاسكندرية في أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية وست حراقات وأربعين نقالة لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندي . ثم انتهزت العجالة فرصة غفلة الحلفاء وألقت مراسيها في نافارين .==

وقد ظلت سياسته الخارجية على ما كانت عليه دون أن يطرأ عليها تغيير ما . فان ارتيابه في الانجليز وبعد نظره في التخوف منهم جعله يرفض منحهم امتيازاً بحفر قناة أو إنشاء سكك حديدية . على أنه لم تمر أربع سنوات على سياسة بالمرستون العنيفة حتى سمح محمد علي للضابط فاجهورن بتنظيم الطريق البرى مما أدى إلى تخفيض مدة البريد الهندى إلى شهر

== ومن ثم بدأ الحلفاء يتحرشون بها فشرع كودرنجتون (١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧) يطالب ابراهيم باشا بوقف القتال برا وبحرا طبقا لمعاهدة لوندرا وبعد ارسال قوات برية أو بحرية إلى أية جهة من اليونان أو إلى جزر بحر الارخيل . وكان معنى طلبه ذلك الكف عن ارسال الحملة البحرية إلى جزيرة هيدرا (معقل الثوار) .

ودارت مقابلات بين أميرالية الحلفاء و ابراهيم باشا تقرر بعدها أن يرسل ابراهيم إلى أيه يستطلع رأيه في الموقف ويتعهد بأن لا يخرج أسطوله من نافرين إلى المياه البحرية اليونانية .

ومع أن معاهدة لوندرا المذكورة كانت تقضى بوقف القتال من الجانبين فان الحلفاء سمحوا للثوار باتهازها لجمع أشتات قواتهم لمهاجمة الجيش المصرى مما كان يدل على وجود مؤامرة بينا الحلفاء للقضاء على الأسطول المصرى والتخلص من منافسة هذه العارة الفتية .

وفي أثناء هذه الهدنة وبالرغم منها اعتزم اليونانيون مهاجمة بتراس في شمالى الموره التى كان يحتلها المصريون . فلما شك ابراهيم باشا إلى كودرنجتون هذا التصرف لم يرد عليه ردأ مقنعاً فقرر إرسال مدد إلى باتراس وبعث إليها بقسم من عمارته البحرية . فشق ذلك على الحلفاء وعدوه نقضاً للهدنة مع أن ابراهيم لم يتعهد إلا بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا فقط ولم يتعهد مطلقاً بعدم إمداد الحاميات المصرية في الموره وبخاصة إذا هاجمها الأروام ناقضين أحكام الهدنة . وعلى كل فان كودرنجتون أرسل بعض سفنه لتعقب السفن المصرية وأنذارها بالحرب إن لم تعد أدراجها إلى نافرين فعادت . وفى هذه الأثناء وصل رد محمد على فاذا هو يحتم على ابراهيم عدم التحرش بالحلفاء والانتظار ريثما يتلقى محمد على رد الباب العالى في الموضوع .

ووقف ابراهيم موقف الدفاع ولكن أتى للحلفاء أن يقنعوا بهذا وهم الذين كانوا قد بيتوا بينهم أمرهم على سحق العارة المصرية ؟

واحد كما أدى إلى مجيء مالا يقل عن ١٥٠٠٠ سائح إلى مصر سنويا .
وهكذا تمت سلسلة الحروب الطويلة التي أثارها ذلك الباشبوزق
المزمن ولم يكن عن طواعيته للحوادث أنه أخذ تدريجاً يسلم زمام الامور
الى ولده ابراهيم الذى انتهى به الامر أن أصبح قائم مقام (١٨٤٧) ولكن
الأرجح أنه شعر بضعف في قواه العقلية كما يلوح من اعتزامه ارسال
تجريدة عسكرية الى مارسيليا لإعادة صديقه لويس فيليب الى سرير الملك .
وقد اتهم بعد فراغه من عناء الأعمال أول فرصة للراحة عرضت له في حياته
الطويلة فأكب على الملاذ البريئة الانسانية البحتة فوضع بيده الحجر الأساسى
للقناطر الخيرية العظيمة المقامة على النيل تلك القناطر التي توجت بالنجاح

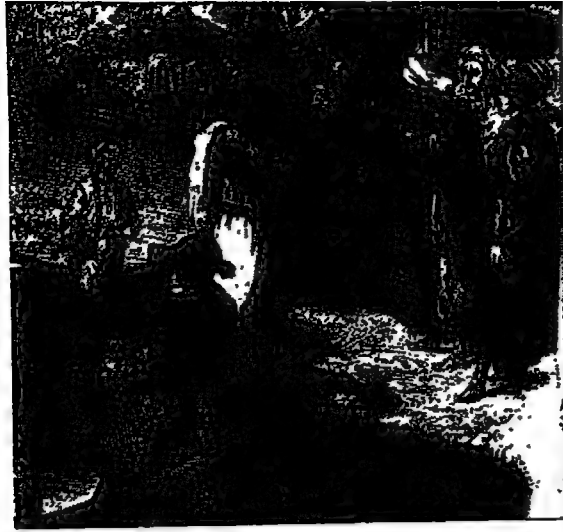
معركة نافرين — (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧)

وفي منتصف اكتوبر غادر ابراهيم نافرين زاحفا بجزء من جيشه داخل الموره
لإنقاذ الحاميات بعد ما أوصى محرم بك قائد الأسطول المصرى وطاهر باشا قائد الأسطول
التركى بترك التحرش بالخلفاء لأن الحرب لم تكن أعلنت بعد .
وعما يدلك على الكيد المبيت من جانب الخلفاء انهم عدوا زحف ابراهيم عملا مناقضا
لأحكام الهدنة وأنهم لذلك يلقون عليه تبعه ما يترتب على عمله هذا !! فانفذوا إليه رسو لهم
يحمل إنذارا بذلك مع علمهم برحيل ابراهيم باشا ومغادرته لنافرين . وبدلا من الانتظار
ريثما يصل كتابهم الى ابراهيم باشا في الجهة التي سار إليها ويتمكن من الرد عليه حددوا
لقبول إنذارهم مدة يومين فقط !!

فلما جاء الرسول إلى نافرين في يوم ١٨ اكتوبر أى قبل نشوب المعركة يومين
لم يجد ابراهيم باشا فعاد أدراجه إلى كودر نجتون . وهى مجرد مناورة للتخلص من
أسطول ابراهيم باشا .

واجتمع قواد الخلفاء في ذلك اليوم للتشاور فقرروا دخول الأساطيل إلى نافر
نافارين لارغام ابراهيم باشا على قبول مطالبهم مع التظاهر في الوقت نفسه بأنهم
إنما يعمدون داخل حدود معاهدة لوندرنا بقصد منع الحرب !!

وكانت السفن المصرية والتركية داخل الميناء موزعة في ثلاثة صفوف متوازية .
وقد وقفت في الصف الأول البوارج والفرقاطات الكبيرة وفي الثاني سفن الكورفيت =



استقبال محمد علي باشا في الأستانة عند زيارته لها بدعوة رسمية من جلالة السلطان مساعيه المتواصلة في سبيل تجديد نظام الرى العتيق في مصر . وهكذا ابتكر بها نظاما جديدا للرى تركت لأعدائه مهمة إتمامه من بعده . وقد تأقت نفسه إلى رؤية الأماكن التى كانت فيها نشأته في سلانيك ومنها خرج الى الأستانة حيث استقبل استقبالا رسمياً . ولم ينس أثناء وجوده

وتليها سفن الابريق وغيرها . وكانت استحكامات قلعة نافارين مع بطاريات المدافع تحمى مدخل الميناء .

وفي أخرج الساعات وأشدّها خطرا في تاريخ مصر غادر الضباط البحريون الفرنسيون الذين كانوا يعملون في الأسطول المصرى سفنهم بعد استئذان الاميرال محرم بك تلبية لنداء الاميرال الفرنسى تعايدا من مقاتلة مواطنيهم !!

وفي صبيحة ١٩ أكتوبر اجتمع قباطنة الحلفاء عند كبيرهم كودرنجتون على ظهر بارجته آسيا لبت فيما يعمل متى نشب القتال ! هذا في الوقت الذى كان فيه الاميرال المصرى مطمئن البال معتقدا أن الحرب لن تنشب . وصمم الحلفاء على تنفيذ مشروعهم واقتحام الميناء في ذلك اليوم . ولكن الريح كانت معاكسة . ولما كانت السفن تسير بالشراع وقتذاك فقد أرجأوا الهجوم إلى اليوم التالى .



محمد علي ياشا قبل سفره إلى باريس

فيها أن يزور خسرو زيارة ودية . ومن الغريب ان هذين الرجلين اللذين كانت منافسة أحدهما للآخر سبباً في اشعال النار في الشرق قضيا ساعات طويلة وهما يقهقهان لذكرى فشل كل منهما في اغتيال الآخر !!

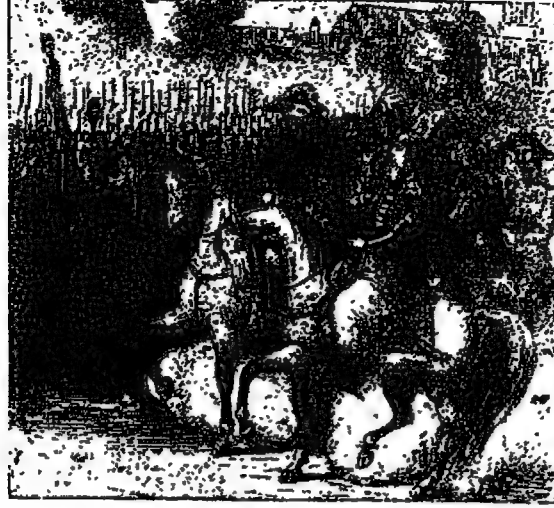
== وفي الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالي ١٢٠ أكتوبر شرعت سفن الحلفاء تدخل الميناء وفي طليعتها البارجة آسيا مقلة الاميرال كودرنجتون .

وعند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر الاميرال الانجليزى أمره إلى السفن بالتأهب للقتال . وعند الساعة الثانية تماماً اقتحمت السفن البوغاز .

وهنا أرسل الاميرال محرم بك إلى الاميرال كودرنجتون يطلب اليه منع أساطيل الحلفاء من الرسو في الميناء فأجابه الاميرال الانجليزى في لهجة جافة بأنه « جاء لا يتلقى الأوامر بل ليملأ أوامره » !!

وأخذت سفن الحلفاء تتقاطر بعضها خلف بعض حتى وقفت في محاذاة السفن المصرية وعلى بعد بضعة أقدام منها كما تراه مينا في الخريطة المنشورة في ص ١٦٧ .

وتعتبر وفاة مؤسس استقلال مصر (اغسطس ١٨٤٩) خاتمة ملامة



محمد علي باشا يستعرض الجنود الفرنسية في باريس عند سفره اليها

== وطلب قومندان البارجة دارتموت وقد وقفت على رأس الصف لتعطيل حركة الحراقات المصرية الراسية في مدخل الميناء ، إلى إحدى هذه الحراقات إما بأن يغادرها بحارها وجنودها أو أن تنسحب من موقفها وهو طلب كان بمثابة ذريعة لاشعال نار القتال كما لا يخفى .

ذلك ان الرسول الذى أنفذته البارجة حاملا هذا الطلب الى السفينة المصرية قد ذهب اليها في قارب مسلح متحدياً متحفزاً للقتال .

وهنا يزعم مؤرخو الحلفاء أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية فأصابت أحد جنود الحلفاء في القارب المذكور . فلوسلنا جدلاً بصحة هذه الرواية لما كان هناك غبار على تصرف قائد العمارة المصرية وهو الذى رأى الحلفاء يعبثون بشروط الهدنة ويقتحمون البوغاز وفي نيتهم تدمير الأسطول المصرى التركى .

ولقد كانت العمارة المصرية التركية عند بدء المعركة مركبة من ٦٢ قطعة بينما كانت أساطيل الحلفاء لاتزيد عن ٢٧ سفينة أى أنها كانت أقل منها عددا ولكنها كانت ترجح الكفة المصرية التركية بكثرة بوارجها التى بلغت العشر فى حين ان المصريين والترك لم يكن لهم أكثر من ثلاث بوارج . ثم لا ينبغى أن يفوتنا أن الحلفاء اقتحموا البوغاز وهم ==

للفصل الأول من قصة الأمة . وأحسب أنه قلما توجد بين قصص تاريخ الوطنية كقصة مصر في غراتها . فلقد استطاعت هذه الأمة قبل استيقاظ الضمير القومى فيها بزمن طويل أن تكون نفسها أمة متحدة فى غنى عن الغير بفضل مطامع رجل مخاطر أجنبى . وانه لمن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه المطامع المنطوية على حب المجازفة عندما بدأت تتجاوز حدود النمو الوطنى الحقيقى ردتها إلى الأرض الثابتة أيدي الملائكة الحراس

== مصممون على القتال بينا الجانب المصرى لم يكن يتوقع حرباً ولا قتالاً لذلك فوجيء باطلاق القنابل . زد على ذلك أن القلاع لم تطلق مدافعها بل تركت أسطول الحلفاء يدخل الى البوغاز دون أن تتعرض له لأن القوم كما قلنا لم يتوقعوا قتالا .

وعلى كل فلم تمض برهة على دخول أسطول الحلفاء الى البوغاز ومحاصرته السفن المصرية التركية فى مكان ضيق حتى بدأ القتال ودارت رحاه بمتهى الشدة وتجاوب الاسطولان الضرب فغدا المرفأ كأنه قطعة من الجحيم . ولم تكن تسمع إلا قصف المدافع أو دوى انفجار السفن التى كانت تسفها قنابل الحلفاء . واستبسل الجانب المصرى التركى ولم يسلم سفينة واحدة بل أثر الهلاك على التسليم العدو . وكانت الموقعة قد بدأت فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر فلم تكن الساعة الخامسة حتى كان قد قضى على العماره المصرية التركية وهلك معظمها نسفاً وغرقاً وجنح الباقي على السواحل وأحرق البحارة أغلبها حتى لا تقع فى أيدي العدو . وبلغ عدد القتلى المصريين والترك ٣٠٠٠ فى حين أن خسائر الحلفاء لم تزد عن ١٤٠ قتلى و ٣٠٠ من الجرحى .

وليس ريب فى أن موقعة نافرين هى من المواقع القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق مجسماً . كيف لا وقد وقعت دون اعلان الحرب بين تركيا والدول المتحالفة واغتال الحلفاء العماره المصرية التركية دون إنذارها وهذا وغيره مما أتاه الحلفاء مناف لا بسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتعدنية .

وقد مر بك أن ابراهيم باشا كان متغياً عن نافرين فلما بلغه تدمير العماره المصرية التى أنفق عليها أبوه ما أنفق عاد إلى نافرين وشهد بنفسه أثر الواقعة فحزن لها أشد الحزن وأمر باعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتوعيم بعض ما أغرقوا أنفذهها إلى الاسكندرية ورأى التزام خطة الدفاع باخلاء الموره والانتظار فى ثغرى كورون ومودون ريثما تصله أوامر أليه .

من أمثال القيصر نيقولا والسلطان محمود واللورد بالمستون . من أجل هذا قبلت مصر محمد علياً كمنشئها . ويعتبر الاحتفال بمرور مائة عام على توليه الملك أول احتفال عمومي قامت به الأمة المصرية نحو منشئها هذا

بين تركيا ومصر بعد الموقعة

وبرغم تدمير العمارة المصرية التركية فإن تركيا ظلت ترفض معاهدة لوندرا وطالبت الحلفاء بتعويض عن تدمير أسطولها .

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت أدرنه وأرسلت فرنسا حملة إلى اليونان لاجلاء الترك والمصريين عنها . وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وبمقتضاها نزلت تركيا على إرادة الدول المتحالفة كما ورد في معاهدة لوندرا بالاعتراف باستقلال اليونان الداخلي مع إبقاء السيادة العثمانية الاسمية عليها . وحدث بعد ذلك أن اتفقت كلبه الدول على تحويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠)

أما مصر فإن محمداً علياً أدرك بثاقب نظره أن ليس من الحكمة استمرار القتال بعد أن فقد عمارته وانقطعت المواصلات بين مصر وجيشها في الموره وبعد أن أنفذت فرنسا الحملة العسكرية التي عهدت إليها باجلاء المصريين والترك عن اليونان .

وفي هذه الأثناء جاء الاميرال كودرنجتون إلى الاسكندرية مصحوباً بعمارته وأنذر بتخريب المدينة أو يرسل محمد علي أمراً باستدعاء إبراهيم من الموره . فوسط في الأمر قنصل انجلترا الجنرال في مصر وعقد اتفاق مع الحلفاء على إخلاء الجيش المصري لبلاد الموره . وقد عاد فعلاً في أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد حروب منهكة وتضحيات هائلة استغرقت أربع سنوات كاملة لم تفد مصر منها شيئاً اللهم إلا حسن سمعة جيشها ومقدرة قائده الأكبر إبراهيم باشا صاحب الترجمة .

وليس شك في أن إبراهيم باشا اكتسب خبرة وأى خبرة في الحرب اليونانية فقد حارب جيوشاً أوربية يقودها قواد مدربون على النظام الحربي الحديث وتغلب عليهم في أكثر من موقعة .

من أجل هذا جاء اشتراك في الحرب السورية بمثابة الخاتمة السعيدة لبداية مجيدة . وقد تجلت عبقريته وأصبح اسمه مضرب الامثال ومقترناً بأسماء كبار الفاتحين وحسبك =

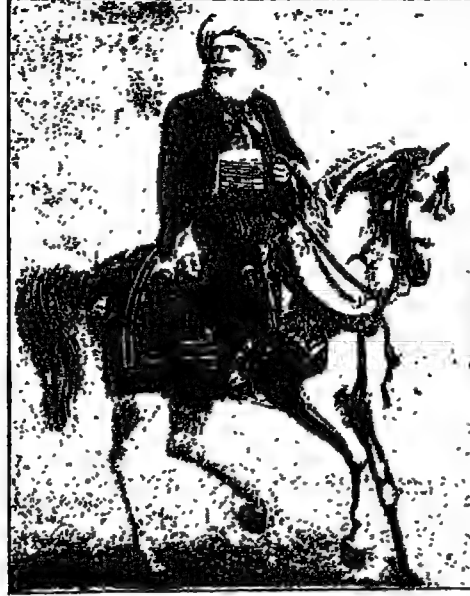
الذى كان بلا ريب فريد عصره وفخر الحكام المصلحين ممن ظهوروا في البلدان المتاخمة لشاطئ البحر المتوسط من مراکش إلى تركيا . وإذا جاز لأحد أن يقول أن الرجل كان من ناحية مغامرا ومستتهرا لا يحسب حساب

== أن انتصاراته على تركيا قد أوقعت الدول الأوروبية في أكبر حيرة وجعلتها تضطرب من عواقب انتصارات هذا الفاتح العظيم وخشيت أن تؤدي إلى فتح باب المسألة الشرقية قبل الآن .

ولعل أبرز صفات إبراهيم شجاعته وإقدامه وجه للنظام وصرامته في تطبيقه ولذلك كنت تراه في ميدان القتال يعيش عيشة الجندي البسيط في المأكل والنوم يشارك جنوده السراء والضراء وكثيرا ما كلن يقطع المراحل الشاسعة سيرا على الأقدام ليعطيهم مثلا على ضرورة احتمال شدة اند الحروب مما جعلهم يتعلقون به ويستمتتون في القتال تحت رايته . وكان شديد الذكاء صادق الفراسة بعيد النظر في عواقب الأمور ميالا إلى الاقتباس من أسس تقدم الأمم الغربية وكان شديد البساطة وهذا بعكس قواد الشرق وأمراته . وقد ذكر البارون بوكونت أنه قابل محمدا عليا قبل مقابلة إبراهيم في طرسوس عقب انتصاره في معركة قونية وإبرام اتفاق كوتاهيا واستطلع آراء الاثنين السياسية فقال عن إبراهيم إنه لم تتوافر عنده القوى على تأسيس الممالك كما توافرت عند أيه ولكنه كان متحليا بما يكنى من المواهب للحفاظة على كيان الممالك وبقائها . . . وأن إبراهيم حافظ على احترامه وإجلاله لآييه ولم يداخله الزهو حتى بعد انتصاراته العظيمة إلى حد أنه لم يكن يسمح لنفسه بالتدخين في حضرته كما أنه كان لا يبرح وهو بعيد عن أيه يبدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل .

وأشار البارون إلى الفوارق في آرائهما فقال أنه محمدا عليا كان يمثل فكرة الحكم المطلق بعكس إبراهيم الذي كان يميل إلى الأخذ بالمبادئ الحرة . ثم هناك خلاف جوهري بينه وبين أيه في مسألتين مهمتين : الأولى أنه كان غير موافق على نظام الاحتكار الذي اتبعه محمد علي في مصر وسورية مع أنه نفذ أوامر أيه في هذا الصدد . والمسألة الثانية أن إبراهيم كان يميل إلى إحياء القومية العربية كما تشهد بذلك أقواله وأقوال رجال حاشيته وبطالته بعكس محمد علي الذي كانت نفسه متشعبة بالفكرة التركية . وكان من رأى إبراهيم أن يجعل أبوه من الأمبراطورية التي أسسها دولة عربية بحيث يكون حكمها ورعيتهما وجيشها من جنس واحد وأمة واحدة (الأمة المصرية) وأن يعيد إلى القومية ==

العواقب فلا يفوته الاعتراف من الناحية الأخرى بأنه كان نابليون الشرق وبطل مصر الوطني ولهذا فإن أعماله كما يقول القرآن « تشفع له » .



محمد علي باشا على جواده الأبيض المشهور الذي كان يركبه في الحفلات الرسمية

== العرية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها .
ويدلك على تشبعه لهذه الفكرة ما رواه البارون عنه من أنه « كان يقول في أثناء فتوحاته في الشام أنه ينوي إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب لهم سواء في الإدارة أم في الجيش وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ويشركهم في إدارة الشؤون المالية ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه » .
وذكر البارون أن إبراهيم كان يعد نفسه عربياً إلى حد أن أحد جنوده خاطبه بالحرية التي كان إبراهيم يشجع عليها رجاله فقال له « كيف تطعن على الأتراك وأنت منهم؟ » فأجابه إبراهيم فوراً أنا لست تركياً فأتى جئت مصر صيداً ومن ذلك الحين قد مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً » .

ذلك هو إبراهيم باشا بطل حروب الاستقلال المصرية الذي لجئت فيه مصر قبل أن تفجع في أيه بيضعة أشهر . فسلام عليهما بما شيداه من مجد أثيل أخذت تمتد ظلالة الوارفة في عهد حفيدهما الأ كبر الجالس اليوم على عرش مصر الملك فؤاد الأول .

الفصل الثاني

المفلسون والسماصرة

عباس - سعيد - اسماعيل

« فسلبوا المصريين » - سفر الخروج الأصحاح
« الثاني عشر الآية السادسة والثلاثون »

« سيبنى أحفادى ثمار ما زرعت » . بهذه الكلمات استقبل محمد على الموت وهو فى دور النزع . ويشاء الجسد العاثر أن تستخف العجلة والرعونة هؤلاء الأحفاد فلا يجنون من الثمار الا الحنظل بعد انهماكهم فى شهوات الشباب .

ليس يحنق أن لحدوث الثورة عن طريق الديكتاتورية مزية عظيمة هى سرعة ذهابها إلى أبعد الحدود دون استنفاد شيء من القوة كما هو مألوف عند حدوث الثورة بواسطة اللجان الديمقراطية . نعم ان الحكمة وليدة الشورى ولكن لاجدال أيضاً فى أن النظام الشورى يؤدي إلى إضاعة كثير من الوقت سدى . على أن هناك ضرراً من ناحية أخرى هو أن خلع الديكتاتور أو موته قد يترتب عليه أن تفقد الحركة قوتها الدافعة المدبّرة وتضل اتجاهها وعندئذ يحدث رد الفعل الذى هو دائماً أبدأ بالمرصاد لأى وهن يطرأ على قوة الاندفاع السياسى . ومع أن القوة الابتدائية لهذا الاندفاع لن تفتأ تستجمع نفسها حتى تتم لها الغلبة فى النهاية إلا أنه لابد من إضاعة كثير أو قليل من الوقت ينقضى فى نزاع وفوضى قبل أن تستقر الأمور فى نصابها من جديد وتستعيز الحركة

عما خسرت من وقت . وسواء أكانت الثورة بالطريقة الأولى ، طريقة الديكتاتورية ، أم بالطريقة الثانية ، طريقة اللجان الديمقراطية ، فإن ما يندل في كل منهما من جهود أو ما يضيع سدى من الوقت يكاد يكون متساوياً .

وتتجلى مقدرة محمد علي في ادراكه أن لاسيلى إلى أى تقدم حقيقى فى أية ولاية من ولايات الامبراطورية العثمانية إلا بتوفر شرطين اساسيين . أولهما الانفصال عن الباب العالى والثانى الاطمئنان من ناحية الدول العظمى . وقد حقق محمد على هذين الشرطين بحصوله على استقلال داخلى فى الشؤون المالية مع حصر نظام الوراثة فى أسرته ، وصيانة هذا الاستقلال بالسيادة العثمانية وضمائته بمعاهدة دولية . فلم يبق إلا أن يوجد الحاكم الأوتقراطى الذى يستطيع بمقدرته أن يسهر على ذلك النظام الدولى . ومن ثم يعد المرحلة الأولى للانتقال من الأوتقراطية الشرقية إلى الديمقراطية الغربية . وقد كان فى استطاعة ابراهيم القيام بهذه المهمة وهو الذى كان له خلق آية وإن أعوزته مقدرته ، لأن حكمه فى سوريا (١٨٣٣ — ١٨٤١) وإدارته الصناعية تشهد بكفاءته . ولكنه لحق بربه وهو يشغل منصب قائم مقام آية فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وقد جاءت تولية عباس الأول نكبة على مصر ١٨٤٩ — ١٨٥٤

نعم لقد هدم محمد على صرح استبداد المالك والأتراك ولكن لا ينبغي أن ننسى أنه هدم إلى جانب ذلك تلك السيادة العثمانية التى كانت درعا تتقى به جماعة اسلامية ، مازال فى سذاجة القرون الوسطى ، شره الجاليات الأجنبية والطوائف المسيحية وأرباب الامتيازات بمن يعتبرون العالم بأسره وطناً لهم . أما ثورة عباس الرجعية ضد ما كان يقوم به جده . من أعمال الترقى الجديد فإنها وإن كانت أضرب بمصر إلا أنها فى الوقت نفسه

قد كشفت عن سخط حقيقى من جانب المصريين حيال الاستغلال الأجنبى كائناً ما كانت مظاهره سواء أكان من ناحية الممالك أم من ناحية المرايين . نعم كان لابد من حدوث رد فعل كهذا يوماً ما ولكن عباس ولد ، جعياً . يدلك على ذلك أنه أبى فى صباه تعلم اللغات الأجنبية كما رفض تلقن التربية الأوربية حتى إذا دخل دور الرجولة اعتزل الناس وانزوى كسولاً فريداً إلى أعماق دركات الغموض الإسلامى . ولقد أعطى لنا السير نايير فى كتابه « الحرب فى سوريا المجلد الثانى سنة ١٨٤٢ » والسير ث مورى فى كتابه المسمى « ترجمة وجيزة لحياة محمد على » صورة غير مرضية عن عباس الأول إذا أخبرنا أنه طالما أمر بمجلاء نسائه وإغراقهن فى اليم ، وأنه قضى معظم أيامه بين كلابه وجياده ، وأنه أنفق أموالاً طائلة فى زخرفة قصوره ، وأن شأنه كان كشأن غيره من الممالك فى سلب أموال فلاحيه . يضاف إلى ذلك أنه سمح لموليه العديدين — وبينهم نوبار باشا الأرمنى — بأن يجمعوا له الأموال بأحدث الطرق للبضاربات حتى إذا تكدست لديه بعثها بأقدم الطرق فى تشييد ثكنة فى الصحراء تنقبض لها النفس لدفن نفسه فيها بالحياة بين حراسه الممالك^(١)

عباس باشا الأول

(١) لقد رأى القارىء ما كتبه المستر جورج يانج عن عباس باشا الأول ولا نحسبه تجاوز الحقيقة فيما قاله . فان أقل ما يمكن أن بوصف به عهد عباس الأول أنه عصر الرجعية أو « النكسة » فى طريق النهضة القومية المصرية .

ولد فى مصر سنة ١٨١٣ (١٢٢٨ هـ) أثناء غيبة أبيه طوسون باشا فى الحجاز حيث كان يقاتل الوهابيين . ولما كان طوسون قد انتقل إلى دار البقاء بعد ولادة ابنه بقليل فقد جابه جده محمد على باشا بعنايته وبذل جهد الجبابة فى تربيته بمدرسة الخانكة وإعداده لمنصب ولاية مصر فى المستقبل باعتباره أكبر أفراد الأسرة سنّاً وأحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم باشا .



المغفور له عباس باشا الأول

== ولذا قلده منصب مدير الغرية ثم منصب الكتخدائية وهو يعادل منصب رئيس الوزراء كما كلفه في كثير من الظروف بمرافقة عمه ابراهيم باشا في غزواته للبران على الشؤون العسكرية .

ولم يشتهر عباس بأية مزايا ولا ورث شيئاً من أخلاق جده محمد علي باشا أو عمه ابراهيم باشا بل اشتهر على العكس بقسوة القلب والميل إلى إرهاب الرعية مما حمل جده على توجيه اللوم إليه أكثر من مرة . ولما ولي ابراهيم باشا الحكم ضاق بقسوته ذرعاً فاضطره إلى الهجرة إلى الحجاز حيث بقي هناك إلى أن انتقل ابراهيم باشا إلى دار البقاء فعاد إلى مصر وتولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ (٢٧ الحجة سنة ١٢٦٤) وفي أثناء ولايته الحكم الذي ظل فيه خمس سنوات ونصف ظهر ما في أخلاقه الرجعية من شذوذ . فآلى جانب قسوة القلب أضيفت صفات أخرى كسوء الظن بالناس والتعليب بالحوادث والرغبة في العزلة واختيار أبعاد الجهات عن العمران وأوحشها لبناء قصوره . فلم يكف بسراى الخرنفش وسراى الحلبية بالقاهرة بل شيد قصرأ بالعباسية (التي سميت باسمه) وكانت إذ ذاك منقطعة عن العمران . وحسبك دليلاً على نفامة هذا القصر الموحش الثاني أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة . ولم يكديفرغ من إنشاء هذا القصر المنيف حتى راح ينشئ قصرأ ثانياً في الدار البيضاء الواقعة بالجبل على طريق السويس المقفر (وتوجد آثاره إلى اليوم) وكذلك أنشأ قصرأ آخر في جهة العطف ثم غيره في بنها على النيل بعيداً عن المدينة وهو الذي قتل فيه .

وكانت باكورة اعماله عند ارتقائه الأريكة استبعاد مستشارى
أبيه وجده جميعاً وطنيين وأجانب على السواء . نعم أن معظمهم لم تكن
له قيمة حقيقية ولكن كان لاغنى عنهم لتسيير الاداة الادارية وللسهر على
نظام محتكرات الدولة . ولم يك من خرج حتى هذا الحين من اختلاط
أموال الوالى الخصوصية بأموال الخزانة العمومية ولكن عباس أخذ

== وبلغ من سوء ظنه بالباس أن تشكك فى اخلاص أفراد أسرته وأعلن عليهم حرباً
عواناً وحاول قتل بعضهم فهاجر منهم إلى الاستانة من هاجر وبقي الآخرون وسيف
البطش مسلط على رؤوسهم .

ولما كان نظام الحكم يقضى بتولية الارشد فالارشد من نسل محمد على أى أنه كان
ينتظر أن يخلفه على العرش عمه سعيد باشا بن محمد على باشا ورئيس الدونامة المضرية
فان عباس حاول تغيير هذا النظام لمصلحة ابنه الأمير ابراهيم الهامى وكان جميل الطلعة
شديد الذكاء . فأرسله إلى الاستانة فى سنة ١٢٧٠ للتشرف بمقابلة جلالة السلطان
عبد المجيد . وقد بذلت المساعى فى خلال تلك الزيارة لتحقيق رغبة عباس باشا بلا
جدوى . على أن ذلك لم يمنع أن جلالة السلطان قد أحب الأمير ابراهيم وقربه إليه
وغمره بنعمته وزوجه بابنته التى استولدها حضرة صاحبة السمو المغفور لها الأميرة
أمينة الهامى الملقبة بأم المحسنين

وبلغ من محاربة عباس لأفراد أسرته وانتهامه لهم بالتأمر على حياته أن فرت
عمته الأميرة نازلى هانم إلى الاستانة بينما لزم عمه سعيد باشا الاسكندرية لا يبرح
سرايه بالقبارى مطلقاً .

ومن المألوف أن يصحب ظهور الرجعية فى بلد من البلاد تفشى الجاسوسية فيها فتروج
سوق الرشايات وتندهور الأخلاق ولذا كان النيق إلى أقاصى السودان أخف عقاب
لمن يوقعه سوء الحظ فى قبضة عباس .

وكان عباس مولعاً باقتناء الخيول والكلاب وركوب الهجن ولم يكن يعرف اقتصاداً .
فى سبيل اقتناء الجياد وبناء . أغخم الاصطبلات لها .

وقف حركة التقدم

ولم يظهر ما عرف عن عباس نفوره من كل ما امتاز به عصر جده الكبير .
فحركة النهضة والتقدم والنشاط والعمران - هذا كله كما كان فى نظر عباس من ==



المغفور لها الاميرة أمينة الهامى الملقبة بأم المحسنين في شبابه

== الأمور المردولة التي ينبغي محاربتها بكل ما أوتي من قوة ولذلك التفت إلى المدارس فأغلق ما تبقى منها وأقصى إلى السودان طائفة من كبار العلماء كرفاعة بك رافع ومحمد بيومي أفندي وغيرهما وأنشأ مدرسة المفروزة (وهي مدرسة تجهيزية حربية) و « فرز » لها بعض الطلبة من دون طلبة المدارس الأخرى .

ومع أنه لم يكن يعرف الاقتصاد عند اقتناء الجياد كما قدمنا فانه عمد إلى المصانع والمعامل فأغلق أبوابها جملة واحدة بحجة الاقتصاد !!

ولم يذهب إلى أوروبا في عهده من طلاب البعثات سوى ١٩ طالب فحسب هذا مع أنه كان قد استدعى معظم أعضاء البعثات الذين كانوا يتلقون العلوم في أوروبا منذ عهد جده العظيم !

ولم يكن غريباً وهذه طباع عباس واخلقه أن تدهور كافة مرافق الدولة في عهده وبخاصة الجيش والبحرية . نعم لقد عمل على تجديد بعض الاستحكامات وإنشاء الطرق الحربية مما كان قد بدأ به إبراهيم ولكن الجيش نفسه ساءت حالته بعد أن كان مفخرة مصر فتفشى فيه الخلل وتضعف نظامه . وما زاد الطين بلة أن عباس أدمج فيه نحو ٦٠٠٠ من الأرنؤود وجعلهم خاصة جنده وزودهم بالمسدسات وقربهم اليه مما جعلهم ==

ما في هذه من نقود وجعل مكانها أوراق « بنكنوت » باسمه . فما هي أن تداولتها الأيدي حتى عادت عليه بشكل إيراد الضرائب . ثم أنه عطل

== ينظرون بعين الاحتقار إلى الجنود المصريين . وهكذا أفسح عباس الطريق لهؤلاء الأرنأود لأن يعيشوا في البلاد فساداً .

نعم كانت قيادة الجيش مازال في أيدي سليمان باشا الفرنساوي ولكن ما قيمة ذلك إذا كانت يده قد غلت عن القيام بما يراه ضروريا من الإصلاحات .

أما البحرية التي ازدهرت في عهد محمد علي فقد انحط شأنها في عهد عباس . ونظرا لأن سعيد باشا كان قائدها الأعظم فقد أدى حقد عباس عليه إلى إهمال شأن البحرية جملة ومحاربة كل إصلاح يرمى إلى رفع شأنها .

على أنه برغم تدهور الجيش والبحرية في عهد عباس فإن الدولة العلية التجأت إلى القوات المصرية لمساعدتها ضد روسيا في حرب القرم (١٨٥٣) . وإذ ذاك عاد النشاط إلى الترسانة المصرية بعد أن كانت معطلة واستطاعت مصر أن تساهم في تلك الحرب بعيارتها التي كان يقودها الاميرال حسن باشا الاسكندراني أحد خريجي البعثات في عهد محمد علي وترى صورته في ص ٩٩ وفي الوقت نفسه سافرت حملة مصرية قوامها ٢٠٠٠٠ مقاتل بقيادة سليم باشا فتحي أحد القواد الذين حاربوا تحت لواء ابراهيم باشا . وقد أبلت العماره والتجريدة المصرية خير بلاء في محاربة الروس إلى أن انتهت الحرب في عهد سعيد باشا .

ماتم من الإصلاحات في عهد عباس

ونظراً لانتشار الجاسوسية كما أسلفنا عليه القول فقد كان طبعياً أن يتضام عدد الأشقياء وقطاع الطريق ولذا توطدت دعائم الأمن العام في عهد عباس .

وكان أول مانع به عباس بعد اعتلاء الأريكه الشرع في مد خط السكة الحديدية بين مصر والاسكندرية (١٨٥٢) الذي تم في عهد سعيد . وقد عهد بهذه المهمة إلى المهندس الانجليزى المعروف روبرت ستيفنسن يساعده بعض المهندسين المصريين ممن اشتهروا بعد ذلك وشغلوا أكبر مناصب الدولة المصرية أمثال سلامة باشا ابراهيم وثاقب باشا ومظهر باشا وبهجت باشا . ويلاحظ هنا أن عباس لم يعهد بهذا المشروع لشركة أجنبية

وشرع كذلك في إنشاء الخط بين اسكندرية وكفر الزيات (١٨٥٤) وقد تم في ==

المدارس وأغلق كل معهد عام عليه مسحة أوربية . وقد أحاط نفسه بحراسه
الالبانيين والماليك فقصى بذلك على ما كان للجيش من صبغة وطنية وصفة
مصرية وخفضه الى بضعة آلاف من الجنود . ولم يكتف بأنه عزع دعائم
الدولة من الوجهة الوطنية والقومية إلى الحد الخطر بل ذهب الى أبعد من

== عهد سعيد باشا أيضا . وتم كذلك اصلاح طريق القاهرة والسويس وتعييده
ورصفه بالحجارة .

وقد وضع عباس بنفسه الحجر الأساسى لمسجد السيدة رينب وأقيم احتفال كبير
بهذه المناسبة حضره الاعيان ونحرت فيه الذبائح وأطعم فيه الفقراء .
واقدر على بعض المؤرخين ومنهم حضرة الاستاذ المحقق عبد الرحمن بك الرافعى المحامى
الذى لخصنا عن كتابه «عصر اسماعيل» أكثر هذه المعلومات اتجاه عباس إلى إتمام هذه
الاصلاحات بتغلب النفوذ الانجليزى وقشد فى البلاط المصرى وتفوقه على النفوذ
الفرنسى . فان الميسو فردينان دلسبس حاول أن يضم عباس إلى ناحيته ويحصل منه
على ترخيص بشق قناة عبر برزخ السويس ولكن انجلترا حاربت تلك الفكرة خوفا
على طريق الهند وحملت عباس على الاكتفاء بتعيد الطريق بين السويس والقاهرة
ومد السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية لتكون عدة لها عند الحاجة وتسيلا
للمواصلات البرية إلى الهند عن طريق مصر وسرعة نقل البريد البريطانى والسياح بين
الهند وانجلترا .

ويقدم أصحاب هذا رأى برهانا يؤيد نظريتهم لإهمال عباس مشروعات
الاصلاحات التى ازدهرت فى عهد جده واستغناؤه تبعاً لذلك عن كافة الخبراء
الفرنسيين مما أدى بالتالى إلى تضاول النفوذ الفرنسى هذا فى الوقت الذى كانت
لتنصل بريطانيا الجزال فى مصر وهو المستر مورى الكلمة المسموعة والمسكنة
الأولى فى بلاط عباس .

ولا يستبعد أن تكون مكانة المستر مورى راجعة إلى رغبة عباس فى الاستعانة به
فى السعى لدى حكومة الاساتنة عن طريق سفير انجلترا لتغيير نظام وراثة العرش
فى مصر كي يؤول إلى ابنه الهامى بدلا من عمه سعيد باشا أو لتوسيطه لدى الحكومة
البريطانية لمنع حكومة الاساتنة من التدخل فى شؤون مصر والحيلولة دون تطبيق
القانون الأساسى المعروف « بالتنظيات » على القطر المصرى .

ذلك فهدد استقلالها باستخذائه الشديد للسلطان . ويؤثر عنه أنه قال بهذه المناسبة « إذا كان لابد من أن يحكمني أحد اثنين فأولى أن يكون الخليفة لا القنصل » . ولكن الواقع أن الخليفة والقنصل حصلوا جميعاً على كل

مقتل عباس

بسطنا لك بعض الأمثلة على شذوذ أخلاق عباس وأنه أقام له قصرأ في بنها بعيدا عن العمران . وقد كان مقتله في ذلك القصر وعلى هذا اتفقت الروايات وان اختلفت في أسباب القتل .

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك كما أوردها في كتابه ، وحقائق الاخبار عن دول الحار جزء ٢ ص ٢٦٥ ، ان حاشية عباس من الممالك قد استطالوا بالغمز والبرز على رئيسهم خليل درويش بك الذي كان يعرف بحسين بك الصغير لأن عباس قربه اليه ومنحه عن غير جدارة رتبة قائمقام مع حدائة سنة . فشكاهم الرئيس إلى مولاه فأمر بجلدهم وتجريدهم من ثيابهم العسكرية وإلباسهم الملابس الخشنة وإرسالهم لخدمة الخيل والاصطبلات . فتشفع فيهم مصطفى باشا أمين خزانة عباس لأنهم كانوا من أتباعه المقربين ولكن بلا جدوى . فوسط في الامر أحمد باشا يكن و ابراهيم باشا الألفى محافظ العاصمة ، فاتهزا فرصة وجود عباس باشا في قصره ببنها وتشفعا في الامر فأجاب شفاعتهم . وجاء المغضوب عليهم لرفع واجب الشكر للامير وهم يضمرون القتل به وتآمروا مع غلامين من خدم السراى يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين واتفقوا جميعاً على قتله . ولما كان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه في ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يولية سنة ١٨٥٤) تولى الغلامان المذكوران حراسته . وفي غسق الليل جاء المؤتمرون ففتح لهم الغلامان الباب . فلما استيقظ عباس وحاول النجاة صده عمر وصفى وتكاثروا عليه المؤتمرون وأجهزوا عليه وأوعزوا للغلامين بالهرب . وكتبوا الأمر إلى صبيحة اليوم التالى . فلما لم يستيقظ الامير استبطأه أحمد باشا يكن و ابراهيم باشا الألفى فدخلا عليه فوجداه قتيلا فدعرا للحادث وكتبا الخبر إلى أن نقلا الجثة في عربة إلى القاهرة وأوصلاها إلى قصر الحلبية وهناك إذيع خبر مصرعه .

وحاول جماعة من أنصار القتل وعلى رأسهم الألفى باشا أن يجعلوا الحكم من بعده لولده ابراهيم باشا الهامى وكان وقتئذ بأوروبا فأرسلوا يستدعونه وحاولوا منع =

ما ارادوه منه . فقد طبق عليه الباب العالى «التنظييات» التى كانت بريطانيا قد فرضتها عليه نفسه من قبل . وقد اشتملت هذه التنظيمات فى الظاهر فقط على قبول الغاء الكرياج والسخرة ولكنها كانت تتضمن فى الواقع اعترافا بحق الأتراك والانجليز جميعاً فى التدخل فى شؤون ادارة مصر . وبمقتضى معاهدة سنة ١٨٣٨ أصبح يحق للتجار الاجانب أن يبتاعوا المحاصيل رأساً من الفلاحين على نظام الاحتكار الذى سنه محمد على وان كان قد ظل معمولاً به فترة أخرى من الزمن . يضاف إلى ذلك أن الانجليز صارت لهم يد فى الاشراف على الطريق البرى وهو ما كان يستحيل أن يسمح به محمد على . وقد نالوا هذا بفضل حصولهم على امتياز بإنشاء

== عمه سعيد من تولى الحكم وكان مقياً بسرايه فى القبارى . فكتبوا سرا إلى اسماعيل باشا سليم محافظ الاسكندرية بما اتفقوا عليه ولكنه كان على غير رأيهم لعله أن الحكم من حق سعيد . فذهب إلى سرايه وأطلعته على خوى الرسالة فشكره على إخلاصه وذهب بصحبته إلى سراى رأس التين . وأعلن اعتلاءه على العرش وأجريت حفلة الجلوس وسط إطلاق المدافع . ثم سافر إلى القاهرة بصحبة أعضاء الأسرة الحاكمة وتوجه إلى القلعة وتولى زمام الحكم .

أما رواية مدام أولمب إدوار التى ذكرتها فى كتابها المسمى «كشف الستار عن أسرار مصر» فتعزو الحادث إلى مساعى الأميرة نازلى هانم عمه عباس إذ أنفذت من الاستانة مملوكين من ممالكها وكانا على جانب عظيم من الجمال بحيث يغريان وكيل الأمير على شرائهما . وفعلاً ببطا مصر ونزلا إلى سوق الرقيق ورآهما الوكيل وابتاعهما وأحضرهما إلى قصر مولاه فى بنها . فلما رآهما عباس أعجب بهما وعهد إليهما بحراسته ليلاً . وقد لبث المملوكان يستجمعان قوتهما إلى أن جاء دور قيامهما بالحراسة فاقتهما الغرفة وهاجما الأمير فى نومه وقتلاه دون أن يتركاه فرصة للاستغاثة أو للدفاع عن نفسه . ثم نزلا إلى الاصطبلات وتظاهرا بطلب جوادين لقضاء حاجة لمولاهما الأمير فلم يشك السائس فى الأمر . فركبا الجوادين وفرا إلى القاهرة ومنها إلى الاستانة حيث نفحتهما الأميرة نازلى بمكافأة سخية على نجاح المؤامرة .

سكة حديدية بين الاسكندرية والقاهرة . ثم إن عباس برغم حرمانه نفسه من الاختلاط بالأجانب ما استطاع إلى ذلك سبيلا كان يعمل بمشورة الانجليز أكثر مما كان يعمل بمشورة الفرنسيين حتى كان الحزب الموالي لبريطانيا في مصر وقتئذ هو حزب « طبقة الحكام » وهو مركب من الاتراك وأعيان البكوات وقد انتهزوا فرصة هذا الانقلاب فعملوا على احياء عهد ظلم الفلاح وارهاقه من جديد . حتى ان عباس عند ماتوا في « بضربة الشمس » كما زعموا مع أن « الضربة » كانت ضربة حراسه أنفسهم لا بضربة الشمس تجلد المصريون في احتمال موجة القيظ الشديد التي لفحهم بها الجو مصادقة في تلك الأيام اعتقاداً منهم بأن الجحيم قد فتحت أبوابها لتلقى أميرهم ١١

وجاء سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣) أصغر أولاد محمد علي سنأ وعم عباس فكان صورة مناقضة لصورة سلفه من كافة الوجوه . فقد كان عصياً بقدر ما كان عباس رجعياً . ثم إن تساهله في تمدين مصر على النمط الأوربي كان بمثابة تخفيف مرغوب فيه لما ولدته رجعية عباس السخيفة من الكروب . وكان سعيد مثقفاً تثقيفاً فرنسياً ومن أكبر أنصار الأجانب الممتازين .

== ولعل أكبر حسنة يذكرها التاريخ لعباس الأول أنه تحاشى كل ما من شأنه أن يؤدي إلى التدخل الأجنبي في شؤون مصر . فلا هو يمكن للأجانب الموجودين في القطر باعطائهم الامتيازات ولا هو مد يده إلى الاستدانة منهم بل ترك خزانة البلاد حرة من ائثال الديون الأجنبية . وكان يعمل دائماً على سد عجز الميزانية دون الالتجاء إلى القروض . وهي ميزة لا بد أن يسجلها التاريخ لعباس في معرض المقارنة بينه وبين خلفائه .

وهكذا ترى أن عهد عباس الأول كان عهد الرجعية وانتشار الجاسوسية وتدهور المرافق العامة والرجوع بالبلاد القهقري . فعنده يعتبر بحق عهد النكسة في تاريخ النهضة المصرية .

وقد وصفه لنا صديقه « إدمون أبوت » وصفا شعرياً بقلبه فقال « كان هذا العملاق من أطيب الناس قلباً وأشدّهم حبا لمعيشة الترف والبذخ وأعظمهم شهية لتناول أفخر أنواع الطعام والشراب وكانت يده من كبر الحجم بحيث يخجل القيل أن يقارن يده بها . أما وجهه فكان عريضا وكثير الحمرة تزينه لحية هائلة كمعرفة الجياد شديدة الحشونة ولكنها تدل على الاستقامة والصراحة والشجاعة والخبث »^(١) وفي الحق إن هذا العملاق

سعيد باشا

ميلاده ونشأته

(١) ليس من شأننا أن نذكر تاريخا مفصلا عن أمراء مصر بل كل غایتنا أن نسد الثغرات في كتاب المسترجوع يانج أو أن نبين وجهة النظر المصرية جنبا إلى جنب مع وجهة النظر الأجنبية وبخاصة الانجليزية . ولما كان « عصر اسماعيل » لصديقنا الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي كالمعين الذي لا ينضب لما احتواه من المعلومات النفيسة الدالة على حسن التقصى وسعة الاطلاع وحسب البحث فقد رأينا أن نقتطف منه ما يتسع المقام لنشره عن سعيد باشا .

فهو ابن محمد علي الكبير . ولد في الاسكندرية عام ١٢٢٧ (١٨٢٢) فاهتم والده من البداية بتربيته وثقيفه حيث كانت له منزلة كبيرة في قلبه . واختار له السلك البحري حيث نشأ نشأة ديمقراطية . فقد أمر محمد علي بأن يعامل في السلك المذكور لا معاملة أحد الأمراء بل كأحد الملاحين . ولذلك كان سعيد ينظر الى الملاحين كأقرانه سواء بسواء لا يميزهم عنهم الا بما قد يظهره من التفوق عليهم بالجد والعمل الصالح . وقد ظل يطيع رؤسائه كاحد الضباط العاديين ويتدرج رويدا رويدا في سلم الترقى في المراتب البحرية ويجوب البحار الى أن أصبح « سر عسكر الدونامة » أي القائد العام للأسطول في أواخر أيام أبيه .

أخلاقه

وبديهى وهذه نشأته أن تشرب نفسه حب زملائه البحارة خاصة والمصريين عامة . ومن هنا كانت نزعة الوطنية التي غرست في نفسه قبل تولى الحكم وترعرعت وقيوت بعد اعتلائه الأريكة . والى هذه النشأة يمكن أن نعزو ما عمله سعيد للترفيه عن المصريين =

الهائل الشهية الذى بلغت زنته الثلاثة قناطر ونصف كان شديد المرح
طروبا محبا للفكاهة وقد جعل ديدنه أن يجمع شتات ما كان يظنه العرب
مضحكا عند الشرقيين وبالعكس لأنه كان من ناحية كأحد أولئك الخلفاء



المغفور له سعيد باشا

المذكورين فى قصص ألف ليلة وليلة، ومن الناحية الأخرى كأحد متسكحي
الحى اللاتينى وكثيراً ما أطاح وهو فى حالة المرح رؤوس المشايخ
متى أعوزهم الأدب كما أنه أمر مرة بصنع زينة باشعال النار فى الدعاوى

==وتحريرهم مما حاق بهم من مظالم العصور الماضية وتخفيف الضرائب عنهم وبث روح
الوطنية فيهم وتشجيعهم على تقلد المناصب السامية بعد ان كانت وقفا على
الجراكسة والأتراك .

وكان الى جانب ذلك يمتاز بطيبة القلب وسلامة الطوية والكرم والشجاعة
والصراحة والتسامح وحب العدل والنفور من الظلم . وكان محبا للعلم بارعا فى الرياضيات
يجيد التكلم بعدة لغات شرقية وكذا الفرنسية . ولكنه كان الى جانب ذلك
كثير التردد ضعيف الارادة سريع الغضب سريع العفو . وقد أوقعه ميله الى الاسراف
والترف فى شباك البيوتات المالية . فكانت الاستدانة من تلك البيوتات السنة السيئة
التي وضعها سعيد لخلفائه . وكان طبعيا ان يودى الاقتراض من الأجانب مع ==

المرفوعة بطلب مالا يقل عن ٨٠ مليوناً من القروش من الضرائب المتأخرة. وكان يسلى الملوك الأجانب بما يذكره لهم من الملح والطرف المضحكة الفرنسية . وقد أمر باشاواته يوماً أن يقتحموا الى جانبه كمية هائلة من مسحوق البارود الجاف وبأيديهم الشموع ليمتحن مبلغ مائة أعصابهم . وقد أنشأ قناة السويس فغير بها طريق التجارة العالمية بما غطى ساحة الاستعراض بالواحد من الحديد كي لا يثور التراب فيلوث ملابسه الباريسية. وفي الحقيقة لم يعرف الكتابة من عاش إلى جانب سعيد . وكثيراً ما كان يأمر باعطاء شخص من الأشخاص « مائتين » دون أن يعين هل يقصد مائتي كراباج أم مائتي دينار . وقد كان الشعب يحبه باعتباره أفكوهة عظيمة ولذا قدر له بعض اصلاحاته باعتبارها مجرد مداعبات كالغاء النخاسة

== ميله الشديد الى الفرنسيين خاصة وثقته الغير متناهية بالاوربيين عامة الى بسط نفوذهم رويدا رويدا على مرافق البلاد وأصبحت للقناصل منزلة لم تكن لهم في عهد من العهود السالفة . وكان من جراء ذلك كله أن وقع تحت تأثير صديقه فردينان دلسبس ومنحه امتياز حفر قناة السويس .

إصلاحاته

لعل ابرز إصلاحات سعيد باشا الزراعة اللائحة السعيدية الصادرة في ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ (٢٤ الحجة سنة ١٢٧٤) التي أصبح للفلاح بمقتضاها الحق في امتلاك الاراضي الزراعية بعد أن كان محروما من هذا الحق في عهد محمد علي . وهذه اللائحة هي أساس التشريع المتعلق بملكية الاطيان في القطر المصري .

وقد رأى سعيد أن يتمم مفعول هذه اللائحة بالغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية التي امتاز بها عصر أبيه محمد علي . فأصبح للفلاح بذلك الحق في التصرف في حاصلاته وحرية اختيار أنواع الزراعة التي يريدتها .

وزيادة في الترفيه عن الفلاحين أمر سعيد بالتجاوز جملة واحدة عن الضرائب المتأخرة وقد بلغت في ذلك الوقت على مارواه الميسو مريو ٨٠٠٠٠٠٠ جنيه وهو مبلغ لا يستهان به إذا قيس بثروة ذلك العصر .

(١٨٥٦) والغاء عقوبة الجلد (١٨٦٣) والخدمة الإجبارية العسكرية .
أما نصيب سعيد في عملية رهن مصر فلم يك شيئا مذكوراً بجانب
نصيب خلفه اسماعيل ولكن لا مناص من الاعتراف بأن سعيد هو واضع السنة
التي سار عليها اسماعيل فيما بعد . ولم يكن اسراف سعيد الشخصي أقل من
اسراف خلفه . أما استثماره بأرباح الدولة مما كان ينبغي أن يرده الى أموال
الخزانة فما كان ليترب عليه شيء ما لو أنه حرص على بقاء الأداة سائرة .
ولا ريب في أن الغاء نظام احتكار الحاصلات الزراعية نهائياً مما
اتجه له التجار الأجانب وإصراره على أن تكون الضرائب نقداً لا عيناً
مما ارتاح له الممولون الأجانب وسماحه بإعادة نظام الملكية

وبالغاء احتكار الحاصلات الزراعية أصبح في وسع الفلاح أن يؤدي الضريبة نقداً
بعد أن كان يؤديها عيناً . فلم يعد رجال الحكومة يتحكمون في حاصلات الفلاح أو
يبيعونها بالسعر الذي يقررونه كلا بل صار الفلاح نفسه يبيعها بالثمن الذي يرضيه ثم
يؤدي الضريبة نقداً . وهكذا نال الفلاح من الملكية العقارية وملكية الحاصلات وحرية
التصرف فيها وحياسة ثمنها أي أنه أصبح له وجود اقتصادي وصار مستقلاً عن الحكومة
وهو لعمر كبر نحسب أن المستريانج لم يقدره قدره عند كتابة ما كتبه عنه
في هذه الصحيفة . واذ لم يكن في وسع الفلاحين أداء الضريبة نقداً فوراً فقد أمهلهم
سعيد ريثما يتسنى لهم بيع حاصلاتهم الجديدة بالسعر المعقول وأداء الضريبة من
ذلك الثمن .

ومن أهم اصلاحاته الغاء نظام الدخولية التي كانت تنجي على الحاصلات والمتاجر
عند انتقالها من قرية إلى قرية ودخولها الى المدن . وكانت الحكومة تتقاضى على المتاجر
نحو ١٢ ٪ من قيمتها عند دخولها المدن وهذا كان مصدر اعنات للأهالي فضلاً عن
أنه كان عقبة كأداء في سبيل رواج التجارة وانتشارها . وهذا اصلاح آخر رأى فيه
المستريانج سبباً من أسباب عجز الميزانية العامة كما تراه في الصفحة التالية .
ولا تنس في باب الاصلاحات اللاتمة السعيدية التي وضعها لمعاشات الموظفين
المتقاعدين فهي الأساس الذي وضع عليه نظام المعاشات المعمول به في مصر اليوم
لموظفي الحكومة .

العقارية (١٨٥٨) مما كان له أطيب أثر بين الفلاحين — إن حدوث هذا كله في وقت واحد كانت نتيجة الارتباك والخراب . ذلك لأن الفلاح وممتلكاته سرعان ما وقعا غيمة باردة في أيدي المرابين الأروام الذين كانوا قد قدموا له القروض اللازمة في الماضي أو في أيدي التجار الأجانب الذين ابتاعوا محصوله بالمزاد هذا بينما أن اختلال النظام المالى كانت نتيجة أن الدولة صارت أكثر من ذى قبل اعتماداً على ما تقتضيه من الممولين الأجانب بفوائد فاحشة . نعم إن إلغاء الجمارك الداخلية « الدخولية » كان عملاً اقتصادياً نافعا ولكنه كان من الناحية الأخرى ضربة قاضية على الميزانية . ولطالما وصف لنا المؤرخون سعيد بأنه محرر مصر من تجارب أيه الاقتصادية متناسين أن هذه

الاصلاحات العمرانية

ووجه سعيد اهتمامه الى الأعمال العمرانية . ولما كانت ترعة المحمودية قد كاد أن يطمرها الطمي ويفسد استعمالها فقد أمر بتطهيرها . ولما كانت الأتربة التى ينبغى رفعها من هذه الترعة التى يبلغ طولها ٨٠ كيلو متر لاتقل عن ثلاثة ملايين متر مكعب فقد أصدر الأوامر للديريات بارسال الانفار فأرسلت نحو ١١٥ ألف عامل فأتموا عملية التطهير فى ٢٢ يوماً وأنشئ طريق زراعى على جانب الترعة عرضه ١٠ أمتار . وعنى سعيد بالانفار وأحضر لهم الأطباء لملاحظة حالتهم الصحية طول مدة العمل .

وقد لفت اتمام ذلك العمل العمرانى الكبير فى هذه المدة القصيرة الانظار من كل ناحية إلى مقدرة الفلاح المصرى وجلده مما حرك فى نفس السيوفردىنان دلسبس الشهوة إلى اغراء سعيد بتسخير آلاف الفلاحين لاحتفار قناة السويس . فأصغى سعيد إلى هذا الاغراء وقام باحتفار هذه القناة التى كانت وبالا على مصر .

وقد مر بك أن عباس الاول شرع فى انشاء خطين حديدين بين الاسكندرية والقاهرة وبين هذه والسويس ولكن المنية عاجلته قبل اتمامهما فيما فى عهد خلفه سعيد . فالاول فى سنة ١٨٥٦ والثانى فى سنة ١٨٥٨ . ولم تكن هناك كبارى على النيل بل كان القطار عند اجتياز فرعى النيل ينقل على مراكب خاصة من بر الى بر .



المغفور له العلامة محمود باشا الفلكي



العالم الأثرى مارييت باشا
مؤسس المتحف المصري

== وأنشأ سعيد خطوطاً تلغرافية على الطريقة الحديثة بخلاف طريقة «شباب» القديمة التي كانت في عهد أبيه .

وأدى إنشاء السلك الحديدية إلى رواج الاسكندرية والسويس ومن ثم شرع سعيد في اصلاح الميناء الثانية وانشاء مدينة باسمه وهي بورت سعيد .
وعنى سعيد بالاحتفاظ بالآثار المصرية وكلف مارييت باشا العالم الأثرى المعروف بجمعها في مخازن خاصة في بولاق كما عهد إلى محمود باشا الفلكي بالذهاب إلى السودان للقيام بالأعمال الفلكية . وقد وضع بأمر سعيد عند عودته خريطة مفصلة للقطر المصري .
الاهتمام بالجيش

كانت نشأة سعيد على ظهر الأسطول سبباً في تعلقه بالحياة البحرية بركة كانت أم بحرية ولذلك اهتم بالجيش وكانت تطيب له الإقامة وسط جنوده وكثيراً ما صرف أياماً طويلة بينهم .

وقد عنى بترقية الجيش مادياً ومعنوياً . فقرر تقصير مدة الخدمة العسكرية وجعلها اجبارية للجميع بحيث لا تزيد عن سنة واحدة بعد ان كانت قاصرة على أبناء الطبقات الدنيا ما حجب الجندي عن أهاليه وأدخل إلى قلوبهم الطمأنينة على مصير فلذات أكبادهم .
ثم أن تعمم الخدمة ومساواة الأغنياء بالفقراء أدى إلى تكريم الجندي ورفع شأنها .==

التجارب كانت قائمة على نظام اقتصادى معمول به وقتئذ فى مصر وفى الشرق. أما التجارب فى تطبيق مبدأ حرية التجارة وما الى ذلك من وسائل يحتمل أن تكون ناجحة عند الانجليز فى أوائل عهد الملكة فيكتوريا فقد كانت ضارة بالاساليب الزراعية التى ألفها الفلاحون منذ عهد الفراعنة . وقد منعت التجارة الأجنبية طبعاً بعد إلغاء نظام الاحتكار ولكن لم يكن فى الاستطاعة فرض ضرائب عليها بسبب الامتيازات هذا فضلاً عن أنها قتلت فى المهد تلك الصناعات الوطنية التى كانت ماتزال موجودة. ومن جهة أخرى فإن سخاء سعيد السياسى وكرمه الحسامى الشخصى كان على التحقيق بمثابة إحراق للشمعة من طرفيها الاثنين . كذلك تكلفت تجاريه فى

== واهتم سعيد بتحسين غذاء الجنود وملابسهم ومسكنهم ومظاهرهم عامة مما رغب الفلاحين فى الجندية بعد أن كانوا يرهبونهم وينظرون إليها شذراً .

والثفت سعيد إلى الناحية المعنوية فى الجيش فعمل على ترقية كثيرين من الضباط المصريين إلى المراتب العسكرية السامية بعد أن كانت وفقاً على الأتراك والجرأكسة . ولم يفت عرابى باشا أن يشير فى مذكراته ص ١٦ إلى خطبة ألقاها سعيد باشا فى مأدبة كبيرة أقامها فى قصر النيل إذ قال مخاطباً العلماء والرؤساء وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار الموظفين العسكريين والملكيين :

«أيها الاخوان إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض فقد توالى عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والآشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان والرومان وهذا قبل الاسلام . وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد والجرأكس وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها فى أوائل هذا القرن فى زمن بوناپرت . وحيث أنى اعتبر نفسى مصرياً فوجب على أن أرى أبناء هذا الشعب وأهذه تهديداً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل » .

المشروعات الهندسية الأوربية نفقات باهظة كانت أفدح من أن تضم إلى إسرافه الاسيوى . مثال ذلك أن زخرفة قاعة الاستقبال فى قصر عابدين بلغت نفقاتها عشرة ملايين فرنك أى ٤٠٠ ر ٠٠٠ جنيه ولكن هذا لم يكن شيئاً مذكوراً أو قيس بما تكلفته الخزانة من جراء مشروعاته

== واستطرد عرابى باشا فقال تعليقاً على هذه الخطبة إنه لما انتهى سعيد من إلقائها خرج المدعون من الأمراء والعظماء غاضبين حاققين مدهوشين مما سمعوا . وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحاً واستبشاراً . ويعتبر عرابى هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ مصر للمصريين . ثم قال « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضح أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة » وبيدهى أنه لو سادت هذه الروح لما كان العرايون بحاجة الى استعمال العنف فى تحقيق مطالبهم وكان سعيداً لم ينس الدرس الذى ألقته حملة بونايرت على المالك عند زحفها على القاهرة بطريق النيل ولذا أنشأ بقرب القناطر الخيرية القلعة السعيدية لصد الهجمات عن القاهرة بطريق النيل .

وكان تردد سعيد وتذبذبه سبباً فى اضعاف الجيش تارة وتقويته تارة أخرى كما حدث فى سنة ١٨٥٦ عندما سرح معظم الجيش أثناء رحلته إلى السودان ثم إعادته إياه سيرته الأولى عند توتر العلاقات بينه وبين تركيا فى سنة ١٨٦٠ بسبب مسألة قناة السويس إذ وصل عدده الى ٦٤٠٠٠ على ما أحصاه اسماعيل باشا سرهناك . ويظهر أنه كان ينوى محاربة تركيا هذا الجيش الذى لم يلبث أن أضعفه مرة أخرى عند ما عادت العلاقات بينه وبين تركيا إلى مجاريها . ويقرر المسيو فردينان دلسبس أن سعيداً أنقص الجيش من ٦٠٠٠ الى ٨٠٠٠ - ١٠٠٠٠ وذلك لتخصيص أكبر عدد من المقترعين الفلاحين لأعمال حفر القناة .

ضعف البحرية

كان أكبر هم سعيد وهو الذى نشأ وترعرع على ظهر الأسطول أن يقوى شأن البحرية فى أيامه ولذا بدأ باصلاح السفن العائدة من حرب القرم وشرع فى انشاء سفن جديدة . ولكن انجلترا خشية على مركزها فى البحر المتوسط أو عزت إلى الباب العالى بمنع سعيد من المضى فى تجديد الأسطول المصرى وأفهمته أن تقويته قد تفرد ابن محمد على بتقليد أعمال أبيه ضد تركيا . فنزل سعيد على ارادة تركيا وأمر بفك أجزاء ==

العامة . فقد اضطر إلى عقد قرض خاص في باريس (١٨٥٨) لإنشاء خط حديدي من الاسكندرية إلى القاهرة وآخر من القاهرة إلى السويس . وليس يخفى أن تورطه في مشروع قناة السويس هو الذي دفع بمصر إلى عقد أول قرض عام من بيت فريهلنج وجوشن في لندن (١٨٦٢) وكانت

السفن وبيع أخشابها وتسريح ضباطها وملاحيها .. وما زاد في ضعف البحرية المصرية في عهد سعيد اكتشاف البخار واستخدام الدول له واستبدال السفن الحربية الشراعية بالسفن البخارية مما عجزت معه ميزانية مصر عن مجاراتها فيه وأدى في النهاية إلى تدهور البحرية المصرية .

شركات ملاحية أجنبية

على أن سعيداً وإن كان قد أخطأ في إهمال شأن البحرية الحربية إلا أنه عني بالملاحية التجارية الداخلية فوافق في سنة ١٨٥٧ على إنشاء أول شركة أجنبية برؤوس أموال أوربية مجردة من أية صبغة مصرية فعلية اللهم إلا الاسم فقط إذ سميت بالشركة المصرية للملاحية التجارية ، وكانت غاية سعيد من ذلك تسهيل المواصلات بين الاسكندرية وداخلية البلاد التي كانت السفن الشراعية تستغرق في نقل حاصلاتها إلى الاسكندرية أكثر من ١٥ يوماً بسبب معاكسة الريح في حين أن البواخر ذانت تقطعها في نحو ٣٦ ساعة .

وكان العضو المصري الوحيد في هذه الشركة رئيسها الفخري ذو الفقار باشا وزير المالية . وقد جعل امتيازها ١٥ سنة ونص في عقد تأسيسها أنه إذا حدث خلاف بين الشركة والحكومة فيجسم النزاع بواسطة التحكيم كما نص على أن ترفع البواخر الراية المصرية باعتبارها تابعة لشركة مصرية ولو في الاسم فقط .

ولما فرغ بال سعيد من مسألة ربط داخل البلاد بعضها ببعض ببواخر هذه الشركة التفت إلى ربط مصر بما حولها من البلاد المتاخمة للبحرين الأحمر والأبيض المتوسط . فوافق في سنة ١٨٥٧ على إنشاء شركة الملاحية البحرية وسميت باسمه والقومية المجيدية ، نسبة إلى اسم السلطان عبد المجيد سلطان تركيا وقتئذ . وكانت الشركة برئاسة الأمير مصطفى فاضل بن إبراهيم باشا وتولى ادارتها مجلس مختلط من أجناب ومصريين ومنهم نوبار باشا وغيره وغيره . وكانت الغاية من إنشاء هذه الشركة تسيير البواخر في البحر الأحمر إلى المحيط الهندي والخليج الفارسي ونقل الحجاج إلى الحجاز على نحو =

شروط القرض تنذر بالشر وقد بلغ مقداره ٣٣٠٠٠٠٠٠ جنيهه وفائدته ٧ المائة وثمان السهم فيه ٧٥ ولما أدركت سعيدا الوفاة (١٨٦٣) بلغ مجموع ما على مصر من الديون الخارجية التي عقدت بشروط لهذه ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . ولكن بعض الكتاب الانجليز وبينهم لورد

== ما فعله الآن شركة الملاحة المصرية التي يرأسها سعادة المالى الكبير أمين يحيى باشا وشركة النقل التي ينفذها بنك مصر والتي ابتاعت أخيرا السفن الأربع بفضل همة واضع أساس استقلال مصر الاقتصادى سعادة محمد طلعت حرب باشا الذى يصح أن يسمى « دينامو مصر الاقتصادى » .

وقد جعل امتياز هذه الشركة ٣٠ سنة وترفع بواخرها الراية المصرية وتحسم المنازعات بواسطة المحاكم التجارية المصرية ولها مستودعات ومحطات فى السويس ومصر . على أن هذه الشركة مالم يثبت أن تدهورت بسبب اختلال ادارتها فى أواخر عهد سعيد فتولت الحكومة تصفيتها فى عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا .

ونظراً لكثرة حركة العمران فى السويس بعد ربطها بالقاهرة بالسكة الحديدية وانشاء الشركة المجيدية قرر سعيد إصلاح مرفأها فعهد بذلك إلى شركة « ديسو » الفرنسية التي انشأت حوضاً دائماً لأصلاح السفن ووسعت الميناء وهى اصلاحات لم تتم إلا فى عهد اسماعيل باشا .

اشترك مصر فى الحروب الأجنبية

حرب القرم

مر بك أن تركيا لجأت إلى القوات المصرية فى عهد عباس الأول لمساعدة الحلفاء (تركيا وفرنسا وانجلترا) فى حرب القرم وأن العمارة البحرية سافرت بقيادة حسن باشا الاسكندرانى بينما سافرت التجريدة العسكرية بقيادة سليم باشا فتحى . وقد انتقل عباس إلى جوار ربه والحرب المذكورة ماتزال مستعرة . وقد ألبى المصريون فيها أحسن بلاء . فلما استشهد سليم باشا فقدت مصر بفقده قائداً مغواراً وشعرت — على ما ذكره المسيو « فاترينيه » فى كتابه المسمى « سلمان باشا » — بالألم الشديد لوفاته إذ فقدت فيه قائداً فذاً فى الكفاءة الحربية ورجلاً نزيهاً محباً للخير اكتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه . وقد ولى سعيد بعده فى القيادة احمد باشا المنكلى وأركان حربه الاميرالاي على بك مبارك (باشا) وكان وقتئذ ناظراً للهندسخانة .

كرومر يقدرونها بثلاثة ملايين جنيه فقط ولكنهم يتناسون على ما يظهر مقدار الدين السائر .

ولما كان معظم هذه الديون إنما عقد للاتفاق على القناة لم يكن في فداحة هذه المبالغ الطائلة ما يمكن وقتئذ أن يخشى منه على مستقبل الأمة المصرية

== وليس يفوتنا في هذا المقام أن نسجل بعض ما كتبه مؤرخو الأفرنج عن كفاءة الجنود المصرية في حرب القرم — وكانوا يسمون بالعرب — تشبيهاً لهم بشجاعة العرب واقدامهم وذكائهم وحسن نظامهم « قال المسيوريو في كتابه مصر الحديثة ص ٤٢ : « إن كفاءة الفلاح المصرى في فهم النظام الحربى واتباعه إياه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة في مواجهة الأعداء كل هذه المزايا قامت عليها اليناث لافى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا في عهد محمد على فحسب بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلسلتريا واياتوريا في حرب القرم الأخيرة » .

أما الهامة الحرة فقد حدث أنها عادت الى الاستانة لاصلاح بعض سفنها ولكن الريح عاكستها عندمدخل البوسفور حيث كان الضباب مخمياً فارتطمت السفينة ومفتاح جهاد « بالسفينة » البحيرة » وانكسرتا وغرق من فيهما من جنود وضباط وكان عددهم ١٩٢٠ لم ينج منهم الا ١٣٠ وكان لسوء الحظ بين الغرقى حسن باشا الاسكندرانى والاميرال سنان بك .

ووضعت حرب القرم أوزارها فى سنة ١٨٥٦ واتهت بهزيمة روسيا .

حرب المكسيك

ربما استغرب القارىء اشتراك مصر فى حرب المكسيك التى لاتربطها بها رابطة ما ولكن هكذا شاء سعيد نزولا على ارادة صديقه نابليون الثالث امبراطور فرنسا عندما طلب معونة القوات المصرية للجيش الفرنسى بالمكسيك .

وقد تسأل عن سر ذهاب الفرنسيين الى المكسيك فجييك بأن نابليون الثالث اتهم فرصة نشوب الفتن فى تلك الجمهورية الثائرة ومحاولة بعض الأهاالى إسقاط رئيسها جوارز (١٨٦١) فانضم إلى جانب الثائرين وكان يقصد بذلك بسط نفوذ فرنسا على البلاد فيما بعد . ثم تدرع بما لحق بعض الأوربيين من الأذى والخسائر فى خلال الفتن وشرع يطالب الحكومة المكسيكية بتعويض عن هذه الخسائر . ولكنها رفضت فألب عليها انجلترا واسبانيا ولكنهما سرعان ما تقضتا يدهما من هذه المشكلة المعقدة وانفرد ==



بعض ضباط الأورطة المصرية في المكسيك
وقد جلس شارل جلياردو بك وإلى يمينه صالح بك حجازي ووقف خلف جلياردو
بك اليوزباشي إدريس نعيم وفي الوسط الصاغ فرج وفي أفندي وإلى يمينه البكباشي
عبد الله سالم أفندي

== نابليون بالامر فأرسل إلى المكسيك جيشاً دارت عليه الدوائر وهذا ما جعله يستنجد
بصديقه سعيد فبادر بامداده بكتيبة من الجنود السودانيين قوامها ١٢٠٠ مقاتل بقيادة
البكباشي جبرة الله محمد السوداني والصاغ محمد أفندي الماس واليوزباشي إدريس نعيم ==

من الوجهة المالية . أما من الوجهة السياسية فربما كان يكون خيراً لمصر لو أن سعيداً أنفق تلك الأموال كلها في زخرفة حجر الاستقبال . لأن امتياز قناة السويس قد ترتب عليه أن مصالح بريطانيا في مصر بعد أن كانت مجرد إحساس معنوي غامض بما يحتمل أن يكون لمصر من

والصاغ فرج وني أفندي والبكاشي عبد الله سالم أفندي . وقد رافق هذه الأورطة شارل جلياردو بك صاحب متحف بونا بورت وسكرتير الجمعية الجغرافية وصالح بك حجازي وترى صورتهم في الصفحة السابقة .

وفي سنة ١٨٦٢ أبحرت هذه الأورطة إلى المكسيك وأبليت في الحرب خير بلاء حتى وصفها المارشال فوري قائد الجيوش الفرنسية بالشجاعة إذ قال عن جنودها كما رواه اسماعيل سرهنك باشا في الجزء الثاني من كتابه ص ٣٧٦ : إن هؤلاء ليسوا من الجنود بل هم أسود !

وانتصر الفرنسيون في بداية الأمر ولوا الارشيدوق مكسيمليان النمساوي امبراطورا على المكسيك (١٨٦٤) ولكن كانت الغلبة في النهاية للثوار لجالا الفرنسيون والمصريون عن البلاد وقتل الامبراطور مكسيمليان بالرصاص (١٨٦٧) بعد أن قاتلت الجنود المصرية في تلك البلاد النائية أكثر من أربع سنوات قتل في خلالها البكاشي جبرة الله وخلفه الماس أفندي . ولما عادت الأورطة المذكورة إلى فرنسا (بعد أن لم يبق منها إلا ٣٠٠) استعرضها نابليون الثالث بصحبة القائد المصري شاهين باشا وأعجبا بنظامها وهنا الامبراطور الماس أفندي على شجاعة الأورطة ووزع الأوسمة على الممتازين من رجالها . ولما عادت إلى الاسكندرية في مايو سنة ١٨٦٧ استعرضها ساكن الجنان اسماعيل باشا في قصر رأس التين وأمر بترقية طائفة منها وأقام لها لطيف باشا وزير البحرية مأدبة شائقة تكريماً لها .

السودان في عهد سعيد

لا يسع من يكتب عن تاريخ مصر في عهد سعيد باشا أن يمر بالسودان دون أن يقف عنده ليقول كلمة موجزة . فلقد رأيت كيف أهمل عباس ذلك الاقليم المتمم لمصر وكان كل ما عمله من ضروب الإصلاح إنشاء مدرسة ابتدائية في الخرطوم . ولكن سعيداً سار على غير هذا النحو وكأنه اتخذ من أعمال أبيه الكبير نبراساً يهتدى به في حكم السودان وطريقة إدارته .

الأهمية في نظر سياسة الامبراطورية البريطانية ، قد تحولت إلى اعتبارات مادية جداً لها ارتباط بالمسائل العسكرية والتجارية مما يؤثر أكبر تأثير في قوة بريطانيا البحرية وسيادة إنجلترا في الهند . ثم أن بريطانيا كانت إلى هذه اللحظة قانعة بمنع الفرنسيين من أن تكون لهم السيطرة على القاهرة كما منعت

فكانت باكورة أعماله فيه أن ولي على باشا شركس حكمدارية السودان وبعث أخاه الأمير عبد الحليم للتفتيش على إدارته وأصلاح شؤونه ولكن الأمير لم يلبث طويلاً بل اضطره ظهور الأوبئة إلى العودة إلى مصر .

ثم استقر رأى سعيد على زيارة السودان بنفسه فسافر في رهط من خاصة رجاله ومعهم المسيو دالسبس فوصل الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧ فهرع الأهليون لاستقباله ورفعوا إليه شكاواهم من فداحة الضرائب ومظالم الحكام . فأصغى إلى أقوالهم وعطف عليهم . وقد فكر يوماً ما في إخلاء السودان وتركه لأهله لولا توصل أعيان ذلك القطر به وإلحاحهم عليه بالعدول عن رأيه حتى لا تتدهور حالة السودان وتسود فيه الفوضى .

فلما عدل عن فكرة إخلاء السودان قرر إصلاحه فبدأ بإعفاء الأهليين من المتأخر عليهم من الأموال وخفض الضرائب تخفيضاً عظيماً وجعل نسبة ما يدفع من الأموال بنسبة عدد السواقي في الأطنان إذ هي ميزان خصوبة الأرض وفرض ضريبة على الأطنان التي تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرشا أما ما يروى بلا سواقي فجعل ضريبة القدان الواحد ٢٠ - ٢٥ قرشا .

وعزل الحكام الأتراك لظلمهم . ولكيما يعود الأهالي على حكم أنفسهم أنشأ لهم مجالس محلية من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر وكبار العائلات على ما ذكره المسيو دى لسبس في كتابه ، ذكريات أربعين سنة ، وقد أطلق سراح كثير من المعتقلين وأصدر أمره بإلغاء السخرة وحتم على مديري الأقاليم حسن معاملة الأهالي وتجنب إرهابهم في جباية الضرائب ومنع استخدام الجنود في تحصيلها بسبب قسوتهم .

ونظم البريد في أنحاء السودان وأنشأ في صحراء كروسكو محطات لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان ومنعاً لتجارة الرقيق ومطاردة النخاسين أنشأ نقطة عسكرية على نهر سوبا ط .

من قبل سيطرة الروس على الاستانة . ولكن مصلحتها الحيوية صارت من الآن فصاعداً تتطلب انفرادها بالسيطرة على القاهرة دون سائر الدول الأخرى . على أن وقتاً غير قليل قد انقضى قبل أن تندمج هذه النظرية

== ثم ألقى منصب (حاكم السودان) وقسم ذلك القطر إلى خمس مديريات مستقلة في إدارتها بعضها عن بعض مع رجوع كل منها في شؤونها إلى وزارة الداخلية في مصر شأن مديريات القطر المصري . ولكنه رجع رحمه الله إلى إعادة ذلك المنصب بعد أن رأى من مديري الأقاليم بسبب استقلالهم جنوباً إلى الظلم وميلاً إلى إرهاب الأهليين . وما يؤخذ على سعيد في هذا المقام تعاضده للرحلات والاكتشافات الجغرافية التي كان يقوم بها المكتشفون الأجانب في أنحاء السودان بدلا من إيفاد بعثات مصرية كما كان يفعل أبوه من قبل .

وقد سافر سعيد في كتيبة من جنده إلى الحجاز في يناير سنة ١٨٦١ وزار المدينة المنورة في غير موسم الحج واستغرقت الزيارة شهرين والمقول أنها كانت تبحر للاعداد في رفض اجابة دعوة الحكومة التركية بالذهاب إلى الاستانة .

تدهور الحياة العلمية

من الغريب أن سعيداً لم يعتمد إلى النهوض بالتعليم بل ترك مستواه يتدهور . نعم إن عباس هو البادئ ، « بالنكسة » في التعليم ولكن المرء ليحارحاً حقاً في قعود سعيد عن رفع مستواه . وبحسبك أن الفرنسيين وهم أشد الناس إعجاباً بسعيد لم يجدوا ما يبررون به ذلك الجور . انظر ما كتبه المسيو مريو في كتابه « مصر الحديثة » ، إذ قال :

« لا يخفى أن المدارس قد أهملها عباس فأصابها الاضمحلال والتدهور وبلغت حين تولى سعيد الحكم درجة من التقهقر والفوضى جعلت ألباشا يرى من الحكمة اقتفالها نهائياً بدلا من السعى في تنظيمها إذ كان هذا السعى عبثاً لا يجدى ! ! » وهو دفاع خير منه الاتهام إذ أين هذا مما فعله محمد علي الكبير الذي أنشأ من العدم وجوداً وخلق من الجور حركة ؟ فهل اكتفى بما ورثه عن المالك أم أنشأ البلاد نشأة أخرى ؟

وقد مر بك أن عباس أغلق محجة الاقتصاد في النفقات كثيراً من المدارس التي كانت في عهد أبيه ثم جاء سعيد فأجهز على البقية الباقية فألقى ديوان المدارس (وزارة المعارف) وكان يديره وقتئذ عبدى شكرى باشا المنشورة صورته في ص ١٠٠

وفي سنة ١٨٥٤ ألقى مدرسة المهندسخانة وكان ناظرها على بك مبارك (باشا) ==

بسياستنا حيال مصر وتطبعها بطابعها . وبينما لا يوجد دليل على وجود خطة موضوعة لمضاعفة متاعب مصر المالية أو استغلالها لتحقيق السيطرة على القناة فإن الأدلة عديدة على أن الوزارات البريطانية من الحزبين

وأنفذه سعيد ضمن الحملة التي أرسلت في حرب القرم . ثم اغتتم فرصة غيابه وألغى المدرسة كما ألغى مدرسة المفروزة (١٨٥٥)
وعهد إلى رفاة بك بنظارة المدرسة الحرية التي أنشأها بالقلعة وسماها مدرسة أركان حرب .

على أن سعيدا مالبت أن عاد في سنة ١٨٥٨ إلى فتح مدرسة المهندسخانة وجعلها مدرسة حرية ونقلها إلى القلعة السعيدية بالقناطر الخيرية وسميت المدرسة الحرية كما أعاد فتح المدرسة البحرية بالاسكندرية .

وفي عهده أقفلت مدرسة الطب بقصر العيني ثم أعيد فتحها في سنة ١٨٥٦ وأنشأ بها مدرسة للقبالات . أما حركة البعثات العلمية فقد خمدت ولم يرسل إلى أوروبا في عهده سوى ١٤ طالبا . ومن أقوى الأدلة وأغربها على ميل سعيد إلى الأجانب أنه بينما كان مترخيا في النهوض بالتعليم إلى الحد الذي رأيته كان لا يرضى على البعثات الأجنبية الدينية بمساعداته كي تفتح مدارسها . لهذا منح إعانات سنوية لراهبات البون باستور (الراعي الصالح) وكانت لهن مدرستان بمصر والاسكندرية ولراهبات الصدقة بالاسكندرية ووهب للبعثة الاميريكية بناء بمصر لتتخذ مدرسة لها وأعطى أول مدرسة إيطالية أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية اعانة قدرها ٢٤٠٠٠ جنيه ووهب لها قطعة أرض في أجود جهات الاسكندرية لتنشئ المدرسة . وهكذا كانت عنايته بنشر التعليم الأجنبي أكبر من عنايته بنشر التعليم الأهلى وذلك من أغرب المتناقضات !

نظام الحكم في عهد عباس وسعيد

وإلى جانب هذه المعلومات النافعة التي اقتبسناها من كتاب « عصر اسماعيل » للاستاذ المحقق عبد الرحمن الرافعي بك نقتبس ملخص ما كتبه حضرته أيضا عن نظام الحكم في عهد عباس وسعيد وهو في نظرنا من خير ما كتب في هذا الصدد .
فقد ظل حكما مطلقا يتولاه ولى الأمر وفي يده كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . وقد أهمل مجلس المشورة الذى ألف في عهد محمد على وانقصد في أيامه حيناً واعتبر نواة لنظام الشورى .

السياسيين البريطانيين كانت وقتذاك غير ميالة لتحمل أية مسؤولية في مصر. وإليك دليلا على ذلك رفض الحكومة الانجليزية الأصفاء إلى ما عرضه قيصر روسيا من جعل مصر وكريدن نصيب إنجلترا إبان المحادثات

== أما المجلس الخصوصي الذي كان قد أنشأه محمد علي في سنة ١٨٤٧ وجعل اختصاصه النظر في شؤون الحكومة الكبرى وسن اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة وكان يرأسه إبراهيم باشا ، هذا المجلس قد أعاد عباس الأول تأليفه بمقتضى لأتمحة بتاريخ ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٦٥ (١٨٤٩) وتولى الكتخدأ باشا رأسته باعتباره أكبر موظف بالحكومة. أما أعضاؤه فكبار الذوات والعلماء واختص بنظر المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وتنصيب رؤساء المصالح الكبرى . وبالجمله كان هذا المجلس بمثابة مجلس النظار وتولى السلطة التشريعية وشاركه فيها مجلس الأحكام وهو المجلس الذي ظل قائما إلى أن خلفه مجلس النظار في عهد اسماعيل باشا

الوزارات

في سنة ١٨٥٧ أعاد سعيد تنظيم الدواوين فجعل منها أربع وزارات الداخلية وقد عهد بها إلى الأمير أحمد رفعت والمالية وقد عهد بها إلى الأمير مصطفى فاضل والحرية وقد تولاها الأمير محمد عبد الحليم والخارجية وقد تقلدها اسطفان بك أحد خريجي البعثات في عهد محمد علي .

النظام القضائي

مجلس الأحكام

كان يوجد في البلاد منذ عهد محمد علي هيئة قضائية عليا تدعى « جمعية الحقانية » أنشئت سنة ١٨٤٢ ولكن أطلق عليها فيما بعد سنة ١٨٤٩ اسم « مجلس الأحكام » وهو الذي كان له شأن كبير في عهد سعيد واسماعيل لأنه كان بمثابة الهيئة الاستئنافية العليا في البلاد وأعضاؤه تسعة من الكبراء واثنتان من العلماء أحدهما حنفى والآخر شافعى وكان أيضا يشارك المجلس الخصوصي في السلطة التشريعية .

مجالس الأقاليم

ظلت المحاكم الشرعية على ما كانت عليه في عهد محمد علي وظل لها اختصاصها في المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية وانتقال الملكية ولكن أنشئت محاكم أو مجالس جديدة للفصل في المسائل المدنية والتجارية سميت « مجالس الأقاليم » بلغ عددها خمسة ==

الشهيرة التي دارت مع سيمور (٢١ فبراير سنة ١٨٥٣) لتقسيم أملاك « الرجل المريض » . بيد أن هذا الاحساس من ناحية الجمهور وكان يعتبر المستعمرات عبءا ينبغي التخلص منه وبعد التسليح عملا شيطانيا لم يلبث طويلا . وحسبك أن دزرائيل الذي كان يشتم سلفا رائحة الجهة التي ينوى

== في بداية تأسيسها وهي (مجلس طنطا) للنظر في قضايا الغرية والمنوفية والبحيرة و (مجلس سينود) خاص بالدقهلية والشرقية والقليوبية (و مجلس الفشن) وينظر في قضايا الجيزة والمنيا وبنى مزار وبنى سويف والفيوم و (مجلس جرجا) وينظر في قضايا أسيوط واسنا وقنا و (مجلس الخرطوم) وينظر في قضايا السودان .

وكان المجلس الخصوصي ومجلس الأحكام يصدران اللوائح والقوانين لمجالس الأقاليم وقد تمكن سعيد من أن ينال من السلطان حق اختيار القضاة بعد أن كان قاضي القضاة المولى من قبل السلطان هو الذى يعينهم وهذا اصلاح سد الباب في وجه كثير من أعمال الفساد وانتشار الرشوة .

ونظرا لتردد سعيد وعدم استقرار رأيه على وتيرة واحدة ألغى مجلس الأحكام في سنة ١٨٥٥ وبعد أن حول القضايا المنظورة أمامه إلى الأمير اسماعيل باشا (الخديو) عاد في السنة التالية وأمر بتأليف المجلس المذكور من جديد برئاسة الأمير اسماعيل باشا . ثم انقضت فترة ورجع سعيد إلى غضبه على المجلس فألغاه مرة أخرى في سنة ١٨٦٠ كما ألغى مجالس الأقاليم . وفي سنة ١٨٦١ أعاد مجلس الأحكام من جديد برئاسة محمد شريف باشا ناظر الخارجية وقتئذ كما أعاد مجالس الأقاليم مع الاكتفاء بمجلس طنطا لنظر قضايا الوجه البحرى ومجلس أسيوط لقضايا الوجه القبلى .

وكان القانون العثمانى وما أصدره سعيد من القوانين هو المحور الذى تدور عليه الاعمال أمام مجلس الأحكام ومجالس الأقاليم .

وكان مجلسا طنطا وأسيوط مختصين بالحكم ابتدائيا فى المخاصمات فاذا استؤنفت فيكون ذلك أمام مجلس الأحكام .

هذا كله فيما يختص بحالة القضاء الأهلى . أما من حيث القضاء الأجنبى فقد ظل العمل جاريا فى القاهرة والاسكندرية إلى عهد اسماعيل باشا بنظام « مجالس التجار » أو محاكم التجارة التى أنشأها محمد على بينما كانت المحافظات والضبطيات تنظر فى المشاكل الخاصة بالأجانب . ثم أنشئ فى سنة ١٨٦١ « قومسيون مصر » أو مجلس القومسيون للفصل فى ==

الهر ان يقفز اليها قد سبق إلى ايجاد عصر جديد في تاريخ بناء الامبراطورية .
ومنذ ذلك الحين صارت مصر لا غنى عنها لتكملة بناء هيكل امبراطورية
عهد الملكة فيكتوريا .

وليس من ريب في أن القناة كان لامناس من انشائها إما عاجلا أو

== مشاكل الأجانب لازدياد عددهم . وكان القومسيون هيئة محتلطة رئيسها مصرى وفيها
عضوان مصريان عدا عضو أوربى وآخر يونانى وآخر اسرائيلى وآخر أرمنى . وكان هذا
القومسيون ينظر في قضايا الأجانب المرفوعة على الرعايا المصريين وللقناصل أن يرسلوا
مندوبا من قبلهم لحضور جلساته وتستأنف أحكامه أمام مجلس الأحكام . ولم يكن من
اختصاص القومسيون النظر في المسائل المتعلقة بالعقار لأنها كانت من اختصاص المحاكم
الشرعية وحدها باعتبارها المحاكم العادية في البلاد .

قناة السويس .

ولما كنا قد أخذنا على عاتقنا سد الثغرات في كتاب المستر يانج وذكر ما بهم القراء
ذكره فتحسب أن الواجب حيال التاريخ يقضى بأن نقف هنيهة لنقول كلمة في موضوع
قناة السويس وهى أكبر غلطة ارتكبها سعيد بل هى أكبر نكبة نكبت بها مصر
وما تزال تعاني من جرائها ما تعانيه . ولا بد من التنويه من جديد بما كتبه الأستاذ
الرافعى بك في هذا الصدد .

فليس شك في أن تلك القناة ما كانت لتحفر لولم تكن ميول سعيد نحو الأوربيين
عامة والفرنسيين خاصة كما رأينا . بل إن مصر ربما كانت احتفظت باستقلالها لو أن
الذى تقدم إلى سعيد بطلب الامتياز بحفر القناة شخص آخر عدا فرديناند دلسبس
أو لو كان رجلا غير ماهر في ركوب الجياد الصافات !! وإذا كان الأقدمون قد قالوا
إن معظم النار من مستصغر الشرر فلننا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مصير مصر لعشرات
السنين أصبح مرتبطا بقفزة ماهرة قفزها فرديناند دلسبس بجواده !!

موجز تاريخ المشروع

فلقد رأيت فيما كتبه المستر جورج يانج نفسه وفيما سردناه عليك في هذا الهامش
حرص محمد على الكبير على اقضاء النفوذ الأجنبي عن مصر . ولم تكن مذبحه المالىك
وزج جنوده اللبنانيين في المواقع النائية ، بل إن حروبه ضد الانجليز وضد تركيا نفسها
كل ذلك كان باعته الرغبة في منع النفوذ الأجنبي من التسرب إلى مصر . وقد بلغ من ==

آجلا . ولكن كان في الاستطاعة باقتفاء أثر سياسة محمد على تاجيل الشروع فيها ريثما تستقر حالة مصر كدولة بحيث تصبح ولا خطر على استقلالها مما يقتضيه المشروع من ديون مالية وأعباء خارجية . ولم تكن إنجلترا

== شدة حرصه على ذلك أن الاخصائيين والخبراء الذين كان يأتي بهم من فرنسا وإنجلترا وغيرهما كان يتحتم عليهم عند دخولهم في سلك الخدمة المصرية أن يلبسوا الزي المصري والعامة على ما كان شائعا في عهد عزيز مصر . ثم إنه كثيرا ما رفض منح إنجلترا أى امتياز خوفاً، على حد تعبير المستر يانج، من أنه إذا منحها شياً أن تطمع في متر وهكذا دواليك حتى تستولى على البلاد بأسرها . وعلى هذه السنة الصالحة سار ابراهيم باشا في الفترة الوجيزة التي قضاها في الحكم .

ومهما قيل عن مساوئ عهد عباس الأول فليس شك في أنه سار على سنة جده وعمه في عدم التمكن للأجانب بل وعدم التفكير في منح أى امتياز لاية شركة أجنبية .

أما سعيد الذى كان لا شك يعلم أن أباه العظيم برغم ميوله الشديدة إلى الفرنسيين لم يمنحهم امتيازاً كهذا الامتياز بل كان معارضاً فيه . قد كان أولى به أن يكون أبعد عن التورط فيما تورط فيه . فما فعله كان إذن مخالفة صريحة لوصايا أبيه الذى يعتبر القناة بمثابة بوسفور ثان يجعل مصر واستقلالها عرضة للاخطار .

ولست فكرة حفر القناة حديثة بل هى ترجع إلى عهد الفراعنة . وإنما تم الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر بواسطة النيل حيث كانت تنفرع منه ترعة الفراعنة القديمة وتسير بمحاذاة وادى الطميلات ثم تنثنى إلى الجنوب مخترقة البحيرات المرة حتى تصب في البحر الأحمر .

وجاء الفتح الاسلامى فأنشأ عمرو بن العاص « الخليج » المعروف بخليج أمير المؤمنين بأمر عمر بن الخطاب (ر) في سنة ٢٣ هجرية ليصل النيل بالبحر الأحمر فيبدأ من مصر القديمة إلى القاهرة ومنها إلى المطرية فالعباسة ثم يتبع آثار ترعة الفراعنة القديمة . وفي إبان الحملة الفرنسية فكر نابليون في المشروع وعهد بدراسته للمهندس الكبير لويسر فقتضى نحو عامين في البحث والدرس ووضع تقريراً عن المشروع يقضى بحفر قناة من السويس إلى البحيرات المرة على أن يعاد حفر خليج أمير المؤمنين إلى أن يتلاقى بحر موسى بقرب الزقازيق ومن هناك يتصل بفرع دمياط ومنه إلى ترعة الفرعونية ==

وقتذاك ميالة إلى فكرة انشاء القناة لأنها كانت لأسباب عسكرية تفضل طريق رأس الرجا الصالح وإن كانت أبطأ من الطريق الأخرى . ثم إن

ومنها إلى فرع رشيد ومنه إلى الاسكندرية بواسطة ترعة الاسكندرية . ولقد جذب ذلك المهندس في الوقت نفسه فكرة وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر رأساً ولكنه أخطأ التقدير إذ حسب أن منسوب المياه في البحر الأحمر أعلى بنحو تسعة أمتار عن منسوب المياه في البحر الأبيض .

دلسبس في مصر

وفي سنة ١٨٠٣ عين المسيو ماتيو دلسبس والد فرديناند دلسبس قنصلا لفرنسا في مصر . وسرعان ما اتصلت بينه وبين محمد علي أوشاج الصداقة . ومرت الأعوام وغادر ماتيو هذا العالم وعين ابنه فرديناند في سنة ١٨٣١ مساعدا للقنصل الفرنسي في مصر في عهد محمد علي . وسرعان ما شمله عزيز مصر بالعبارة نظرا للصداقة القديمة وعهد إليه بتربية ولده سعيد تربية رياضية . فشرع يمرنه على الفروسية وركوب الخيل وغير ذلك من أنواع الرياضة إلى أن استحسنت بينهما الصلات الودية وأصبحا لا يفترق أحدهما عن الآخر .

وحدث أن فرديناند عثر وهو في الاسكندرية على تقرير المسيو لويير وأكب على دراسته ومنذ ذلك الحين تشبعت نفسه بفكرة تحقيق المشروع . ثم نقلته دولته من القطر المصري حيث قضى ردها طويلا من الزمن متقلبا بين مختلف المناصب .

وفي سنة ١٨٤٦ جاءت إلى مصر لجنة دولية لدرس المشروع في أواخر عهد محمد علي ورأت أن عقبة الفرق بين منسوب المياه في البحرين يمكن التغلب عليها بشق ترعة تجتاز الدلتا ولكن محمدا عليا كان يعد المهندسين والماليين الأوربيين ويمنهم ويضمهم في الوقت نفسه عدم الموافقة على تنفيذ المشروع وهكذا إلى أن انتهى عهده وخلفه ابراهيم ثم عباس . وفي إبان عهد ثانيهما عاد المسيو فرديناند دلسبس إلى الاهتمام بالمشروع وحاول التأثير في عباس وإقناعه بصلاحيته ولكن عباس كما رأينا من أخلاقه كان كثير الشذوذ لا يثق بالآجانب فأعرض عن الفكرة واكتفى باصلاح الطريق بين القاهرة والسويس . وما كاد سعيد يتبوأ الإريكة حتى طارت نفس فرديناند فرحاً وشعر بأن الأئمة التي كانت تجول في صدره منذ ثلاثة وعشرين عاماً توشك أن تتحقق . فأبرق إلى صديقه القديم يهنئه بارتقاء العرش ويخبره بأنه اعترم الحضور إلى مصر لتهنئته شخصياً . فرد =

الطريق البرى كان فى نظرها كافياً لسد حاجتها إلى مصلحة يريد سرعة إلى الشرق. أما فرانسافان المشروع كان يهتم من الناحية العلمية والأدبية . إذن فغرور الأسرة الحاكمة وما تكدرس تحت أيديها من موارد أنتجت أعمال السخرة فى مصر فى خلال السنوات الأخيرة وما رأته من السهولة فى عقد القروض الأجنبية إبان الأعوام الماضية كل ذلك ساعد على انجاز المشروع فى أنحس وقت بالنسبة لمصلحة الأجيال المصرية المقبلة .

== عليه سعيد شاكراً له تهنته واستدعاه إلى مصر فلبى الدعوة وحضر إلى الاسكندرية فى نوفمبر سنة ١٨٥٤ فبالغ الأمير فى الخفاوة بصديقه القديم ودعاه إلى اصطحابه فى رحلة برية عظيمة كان يقوم بها من الاسكندرية إلى القاهرة عن طريق الصحراء الغربية على رأس جيش يبلغ ١٠٠٠٠ مقاتل .

وقد قلنا لك إن فرديناند كان ماهراً فى ركوب الخيل . وقد أهده سعيد جواداً أصيلاً . وفى أثناء الرحلة وعلى مرأى من حاشية سعيد قفز فرديناند بجواده على أحد الحواجز الحجرية قفزة طار لها لب الجماعة وتمشت قلوبهم فى صدورهم من فرط الإعجاب وهزوا رؤوسهم علامة الاغتراب بأن يكون لمولاهم صديق ماهر كفرديناند . وكان ذو الفقار باشا وزير المالية وأعظم رجال الحاشية منزلة عند سعيد أشدهم إعجاباً بهذه الماهرة .

منح الامتياز بسبب قفزة جواد !!

ويشاء حظ مصر العاثر أن يكون منح دلشبس امتياز حفر القناة فى هذه الرحلة المنحوسة وعلى أثر هذه القفزة المشؤومة .

فلقد ذكر فرديناند نفسه فى الصفحة الرابعة من الجزء الأول من كتابه المسمى « مراسلات ويوميات ووثائق عن قناة السويس » ، أنه اتهم فرصة وقوع الحاشية تحت تأثير الإعجاب بمهارته فى تلك القفزة وفتح سعيدا فى اليوم التالى فى أهمية المشروع وما قد يكسبه تحقيقه من حمد العالم له ووثائعه عليه بسبب هذه الخدمة الكبيرة التى يسديها للإنسانية . ولطالما كان سعيد يصرح بأنه لن يخالف وصايا أبيه فى هذه المسألة ولن يوافق على حفر القناة . ولكن أنى له بعد ما رأيناه فى أخلاقه من الضعف والتردد أن يقاوم صديقه القديم أو أن يحرق نفسه من تأثير الإعجاب بمهارة قفزانه ووثباته ؟

وغير خاف أن مالمقناة من الأهمية العظمى فى سىر العلاقات الدولية كان ولا يزال يعتبر إحدى الصعوبتين الرئيسيتين اللتين تحولان دون حصول مصر على سيادتها التامة . أما الصعوبة الثانية فهى طبعاً مالمصريين من مصالح إمبراطورية فى السودان . فالمقناة إذن أهم عامل فى سبيل

== فضعت عزيمة سعيد أمام نصائح فرديناند ووعدته بمنحه الامتياز . وليته حتى بعد إعطائه هذا الوعد تربث فى الأمر واحتاط له واجتنب مواصلة البحث فيه ريثما يصل إلى القاهرة فيستدعى إليه كبار المهندسين ويكلفهم بدراسة المشروع دراسة فنية وأن يوازوا بين مزاياه ومضاره . كلا إن شيئاً من ذلك لم يحدث بل لقد استدعى سعيد إليه قواد جيشه وكانوا ما يزالون متأثرين إعجاباً بقفزة فرديناند ومهارته فما كاد أن يفاتحهم فى رغبة فرديناند حتى سارعوا إلى استحسان المشروع دون التفات إلى مزاياه أو مضاره . ولا يذكر التاريخ شعباً نكب فى استقلاله وأصبح طعمة للطامعين من ذئاب الاستعمار كما نكب الشعب المصرى ، وتلك النكبة وما تلاها من المصائب التى ماتزال تعانىها مصر إلى اليوم هى بسبب قفزة ماهرة قام بها قنصل أجنى !!

ونحسب أن فرديناند لم يكن يتوقع أن يستولى على قلب سعيد وحاشيته بهذه السرعة أو لعله لم يكن ينظر فى مشروع فى خطير كهذا أن يكتب سعيد بامتنشارة القواد ورجال الحرب والجلاد دون المهندسين ورجال الفن . ولذا رأيناه يكتب فى هذا الصدد بلهجة التهكم اللاذع فى كتابه « أصول قناة السويس ص ١٥ ، يقول :

« جمع سعيد باشا قواد جنده وشاورهم فى الأمر . ولما كانوا على استعداد لتقدير من يجيد ركوب الخيل ويقفز بجواده على الحواجز والختادق أكثر من تقديرهم للرجل العالم المثقف (كذا كذا) ، انحازوا إلى جانبى ، ولما عرص عليهم الباشا تقريرى عن المشروع ، بادروا (كذا) إلى القول بأنه لا يصح أن يرفض طلب صديقه (كذا) وكانت النتيجة أن منحنى الباشا ذلك الامتياز العظيم . »

وكأنما أراد فرديناند أن يسجل أمام التاريخ مسؤولية سعيد وحاشيته وكيف أنهم استخفوا بمصير بلادهم وبمستقبل الاجيال المقبلة إلى هذا الحد فسارعوا إلى البت فى هذا المشروع الحيوى الذى لا يفقهون فيه شيئاً بلا رجوع إلى أهل الفن فقال فى ص ٤٠ من كتابه الأخير ما نصه :



صورة فريدة للبغفور له سعيد باشا بالرى الشرقى

== بعد أن قبل سعيد باشا المشروع استدعى قواد جنده ودعاهم إلى الجلوس أمامه وقص عليهم الحديث الذى دار بيننا وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى مشروع «صديقه» فلم يكن من هؤلاء المستشارين وقد فوجئوا بهذا الاقتراح وهم أقدر على إبداء الرأى فى مناورات الخيل منهم فى التكلم عن مشروع عظيم لا يستطيعون فهم مراميه ، إلا أن ينظروا إلى بملأ أعينهم ، كأنما يريدون إفهامى أن صديق مولاهم الذى رأوه يقفز على الحائط راكباً جواده بتلك المهارة لا يمكن أن يدلى إلا بأراء صائبة . (كذا ١١) وكانوا أثناء الحديث يرفعون أيديهم إلى رؤوسهم بين آونة وأخرى علامة على الموافقة ! ولسنا نتجنى على أحد عند ما قلنا أن رجال الحاشية وسعيدا نفسه لم يعرفوا من هذا المشروع لا قليلا ولا كثيرا بل أقروه فقط لأنه مشروع «الصديق» فرديتانند صاحب ==

وضع مصر تحت الإدارة البريطانية مدة ربع قرن كامل . لذلك نرى من حق الانجليز أن يعلنوا على رؤوس الاشهاد أنهم لم يلزموا مصر بحفرها بل إن مهندسى نابليون كانوا أول من فكر فيه الوا لاخطأهم في تقدير منسوب المياه مما لم يصح نهائياً إلا في سنة ١٨٤٧ فتدزعموا أن مياه البحر المتوسط أوطأ بثلاثين قدماً من مياه البحر الأحمر بدلاً من أن تكون في مستواها .

== القفزات الماهرة . وهذا ما قاله فرديناند نفسه عن سعيد في ص ٥٧ من كتابه الأخير إذ قال إن سعيداً قال له بعد أن منحه الامتياز : أعترف لك بأنى لم أفكر طويلاً في الموضوع ، وإنما هى مسألة شعور وليس من عادى أن أفلد الناس فيما يتبعون ويعملون ،

منح الامتياز

٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤

ثم واصل سعيد رحلته إلى القاهرة مصحوباً بصديقه القديم فرديناند فلما بلغاها أنزله ضيفاً عنده وأحاطه بكافة مظاهر الاكرام والرعاية . وما هى إلا أيام حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للبلاحة .

وقد فتحت القناة فعلاً للبلاحة في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ أى أن مدة الامتياز تنتهى في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٨ فتصبح القناة بعد ذلك ملكاً لمصر . ويعرف هذا العقد بعقد الامتياز الاول تمييزاً له عن عقد الاتفاق الثانى بتاريخ

٥ يناير سنة ١٨٥٦

ويظهر أن سعيداً أراد بعد كل هذا - وبعد أن سبق السيف العزل - أن يريح ضميره ولو من جهة الشكل فقط وأن يتحقق من إمكان تنفيذ المشروع . فأمر المهندسين الفرنسيين لينان دى بلقون وصورته منشورة في ص ٨٢ وموجيل بك المنشورة صورته في الصفحة التالية بمرافقة المسيو فرديناند إلى برزخ السويس لدرس المشروع وتطبيقه على طبيعة الأرض ورفع تقرير إليه . فقاما بالمهمة (طبعاً) ووافقا وهما فرنسيان على وجهة نظر المسيو فرديناند بأن تنشأ القناة مستقيمة في أضيق نقطة في البرزخ بين موقع ميلوزه (بور سعيد الآن) على البحر المتوسط والسويس على البحر الأحمر .



فاستحالة حفر قناة تكون في
مستوى واحد مع البحر بسبب
هذه الغاطة الوهمية يضاف اليها
ممانعة محمد علي لأسباب عسكرية -
كل ذلك أدى الى ارجاء تنفيذ
المشروع . وفضلا عن ذلك لم تكن
عقبة مياه البحر الأحمر أقل من

عقبة البرزخ من حيث صعوبة الملاحة
فيه إلا إذا حل البضار محل الشراخ في نقل الركاب وتم تطهير البحار
المسيو موجيل مهندس حوض دارالصناعة
ومهندس القناطر الخيرية

مساعي دلسبس المالية

== وبدأ دلسبس مساعيه لتكوين الشركة وجمع من بعض المالكين حصص التأسيس
جاءت قيمة الحصص ٥٠٠٠ فرنك (٢٠٠ جنيه) وخصص قيمة نصف الحصص
لنفقات المشروع الأولية على أن تحول هذه القيمة إلى أسهم خاصة في الشركة عند
إتمام تأليفها .

وفي نوفمبر سنة ١٨٥٥ انتخب فرديناند باتفاقه مع سعيد لجنة دولية لدرس المشروع
ثانية وهو في نظرنا دليل على أن سعيدا بدأ يحس بفداحة مسؤوليته أمام التاريخ
ومخالفته لوصايا أبيه . فحضر أعضاء اللجنة إلى برزخ السويس وبعد الاطلاع على
تقرير لينان بك وموجيل بك وإجراء المباحث الهندسية وافقوا على المشروع بعد أن
ثبت لهم أن مستوى الماء في البحرين واحد وان الأرض صالحة لامتياز القناة الملحة .
وهكذا بدأ الناس يطمثون إلى نجاح المشروع وأقبلوا على الاكتتاب في أسهم الشركة
عند تأليفها .

شروط الامتياز

٥ يناير سنة ١٨٥٦

وما أن فرغت اللجنة الدولية من وضع تقريرها حتى رفعه دلسبس إلى سعيد باشا .==

الضيق من القرصان . وقد استغرقت نقالات بيرد في سنة ١٨٠١ ثلاثة أشهر كاملة لقطع الطريق من بومباي الى الاقصر بينما أن النجيدات كانت ترسل فيما بعد حول طريق الرأس .

== فأصدر له عقد الامتياز الثاني بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦ وقد صدق فيه على الامتياز السابق منحه لدلبسب وضمنه شروط الامتياز المخولة للشركة وهي شروط من الفداحة بحيث لايسع أية حكومة وطنية مسؤولية أن ترضى بها . وهاك نصها كما ورد في كتاب الأستاذ الرافي بك « عصر اسماعيل » ، وسوف تعتريك الدهشة لها !
أولاً - منحت الحكومة الشركة امتياز انشاء قناة السويس من خليج الطينة على البحر الأبيض المتوسط والسويس على البحر الأحمر ، وانشاء ترعة للبياء العذبة صالحة للملاحة النيلية تستقي من النيل وتصب في القناة الملحة ، وإنشاء فرعين للرعى والشرب يستمدان مياههما من الترعة المذكورة ويصلان إلى السويس والطينة (بور سعيد) (مادة ١ من عقد الامتياز الأول) .

ثانياً - تنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة الملحة وترعة المياه العذبة وتوابعها . وهي مساحات شاسعة على طول القناة والترع المزمع إنشاؤها بعرض كيلو مترين من الجانبين (كما أورده السيد دلبسب في الجزء الثاني من كتابه المسمى مراسلات ويوميات ودقائق عن القناة ص ٣٥٦) وقد تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل مع اعفائها على الدوام من الضرائب ، وتنازلت أيضاً عن جميع الأراضي القابلة للزراعة لتستصلحها الشركة وترويه وتزرعها مع إعفاء هذه الأطنان من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها .

ثالثاً - خولت الشركة (عدا ماتقدم) حق انتراع الأراضي المملوكة للأفراد عما ترى لزومها لاجراء الأعمال والانتفاع بالامتياز في مقابل أن تدفع الشركة لأصحابها تعويضات « عادلة » (مادة ١٢) ومعنى ذلك نزع ملكية الأفراد لمصلحة الشركة .

رابعاً - على أصحاب الأطنان الواقعة أملاكهم على ضفاف الترع التي تنشئها الشركة إن أرادوا رى أراضيهم بمياهها أن يحصلوا على ترخيص بذلك من الشركة في مقابل تعويض يؤدونه لها مادة (٨)

خامساً - منحت الحكومة الشركة طوال مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المباني وصيانتها وملحقات ==

وبعد أن عين الميسو دلسبس قنصلاً عاماً لفرنسا أخذ يهتم بالمشروع وكان قد أحكم عرى الصداقة مع سعيد وهو في باريس عند مانفاه عباس إليها . فبفضل لجاجته التي كانت تعتبر منافية للأداب لو أنها كانت خاصة بمسألة تافهة قد تمكن من حمل هذا العملاق الحسن النية على منحه امتيازاً

== المشروع دون دفع أى رسم أو ضريبة أو تعويض (كذا ١) وتعفى الحكومة الشركة من الرسوم البحرية والعوائد على جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج (مادة ١٣)

سادساً — صدر أجل الامتياز بمدة ٩٩ سنة من افتتاح القناة البحرية للبلاحة وبعد انتهاء هذه المدة تؤول القناة إلى الحكومة المصرية (مادة ٣٦)

ولكن هذه المادة قيدت هذا الحق بشرط قد يؤدي إلى تعطيله أو يفتح باب المشا كل وهو وجوب أخذ الحكومة في هذه الحالة جميع المهمات والمعدات المخصصة لأعمال المشروع البحرية وأن تدفع للشركة قيمتها التي تقدر سواء بالتراضي أو بناء على تقدير الخبراء .

وأنت ترى أن ليس ثمت ما يحول دون مغالبة الشركة في أثمان هذه المعدات كي تبهظ عاتق الحكومة المصرية ابتغاء خلق العقبات التي تعترض حق مصر في استرداد القناة .

وهناك ما يضاعف الدهشة في هذا العقد المدهش . وهو أن المادة ١٦ من هذا الامتياز لم تذكر شيئاً عن المباني والمنشآت التابعة للقناة . وقد كانت المادة (١٠) في عقد الامتياز الأول نصت على أن حكمها كحكم القناة في رجوعها إلى الحكومة بلا مقابل . وهو دليل على أن العقد الثاني كان أكثر سخاء بالنسبة للشركة وأشد اجحافاً بالنسبة لمصر . ومن يدري فقد يكون سعيد عهد إلى « صديقه » دلسبس أن يكتب في العقد كما يشاء وأن يوقعه أمير البلاد دون التفات إلى ما ينطوى عليه من ضروب العنت والاجحاف ؟

سابعاً — خولت الشركة حق فرض ما تشاء من الرسوم على السفن التي تمر في القناة البحرية أو الترع والثغور التابعة لها على شرط أن لا تزيد في النهاية العظمى عن عشرة فرنكات عن كل طن وعن كل شخص من المسافرين (مادة ١٧)

بحفر القناة. ولو أن هذا حدث في وقت عصيب آخر لحرص بالمرستون
جهد طاقته على أن يبقى الامتياز حبراً على ورق . ولكن قنصلنا الجنرال
عند ما سأله سعيد هل تؤيده انجلترا في رفض الاقتراح الفرنسي كان
جوابه بالنفي لأن فرنسا كانت قد انضمت اليها وقتئذ في حرب القرم

== ثامناً - في مقابل الأراضي والامتيازات الممنوحة للشركة تحصل الحكومة
المصرية على حصة قدرها ١٥٪ من صافي الأرباح السنوية (مادة ١٨)
ويشاء الجد العاشر أن تخسر مصر حتى هذه الحصة الضئيلة في سنة ١٨٧٩ بسبب
ارتباك الأحوال المالية . إذ باعتها الحكومة المصرية للبنك العقاري بفرنسا مقابل ٢٢
مليون فرنك .

تاسعاً - يكون أربعة أخماس العمال من المصريين (مادة ٢) وتعهدت الحكومة
ببذل مساعداتها للشركة وتكليف جميع موظفيها وعمالها في جميع دوائر المصالح أن
يبدوا الشركة بمساعداتهم لها (مادة ٢٢) وإن من نكد الطالع أن تفسر الشركة هذه
النصوص بأنها تعهد من الحكومة بتسخير (كذا ١) أربعة أخماس العدد الذي تطلبه
الشركة من العمال وأن يكونوا من الفعلة والفلاحين المصريين لاجراء أعمال الحفر
والانشاء ووضعهم تحت تصرف الشركة لتشغيلهم فيما تريده من الأعمال مقابل
دفع أجورهم .

وأعجب العجب أن يخلو عقد الامتياز الثاني من مزية تضمنها العقد الأول . فقد
تضمنت المادة الثانية على ما يخول الحكومة حق تعيين مديري الشركة . ولكن هذه
المزية قد اختفى أثرها في عقد الامتياز الثاني الذي يقضى بإلغاء كافة النصوص الواردة
في عقد الامتياز الأول مما يخالف أحكام العقد الثاني . وقد اقتضت المادة (٢٠)
من العقد الثاني على هذا النص الأثير وهو « يرأس الشركة ويديرها صديقنا ووكيلنا
المسيو فرديناند دلسبس بصفته المؤسس لها طوال المدة التي تستغرقها الأعمال ، ثم لمدة
أخرى قدرها عشر سنوات تبتدىء من تاريخ استغلال الامتياز ، أى أن مصر خسرت
في العقد الثاني حق تعيين مديري الشركة وحفظ لها فقط حق تعيين « مندوب » عنها
لدى الشركة لتمثيل حقوق الحكومة ومصالحها في تنفيذ العقد .

للحيلولة دون وصول الروس الى الأستانة ولم يكن في وسع بالمرستون أن يفعل أكثر من أن يؤجل موافقة الباب العالي رسمياً على الامتياز عامين كاملين . على أن سعيداً قد عوضنا عن هذا الامتياز بأن منحنا امتيازاً بمد خط حديدى بين الاسكندرية والقاهرة وهو ما كان يمانع فيه أبوه

== وأمر غريب آخر في هذا العقد الثانى فقد أغفل ماورد في (المادة ٤) من العقد الأول بخصوص الحصون التى قيل فيها إن الحكومة إذا رأت لزوماً لإنشائها فى منطقة القناة فلا تتكلف الشركة نفقاتها . فلما أغفل ذكر هذا النص فسر إغفاله بان لاحقاً للحكومة فى إقامة الحصون فى هذه المنطقة !!

فهل رأيت شروطاً أفدح من هذه الشروط التى خولت الشركة حقوقاً واسعة جعلتها فى الواقع بمثابة حكومة داخل حكومة ؟ ولكن أنى لك أن تعجب إذا كان دلسبس هو الذى كتب ماشاء من الشروط فوقها الأمير سعيد باشا كماهى دون بحث فيها لا شئ . إلا لأن الرجل صديق قديم ويحسن القفز من على ظهور الجياد الصافات ؟ ! انجلترا تقاوم مشروع القناة

وقد اشترط سعيد لصحة الامتياز أن يصادق عليه السلطان محافظة على الشكل فقط لأنه تعهد لصديقه دلسبس بمساعدته بصرف النظر عن هذا التصديق . لأن معاهدة لندن التى نالت بمقتضاها مصر استقلالها الداخلى لا تحتم الحصول على مثل ذلك التصديق . ولكن دلسبس أراد زيادة الاطمئنان فاسافر إلى الأستانة ملتمساً فرمان التصديق .. وهناك لقي مقاومة عنيفة من سفير بريطانيا بايعاز من لورد بالمرستون وزير الخارجية الانجليزية .

وأنت تدرك أن معارضة السياسة الانجليزية للمشروع كان أساسها الخوف على طريق الهند . ولذا دفعت تركيا إلى عدم المصادقة على المشروع وراحت من الناحية المالية تلقى المخاوف فى صدور المالىين من نجاح المشروع وتصفه بأنه مشروع خيالى .

تعصيد سعيد للمشروع

ولكن سعيداً كان قد عقد التية على مساعدة صديقه دلسبس على إتمام مشروعه . ولذا لم يتردد فى أن يبذل له ما كان متوفراً وقتئذ فى خزائن الحكومة وقدره ١٠٠٠٠٠٠ جنيه للاستعانة بها على بدء العمل .

أشد ممانعة ، كما وافق على انشاء البنك الاهلى (١٨٥٦) وأكثر من ذلك أنه حولنا حق إرسال الجنود عن طريق البر لقمع الفتنة الهندية .



ابتداء العمل فى حفر القناة (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩)
وترى المسيو دلسبس ممسكا بيده معولا للحفر وحوله العمال
المصريون يبدأون فى حفر القناة

ولم تكن الشروط التى منح امتياز القناة بمقتضاها أصون لسمعة
أوروباً مما تورطت فيه مصر فيما بعد من شروط الامتيازات والقروض

تأليف الشركة

== وفى ٥ نوفمبر سنة ١٨٥٨ عرض دلسبس اسهم الشركة للاكتتاب العام فى فرنسا
وغيرها من البلدان وبلغ من كثرة الاقبال ان غطيت أسهم الاكتتاب عدة مرات . ومن ثم
تألفت الشركة فى ديسمبر سنة ١٢٥٨ على أن يكون رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك
(٨٠٠٠٠٠٠ جنيه تقريباً) موزعة على ٤٠٠٠٠٠ سهم قيمة السهم ٥٠٠ فرنك
(٢٠ جنيتها) ثم قسم السهم إلى نصفين فصار عدد الأسهم ٨٠٠٠٠٠ وبلغت قيمة
السهم الاصلى فى سنة ١٩٣٢ حوالى ١٥٠٠ فرنك (٦٠ جنيه) بعد أن كانت ٥٠٠
وذكر المسيو دلسبس فى كتابه « وثائق عن القناة » جزء ٨٤ ص ١٣٣ أن سعيد باشا
اكتتب ١٧٧٦٤٢٢ سهماً أى بما يقرب من نصف مجموع الأسهم ودفع جزءاً من
ثمنها فوراً وقسط الباقي على سنوات .

بدء العمل فى القناة

٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩

ثم بدأ الحفر فى القناة يوم ٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩ فذهب المسيو دلسبس ومعه ==

الأخرى . فان دلسبس برفضه العمل بنصائح مروجى المشروع الأصليين وهم شركة سانت سيمونيان البريطانية واعتماداً على صديقه ومناصره سعيد ، لم يكن أكثر مراعاة لحساب الضمير من أى صاحب امتياز آخر فى مصر . وإذا كانت مسألة السويس لم تنقلب إلى فضيحة عمومية كفضيحة بناما

== أعضاء مجلس إدارة الشركة إلى شاطئ البحر المتوسط وفى المكان الذى انشئت فيه بعد ذلك مدينة بورسعيد وأقيم احتفال كبير ضرب دلسبس أول معول فى حفر القناة كما يراه القارىء فى الصورة المنشورة فى الصفحة السابقة وقد اقتدى به الحاضرون . وكان هذا المعول فى الواقع أول معول فى هدم صرح استقلال مصر برضى أميرها سعيد باشا !!

وقد حدث هذا قبل صدور فرمان التركى بالتصديق على الامتياز . فكان سعيداً أراد وضع تركيا وانجلترا أمام الأمر الواقع بتعصيده المشروع بكل ماله من حول وقوة ومال . فلم يكن عجيباً أن تقوم انجلترا وتقعده لهذا التصرف . وقد تمكنت من حمل تركيا على منع فرمان . وشاء حسن حظ انجلترا المؤقت أن تشب الحرب فى مايو سنة ١٨٥٩ فى ايطاليا بين النمسا وفرنسا فرأت فرنسا أن من الحكمة محاسنة انجلترا ، ولذا أظهرت تراخياً فى تأييد المشروع . وكادت أن تنجح انجلترا فى مساعدتها وفعلها دبرت مع تركيا خلع سعيد باشا . وسافر فى هذه المهمة الأسطول البريطانى فى شهر يونية سنة ١٨٥٩ على ما ذكره دلسبس فى كتابه « مراسلات ويوميات ووثائق عن القناة » جزء ٣ ص ١٢٤ ولكن اخفق التدبير وعهد سعيد إلى شريف باشا وزير الخارجية بارسال كتاب إلى دلسبس بوقف العمل .

وتألق نجم فرنسا ثانية إذ وضعت الحرب أوزارها بينها وبين النمسا وعقدت هدنة « قىلا فرنكا » وأصبحت لفرنسا الكلمة النافذة فى السياسة الدولية فعادت إلى مناصرة المشروع . وعادت انجلترا إلى معارضته بحمل السلطان على إصدار أمر إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر . وفعل سافر مندوب تركى يدعى مختار بك إلى مصر يحمل هذا الأمر إلى سعيد .

ولكن هذه المساعي ذهبت كلها هباء ، لأن نابليون الثالث سرعان ما بذل نفوذه لدى تركيا لالغاء هذا الأمر وبذا اطمأن سعيد إلى تعصيد الحكومة الفرنسية فأطلق لدلسبس العنان وسخر له الفلاحين وجلب من القرى ما لا يقل عن ٢٥٠٠٠ منهم جعلوا ==

كـيـون سبب ذلك أن المصريين لا الفرنسيين هم الذين ذهبوا ضحية هذا الحيف والظلم. واذ ذكرنا أن الاعتمادات كانت تأتي بسهولة بينما أن عملية الحفر كانت خالية من المصاعب الفنية حق لنا أن نقول انه كان يصح

== يشتغلون في هذا العمل المضنى إلى أن جرت مياه البحر الأبيض إلى بحيرة التمساح في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٦٢ وهي آخر مرحلة وصلت إليها أعمال الحفر في عهد سعيد في ذلك المشروع .

. ونفق الآن هنية لنسأل عما اكتسبته مصر من ذلك المشروع الذي كان نكبة عليها إذ كانت ضياع استقلالها دون أن تفقد منه شيئاً مادياً . ولم يكن يمكن ستر خطر ذلك المشروع أو حجبـه عن الآعين . وقد أدرك الأوروبيون تلك الحقيقة من البداية . وفي ذلك الصدد كتب المستر بروس قنصل إنجلترا في مصر وقتئذ إلى حكومته ينبها بمنح امتياز حفر القناة وقال في ختام رسالته : « . . وإن فتح القناة سيؤدي إلى ازدياد المواصلات التجارية بين أوروبا والبلاد الواقعة على البحر الأحمر ، وستنشأ طبعاً مراكز للدول الأجنبية في هذه البلاد ومن المنتظر أن تحدث منازعات بينها وبين تلك الشعوب فتتخذ ذريعة إلى التدخل المساح في شؤونها وهذا التدخل يفضي إلى الاحتلال الدائم ويتوقع أن تحدث هذه النتائج في مصر ذاتها » .

أضف إلى ذلك أن إنجلترا في أثناء معارضتها للمشروع كان مما اشترطته للموافقة عليه احتلالها السويس وحمايتها للقناة . نعم إنها عدلت عن ذلك الشرط ولكن ألم يكن ذلك كافياً لفتح أعين سعيد باشا إلى خطورة المشروع ؟

وليس من شك في أن منح الامتياز إلى شركة أجنبية قد فتح على مصر أبواب التدخل الأجنبي ، وكان الشر يكون أهون حتما لو أن العمل قامت به مصر لحسابها . وقد مر بك ما خوله سعيد للشركة من حقوق واسعة وامتيازات فادحة جعلتها شريكه مصر في سيادتها .

أما من الناحية الاقتصادية فقد خسرت مصر بفتح القناة إذ تحول طريق التجارة من داخل مصر إلى القناة المائية التي أصبحت ملك شركة أجنبية .

وحتى لو ضربنا صفحا عن كل هذه المضار بالنسبة لمصر فإنها أنفقت عليه ما لا يقل عن ١٦٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه في أسهم اكتتب فيها وأملك تنازلت عنها وأعمال قامت بها وتعويزات للشركة .

أن تنشأ مصاعب ما في سبيل المشروع لو توخى القائمون به قليلا من الاقتصاد وأبدوا شيئا من الكفاءة . فإن عملية الحفر نفسها لم تكن سوى مجرد جرف رمال هذا في حين أن الجو كان صالحاً للعمل والعمال المحليون متوفرون يؤدون أعمالهم على أكمل وجه وبدون أجر .

ولئن عادت هذه القناة إلى مصر يوما ما — وهيات! — فإن مصر تكون قد خسرت إلى جانب هذه الملايين العديدة ما هو أثمن من المال والنفس ألا وهو حرمانها من استقلالها كل هذه السنوات .

ومن يدري ونحن نرى كل هذا التقدم في عالم الطيران أن لا تتأمر الدول يوم حلول موعد إعادة القناة إلى مصر فتطالب بمجملها مياه دولية تكلف مصر بحراستها لحساب الغير ؟ وقد تتحول التجارة وحركة النقل عن طريق البحار إلى طريق الجو فلا تستعيد مصر القناة إلا بعد أن تكون قد تلاشت قيمتها وأصبح وجودها وعدمها سياتان ؟ والآن نرى مصلحة الكل قد تلاشت من أجل مصلحة الجزء وأصبحت شؤون مصر ثانوية بالنسبة لقناة السويس أو كما قال ساكن الجنان اسماعيل باشا . . . أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون مصر تابعة للقناة . . . وكأنما قضى على هذا الشعب المسكين أن يكذب ويكده ويحفر القناة لما أسموه خير الإنسانية ليلفد من وراء ذلك بعض الفائدة ولكن ليظل إلى الأبد في عداد المستعبدين !

ولإذا كانت السياسة الإنجليزية تلون لنا كل يوم بلون جديد وتظاهر بالود مرة على أن تعود إلى الجفاء مرة أخرى — فذلك كله للاحتفاظ بالسيطرة على قناة السويس . وقد يكون من العبث أن يتصور انسان عاقل أن تعقد السياسة البريطانية مع مصر اتفاقا لا يترك لها السيطرة الكاملة على القناة وإن كانت للسياسة البريطانية في نظرنا ندحة عن هذا التشبث .

ونذكر بهذه المناسبة أن المرحوم المستر ولفرد بلنت للسياسي الإنجليزي المشهور الذي لعب دورا مهما في الحركة العراية قدمنا في سنة ١٩٢١ بان مقاضات المغفوره سعد باشا في لندن للسياسي البريطاني المبرز المستر ماسنجهام محرر مجلة النيشن ولما كانت الحركة الوطنية ما تزال في عنفوانها فقد باحثنا المستر ماسنجهام فيما يمكن أن توافق عليه بريطانيا من شروط الاتفاق مع مصر . ثم عرّض الحديث لقناة السويس . فقال المستر ماسنجهام إنه مع عطفه الشديد على قضية مصر لا يرى سبيلا لاتفاق لا يترك

يضاف إلى كل ذلك أن قيمة الامتيازات كانت فادحة . فقد تضمن عقداً بايجار أراضي زراعية صالحة لمدة ٩٩ سنة مع حق استخراج ما فيها من المعادن على أن يعمل العمال بالسخرة طيلة ثلاثة أرباع المدة اللازمة لإنجاز المشروع وقد قدرت بست سنوات . وقد نص على فرض رسم قدره

لبريطانيا السيطرة على قناة السويس . فأظهرنا له دهشتنا من إفلاس السياسة في إيجاد حل لهذه المشكلة التي لا نعدّها جوهرية . ثم قلنا ان بريطانيا طالما كانت لها السيطرة في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر فهي في غير حاجة إلى استبقاء حامية في قناة السويس وبالتالي لا معنى إذا لاحتلال مصر . أما إذا فقدت بريطانيا هذه السيطرة في معركة بحرية مع إحدى الدول الطامعة في غزو القطر المصري فإن مركز الحامية الانجليزية في القناة يصبح محفوفاً بالمخاطر وبخاصة إذا كان هناك تفاهم سابق بين المصريين والجيش المهاجم على إخراج البريطانيين من مصر . وفي كلتا الحالتين لا معنى لوجود الحامية ، وسحبها كفيل بايجاد حسن التفاهم مع شعب يقدر الجليل ولا ينكث بالعهود كشعب مصر الذي تستطيع بريطانيا أن تعتمد على صداقته ومعوته عند الحاجة وما أكثر حاجاتها بسبب اتساع نطاق امبراطوريتها .

وقد رافقت هذه الفكرة لدى المستر ماسنجهام والمستر بلنت وراح أولهما يكتب في مجلته أن الطريق الوحيد للتفاهم مع مصر هو الجلاء عن وادي النيل . ولكن رجال العسكرية الانجليز ردوا على ذلك بأن القناة لازمة لسلامة بريطانيا كأن تلك السلامة كانت في خطر دائم أيام أن كانت مواصلات العالم كلها حول رأس الرجاء الصالح ! وليت أولئك العسكريين يقنعون بالاحتفاظ بالقناة وحدها كلابل ترى لهم منطقاً غريباً يدفعهم إلى المطالبة باحتلال مصر بأسرها في سبيل الاحتفاظ بهذه القناة . فهم يقولون مثلاً إن رجال الحامية في القناة في حاجة إلى المياه العذبة التي تصلهم عن طريق ترعة الاسماعيليه ولما كانوا يتوهمون أن الترعة المذكورة قد يطمرها المصريون في أثناء الحرب بين انجلترا ودولة أخرى قترأهم يطالبون بالاحتفاظ بها من منبعها بالقرب من القاهرة . وبديهي أن الاحتفاظ بمنبع الترعة العذبة يقتضى تباعاً لذلك احتلال القاهرة نفسها واحتلال العاصمة يقتضى احتلال مديرتي الجيزة والقليوبية ولا سبيل إلى الدفاع عن هذين الاقليمين إلا باحتلال الاراضي المجاورة لها وهكذا دواليك إلى أن ينتهي الامر بأن الاحتفاظ بالقناة يقتضى احتلال مصر والاحتفاظ بالقطر المصري يقتضى احتلال

١٠ فرنكات عن كل مسافر أو عن كل طن . وتم الاتفاق على أن تقسم الأرباح بحيث ينال حملة الأسهم ٧٥ ٪ ومروجو المشروع ١٥ ٪ والحكومة المصرية ١٠ ٪ . ولهذا الغاية اتخذت الاجراءات فوراً بعقد قرض قيمته ٢٠٠ مليون فرنك أي ٨ ملايين جنيه (١٨٥٨) لتتبت فرنسا بنصفهوا كتبت تركيا ومصر بالنصف الآخر . وقد بدأ العمال الحفر

== السودان الخ هذه الحلقة المفرغة التي لا أمل في الوصول إلى أحد طرفيها . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن القناة كانت نقمة على كثير من الشعوب بقدر ما كانت نقمة على مصر . فلسطين وشرق الأردن والعراق ما كانت لتعرض لما نشهده من ضروب العنت من السياسة الاستعمارية لولا تلك القناة التي إذا صح أن أحدا استفاد منها فهو غير مصر . ثم لا ننس أنه لولا القناة لما وقعت موقعة التل الكبير في إبان الثورة العرابية ولا كان احتلال مصر . فبهذه القناة التي حفرت في بداية الأمر خدمة للإنسانية قد أظهرت التجارب أنها نكبة على مصر والمصريين وأحد الأسباب في تعريض كثير من الشعوب المجاورة لجور السياسة الاستعمارية واستبقاء شعوباً أخرى كالهند وغيرها تحت نير الارهاق الاستعماري .

ألا ليت سعيداً قد فطن إلى كل ذلك فوفر على بلاده وجيرانها كل هذه المتاعب والأهوال !

سعيد وسنة الاقتراض من الأجانب

وكما أنب سعيداً هو الذي فتح على مصر باب الشر بموافقة على امتياز القناة فانه كذلك سن الخلفائه أسوأ سنة بالتجائه لغير حاجة أو ضرورة ماسة إلى الأجانب وعقد القروض بالفوائد الفاحشة خالف بهذا وصية أبيه وأخيه إبراهيم وهما اللذان نهضا بالبلاد - كما شهد بذلك أحد الكتاب الفرنسيين - . وجاهدوا في سبيل استقلالها ذلك الجهاد الذي كلل بالنصر دون أن يكون لديهما من الموارد المالية سوى ميزانية لا تتجاوز خمسين مليون فرنك (مليوني جنيه) ،

والإليك إحصاء بما عقده سعيد من القروض الأجنبية .

ففي سنة ١٨٦٢ عقد أول قرض ثابت من مصرف فريهلنج وجوشن في لندن ومقداره الاسمي ٣٢٤٢٨٠٠ جنيه مع أنه لم يستلم منه إلا ٢٤٠٠٠٠٠ جنيه ! وقد جعلت فائدته ٧ ٪ على أن يقسط على ثلاثين سنة بحيث يكون القسط السنوي مع فوائده =

فعلا (٢٥ ابريل سنة ١٨٥٩) قبل وصول اذن الباب العالي . على أن سعيد لم ينتقل إلى الدار الاخرى (١٨٦٣) حتى كانت المصاعب قد قامت فعلا في سبيل المشروع

= ٢٦٤٠٠٠ وبذا يكون مجموع الأقساط ٧٩٢٠٠٠ مع أن أصل الدين هو ٢٤٠٠٠٠٠ قتأمل

ثم إذا به يلتجئ إلى ما يسمى بالديون السائرة وهي أشد خطراً من الديون الثابتة إذ لا سبيل إلى ضبطها أو مراقبتها . فقد كان يستدين من المراكين بواسطة سندات يجررها على الخزنة بالقيمة المقترضة . وهي كما ترى من أخطر وسائل الاقتراض . وقد أحصى الكاتب الفرنسي الذي ألعنا إليه في كتابه « تاريخ مصر المالي » ديون سعيد باشا عندما انتقل إلى العالم الثاني فاذا بها ١١١٦٠٠٠٠ فاذا طرحنا من هذا المبلغ الدين الثابت المأخوذ من بنك جوشن بلغت الديون السائرة ٧٨٦٨٠٠٠ وهو دين باهظ لم تكن تحتمله مالية البلاد وقتئذ .

وفاة سعيد باشا

سافر سعيد في أواخر أيامه إلى أوروبا للاستشفاء من مرض عضال أصابه ولكن لم تنجح فيه حيل الأطباء فعاد إلى الاسكندرية في أواخر سنة ١٨٦٢ بعد أن استفحل الداء وما زال يشتد من جهة وتدهور صحته من جهة أخرى إلى أن عاجلته المنية في صباح يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب سنة ١٢٧٩) وله من العمر ٤٢ سنة وقددفن بمسجد النبي دانيال باسكندرية بعد أن حكم البلاد ثمانية أعوام وتسعة أشهر وستة أيام على ما جاء في كتاب التوقيعات الالهامية للواء المصري محمد مختار باشا . وهكذا ودع سعيد هذا العالم بعد أن طوق جيد أمته بأغلال امتياز القناة وسن تلك السنة السيئة في عقد القروض الأجنبية بالفوائد الفاحشة .

ومن بدرى ماذا كان يكون شأن مصر لو سلم عهد سعيد من هاتين المسألتين؟ الأرجح أن تكون الطريق قد هيئت لمستقبل زاهر بعد ما شهدناه من وطنية سعيد وجهه لشعبه والعمل على رفع شأنه . ولكن قدر فكان .

وإذا كنا قد أطلنا الاقتباس عن الكتب الأخرى فلائنا أردنا أن نضع أمام القارئ صورة صحيحة للحوادث التي وقعت في ذلك العهد إذ ليس يخفى ما لها من الارتباط الوثيق بما وقع بعد ذلك من الحوادث التي أدت إلى كارثة الاحتلال البريطاني . فالتوسع في الاقتباس إنما يراد به في الواقع تنوير الأذهان ولفت الأنظار إلى ما تلا ذلك من الحوادث المهمة ليتسنى ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعلمها .



ساكن الجنان
الخديو اسماعيل باشا



الامبراطور نابليون الثالث
الذى قام بدور الحكم بين الشركة وبين
ساكن الجنان اسماعيل باشا

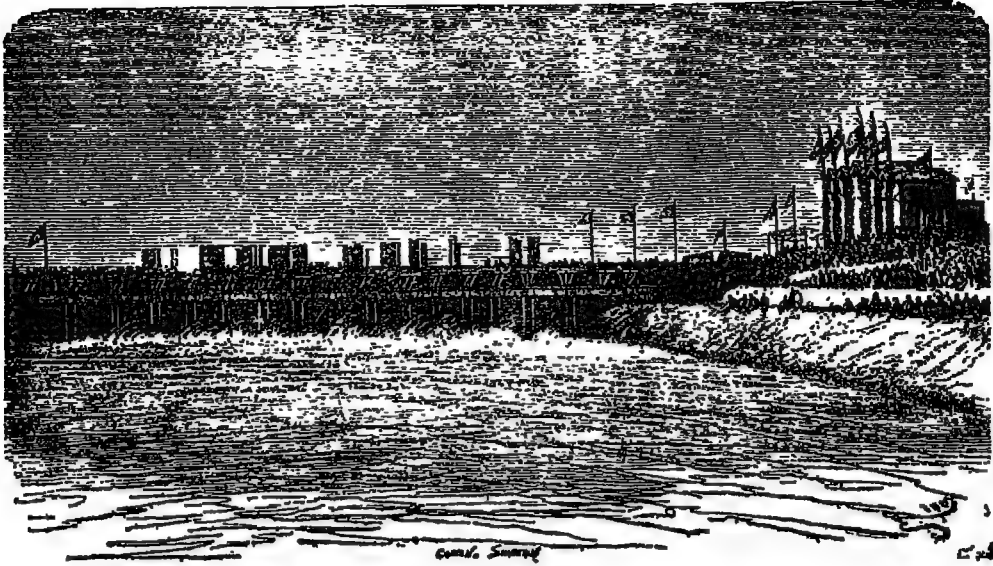
ولما تبوأ اسماعيل باشا
الأريكة أعيد النظر فى شروط
الامتياز ووضع المشروع
بمخاضه على بساط البحث من
جديد . ذلك لأن وفاة سعيد
عجلت بحل الشركة الشخصية
التي كانت قائمة بينه وبين دلسبس
بما شجع خصوم المشروع على
مضاعفة جهودهم لعرقلته . وبهذه
المناسبة صرح اسماعيل باشا مرة
فقال « لا يوجد من هو أشد منى
رغبة فى إنجاز المشروع ولكنى

اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وتوفى سنة ١٨٩٥
إذا ذكرنا عهد اسماعيل باشا فقد ذكرنا عهد الحضارة والعمران عهد التقدم والترقى
عهد الرفعة والسؤدد والمجد عهد النهضة الأدبية والمادية عهد السمو بمصر إلى مصاف
الأمم الراقية وبالجملة فهو عهد تصدق عليه كلمة اسماعيل باشا نفسه عند ما قال إنه
يحاول جعل مصر قطعة من أوروبا ، وإذا كان محمد على قد تمكن من تحقيق استقلال
مصر فى شؤونها الداخلية فإن حفيده الكبير اسماعيل باشا قد سار على سنته وزاد على
ذلك أنه رفع مصر إلى مصاف الدول المتمدينة بما أتاه من الأعمال العمرانية التي
جعلت من مصر جنة تبهج الناظرين .

وإذا كان بعض كتاب الأفرنج قد طاب لهم فى الماضى أن يكلوا المطاعن جزافا
لاسماعيل باشا فإن الحق يأبى إلا أن تسطع شمس يوم ما . وهانحن قد أصبحنا قاب قوسين
أو أدنى من اليوم الذى ينصف فيه التاريخ اسماعيل ويعترف له الخصوم بما كان له من
أياد يضاء على هذه البلاد . لابل لسوف ترى أن كثيرا مما يأخذه هؤلاء الخصوم
على اسماعيل قد أسىء تأويله وفهمه وأن الحق كان فى أغلب الأحيان إلى جانبه .

ونبادر بهذه المناسبة فنذكر أول كتاب وضع بالإنجليزية فى عام ١٩١٠ بقلم المستر



معالم الزينة والابتهاج بإنشاء قناة السويس وترى الأهالي واقفين على ضفة القناة
والأعلام والرايات تحف فوق رؤوسهم

== رودستين يتضمن الأشارة بفضل اسماعيل باشا والمستر رودستين هذا هو روسي الجنس
فر من بلاده هربا من عسف الحكم القيصري وخط رحاله في العاصمة الانجليزية . وتوافر
بعد معايشرة المستر بلنت السياسي الانجليزي المشهور على دراسة المسألة المصرية درسا
وافيا إلى حد أن اختاره الزعيم الكبير المغفور له مصطفى باشا كامل لرياسة تحرير
جريدة الايجبشيان ستاندارد التي كان يصدرها في مصر . ولقد سلخ المستر رودستين نحو
١٥ سنة في العاصمة الانجليزية الى أن وضعت الحرب أوزارها وانهار الحكم القيصري
على أثر شوب ثورة البلاشفة فاختاره الزعيم لينين ليكون سكرتيرا خاصا له . فغادر
لندن الى منصبه الجديد وبعد وفاته عينته حكومته سفيرا لها في إيران ولكن سرعان
ما طلبت الحكومة البريطانية إرجاعه الى بلاده خشية من الدعاية التي كان يبثها
ضدها في الهند .

وقد وضع المستر رودستين هذا أثناء اقامته في لندن كتابا على جانب عظيم من الأهمية
أسماء د خراب مصر ، ضمنه خلاصة إبحاثه عن القضية المصرية . لجاء كتابا قيما من خير
ما كتب عن مصر إذ جاء مشفوعا بالوثائق الرسمية ومصدرا بمقدمة بليغة من قلم المستر بلنت .
ولا نعرف فيما وضع باللغة الانجليزية لغاية سنة ١٩١٠ كتابا تضمن انصافا لعهد
اسماعيل ككتاب د خراب مصر ، فلقد حل فيه الكاتب مسألة الديون التي يأخذونها ==

أريد ان تكون القناة تابعة لمصر لا ان تكون مصر تابعة للقناة .
وما كان أشد اغتباط الحكومة البريطانية بسنوح الفرصة لوقف العمل

== على اسماعيل وأثبت بما لاسيل إلى دحضه من البراهين القاطعة أن خديو مصر كان ضحية مؤامرة من ذئاب المالىين الذين تأمروا عليه فشوهوا أعماله واتهموه بلا وجه حق بالأسراف والتبذير مع أنه أنفق معظم ما استدان في المرافق العامة وفي سبيل «جعل مصر قطعة من أوروبا» ويعتبر كتاب المستر رودستين أول بصيص من النور يلقى على عهد اسماعيل فيدد ما كان يحيط به من ظلمات الشك وأقوال البهتان .
وإذا كان بعض الكتاب قد ابتسموا ابتسامة التشكك وعدم التصديق بما أورده المستر رودستين من الحقائق عن عهد اسماعيل وعدوه مغالاة فقد قىض الله من درس ذلك العهد دراسة القاضى الزيه الذى لا يتوخى من قضية معينة معروضة أمامه إلا كشف الحقيقة مهما كانت مرة بلا تحيز إلى فريق دون فريق . فلقد توصل المستر كرايتس من قضاة المحكمة المختلطة بالقاهرة بعد درس ودوسيه « قضية اسماعيل باشا وبعد موازاة ماله وما عليه إلى أن يضع فى يولية سنة ١٩٣٣ كتابه المسمى « اسماعيل أو الخديو المظلوم » الذى عنيت بنشره شركة جورج روتلج وأولاده بلندن وهو كتاب نحسب أن العنوان وحده يكفى للدلالة على أن هناك ظلما صارخا وأن الوقت قد حان لرفعه .

جلالة الملك فؤاد والوثائق المصرية

وبطبيب لنا فى هذا المقام أن نذكر أن صاحب الجلالة مولانا الملك فؤاد أولا بصفته ابن ساكن الجنان اسماعيل باشا وأولى الناس وأحقهم بتبديد ماحاكة المغرضون من خيوط الأوهام حول أبيه العظيم ، وثانياً بصفته ملك البلاد وبهمه أن يقف الشعب المصرى ثم العالم المتمدين على مبلغ ما قطعت مصر من المراحل فى طريق الحضارة فى خلال القرن التاسع عشر قد وجه جزءا من عنايته السامية الى جمع كافة المعلومات والوثائق الخاصة بمصر من بداية عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل . ومع ان هذه الوثائق هى من أخص شئون الدولة فان جلالته رأى أن يكون هذا العمل وما يتضمنه من جهود شاقة على نفقة الجيب الملكى الخاص . وإن الانسان ليدersh حقاً كيف أن جلالته برغم انهماكه فى تسيير سفينة البلاد وحرصه على الوصول بها الى بر السلامة برغم ما يكتنفها من الأعاصير وما يعوق طريقها من الصخور والعثرات — نقول يدersh الانسان كيف ان جلالته رغم هذا يجد من وقته الثمين ما يتسع للعناية بمثل هذه المسائل التى تنوء به كواهل العصبية أولو القوة .

وخاصة وقد كان لها ما تستند إليه من الحجج والمعاذير . لأن التساهل في استعمال السخرة في مثل هذا العمل الكبير مع عدم الأصغاء لوحى

== وهانحن نقص عليك طرفاً من هذه الجهود الجبارة في سبيل جمع شتات الوثائق التاريخية الخاصة بمصر .

فلقد أدرك جلالتك ان تلك الوثائق موزعة بين لندن وباريس وإيطاليا وفيينا ووشنطن ووارصوفيا وبتروغراد وأثينا هذا عدا الموجود منها في مصر .

ولعلك تستطيع أن تصور لنفسك مبلغ ما يتطلبه العثور على وثائق موزعة بين تلك العواصم من جهود ونفقات . ولكن هل كان هذا بما يمكن أن يثبط عزيمة أبي الفاروق ؟ كلا ، والآن فألقِ بالك لتر ماذا صنع .

أولاً : فيما يختص بالوثائق الخاصة بمصر الموجودة في لندن وباريس فقد عهد جلالتك للمسيو ديوان من كبار مديري شركة قناة السويس بجمعها وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الملكي الخاص .

وقد وفق المسيو ديوان في مهمته كل التوفيق وحصل على كافة المستندات المذكورة ونشرت الجمعية الجغرافية بعضها والبعض الآخر يعد للطبع وسيظهر قريباً .

ونذكر بهذه المناسبة أن المسيو ديوان عني بوضع كتاب في خمسة أجزاء يتضمن تاريخ اسماعيل باشا وهو الآن تحت الطبع في إيطاليا وسيظهر الجزء الأول قريباً وتلوه الأجزاء الأخرى تباعاً .

ثانياً : وأما الوثائق الموجودة في إيطاليا فقد عهد بها جلالتك الى السنيور انجلو سان ماركو من أساتذة التاريخ في المدارس الإيطالية . ونقف هنيهة هنا لنقول إن وثائق إيطاليا اقتضت مجهوداً خاصاً يزيد أضعافاً مضاعفة على الجهود المطلوب بذلها في الجهات الأخرى . لأنك تعرف إن إيطاليا كانت مقسمة إلى عدة دويلات صغيرة ولكل دولة منها دار محفوظاتها . وإلى اليوم لم تنتظم هذه الدور كلها في دار محفوظات واحدة . ومن هنا كانت الجهود مضاعفة .

وبرغم هذه المصاعب فإن الأستاذ سان ماركو قد تمكن من جمع هذه الوثائق وطبع منها إلى الآن حوالي خمسة أو ستة مجلدات في حين أن الباقي ما يزال تحت الطبع .

ثالثاً : ومتى خلا بال الأستاذ سان ماركو من وثائق إيطاليا وجه اهتمامه إلى جمع الوثائق الموجودة في دار المحفوظات في فيينا ونحسب أنه موافق في مهمته بإذن الله وبفضل عناية المليك .

الضمير كانت نتيجته وقوع فظائع وحشية فاضحة لم يفزع لها الرأى العام الانجليزى وحده بل والرأى العام الفرنسى أيضاً . وأظهر الباب العالى

== رابعاً : أما فيما يختص بواشنطن فقد نعى الى المسمع الملكية السامية أن دار محفوظاتها تحتوى على وثائق هامة ومعلومات قيمة فأمر بنسخها بأكملها على نفقة الجيب الخاص . وقد تأخذك الدهشة اذ تعلم انها نسخت في ٢٠ مجلد وهي تشمل كل ما كتب عن مصر منذ عهد محمد على الى نهاية عهد اسماعيل هذا عدا الخرائط وأقوال الصحف الخ . خامساً : لما كان محمد على قد وقع اختياره في أثناء الحرب السورية على بعض كبار الضباط البولونيين لتدريب الجنود المصرية في أثناء الحرب السورية فان وثائق على أعظم جانب من الأهمية ما تزال موجودة في دار محفوظات وارصوفيا خاصة بالفترة فيما بين سنتى ١٨٣٣ و ١٨٣٦ ولذا فقد عهد جلالة إلى أحد كبار الاخصائيين بجمع هذه الوثائق وترتيبها .

سادساً : أما الوثائق الروسية الخاصة بمصر فيقوم بجمعها جناب رينيه قطاوى بك مدير عام شركة كوم اسبر .

سابعاً : والوثائق اليونانية قد شرع في طبعها المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى .

أما الوثائق الموجودة بمصر فان الادارة الأورنية بديوان حضرة صاحب الجلالة الملك جادة في ترتيب كافة المحفوظات المحلية العربية والتركية والأفريقية .

وما يدلك على أن عناية جلالة الملك ليست منصرفة إلى تدوين تاريخ الأسرة المحمدية العلوية فقط بل إلى تاريخ مصر من أقدم عصور التاريخ أنه عهد بهذه المهمة الى المسيو هانوتو السياسى الفرنسى المشهور . وقد تولى جنابه العمل فأظهر للبلاء نتيجة أبحاثه في تاريخ مصر من أبعد العصور الى الآن . وقد ظهرت بعض أجزاء هذا التاريخ فعلاً

ثم لاتنس بهذه المناسبة كتاب « الوجيز في تاريخ مصر » ويقع في ثلاثة أجزاء وهو يشمل تاريخ مصر من قبل التاريخ الى آخر عهد اسماعيل باشا .

وقد سمعت بالكتاب القيم المسمى « الفن المصرى في عصور التاريخ » الذى تكفلت لجنة باشراف السير دينسن روس باخراجه بأمر جلالة الملك . ثم كتاب مصر لمؤلفيه بواسونا وترمينليه وقد عاون جلالاته بقسط وافر في مصاريف الطبع ليتمكن المؤلفان من إخراج الكتاب .



المستر كرايتس صاحب كتاب
اسماعيل الخديو المظلوم

استعداداه للتدخل في الموضوع
والمطالبة بالعدول عن السخرة في
حفر القناة لمخالفتها للأصلاحات
الشاهانية المنصوص عليها في التنظيمات
هذا في حين أن اسماعيل طالب برد
ما منحه سعيد للشركة من الأراضي
المجاورة وما فيها من المعادن باعتبارها
امتيازاً لا يتفق وحقوق السيادة
المصرية. وهناك طالبت الشركة
بتعويضات ووقع الاختيار على

== وإليك عملاً جليلاً آخر خليقاً بهمة أي الفارق وهو الخاص بالفرمانات الصادرة
إلى ولاية مصر وعددها ١٠٦٤ فرمان. فقد أمر جلالته بجمعها ثم أخذت مصلحة
المساحة صورته منها وطبعها في ثمانية مجلدات.

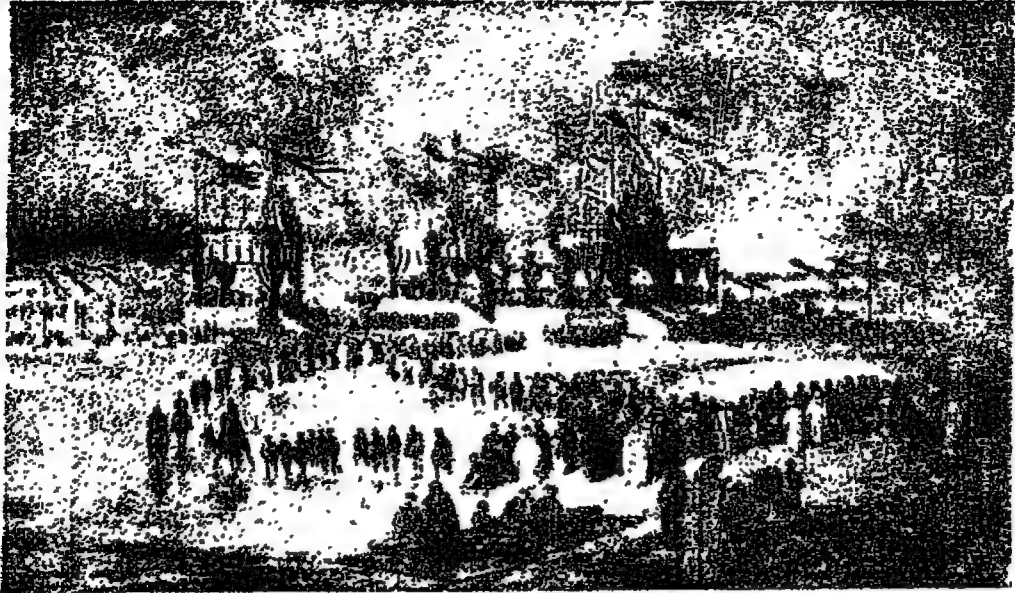
وبدئى أن فك طلاسم هذه الفرمانات وتحليل ألفاظها وتلخيصها يحتاج إلى
جهد كبير. ومن ثم يقوم صاحب السيادة حاييم ناحوم أفندى الخاخام الا كبير للطائفة
الاسرائيلية بمصر بهذه المهمة الدقيقة بأرادة جلالة الملك

أليست هذه الجهود الجبارة تشهد بعناية جلالة الملك بتاريخ بلاده وحرصه على
تدوينه مهما اقتضى من جهود ونفقات ؟

وبمناسبة كتاب المستر كرايتس نقول إن جلالة الملك فؤاد قد سمح للؤلف
بالاطلاع على الوثائق التاريخية الهامة الخاصة بعهد ساكن الجنان اسماعيل باشا
والاستئناس بها في كتابه الآنف الذكر الذى ستسنع لنا الفرصة للاقباس منه فيما بعد .
وقد تولت فحص هذه الوثائق وترتيبها بحيث يسهل تناولها والاطلاع عليها الإدارة
الافرنجية بديوان صاحب الجلالة الملك .

وإذا كنا نأسف لشيء هنا فأسفنا أننا قد أخذنا في كتابة هذه العجالة عن ساكن الجنان
اسماعيل باشا قبل أن يفرغ القلم المذكور من مهمته وقبل أن يتاح لنا الوصول إلى==

نابليون الثالث ليكون حكاماً بين طرفي النزاع. فقضى (في يولية سنة ١٨٦٤) بان



حفلة افتتاح قناة السويس

= هذه الوثائق التي سوف يثلج لها قلب كل من يحاول الكتابة عن اسماعيل بالنزاهة التي هي من حق ذلك الحديو العظيم على التاريخ .

ولد اسماعيل باشا في قصر المسافرين بجى الجبلية بالقاهرة في يوم ١٢ يناير سنة ١٨٣٠ (مخلاف ما أجمع عليه المؤرخون وهو ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠) وهو ابن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير. كان لوالده ابراهيم باشا ثلاثة أولاد وكان أوسطهم صاحب الترجمة. أما الابن الأكبر فهو الأمير أحمد رفعت (ولد في ٨ ديسمبر سنة ١٨٢٥) والأصغر هو الأمير مصطفى فاضل (ولد في ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٠)

وقد عني ابراهيم باشا - كما كان ينتظر - بتعليم أولاده وتثقيفهم ليكونوا عدة من بعده ولتعهده ما غرسه هو ووالده العظيم محمد علي باشا من بذور الحضارة في أرض الفراعنة . وكان محمد علي قد أنشأ في قصر العالى مدرسة خصوصية لأولاده وأحفاده وفيها تلقى اسماعيل باشا مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية وقليلاً من الرياضيات والطبيعات . وفي سن الرابعة عشرة بعث به والده إلى فيينا حيث لبث عامين ومنها انتقل إلى باريس للانخراط في سلك البعثة المصرية التي كان بين تلاميذها الأمير احمد رفعت شقيقه الأكبر والأميران عبد الحليم وحسين من أبناء محمد علي .

تدفع مصر غرامة مالية قدرها ٣٣٦.٠٠٠ جنيه منها مبلغ ١٥٢.٠٠٠ جنيه
تعويضاً عن عمال السخرة و ١٢٠.٠٠٠ عن كافة الامتيازات في الأراضي
الواقعة على بعد أكثر من ٢٠٠ متر من ضفة القناة و ٦٤.٠٠٠ جنيه
عن حقوق الشركة في التزعة العذبة . وقد دفعت الغرامة في سنة ١٨٦٩
ثم أنجزت عملية الحفر بأدوات مصرية وبواسطة عمال مصريين يتقاضون
أجوراً جىء بهم من الجهات . وقد افتتحت القناة (في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)



أول سفينة تعبر قناة السويس وسط ابتهاج الناس على الشاطئ.

== وسلخ اسماعيل باشا بضع سنوات في دراسة العلوم والرياضيات وبخاصة الهندسة
التي أغرم بها وظهر في نفسه أثر ولعه بها عند اعتلاء الأريكة فيما بعد حيث كان شغوفاً
بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء... وقد أقبل على تعلم اللغة الفرنسية والوقوف على
أسرارها حتى غدا كأحد أبنائها فأجادها قراءة وكتابة . وكان اسماعيل باشا ذكياً بفطرته
كأخيه الأمير أحمد رفعت الذي كان يعتبر من التوابغ .

وعند ما انتهى اسماعيل باشا من التحصيل عاد مع أفراد البعثة إلى مصر في عهد أبيه
ابراهيم باشا . ولما انتقل هذا إلى الرفيق الأعلى واعتلى الأريكة بعده عباس الأول بدأ ==

وسط حفلات تكلفت نفقات تناسب المقام . على أن هذا الإسراف كان



بعض الرؤوس المتوجة في حفلة افتتاح القناة

- (١) الامبراطوره يوجيني امبراطورة فرنسا (٢) الأمير هيرتر البروسي
(٣) الامبراطور فرانس جوزيف امبراطور النمسا (٤ و ٥) أمير وأميرة هولندا

== يكيد لأفراد الأسرة على ما مر بك . ثم اشتد الخصام بسبب التركة بين عباس وبقية
الأمراء على أثر وفاة محمد علي باشا الكبير فرحل اسماعيل باشا مع من رحل من الأمراء
إلى الاستانة لرفع أوجه النزاع إلى السدة السلطانية فاوفدت رسولين لتسوية الخلاف
في مصلحة الأمراء الذين عادوا بالتالي إلى مصر بينما ظل اسماعيل باشا في الاستانة حيث قربه
جلالة السلطان إليه وأنعم عليه برتبة المشايخ وعينه عضواً في مجلس أحكام الدولة العلية .

يوجد إلى جانبه إسراف آخر في شكل الآمال العريضة التي عقدت وقست على



الوليعة التي أقامها اسماعيل باشا لملوك أوروبا وأمراتها بمناسبة افتتاح القناة

== وبعد أن قتل عباس وخلفه سعيد على العرش عاد اسماعيل إلى مصر في سنة ١٨٥٤ حيث لقي عطفاً كبيراً من عمه الذي ولاه رئاسة مجلس الأحكام وهو أكبر هيئة قضائية في البلاد على ما مر بك في تاريخ سعيد . وقد قطع تنوطاً كبيراً في إصلاح ذلك المجلس ونظمه على منوال مجلس الأحكام العثماني .

وعربوناً على ثقة سعيد بكفاءة ابن أخيه اسماعيل أوفده في سنة ١٨٥٥ إلى الإمبراطور نابليون الثالث للحصول على مساعدته لدى الدول لتعديل معاهدة لوندرا وتوسيع استقلال مصر جزاء لها على ما قدمته للحلفاء من المساعدة في حرب القرم . فاضطلع اسماعيل بالمهمة وقام خير قيام بما كلفه به عمه إلى حد أن الإمبراطور نابليون قطع له وعداً ليساعدن مصر على تحقيق رغائبها في مؤتمر الصلح . ولكن وعود السياسة لا ينبغي الارتكان إليها . فقد أخلف الإمبراطور وعده . وكانما شاءت الأقدار أن يترك أمر ذلك التوسيع إلى اسماعيل باشا نفسه بعد أن يرتقى العرش . وفي هذه الرحلة نفسها قابل اسماعيل باشا قداسة البابا « بيوس التاسع » موفداً من سعيد باشا فكان موضع حفاوة كبيرة من رب الفاتيكان .

ماعسى أن تقيده مصر من هذه الخدمة التي ادتها إلى أوروبا. ونقول «إسرافاً» لأن



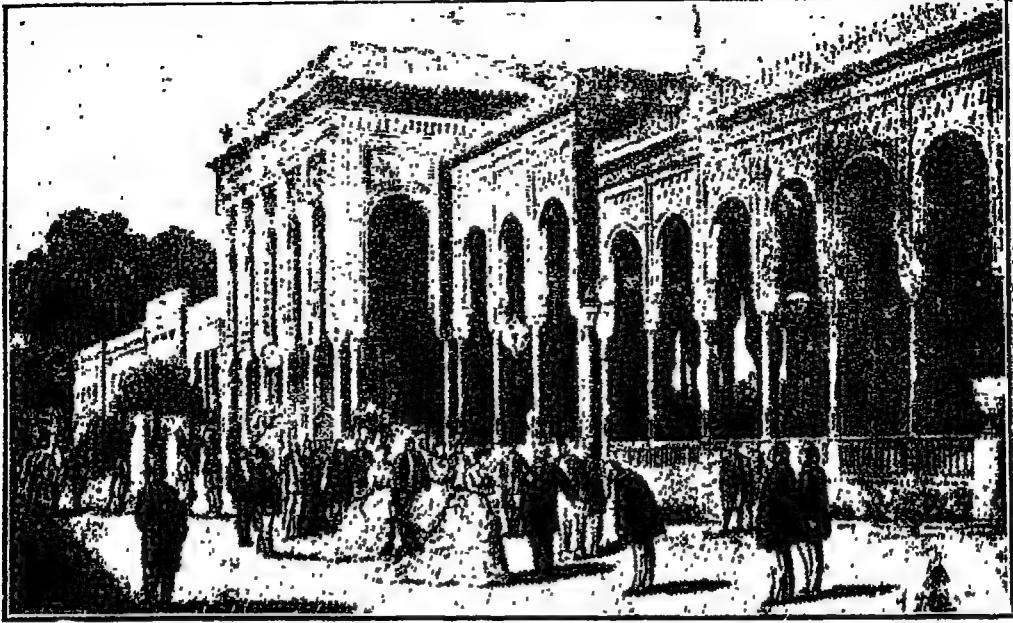
نزهة الملوك في صحراء السويس عند افتتاح القناة

== قام اسماعيل بما قام به دون أن يفكر يوماً في أن يؤول إليه العرش بعد سعيد .
لأن أخاه الأمير أحمد باشا رفعت كان أكبر منه سناً وهو لذلك أولى منه بالعرش .
ولكن إرادة الاقدار فوق إرادة الانسان .

فقد حدث في سنة ١٨٥٨ أن أولم سعيد باشا وليمة في الاسكندرية دعا اليها كافة
الأمراء فلبوا جميعا الدعوة بما فيهم ولي العهد الأمير أحمد رفعت باشا . وبعد الفراغ من
الوليمة عاد الى القاهرة بقطار خاص أحمد رفعت باشا وبصحبه الأمير عبد الحليم ومن
معهما من رجال الحاشية وعددهم نحو ٣٠ شخصاً . وتصادف عند وصول القطار إلى
كوبرى كفر الزيات أن الكوبرى كان مفتوحاً لمرور السفن . فلم يتنبه السائق لهذا الخطر
إلا بعد فوات الأوان . ومن ثم سقط القطار في النيل وغرق من فيه إلا عبد الحليم باشا .
وبذا رأى اسماعيل نفسه نجاة وليا لعهد الأريكة المصرية بحكم نظام الوراثة المعمول
به وقتذاك .

ولم يأت عطف سعيد على اسماعيل اعتباطاً أو بلا سبب . كلا فقد جربه في كثير ==

مصر لم يكن ينتظر أن تحصل على فوائد كثيرة بعد أن فقدت شطراً عظيماً



الأميرة يوجيني في قصر الجزيرة وإلى يسارها ساكن الجنان اسماعيل باشا

== من مناصب الدولة حيث كان يضطلع بها خير اضطلاع . ففي سنة ١٨٥٩ زار سعيد سوريا وترك اسماعيل قائمقام بدله . وفي أوائل سنة ١٨٦١ سافر إلى الحجاز تمحلاً للاعتذار عن الذهاب إلى الاستانة لخل محله اسماعيل في هذه المدة أيضاً . وقد ارتاح سعيد إلى الطريقة التي أدى بها اسماعيل أعمال النيابة في كلتا المرتين حتى أنه عيّن بعد عودته من الحجاز سرداراً للجيش المصري وعهد إليه في اتحاد الفتنة بين بعض القبائل السودانية . وقد وفق اسماعيل في مهمته وأخذ نار الفتنة ، ولكن دون سفك قطرة واحدة من الدماء . وهي شهادة تنطق له وهو بعد في سن الشباب باللباقة وسعة الحيلة والذكاء والمهارة في تسوية المشا كل باللين لا بالعنف .

وفي يوم ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ التحق سعيد باشا بالرفيق الأعلى فانتقلت ولاية مصر إلى ساكن الجنان اسماعيل باشا وهو خامس ولادة الأسرة المحمدية العلوية .

سياسة اسماعيل باشا الخارجية

لعلك تذكر ما قاله المستر يانج عن مسلك محمد علي باشا الكبير حيال تركيا في ص ١١٥ من هذا الكتاب إذ قال ما نصه : « وقد اتخذ محمد علي مبدأ جملة قاعدة ==



المستر دزرائيلي
رئيس الوزارة البريطانية

مما كان يعود عليها من الأرباح من
جاء نقل الساتحين بطريق البر كما
فقدت الحصة التي خصصها لها
الامتياز في أرباح القناة في المستقبل .
وفي سنة ١٨٧١ هبط سعر أسهم
القناة من ٢٠ جنياً إلى مادون
السبعة الجنيهات ولم توزع أرباح
البتة على حملة الأسهم ولكن مؤتمراً

للسياسة الخارجية ألا وهو رشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على
الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالاً داخلياً . أما مبدأ
جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمي إلى إيقاع
هذه الدول بعضها في بعض أو تحريضها على الباب العالي ، وكان من رأيه أن أنجم
وسيلة للحصول على ما يشاء من الاستانة هي بالنظر بالقدرة من جهة وبمحاكاة تركيا
إليه في الوقت نفسه من الجهة الأخرى

ذكرنا لك ذلك لتدرك الأساس الذي سار عليه محمد علي باشا الكبير في تحقيق
استقلال مصر . فلم يكن عجيباً أن يحذو حفيده الكبير اسماعيل باشا حذو جده فيجعل
أول همه تحقيق استقلال مصر . وإذا كان محمد علي قد اعتمد في سياسته حيال تركيا على
قوة الجيش المصري من ناحية وعلى سلاح المال والرشوة من ناحية أخرى . فلم يكن
يعقل وهذه غاية اسماعيل النيلة أن يعتمد على الجيش بعد أن انحطت مكاتفه في عهد سعيد
أو أن يتحرج في تحقيق هذه الغاية عن الالتجاء إلى الوسيلة الأخرى وهي المال والرشوة
وبخاصة بعد أن رأى اجماع دول أوربا على سلب مصر كل حق تكتسبه عن طريق
القوة كما حدث في حروب محمد علي حيث لم تغنه انتصاراته العظيمة شيئاً .

وهنا لا نرى مناصاً من مخالفة ما ذهب إليه صديقنا البعثة الكبير الأستاذ
عبد الرحمن الرافعي بك فيما كتبه في كتابه القيم « عصر اسماعيل » ص ٧٧ خاصاً بسياسة
اسماعيل باشا حيال تركيا . فقد أخذ على اسماعيل اعتماده على سلاح المال والرشوة
يذلها لرجال الاستانة ليحصل على الفرمانات التي وسع بها نطاق الاستقلال ، بينما
كان محمد علي باشا الكبير يعتمد على قوة الجيش المصري .

الاستانة قرر فرض ضريبة إضافية قدرها ٣٠ ٪ ومن ذلك الحين أصبحت القناة سلعة تغل ربحاً وفيراً ولكن لا لمصر التي حفرنها لأن دزرائيل بالنيابة عن الحكومة البريطانية اتهمز في سنة ١٨٧٥ فرصة افلاس اسماعيل فابتاع بمعونة بيت روتشيلد بمبلغ ٤٠٠٠٠٠٠٠ جنيهه أسهمه التأسيسية وكان وقتئذ يعرضها في باريس ضماناً لعقد قرض جديد ، هذا

== وقد استطرد الأستاذ الرافي بك فقال متقدماً ، وليس يخفى أن وسيلة محمد على هي صفحة مجيدة من تاريخ مصر الحديث تقرأ فيها الأجيال المتعاقبة مفاخر الجهاد القومي أما وسيلة اسماعيل فلا تستثير في النفوس إحساس المجد والفخر (كذا !) هذا فضلا عن أنها من الأسباب التي دعت اسماعيل إلى الاستدانة من البيوت المالية الأجنبية فكانت من هذه الناحية من العوامل التي أدت إلى تصدع بناء الاستقلال الحقيقي . وقد بذل اسماعيل تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على الامتيازات التي نالها إذ لم تكن حكومة الاستانة تصدر فرماناً إلا في مقابل الأموال الطائلة من الرشايا والهدايا يقدمها اسماعيل لرجال الاستانة على اختلاف مراتبهم ولا يستثنى منهم السلطان ذاته والصدور العظام فبلغت هذه الأموال طوال حكمه اثني عشر مليوناً من الجنيهات .
وبحسبنا أن نقول للاستاذ إذا كان سعيد باشا قد ترك وراءه ديناً يبلغ كما قدره مؤلف « تاريخ مصر المالي » ١١٦٠٠٠٠ جنيه في مدة حكمه التي لم تزد على ثمان سنوات ونيف مع أنه لم يبذل أية تضحيات مالية جسيمة في سبيل الحصول على نيل أية امتيازات ، فهل يؤخذ اسماعيل إذا كان قد دفع نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه طيلة مدة حكمه أي ستة عشر سنة في سبيل الحصول على الامتيازات الجسيمة التي نالها ؟

لا نظن أن من الانصاف مجارة كتاب الأفرنج في الأسراف في مؤاخذه اسماعيل من هذه الناحية . وقد كان كل ذنب اسماعيل - إذا صح أن يسمى ذلك ذنباً - أنه توخى العجلة في سبيل رفع مصر إلى مستوى الأمم الراقية وجعلها « قطعة من أوروبا » . وليشهد معنا القارئ على أن هذه الاثني عشر مليون جنيهاً التي أنفقت في الاستانة لم تذهب هباءً نرد أمامه ما حصل عليه اسماعيل باشا من الامتيازات العظيمة منقولا عن كتاب الرافي بك نفسه .

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر

في ابريل سنة ١٨٦٣

فند عهد السلطان سليم الذي فتح مصر لم يهبط وادى النيل سلطان عثمانى آخر سوى ==

في حين ان ال ١٥ ٪ وهى حصته فى أرباح القناة قد تم التنازل عنها فيما بعد وفاء لدين قدره ٧٠٠٠٠٠ جنية مستحق للمولين الفرنسيين وهم الذين جمعوا من هذه الحصة فى السنوات السبع التالية ما يزيد عن ضعفى ما أقرضوه من المبالغ . ويقدر ان الآن ثمن أسهم اسماعيل وحصة مصر الآتفة الذكر بما لا يقل عن ٣٠ مليون جنية

== السلطان عبدالعزيز . ولما كانت مصر وقتئذ إحدى ولايات تركيا الممتازة فلا غرو أن يعتبر تنازل عاهل الاساتنة لزيارة مصر تكريما كبيرا لاسماعيل وتعظيما لشأنه على ما اعترف به الأستاذ الرافعى بك الذى استطرد فقال « إن اسماعيل انتهز هذه الفرصة فاستغل المرتبة التى نالها يكتسب من تركيا حقوقا ومزايا جديدة (كذا كذا) واستخدم إلى جانب ذلك المال يذله بسخاء فغمر السلطان وحاشيته بالهدايا والتحف الفاخرة وزود الصدر الأعظم فؤاد باشا وحده برشوة قدرها ٦٠٠٠٠ جنية . وقد عاد السلطان عبد العزيز مقتبطا بما لقيه من الاكرام ومهدت هذه الزيارة الطريق أمام اسماعيل لينال رغائبه . »

ونحن من جانبنا لا نرى أى ماخذ جدى على اسماعيل فى هذا العمل لأن الرجل الذى كان يطمح إلى استكمال استقلال بلاده كان عليه أن يختار بين طريق العنف أو طريق المجاملة وبذل المال وهو أخف الأمرين وأوكدهما .

تغيير نظام توارث العرش

وفرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦

وبعد هذه الزيارة وجه اسماعيل اهتمامه إلى تغيير نظام توارث العرش فبعد أن كان فرمان سنة ١٨٤١ يقضى بأيلولة العرش لأكبر أفراد الأسرة المحمدية سنا بما كان من شأنه أن يفتح باب الدسائس على مصراعيه بين المطالبين بالعرش ويصرف صاحب التاج عن الاهتمام بالمستقبل مادام لا يضمن ان ابنه مثلا هو وارثه فى الملك فضلا عن أنه يؤدى الى زعزعة أساس العرش ويعرضه للزوال، تمكن اسماعيل وكانت غايته جعل مصر قطعة من أوروبا — من استصدار فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ باتتقال مسند ولاية مصر وملحقاتها وقائمقاميتى سواكن ومصوع إلى أكبر أولاده ومن هذا الى أكبر أبنائه وهلم جرا . نعم ان هذه المساعي كلفت اسماعيل ٣٠٠٠٠٠ جنية على قول الأستاذ الرافعى بك ولكن ألم ينص فى هذا فرمان على مزايا عظيمة ترخص فى مقابلها هذه ==

هذا باختصار هو تاريخ هذه الصفقة التي كانت شؤماً على مصر من الوجهة المالية والاقتصادية والسياسية . وقد كان ينبغي على أوروبا أن تقوم هي بانجاز هذا المشروع الذي خدم مصالحها الاقتصادية وغيرها وذلك

== الملايين الثلاثة ؟ ونحن نورد هنا بترتيبها حسب ماذكره الأستاذ فيليب جلاد في كتابه « قاموس الإدارة والقضاء » جزء ٦ ص ٧٣٠ فقد نص في ذلك الفرمان على الأمور الآتية :
أولاً : زيادة الجيش المصرى الى ٣٠.٠٠٠ جندى .

ثانياً : إقرار حق مصر في ضرب نقود مختلفة العيار عن نقود السلطنة العثمانية .

ثالثاً : منح الرتب المدنية لغاية الرتبة الثانية .

على أن هذا الفرمان ألحق بفرمان آخر في ١٥ يونية سنة ١٨٦٦ بترتيب نظام الوصاية على من يتقلد مسند الولاية إذا كان قاصراً .

فهذه المزايا وخاصة أولاهها المتعلقة بزيادة عدد الجيش هي بمثابة خطوة واسعة في سبيل الاستقلال . ومتى تقرر هذا فلا يمكن أن نستكثر ما دفع من الثمن في سبيلها وقديماً قالوا « ومن طلب الحسنة لم يغلها المهر » .

بل إن هذا الفرمان قد أكسب مصر صفة دولية — وهي مزية لها أهميتها — لأن تركيا أبلغت الفرمان الى الدول العظمى التي اشتركت في وضع معاهدة لوندرا وبذا أصبحت تركيا مرتبطة دولياً ازاء مصر بحيث لا تستطيع تعديل الفرمان إلا بموافقة مصر . أفليس هذه إذن خطوة خطيرة مهمة في سبيل استقلال مصر ؟

فرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧

والحصول على لقب خديو

ولكن هل كان يمكن أن يكتفى اسماعيل بهذه المزايا دون أن يسعى لنيل غيرها ؟ كلا . ولذا رأيناه يبدل المال من جديد على ضفاف البوسفور إلى أن حصل في ٨ يونية سنة ١٨٦٧ على فرمان جديد يخوله هو وخلفاءه لقب (خديو) بعد أن كان (والياً) وبهذا ارتقى صاحب العرش بهذا اللقب السامى — كما يعترف الأستاذ الرافعى بك — إلى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين . .

على أن اسماعيل لم يكن ينسى العرض عن نيل الجواهر . فهو في الوقت الذي حصل فيه في الفرمان المذكور على لقب (خديو) حصل أيضاً على هذه المزايا التي نحسب أن ==

بالحصول من مصر على امتياز بانجازه على أن تدفع لها في مقابل ذلك ما يكفي لسداد ديون مصر وبأن تعطيها من أرباح القناة حصة تعوضها عما تخسره (مصر) في حركة المرور. ولكن مصر أرغمت على دفع ثمن فادح بتنازلها عن الأراضي اللازمة للمشروع وبأداء نفقات الجزء الأكبر منه ثم إنها

== الأستاذ الرافعي بك يوافقنا على أهميتها وهي كالاتي منقولة عن كتابه السالف الذكر:
أولاً : إقرار حق الحكومة المصرية واستقلالها في إدارة شؤونها الداخلية والمالية.
ثانياً : إقرار حقها في عقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب في داخلية البلاد .

ثالثاً : إقرار حقها في شؤون الضبط للجانليات الأجنبية .

فهل قنع اسماعيل بهذه الامتيازات العظيمة ؟ كلا وربك فانه كان دائب السعي لتحقيق استقلال البلاد مهما كلفه من المال وهو أهون ثمن .

فلقد روى الأستاذ الرافعي بك عن كتاب محمود باشا فهمي المسمى "البحر الزاخر" ج ١ ص ١٩٩ أن اسماعيل باشا طلب من تركيا في إبان حملة كريت أن تخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية . وقد غضب الباب العالي لهذا الطلب (طبعا) لأنه رأى فيه ميلا من ناحية اسماعيل إلى الاستقلال .

وكأنما أراد اسماعيل أن يظهر للبلا أن مستقل عن الباب العالي فعلا وإن لم يكن كذلك إسماء . فشرع أولا يفاوض الدول الأوروبية في صدد إنشاء النظام القضائي المختلط دون وساطة الباب العالي .

ثانيا : اشترك في معرض باريس القائم سنة ١٨٦٧ وظهر فيه بمظهر الملك المستقل وأقام به قسما خاصا لمصر جمع فيه صنوف البهجة والعظمة ليكون جديرا بتمثيل مملكة مستقلة .

ثالثا : أوصى المعامل الفرنسية بصنع ثلاث يوارج حرية مصفحة وعدة آلاف من البنادق الحديثة الطراز لتسليح الجيش المصري .

فلما استولى على تركيا القلق لهذه الانباء وداخلها الشك في نوايا اسماعيل تواترت الاشاعات بأنها اعترفت محاربه فأخذ يستعد للدفاع وأنشأ حصونا جديدة بين الاسكندرية وبور سعيد ورم الحصون القديمة وابتاع من معامل ارمسترنج بانجلترا نحو ٢٠٠ مدفع من المدافع الضخمة سلح بها تلك الحصون وما تزال هذه المدافع موجودة إلى اليوم ==

خرجت بعد كل هذا دون أن تكون لها حصة في الأرباح . ولا ريب في ان مالمقيه الفلاحون المصريون من ضروب الشدة والغنت سواء أكان في إبان أعمال السخرة في مكان القناة أم أثناء حركة الاغتصاب المالى فيما بعد

== في حصون الاسكندرية وأبي قير ودمياط ورأس البر . وقد أكلها الصداً ويوجد على أكثرها تاريخ السنة التى صنعت فيها وهى سنة ١٨٦٩

رابعا : كان اسماعيل معترفاً بإعلان استقلال مصر بعد الانتهاء من حفلات افتتاح قناة السويس بعد توجيه الدعوة إلى ملوك أوروبا ورؤساء حكوماتها دون وساطة الباب العالى بما غضبت له تركيا واحتجت عليه دون أن يأبه به اسماعيل . ولولا تردد بعض الحكومات الأوربية فى مشايعة أغراضه لإعلان استقلال مصر وقتئذ ولكن العيد بافتتاح القناة هو أيضا يوم عيد الاستقلال المصرى .

فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩

ولهذا استاءت تركيا من تصرفات اسماعيل هذه وأرسلت إليه فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ عقب انتهاء حفلات افتتاح القناة وكان أهم ما ورد فيه من القيود أنه لا يعقد قروضا جديدة دون أن يبين وجه الحاجة إليها وقبل الحصول على إذن من السلطان بعقدها .

فكان طبيعياً أن يستاء اسماعيل لورود هذا فرمان ، وكان طبيعياً أيضاً أن يعمل على محو أثره . ولذا سافر إلى الأستانة فى صيف سنة ١٨٧٢ بصحبة اسماعيل صديق باشا وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية فبدلوا جميعا مساعيهم إلى أن عادت المياه لأم مجاريها بين عاهل الأستانة وعاهل القاهرة .

وفى خريف هذا العام (سنة ١٨٦٩) حصل على فرمان بتثبيت ماناله من قبل من الامتيازات وبسخ القيود الواردة فى فرمان سنة ١٨٦٩ وخطا شريفاً فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٢ بتأكيده مزايا فرمان ١٠ سبتمبر وإطلاق يده فى عقد ما يشاء من القروض بلا شرط ولا قيد . وهوالفرمان الذى تقبله اسماعيل باشا بمنتهى مظاهر الابتهاج والارتياح .

الفرمان الجامع (٨ يونية سنة ١٨٧٣)

وبدلاً من هذه فرمانات المنوحة (بالقلاعى) سعى اسماعيل باشا لنيل ما يسمونه بالفرمان الجامع . وقد سافر لهذه الغاية إلى الأستانة فى صيف سنة ١٨٧٣ وفى ركابه نوبار باشا واسماعيل صديق باشا ورياض باشا مستشار مجلس الوزراء (المجلس العالى) ==

لأداء فوائد دين القناة وضع في عنق أوربا ديناً ثقيلاً ، ديناً خاصاً بالشرف ، ديناً من واجب أوربا أن تؤديه لمصر ، ديناً لم نسمع أحداً يشير إليه بكلمة واحدة وسط الضجة التي أثاروها وملأوا بها العالم عن الديون الأخرى

== وغيرهم وغيرهم . وهناك تمكن بفضل سلاح المال من الحصول على فرمان ٨ يونية سنة ١٨٧٣ المسمى بالفرمان الجامع وتلخص مزاياه فيما يلي :

أولاً — توارث عرش مصر في أكبر أنجال الخديو ومن بعده إلى أكبر أولاد هذا الأكبر وهلم جرا .

ثانياً — تشمل أملاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها (السودان) الجارية إدارتها بمعرفتها مع ماصار إلحاقه بها من قائمقامي سواكن ومصوع وملحقتهما .

ثالثاً — حق الحكومة المصرية في سن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .

رابعا — حق عقد الاتفاقات الجمرية والمعاهدات التجارية .

خامساً — حق الاقتراض من الخارج من غير استئذان الحكومة التركية .

سادساً — زيادة الجيش إلى أي عدد يبتغيه الخديو .

سابعاً — حق بناء السفن الحربية ما عدا المدرعات التي يجب لإنشائها استئذان الحكومة التركية .

ونحب أن نسأل الأستاذ الرافعي بك أليس هذا فرمان الجامع أهلاً لأنفاق الأموال في سبيل الحصول عليه إن صح ما نسبته المؤرخون إلى اسماعيل باشا من تهم الإسراف والتبذير ؟

لقد جارينا الأستاذ الرافعي بك إلى الآن فيما ذهب إليه على اعتبار أن اسماعيل باشا كان كما وصفه مؤرخو الأفرنج المغرضون . ولكننا نرى أن الوقت قد آن لرفع يدنا في وجه أصحاب تلك المزاعم ونقول لهم د لئى كفى فلم يكن اسماعيل كما وصفتموه ولم يقترض ما اقترض لأنفاقه في ملاذه الشخصية ، بل كان مثال الحاكم العادل الساهر على مصالح رعيته . ولئن كنتم قد اعتدتم تشويه سمعة هذا الرجل واختلاق الأراجيف عليه طيلة هذه السنوات فلقد آن للحقيقة أن تبرز شمسها قبدة ظلمات الترهات وتفضح ما أذاعه المغرضون من التخرصات .

التي استداتها مصر من أوروبا لغاية أبعد عن الشرف من هذه الغاية. وعلى أن تفاخر الفرنسيين بعمل دلبس الباهر وابتهاج الانجليز بصفقة

نظرة اجمالية في إصلاحات اسماعيل باشا

وبهذه المناسبة نقتبس الجدول الوارد ضمن مقال للستر مولهول نشرته مجلة كوتمبرورى ريفيو في شهر اكتوبر سنة ١٨٨٢ عن ما أنفقه اسماعيل باشا في الأعمال العامة وهذا الجدول هو في الوقت نفسه شهادة تدحض ماذهب إليه الآفاكون من أن اسماعيل كان يبذر الأموال في ملاذه الشخصية كما أنه دليل على ما قام به ذلك العاهل من الإصلاحات الكبرى. وقد مهد الكاتب للجدول بالجملة الآتية :

«... ومع أن حملة القراطيس طالما غرسوا في أذهان الناس أن اسماعيل باشا بدد ما حصل عليه من أوروبا من الأموال فليس ريب في أن ما آتمه من المشروعات العامة استنفد أثر من جميع الأموال التي حصل عليها من القروض. والجدول الآتي لا يتضمن الفوائد المستحقة على مقاولات الأعمال، بل يقتصر فقط على ما دفع فعلا في هذه الأعمال من النفقات.

نوع الأعمال	النفقات بالجنيه	ملاحظات
قناة السويس	٦٧٧٠٠٠٠	هذا بعد خصم قيمة الأسهم التي بيعت في عهد اسماعيل باشا.
الترع النيلية	١٢٦٠٠٠٠٠	وقد حفر من الترع ما طوله ٨٤٠٠ ميلا وبلغت نفقة الميل الواحد ١٥٠٠ جنيه.
الكبارى	٢١٥٠٠٠٠	أنشأ ٤٣٠ كوبرى تكلف كل منها ٥٠٠٠ جنيه.
مصانع السكر	٦١٠٠٠٠٠	أنشأ ٦٤ مصنعا وجلب لها الأدوات من الخارج.
ميناء الاسكندرية	٢٥٤٢٠٠٠	وقد أعطيت المقاوله لشركة جرينفيلد واليوت
أحواض السويس	١٤٠٠٠٠٠	» » » ديسو
وابور مياه الاسكندرية	٣٠٠٠٠٠٠	وقد وافقت شركة باريسية على الثمن
السكك الحديدية	١٣٣٦١٠٠٠	وقد مد خطوطا جديدة يبلغ طولها ٩١ ميلا
التلغرافات	٨٥٣٠٠٠	وقد مدمن الأسلاك التلغرافية ما طوله ٥٢٠٠ ميلا
المناثر	١٨٨٠٠٠	أنشأ نحو ١٥ من المناثر في البحرين الأبيض المتوسط والأحمر
جملة النفقات	٤٦٢٦٤٠٠٠	جنيه

دزرائيلي المالية لا ينبغي أن ينسبهم أن مصر في هذه المسألة بعينها كان من حقها أن تجزيها أوربا أطيب الجزاء وأنه قد غدر بها غدرا خاليا من

== ثم استرسل المستر مولهول فقال : « إن الترع النيلية التي حفر منها اسماعيل نحو ١١٢ ترعة ستظل تعتبر على الدوام أعظم إصلاح حدث في عهده ... فلقد تمكن الأهالي بفضل هذه الترع من تحويل ١٣٧٣٠٠٠ فدان من أرض بور إلى أرض زراعية أنتجت وقتذاك من المحصولات ما قيمته ١١٠٠٠٠٠٠ جنيه في حين أن إيجارها لم يتجاوز ١٤٠٠٠٠٠ جنيه سنويا . فزادت بهذا مساحة الأراضي الزراعية في مصر من ٤٠٥٢٠٠٠ فدان في سنة ١٨٦٢ وهي آخر سنوات حكم سعيد إلى ٥٤٢٥٠٠٠ فدان في سنة ١٨٧٩ وهي السنة التي عزل فيها اسماعيل باشا . وقد ذكر البارون فون مالورتي في كتابه المسمى « مصر والتدخل الأجنبي » والمستر بيرو في كتابه المسمى « الارتباك المصري » بأن واردات مصر في هذه المدة قد رادت من ١٩٩١٠٠٠ جنيه إلى ٥٤١٠٠٠٠ جنيه كما زادت الصادرات من ٤٤٥٤٠٠٠ جنيه إلى ١٣٨١٠٠٠٠ جنيه هذا فضلا عن أن عدد السكان زاد من ٤٨٣٣٠٠٠ إلى ٥٥١٨٠٠٠ نسمة . »

وبهذه المناسبة كتب المستر دي ليون قنصل أمريكا العام في مصر ص ٣٦٢ في كتابه « مملكة الخديو » ما نصه : « طالما قبل بطيش ورددت الأسن بطيش أيضاً شفوياً وكتابة أن الخديو اقترض نحو ٩٠ مليون جنيه لأشياء سوى بناء بضع قصور من الخشب والطين ! وهي دعوى ظالمة وطائشة تقدر ما هي كاذبة ... فالحقيقة التي لا سبيل إلى الشك فيها هي أن ما أدخل من التحسينات على المشروعات العامة التي ابتدأت وتمت في مصر في خلال الاثني عشر عاماً الماضية كانت فوق الوصف بل هي فوق أن تقارن بها مشروعات مملكة أخرى . »

وذكر المستر ستانلي لين بول في ص ١٧٩ من كتابه المسمى « مصر » في سنة ١٨٨٩ وهو من خيرة الكتاب الذين خبروا شؤون مصر ووقفوا على واقعها ما ملخصه : « لقد أدخلت على الإدارة عدة إصلاحات لم يكن يحلم بها أحد من حكام مصر السابقين » لأن النظام الإداري المؤسس في عهد محمد علي أدخل عليه الآن تعديل كبير وطراً عليه التحسين من عدة وجوه . كما أن نظام الجمارك على ما ذكره مالورتي « وضع على أساس جديد تحت إشراف نفر من خبراء الإوربيين . ثم إن مصلحة البريد التي كانت حتى الآن ملكاً لأفراد اشترتها الحكومة ووضعتها تحت إدارة موظف من موظفي إدارة عموم البريد في لندن . وفوق هذا وذاك أدخل تعديل على النظام القضائي . فقد أنشئت ==

الرحمة هذا فضلا عن أن حفر القناة قد أوقع الارتباك فيما بين الأباطورية
البريطانية ومصر من العلاقات لأنه حول هدف سيادة بريطانيا البحرية

== المحكمة المختلطة التي وضعت حداً لاعفاء الأجانب من طائلة العقاب في كثير من الأمور
الواقعة في دائرة القانون المدني . ثم استبدلت العقوبات المنصوص عليها في الشريعة
الاسلامية بعقوبات القانون النظامي الأوربي . ولا يفوتنا أن نذكر الاجراءات الشديدة
التي اتخذت في ذلك العهد لالغاء الرق والقضاء على تجارة الرقيق وهو إصلاح جدير بأن
نلهج بالثناء على من قاموا به نظراً لما كلف الخزانة المصرية من النفقات الهائلة مع أن
الحديث بالغائه الرق كان يأتي أمراً مخالفاً لتعاليم دينه وتقاليده شعبه ومصالح الجمهور
(كذا) أضف إلى كل ما تقدم مساعي الحكومة لترقية التعليم ، ففي عهد سعيد باشا
كما ذكره المستر دي ليون ، لم تزد ميزانية التعليم عن ٦٠٠٠ جنيه سنوياً ولكنها بلغت
في عهد اسماعيل باشا ٨٠٠٠٠ جنيه هذا عدا ما أضيف إليها فيما بعد من إيراد بعض
الأراضي التي اشترت ثانية من شركة قناة السويس بمبلغ عشرة ملايين فرنك لجعل
التعليم مجانياً وليعيش الطلبة على نفقات الحكومة من مأكل ومشرب وملبس . وفي
ذلك العهد أيضاً أسست لأول مرة لافي مصر فقط بل في الامبراطورية العثمانية
بأسرها ، مدارس البنات وأنشئت دار الآثار العربية في بولاق وأضيف إلى دار الكتب
عدد من أنفس الكتب حتى أصبحت من أشهر مكاتب العالم .

وإلى هذا التقدم أشار المستر دي ليون في كتابه السالف الذكر ص ١٦٠ بقوله وقد
كان التقدم في التعليم والمعارف في عهد اسماعيل باشا مما يستوقف الانظار إعجاباً وسبق
معدوداً كذلك في كل بلاد العالم .

بل إن القنصل الانجليزي العام في الاسكندرية ذكر في تقريره عن سنة ١٨٧٧
ص ٣٠ « أن مصر لم يكن بها في سنة ١٨٦٣ سوى ١٨٥ مدرسة ولكن لم يأت
عام سنة ١٨٧٥ حتى بلغ عدد تلك المدارس ٤٦٨٥ مدرسة تحتوي على ما لا يقل عن
١١١٨٠٣ من الطلبة عدا الكثير من المدارس العالية التابعة للحكومة وللجاس البلدية
كما قد أنشئت أيضاً مدارس خاصة للجنود لكل أورطة مدرسة . » وقد أكدت لجنة
التعليم العسكري في سنة ١٨٧٢ على ما ذكره القنصل البريطاني في القاهرة سنة ١٨٧٣
ص ٣١ « أنه لم يكن يوجد في الجيش المصري بأجمعه من الأميين سوى ٢٠ شخصاً فقط . »
وعلى أن الاعتراف بالواقع لم يفت جريدة التيمس نفسها وقد كانت ألد أعداء ==

ونقل محور اهتمامها الأمبراطورى فى الشرق الأدنى من الاستانة إلى

== اسماعيل باشا . فقد ذكرت فى عدد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٧٩ « أن مصر تقدمت تقدما مدهشا فى عهد اسماعيل باشا . . . فقد ضاعف موارد البلاد المادية إلى أقصى حد سمحت به معارفه وتجاربه . كما أن السكك الحديدية والموانى وقناة السويس هى من صنع يده زد على ذلك أنه سعى فى تحسين الزراعة بأن أدخل بذورا جديدة وطرقا حديثة وبذل كل جهد لأصلاح الإدارة من الوجهة القانونية والتنفيذية . »

اسماعيل باشا كما هو

دحض الأكاذيب القديمة

ليس أثلج لقلب المصرى من أن يرى كاتباً من كتاب الأجانب يتقدم لتبديد سحب الأكاذيب التى عقدت حول اسم أمير من الأمراء المصريين . وإذا كنا قد اقتبسنا عن كتاب حضرة الأستاذ عبدالرحمن الرافعى بك وخالفناه فيما ذهب إليه من الاستنتاجات عن اسماعيل وعهد اسماعيل فإنه يطيب لنا الآن أن نقبس - وأن نقبس طويلا - من كتاب المستر كراييتس المسمى « اسماعيل أو الخديو المظلوم » . وإنما تفعل ذلك لأننا نريد أن نضع أمام القارىء صورة لاسماعيل كما هو قبل « الرتوش » التى أضافها أصحاب الأهواء ممن كانوا لا يصدر عن الهوى والغرض .

وإلى القارىء الكلمة الهادئة المتواضعة التى افتتح بها الكتاب . قال المستر كراييتس : « لست أنا مؤلف هذا الكتاب وإن كان اسمى موجودا على صفحة عنوانه . فهو فى الواقع عبارة عن سلسلة وثائق . ولا فضل لى إلا فى جمع مادة المعلومات وتركها تلقى رسالتها على الملا » .

« وإنما فعلت ذلك لأن هذه الصفحات ليست إلا تحديا لخرافة تاريخية . إذ هى تأتى بتاتا الانضمام إلى الأنشودة التى رددتها جوقة المرتلين بقيادة ملز وكولفن وكرومر وترفض كل الرفض المواقفة على أن اسماعيل باشا أول خديو لمصر كان مبذرا وشهوانيا ولصا . وأحسب أن لا وزن لرأى الشخصى فى مسألة كهذه ولكن حتى الأسماء الكبيرة ليس يسعها التصدى للحقائق أو تحدى الأرقام المقتبسة عن المصادر الرسمية .

« ولقد مرت خمسون سنة منذ أن ذهب اسماعيل المظلوم إلى المنفى وأحسب أن قد حان الوقت لتحرى الحقيقة عن عهد اسماعيل من أدلة المعاصرين التى لا يرقى الشك ==

القاهرة . فنظر أكل هذه العوامل أصبح من العسير على مصر مهما

== إليها . لأن هذا الكتاب لو كان من نبات أفكارى بالمعنى الصحيح لما خرج عن كونه
يعبر عن رأى الشخصى ضد آراء زمرة كبيرة متسلسلة من عيون المؤرخين . ولكنه فى
شكله الحالى لا أثر لشخصيتى فيه .

« فالأدلة التى أسوقها هنا هى تحدى لما طالمما رددته ألسن مشاهير الكتاب من العبارات .
وإنى لأرفض بتاتا قبول توكيداتهم واستنتاجاتهم . بل بالعكس أورد مقتبسأتى الخاصة
بعهد اسماعيل من صلب الوثائق المعاصرة لنقض ما زعموه بحسن نية دون التعرض لجوهر
الموضوع . إذ الغاية التى أرمى إليها هى هدم خرافة تحولت مع الزمن إلى عقيدة . وإنى
إذ أفعل ذلك لا أفعله عن طريق المهاترة والهجو بل باقتباس النصوص وكتابة الحواشى
وعندى أن اظهر الحقيقة هو أفضل بكثير من التفاخر بالتأليف . »

وقد أشار المستر كرايتس إلى ما اعتمد عليه من المصادر لجمع المادة اللازمة لكتابه
فأشاد بذكر جلالة الملك فؤاد وسماحه له بلا شرط ولا قيد بالاتصال بقسم المحفوظات
الملكية بقصر عابدين حيث عثر على كافة المعلومات والوثائق التى لم تر النور من قبل .
ولما كان قنصل أمريكا الجنرال المستر ادوين دى ليون قد لعب دورا مهما فى حمل
أنصار ابراهيم باشا الهامى بن عباس باشا الأول عن التنازل عن مناوأة سعيد باشا
وافساح الطريق له ليتنوأ العرش بصفته صاحب الحق بعد عباس باشا فقد كان طبعيا
أن تكون دار المفوضية الأمريكية فى القاهرة حافلة بالوثائق الخاصة بعهد اسماعيل
باشا . على أن المستر كرايتس لم يشأ إحراج ولاية الأمور فى المفوضية المذكورة بل
لجأ إلى تعزيز أقواله وأدلته بما عثر عليه فى دار المفوضية المصرية بواشنطن التى كانت
قد تلقت الأذن من دار المحفوظات التابعة للحكومة الأمريكية بواشنطن بأن تأخذ
صورا شمسية لكافة الوثائق الخاصة بعهد اسماعيل باشا الموجودة تحت يد
الحكومة الأمريكية .

وقد أراد المستر كرايتس أن لا يطالع الناس بتاريخ اسماعيل قبل أن يضع
أمام أعينهم صورة لعهد سعيد باشا وهى فى مجملها مشابهة للصورة التى أوردناها نحن
فى هذا الكتاب . غير أنه روى حكاية طريفة عن كيفية حدوث التعارف بين محمد على
باشا الكبير وبين ماتيو دلسبس أول قنصل عام لفرنسا عين فى مصر بعد توقيع
معاهدة اميان فى سنة ١٨٠٢ لا نرى بأساً من ذكرها .

كان الجالس على عرشها من أوسع الأمراء حيلة وأشد هم دهاء ومهما

== فقد كان محمد علي وقتئذ ضابطاً صغيراً في الجيش التركي فدعى بين من دعاهم المسيو دلسبس ذات يوم إلى وليمة فاخرة في دار القنصلية الفرنسية . ثم تبين في اليوم التالي أن أحد المدعويين استل عدداً كبيراً من الملاحق والشوك الفضية التابعة للقنصلية . فقامت الشكوك حول محمد علي وبخاصة لأن سراويله الواسعة - على نحو ما كان يلبسه القوم - كانت بحيث تساعد على إخفاء الشيء المسروق . فأمر المسيو دلسبس بإجراء تحقيق من أجله . شرف فرنسا وشرف مدعوها . فأظهر التحقيق إدانة شخص آخر عدا محمد علي وهنا حذب القنصل العام الفرنسي على محمد علي وأظهر أمام الملاحق مبلغ احترامه له .

فهذا الحادث لعب دوراً مهماً في توثيق الصلات بين مصر وفرنسا . وطالما أشار إليه محمد علي بعد اعتلائه الأريكة أمام فرديناند دلسبس بن ماتيو دلسبس عند ماعين الأول قنصلاً عاماً في مصر مكان أبيه وحضر إلى بلاط محمد علي في سنة ١٨٣٢ ليهتبه مع بقية رجال السلك السياسي على ما أحرزه إبراهيم باشا من الانتصارات في سوريا . ثم عهد محمد علي إلى فرديناند بتدريب ابنه سعيد باشا على الفروسية وركوب الخيل وخلافه من الأعمال الرياضية التي أشرنا إليها عند الكتابة على عهد سعيد باشا .

ثم استطرد المؤلف فكتب عن عهد سعيد بما لا يخرج على ماسطرناه وأشار إلى مسألة لعبت دوراً مهماً في توثيق الصداقة بين مصر وفرنسا . وهي ولع سعيد باشا بكل « المكارونة » . ولما كان سعيد وهو في ريعان شبابه ممتلئ الجسم فقد حظر عليه أبوه أكل الأطعمة الدسمة وكان يكلفه بالأعمال الرياضية العنيفة مدة ساعتين ولا يسمح له بزيارة بيت أحد عدا بيت المسيو ماتيو دلسبس . ومن ثم نشأت الصداقة بين الأمير الشاب وبين فرديناند . وكثيراً ما كان سعيد ياجأ في غفلة أبيه إلى بيت القنصل ليلتهم مع فرديناند مالد وطاب من أطباق المكارونة الدسمة . ولما انتقل ماتيو إلى باريس وسافر سعيد إليها لآتمام دراسته ساقته قدماء ومعدته مرة أخرى إلى بيت دلسبس حيث توثقت بينه وبين فرديناند عرا الصداقة .

لهذا لم يكن عسيراً وهذه صداقتهما في الصغر أن يفاتح فرديناند سعيداً في أمر مشروع حفر القناة في الرحلة الصحراوية كما قدمنا وإن كان المؤلف قد ذكر أن مهارة فرديناند في الرماية وإعجاب حاشية سعيد بها هي التي أتاحت له فرصة الكلام في مشروع القناة . وسواء أكانت مهارة فرديناند في ركوب الخيل أم في الرماية فالنتيجة واحدة وهي ==

كانت حكومات الأرض ديمقراطية أن تحول بين الأباطورية

== أن ذلك السياسى الفرنسى استغل صداقة الشباب بينه وبين سعيد وحصل منه على امتياز بحفر القناة مع ما فى عقد الامتياز من الشروط الفادحة وبخاصة أعمال السخرة واستغلال الاراضى الماخضة للقناة بلا مقابل .

وقد ذكرنا لك المواد الأثنتى عشرة التى تضمنها عقد الامتياز الذى كان سعيد يكتر فيه من الاشارة إلى « صديقه دلسيس » وترديد عبارة « إلى صديق المخلص الكريم المحمد والرفيع المقام المسيو فرديناند دلسيس . »

ونقطة مهمة فى ذلك العقد لفت إليها المستر كرايتس الأنظار فى معرض كلامه عن المصاعب التى واجهت اسماعيل عند اعتلاء العرش . وكانت هذه النقطة موضع خلاف كبير بين شركة القناة من جهة واسماعيل باشا من جهة أخرى . وهى الخاصة بتقديم (أو تسخير) العمال المصريين فى أعمال حفر القناة . فان المسيو دلسيس تخاشى ذكر كلمة « التسخير » فى صلب العقد بما أوهم الملاّ بأن الحكومة المصرية هى التى كانت من تلقاء نفسها تسخر هؤلاء العمال . ولو ذكر دلسيس كلمة « التسخير » ، أو لو أنه ألمح إليها لآثار عاصفة شديدة من المعارضة فى انجلترا وأمريكا حيث كانت تدور رحا حملة عنيفة لمحاربة النخاسة وتجارة الرقيق . لأن المسألة ما كانت تفسر وقتئذ بغير معناها الحقيقى الوحيد وهو الرغبة فى إنشاء هذا الطريق المائى لخدمة الانسانية بعرق جبين عمال السخرة ١١

وقد مر بك أن سعيدا كان قد قرر إلغاء النخاسة وأنشأ فى السودان محطة لمحاربتها ولكن سماحه لفرديناند بتسخير أربعة أخماس العمال اللازمين لحفر القناة كان له معنى خاص . وليس يجوز فى الأذهان افتراض أن سعيدا لم يتوقع أن يؤدى سماحه هذا إلى إحياء عهد النخاسة تحت ستار آخر . وخلاصة القول أن اسماعيل عند ما تبوأ العرش وجد تجارة الرقيق رائجة وبحسبك أن وجود ٢٥٠٠٠ من عمال السخرة فى أعمال حفر القناة لصفة دائمة كان طبعاً يقتضى « توريد » ضعف هذا العدد على الأقل من « الأنفار » لسد العجز الطارئ . وملء الثغرات من آن إلى آخر .

واستطرد المستر كرايتس فقال ما خلاصته : ليس هذا كل ما واجه اسماعيل عند اعتلائه العرش . بل هناك حرب المكسيك التى تورط فيها سعيد قبيل وفاته بثمانية عشر يوماً فقط وكانت خليقة بأن تستنزف المال والرجال من مصر دون أن تفيد هذه شيئاً منها . وهذه الحرب التى لم تكن لمصر فيها ناقة ولا جمل تكفى للدلالة على مبلغ ما كان لفرنسا ==

البريطانية وبين وضع حامية في البرزخ لتقوم بواجب السهر على خط

== من قوة النفوذ في وادي النيل . ولسنا تتجنى على الحقيقة إذا قلنا إذن إن سياسة مصر الخارجية كانت تجرى تبعاً لأهواء باريس . فان مجرد توسيط نابليون لدلسبس ليتمس من سعيد بأن يمده بكتيبة من الجنود السودانية للاشتراك في تلك الحرب النائية ومبادرة سعيد باجابه الالتماس المذكور لينطق بعظم النفوذ الفرنسي وهو ما كان يتبرم به الشعب المصري وقتئذ ويعارض فيه أشد المعارضة كما شهد بذلك أحد القضاة الهولنديين بالمحاكم المختلطة المصرية في ص ٤٦ من الجزء الأول من كتابه «مصر وأوروبا» ، إذ قال ما نصه : « إن قناة السويس والسيطرة الفرنسية لها من الأمور التي يمجها المصريون فان مصر هي التي قامت بدفع كافة نفقات حفر القناة تقريباً . وليس يخفى أن القناة قد حفرت عبر الصحراء وهي لذلك منعزلة عن الدلتا . وقد أدى حفرها إلى تجريدنا من ذلك الممر التجاري الدولي الذي جعل من مصر ذلك الطريق الذي نعرفه والذي كان ينتظر أن يتعاضل شأنه مع الزمن . ولكن دلسيس خدع سعيداً كما خدع اسماعيل (كذا) فقد حملهما على الاعتقاد بأن القناة لن تكون فخراً لمصر بل وتكون أيضاً مشروعا رباحاً تفيد منه البلاد . » وإلى جانب هذا كله واجه اسماعيل عند اعتلاء العرش ما خلفه سعيد من الديون التي قلنا إنها تضيف عن أحد عشر مليون جنيه .

وإلى هذه الحقائق أشار البارون دي ما لورتى في ص ٧١ من كتابه : « مصر — الحكماء الوطنيون والتدخل الأجنبي » المطبوع في لندن سنة ١٨٨٢ بقوله : « لقد ترك سعيد لخلفه ديناً يبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه وإدارة متعففة وفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان هذا عدا امتياز قناة السويس الضار بمصر وما ينطوى عليه من تعهدات محزنة دسها ذلك الساحر الكبير دلسيس على سعيد وحمله على توقيعها دون قراءتها كما أكد لي ذلك أحد وزراء سعيد . والبلاد تعج بأكبر مظاهر التدمير من أقصاها إلى أقصاها . »

وقبل أن نعرض لكتاب المستر كرايتس القيم بالتفصيل لا نرى ندحة عن أن تنقل للقارئ بعض ما كتبه المستر « إلجود » تقريراً فيه وقد نشرته مجلة الاسفنكس بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . ووجه الأهمية في إثبات هذا التقرير ان المستر إلجود كان قد وضع كتاباً أسماه « المرور بمصر » تناول فيه اسماعيل بمر الاتقاد . ويظهر انه كان كمن سلفه من الكتاب الأفرنج ممن عرضوا لحكم اسماعيل بالنقد والتجريح . ولكن المستر إلجود ==

مواصلات حيوى كهذا يسهل الاعتداء عليه . على أن العجلة التى سار بها

== يختلف عن أولئك الكتاب بحسن نيته وبرجوعه الى الحق متى ظهرت له بوادره . فلقد عاش ليرى ما أورده المستر كرايتس فى كتابه فبادر إلى كتابة التقرير المشار إليه وقد ورد فيه :

« إن ميزة كل ما يكتبه المستر كرايتس أنه لا يترك فى نفس القارىء أى شك فى وجهة نظره ، ومن هنا ترى عبارته تمتاز بالسهولة والبساطة . ويرى المستر كرايتس أن العالم قد كون فكرة مشوشة عن اسماعيل ، ولما كان مؤمناً بعدالة القضية التى تولى الدفاع عنها فقد شحذ عزيمته وحمته لكتابة تاريخ هذا الأمير من جديد . وفى الحق إن اسماعيل لى حاجة الى محام تفيض روحه بالعطف بعد ما ظهر من قسوة التاريخ على ذكراه . وليس شك فى أن اسماعيل كان أحد الأمراء الأفاضل ولكنه كان إنساناً . ولكونه كان كذلك كان طبيعياً أن لا يكون كاملاً فى تصرفاته وأعماله . بيد أنه كان رجل المتناقضات الغريبة والأضداد الباهرة . وقد انحصر اهتمام الناس فى أخطاء اسماعيل بلا التفات الى حسنيتيه الرئيسيتين وهما إلغاء النخاسة فى مملكته وإنشاء المحاكم المختلطة . ومن الصعب أن يتصور الانسان الآن مبلغ الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى مصر قبل إنشاء هذه المحاكم

ثم استطرد الكاتبين لجود فقال :

« وكتاب المستر كرايتس لا يقرأ فقط لمجرد ما حواه من المزايا العديدة ولكنه يصلح أن يتخذ كصحح لما كتبه عن اسماعيل المؤلفون السابقون الذين عددهم المستر كرايتس فى ص ٣٣ من كتابه أمثال الماركيز زتلند ولورد كرومر والمستر كولفن ولورد ملنز والمستر لجود— كاتب هذا التقرير — والمسيو فريسينيه والكونت بنيديتى . وللكتاب الحاضر ميزة واحدة على الأقل لم تتوفر فيما سبقه من الكتب ألا وهى ان صاحبه قد تمتع بحق الاطلاع على دار المحفوظات فى قصر عابدين بلا شرط ولا قيد وبعد أن تزود منها بما شاء صدر الكتاب بمثابة تحد لما سمي « بحرافة تاريخية » رسخت فى الأذهان عن حكم اسماعيل . وقد خصص المؤلف ثلاثة فصول بأكملها لهدم الحرافة القائلة بأن اسماعيل كان مبذراً مستهترا ووفق بالعكس إلى إقامة الدليل على ان الخديو كان يبذل أقصى العناية فى الاحتفاظ بموارد البلاد . وقد ذكر لنا على صحة قوله مثلاً صالحاً لم يتنبه له أكثر الكتاب السابقين ألا وهو أن اسماعيل بعد أن باع لانجلترا أسهمه ==

اسماعيل بالبلاد في سبيل الأفلاس ووضعها تحت الحراسة المالية الأجنبية

== البالغ قدرها ١٧٧٠٠٠ كان لا يزال متمسكاً بحصة مصر في أرباح قناة السويس وقيمتها ١٥ ٪. وقد باع خلفه توفيق هذه الحصة المهمة بعد اعتلاء العرش بتسعة أشهر فقط . وهنا يقوم سؤال لمصلحة اسماعيل وهو لماذا باع توفيق أو مستشاروه هذه الحصة؟ ولم يشأ المؤلف أن يخوض في هذا البحث لأن كتابه خاص باسماعيل لا بالفوضى التي خيمت على البلاد في أثناء وجود المراقبة الثنائية .

وختم المقرظ أقواله بأن المستر كراييتس جعل غايته انقاذ سمعة اسماعيل من الوجهة المالية تاركاً التعرض للوجهات الأخرى إلى كتاب آخر يصدره في المستقبل .

أصحاب السمو الأمراء ومسؤوليتهم حيال التاريخ

وما دمتا بصدد ما وضعه كاتب أجنبي كالمستر كراييتس عن عهد اسماعيل فليس يسعنا إلا أن نلاحظ أن معظم الكتاب الأجانب — إذا افترضنا فيهم حسن النية — إنما يكتبون عن مصر وأمرائها بناء على ما تصل إليه أيديهم من المعلومات . ومن التجنى أن نطالبهم بالتحرى أو التدقيق في تلك المعلومات . وما لاريب فيه أنه لولا اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر أولاً وبتاريخ الأسرة المحمدية العلوية ثانياً وبتاريخ والده اسماعيل باشا ثالثاً لما استطاع كاتب كالمستر كراييتس أن يتوصل إلى جزء من الحقائق التي أذاعها في كتابه والتي تعد بمثابة محاولة صادقة لكتابة التاريخ من جديد .

وليس من العدل في شيء أن يطلب إلى جلالة الملك فؤاد وحده أن يعنى بتاريخ أسرته في حين أنه يوجد عدد من أصحاب السمو الأمراء ولديهم من الوقت ما يتسع للبحث والتقصي والتدقيق في تاريخ الأسرة بما ليس لدى جلالة الملك مثله . ففي رقبة أصحاب السمو الأمراء إذن بصفتهم مصريين دين كبير لا بالنسبة لتاريخ الأسرة وحدها بل بالنسبة لتاريخ مصر أيضاً ينبغي أدائه ويعد التقاعس عنه تقاعس في أداء أقدس الواجبات .

سمو الأمير محمد علي وعباس باشا الأول

وهذه الملاحظة تجرنا طبعاً إلى العودة إلى ساكن الجنان عباس باشا الأول . فلقد اطلع صاحب السمو الأمير محمد علي على ما ذكر هنا خاصاً بتاريخ عباس الأول فأبدى اهتماماً كبيراً لولا أنه جاء لسوء الحظ دون ما ينتظر من أمير مصري حباه الله تعالى بنعمتي الصحة والثروة الضخمة وظل أمداً طويلاً ولي عهد الدولة المصرية . ولنسنا ننكر نشاط سمو الأمير وعنايته بتدوين رحلاته العديدة في مشارق الأرض ومغاربها ==

تجاوزت عجلة زملائه الأمراء في البلاد المجاورة لشاطئ البحر المتوسط

== وما يضمنها من الملاحظات الدقيقة . بل ونذكر أنه عهد إلينا بترتيب وتبويب رحلته الأخيرة إلى الهند ، ولكن هذا النشاط المحمود كان ينتظر من سموه أن يبدى نشاطاً مثله إن لم تقل ضعفه فيما يختص بالجانب المصرى بصفته ابن المغفور له توفيق باشا الذى نشبت الثورة العرابية المشؤومة في أيامه وبصفته شقيق سمو الخديو السابق الذى نشبت الحرب العالمية السابقة في أثناء حكمه ثم بصفته أميراً كانت ولا تزال تربطه عدة روابط وثيقة بكثير من أبلطة أوربا وأسرها وكبار ساستها ، نقول نظراً لصفات سموه هذه كان المنتظر أن يعنى سموه بعض العناية بتدوين ما يعرفه من معلومات وثيقة عن تاريخ مصر وخاصة في عهد عباس الأول والمغفور له والده توفيق باشا بما يصح أن يكون قد أغفله كتاب الأفرنج أو تهمدوا تجاهله لحاجة في نفس يعقوب . وإذا كنا نعتد في كتابة تاريخ بلادنا على المؤرخين الأفرنج فليس يحق لنا أن نغلو في لومهم واتقادهم إذا رأيناهم انصرفوا عن جادة الصواب أو تجافوا عن موطن الصدق والنزاهة فيما يكتبون .

بين العرب وسمو الأمير عمر طوسون

وما كان أشد انتقاد سمو الأمير محمد على على ما أوردناه هنا عن عهد عباس الأول منقولا عن المصادر الأفرنجية . ومن ثم طلب إلينا حضرة سكرتيره بأمر سموه أن تتصل بسمو الأمير عمر طوسون ليثفضل بتزويدنا بما لديه من المعلومات عن عباس الأول . ولما كنا نحرص على الحصول على الحقائق التاريخية مهما كلفنا الأمر فقد بادرنّا بالكتابة إلى سمو الأمير عمر وأرقنا بكتابتنا الجزء الخاص بعهد عباس الأول ليطلع عليه سموه .

ولما كان سموه قد اعتاد أن يرد على كل من ياجأ إليه في البحث عن حقيقة تاريخية فقد تفضل حرمه الله وكلف حضرة باشمعاون الدائرة بأن يرد علينا بالخطاب التالى الذى رأينا من حق التاريخ أن نثبته بهذا فيره . قال حضرة الباشمعاون بعد الدياجة : —

اطلع حضرة صاحب السمو الأمير على خطابكم وعلى ما تكتبتموه عن عباس الأول في كتابكم الذى تؤلفونه الآن وقد كلفنى سموه أن أبلغكم أن مسألة تاريخ حياة عباس في الحكم ليست بالمسائل الهينة وأن ما كتب عنه من مؤرخى الأجانب ليس كله صحيحاً وليس كله خطأ والأمر يحتاج إلى مزيد بحث وتفرغ ورجوع إلى مصادر تاريخية وسمو الأمير ليس عنده من الوقت ما يساعده على بحث هذا الموضوع من جميع أطرافه وكما يجب أن يبحث . وغاية ما يمدن سموه أن يخبركم به وهو على ثقة ==

من الشرق إلى المغرب ومن فارس إلى استامبول. ويكاد يكون هذا



سمو الأمير عمر طوسون *

== ويقين هو أن الأمن في عهد عباس كان في غاية الاستتباب والمالية المصرية كانت موضوعاً على أسس وموازين ثابتة وهما ركنان عظيمان لا يستهان بهما في نظام الحكومات. فتوافرها لعباس من الأمور التي تعد مفخرة لحكومته. وقد روى لنا ذلك الجلة من الذين أدركوا حكمه وأكده لنا على وجه أخص المغفور له رياض باشا. ولقد ذكرتم في الكلمة التي كتبتموها عن هذا الوالي مانصه : —

« ولم يذهب إلى أوروبا في عهده من طلاب البعثات سوى ١٩ طالب » والحقيقة أنه أرسل إلى أوروبا أكثر مما ذكرتموه في هذه الكلمة التي نقلتموها عن غيركم بالطبع وأول من قالها المرحوم جورجى زيدان بك من كتاب العربية على ما نعلم وتبعه فيه أمين باشا سامى في كتابه التعليم في مصر، ص ١٤ ثم تبعهما كثيرون منهم عبد الرحمن بك الرافعى في كتابه « تاريخ الحركة القومية »

* هذه الصورة استعارها المغرب من سمو الأمير عمر طوسون .



السيد عبد الله نديم
خطيب الثورة العراقية

الأفلاس المقرون بالاحتلال
الاجنبى ظاهرة مألوفة من مظاهر
الاحتلال فى إبان دور الانتقال من
دولة إسلامية إلى مستوى أمة غربية
فى كل من مراكش والجزائر وتونس
ومصر وتركيا . وعلى أنه لولا
وجود القناة لأمكن بسبب المنافسات
الدولية تسوية الأزمات المالية فى القاهرة
بالشكل الذى سبق أن سويت به
الأزمة المالية فى الأستانة وذلك

== وحقيقة عدد من أرسلهم هذا الوالى للتعلم فى أوروبا بجهولة لدينا . ولكننا أثبتنا
منهم فى كتاب لنا تحت الطبع وسيظهر قريباً واحداً وأربعين . على أن المرحوم السيد
عبد الله نديم حصر عددهم فقال ثمانية وأربعين . الخ الخ

وفى الحق ليس يسعنا إلا تقديم الشكر لسمو الأمير عمر على ما يبذله من الوقت والجهود
فى تقصى وجهات النظر المصرية وما ينشره من المقالات والكتب بين آن وآخر خاصاً
بشؤون مصر مما يساعد على تنوير الأذهان ويثلج صدور الشعب لما يرونه من اهتمام أحد
أمرائهم بشؤون بلاده . وليس شك فى أن نموه أكثر الأمراء نشاطاً وأعظمهم يقظة
وأشدهم غيرة على مصر وكل ما يمس سمعة مصر وجداً لو اتخذ بقية أصحاب السمو
الأمراء منه قدوة صالحة يعملون على منوالها .

ملاحظات سمو الأمير محمد على

وقبل أن يصل رد سمو الأمير عمر طوسون تشرفنا بالمشول بين يدى سمو الأمير
محمد على فى قصره بالنبيل وتناول الحديث ما كتبناه فى صدد عباس الأول .
وقد بدأ سموه الحديث بملاحظة سديدة وهى أن كتاب الأفرنج بالغاً ما بلغ من ==



صورة فريدة لسمو الأمير محمد علي

== حسن نيتهم لن يراعوا الحقيقة أو يتوخوا الزهافة فيما يكتبونه عن مصر وأمرائها مصر . ومع إيماننا بهذه النظرية فقد لاحظنا لسموه أن أمرائها مصر مطالبون قبل غيرهم بتوفير الأذهان في كل ماله مساس بأرومتهم .

وهنا دخل سموه في الموضوع رأساً فقال ما خلاصته :

يعرف كل إنسان كم كان جدنا الكبير محمد علي باشا ميالا للفرنسيين وكم أفسح لآبناء جلدتهم في غرس بذور ثقافتهم في وادي النيل . وقد أخذ هذا الميل يزداد مع الزمن إلى أن نشبت الحرب السورية حيث تقدمت الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا إلى قرب الاسكندرية .

ولشد ما كانت خيبة آمال محمد علي عند ما رأى فرنسا تنضم إلى خصومه في عملية حرمان مصر من ثمرة تلك الفتوحات العظيمة وخاصة إخراجها من سوريا بصفقة المغبون .

وهذا المسلك الذي سلكته فرنسا حيال محمد علي هو الذي جعله يصرح في كل مناسبة بأنه لا يتوقع أي خير من الفرنسيين . وبديهي أن تصريحات كهذه يفوه بها ==

بوضع رقابة مالية من نوع ما . ولكن القناة هي التي شقت ووزارة غلادستون



المستر جون برايت الوزير البريطاني
الذي احتج على احتلال مصر واستقال
من وزارة المستر غلادستون



المستر غلادستون رئيس الوزارة
البريطانية ورئيس حزب الأحرار
والذي تم احتلال مصر في أيامه

== منشيء الأسرة المحمدية العلوية على مسمع من أولاده وأحفاده لم يكن ينتظر أن تمر دون أن تترك أثراً في نفوسهم . ومن هنا كانت الشعور الذي عرف عن عباس باشا أراه الفرنسيين .

ولكن هناك مسألة أخرى تركت أثراً غير حميد في نفس الأمراء ضد فرنسا . ففي موقعة نافارين عند ما تألبت أساطيل فرنسا وروسيا وإنجلترا على العمارة التركية المصرية وقبيل أن تفتح عليها النار ظلما وعدوانا انسحب الضباط البحريون الفرنسيون الملحقون بخدمة الأسطول المصري وتخلوا عن مناصبهم في أخرج الأوقات وأدقها بالنسبة لمصر . وعمل كهذا لم يكن غريبا أن أدى إلى اشمزاز عباس باشا من الفرنسيين لأن فرنسا كانت لها ندحة عن سلوك هذا المسلك . فلقد كان في وسعها قبل نشوب الحرب - التي كانت تعلم سلفا بوقوعها - أن توعد إلى أولئك الضباط بالاستقالة من خدمة الأسطول المصري ليتسنى للحكومة المصرية في الوقت المناسب أن تعين بدلا منهم . ولكن عمل فرنسا ومقابلتها مصروأمير مصر الذي كان شديد الميل إليها بهذا الأمر الواقع كان له أسوأ الأثر لا في نفس محمد علي وحده بل في نفس أولاده وأحفاده .

ولقد كان من أعظم مزايا محمد علي باشا ترفعه في أثناء القتال عن اغتصاب الأملاك ==



الأميرال نايبير

قائد العمارة البحرية البريطانية التي
حاربت ابراهيم باشا في سوريا
كما تراه في ص ١٥٧ من الكتاب

على نفسها وجعلت الاحتلال البريطاني أمراً
لامناص منه .

على أن فشل اسماعيل في الشؤون المالية
ليدعو إلى الحيرة حقاً . فان هذا الأمير بدأ
حياته المالية أحسن بداية وسار سيراً حميداً
في الشؤون الأخرى . ولما كان سعيد قد
مكنه من التدريب على معالجة الشؤون العامة
فانه سرعان ما برهن على أنه من خيرة رجال
الأعمال في إدارة الضياع الشاسعة التي خلفها

== الخوصية التابعة لرعايا الأعداء . ولم يك هذا شأنه مع الرعايا الأتراك فحسب أثناء
الحرب السورية بل أنه برغم خصومته لانبجلترا ترك طريق الهند مفتوحة أمام الانجليز
بما جعل شركة الهند الشرقية تضرب ميدالية خاصة باسمه وتقدمها له دليلاً على اعترافها
بموقفه المشرف . ومن هنا كان تقدير الانجليز له .

عباس باشا وبغضه للفرنسيين

فلما أن تبوأ عباس باشا الحكم كان كما قلنا تحت تأثير بغضه للفرنسيين بسبب موقفهم
حيال جده محمد علي في الحرب السورية وفي معركة نافارين . ونظراً لأن الحروب التي
أشعل محمد علي و ابراهيم ناراها في كافة أنحاء الأرض دون أن يفيد مصر شيئاً منها
كانت قد انهدكت عاتق البلاد فان عباس رأى أن يلجأ إلى الاقتصاد في بعض المصروفات
العامة . فشرع في الاستغناء عن كثير من المدرسين الفرنسيين وإحالتهم إلى المعاش . فلما
ارتبكت الحالة في المدارس بسبب الاستغناء عن أولئك المدرسين الفرنسيين رأى عباس
تعطيل هذه المدارس .

على أن ذلك لم يكن معناه أنه أغفل شأن التعليم بتاتاً . كلا فقد افتتح مدرسة «المفروزة»
وهي المدرسة التي طارت شهرتها في الآفاق . فقد نشأ فيها كافة الضباط العظام ممن
كانوا عدة اسماعيل باشا فيما أقدم عليه بعد من الفتوحات العظيمة في السودان وغيره .
وبما يشهد بحسن سياسة عباس وبعد نظره أنه رأى أن يريح بلاده من متاعب ==

له أبوه إبراهيم وفيما جمعه من ثروة خاصة هائلة . وفي الحق إنه نجح فيما

= الحروب التي ذاقت مرارتها في عهد جده وعمه ولذا لزم خطة السلام . وهي بلا ريب خطة حميدة كانت تبيجتها أن مالية البلاد ظلت سليمة .

شهادة عباس

نعم إن عباس لم يسمع الناس عنه كثيرا لعدم اتصاله بالآخرين وبغضه لهم ولكن سوف يعرف الناس حقيقته بعد نشر مذكرات نوبار باشا التي يباشر طبعا ابنه البكر . وما رواه نوبار باشا في هذه المذكرات عن عباس شهادته وحده على موظفيه . وقد ضرب مثلا على هذا بالحكاية الآتية :

فلقد وصل إلى أسماعه مرة أن الموظفين لم يتقاضوا مرتباتهم مدة ثلاثة أشهر كاملة فتولته الدهشة وقال كيف يكون هؤلاء المساكين محرومين وخزائني مكذبة بالأمم وال ؟ ثم أمر من فوره باخراج كل ما في خزائنه من الفضة وإرساله إلى دار الضرب بخانة لصكه نقودا وتوزيعه على هؤلاء الموظفين قائلا « إنهم أولى مني بذلك الكنز . » ولقد كانت لعباس الأول نظريته فيما يختص بأملاك التاج . فعند ما أرسل جلالة السلطان دولة فؤاد باشا الصدر الأعظم إلى مصر لزالة ما كان من سوء التفاهم بين عباس وبقية الأمراء بسبب تقسيم تركه محمد على كان من رأى عباس أن يبقى كل ما خلفه محمد على ملكا للتاج يتصرف فيه الجالس على العرش لمصلحة الدولة وليس يحق لأمير من الأمراء أن يطمع إلى شيء منه . أو بعبارة أخرى إنه كان يرى أن محمدا عليا لم يؤسس ذلك الملك العظيم ليكون تراثا خاصا يتقاسمه الأبناء والأحفاد كلا بل ليقى ملكا للدولة ويكون لرئيس الدولة وحده أى الجالس على العرش حق التصرف فيه على أن ينتقل كاملا إلى حيازة من يخلفه على العرش وهم جرا . ولكن كان الأمراء الآخرون على غير هذا الرأي وتوسط جلالة السلطان في الأمر وقضى بينهم بتقسيم التركة .

عباس باشا وعنايته بجواري البلاط

على أن أهم ما عرف عن عباس أنه أول من عني بمستقبل جواري البلاط . فإن أمراء الأسرة كثيرا ما استولدوا جوارهم أمراء تركوا لهم ثروة ضخمة لم تفد الأمهات منها شيئا لا لسبب إلا لكونهن لسن أميرات . وقد تطعن إحدى هؤلاء الجواري في السن دون أن تجد ما يمسك رفقها اللهم إلا ما يتصدق عليها به ابنها الذي قد يكون من الأمراء ذوى الثروة العريضة التي تلقاها عن أبيه .

نجاح بفضل حسن إدارته في مضاعفة مساحة ضياعه عدة مرات . فبعد

= لذا قرر عباس تخصيص معاش مناسب لهؤلاء الجوارى الطاعنات في السن وهي حسنة طالما ذكرها له بعض الأمراء فيما بعد ممن سدت في وجوههم الأبواب فلم يجدوا ما يلجأون إليه إلا معاش والداتهم .

ولم ينس اسماعيل باشا أن يشيد بهذه الحسنة لعباس وأن يذكرها له فيما بعد بالخير . وإلى هنا انتهت ملاحظات سموه . وكما كنا نتمنى أن يكرس سمو الأمير جزءا من وقته لوضع تاريخ مسهب عن عهد عباس الأول دون أن يترك الناس متلهفين على ما مستحدثهم به مذكرات نوبار باشا . ولكن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

عود إلى حديث اسماعيل قبل اعتلاء العرش

جبه للاقتصاد

ونعود الآن بعد هذا الاستطراد الطويل إلى حديث اسماعيل باشا لنبين كيف كان قبل اعتلاء العرش الرجل المشار اليه في الشؤون الاقتصادية والعناية بموارد البلاد حتى لقب بأمر الفلاحين .

فلقد حدثنا المستر كرايتس نقلا عن البارون دي مالورقي ، أن اسماعيل رأى طيلة السنوات التسع التي قضاها سعيد على العرش أن الحكمة تقضى بأن يظل خلف الستار لا يشغل باله إلا بالشؤون الزراعية وإدارة أملاكه الشاسعة .

وهذا ما يؤيده المستر ادوين دي ليون القنصل الأمريكي في اسكندرية من ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٥٣ إلى ٤ مارس سنة ١٨٦١ إذ قال :

« إن اسماعيل كان يرقب الفرصة المناسبة للظهور غير حافل الا بالشؤون الزراعية تاركا الاعلان عن نفسه خوفا من إثارة حسد سعيد باشا مهما فقط بتوسيع أملاكه باعتبارها إحدى تساليه إلى أن أصبح بحق أكبر مزارع في مصر بأسرها . »

وإلى هذه الميزة أشار الكاتبان الفرنسيان « اميدى ساكرى ولويس اوترييون » في كتابهما المسمى « مصر والحديو اسماعيل باشا » المطبوع في باريس سنة ١٨٦٥ ص ١١ اذ قالوا مانصه :

« لقد أصبح اسماعيل بفضل سخاء محمد علي من أغنى المزارعين إن لم نقل أغناهم في مصر . فلقد عرف جيد المعرفة كيف يدير أملاكه بفضل ما حبه به الطبيعة من غريزة =

ان كانت ٦٠٠٠٠ فدان زارها اسماعيل إلى نحو مليون فدان . هذا

== الذوق العام العمل وروح الاقتصاد وهما الخلتان اللتان تقوم عليهما ثروة الرجل الذي يدير المزارع الشاسعة ، وقد استخدم إيراده بطريقة منظمة في الأكثر من ابتياع الأراضي الجديدة إلى أن زادت ثروته ثلاثة أضعاف . ولقد بلغ من جودة محصول القمح والسكر في أراضيه أن ثمنهما في السوق كان أعلى مما دفع لهذين الصنفين وكثيرا ما تسابق المشترون لا بتياع أقطانه لأنه كان كثير العناية بحرث أطيانته لتأتي بأطيب المحصول ومن ثم تعود عليه بأرباح الأسعار . وكان كثيرا ما يشار إليه باعتباره المثل الأعلى لطبقة المزارعين في مصر . ولكنه مع كل هذا كان بعيدا عن شؤون الدولة .

بل إن بعض الكتاب الانجليز أنفسهم أيدوا هذه الشهادة . وإليك ما قاله المستر ماكو ان الصحن البريطاني إذ قال :

« إن اسماعيل بفضل ما أوتي من المهمة التي لا تعرف الملل وثاقب الرأي والمقدرة الإدارية قد حصر اهتمامه في إدارة مزارعه الخاصة إلى أن تمكن من أن يجعل نفسه أغنى مزارع في مصر . »

وقد اشترك المستر مويرلي بل مراسل التيمس في القاهرة وعدو اسماعيل باشا الألد في الأشادة بهذه الحقيقة إذ قال في كتابه « الخديون والباشاوات بقلم شخص يعرفهم » المطبوع في لندن سنة ١٨٨٤ ص ١١ ما نصه :

« قبل اعتلائه الأريكة كان اسماعيل معروفا كمزارع شديد الاقتصاد حتى بلغ من حرصه ان لا ينفق القرش إلا في محله . »

فلا غرو بعد كل هذه البيانات أن نصدق دي مالورتي عند ما أكد في كتابه « مصر - حكماها الوطنيون والتدخل الأجنبي » ص ٧١ « أن إيراد اسماعيل عند اعتلائه الأريكة بلغ ١٦٠٠٠٠ جنيه سنويا وأن أراضيه الشاسعة كانت خالية من الديون أو الرهن وهذا ما أكدته لي أحد وزرائه . »

كل هذا عرف عن اسماعيل في الوقت الذي كان فيه أخوه الأمير أحمد وليا للعهد .

ديون اسماعيل

لقد رأيت فيما مر بك اجماعا من كافة الكتاب الأجانب على أن اسماعيل هو الذي أتى من ضروب الإصلاح ما جعل مصر تنهض فخرا على شعوب الشرق بما حوته من بذور المدنية بما يساعدها على أن تخطو خطوات واسعة في سبيل الترقى كادت ==

فضلا عن أنه ملأها بالمصانع ووصل أجزاءها بشبكة من السكك

== معها أن تلحق بل لحقت فعلا بكثير من شعوب أوروبا وبزتها وسبقها .
وإذا كان هناك إجماع على هذه النقطة المهمة لم يصادف لحسن الحظ حتى هذه اللحظة شذوذاً أو خروجاً فهناك أيضاً إجماع ثان على نقطة مهمة أخرى كان إلى الآن قائماً على وهم محض وأصبح لحسن الحظ لا يحتمل التحليل أو النقد البريء .
فاذا كان الكتاب الأفرنج أجمعوا على أن اسماعيل أبو الإصلاحات الحديثة التي شهدتها مصر فانهم أجمعوا كذلك على أن القروض التي عقدها هي سبب ما أصيبت به البلاد فيما بعد من المتاعب التي أدت إلى المراقبة الثنائية ثم التدخل الأجنبي الذي انتهى بالاحتلال البريطاني .

ولكن الأجماع الأخير قد بدأ لحسن الحظ يتلاشى ويحل محله تقدير لاسماعيل وإنصاف لتصرفاته فيما يختص بمشكلة القروض . ويرجع السبب في هذا التحول إلى ما بدأ يظهر من الحقائق والوثائق الخاصة باسماعيل مما أشرنا إليه في صدر هذا الفصل ويرجع معظم الفضل فيه إلى يقظة وعناية جلالة الملك فؤاد .

ونقول الآن مع المستر كرايتس إن الوقت قد حان للبحث في مسألة القروض وهل كان اسماعيل كما وصفه لورد ملنر في سنة ١٨٩٢ في كتابه «إنجلترا في مصر» وهو الكتاب الذي كان بمثابة الأساس الذي قام عليه هيكل الاتهام ضد الخديو المظلوم ؟ قال لورد ملنر :
« يعتبر اسماعيل أصدق مثال للتبذير والاسراف يمكن أن يعثر عليه الإنسان سواء في التاريخ أم في الأقاليم . وليس يوجد من يشبه هذا المبذر المستهتر في التمتع بما كان يتمتع به اسماعيل من سيطرة تامة على موارد هائلة . فلقد تبوأ الأريكة في الوقت الذي ظن الناس فيه أن لحدود لثروة مصر الكامنة . ولقد كانت البلاد ملكاً له يتصرف فيها كيفما أراد . وكان العالم بأجمعه على قدم الاستعداد ليقدم له ما شاء من الأموال لتحسين هذه الأراضي وتنميتها . وفي الوقت نفسه كان اسماعيل مجموعة صفات منها الملبغ ومنها القبيح بما لا بد منه لجعل المتصف بها مثلاً أعلى للمبذر . فهو وإن كان ميالاً للترف شهوانياً كثير الاطماع محبا للمظاهر لا مبدءاً له إلا أنه كان إلى جانب ذلك تجيش نفسه بالمشروعات الباهرة التي يراد بها تحسين البلاد تحسناً مادياً كبيراً
ففضلاً عما أضاعه من الملايين تلو الملايين في الولائم والحفلات والملاذ وبناء لقصور العديدة التي ضمت إلى عفونة البناء قبح الشكل ، فانه بذر كذلك عدة ملايين ==



لورد ملنر

واضع كتاب « إنجلترا في مصر »

الحديدية . وكان لشدة عطفه على
الفلاح يلقب « بأمير الفلاحين »
وقد أظهر عند اعتقاله الأريكة ميلا
إلى مراعاة الاقتصاد بأن فصل بين
الآيرادات الخاصة والآيرادات
العامة واختص نفسه هو وحاشيته
بمبلغ ٧٠٠٠٠٠ جنيه في العام . وهذا
المبلغ وإن كان ضعف مخصصات
قصر الملكة فيكتوريا إلا أنه كان
على كل حال أقل بكثير من مخصصات

== أخرى في مشروع هائل للأصلاح الزراعى . وقد بدى المشروع دون الاحتاطة بأساسه
وأنفق في سبيله ثمن فادح . .

واسترسل لورد ملنر فقال :

« لقد بذلت محاولات عديدة في إحصاء المبلغ الذى صرفه اسماعيل في خير البلاد
من القروض التى عقدها في زمنه . ولكن نظراً للفوضى التى عرفت بها الحسابات في
السنوات التى سلفت على سنة ١٨٧٦ قان أمثال هذه المحاولات تعتبر عقيمة لا يرجى
لها سوى الفشل . ولكن هناك أمر مقرر ثابت وهو أن ذلك المبلغ كان ضئيلاً جداً .
وإنى ليخامرني الشك فيما إذا كان المبلغ الذى خصه اسماعيل من ضمن قروضه
لأعمال الخير الدائمة — بغض النظر دائماً عن قناة السويس — تجاوز ١٠ ٪ من مجموع
ما عقده من الديون . »

وقد علق المستر كرايتس على هذه التهم بقوله : « إن القارىء يخرج من كتاب
لورد ملنر بهذه النتيجة وهى :

« إن من مجموع الديون البالغ قدرها ٨٩ مليون جنيه التى كانت مصر مدينة بها في
سنة ١٨٧٩ قد بدد اسماعيل نحو ٦٠٧٣٢٢٠٠ وقد وصل المستر كرايتس إلى هذه النتيجة
كما يأتى :

فقد طرح من مبلغ ٨٩ مليون جنيه

القصر في عهد سعيد . على أن اسماعيل وجه في الوقت نفسه عنايته لإنجاز

== أولا : الدين الذي خلفه سعيد باشا كما أحصاه لورد ملنر وقدره ٣٢٩٢٧٠٠
ثانياً : نفقات قناة السويس كما قدرها تقرير لجنة كيف وقدرها ١٦٠٧٥٠٠٠
ثالثاً : نسبة ١٠٪ التي قال لورد ملنر إن اسماعيل أنفقها في أعمال الخير وقدرها
٨٩٠٠٠٠٠ جنيه

فيكون مجموع ما بدده اسماعيل ٦٠٧٣٢٢٠٠
أو بعبارة أخرى يرى لورد ملنر أن حكم اسماعيل باشا (الذي ظل ١٣ سنة)
كلف خزانة البلاد نحو ٤٦٧١٧٠٨ جنيه سنوياً .
ولكن لورد كرومر الذي ظهر كتابه « مصر الحديثة » بعد كتاب لورد ملنر بنحو
١٦ سنة قد زاد دين مصر من ٨٩ مليون جنيه إلى ٩١ مليون جنيه وقال إن حكم
اسماعيل كلف الخزانة المصرية نحو ٧ مليون جنيه سنوياً لمدة ١٣ سنة . واستنتج
كرومر كما استنتج ملنر أن اسماعيل فيما عدا ١٦ مليون جنيه وهي نفقات القناة قد بدد
كافة ما عقده من الديون .

وما ينعلم بأن القوم يصدرون عن رأى واحد أن المركز زلتند الذي ظهر كتابه
بعد أربع وعشرين سنة من كتاب لورد كرومر قد قبل الأرقام التي ذكرها كرومر
على علاتها كأنها عقيدة منزلة ولم يكلف نفسه عناء تمحيصها ولا حاول أن يوفق بين
التناقض الذي ذكره عن ميل اسماعيل إلى الاقتصاد قبل اعتلائه الأريكة أولاً ثم
ميله فيما بعد إلى الإسراف والتبذير !

هل كان اسماعيل مبذراً ؟

صورة من نشاطه وجده

ولقد تسامل المستر كراييتس فقال كيف يعقل أن ذلك الأمير الذي اشتهر وهو
ولى عهد الدولة بحب الاقتصاد ينقلب بين عشية وضحاها والياً مسرفاً مستهتراً ؟ وكيف
أن هذا الرجل الذي كان ينفق إرادته في ابتاع الأراضي ومضاعفة ثروته يعتمد إلى
عقد القروض الأجنبية لا نفاقها في اللهو والترف . فهل كان التحول فجائياً ؟

ولقد أصاب المستر كراييتس المحز إذ قال : « إن من يقرأ كتاب لورد ملنر يخرج
منه بأن اسماعيل كان رجلاً شهوانياً بدد الملايين في إقامة الولائم والحفلات وإشباع
شهواته . وأن الصورة التي يتصورها القارىء عن اسماعيل بعد قراءة تلك الكتب هي ==

أعمال الترقى والتقدم . فمثلا المواصلات والزراعة والتجارة والصناعة

== أنه كان رجلا يقضى الليل في أعمال الطيش فاذا طلع النهار احتواه فراشه حتى اذا ما حل العصر قام لينتبا من جديد لتسليات المساء ودعارة الليل .

ولكن هل كانت هذه صفة اسماعيل حقا ؟ كلا بل كان في الواقع كما وصفه المستر ادوين دى ليون القنصل الأمريكى الذى كان شديد الاتصال به فقد قال :

« إن الخديو رجل شديد الميل للعمل . ولما كان من ألزم لوازم الحكم الا وتقرطلى أن تكون الرأس المسيطرة ملبة بكل شئ ومهيمنة على كل شئ حتى أنه التفاصيل فان اسماعيل مضطر إلى الاستيقاظ فى ساعة مبكرة وقضاء النهار كله إلى ساعة متأخرة من الليل مزاولا العمل الذى يحبه ألا وهو الهيمنة على إدارة دولاب أعمال الدولة بأسرها . وقد بدأت هذه المشاغل تؤثر فى صحته كما تبين من مظهره الخارجى فى الشتاء القارط . ومع أن الأفراد العاديين فى وسعهم التمتع بالراحة وبالأجازة فان أصحاب التيجان محرومون منها وبخاصة فى مثل هذه الظروف الحرجة التى تحيط بالخديو . »

ويلاحظ أن المستر دى ليون كتب هذا فى يولية سنة ١٨٧٧ أى فى نفس الوقت الذى كان لورد ملنز ولورد كرومر وغيرهما يحاولون فيه إظهار اسماعيل بمظهر الحاكم الخليع الذى يقضى ليله إلى جوانب الغيد الحسان ويقضى النهار فى الفراش . »

ولم يكن للمستردى ليون وحده الذى قال عن اسماعيل ما قال بل إن المستر ماكوان أيضاً — وكانت صلته بالخديو وثيقة — كتب بدوره هذه الجملة الصغيرة الكبيرة إذ قال « إن الدولة هى الخديو ، ثم راح يفصل ما أراده بعد أن ذكر أن المجالس والوزراء ليسوا إلا مجرد آلة للخديو فقال :

« كان اسماعيل محيطاً بما جل أو دق من الشؤون العامة . فن المباحثة لعقد معاهدة أو لعقد قرض أو المصادقة على عقد إلى ابتياع الفحم أو الآلات .. لا بل كان ملماً حتى بما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه ولا يمكن أن يتم شئ قبل أن تقع عليه عينه ... »

« وبالاختصار فان سموه ليس مليكاً فقط بل هو الحاكم الفعلى وتهيمن يده القوية على سائر البلاد من الاسكندرية إلى وادى حلفا ثم ما وراء ذلك مما ترك لغوردون باشا أن يتوب عنه فى حكمه . »

فاسماعيل الذى كان فى نظر ملنز رجلاً محباً للترف ولعاً بالمظاهر كان فى نظر المستر ماكوان على عكس ذلك على خط مستقيم . فلقد كان يعيش عيشة البساطة بالنسبة لمعيشة أمير ==

والتعليم والقضاء كل هذه المرافق قد شملها بعنايته ونظمها تنظيمًا عصريًا

== بلغ لإيراده السنوي كما بلغ لإيراد اسماعيل عند اعتلاء العرش ١٦٠٠٠٠ جنيه هذا عدا مخصصات السراي .

وإليك ما ذكره المستر ما كوان في كتابه « مصر كما هي » ، قال :

« إن الوزارات المختلفة موزعة في نواح تبعد نحو ميل عن قصر عابدين الذي يقطنه الخديو . . . وقصر عابدين هو قصر متواضع من الوجهة المعمارية وإن كان فسيح الأرجاء . ذلك أن جناحاً منه قد خصص لمكاتب الحكومة ولغرف الاستقبال التي يقيم فيها سموه الولاة والحفلات من فترة لأخرى . وفي هذا القصر أيضاً يوجد الجناح الصغير الذي يضم الغرف التي يزاول فيها سموه الأعمال ويستقبل فيها ضيوفه على مقربة من سكرتيره الخاص الموجود في الغرفة الملاصقة ومن اثنين فراشين واقفين على رأس الدرج . وغرفة اسماعيل لا يمكن أن يقال إنها تنطوي على الأبهة لا من حيث الأثاث ولا من حيث النقش فهناك سجادة من صنع إيران عليها ديوان مكسو بالدمقس وبضعة كراس بالكسوة نفسها هذا إلى نافذة عليها ستار من القماش نفسه ومكتب صغير مذهب يجلس وراءه الأمير الخ الخ . »

وليس يمكن اتهام المستر ما كوان بالتحيز أو يطلب الخطوة لدى اسماعيل عند كتابة هذه العبارة . لأنه كتبها في الوقت الذي بدأ فيه نجم الخديو المظلوم في الأفول . ونحسب أن اسماعيل وهو الذي كان إيراده الخاص كأمير يبلغ ١٦٠٠٠٠ جنيه سنوياً ما كان ليته أحد بالتبذير أو بالميل إلى الترف والمظاهر الكاذبة لو أنه غير من شكل قصر عابدين فغلا عند اعتلائه العرش ليصبح أكثر تناسلاً مع مظاهر ذلك الأمير الثرى . ولكن المستر ما كوان لا يكتفى بوصف ذلك القصر المتواضع بل راح يحدثنا في ص ٩١ من كتابه عن برنامج اسماعيل اليومي . وإليك ما قاله :

« وهنا (أى في حجرته المتواضعة) يتبوأ سموه مقعده في الساعة الثامنة من صباح كل يوم فيستقبل قبل كل شيء أولاده وأحدهم رئيس المجلس الخاص والثاني وزير المالية والثالث وزير الحرية والرابع وزير الأشغال ثم يستقبل من عداهم من الوزراء أو كبار الموظفين ممن تقضى أعمالهم باستشارة مولاهم أو ممن جاءوا للبثول بين يديه بناء على موعد سابق . . حتى إذا ما فرغ من هؤلاء ظل إلى منتصف النهار في استقبال القناصل العموميين أو من عداهم من الأجانب ممن يكونون قد حضروا بواسطة القناصل ==

ووسع دائرتها . لا بل قد أدرك حاجة البلاد إلى قسط من النمو الديمقراطي .

== أو بدونهم مدفوعين بالرغبة في رؤية ذلك الأمير العظيم إما أشباة الشهوة حب الاستطلاع في نفس السائح وأما لتقديم شروط ملائمة لعقد صفقة تجارية . وعند الظهر — حيث ينطلق مدفع القلعة إيدانا بحلوله — ينسحب سموه لتناول طعام الإفطار وفيما عدا القليل النادر حيث يذهب في إحدى المركبات المتواضعة للزهوة عصرأ مدة ساعتين في شارع شبرا أو شارع العباسية — يستأنف سموه مقعده ويبدأ من جديد سلسلة المقابلات ويبحث في أثناء ذلك في مختلف الشؤون إلى أن تدق الساعة السابعة مساءً فينقطع عن العمل مدة ساعة لتناول الطعام . فإذا كان عمل اليوم قد انتهى لجأ سموه إلى شرفة القصر لقضاء ساعتين أو ثلاث في السمر في هواء القاهرة العليل مع بعض الوزراء ممن تكون لهم الخطوة في الدخول على سموه في أى وقت ويلجأ بعد ذلك إلى مخدع نومه حوالى الساعة الحادية عشرة . أما إذا لم يكن قد أنجز أعمال اليوم فإن سموه يستأنف العمل في مكتبه بعد الطعام ويظل يواصله إلى منتصف الليل أو أحيانا إلى ما بعد ذلك .

ثم استطرد الكاتب فقال :

« وفي خلال هذه الاثنتى عشرة أو الأربعة عشرة ساعة المخصصة للعمل الجدى الذى يزاوله الخديو ما لا يقل عن ثلثائة يوم في السنة لا يمكن بغير إستشارة سموه أن يسمح بالبت في أصغر التفاصيل وأقلها شأنًا مما يرتفع قليلا عن مجرد الأعمال التى تتم من تلقاء نفسها . فالخديو هو فى الواقع كل شئ . وهو يحيط علماً بكل شئ . ويقوم بنفسه بأعداد كل شئ . »

فهل الأمير الذى يقضى معظم وقته فى مراجعة شؤون الدولة صغيرها وكبيرها يمكن أن يقال أنه أمير شهبانى مبذر لا هم له إلا مجالسة الغانيات ؟ أليس الأصح أن هذا الرجل الذى اشتهر بحب الاقتصاد وهى ولى عهد الدولة ظلت تلازمه هذه الصفات عند اعتلائه العرش ؟

وليس يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أن خصوم اسماعيل — ومنهم ملتر وكرومر — قد قدروا ما أنفقه اسماعيل على أعمال الإصلاح بنحو ١٠ فى المائة من مجموع الديون عدا طبعا مبلغ الـ ١٦ مليون جنيه التى ذهبت فى أعمال قناة السويس ولكنهم تناسوا مبالغ طائلة أخرى لم تذكرها لجان التحقيق أنفقت فى وجه الخير دون أن تنتج غلة أو أنها أنتجت فعلا غلتها ولكن فى غير عهد اسماعيل . فمن النوع الأول ما أنفقه ذلك الخديو المظلوم مثلا فى قطع دابر النخاسة ومطاردتها أو أكارها . وبديهي أن الحاكم الساهر على ==

هذا بينما أن الأراضي الزراعية قد ازدادت مساحتها في عهده كما أنه وطلد

== خير رعيته لا يكتفى برعاية مصالحها المادية بل لابد أن يعنى أيضا بشؤونها الأدبية والأخلاقية . فإذا كان اسماعيل قد بذل ما بذل في محاربة ذلك الوباء الأخلاقي دون أن يسجل الخصوم تلك المبالغ لرصيده فإن ذلك لن يضير الخديو شيئاً فلقد عمل ماعمل لخير البلاد وللأجيال المقبلة دون أن ينتظر جزاء ولا شكورا على أعماله .

أما النوع الثانى فهناك ما سردنا عليك طرفاً منه من أعمال العمران والأصلاح كبناء الجسور وشق الترع وغيره . فلقد كلفت هذه الإصلاحات الخزائن ما كلفت بما عده الخصوم إسرافاً وتبذيراً لا لشيء إلا لأنها لم توتأ كلها في أيام اسماعيل . وليس يخفى أن تلك الأعمال الإصلاحية كانت لها نتيجتها في تحسين الزراعة وتصحيح الأراضي فيما بعد ولكن هل نسب الخصوم ذلك إلى اسماعيل كلاً بل زعموه من نعم غيره ؟

واليك نبذة من تقرير المستر بيردسلى القنصل الأمريكى العام بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٣ أى بعد جلوس اسماعيل على العرش بعشر سنوات . ولعل من الأوفق أن نذكر أن القنصل المذكور كتب تقريره دون أن يتوقع أن تراه الشمس يوماً ما . وقد كان الرجل صريحاً لم يألف بعد تقاليد البروتوكول لأنه كان حديث عهد بوظيفته . وقد عين في منصبه لأنه كان ممن ساهم في تقديم المساعدة في أثناء الانتخابات الأمريكية لرأس الجمهورية . ولعل القارئ يشاطرنا الرأي بأن ما يقوله مثل هذا القنصل هو أقرب شيء إلى الحقيقة البريئة الغير مشوبة بالأغراض والغايات . كيف لا وهو إنما يمثل دولة لم تكن لها في مصر مطامع استعمارية أو سياسية ؟ فانظر ماذا كتب :

« لقد ارتقى اسماعيل العرش في يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ وقد جاء إلى أداء واجباته بقدرة عجيبة على معرفة الناس وأحوال العالم ومقدرة إدارية باهرة ندر أن يوجد مثلها بين الأمراء الشرقيين . فنزد ارتقائه العرش قد وجه عنايته بعزيمة لا تعرف الكلل لتحسين شؤون مصر الداخلية . »

فكيف بربك يمكن التوفيق بين هذا الرجل الذى لا ينفك عن العمل ساعة واحدة وبين الصورة التى صوره بها حاسدوه وخصومه ؟ لقد زعموا زوراً وبهتاناً أنه كان من عشاق الغانيات يقضى ليلته بجوارهن . ومعلوم أن الذاكرة هى أول ما يتأثر في الجسم بالافراط في الشهوات . فان صح ما زعموا فكيف بربك كانت لاسماعيل تلك الذاكرة المدهشة التى أشاد بها المستر موبرىلى بل مراسل التيمس وعدو الخديو الآلد ؟ أنظر ماذا قاله في هذا الصدد :

دعائم استقلال البلاد عن تركيا . ولكن هذه الاصلاحات العظيمة ذهبت

== وكانت ذاكرة اسماعيل عجبية حقاً ، وحدث مرة أننى اختلفت معه على نص من النصوص الواردة فى المفاوضات الأساسية الخاصة بقناة السويس فما هو إلا أن بادرنى بترديد ما لا يقل عن عشرين سطر قد وردت فى إحدى الوثائق الغير مهمة التى لا بد أن تكون قد وقعت عليها عيناه منذ عشرة أعوام على الأقل . فدونت أقواله ثم رجعت بعد زمن إلى الوثائق وكنت دهشتى عند ما رأيتها بنصها وفصها كما ذكرها اسماعيل !
اعتراف الأجانب بفضل اسماعيل

وقبل أن ننقل بك إلى ناحية أخرى من نواحي اسماعيل المتعددة نرى أنفسنا مضطرين إلى الوقوف هنيهة أمام ذلك التقرير الفذ الذى وضعه المستر بيردسلى القنصل الأمريكى العام ، لنضع أمام عينيك ما يسعه المقام من عبارات هذا التقرير الذى قلنا إنه يمثل النزاهة والأخلاص لبعده عن الغرض والهوى . وقد أسعدنا الحظ بالاطلاع على صورة منه فى دار المحفوظات الملكية بقصر عابدين وقد ترجمه إلى الفرنسية ادوارد الياس أفندى (باشا فيما بعد) مترجم وزارة الداخلية وقتذاك .

فلقد نوه القنصل المذكور بفضل اسماعيل فى رفع مستوى التعليم وقال إن عدد التلاميذ بعد أن كان فى عهد محمد على يناهز ٣٠٠٠ بلغ ٦٠٠٠٠ فى العشر سنوات الأولى من حكم اسماعيل أى من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٢ ثم قال إن هذا العدد بلغ فى العام التالى أى سنة ١٨٧٣ نحو ٨٩٨٩٣ تلميذ وهذا عدا من كانوا يدرسون دراسة عالية أو الذين كانوا فى سلك تلاميذ المدارس الأهلية .

ولم يشأ ذلك القنصل النزيه أن يترك هذه المسألة دون أن يؤكد لحكومته أهمية مغزاها فقال إن وجود هذا العدد من التلاميذ فى بلد لا يزيد عدد سكانه عن ٥٢٥٠٠٠٠ مع ما يقوم من المصاعب الجمة فى وجه التعليم لجعل نسبة المتعلمين نحو ١٠٧٢ فى كل ١٠٠٠٠ نسمة وهى نسبة تحسدها عليها بعض البلدان الأوروبية فى روسيا مثلاً بلغت نسبة المتعلمين وقتذاك ١٥٠ فى كل ١٠٠٠٠ نسمة .

وذكر القنصل المذكور أول مدرسة للبنات افتتحها اسماعيل فقال إنها لم تكن الأولى من نوعها فى مصر وحدها بل فى الشرق أجمع وأشار مع الإعجاب إلى اعتزام الخديو تحطيم الأغلال التى ترسف فيها المرأة المصرية بما كان سيأ فى شل حركة نصف شعبه . وقد صارت مدرسة البنات هذه والمدارس الأخرى التى كانت فى دور الانشاء تحت ==

لسوء الحظ هباء بسبب الحماقة المالية الغريبة .

== رعاية اسماعيل مباشرة وهذا دليل على اهتمامه بهذا الموضوع الحيوى واعترافه إكمالهما كلفه من جهود وثقات .

ومقارنة بسيطة بين اعتمادات التعليم في عهد سعيد ومقدارها في عهد اسماعيل تقنعك مع المستر بيردسلى بفضل ذلك الخديو العظيم .

ففي سنة ١٨٦٢ أى في أواخر عهد سعيد بلغت الاعتمادات المذكورة ٧٤٠ كيسا أى نحو ١٨٧٥٠ دولار . أما الآن (أى في سنة ١٨٧٢ وهى السنة التى كتب فيها المستر بيردسلى تقريره الذى تقتطف منه هذه المعلومات) فقد بلغت اعتمادات التعليم ١٦٠٠٠ كيس أى ٤١٠٠٠٠ دولار ولا يدخل في هذا ما كان ينفقه الخديو وأولاده من جيبيهم الخاص في مساعدة المدارس المستقلة أو المدارس الأهلية .

ولم يفت القنصل الأمريكى أن يلاحظ لفة المصريين وشغفهم بتحصيل العلم ولا ما كانوا يظهرونه من الاستعداد العظيم لورود مناهله العذبة . وختم المستر بيردسلى ملاحظاته في هذا الباب بقوله إن مصر من حيث حركة التعليم في خلال السنوات العشر الماضية (أى بين ١٨٦٣ — ١٨٧٣) تستطيع أن تقارن نفسها بكثير من دول أوروبا الغربية . وهى شهادة لها خطرها وقدرها .

ثم راح جنابه يذكر أعمال اسماعيل العمرانية الأخرى كالسكك الحديدية وغيرها فقال إن الخطوط الحديدية في مصر بلغ طولها ٢٤٥ ميل في سنة ١٨٦٣ فلم تنقض السنوات العشر الأولى من حكم اسماعيل حتى زاد هذا العدد إلى ٧٣٦ ميل عدا خطوط أخرى طولها ٢٠٨ ميلا ما تزال في دور الإنشاء . أما في السودان فإن الخط الحديدى بين وادى حلفا وشندى وطوله ٨٨٩ كيلو متر فقد كلف الخزانة المصرية في عهد اسماعيل ما لا يقل عن أربعة ملايين من الجنيهات . ولعل السادة خصوم اسماعيل تناسوا هذا المبلغ أثناء انهماكهم في تقدير ماصرفه اسماعيل في الأعمال الإصلاحية .

ثم الأسلاك التلغرافية وقد بلغت ٥٥٨٢ كيلومتر في سنة ١٨٧٣ بعد أن كانت ٥٨٢ كيلو متر فقط في سنة ١٨٦٣ . وقد أصبحت معظم مدن القطر المصرى — على ما ذكره القنصل الأمريكى — مرتبطة بعضها ببعض بالتلغراف كما انه يوجد ما لا يقل عن ٢٠٠ كيلو متر من الخطوط التلغرافية في أنحاء السودان .

وقد عرض القنصل الأمريكى إلى قناة السويس فذكر كثيرا من التفاصيل عنها ==

ومثل هذا التناقض الغريب يلاحظ في شخصية اسماعيل أيضا . فبينما

== وحظ مصر في أسهمها ونوه بفضل اسماعيل في إلغاء السخرة وجعل العمل في القناة حرا يتقاضى عنه العامل الأجر المعقول .

وخصص المستر يردسلي جزءا كبيرا من تقريره لمحصول السكر باعتباره أهم محصول مصرى بعد القطن وأسهب فيما أبداه الخديو من الجهود لتحسين هذا المحصول . وقد توصل اسماعيل إلى تحقيق غايته في هذا السيل بدليل أن الصادر منه للخارج بلغ نحو ٤٥٦٨٥٨ قنطار سنة ١٨٧٢ بعد أن كان ١٠٩٠ قنطار فقط في سنة ١٨٦٦ وبحسبك أن تعلم أن الخديو أنشأ من جيه الخاص ١٧ مصنعا (فاورقة) لتكرير السكر عدا خمسة أخرى كانت مازال في دور الإنشاء لتيقن أن هذا الرجل العظيم كأنما هداه بعد نظره إلى أن يدرك وجه الخطر على استقلال مصر سياسيا واقتصاديا من اعتمادها على محصول واحد وهو القطن .

التلاعب المالى في عهد اسماعيل

كثيراً ما حاول بعض الناس وفي مقدمتهم الأجانب أن يعزو ما حدث في مصر من الارتباك إلى إدارة اسماعيل باشا المالية وفاتهم ماسبق هذا الارتباك من التلاعب المالى المشين . وهاك المستر ما كوان يسجل في كتابه « مصر كما هي » الصادر في سنة ١٨٧٧ ص ١٧٤ قوله : « مهما كانت متاعب مصر المالية المؤقتة فإنها لم تؤثر مطلقا في هبوط تجارتها لأن موارد البلاد لم تزد في زمن من الأزمان الحديثة كزيادتها في عهد اسماعيل باشا كما أن حركتها التجارية لم تكن أنشط مما هي عليه الآن وحسبك أن الفائدة على ثمن أسهم الموحد تبلغ ١٤ ٪ »

وقد اتهم بعضهم اسماعيل باشا بالتعجل في القيام بهذه الإصلاحات فرد عليهم المستر (الذى أصبح فيما بعد السير جون فاوكر مهندس الخديو الاستشارى والعلم بالثؤون المصرية) في خطاب أرسله إلى التيمس في يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بقوله : « أفقت مصر في العشرة الأعوام الماضية مبالغ طائلة على مشروعات عظيمة كانت من أسباب ترقيتها السريعة ووضعت الأساس لسعادتها في المستقبل . . وقد يقال إن هذه المشروعات تمت في وقت أقصر مما كانت تسمح به حالة البلاد المالية وهو ما يسلم به من بعض الوجوه ولكن ليس في استطاعة أحد أن ينكر أنها كانت ضرورية للتقدم الوطنى . » ==



السير صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد اسماعيل باشا
وحوله أركان حربه وهم القائمقام عبد القادر حلي بك
فالمهندس هيخبوتام فالملازم بيكر

== ولم يشأ السير صمويل بيكر الذي عهد إليه اسماعيل باشا، بالضرب على النخاسة أن تمر به هذه المجادلات دون أن يرد عليها في كتابه « إصلاح مصر » فقال في ص ٥٣٩ مانصه : « لقد أحدث الجدو فيما بين سنتي ١٨٦٤ و ١٨٧٨ تغييراً مدهشاً لا عيب فيه إلا أنه تم بأسرع مما كانت تتحمله الخزانة ولكنه كان على كل حال تغييراً في مستقبل التقدم وقد بذر بواسطته بذور العظمة المقبلة . »

ولكن مهما قيل عن القروض التي عقدها اسماعيل باشا فلا ينبغي تناسي هذه الحقيقة المرة التي سلم بها الجميع حتى التقرير الذي وضعته لجنة التحقيق في مالية مصر المسماة « بـ لجنة كيف » هذه الحقيقة هي أن أصحاب القروض أنفسهم وسماستهم كثيراً ما اختلسوا الملايين القادحة من اسماعيل باشا. فع أن مصر حتى آخر سنة ١٨٧٥ كانت إسمياً مدينة بمبلغ ٦٨ مليون جنيه عدا الديون السائرة إلا أن ما دخل خزائنها فعلاً لم يتجاوز ==

لم يكن مظهره الخارجى مما يباهى به صاحبه نظرا لقصر قامته وطربوشه

== ا ٤٤ مليون جنيه أما الفرق وقدره ٢٤ مليون جنيه فقد وجد طريقه إلى جيوب أصحاب القروض وأعوانهم إما بصفة سمسة أو ككافأه أو غير ذلك من النفقات الكالية . وكأنا تأمرت المالية العليا في لندن وباريس رسمياً على سلب الخديو . إذ ما لبثنا أن رأينا المصارف الزائفة ذوات الاسماء الطنانة كبنك الأجلو إجبسيان تتسابق في جنح الظلام لالسبب سوى إغراء الخديو بعقد قروض جديدة بفوائد فاحشة .

وقد أشار المستر رودستين في كتابه « خراب مصر » إلى تلك الألاعيب فقال : « لعل أصدق مثل لذلك التلاعب المروع القرض الأخير وقدره ٢٨ مليون جنيه الذى عقد في سنة ١٨٧٣ لتسديد الديون السائرة (على ما جاء في تقرير لجنة كيف ص ٨) فقد جعل مقداره الاسمى ٣٢ مليون جنيه بفائدة ٧ ٪ . وتخصيص ١ ٪ . للاستهلاك . ولكن البنك لم يسلم الخديو سوى ٧ و ٢٠ مليون جنيه واحتفظ بالباقي وهو ما يقرب من ١٢ مليون جنيه كضمان من الطواريء !! وليت البنك اكتفى بذلك بل إنه بعد التهديد والوعيد أرغم الخديو على قبول ما قيمته ٩ مليون جنيه من سندات دينه السائر بسعر ٩٣ للسهم مع أن ثمن السهم وقتئذ لم يزد على ٦٥ وهو مادفعه البنك فعلا عند شراء تلك الأسهم . فلا غرو إذا قام بين الإنجليز من يغار على سمعة بلاده فيكتب في بدء سنة ١٨٧٦ (كما ورد في مجلة فريزر عدد يناير سنة ١٨٧٦ ص ١٢ بعنوان تركيا ومصر والمسألة الشرقية) مانصه :

« إن هذا الدور الذى لعبته المالية الحديثة لهو دور يخاف بالإنجليزى الصميم أن يحمر وجهه خجلا عند ذكره وأن يخفى رأسه فراراً من العار عند ما يعلم أن مواطنيه كان لهم ضلع في هذه الأعمال الشائنة التى جرت على ملايين عديدة من البشر بؤساً وشقاءً لانظير لها . »

وليس شك في أن هذا التلاعب وغيره مما نضرب عليه الأمثال هنا هو السبب الرئيسى في ارتباك الحالة المالية في عهد اسماعيل . وهاك اعتراف تقرير لجنة كيف ص ٦ فقد جاء فيه :

« إن هذه الاحصاءات - عن الواردات والصادرات والتعليم وغير ذلك - تدل على أن مصر في عهد خديوها الحال اسماعيل خطت في سبيل التقدم خطوات واسعة في عدة جهات . ولكن موقعها المالى الحاضر يرغم هذا التقدم الباهر . . . نعم بالخطر . فالمصروفات وإن كانت باهظة إلا أنها لا تؤدى وحدها إلى الأزيمة الحاضرة التى يمكن أن يقال إنها =

الواسع وسترته ، الاستامبولية ، الطويلة الأكام وسراويله المفرطحة

== لم تنشأ إلا عن شروط القروض الفادحة التي كان معظمها خارجاً عن طوق الخديو لقضاء طلبات مستعجلة ، كذا ، كذا !

والمستر كيف لم يكن في وقت ما صديقاً لاسماعيل . فهو يصرح بأن « شروط القروض الفادحة » هي منشأ الأزمة الحاضرة أو الارتباك المالي الذي كان سائداً وقتئذ . فن الظلم البين إذن أن يتهم المليون وأعوانهم اسماعيل بالتبديد والتبذير . لأنهم يعلمون كما لا يعلم غيرهم أن تلك التهمة ليست إلا مجرد إلفك وعدوان . وفوق ذلك هم يعلمون أنهم هم الذين وضعوا مصر على حافة الخراب وأنهم كما وصفهم المستر ولسون في مقاله بعنوان « موقف مصر المالي » المنشور في « مجلة فريزر » عدد يونيه سنة ١٨٧٦ ص ٨٠٦ إذ قال عنهم « إنهم الأفاقون المحتالون الذين جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يصل إليها أنين المصريين البائسين . »

وإذا غضضنا الطرف مؤقتاً عن جماعة المالين وسماستهم فليس يفوتنا أن نذكر المقاولين الذين كانوا يبيعونه سلعهم بأثمان باهظة أو تعهدوا بتنفيذ ما ابتكره من المشروعات المفيدة في مقابل أثمان من الفداحة بحيث لا نغالي إذا قلنا إنها كانت تسوقهم إلى الجحيم لو أن هذه المشروعات نفذت في أوطانهم .

ولكي لا نتركك في ريب عما نقول نذكر لك أن بناء ميناء الاسكندرية زادت نفقاته بنحو ٨٠ في .٪ عن نفقاته الحقيقية . كما وأن السكك الحديدية بلغت نفقات إنشائها أربعة أضعاف نفقاتها الأصلية . وهذا القول ينطبق على أعمال اسماعيل الإصلاحية الأخرى كصانع تكرير السكر ووابورات المياه وغيرها وغيرها .

ومن سخرية الأقدار حقاً أن حيل أولئك المقاولين وما لجأ إليه الناوون من الالاعيب كثيراً ما كانت تتخذ دليلاً على « إسراف » اسماعيل حتى أن المستر ادوارد ديسى في مقاله المنشور في مجلة « القرن التاسع عشر » عدد ديسمبر سنة ١٨٧٧ تحت عنوان « الخديو ومصر » حمل على اسماعيل حملة شعواء لأنه وافق على مبلغ ١٣ مليون جنيه باعتباره ثمن السكة الحديدية في حين أن نفقاتها لم تزد في الواقع عما قدرها جنايه بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه . أو بعبارة أخرى إن المستر ديسى بينما يتهم اسماعيل بإسراف بالأسراف يقرر ضمناً أن المقاول الذي قام بمد السكة الحديدية كان بعيداً عن الأمانة والزاهة . هذا من جهة ومن جهة أخرى نرى أننا مطالبون عدلاً بأن نذكر أن السكك ==

وحذائه « اللستك » ، فإن عدم الاكتراث بالبزة لم يكن من شأنه

= الحديدية كانت وقتئذ في بداية انشائها لا في مصر وحدها بل وفي بلاد أخرى وأخصها إنجلترا . وقد كان من الصعوبة بمكان بل كان خارجاً عن مقدرة أى مهندس أن يضع « مقايضة » - ولو تقريبية - عما يتكلفه انشاء السكة الحديدية من النفقات . وإلى هذه الحقيقة أشار المستر ماكوآن في كتابه « مصر كما هي » ص ٣٨٤ فذكر عدة أمثال عن فوزى المقايضات لانشاء السكك الحديدية في إنجلترا نفسها .

بل إن الحكم الذى أصدره نابليون الثالث في النزاع القائم بين شركة القناة وبين اسماعيل باشا (وقدره ٣٠٠٠.٠٠٠ ر. ٣٢٦ جنيه دفعتها مصر للشركة) يمكن أن يضمه المنصف إلى أعمال أولئك المقاولين الأوربيين . وهل تريد مثلاً صارخاً على الأجحاف بالنسبة لمصر أنكى وأشد من حملها على دفع هذا المبلغ الهائل مع إن مشروع حفر القناة كان من أشأم المشروعات على مصر وأكثرها متاعب لآمن الناحية الاقتصادية والمالية فحسب بل والسياسية أيضاً . فقد حفرت في ركن سحيق من أركان البلاد لا يتصل بالمناطق الزراعية إلا بواسطة لسان صغير من الأرض . يضاف إلى ذلك أن حفر القناة كان سبباً في تحويل تجارة مصر « الترانسيت » عن مجراها القديم وهو طريق الاسكندرية إلى طريق السويس . وأشد وأنكى من هذا كله أن حفرها أدى في النهاية إلى الاختلال البريطانى وتثبيت قدمه محاذية على تلك القناة باعتبارها واقعة في طريق الهند .

لقد ذكرنا لك هذه الأمثلة الدالة على التلاعب لاعلى سبيل الحصر كلا بل لتعرف فساد زعم الزاعمين عند ما يتهمون اسماعيل بالأسراف والتبديد ولتدرك أن مصر إذا كانت قد أصبحت مدينة بمبلغ ٩١ مليون جنيه فذلك لأن جمهرة المرايين والمقاولين قد تأمروا جميعاً على خديبها المظلوم بقصد اتها به واستغلال بلاده .

ومن أشد دواعي الأسف حقاً أن خصوم اسماعيل الذين طالما رموه بالتبذير والأسراف لأن ديون مصر بلغت في عهده على قول لورد كرومر ٩١ مليون ، تناسوا ما أوردته لجنة كيف من الأرقام التى تكفى لقطع جهيزة قول كل خطيب . وقد نقلها المستر كرايتس في كتابه تحت باب المصروفات في عهد اسماعيل أى في مدة ١٣ سنة كما يلي :

نفقات لإدارة شؤون الحكومة	٤٩١٨٦٨٠٠٠٠ جنيه
بمجموع الجزية المدفوعة للباب العالى	٧٨٧٢٠٠٠٠٠ جنيه
نفقات الأعمال النافعة الخ	٣٠٢٤٠٠٠٠٠ جنيه
نفقات غير عادية بعضها في أعمال مشكوك في نفعها والبعض الآخر في أعمال أجمرت تحت ضغط أشخاص لهم مصلحة	١٠٥٣٩٠٠٠٠٠ جنيه
المجموع	٩٧٢٤٠٠٠٠٠ جنيه

إلا أن يضاعف من لذة الاستماع لسحر حديثه ومن إخفاء ما حبته به الطبيعة

== وهذا هو الرقم الذى دون فعلا فى التقرير الذى رأى لورد كرومر أن يتحاشى مناقشته فى الوقت الذى اتهم فيه اسماعيل بقديد ٩١ مليون جنيه ما خلا ١٦ مليون جنيه قال إنها أنفقت فى أعمال القناة .

وقد عرض المستر كرايتس إلى أرقام تقرير لجنة كيف وحللها تحليلا عادلا تلخصه فيما يلى :

فقد بدأ بالرقم الأول وهو مبلغ ٤٩١ ٨٦٨ ٤٨٠ جنيه وقال إنه أنفق فى أعمال الحكومة العادية وما يتبعها مدة حكم اسماعيل باشا أى فى خلال ١٣ سنة أو بعبارة أخرى إن كل سنة من سنوات حكم اسماعيل كانت تتقاضى الخزنة ٣٠٧٥٩ ١١٤ جنيه بما فى ذلك نفقات لإدارة ونفقات القصور ومرتبات أصحاب السمو الأمراء ومرتبات موظفى الحكومة ومعاشات المتقاعدين واعتمادات الوزارات المختلفة الخ وليس يسع منصفاً أن يقول أن مبلغ ١١٤ ٣٠٧٥٩ ٣٠٧٥٩ جنيه سنوياً وهو ميزانية المصروفات كان مبلغاً باهظاً . أما الرقم الثانى الخاص بالجزية للباب العالى فليس يمكن الخوض فيه لأنه محدد بمعاهدة ولا حيلة فيه لاسماعيل باشا .

أما الرقمان الأخيران الخاصان بالأعمال النافعة والأعمال المشكوك فيها فكان تقرير اللجنة يقول إن اسماعيل أنفق فيهما زهاء ٤٠ مليون جنيه . وقد سبق أن ذكرنا لك فى ص ٢٤٥ من هذا الكتاب المقال البارع الذى نشره المستر مولهول فى مجلة كوتمبرورى ريفيو فى شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وأثبتنا الجملة التى مهد بها جانبها لمقاله وهى : «... ومع أن حملة القراطيس طالما غرسوا فى أذهان الناس أن اسماعيل باشا بدد ما حصل عليه من أوربا من القروض فليس ريب فى أن ما أتته من المشروعات العامة استفد أكثر من جميع الأموال التى حصل عليها من القروض الخ ثم أتى المستر مولهول على جدول شامل خرج منه أن أعمال الإصلاح التى قدرتها لجنة كيف بأربعين مليون جنيه - كلفت اسماعيل باشا أكثر من ٤٦ مليون جنيه . وهذا الجدول منقول عن تقرير « الميزانية المصرية » الذى وضعته الحكومة المصرية .

ونقطة أخرى على جانب عظيم من الأهمية وهى أن لجنة كيف لم تذكر شيئاً عن مبلغ ٦٠٠ ١٢٠ ٠٠٠ جنيه لإنشاء الترع ومبلغ ١٥٠ ٠٠٠ ٢٠٠ جنيه للكبارى التى أنشأها اسماعيل باشا وذكره المستر مولهول فى الجدول السالف الذكر . كما أنها أغفلت بتاتا ما أنفقته اسماعيل باشا فى محاربة النخاسة وفى حرب الحبشة التى أرغم على خوضها ==

من الذكاء الخارق . وبقدر ما كان موقفا في غزو قلوب ربات الجمال في

== إرغاماً وفي البعثات العلمية التي أرسلها إلى أواسط إفريقيا لاكتشاف منابع النيل الخ
كذلك أغفلت اللجنة الإشارة إلى المصارف التي أنشأها اسماعيل في القرى على
نمط البنك العقاري لحماية الفلاحين من شرور المرايين وهي المصارف التي كلفته
٩٠٠ ألف جنيه .

وإذا كان لورد ملنز قد أخذ على اسماعيل باشا أنه « بذر كذلك عدة ملايين أخرى
في مشروع هائل للأصلاح الزراعي وقد بدىء بالمشروع دون الإحاطة بأساسه وأنفق
في سبيله ثمن فادح » ، نقول إذا كان لورد ملنز أخذ ذلك على اسماعيل - كما أوردناه في
صفحتي ٢٦٤ و٢٦٥ من هذا الكتاب فإنه قصد بلا شك مبلغ الـ ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه
الذي قال المستر مولهور في جدول السالف الذكر إن اسماعيل باشا أنفقه في إنشاء
مصانع تكرير السكر .

ومن العدل أن نذكر أن اسماعيل باشا كان مسوقاً لإنشاء هذه المصانع بدافع
الحرص على إنقاذ بلاده من الأزمة المالية الخطيرة التي كانت تهددها وقتذاك فإنه ارتقى
الأمريكية سنة ١٨٦٣ أي في إبان الحرب الداخلية الأمريكية . وقد ظلت تلك الحرب مستعرة
من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ . فكان بديها والقطن الأمريكي مخزون في بلاده أن يتهافت
العالم على القطن المصري الذي ارتفعت أثمانه حتى في عهد سعيد باشا . وقد أخذ الفلاحون
في مصر يتهافتون على توسيع مناطق زراعة القطن طمعا في الربح الجسيم .

فلما وضعت الحرب أوزارها وظهر في موسم سنة ١٨٦٦ القطن الأمريكي الذي
كان مكديسا في الموالي الأمريكية أربع سنوات كاملة بدأت الأسعار تندهور في سوق
القطن بغير انتظام . وقد أحدث هذا رد فعل سيء في مصر وشرع اسماعيل يلفت حوله
ليجد مخلصا من تلك الأزمة التي أخذت تهدد مصر . ولما كان يعرف أن القناة ستفتح
للبلاحة في سنة ١٨٧٠ وأنها ستكون مصدر خير كبير على مصر رأى بثاقب بصره -
رحمه الله - أنه لو ساعد على الأثكار من زراعة القصب ببضعة ملايين من الجنيهات
نعوض الفلاحين عما يخسرونه في زراعة القطن بما يربحونه من بيع محصول السكر
ولا استطاع أن ينشئ في مصر صناعة جديدة تغذي الشرقيين الأوسط والآخر مع الزمن
بحاجتهما من السكر المكرر .

ومن ثم رأى أن يتفق مبلغ الـ ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه لإنشاء مصانع تكرير السكر
الآفة الذكر فأتت ترى أن غايته كانت اقتصادية بحتة وتدل على بعد نظر وتفكير سليم ==

أوروبا فانه كان معبودا لدى فلاحيه المصريين من أهل الفطرة .

== هذا عدا ما تتضمنه من الفكرة السياسية العميقة وهي عدم تعريض مستقبل البلاد الاقتصادى للخطر باعتمادها على محصول واحد وهو القطن .

وكأنما الأقدار لم تكتف بالأزمة التى أصابت مصر من جراء تدهور أسعار القطن بل أصيبت مصر فى سنة ١٨٦٣ بطاعون بقرى هائل مصحوبا بارتفاع مستوى النيل مما جعل اللادى دوف غوردون تقدر الخسارة فى المواشى وحدها بما لا يقل عن ١٢ مليون جنيه !!

ولما كان اسماعيل يلقب بحق « بأمير الفلاحين » فقد اقتضت مراحمة مساعدتهم فى محنتهم . وهكذا نرى ميزانية سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٤ تذكر مبلغ ٣٨٣٧٥٦٢ جنيه دفع لأصحاب المواشى التى فئت بها الطاعون فى السنوات الأخيرة .

أما الفلاحون الذين أصابهم أزمة القطن فقد ساعدهم اسماعيل باشا بمبلغ ١٢٢٧٤٢٢١ جنيه تعهد بدفعه عنهم للدائنين الأوربيين الذين كانوا أقرضوه للفلاحين ولم يستطع هؤلاء رده بسبب هبوط أسعار القطن . وقد احتسب هذا المبلغ كدين سائر على اسماعيل باشا .

وعدا ذلك أنفق اسماعيل ما أنفقه فى ابتياع بعض السفن وإصلاح البعض الآخر وفى ابتياع بعض الأراضى فى الاسكندرية وفى القاهرة لعمل بعض منشآت صحية يراد بها تجميل هاتين العاصمتين وغيره وغيره مما يستحسن أن نحصره هنا نقلا عن كتاب المستر كرايتس إذ قال تحت عنوان نفقات اسماعيل التى لم تذكرها لجنة كيف ما يأتى :

نفقات إنشاء مصانع تكرير السكر ٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه

» مكافحة طاعون المواشى ٣٨٣٧٥٦٢

» تعويض دفع لتجار القطن ١٢٢٧٤٢٢١

» اثمان أراضى ابتاعها لتجميل القاهرة والاسكندرية ١٩٥.٠٠٠.٣٩١

» توظيف أموال فى ابتياع سفن ١٧١.٠٠٠.٣٥١

» نفقات إنشاء ملجأ للأرامل والأيتام ٥٥٣.٣٣٤

» ديون سعيد السائرة وقد احتسبت على اسماعيل ٢٧٥٤.٣٥٢

المجموع ١٧٢٥٩٨٣٥

ألا إن هذه الأرقام إن دلت على شئ فانها تدل على مبلغ ما كان يكتفه ذلك المصلح العظيم من الحب الأكد لبلاده ورغبته فى النهوض بها إلى مستوى الأمم الراقية .

ويتعذر على المرء وهو ينعم النظر في الأسراف الذى أدى بإسماعيل

== ونكتفى بهذا القدر وننتقل بك الآن إلى فاتحة الجهود العتيدة التى بدأ بها إسماعيل حكمه ونعنى بها الجهود الخاصة باصلاح شروط امتياز قناة السويس .

إسماعيل باشا ونفوره من السخرة

قد ذكرنا لك أن إسماعيل باشا كان ذا ثروة ضخمة أيام أن كان ولى عهد الدولة وأنه كان شديد الاقتصاد والحرص بحيث لا ينفق القرش إلا فى محله وكان يعنى كل العناية بتحسين نتاج أطيانه حتى لقبوه بأمير الفلاحين . ونقول الآن عرضاً أن رجلاً ينال هذا اللقب لا يناله إلا بشدة عطفه على فلاحيه وكل من يعملون فى أراضيه . فلاغرو إذا كان قد عفى وهو بعد أميراً برفع مستوى الفلاحين عامة والترفيه عنهم ولاغرو أيضاً بعد أن رأى مآلهم فيه من البؤس الموروث منذ عشرات الأجيال أن يعتمد بعد اعتلائه العرش إلى رفع نير الذل عنهم وإلغاء ذلك النظام الممقوت ألا وهو نظام السخرة . وقد تلقت إسماعيل يمنية ويسرة لتحقيق أمانيه فى هذا السيل فكان أول ما لفت نظره ما فى شروط امتياز قناة السويس من ضروب الأجحاف والأرهاق لا بالنسبة للخزانة المصرية فحسب بل وما تضمنته من فرض « السخرة » على الفلاحين المصريين أيضاً . ولسوف نسرّد لك فى سياق الكتاب مع شيء من التفصيل مساعى إسماعيل للقضاء على السخرة فى مختلف أنحاء مصر . أما الآن فنجتزئ بسعيه بعد اعتلاء الأريكة لتحسين شروط امتياز القناة من حيث السخرة ومن حيث مساسها واجحافها بإنجازاته الدولة.

خطته لإزاء قناة السويس

ولقد مر بك ما قاله المستر يانج فى ص ٢٢٦ من هذا الكتاب حيث قال : « لما تبوأ إسماعيل باشا الأريكة أعيد النظر فى شروط الامتياز ووضع المشروع بحذافيره على بساط البحث من جديد ذلك لأن وفاة سعيد عجّلت بحل الشركة الشخصية التى كانت قائمة بينه وبين دلسبس مما شجع خصوم المشروع على مضاعفة جهودهم لعرقلة . وبهذه المناسبة صرح إسماعيل باشا مرة فقال : « لا يوجد من هو أشد منى رغبة فى لإنجاز المشروع ولكنى أريد أن تكون القناة تابعة لمصر لا أن تكون تابعة للقناة . » وتفصيلاً لما أجله المستر يانج نقول :

حدثنا المستر كرايتس فى ص ٤٣ من كتابه أن « فصل فرنسا العام فى القاهرة أرسل إلى حكومته تقريراً سرياً عن أول تصريح عام ألقاه إسماعيل باشا بعد اعتلائه ==

إلى هاوية الخراب أن يحدد ماذا كان نصيب السياسة التي وضعها نصب

== الأريكة على مسمع من قناصل الدول الأجنبية وقد وردت في تقريره هذه العبارة :
« لقد أكثر اسماعيل باشا من الضرب على نعمة السخرة إلى حد أنه بين بصفة إجمالية
الفوارق بين ما يستعمل منها للخدمات العامة وبين ما يستعمل في خدمة الحكومة .
أو بعبارة أخرى كان تليج الباشا لأعمال قناة السويس شديدا وواضحا حتى أن عيون
الحاضرين التفتت جميعها نحوى »

واستطرد المستر كرايتس فقال مامعناه : إن قنصل فرنسا العام وهو ذلك السياسى
المدرّب الذى بعث به نابليون إلى مصر ليساعد المسيو فرديناند دلسبس على تحويل
مصر إلى مستعمرة فرنسية قد رأى من أول تصريح عام ألقاه اسماعيل أنه رجل كفاح
يحتقر أضعف نقط المقاومة . أو بعبارة أخرى إن مثل نابليون قرأين أسطر أول
خطاب افتتح به اسماعيل عهده أنه ليس بمن يسعى وراء عيشة الراحة والكسل كلا بل
أنه معزم النزول إلى حومة الكفاح لتحسين حالة شعبه .

ويحق لنا أن نستنتج أمرين مهمين من هذا التصريح أولا اعتزام اسماعيل بذل
كل ما فى استطاعته بذله لتحسين حالة شعبه حتى ولو أدى به ذلك إلى اغضاب بعض
الدول الأجنبية وبخاصة فرنسا ، وثانيا أن عمل اسماعيل هذا ينق بتاتا بل ويقضى على
الخرافة التى ألصقها به حاسدوه وأعداؤه من أنه كان رجلا خليعا يميل إلى قضاء الوقت
إلى جانب الغيد الحسان ويؤكد ماسردناه عليك هنا من أقوال المستر ما كوان والمستر
موريل بل وغيرهما عن ميل اسماعيل إلى الجد والعمل ونفوره من حياة الراحة والكسل .
وناهيك بما ينطوى عليه من الخطر لإقدام أمير شرقى لا يستند إلى قوة مادية كاسماعيل
على مغاضبة فرنسا وهى وقتئذ صاحبة الكلمة النافذة فى شؤون العالم . فلو أنه كان كما
زعموا لكانت له ندحة عن مغاضبة أقوى دول الأرض بأسا بل لقعدت به حياته الخاملة
التي افتروها عليه عن التعلق بمثل هذه الآمانى الكاذبة ولآثر حياة اللهو والمرح والخول
والكسل عن سلوك هذا المسلك الوعر الذى يجعله يقف وجها لوجه أمام دولة عظيمة
البأس كفرنسا

موقف بريطانيا واسماعيل فى المشروع

ونظراً لأن إنجلترا انتهزت فرصة وفاة سعيد باشا لاستئناف معارضتها لمشروع
حفر القناة فإن بعض الكتاب زعم أن اسماعيل باشا كان بالتالى مدفوعا فى معارضته
بأيدى انجليزية . وهو زعم باطل كذبه المستر كرايتس فى كتابه إذ ذكر أن السفير ==

عينه من هذا الأسراف وهى السياسة التى رعى من ورائها إلى أن يتابع

== البريطاني فى الاستانة بدأ يباح حقا على الباب العالى فى وجوب رفض المشروع ولكن معارضة اسماعيل كانت تختلف فى جوهرها عن معارضة انجلترا .

لأن السفير البريطانى المذكور « السير هنرى بلواز » رأى أن فى حفر القناة خطرا من جانب فرنسا على سيادة انجلترا البحرية ولذا راح يستغل عدم صدور فرمان الشاهى باقرار الامتياز من الناحية القانونية لمحاربة المشروع . أما اسماعيل فكان على عكس ذلك . فانه مع استصوابه للمشروع أراد استغلال عدم صدور فرمان لتحسين شروط الامتياز وتعديلها أولا تعديلا جوهريا مطابقا للوجهتين الانسانية والمالية .

وليس أدل على ذلك مما رواه المستر كرايتس إذ قال إن اسماعيل صرح للفنصل الجنرال الفرنسى فى نهاية شهر يناير سنة ١٨٦٣ بما يأتى :

« إنى أعد نفسى أشد . لا لحفر القناة من المسيو دلسبس . ولكنى رأى الشخصى فى المشروع . فإذا كنت على يقين من أنه لا يوجد ما يفوق المشروع من حيث العظمة ولا من حيث الفوائد المنتظر أن يدرها على مصر فليس يفوتنى فى الوقت نفسه أن أذكر أن الأسس التى يقوم . مشروع عليها غير ثابتة وينقصها التحديد والإيضاح . وهذا مأسأتولاه بنفسى . وإذ ذاك ابن سلى وأمضى فى تنفيذ المشروع إلى نهايته . »

ومن هنا ترى أن انجلترا واسماعيل اتفقا على محاربة السخرة ولكن اتفاقهما كان إلى حد معين ولباعين مختلفين . فالأولى عارضت فى السخرة لتوصل بذلك إلى وقف حفر القناة بينما كانت معارضة اسماعيل لها لأسباب إنسانية واقتصادية .

السخرة وقناة السويس

ولكى لا تفوتك مهارة اسماعيل باشا فى محاولته استغلال معارضة انجلترا للسخرة ليصل إلى الغاية الرئيسية التى جعلها نصب عينيه ألا وهى تعديل شروط الامتياز لنلخص لك ما ذكره المستر كرايتس فى الفصل الرابع من كتابه وهو كما يأتى :

لقد حرص المسيو دلسبس على مامرك على أن لا يذكر كلمة « السخرة » ولا أن يلمح إليها تليحافى عقد الامتياز . ولكن قرار ٢٠ يولية سنة ١٨٥٦ أشار من طرف خفى إلى تلك الكلمة المشؤومة . إذ ورد فيه : « تقدم الحكومة المصرية العمال الذين يشتغلون فى حفر القناة بناء على طلب مهندسى الشركة وطبقا لما تقضى به الحاجة . »



نوبار باشا

لمصر من الاستانة مركزا استقلاليا
دوليا . ذلك لأن مصر كانت
بفضل السياسة البريطانية مازال
تعتبر في نظر القانون الدولي ولاية
عثمانية . ومن ناحية أخرى فان
النص على جعل الوراثة من نصيب
الأرشد فالأرشد بدلا من حصرها
في الابن الأكبر فتح بداهة الباب
واسعا على مصراعيه أمام دسائس

= ولما كان المهندسون قد طلبوا أن يتولى أعمال الحفر بصفة دائمة من ٢٠ إلى ٢٥
ألف عامل فقد كانوا يستبدلون بغيرهم كل شهرين أو ثلاثة لأنهم كانوا — كما أكد
المستر فارمان القنصل الأمريكي العام في القاهرة — « يعاملون أسوأ معاملة ويموتون
كالذباب » . وقد ترتب على هذا أن بلغ عدد العمال الذين أنيطت بهم أعمال الحفر
٦٠٠٠٠ حرمت منهم التربة المصرية مما أدى بالتالي إلى الأضرار بحالة البلاد الاقتصادية .
ولقد أثارت مناقشة في مجلس العموم البريطاني حول السخرة مما جعل سعيدا يتردد
في تقديم العمال المطلوبين لعملية الحفر ولكن وكيل وزارة الخارجية البريطانية صرح
في ١٦ مايو سنة ١٨٦٢ بأن القانون الدولي يحول دون تدخل إنجلترا في مسألة خاصة
بمصر . ولم يكن اسماعيل قد اعتلى الأريكة بعد عند صدور هذا التصريح ولكن لم يفته فيما
بعد أن إنجلترا إذا كانت لا تستطيع بمقتضى القانون الدولي التدخل لمنع السخرة في
أعمال القناة فان فرنسا بالاولى لا تستطيع كذلك أن تتدخل لأرغام مصر على تقديم
عمال السخرة إذا شامت مصر وضع حد لذلك .

وقد استطاع نوبار باشا وزير خارجية اسماعيل باشا أن يحصل من سفير إنجلترا
في الاستانة على تأكيد قاطع « بأن الخديو إذا أبي تقديم عمال السخرة وحاولت فرنسا
لأرغامه على تقديمهم فان إنجلترا على استعداد لشد أزره . » كذلك صرح لورد بالمستون
في مجلس العموم « بأن إنجلترا سوف تقدم كل مساعدة إيجابية للسلطان والخديو . » ولما =

الاستانة وكانت بلا جدال عقبة كأداء في سبيل التسلسل . على أن

== كان الأمر يعني انجلترا وتركيا واسماعيل من نواح مختلفة فقد ألحقت الأولى على الثانية لترسل لاسماعيل بتاريخ ٢ ابريل سنة ١٨٦٣ احتجاجا على تسخير العمال في حفر القناة .

وهنا تجلت مهارة الخديوي . فمع أن احتجاج الباب العالي كان يحميه من غضب نابليون إلا أنه آثر أن لا يحفل بالاحتجاج كثيرا لأن الأمر يخص مصر أكثر مما يخص تركيا ولذا لم يصدر أمره في الحال إلى الشركة بوقف الأعمال بل رأى أن يلغى السخرة على طريقته هو .

ولما كانت شروط الامتياز كما ذكرناها لك في هذه الصفحات نصت بين ما نصت عليه على التنازل للشركة عن كافة ما لا يوجد له مالك من الأراضي المتاخمة للترعة العذبة التي قررت الشركة حفرها لتوصيل القناة بالنيل وهي الأراضي التي رأى فيها دلسيس أنها ستدر فاما بعد أرباحا هائلة على حملة الأسهم كما رأى اسماعيل بثاقب رأيه أنها تجعل من الشركة حكومة داخل حكومة لأنها ستحرم مصر من مساحات واسعة من صميم أراضيها سوف يكون لها شأن كبير بعد تصقيعها - نقول لما كانت شروط الامتياز كما ذكرنا رأى اسماعيل أن الوقت قد حان لتعديلها وانتهاز فرصة معارضة انجلترا وتركيا لأعمال السخرة لتحويل عقد الامتياز بشكل يلائم مصلحة وطنه .

ولما كان اسماعيل يريد لفت أنظار العالم إلى عدالة قضيته تمهيدا لعرضها على محكمة الرأي العام فقد كلف وزيره نوبار بالسفر إلى باريس والاتصال بمديري شركة القناة وعقد اتفاق جديد معهم . وسرعان ما أبرق دلسيس للديرين بالألا يتصلوا بنوبار . ولكن هذا الرجل الداهية ما كان يمكن إسكاته بمثل هذه المناورة . ولما كان نوبار ممن يؤمنون بميل الفرنسيين للعدالة فقد شرع يحدث الصحف ويسهب في شرح قضيته مما لفت إليها أنظار العالم . وقد بدأ حملته بابداء التشكك في مشروعية الامتيازات التي نالتها الشركة من سعيد باشا مما حل الشركة على رفع قضية قذف عليه تنظر أمام محكمة السين المدنية . ولكن نوبار دفع دفعا فرعيا فحكمت المحكمة في ٢٨ فبراير سنة ١٨٦٤ بأن نوبار بطعنه في مشروعية الامتياز ألحق ضرراً بسمعة الشركة كذلك حكمت بأن دلسيس لم يكن من حقه الاعلان في الصحف عن القضية المرفوعة من الشركة قبل أن تنظر فيها المحكمة . وكان هذا الحكم بمثابة أمر من المحكمة لطرفي النزاع بأن يسويا الخلاف فيما بينهما . ولما أدرك دلسيس أن انجلترا معارضة للشروع بينما كان السلطان مترددا وافق على ==

تعديل النص المذكور ما كان ينتظر أن يقابل بلا اعتراض من الاستانة

= عرض الخلاف للتحكيم . وقد وافق المسيو دلسبس بالنيابة عن الشركة ونوبار باشا بالنيابة عن الحكومة المصرية على اختيار الإمبراطور نابليون الثالث حكما كما اتفق الطرفان المتنازعان على النقط المراد عرضها للتحكيم .

نقط الخلاف المعروضة للتحكيم

وكانت هذه النقط أربعاً كما أوردها الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه وهي :
النقطة الأولى : وتختص بتقديم العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة لغاية ٢٠٠٠٠ وادعاء الشركة بأن لها الحق في مطالبة الحكومة المصرية بتعويض في حالة توقفها عن تقديم هذا العدد .

النقطة الثانية : وتختص بملكية الشركة لترعة المياه العذبة التي تعهدت بإنشائها واستغلال رى الأتبان المملوكة للأفراد على ضفتيها في مقابل أجر تأخذه منهم حسب تقديرها .
النقطة الثالثة : وتختص بملكية الشركة لكافة ما تحتاجه من الأراضي لحفر القناة وإنشاء الترعة العذبة وإعفاؤها بصفة دائمة من دفع الأموال الأميرية عنها وكذا ملكيتها لكافة ما تستصلحه وتزرعه من الأراضي مع إعفاؤها من دفع الأموال الأميرية عنها مدة عشر سنوات .

النقطة الرابعة : اضطرار الحكومة إلى نزع ملكية الأتبان المملوكة للأفراد متى احتاجت إليها الشركة لاستغلال امتيازها .

وكان مبدأ إلغاء السخرة أقوى حجة اعتمد عليها اسماعيل في إلغاء النقطة الأولى بينما اعتمد في إلغاء النقطة الثانية على أن مصر بصفتها إحدى الولايات العثمانية ليس من حقها أن تتنازل للأجانب عن ملكية الأراضي والعقارات .

أما من حيث النقطة الثالثة فاجتبا للنزاع الخاص لملك الشركة للترعة العذبة وانزعاعها ملكية الأفراد من الأتبان التي يقتضيها إنشاؤها ، قد تمكن اسماعيل بأصل التראה من عقد اتفاق مع الشركة في ١٧ مارس سنة ١٨٦٤ تعهدت فيه الحكومة بإنشاء الترعة في الجزء الممتد بين النيل ووادى الطميلات ووصلها بالجزء الذي أنشأته الشركة من ترعة الوادى إلى القناة . وقد أمر اسماعيل بأن يطلق اسمه على هذه الترعة من منبعها إلى مصبها .

ومن لندن فقط بل كان ينتظر على التحقيق أن تعارض فيه الطبقة التركية

صدور الحكم

وفي يوم ٦ يولية سنة ١٨٦٤ أصدر نابليون الثالث حكمه في النزاع فاهتز له محافل أوروبا القضائية وعدته في غاية الجور والأجحاف . ولم يكن ينتظر أن يأتي الحكم في مصلحة مصر للأسباب الآتية :

أولاً : لأن نابليون كان إمبراطور فرنسا فهو بهذه الصفة خصم وحكم في آن واحد .
ثانياً : كان معروفاً بتأييده للشركة .

ثالثاً : كان شديد العطف على المسيو دلسبس بسبب القرابة البعيدة التي كانت تربطه بالامبراطورة يوجيني .

والإليك ما حكم به نابليون الثالث :

أولاً : لإبطال حق الشركة في مطالبة الحكومة بتقديم العمال المصريين وإلزام الحكومة مقابل ذلك بدفع تعويض مالي للشركة قدره ٣٨ مليون فرنك .

ثانياً : تنازل الشركة للحكومة عن كل حق في ترعة المياه العذبة وتعهدها الحكومة المصرية باتمامها مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بها وإلزام الحكومة في مقابل هذا التنازل بدفع تعويض للشركة قدره ١٦ مليون فرنك .

ثالثاً : جعل الأرض المملوكة للشركة واللازمة لإنجاز المشروع ٢٣.٠٠٠ هكتار تقريباً . (والكثائر نحو فدانين) منها ١٠.٢٦٤ هكتار على جانبي القناة وملحقاتها و ٨.٦٠٠ هكتار للترعة العذبة و ٣.٠٠٠ هكتار لمباني الشركة .

رابعاً : إعادة الأراضي الأخرى التي أتضح عدم لزومها للمشروع ومساحتها ٦.٠٠٠ هكتار على أن تدفع الحكومة تعويضاً قدره ٣٠ مليون فرنك .

وبهذا يكون مجموع ما دفعته الحكومة من التعويضات ٨٤ مليون فرنك (نحو ٣.٣٦٠.٠٠٠ جنيه) تدفع على أقساط سنوية لمدة ١٥ سنة . وحسبك دليلاً على فداحة هذه التعويضات أن تعرف أنها تبلغ تقريباً نصف رأس مال الشركة ولكن هكذا شاءت السياسة أن تتحمل مصر هذه الأعباء الثقيلة في بداية نهضتها لا لذنب ارتكبه ولكن لأن سعيداً شاء أن يضع توقيع على اتفاق عرضه عليه صديقه دلسبس دون أن يكلف نفسه عناء قراءته .

ولقد اعتبر بعض كتاب حياة دلسبس هذا الحكم فوزاً للحكومة المصرية وإن كانت روحه ونتيجته تدل على أنه جاء فوزاً مينا للشركة إذ ضمن لها مواصلة العمل إلى النهاية =

الحاكمة في مصر وأمراء البيت الحاكم أنفسهم . ومع ذلك فإن اسماعيل في

== أو كما وصفه المسود لسبس بأنه السند الأساسي للشركة ووثيقة الكفالة والاطمئنان لها.==
فاذا ذكرنا أن اسماعيل ارتقى العرش في يوم ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ وأن حكم نابليون
صدر في يوم ٦ يولية سنة ١٨٦٤ — أى بعد سبعة عشر شهرا وثلاثة عشر يوماً من
تاريخ اعتلائه الأريكة — فليس يمكن عدلا أن يقال — كما زعم المغرضون — أن اسماعيل
كان رجلا شهوانياً مستهترا الخ هذه الأنشودة الممجوجة. ألا إن رجلا كما اسماعيل يقضى العام
والنصف الأول من تاريخ جلوسه على الأريكة في مثل هذا المجهود العنيف ضد فرنسا
صاحبة الكلمة المسموعة في أنحاء العالم ليدل على أنه كان رجل جد وعمل لا رجل
نحول وكسل . وكيف لا والرجل لم يكن همه إشباع شهواته أو التظاهر بالفخخة كلابل كان
همه تحسين حال الفلاحين وصيانة السيادة المصرية والاحتفاظ للبلاد بهذه التركة العذبة ؟
ولا تنس بعد هذا مهارة اسماعيل واستطاعته انهاء هذه المفاوضات العتيدة الشائكة دون
الاصطدام بالمصاعب التي كانت تعتور سبيله . فقد كان عليه أن يكافح فرنسا التي كانت
ميالة لا إنجاز المشروع وتخفيف حدة انجلترا الغاضبة على المشروع وترضية تركيا صاحبة
السيادة على مصر وقد كانت واقفة موقفا وسطا بالمرصاد بين فرنسا وانجلترا . لعمري
إن التاريخ لن ينسى لاسماعيل حذقه في الأفلات من هذا المأزق بأخف ضرر على بلاده .
وفي ٣٠ يناير سنة ١٨٦٦ عقد اسماعيل مع الشركة اتفاقا تكمليا لتسوية النزاع
بينهما مع مراعاة حكم نابليون . وهو يقضى :

أولا : بتحديد مواعيد أقساط التعويضات للشركة .

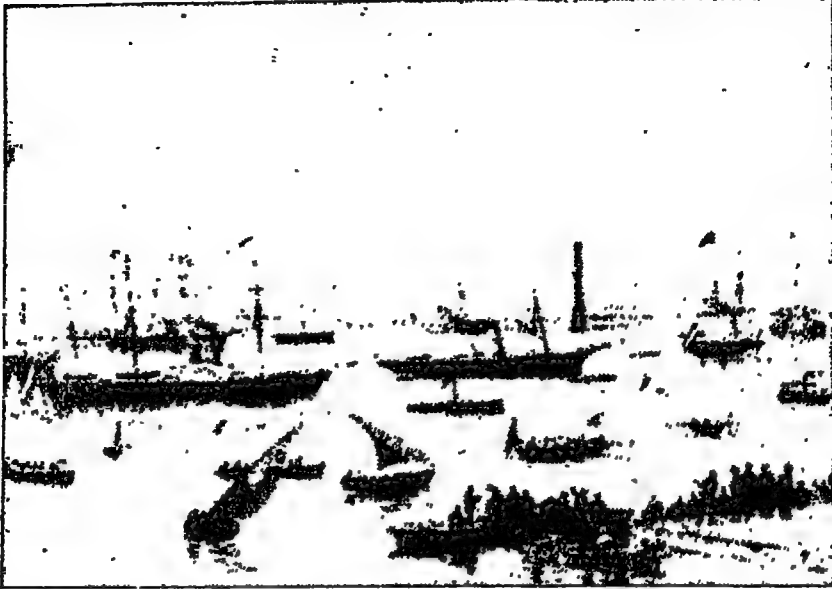
ثانياً : باستعمال الأراضي المخصصة للشركة بصفة ملحقات للقناة الملحة .

ثالثا : بتنازل الشركة عن التركة العذبة مع ما يتصل بها من الأراضي والمباني
والأعمال الفنية التابعة لها بشرط أن تدفع لها الحكومة ثمن هذه المباني .

رابعا : ببيع أراضي تفتيش الوادى للحكومة بمبلغ ١٠ مليون فرنك (٤٠٠ ألف
جنيه) وهذا التفتيش تبلغ مساحته ٢٣٧٨٠ فدان كانت الشركة قد اشترتها من تركه
الهاى باشا بمبلغ زهيد قدره ١٧٠٠٠٠٠ فرنك (أى ٦٨٠٠٠٠ جنيه) ولم تدخل
في التحكيم باعتبارها ملك خاص للشركة .

خامسا : حق الحكومة في احتلال أى جهة في الأراضي المتبررة حرما للقناة وأى
موقع حربى لازم للدفاع عن البلاد بشرط ألا يكون الاحتلال المذكور عائقا للملاحة .
وهذا حق كبير ناله اسماعيل لمصر .

مقابل مضاعفته مبلغ الجزية السنوية ودفع مليون جنيه نقدا وإهداء السلطان



دخول البواخر المقلدة للبلوك والأمراء قناة السويس في صبيحة ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩
إيذانا بافتتاح القناة للملاحة
وترى في مقدمة البواخر السفينة (ليجل) تقل الأباطورة يوجيني

== سادسا : للحكومة أن تشغل ماتراه من تلك الأراضي بمان تنشئها لمصلحتها كالبريد
والثكنات والجمارك وغيرها على شرط مراعاة ما تقضى به ضرورة الانتفاع بالقناة
وبشرط أن تدفع الحكومة للشركة ثمن ماتكون قد أنفقته هذه على تلك الأمكنة .
وفي ٢٢ فبراير سنة ١٨٦٦ أبرم اسماعيل مع الشركة اتفاقا شاملا يتضمن الشروط
الواردة في عقد الامتياز الأصلي مع مادخل عليه من التعديلات .
وفي ١٩ مارس من هذه السنة صدر فرمان شاهاني بالتصديق على اتفاق ٢٢
فبراير سنة ١٨٦٦ .

وفي ٢٣ أبريل من العام التالي عقد اسماعيل اتفاقا آخر مع الشركة ألغى فيه الشرط
الخاص باعفاء مستوردات الشركة من الخارج من الرسوم الجمركية وأعطاهم مقابل
ذلك تعويضاً قدره ٢٠ مليون فرنك كما تنازلت الشركة للحكومة عن بعض المباني
والمستشفيات مقابل ١٠ مليون فرنك .

قناة السويس

وتواريخها المهمة

- ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ منح سعيد باشا امتياز القناة إلى المسيو دلسبس
- ٥ يناير سنة ١٨٥٦ شروط الامتياز
- ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ ابتداء العمل في حفر القناة
- ٦ يولية سنة ١٨٦٤ صدور حكم الامبراطور نابليون الثالث
- ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ افتتاح القناة للملاحة
- ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ بيع أسهم مصر في القناة إلى إنجلترا
- ٧ أبريل سنة ١٩١٠ رفض الجمعية المصرية تجديد الامتياز
- ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٩ انتهاء الامتياز وعودة القناة إلى مصر



هذه الخريطة والمعلومات التي بجانبها وسائر الخرائط الأخرى منقولة عن كتاب الأستاذ عبد الرحمن الراعي بك

طاقما ذهيبا المائدة مرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة وتوزيع ما قيمته ١٠٠.٠٠٠ ر.جنيه من الهدايا قد استطاع أن يحصل من السلطان في ستي ١٨٦٦ و ١٨٧٣ على فرمانين لا ينصان فقط على حصر الوراثة في أرشد أولاده بل يتضمنان الاعتراف الكامل الصريح باستقلال مصر الداخلي من الوجهة الإدارية . وإذ قد استطاع أن ينال موافقة الباب العالي على رفع القيد الخاص بعدد القوات البرية والبحرية في مصر وتخويله الحق في عقد المعاهدات مع مراعاة عدم خروجها عن مضمون المعاهدات التي تعقدها الأمبراطورية العثمانية وحق عقد القروض باسم الدولة ، فإن

افتتاح القناة للملاحة (١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)

بعد عمل مستمر استغرق عشر سنوات تم حفر قناة السويس وتدفقت مياه البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر وقام الدليل ناصعاً على فساد الزعم الذي كان سائداً في إبان وجود الحملة الفرنسية في مصر خاصاً بارتفاع منسوب مياه البحر الأحمر عن البحر المتوسط . وقد بلغ طول هذه القناة التي كلفت مصر ما كلفت ١٦٤ كيلومتر وأنشأت شركة القناة على شاطئها مدينة بورسعيد شمالاً ومدينة الاسماعيلية جنوباً . كما تراه في الخريطة المنشورة في الصحيفة السابقة

ثم تقرر فتح القناة للملاحة في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩

اسماعيل باشا وحفلة الافتتاح

محاولة إعلان استقلال مصر

لقد مر بك في ص ٢٤٣ أن اسماعيل كان يرمى إلى إعلان استقلال مصر في أثناء تلك الاحتفالات التي قرر إقامتها بمناسبة افتتاح القناة للملاحة ودعا إليها أ كبر الرؤوس المتوجة في أوربا لولا عدم اتفاق كلمة الدول الأوروبية . ورجل هذه غايته الشريفة لم يكن ينتظر منه أن يظهر بمظهر الشح في وقت اتجهت فيه أنظار العالم نحو مصر وأمير مصر . فلا غرو إذا رأيناه وهو الرجل الزراعي الذي يحسب حساب القرش فلا ينفقه إلا في وجهه الصحيح يشد في هذه الحفلات عن القاعدة ويخرج عن خطة الاقتصاد إلى المبالغة في السخاء والعتاء .



بعض ضيوف اسماعيل باشا في حفلة افتتاح القناة

في الصورة العليا الجنرال اجنايف سفير روسيا في الاستانة

في الصف الأسفل من اليمين البارون دي بوست ثم الكونت اندراسي من وزراء النمسا

== وليس يفوتنا بمناسبة حفلة الافتتاح هذه وما أنفق في سبيلها من نفقات أن نشير إلى حقائق فريدة تضمنها كتاب المستر كرايتس وهي تضيف صفحة ذهبية جديدة إلى تاريخ اسماعيل . فانه كان قد تفاهم مع الملك فيكتور عمانويل على أنه إذا ما أعلن اسماعيل استقلال مصر وحاولت تركيا التدخل في الأمر فإن الجيش الإيطالي يتولى الزحف على بعض الأراضي التركية النائية .

أما الامبراطور نابليون الثالث فانه ما كاد أن يسمع بهذا حتى رفض الفكرة رفضا باتا . قلما رأى اسماعيل أن محاولته تحقيق استقلال مصر بمجد الحسام لن تقابلها أوروبا بالرضى فضلا عما تقتضيه من نفقات وتضحيات لجأ إلى طريقة أخرى ألا وهي استخدام ==

اسماعيل قد حصل لمصر في الواقع على مركز دولة ذات سيادة ولكنه صادف صعوبات عظيمة في سبيل الحصول من السلطان على لقب ملائم لأسرته . وكان أسمى ماناله بعد الجهد الجهد لقب « الخديو » وهو لقب فارسي الأصل غامض المعنى . وكان هذا من أشد ما يبعث على الأسف

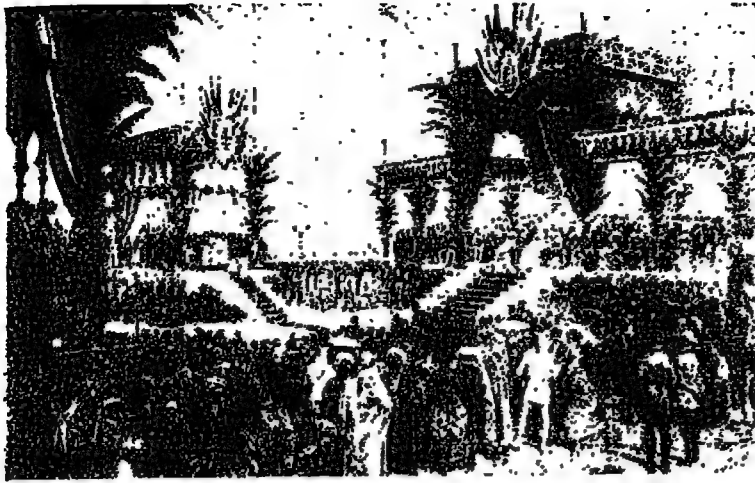
المال باعتباره أخف الأمرين . ولقد بذل في هذا السبيل الشيء الكثير لحل الدول الأوربية على الموافقة على إنشاء نظام المحاكم المختلطة في مصر وبذا يتسنى جعل الأجانب المقيمين في مصر يحاكمون أمام المحاكم المختلطة وهي محاكم مصرية تصدر أحكامها باسم أمير البلاد .

وقد لقيت هذه الفكرة ترحيبا من انجائرا ثم بروسيا ثم النمسا . وشيئا من المال أنفقه اسماعيل في الاستانة بواسطة وسيطه الشهير المدعو « ابراهيم بك » الأرمني كفل له موافقة تركيا وروسيا .

بقيت فرنسا . ولكن نوبار عاجل المشكلة بلباقة وحذق . فلقد أرسل من باريس في يوم ٥ مارس سنة ١٨٦٩ إلى اسماعيل باشا أى قبيل افتتاح قناة السويس للصلاحية يخبره بأن الجنرال فلورى الفرنسى أشار عليه بطلب مقابلة الأميرة ابنة يوجينى ليخبرها بأن مولاه اسماعيل باشا كلفه بالسؤال عما إذا كانت جلالته سوف تتكرم بزيارة مصر بمناسبة افتتاح القناة . فإذا كان الرد بالإيجاب فإن اسماعيل قد اعتزم أن ينتهز فرصة تشریفها ليجمع حفلة الاستقبال من الفخامة والروعة بحيث تتناسب مع مقام جلالته السامى . وقد ذكر نوبار باشا أن الجنرال أكد له أن هذه الخطوة جديدة بأن تتعلق الأميرة ابنة يوجينى باعتبارها صاحبة السيطرة على المسئوليات وزير الخارجية ، وأن إشارة ارنياح منها للوزير المذكور كفيلة بتحقيق رغبات اسماعيل باشا في هذا الصدد . ولم يشأ نوبار مقابلة الأميرة ابنة يوجينى قبل استئذان الخديو .

وبالطبع كان الخديو اسماعيل من إصالة الرأى بحيث وافق على اقتراح فلورى وكتب من فوره إلى نوبار يكلفه بمقابلة الأميرة ابنة يوجينى .

وفعلت المقابلة وأرتاحت جلالته لما أشار إليه نوبار من نفامة خلفات الاستقبال حتى أن ذلك الداهية استطاع في ٢٤ من الشهر نفسه أن يرسل إلى مولاه في القاهرة يهنئه لأنه حصل على تأكيد من الحكومة الفرنسية بأنها ستوافق على مشروع إصلاح القضاء في مصر الذى يرمى إلى إنشاء نظام المحاكم المختلطة .



اسماعيل باشا يحتفل بضيوفه في بور سعيد في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٩
أى في اليوم السابق لافتتاح قناة السويس للملاحة

وقد أقيمت في هذه الحفلة ثلاث منصات خصصت المنصة الكبرى للبلوك والأمراء وكبار المدعوين والثانية لرجال الدين الأسلامى والثالثة لرجال الأكليروس وجلس في المنصة الكبرى الخديو اسماعيل وأوجيني إمبراطورة الفرنسيين وفرنسوجوزيف إمبراطور النمسا وملك المجر وفردريك ويلهلم ولى عهد بروسيا والأمير هنرى أخو ملك هولندا والأميرة قرينته والسير هنرى إليوت سفير إنجلترا بالاستانة وعقيلته والأمير مورا والأمير محمد توفيق باشا ولى العهد والأمير هرهنلوه والجنرال اجناتيف سفير روسيا فى الاستانة وعقيلته والأمير محمد سعيد طوسون بن سعيد باشا ووالد سمو الأمير عمر طوسون وشريف باشا وزير الداخلية ورئيس المجلس المخصوص العالى (مجلس الوزراء) ونوبار باشا وزير الخارجية وشاهين باشا وزير الحربية والبحرية ورياض باشا خازندار الخديو والمسيو فرديناند دلسبس والأمير عبد القادر الجزائري والبارون دويست والكونت اندراسى . وقد ألقى الشيخ ابراهيم السقا فى هذا الاحتفال كلمة تبريك باللغة العربية وتلاه المونسنيور (بوير) واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصاً من فرنسا ، وألقى خطبة تبريك بالفرنسية .

إذ كانت النتيجة أن رغبة اسماعيل في اظهار مقامه كحاكم ذى سيادة في أعين أوروبا جعلته يمعن في الأسراف والبذخ. وعلى كل فلو أننا نظرنا إلى الأمر إجمالاً لوجدنا أن ما بذله اسماعيل في سبيل إتمام عمل جده

== فأنت ترى إذن السر في تعمد اسماعيل أن تكون الاحتفالات بمناسبة افتتاح القناة باللغة منتهى الروعة والفخامة .

وعلى أننا برغم ذلك كله لسنا نبيل إلى تصديق الرقم الذى قدره لاقامة الحفلات المذكورة فقد زعموا أنه بلغ ١٤٠٠٠٠٠ جنيه وهو مبلغ لا يظن أن طبيعة اسماعيل التى اشتهرت بحب الاقتصاد تسمح بانفاقه في سبيل الغاية الشريفة التى جعلها نصب عينيه . ويشاء حظ مصر العاثر ألا تتفق كلمة الدول الأوربية على إعلان استقلال مصر في أثناء الاحتفالات فكانت صدمة عرف اسماعيل كيف يصمد لها .

خسائر مصر في إنشاء القناة

لقد مر بك فيما نقلناه من انتقادات لورد ملزر ولورد كرومر وغيرهما أن إنشاء القناة كلف مصر ثيفاً و ١٦ مليون من الجنيهات . وإليك مفردات هذا المبلغ كما ذكره الاستاذ الرافعى بك :

قيمة أسهم مصر في القناة	٣٠٤٢٦٠٠٠٠	جنيه
قيمة التعويضات المحكوم بها للشركة	٣٠٣٦٠٠٠٠٠	• • • • •
ثمن أراضي تفتيش الوادى	٤٠٠٠٠٠٠	• • • • •
تعويض مدفوع للشركة بمقتضى اتفاق ٢٣ ابريل ١٨٦٩	١٠٢٠٠٠٠٠٠	• • • • •
نفقات التربة العذبة	١٠٢٠٠٠٠٠٠	• • • • •
نفقات حفلات افتتاح القناة وهذا رقم تخمينى كما بيناه سابقاً	١٠٤٠٠٠٠٠٠	• • • • •
فوائد وسمرة ونفقات التحكيم الخ	٨١٤٠٠٠٠٠	• • • • •
المجموع	١٦٠٨٠٠٠٠٠٠	• • • • •

هذا ما خسره مصر من جراء انشاء هذه القناة . فاذا قورنت هذه الخسائر بما أنفقته الشركة من رؤوس أموال في إنشاء القناة بأكملها . ويبلغ مجموعها ١٨ مليون جنيه لتبين لك أن مصر هى التى تحملت أكبر عبء من هذه النفقات . وليتها أفادت منها شيئاً . ولكنها بعد تلك الخسائر الفادحة وبعد ما أصيبت به تربتها من جراء حرمانها من الأيدى العاملة بسبب أعمال السخرة ، منيت بالاحتلال البريطانى فكان أكبر الخسائر وإن لم يكن خاتمتها .

لم يكن بالثن الفادح خصوصاً وأن نفقاته كانت أقل بكثير مما أنفقه محمد على في مشروعاته وخططه العسكرية (كذا ! كذا !)

بيع الأسهم المصرية في القناة

ذكرنا لك في ص ٢١٨ من هذا الكتاب أن المغفور له سعيد باشا اكتتب بـ ١٧٧٠٦٤٢ سهماً من مجموع أسهم القناة وقدرها ٤٠٠.٠٠٠ سهم أى أنه - رحمه الله - اكتتب بما يقرب من نصف أسهم الشركة .

نعم إن الحكومة المصرية اضطرت فيما بعد أن تبيع ١٠٤٠ سهماً بحيث صار مجموع ما تبقى لها ١٧٦٠٦٠٢ سهماً ولكن هذا الباقي - لولا تساهل سعيد باشا مع صديقه دلسبس - كان يخولها حق الاشتراك في أعمال مجلس إدارة الشركة والسهر على المصالح المصرية على الوجه الأكمل .

ولقد دفع سعيد باشا في هذه الأسهم ٣٤٢٦.٠٠٠ جنيه . ولم يحل شهر نوفمبر عام ١٨٧٥ حتى رأى اسماعيل باشا نفسه مضطراً لأن يبيع هذه الأسهم في مقابل أربعة ملايين جنيه دفعها له الحكومة البريطانية فوراً .

بين دزرائيلي وروتشيلد

وحكاية ابتياع هذه الأسهم طريقة بحيث تحسن الإشارة إليها هنا بإيجاز وقد لخصها المستر دزرائيلي في مذكراته ، فلقد بينا لك كيف أن ساكن الجنان اسماعيل باشا أصبح في حاجة ماسة إلى المال وخاصة بعد ما أداه من التعويضات الجسيمة التي أرغمت مصر على أدائها لشركة القناة بعد حكم نابليون المشهور وبعد أزمة القطن التي أصابت مصر في أوائل عهده السعيد وبعد الطاعون البقري الفادح الذي اكتسح البلاد مما جعل اسماعيل يدفع لأصحاب المواشي في سنة ١٨٧٤ إعانة تقرب من الأربعة ملايين جنيه .

وهنا طرأت له فكرة بيع أسهم مصرفي القناة مع الاحتفاظ بحصتها في الأرباح . وقدرها ١٥ ٪ .

فما كادت هذه الرغبة أن تتردد في نفسه ويسر بها إلى أخلص رجال حاشيته حتى علم بها الداهية دزرائيلي من جواسيسه في باريس . وهنا ترك رئيس الوزارة البريطانية يقص علينا خلاصة ما حدث .

ولاريب أن فصل مصر عن مجرى الفساد العثماني كان خدمة جليلة لا تقل عنها خطوته الأولى المهمة في سبيل تحريرها من تدخل الجاليات

== كان البرلمان الإنجليزي في عطلة الاعتيادية . فلما وصل إلى سمع الوزير البريطاني الكبير نبأ ما اعتزمه اسماعيل باشا - وكان في منتصف الليل - أرسل من فوره من أحضر له المستر روتشيلد كبير آل روتشيلد الماليين . فلما مثل أمامه سأله هل يستطيع أن يقدم له أربعة ملايين جنيه في الحال . فأجابه المائي الكبير بأن المبلغ موجود . ولكن ماهي الضمانة وخاصة البرلمان معطل ولن يتسنى الحصول على موافقة على هذا القرض - إذا افترض أنه سيوافق - إلا بعد مرور عدة أسابيع أى بعد عودة اجتماع البرلمان ؟ هنا استولى الغضب على الوزير الكبير وقال لمحدثه إنه بصفته رئيس وزراء بريطانيا يطلب هذا المبلغ . فلما لم تلق قناعة روتشيلد اضطر المستر دزرائلي أن يضرب على نغمة التهديد ويتوعده بما سوف يحل به إن هو تردد في تقديم هذا المبلغ فورا متى كانت مصلحة بريطانيا العظمى الملحة تحتم ذلك .

فلم يسع صاحبنا إزاء هذا الأصرار والتهديد إلا أن يعد بتسليم المبلغ في الصباح وفعلا أرسله إلى دزرائلي وهذا أمر بارسالة إلى مصر . كل ذلك والبرلمان لم يجتمع بعد . فلما اجتمع البرلمان بعد العطلة وقف دزرائلي مدافعا عن خطته هذه وسوغ فعلته بأنه لولا إصراره في عقد تلك الصفقة لفازت بها فرنسا وتعرضت مصالح إنجلترا في الهند وفي الشرق لأفدح الأخطار .

وبعد مناقشات أفلاطونية طويلة أقر البرلمان ما حدث ولعله رأى أن ليس ثمة فائدة عملية من المناقشة بعد أن أوقفه رئيس الوزارة أمام الأمر الواقع .

موقف اسماعيل حيال بيع الأسهم المصرية

ونحسب أن من الانصاف أن نقف لحظة هنا لنلقى نظرة على عمل اسماعيل وتسائل هل كان حكما في بيع هذه الأسهم أم أنه كان مغامرا فيما فعله وأنه لذلك جدير بغضب المنتقدين لأنه أضاع على مصر - كما زعموا - المزية الباقية لها من مشروع القناة . لطالما حدثناك بحب اسماعيل في الاقتصاد وحرصه على ألا ينفق القروش إلا في وجهه الصحيح . فمثل هذا الرجل الاقتصادي ما كان ليقدم طوعا على بيع هذه الأسهم إلا إذا كانت هناك بواعث قوية . فلننظر إلى الأرقام فهي الحكم الفصل بين اسماعيل وخصومه . فأنت تعرف بما سردناه عليك في ص ٢١٨ أن قيمة السهم بلغت عند تأليف شركة ==

والتجارة الأجنبية والذي كان آخذاً في الازدياء تحت ستار الامتيازات .
فلقد تضاعف عدد الأجانب في مصر عشر مرات فبلغوا ٢٠٠.٠٠٠
ثم إن ما كان يتمتعون به من حقوق لا يتمتع بها الأهالي أنفسهم أصبح

== قناة السويس في أواخر سنة ١٨٥٨ نحو ٥٠٠ فرنك (أى ٢٠ جنيه) . ونحن نورد
لك قيمة السهم بالفرنك في كل من السنوات الست التى تلت افتتاح القناة وهى مقولة
عن كتاب « قناة السويس » الذى وضعه سنة ١٩٣١ الأستاذ هالبرج من كبار أساتذة
جامعة سيراكيوز بالولايات المتحدة .

فى سنة ١٨٧٠	كانت قيمة السهم	٢٧٢٢٨٦ فرنك
وفى سنة ١٨٧١	» » »	٢٠٨١٣
وفى سنة ١٨٧٢	» » »	٣٥٥١٣
وفى سنة ١٨٧٣	» » »	٤٣٤٩٣
وفى سنة ١٨٧٤	» » »	٤٢٢١٩
وفى سنة ١٨٧٥	» » »	٦٧٤٠٥

أى أن السهم الذى كانت قيمته ٥٠٠ فرنك (نحو ٢٠ جنيه) فى سنة ١٨٥٨ هبط إلى ٢٧٢
فرنك فى سنة ١٨٧٠ ثم إلى ٢٠٨ فرنك (نحو ٨ جنيه) فى سنة ١٨٧١ ثم أخذ يرتفع قليلاً
إلى أن بلغ ٦٧٤ فرنك (نحو ٢٧ جنيه) فى سنة ١٨٧٥ . أو بعبارة أخرى - إذا شئنا التسهيل
فى التعبير - إن مستقبل أسهم القناة كان تحت رحمة الأقدار . ولما كان اسماعيل رجلاً اقتصادياً
عملياً وكان فى حاجة ماسة إلى المال بعد ما أصيبت به مصر من تعويضات لشركة القناة
وتدهور فى أسعار القطن وطاعون فئاك أصاب المواشى مما قدرت لادى دوف غوردون
خسائره بأثنى عشر مليون جنيه - لم يكن أمامه إلا أحد سبلين . إما الالتجاء إلى عقد
قروض أجنبية بفوائد باهظة وإما بيع هذه الأسهم التى كان مستقبلها فى كفة القدر .
فاختار الأمر الثانى وهو أهونهما . ويلاحظ أن اسماعيل برغم حاجته إلى المال
اختار أنسب وقت لبيع الأسهم . فان الحكومة البريطانية عرضت عليه مبلغ ٣٩٧٦٠٥٨٠
جنيه أى بمعدل السهم الواحد ٢٢٤ جنيه انجليزى أو بعبارة أخرى ٥٦٢ فرنك وهو
يزيد عن سعره فى سنة ١٨٥٨ وعن سعره فى سنة ١٨٧٤ .

وإذا ذكرنا أن سعيد باشا اشترك ١٧٧٦٤٢٢ سهماً بلغ ثمنها ٢٤٢٩٠٠٠
وأن اسماعيل باشا باع للحكومة البريطانية فعلاً ١٧٦٦٠٢ بمبلغ ٣٩٧٦٠٥٨٠ جنيه ==

من الأمور الداعية إلى الارتباك والحيرة . ولما أدرك أن الطريق المثلث للتخلص من نفوذهم بعد أن صاروا بمثابة حكومة في داخل حكومة بسبب اختصاص القناصل وبفضل نظام الامتيازات فكر في إيجاد تشريع

== فيكون بهذه العملية قد ربح ما يبلغ ثلاثة أرباع المليون جنيه — نقول متى ذكرنا هذا فلا يمكن القول بأن اسماعيل كان مغامرا في هذه الصفقة.

قد يقال إن هذه الأسهم قد ارتفع ثمنها فيما بعد حتى بلغت في نهاية سنة ١٩٢٩ ٧٢ مليون جنيه وربحت منها الخزانة البريطانية (إلى أواخر سنة ١٩٢٩) ٣٨٦٠٠٠٠٠ جنيه ولكن اسماعيل باشا احتاط للأمر فلم يشأ التنازل عن حصة مصر في الأرباح وقدرها ١٥ ٪. ولعله رحمه الله رأى أن يبيع الأسهم بالثمن السالف الذكر فيوفر على الخزانة عبء عقد قرض أجنبي مع فوائده الباهظة مع استبقاء حصة الـ ١٥ ٪ التي قدر أن تنفع البلاد منها فيما لو أظهرت التجارب بشكل قاطع صلاحية قناة السويس . على أن النقاد إذا كانوا لم يتورعوا عن كيل التهم جزافاً لاسماعيل لأنه باع أسهم مصر في ١٨٧٥ بربح قدره ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات فهل لهم أن يذكروا لنا لماذا سكتوا عن المراقبة الثنائية ولم يوجهوا إليها أى لوم بمناسبة بيعها حصة الـ ١٥ ٪ في سنة ١٨٨٠ أى في العام التالي لخروج اسماعيل باشا من مصر ؟

وليس ينبغي أن يفوتنا أن اسماعيل باع أسهم مصر في وقت كان فيه مستقبل القناة معلقاً في كفة القدر . ولكن السادة الذين تولوا الإشراف على مصائر مصر في عهد المراقبة الثنائية جازفوا ببيع حصة الـ ١٥ ٪ في الوقت الذي أصبح فيه مستقبل القناة مضموناً ولا خوف عليه كما تدل على ذلك الأرقام التالية :

ففي سنة ١٨٧٥ أى في السنة التي باع فيها اسماعيل أسهم مصر بلغ سعر السهم ٦٧٤٠٥ فرنك

وفي سنة ١٨٧٦	بلغ سعر السهم	٧٠١٦٣ فرنك
وفي سنة ١٨٧٧	» » »	٦٧٧٨٧
وفي سنة ١٨٧٨	» » »	٧٥١٧٣
وفي سنة ١٨٧٩	» » »	٧٢٤٤٠

وفي سنة ١٨٨٠ (أى في السنة التي بيعت فيها حصة الـ ١٥ ٪) بلغ سعر السهم

١٠٧٥٨٨ فرنك (نحو ٤٣ جنيه)

يستطيع تطبيق قواعد القانون الأوربي وأساليبه . فانشأ بمساعدة
نوبار محكمة جديدة هي المحكمة المختلطة . ولأن بديها أن يؤدي
إنشاؤها إلى الاصطدام بالمشايخ والعلماء . لابل إنها لم تنشأ فعلا إلا بعد

== ولقد بيعت الحصة المذكورة للبنك العقاري الفرنسى فى مارس سنة ١٨٨٠ بمبلغ
٨٨٠.٠٠٠ جنيه وقد بلغ ثمن هذه الحصة فى سنة ١٩٣٢ نحو ٢٥ مليون جنيه وتغل
إيرادا سنويا بلغ فى سنة ١٩٣٢ نحو ١٠٢.٠٤٥٤ ر.٢٠٠ جنيه .

لقد أبى اسماعيل فى أيام الشدة أن يمس هذه الحصة مفضلا أن تنتفع بها البلاد
من بعده ولكن الذين تولوا شئون مصر بعد خروجه منها جازفوا ببيعها . وليتهم
ذكروا فضل اسماعيل عند بيع هذه الحصة بل زعموا أن الخديو توفيق اضطر إلى بيعها
من جراء ديون اسماعيل باشا !! فهلاذكروا أنه كان فى وسعهم « رهن » هذه الحصة
لعقد قرض جديد يخفف ويلات البلاد إذا صح ما زعموه من أن البلاد كانت بعد خروج
اسماعيل فى أشد حاجة إلى المال ؟

ألا إن التاريخ لن يغفر لأولئك المصلحين مجازفتهم ببيع تلك الحصة الثمينة فى الوقت
الذى كانت الأحوال تبشر فيه بأن الحصة المذكورة سوف تدر على مصر خيرات عيمة
وحسبك أن إيرادها الحالى يزيد عن المليون جنيه سنويا .

ما كسبه اسماعيل لمصر من مشروع القناة

إلى الآن قد ذكرنا لك خسائر مصر المالية والسياسية من القناة وقبل أن نقفل هذا
الباب نرى أن من الأنصاف أن نذكر ما استرده اسماعيل لمصر من ذلك المشروع .
فلقد تناسى الناقدون من رجال الأموال الذين لا يعرفون إلا منطق الأصفر الرنان
أن اسماعيل استطاع أن يحقق لبلاده هذه الأمور الجوهرية الآتية :

أولا : لقد أبى أن تنشأ القناة العذبة على حساب عمال السخرة وقد كلفه هذا
الدفاع عن الفلاح ١٠٥٢.٠٠٠ ر.٢٠٠ جنيه حكم به عليه نابليون الثالث .

ثانيا : أنه استرد من مخالب شركة القناة ما يبلغ ٦٠.٠٠٠ هكتار رأى ١٢.٠٠٠ فدان
تقريبا وحال بذلك دون انشاء مستعمرة فرنسية على حدود الدلتا . وإذا كان نابليون قد حكم
على مصر بأن تدفع للشركة وقتئذ تعويضا عن هذه الاراضى قدره ١٢.٠٠٠ ر.٢٠٠ جنيه فإن
ذلك لا يمنعنا من أن نقدرها الآن بثمان أعل من ذلك ويزيد كثير عن التقدير السابق .

عزل شيخ الاسلام . كذلك أدى انشاؤها إلى التشاحن مع فرنسا التي كان من نتيجة معارضتها أن أرجى إنشاء المحاكم الابتدائية الثلاث في القاهرة وفي الاسكندرية والمنصورة ومحكمة الاستئناف في القاهرة وقيامها بأعمالها

== ثالثا : ثم التركة العذبة وهي ترعة الاسماعيلية فقد استردها اسماعيل بعد أن أدرك يبعد نظره ما ينتظر أن يعود منها من الخير في المستقبل . ولقد كان دلسبس يبنى نفسه بأن تبقى هذه التركة للشركة لأن بقاءها معناه إزدياد العمران في تلك الجهات وبالتالي زيادة أرباح الشركة . ومن الصعب تقدير فائدة هذه التركة الآن وتحديد هذه الفائدة بالجنهات . وحسبك أن تذكر أن نابليون قرر دفع تعويض عن استردادها قدره ٢٤٠٠٠٠ ر. جنيه فاذا أضفت إلى ذلك المبلغ ما على ضفتي التركة من المساحات الواسعة التي كانت هذه التركة سببا في تصقيعها وما عاد على الأهالي من الفوائد بسبب أعمال الرى وخلافه فإن القيمة تصبح أضعافا مضاعفة .

وإذا شئنا في النهاية أن نحسب قيمة ما استرده اسماعيل من الشركة بحساب الجنيه فلا أقل من أن نقدر مبلغ ١٢ مليون جنيه للستين ألف هكتار المذكورة يضاف إلى هذا المبلغ مبلغ ٢٥ مليون ثمن حصة ال ١٥ ٪ التي تملكها اسماعيل لمصر . هذا عدا ثمن التركة العذبة وما إليه من تصقيع الأراضي الواقعة على ضفتيها .

أما إذا نظرنا إلى أعمال اسماعيل في هذه الناحية من جانبها الأدبي فيحسبك أنه تمكن من إلغاء السخرة في أعمال القناة وصيانة سيادة الأراضي المصرية ضد خطر الاستعمار الأجنبي وحفظ المرافق العامة المصرية برفضه السماح لشركة القناة من استغلال امتياز أصبح يعد الآن من حقوق الدولة .

ولعل القارىء قد لاحظ أننا توسعنا في ذكر موقف اسماعيل حيال شركة القناة . وقد تعمدا هذا لأن كثيرا من الناس ومن بينهم بعض مؤرخينا مع الأسف أخذوا على اسماعيل مضيه بمشروع القناة إلى النهاية وكأنهم أرادوا أن يلجأوا إلى أنه كان في مقدوره أن يأمر بوقفه والعدول عنه . وكأنهم تناسوا ما كان يحيط بالمشروع من مختلف الملاحظات . فلعلهم يعرفون بعد ما ذكرناه أن ذلك الرجل العظيم لم يكن يسعه أن يفعل أكثر مما فعل . وإذا كانت وقته لإلغاء السخرة قد أقامت عليه فرنسا وعاهلها نابليون وكان ما كان من نتائجها فكأن كانت تقوم القيامة وتصف الأعاصير بمصر لو أن ==

سنوات عديدة (١٨٧٧) وإنه لما يبحث على السرور أن نسجل هنا أن انجلترا أيدت هذا المشروع من صميم قواها وساعدت على تذليل معارضة الباب العالي وغيره من الدول في التعرض للامتيازات

== اسماعيل رفع يده في وجه الشركة ليأمر بوقف العمل في القناة ؟ إن على الناقدين قبل أن يقولوا كان ينبغي على اسماعيل أن يفعل كيت وكيت أن يسألوا أنفسهم أولا ماذا عسى كان يحدث لو أنه فعل كيت وكيت .

والآن وقد انتهينا من مسألة القناة وملابساتها فننتقل إلى ناحية مهمة أخرى من نواحي اسماعيل المتشعبة ألا وهي محاربة النخاسة .

محاربة النخاسة

السير صمويل بيكر

لاتذكر النخاسة وما اتخذها اسماعيل باشا من التدابير لمحاربتها إلا ذكر معها السير صمويل بيكر . فكأن اسمه علم عليها إذ إلى مجهوداته يرجع أكبر فضل في سبيل القضاء عليها في أوكارها .

وقبل أن نخوض في مسألة النخاسة لابد أن نلاحظ أن بعض مؤرخينا المصريين ومنهم الأستاذ الرافعي بك يأخذون على اسماعيل باشا أنه عهد في الحملات والتجارب المصرية لا إلى ضباط الجيش المصري على نحو ما كان يفعله ساكن الجنان محمد علي باشا الكبير بل كلف بها جماعة من الإنجليز فكان ذلك على قول الأستاذ موطن الضعف في سياسة اسماعيل لأنه مهد الطريق للسياسة الإنجليزية التي كانت ترمى بعد فتح القناة إلى احتلال مصر والسودان .

وقد ذهب الأستاذ في تأييد رأيه إلى أن الأمير ادوارد ولي عهد إنجلترا عرض على اسماعيل باشا أثناء وجوده بمصر في حفلات القناة أن يعهد إلى المستر صمويل بيكر بمطاردة الاتجار في الرقيق في السودان باسم الحكومة المصرية وأن الخديو سرعان ما لي الطلب توددا للإنجليز لأن الغرض من هذه المهمة لم يكن لخدمة الإنسانية بل تحقيقا لمآرب سياسية كما ذكر الأستاذ !!

أما المستر كرايتس فقد خالف الأستاذ الرافعي بك فيما ذهب اليه وقال إن الخديو تعرف فعلا بالمستر صمويل بيكر في حفلة رقص تنكرية أقيمت أثناء حفلة افتتاح القناة وكان قد جاء من إنجلترا للاشراف على الترتيبات التي عملت لاستقبال سمو ولي عهد بلاده ==

واليك ما كتبه بهذه المناسبة لوردستانلى فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٧٦ اذ قال :

« إن حكومة جلالة الملكة لاتميل طبعا إلى أن يكون لها اختصاص

== وهنا ذكر المستر كرايتس أن الخديو هو الذى فاتح سمو ولى عهد انجلترا مقترحا تكليف المستر بيكر بقيادة تجريدة مصرية ترافقه إلى جهات النيل الأيض للقضاء على تجارة الرقيق وتوطيد دعائم الأمن فى السودان . فأبدى سمو الأمير ادوارد ارتياحه لهذا الاقتراح وانضم إلى اسماعيل باشا فى اقناع صمويل بقبول المهمة .

وقد قال المستر كرايتس فى تعليل أسباب التجاء اسماعيل باشا إلى صمويل فى محاربة هذه التجارة أن الخديو رأى بالتجربة أن أعوانه فى الخرطوم وفى فاشودة لا يمكن الاعتماد عليهم فى تعقب تجار الرقيق لأنهم كانوا يتغاضون عنهم فى مقابل ما يتناولونه من الرشاوى . ولعل المستر كرايتس لم يعد الحقيقة فى قوله هذا . لأن تجارة الرقيق كانت ما تزال رائجة حتى إلى بداية حكم اسماعيل باشا وهو ما يسلم به الأستاذ الرافعى بك نفسه اذ قال مانصه :

« . . . وكان الاتجار بالرقيق ممنوعا من عهد محمد على ولكن هذا المنع لم يكن إلا إسميا وبقيت تجارة الرقيق فى السودان قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها (كذا) (١) وب تأييد موظفيها (كذا ١) وكان يتولاها تجار أقوياء لهم بيوت تجارية كبيرة تتجر فى حاصلات السودان وفى الرقيق وتربح من كل ذلك الأرباح الطائلة . وكان تجار الرقيق لما لهم من النفوذ والسطوة والمال يقيمون فى مختلف الجهات معاقل حصينة اتخذوها مراكز للتجارة واصطياد الرقيق .

« فلما تبوأ اسماعيل عرش مصر اعتزم أن ينضم إلى حركة العالمين على تحرير الأرقاء فى أنحاء العالم وأن يكسب ثناء الانسانية فى مقاومة تجار الرقيق (كذا ١) وبذل جهوداً كبيرة فى هذا السيل . .

« ففى سنة ١٨٦٣ (أى فى السنة التى تولى الحكم فيها) أرسل إلى موسى باشا حمدى حاكم دار السودان يأمره بتعقب تجار الرقيق وحربهم . . .

ثم استورد الأستاذ فقال « وقد عهد الخديو أيضاً إلى السير صمويل يكرثم إلى غوردون باشا من بعده العمل على تحقيق هذه الغاية . . . إلى أن قال : « ففى الحق إن الخديو اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الانسانية خدمة جليلة فى منع هذه التجارة الممقوتة . »

غير عادى فى مصر بل إنها لترحب من أعماق قلبها بكل تحسن فى النظام القضائى قد يسوغ موافقتها على العدول عن اتخاذ إجراءات قضائية خاصة فى مصر». وبعد أن أسهب الكاتب فى وصف « مساوىء هذا الاختصاص

== فهل لنا أن نسأل حضرة الأستاذ الرافعى بك كيف يوفق بين اعترافاته هذه ودعواه السابقة بأن « الغرض من مهمة السير صمويل بيكر لم يكن لخدمة الإنسانية بل لتحقيق مآرب سياسية » ؟

وكيف يلام اسماعيل إذا كان فى سبيل اعتزامه استئصال شأقة هذه التجارة الممقوتة قد لجأ إلى مساعدة ذلك الأنجليزى وهو السير بيكر بعد أن اعترف الأستاذ الرافعى بك بأن تجارة الرقيق كانت قائمة إلى عهد سعيد باشا بعين الحكومة وبصرها وأن منعها لم يكن إلا إسمياً فقط ؟

ونترك القارىء يحكم على أقوال الأستاذ وننتقل إلى بعض مجهودات اسماعيل فى محاربة النخاسة وهى مجهودات تضيف إلى تاريخه صفحة ذهبية جديدة بجانب الصفحات الذهبية الخالدة التى مر بك طرف منها .

بدأ المستر صمويل بيكر من تلقاء نفسه رحلاته إلى أواسط أفريقيا فى عهد سعيد باشا وكان يرمى إلى اكتشاف منابع النيل الأبيض وكانت تصحبه عقلته الثيلة التى كانت المثل الأعلى للزوجة الصالحة التى تحفر بعلمها فى سبيل المجد وتذلل الأخطار بما تظهره أمامه من الشجاعة والأقدام بما جعله يشيد باسمها ويعزو إليها ما أصابه من التوفيق فى اكتشاف بحيرة البرت يانزا فى ١٤ مارس سنة ١٨٦٤

وكانت الجمعية الجغرافية البريطانية قد أوفدت من قبل الرحالتين « اسيك » و « جرانى » لاكتشاف منابع النيل فجاءا بطريق زنجبار واكتشفا فى يوم ٢٨ يولية سنة ١٨٦٢ بحيرة « ايكروى » ومنبع النيل منها وسمياها بحيرة فكتوريا يانزا .

وكان المستر صمويل بيكر يؤمل أن يصل إلى تلك البحيرة مع الرحالتين المذكورين وأن يقاسمهما ألقاب الشرف والمجد . ولكن شاءت المقادير أن يسبقها إليها وأن يستمر وحده تصحبه عقلته الشجاعة فى تحقيق الغاية التى وضعها نصب عينيه .

وقد اختار طريق الخرطوم ومنها إلى غوندوكرو فوصلها فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ وهى آخر نقطة وصلت إليها حملات البكباشى سليم بك قبطان فى عهد محمد على فى ==

وجوده» قال : إن حكومة جلالة الملكة لا تميل طبعاً إلى استمرار اختصاص لا تكسبها المعاهدة إياه وإلا كان مثل ذلك العمل في نظرها بمثابة اغتصاب - وإن كانت الظروف هي التي ساعدت على إيجادها - وهو

== سنة ١٨٤٠ وفيما هو يعد عدته لمواصلة رحلته في أعلى النيل التقى بالرحالين اسليك وجرانت فأخبراه بأكتشاف بحيرة فيكتوريا وبما سمعاه من الأهالي عن وجود بحيرة أخرى لم يتم اكتشافها بعد . فواصل السير حتى بلغها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤ وسماها بحيرة البرت نسبة إلى الأمير البرت زوج الملكة فيكتوريا .

وفي أكتوبر سنة ١٨٦٥ عاد المستر صمويل بيكر إلى إنجلترا عن طريق غوندوكرو والخرطوم وبربر وسواكن واستقبلته لندن كما تستقبل الغزاة الفاتحين . وبمناسبة التزيينات التي تصدر في رأس السنة أنعمت عليه الملكة فيكتوريا بلقب سير سنة ١٨٦٦

وظل السير صمويل بيكر بعيداً عن مصر إلى أن حان موعد إقامة الحفلات بمناسبة افتتاح قناة السويس فعاد إلى القاهرة في سنة ١٨٦٩ للاشتراك في إعداد معدات استقبال ولي عهد إنجلترا .

ولما كان الخديو إلى جانب اهتمامه بتوسيع حدوده في الجنوب قد أعلن عزمه على استئصال شاقة النخاسة وأنشأ لهذه الغاية محطة عسكرية في فاشودة ووضع فيها حامية تبلغ ١٠٠٠ جندي ، ونظراً لأعجابه بأعمال السير صمويل بيكر وجرأته أصبح يعتقد أنه الرجل الذي يصلح للقضاء على النخاسة في أوكارها . لذلك صمم على إدخاله في سلك خدمته .

ثم كانت الحكاية التي نقلناها عن كتاب المستر كرايتس وتوسط سمو ولي عهد إنجلترا في مفاتيحة السير صمويل بيكر في دخول خدمة الحكومة المصرية .

وعاد السير صمويل بيكر بعد انتهاء حفلات القناة إلى لندن لتجهيز معدات رحلته ولتحقيق الغاية النبيلة التي عهد إليه اسماعيل بتحقيقها .

ولما رجع إلى مصر أصدر الخديو اسماعيل مرسوماً للسير صمويل بيكر نرى أن تنقل بعضه عن كتاب المستر كرايتس ليتبين القارىء غاية ذلك الخديو العظيم من فتح السودان . قال المرسوم :

ضار بالمصالح البريطانية بقدر ما هو حاط بكرامة الإدارة المصرية وصفتها. «
ومما يبعث على أشد الأسف من الناحية الأخرى أن يكون اسماعيل ومن

نحن اسماعيل خديو مصر
« نظرا لشراسة أخلاق القبائل المقيمة في حوض النيل
« ونظرا لعدم وجود حكومة ولا قوانين ولا أمن في تلك الأصقاع
« ونظرا لأن الانسانية تجار بضرورة الضرب على أيدي صيادي الرقيق الذين يقطنون
تلك الأصقاع بعددهم العديد
« ونظرا لأن نشر التجارة المشروعة في تلك الأصقاع يعتبر خطوة عظيمة في
سبل المدنية مما يؤدي حتما إلى فتح طريق الملاحة البخارية في البحيرات الكبرى
الواقعة في منطقة خط الاستواء في أواسط أفريقيا وقيام حكومة نظامية دائمة
« قد قررنا وأصدرنا أمرنا بما يأتي :
« إعداد تجريدة تكون غايتها
« أولا : إخضاع الأصقاع الواقعة في جنوبي غوندوكرو لسيادتنا
« ثانياً : منع تجارة الرقيق
« ثالثاً : إدخال نظام لنشر التجارة بطريقة منظمة
« رابعاً : فتح البحيرات الكبرى في منطقة خط الاستواء للملاحة
« خامساً : إنشاء سلسلة محطات عسكرية في أواسط أفريقيا ومستودعات تجارية
يبعد بعضها عن بعض بمسيرة ثلاثة أيام وأن تكون غندوكرو قاعدة الأعمال
الحرية . وقد عينا السير صمويل بيكر لمنصب القيادة العليا لهذه التجريدة لمدة أربع
سنوات تبدأ من أول ابريل سنة ١٨٦٩ . كما أننا منحناه أكبر سلطة على كل من
يشترك في التجريدة بما في ذلك سلطة الحكم بالأعدام .
« كذلك منحناه نفس السلطة المطلقة على كافة الأصقاع الواقعة في حوض النيل
جنوبي غندوكرو . »

فانت ترى من هذا المرسوم أن اسماعيل لم يجعل غايته منع النخاسة وحدها بل
فتح البحيرات الكبرى للملاحة ونشر التجارة المشروعة وهي جميعاً ثلاث غايات حميدة .
وقد تظن أن تجريدة السير صمويل بيكر كانت من الأعمال الكمالية التي كان في وسع
اسماعيل الاستغناء عنها . ولكن ماذا عساك أن تقول إذا علمت أن منع النخاسة =

خلفه من الإنجليز في أعمال الإصلاح هم أول من أسف لأن التدخل
الأجنبي وجد الباب مفتوحاً للتدخل عن طريق هذا المعهد الدولي الذى

= كان من الأعمال المستحيلة إن لم يقترن فى الوقت نفسه باتسار التجارة وفتح
البحيرات للملاحة . وهذا ما أكدده الجنرال غوردون نفسه عند ما كتب إلى شقيقته قبل
سفره إلى السودان فى أول بعثة قام بها إذ قال فى صفحة ٩٠ من كتابه « خطابات
غوردون إلى شقيقته » المطبوع فى لندن سنة ١٨٨٨ مانصه :

« لقد شاء الله تعالى أن تظل سوق الرقيق رائجة عدة أعوام . وبما أن النخاسة
بمثابة طبيعة ثانية للأهالى فإن استئصالها يقتضى أكثر من تجريدة واحدة . فلو فتحت
البلاد للتجارة والملاحة لتلاشت هذه التجارة الممقوتة من تلقاء نفسها . »

وقال بعد أيام فى خطاب آخر ورد فى الصفحة التالية من كتابه السالف الذكر :
« إني اعتقد أن الحديو لو عمر السودان لتمكن من إلغاء تجارة الرقيق . ولكن
لا أمل له فى فعل شيء من ذلك إلا إذا استطاع التنقل فى أنحاء البلاد . وعندى أنه ينبغي
فتح البلاد بتمهيد طريق الملاحة البخارية والبحيرات الكبرى وإذ ذاك يكون فى مقدورى
أن أعرف من هم مروجو تجارة الرقيق فأطلب إلى الحديو إلقاء القبض عليهم . »
ولقد شامت المقادير أن يوفق اسماعيل باشا فى استئصال شأقة النخاسة وأن ينشر
الآمن فى ربوع السودان حتى أن السير صمويل بيكر أشاد بهذه الحقيقة حتى فى
سنة ١٨٨٤ التى كانت فيها نيران الثورة المهدية تكتسح البلاد فى عهد خلف اسماعيل باشا .
قال السير صمويل بيكر فى مذكراته ص ٢٨٥ :

« كان الأمن العام فى عهد اسماعيل مستتباً فى كافة بلاد الحديو وكان الغريب المسيحي
على طول الطريق من الأسكندرية إلى الخرطوم يشعر بطمأنينة تزيد عما يشعر به أحد
أبناء لندن فى حديقة هايد بارك بعد الغسق ولكن السودان الآن أى فى
سنة (١٨٨٤) أصبح فى فتنه عامة . »

ولتزداد اقتناعاً بأن تجريدة السير صمويل بيكر لم تكن كإلية تقطف لك نبذة من
مذكراته التى نشرها قبل أن يتعرف باسماعيل أو يقع تحت نفوذه . والمذكرات تستند
إلى ملاحظات يومية كان يدونها السير صمويل بيكر فى سنة ١٨٦١ أثناء زيارته
لأواسط أفريقيا قال :

« لا يمكن رفع أفريقيا إلى أى مستوى يقرب من مستوى المدنية ما لم تمنع النخاسة =

لا يزال يعرض مصر للتدخل الأجنبي ما بقي موجودا . وقد اعترف أحد

== بناتا . وأول خطوة لاغى عن اتخاذها في سبيل تحسين شؤون القبائل المتوحشة الضاربة في حوض النيل الأبيض هي القضاء على تجارة الرقيق قضاء مبرماً . فالى أن يتم هذا فلا سبيل إلى نشر التجارة المشروعة فالبلاد موصدة تماماً في وجه أى إصلاح . ، ولقد حدثنا السير صمويل بيكر في مذكراته حديثاً طريفاً عن بعض مشاهداته في السودان وعن طريقة صيادى الرقيق في مهنتهم المعقوثة . فقال ما ملخصه :

« عند وصولي إلى غوندوكرو في أول يناير سنة ١٨٦٣ كان الناس يظنونني من جواسيس الحكومة البريطانية وكلما اقتربت من خيام أية قبيلة كنت أسمع فك الأصفاة قبل وصولي إلى الخيام وإذ ذاك يتم تهريب الرقيق وإخفاؤهم في مكان بعيد عن الأنظار . وكان أحد تجار الرقيق من أبناء الطائفة القبطية وهو أبو القنصل الأمريكي في الخرطوم . وما أثار دهشتي أن السفينة التي وصلت إلى غوندوكرو مقلّة بعض أولئك اللصوص كان يخفّق عليها العلم الأمريكي !

ثم استورد السير صمويل بيكر فقال :

« لولا تجارة النيل الأبيض لأصبحت الخرطوم ولا وجود لها . أما تلك التجارة فهي النخاسة واغتتيال الناس . ولا حاجة بعد ذلك إلى الأسهاب في وصف أخلاق أبناء الخرطوم . أما كمية العاج الوارد من بلاد النيل الأبيض فهي من الضآلة بحيث لا يصح أن تدخل ضمن احصاء الصادرات إذ لا يزيد مقدارها السنوي عن ٤٠٠٠ ر. ٤ جنيه . » ثم راح يحدثنا عن نوع التجار في بلاد النيل الأبيض فقال :

« هناك نوعان من التجار أحدهما ذو مال والثاني عبارة عن طائفة من المغامرين المفلسين . أما نظام العمل فواحد في الحالتين ويمكن معرفة سلوك الأول من وصف سلوك الثاني .

« فالرجل المفلس يؤلف حملة ويقترض عليها النقود اللازمة بفائدة ١٠٠ ٪ . ويوافق على دفع القرض عاجلاً بنصف ثمنه في السوق . ومتى حصل على المال اللازم استأجر عدداً من السفن ورهطاً من الرجال يتراوح عددهم بين ١٠٠ و ٣٠٠ رجلهم من الأعراب أو من حثالة البلاد المجاورة ممن فروا من وجه العدالة ووجدوا ملجأً حصيناً في مخاض الخرطوم . ثم يبتاع لرجاله عدداً من البنادق وكمية هائلة من القذائف هذا عدا بعض مئات الأرطال من الحرز . فإذا ما أتم إعداد حملة القرصنة هذه دفع لكل رجل من رجاله مرتبه لمدة ==

قصة المحاكم المختلطة بهذه الحقيقة فقال في كتابه «مصر وأوروبا ص ٢١»
ما نصه:



نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل من مصر إلى السودان
في صحراء النوبة في أواخر سنة ١٨٦٩ استعداداً لفتح إقليم خط الاستواء

= خمسة أشهر سلفاً بمعدل تسعة شلنات في الشهر على أن يدفع لهم ستة عشر شلناً
أخرى عن كل شهر آخر بعد انقضاء الخمسة أشهر السابقة .
« وتقلع السفن عادة في شهر ديسمبر وعند وصولها إلى الناحية المطلوبة ينزل ركابها
إلى البر متوغلين في داخل البلاد إلى أن تسوقهم الأقدار إلى قرية أحد زعماء الزنوج من
تكون الروابط قد توثقت بينهم وبينه من قبل . فإذا ما ملأه الإعجاب بهؤلاء الأصدقاء
الجدد من يحس في نفسه بتفوق سلاحهم لا يتردد في انتهاز الفرصة لتلبس تحالفهم ولأغرائهم
بمهاجمة عدو من أعدائه في الجهات المجاورة . وإذا ذلك تسير الجماعة في الليل بإرشاد مضيفهم
الزنوج إلى أن يصلوا بعد مسيرة ساعة إلى القرية الآمنة التي يكون قد تقرر مهاجمتها
قبل الشروق بنحو نصف الساعة . فإذا ما حانت ساعة الهجوم أحيط بالقرية المنكودة من
جميع جوانبها وسكانها يغطون في نومهم . ثم إذا بالمهاجمين يوقدون النار في أكواخ القش
من كل جانب . وليتهم يكتفون بهذه التيران تلثم الضحايا الآمنين كلاب تراهم يطلقون
بنادقهم عليهم . وفي وسط هذا الذعر العام تهجر الضحايا المساكين أكواخهم طلباً للنجاة من
هذا الجحيم المستعمر فيحصدهم رصاص البنادق حصداً بينما النساء والأطفال يهرعون من هنا إلى
هناك وسط هذا الخطر والازدحام فيتخطفن المهاجرون ويحكمون وثاقهن . وسرعان =

« إن أحكام هذه المحاكم قد خدمت أجل خدمة مجموعة الأجانب الذين



الأسطول النيل الذى تحرك من الخرطوم فى يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠
لفتح إقليم خط الاستواء وكان مؤلفا من ٣٠ سفينة شراعية وباخرتين

= ماتستولى الجماعة على المواشى فى زرائبها ويسوقونها أمامهم كجزء من الغنيمة .
أما النساء والأطفال فينقلونهم إلى أحد أسواق الرقيق .

وقد قدر السير صمويل بيكر عدد العاملين فيما يسمونها « تجارة العاج » فى حوض النيل
الأيض بنحو ١٥٠٠٠ من المصريين هذا عدا التجار السودانيين . وكان لكل من أولئك
التجار منطقتة الخاصة تمتد فيها محطاته العسكرية وفى كل محطة ما لا يقل عن ٣٠٠
شخص وله الحق فى امتلاك ما يشاء من الأراضى الواقعة داخل حدود منطقتة . ومن هنا
تستطيع أن تدرك عظم نفوذ تجار الرقيق وكيف أن مساحات واسعة من السودان
كانت محتلة بعصابات مساحة من أهالى الخرطوم . وبديهي أنه كان فى استطاعة هؤلاء
التجار عقد اتفاقات مع الأهالى لمهاجمة وإبادة جيرانهم واختطاف نسايتهم وأطفالهم وغنم
أكبر ما يمكن غنمه من الماشية والضأن على نحو ما مر بك .

ولم نذكر لك تلك التفاصيل التى نقلناها عن كتاب المستر كرايتس إلا لنبين لك
مبلغ ما كان لتجار الرقيق من قوة عسكرية منظمة ومساحة أتم تسليح . فاذا كان اسماعيل
قد قرر القضاء على أولئك التجار فإنه لم يفت ما كانوا عليه من القوة والمناعة وتفوقهم
عليه فى كل شىء .

يستغلون خيرات البلاد ومواردها. وأدعى إلى الأسف من كل ما تقدم



حفلة رفع العلم المصرى على غوندوكرو وإعلان ضمها إلى مصر
(٢٦ مايو سنة ١٨٧١)

== والآن وقد عرفت فداحة مهمة السير صمويل بيكر وما كان يواجهه من ناحية خصومه الأقوياء من تجار الرقيق فبحسبنا أن نقص عليك أنه بعد تسلم المرسوم الذى أعطاه إياه اسماعيل باشا على نحو ما مريك وبعد أن جعل مرتبه السنوى عشرة آلاف من الجنيهات وتقرير معاش لأسرته إذا أدركته الوفاة فى أثناء رحلته ، سافر إلى لندن لتجهيز الحملة فأوصى بإنشاء بعض السفن الخفيفة الصالحة للملاحة النيلية واتفق مع مصنع السفن أن يكون التسليم لافى الاسكندرية أو القاهرة بل فى الخرطوم ١١

وفى وسعك أن تصور مقدار ما تكبده السير صمويل بيكر من المصاعب فى نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل عبر صحراء النوبة . لأن الشلالات كانت تحول دون سفر البواخر المذكورة مما دعا إلى تفكيك أجزائها وحملها على ظهور الأبل . ولم تنقل الأبل أجزاء البواخر فقط بل نقلت المهمات الثقيلة هذا بينما سافر السير صمويل بيكر بحرا إلى السويس ومنها إلى سواكن فالى بربر على ظهور الأبل ثم إلى الخرطوم على ظهر البخرة . وفى ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ غادر الخرطوم على رأس حملة عددها ١٦٥٤ جندي عدا ٢٠٠ من الخيالة الغير نظاميين وبطارتين من المدافع . وقد نقلت هذه الحملة ثلاثون سفينة شراعية وباخرتان .

ولما وصل إلى ملتقى نهر السوبات بالنيل جنوبى فاشودة أنشأ محطة التوفيقية ==

أن يكون عزل اسماعيل سبياً في تعطيل ما كان قد شرع فيه من أعمال



المسكر المصرى فى غوندوكرو (الاسماعيليه) سنة ١٨٧٢

== نسبة إلى سمو الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية . وبعد مدة سافر إلى غوندوكرو وفوصلها فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧١ ورفع عليها العلم المصرى فى ٢٦ مايو فى احتفال كبير أعلن فيه رسمياً ضم هذه البلاد إلى الأراضى المصرية .

وكان يوم الاحتفال بضم هذه المدينة إلى أملاك مصر يوماً مشهوداً . فقد وقف السير صمويل بيكر تحت السارية وطولها ٨٠ قدماً واصطف الجنود ومعهم مدافعهم ولما فرغ السير صمويل من تلاوة الإعلان الرسمى بضم هذه الجهات إلى أملاك مصر رفعت الراية المصرية فجاها الجنود وأطلقت المدافع تحية واجلالاً . وسرعان ما استبدل السير صمويل بيكر اسم غوندوكرو باسم الاسماعيليه نسبة إلى الخديو وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ استأنف السير صمويل بيكر السير فى النيل الأبيض وأسس نقطا عسكرية بأعلى النيل ومنها الابراهيمية (نسبة إلى ابراهيم باشا) على بحر الجبل وأنشأ حصونا أخرى .

ولم يلبث أن ضم السير صمويل بيكر مملكة اونيورو المتاخمة لبحيرة البرت شرقاً إلى أملاك مصر بعد خلع ملكها كأبريقه وتولية قريه ريونجا وكان ذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٧٢

ثم مالبث ملك أوغندا « أميتسى » أن أعلن ولاءه لخديو مصر وتودلت الهدايا بينه وبين السير صمويل بيكر . وبفضل هذا الولاء فتحت الطريق بين أعلى النيل وزنجبار .

إصلاح المحاكم المدنية الأهلية وتضييق اختصاص المحاكم الشرعية وجعله



ريونجا ملك أونورو يصافح بيكر باشا والجنود المصرية مصطفة
لاستقباله بقيادة القائمقام عبد القادر حلى بك (سنة ١٨٧٢)

== وفى ابريل سنة ١٨٧٣ انتهت مدة خدمة السير صمويل بيكر فعاد إلى الاسماعيلية بعد أن استخلف مكانه فى قيادة الجيش رؤوف بك ورجع إلى الخرطوم بالقاهرة حيث حظى بمقابلة الخديو (فى أغسطس سنة ١٨٧٣) فأُنعِمَ عليه بالنشان العثمانى كما أُنعِمَ على القائمقام عبد القادر بك حلى برتبة الميرالاي جزاء خدماتهما فى بسط سلطة مصر فى منطقة خط الاستواء .

وعبد القادر بك حلى هو أركان حرب بيكر باشا وقد صار بعد عبد القادر باشا حلى حاكم السودان سنة ١٨٨٢ صاحب المواقع المحموده فى الدفاع عن سلطة مصر فى السودان (وهو والد السباح المشهور اسحاق حلى) .

وقبل أن تنتهى خدمة السير صمويل بيكر أرسل إلى اسماعيل باشا يخبره بأنه لا ينوى تجديد عقد خدمته وأنه يقترح تعيين ابن أخيه الضابط جوليان بيكر مكانه. وفى فبراير سنة ١٨٧٢ رد عليه اسماعيل ردا رقيقا قال فيه إنه مازال ينظر فى الاقتراح دون أن يجيب عليه فوراً. ثم وقع اختيار اسماعيل فيما بعد على غوردون باشا ليحل محل السير صمويل بيكر . وقبل أن تنتقل إلى الجنرال غوردون تذكر للقارىء أن اسماعيل باشا كان طوال حملة السير صمويل بيكر شديد الاهتمام بها . ونحسب أننا لا نكون إلا قد وفينا الخديو بعض حقه إذا اقتبسنا بعض فقرات الخطاب الذى أرسله فى فبراير سنة ١٨٧٢ ==

قاصراً على الأحوال الشخصية الإسلامية مما كان لابد أن يؤدي مع

== إلى السير صمويل بيكر وسبقت الإشارة إليه . فهذا الخطاب الذي تنقله عن كتاب المستر كراييتس يصح أن يتخذ منهاجاً لما توحى به الدبلوماسية لرحل له عبقرية اسماعيل وهو يبين لنا في الوقت نفسه معنى الاستعمار الذي يراد به نفع البلاد المستعمرة (بالتفتح) . . قال الخديو مخاطباً السير صمويل :

«لقد وصلت الآن إلى بلاد تعتبر جميلة وخصبة في وقت واحد وأنت تعلم أنه يحيط بك من القبائل أناس انتزعت من نفوسهم الثقة وانقلبوا أعداء ألداء بفعل صيادي الرقيق في الماضي وهو ما وفقتم في مهمتكم في وضع حد له . ولكن خطوط مواصلاتك مع الخرطوم غدت متزامية وصعبة ولهذا يلوح لي أن من خطئ الرأي أن تتقدم إلى الأمام وتترك وراءك من رجال القبائل من لم يسلس قياده بعد ولا عاودته الثقة فينا . فقف عند غوندوكرو وحصن مركزك وابدأ عمالك ولا تن في الإعلان عنه بين مشايخ القبائل .»

ولم يشأ اسماعيل أن يكتفي بهذا التعميم بل انتقل إلى التخصيص فقال :

« احتكر التجارة كما اقترحت . ولست أقول ذلك لأنني ممن يؤمنون بمزايا الاحتكار كلاً بل لأنني أرى ما يسوغه في الحالة التي نحن بصدددها . وليس لك عنه غنى للتخلص من أولئك التجار الذين يتخذون من الرقيق واسطة للتعامل . ولكن استخدم الاحتكار استخداماً واسع الأطراف ومنظوياً على السخاء ولن تلبث بعد آن قصير حتى تجعل الأهالي يستبدلون مصلحة غير مشروعة بمصلحة مشروعة .»

ثم استطرد الخديو فأشار إلى عدة مسائل رأينا أن نثبتها هنا قال :

« بودى أن أعرف السلع التي يهتم الأهالي المساومة عليها . ويوجد معك هيجونوتام ولا أحسب أن مهندساً واحداً فيه الكفاية ولذا سأبعث إليك بمهندس آخر يعمل تحت إشرافه . وأولى لك أن تفكر في أنجمع الطرق لتسهيل مواصلاتك مع الخرطوم . وقد أصبحت الآن متسلطاً على قبائل «باري» فالترم العدل معهم وبذا تزداد ثقتهم فيك ويتأكدون أنك إنما هبطت إلى ديارهم بقصد تعليمهم وإرشادهم .

« وليس يفوتني أن كل هذا العمل المادى والأدنى يستغرق وقتاً طويلاً . ولكن لو سهرت عليه حتى يشعر فكن على يقين بأنك تكون بذلك قد فتحت أمامك الطريق إلى البحيرات دون أن تخطو خطوة واحدة خارج غوندوكرو حتى ولو كانت هذه البحيرات تفصلها عنك مئات الأميال .

الزمن إلى الاستغناء عن المحاكم المختلطة .



المؤرخ المحقق الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي الذي اقتبسنا الكثير من كتابه القيم

== ولقد رسمت لك إجمالاً حدود الخطة التي أريدك على سلوكها ولكنني أدع لفطنتك الطرق والوسائل لتحقيق هذه الغاية . وبالاختصار لا تقدم إلى الأمام بل علم الناس وعمر البلاد وحول القبائل إلى أصدقاء لك فتي أدركت هذا فسر إلى الأمام على بركة الله . فإذا عساك أن تستخلص من هذا الخطاب الذي تفيض من جوانبه الحكمة وتجلى فيه الرحمة والمقدرة السياسية ؟ وقل لي بربك أكان يمكن أن رجلين خطيرين كيكرو وغوردون لهما مكاتهما السامية بين مواطنيهم الانجليز يستقتلان في الدفاع عن اسماعيل ويطريان سلوكه لولا إعجابهما به ؟ ألا إن الخديو اسماعيل ما كان ليظهر في كتب هذين الرجلين بمظهر البطولة والعظمة لولا أنهما أحياه وقدر ما كان يسديه للإنسانية وللمدينة من الخدمات برغم ما أثاره الدائنون حوله من جلبة وضوضاء .

تخوف أوروبا من توسع اسماعيل في السودان

لقد ذكرنا لك مآخذ الأستاذ الرافعي بك على سياسة اسماعيل في السودان ودعواه بأن الخديو عمل ما عمله تنفيذا لرغبة انجلترا . ونحسب أن ملاحظات حضرة الأستاذ الكيماستقيم مع أبسط قواعد المنطق كانت تقتضي عقلاً أن أوروبا أوبالآخرى انجلترا==

وقد تجلت همة العهد الأسمايلى فى حماية التعليم . فالنظام الذى وضع بمقتضى قانون سنة ١٨٦٨ المدارس الابتدائية والثانوية والفنية كان

== تترك لاسماعيل الجبل على الغارب ليتوسع فى السودان مادام هذا التوسع هو فى النهاية لخدمة المصالح الانجليزية ولو عن طريق غير مباشر ربما غاب عن اسماعيل وقتئذ ولكنه لا يعقل أن يكون قد غاب على الساسة الانجليز . كما حدث عند ما بعثت انجلترا بالرحالة ستانلى لاحتلال أوغندا فسبقها اسماعيل إلى احتلالها كما فصله سمو الأمير عمر طوسون فى ص ٣١٩ من هذا الكتاب

والقارىء يسلم معنا بذلك . ولكن الواقع كان غير هذا على خط مستقيم . وفوق ما تقدم فإن اسماعيل سرعان ما اضطره حملة الأسهم إلى أن يختزل أعمال الفتح والتعمير فى السودان . وأنت تعرف أن هناك على الدوام صلات خفية وعلاقات مبهمه بين المالية العليا ومحترفى السياسة . فلو لم تكن السياسة راغبة فى منع اسماعيل عن التوسع فى السودان لوجدت ألف سبب وألف مسوغ لصدا أصحاب الأسهم عن مضايقة الخديو . ولكن كلا بل إن السياسة هى التى دفعت أصحاب الأسهم إلى العمل . فما كادوا يضغطون على اسماعيل حتى رأيناه يرسل بهذا الخطاب المير (الغفل من التاريخ) إلى السير صمويل بيكر وهو خطاب يشعر بأن الرجل اضطر اضطراراً إلى التخلي عن السير صمويل وترك ماعمره فى السودان تذروه الرياح السافيات . قال :

« عزيزى السير صمويل

« لقد حملتني على الاعتقاد عند بدء ذهابك إلى السودان بأن نفقاتك بينما تظل فادحة فى خلال السنة الأولى فإنها ستقل فيما بعد شيئاً فشيئاً وسنة بعد سنة . بل إنك تنبأت فعلاً بأصابة مكاسب عظيمة .

« ولكنى لاحظت فى البيان الذى يصلنى سنوياً من الجهات التى ترابط فيها أن النفقات لم تخفض بتاتاً وأنها لا تزال فى مثل المستوى الذى كانت فيه فى السنوات الأولى

« ولعلك تدرك يا عزيزى السير صمويل أن السودان يتطلب أموالاً طائلة لإنجاز ما لاغنى عنه من المشروعات العمرانية فى السكك الحديدية وما إليها من المرافق العامة . « ومتى كان الأمر كما ذكرت فاتنى مضطراً يا عزيزى السير صمويل لأن أرجوكم أن ترتب الأمور بشكل يساعد على تخفيض نفقات تجريدك إلى المستوى الضرورى للبحث ==

جديراً بأن تفاخر به أية دولة أوربية . وحسبه أنه أدى إلى زيادة عدد المدارس من ١٨٥ في سنة ١٨٦٢ إلى ٥٨٢٠ مدرسة في سنة ١٨٧٨ كما بلغ عدد التلاميذ فيها نيفاً و ١٠٠.٠٠٠ على أن العسر المالى الذى أصاب الميزانية فى العام التالى أدى إلى إنقاص هذا العدد إلى الربع وفضلا

== ولاحظ أنى إذ أطلب ذلك إليك فلكيما يكون من المستطاع إنجاز ما تقتضى مصالح السودان إنجازها من الأعمال العامة .

أليس فى ذلك الخطاب الحجة الدامغة على أن وزارات الخارجية الأوربية أدركت ببعد نظرها أن ما يقوم به اسماعيل من أعمال التعمير فى السودان ليس له معنى إلا محاولة تخليص نفسه وتحريرها من رقابة الغرب وسيطرته ؟ ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الاستقلال فى الرأى هو الذى أثار القلق فى نفوس الساسة الأوربيين وجعلهم ينظرون إلى اسماعيل نظرة الريب المقرون بالخوف .

ذلك لأن فرنسا كانت طيلة عهد سعيد تعتبر مصر شبه مستعمرة فرنسية مما جعل انجلترا تتوجس خيفة على مصير وادى النيل وخاصة بعد حفر قناة السويس وقرب افتتاحها . ولذا لم تأل جهداً فى تأييد اسماعيل باشا فى معارضته لشروط امتياز مشروع القناة كما مر بك .

ولكن لم يكن معنى محاولة اسماعيل تخليص مصر من الشباك الفرنسية أن يقذف بها فى أحضان انجلترا . كلا بل كان يعمل ويعمل بنظام وترتيب وبفطنة ولباقة على تحقيق استقلال مصر . ولما كان يخشى أن يودى هذا إلى الاصطدام بتركيا يوماً ما فإنه آثر ألا يستخدم فى تنظيم جيشه لاضباطا إنجليز ولا فرنسيين بل ارتأى بثاقب رأيه أن يستخدم الضباط الأمريكان بعد ما أبدوه من ضروب الشجاعة فى الحرب الداخلية ولبعدهم عن الغايات والمطامع السياسية فى مصر .

اسماعيل يستخدم الضباط الأمريكان

وكان طبيعياً فى أثناء وجود العلاقات السياسية بين أمريكا وتركيا ألا يقدم اسماعيل جهازاً على استخدام الضباط الأمريكان فى جيشه بقصد توجيههم ضد تركيا . ولكنه استطاع بواسطة الكولونيل « ثاديوس موت » الأمريكى الذى كان ملحقاً بحرس الخديو أن يعقد عقود استخدام مع ثلاثة قواد وهم « ستون » و « لورنج » و « سيلى » =



الكولونيل شالى لونيغ بك ، * ستانلى الرحالة المعروف *
وقد كلفه ساكن الجنان اسماعيل باشا بالذهاب إلى أوغندا وعقد محالفة مع ملكها ففعل * فسبقه الكولونيل شالى لونيغ إلى احتلالها

== و ٢٢ أمير الإي وهم «شالى لونيغ» و «كولستون» و «ديريك» و «داى» و «فيلد» و «جينفر» و «كينون» و «لو كيت» و «ما كيفور» و «ماسون» و «بيردى» و «بروت» و «الكسندر رينولدز» و «فرانك رينولدز» و «ريد» و «رهت» و «رو جاز» و «سافدج» و «ألن» و «وارد» و ثلاث بمباشيه وثمانية صاعات وثلاثة يوزباشية وثلاثة جراحين .
وقد نص في عقد الاستخدام الذى أمضاه هؤلاء الرجال قبل مغادرة الشاطئ الأمريكى على أن يبادروا بمقاتلة كافة أعداء الخديو أينما كانوا مع معافاتهم من محاربة قوات الولايات المتحدة (طبعا)

على أن الكولونيل شالى لونيغ كتب فيما بعد أنه أبلغ هو وزملاؤه بصفة سرية أنه عدا تنظيم الجيش المصرى فان مهمتهم الحقيقية هى مساعدة مصر على التحرر من السيادة التركية . وقد أكد الكولونيل قوله هذا بما ذكره فى المجلد الأول من كتابه ص ١٧١ عن مقابلته الأولى لاسماعيل باشا إذ قال له الخديو:

« إني أعتمد على فطنتك وإخلاصك وهمتكم لنساعدنى على تحقيق استقلال مصر فتم هذا - وهو ما سيتم باذن الله ومشيتته - فسانعم عليك بأسمى المراتب . »

* هاتان الصورتان أعارهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب .

عن تلقى التعليم كان نصف التلاميذ يتناولون الوجبات الثلاث مجاًناً بينما كان النصف الآخر يتناول وجبة واحدة على الأقل . وقد حل التهافت على التعليم محل الدراسة الإجبارية التى لجأ إليها محمد على الملء

اسماعيل لم يكن منفذاً للسياسة الانجليزية

وما دمننا فى صدد التكلم عن الكولونيل شالى لونج فيحسن أن نذكر لك ما كتبه الأمير البحانة سمو الأمير عمر طوسون فى جريدة الأهرام بعدها الصادر فى ٢٩ مايو سنة ١٩٣٣ فى مقال عنوانه « مديرية خط الاستواء » قال سموه حفظه الله :

عين الكولونيل شالى لونج رئيس أركان حرب الجنرال غوردون فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ عند ما عين غوردون باشا مديراً للمديرية خط الاستواء . وقد كتب الكولونيل كتاباً باسمه « حياتى فى أربع قارات » جاء فى الصفحة ٦٧٠ منه قوله : « عند ما دخلت على الخديو اسماعيل كان يمشى بخطوات واسعة فى قاعة الاستقبال وهو متوتر الأعصاب وكان برفقتى نونينو بك التشرىفاً الذى أدخلنى عنده فسالنى :

س أرايت الجنرال غوردون ؟

ج نعم يا مولاي ولقد قضيت معه أكثر الليل فقال الخديو :

« حسناً جداً والآن أعرنى أذنك . لقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب : أهمها المحافظة على المصالح المصرية فهناك فى لوندرا يوشك أن تنظم حملة بقيادة رجل يقال له ستانلى أمريكى الجنسية على ما يزعمون والغرض من هذه الحملة حسب الظاهر نجدة الدكتور ليفنجستون أما الغرض الحقيقى منها فهو رفع العلم البريطانى على ربوع أوغندا فتوجه أنت إلى غوندوكرو وأسرع فى الذهاب إلى أوغندا ولا تضع أوقاتك واسبق حملة لوندرا وأبرم معاهدة مع ملك أوغندا فتمسى مصر مدينة لك سرمديا بواجب الشكران معترفة بالجميل . إذهب وليكل مسعاك بالنجاح إن شاء الله . » فذهب كما أمره مولاه . ومن هناك كتب فى كتابه « مصر ومديرياتها المضطربة » ص ٢٤ ص ٢٥ مانصه :

« لقد توصلت إلى إصابة الهدف السياسى الذى كانت ترى إليه مأمورى ونجحت فى ذلك إلى أبعد مما كنت أرجو وعقدت مع الملك أميتسى اعتراف فيها بوضع مملكته تحت حماية مصر . وقد أبلغت المعاهدة إلى الخديو واتخذت أساساً للذكر السمية التى أصدرتها مصر وقررت بموجبها ضم جميع الأراضى الواقعة حول بحيرات فيكتوريا والبرت الكبرى . »



السير ريجنالد ونجيت

المنسوب السامي البريطاني في مصر سابقا

مدارسه بالطلبة . وكثيراً ما كنت ترى شبانا يتعاونون فيما بين أنفسهم على أن يقوموا بأداء نفقات أحدهم في المدرسة في مقابل تعهده بتعليمهم في أحد الفصول الليلية . ولا ريب في أن تنبه المصريين الفجائي هذا إلى مزايا التعليم الأوربي أدى بطبيعة الحال إلى تباين النتائج . وعلة ذلك أن العقل المصري أكثر ميلاً إلى

== وقد اختفت هذه المذكرة من دار المطبوعات بمصر وهي المذكرة التي أرسلها شريف باشا ناظر الخارجية إلى قناصل الدول وقد جاء بعد تعداد المواقع التي خاضتها الجنود المصرية ما نصه :

« وعلى ذلك قد تم إلحاق جميع البلاد الواقعة حول فيكتوريا والبرت بمصر وفتحت البحيرتان وروافدهما ونهر السومرس للملاحة وصارت ممهدة للاستكشافات التي يقوم بها غوردون باشا . »

ولعلك توافقنا على أن اسماعيل في عمله هذا لم يكن يصدر عن رغبة انجلترا ولا كان منفذا لسياستها كما يؤخذ من أقوال الأستاذ الراجعي بك .

ونستسمح القارىء في هذا الاستطراد ونعود الآن إلى الموضوع فنقول إن الضباط الأمريكان بدأوا أعمالهم في الجيش المصري في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٠ وكان استخدامهم بمثابة بداية عهد جديد في تاريخ مصر إذ حرر اسماعيل بلاده من أليعب ساسة العالم القديم وصمم على أن يكون سيد بلاده المطاع اسماً وفعلاً . ذلك لأن كل انسان كان يعلم أن أولئك الضباط لم تكن لهم علاقة بالسياسة مطلقاً ولا كانوا خداماً لو اشدنطون في ثياب الجيش المصري .

ولقد أشار السير ريجنالد ونجيت حاكم السودان العام سلفاً إلى هؤلاء الضباط فقال في كتابه المسعى والمهدية والسودان المصري المطبوع في سنة ١٩٨١ ص ٢٠٤ . انصه : ==

وهو ما جعل التلاميذ يحفظون القواعد الرياضية عن ظهر قلب كما لو كانت



الوزير رحمت باشا

== كان الجيش المصري قبل سنة ١٨٨٢ يجرى تدريبه على أيدي ضباط أمريكيان وهم رجال عسكريون ذوو تجارب مختلفة ولكن لم يكن يسمح لهم بتدريب الجنود الفعلي لا في قليل ولا في كثير بل كان عملهم قاصراً على واجبات أركان الحرب فيما كانت له علاقة بالشؤون الطبوغرافية ونحوها وفيما يقومون به من الاستكشافات في السودان وفي الصحارى الواقعة بين النيل وبين البحر الأحمر .

ولسوف نشير في سياق الحديث إلى بعض أعمال هؤلاء الضباط وهي أعمال تضيف إلى تاريخ اسماعيل صفحة ذهبية أخرى . وقد ظل أولئك الضباط الأبحاد يعملون إلى أن أرغموا في سنة ١٨٧٢ على مغادرة الجيش المصري بعد أن تجههم أصحاب القرايطيس لاسماعيل وأبوا إلا أن يحشوا جيوبهم ويشبعوا نهمهم بما كان ينفقه من الأموال في خدمة الإنسانية والمدنية في السودان .

وقبل أن نختم كلامنا عن الرق لابد من الإشارة إلى الوزير رحمت باشا باعتباره أكبر تجار السودان وبخاصة تجار الرقيق وكانت دائرة أعماله ومركز سلطته إقليم بحر الغزال .

ونحن تلخص هنا ما نقله الاستاذ الراجي بك من كتابي نعوم باشا شقير وإبراهيم باشا فوزى عن حياة هذا الزعيم السوداني الذي استولى على بحر الغزال بعد أن قتل بملك هذا الإقليم وجعل عاصمته في «ديم الزير» وامتدت سلطته وجمع لنفسه جيشاً



الأمير عبد الحميد نجل السلطان ابراهيم سلطان دارفور

== عمر ما لتأييده ولاقتناص الرقيق وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان .
وفي سنة ١٨٦٩ قتل الزبير برجل يدعى « البلالى » ، جاء إلى بحر الغزال من الخرطوم
لاحتلال الاقليم باسم الحكومة المصرية . ثم خشي الزبير عاقبة مغاضبة الحكومة
المصرية فأعلن ولاءه للخديو .

واستولى الزبير على بلاد « شكا » بين دارفور وبحر الغزال وقدم للحكومة المصرية
كافة ما فتحه من البلاد تعين فيها من تشاء عربونا على ولائه فشكره اسماعيل باشا وأنعم
عليه بالبكوية وعينه حاكما على ما فتحه من البلاد باسم الحكومة المصرية فصار مديرا
لبحر الغزال وجعل مدينة شكا عاصمة مديريته .

فتح سلطنة دارفور سنة ١٨٧٤

ثم مازال الزبير يرغب اسماعيل باشا أيوب حاكم السودان في فتح دارفور وكانت
مستقلة فعلا برغم الفرمانات التي ادخلتها اسما في عهد محمد علي ضمن أملاك مصر إلى
أن عهد الخديو لأيوب باشا بفتحها . وكان سلطانها ابراهيم وولى عهده الأمير عبد الحميد
من ألد أعداء الزبير .

وفي ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤ اشتبك جيش الزبير وعدده ٢٠.٠٠٠ مقاتل بجيش
السلطان ابراهيم في جهة منواشى فدارت الدائرة على ابراهيم وقتل في المعركة وتم فتح
دارفور وضممت إلى أملاك مصر بعد أن دخل جيش اسماعيل باشا أيوب مدينة الفاشر
في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤

رقية من السحر يلقنهم إياها أحد السحرة الأجانب كما أنهم عكفوا على



الجنرال غوردون باشا

== وابتهج الخديو بفتح دارفور لأنها ضمت إلى مصر ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من السكان وأنعم على أيوب باشا برتبة الفريق كما أنعم برتبة اللواء على الزبير باشا وأبلغت تحيات وثناء الخديو إلى كافة أمراء الجيش في احتفال مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجاً وإجلالاً كما ذكر في عدد ٥٨٥ من الوقائع المصرية الصادر بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٤ وأخذ أيوب باشا يعمر الفاشر وبنى فيها حصناً وداراً للحكومة وأقام فيها سوقاً للتجارة ثم أظهر الزبير استيائه من فداحة الضرائب التي ضربها الفريق أيوب باشا على الأهالي فشكاه هذا للخديو فنهاء اسماعيل باشا عن التعرض للحكمदार وإذ ذاك استأذن الزبير الخديو في الحضور إلى مصر لعرض حقيقة الحال . فلما أذن له اسماعيل باشا حضر الزبير إلى القاهرة فأكرم الخديو وفادته ولم يأذن له بالعودة إلى السودان . فأدرك هذا أنه يراد إبقاؤه كرهينة لولائه للحكومة فأذعن للبقاء والإقامة في مصر مشمولاً بعطف الحكومة وإكرامها .

غوردون باشا

وهل كان اسماعيل مرغماً على تعيينه ؟

ذكرنا لك أن السير صمويل بيكر باشا عند اعتزازه مغادرة الخدمة اقترح على اسماعيل باشا تعيين ابن أخيه الضابط جوليان بيكر مكانه وأن الخديو أجابه بخطاب رقيق سنة ١٨٧٢ يطرى فيه أخلاق جوليان وصفاته ولكن ذكر له أن مسألة فتح أو أسط أفريقيا ==

حفظ الأجرومية الفرنسية حفظهم للقرآن دون أن يتعلموا اللغة نفسها .

== وفي وجه العلم والتجارة والحضارة قد تملك حواسه بحيث تقضى عليه بوجوب التريث واستعمال منتهى الحذر في اختيار من يخلفه في منصبه الخطير ولذا فهو يرجى البت في الموضوع إلى وقت آخر .

فمن ذلك ترى أن السير صمويل بيكر لم يكن - عند اقتراح تعيين ابن أخيه جوليان في منصبه - يصدر عن رأى الحكومة الانجليزية وإلا لتعين على اسماعيل قبول الاقتراح ولو من باب المجاملة . كذلك كان الخديو يعمل بمطلق حريته وفي داخل حدود واجباته بصفته الحاكم الأعلى ذى السيادة المطلقة عند ما وقع اختياره على الجنرال غوردون باشا ليخلف السير صمويل .

ولكن الأستاذ الرافعي بك ذهب في كتابه إلى أن الحكومة البريطانية هي التي اختارت غوردون وهي التي حملت اسماعيل على تعيينه مكان السير صمويل بيكر لقضاء لباناتها الاستعمارية . ولو صح ذلك لكان أول ما ينبغي حدوثه أن يحمل اسماعيل على تعيين غوردون بمرتبة سنوى لا يقل عن مرتبة بيكر إن لم يكن أكبر منه . ولكن كان الواقع غير ذلك .

وإليك الحكاية التي رواها المستر كرايتس عن تعيين غوردون . ففي ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ وصل إلى القاهرة الكولونيل غوردون لتسلم مهام منصبه كخلف لبيكر . وبعد أول مقابلة بينه وبين الخديو كتب إلى صديقه القسيس هوريس والار بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٧٤ - كما جاء في ص ١٥ من كتاب « غوردون والسودان » المطبوع في لندن سنة ١٩٣١ يقول : « إن الخديو رجل أمين وقد أحبه حباً جما ولذلك فلن أترك مهمتى للغير . » واستطرد المستر كرايتس فقال إن غوردون ألقى ما يشبه القنبلة في معسكر هذا الغير بقبوله مرتباً سنوياً قدره ٢٠٠٠ جنيه وبرفضه مرتبة العشرة آلاف جنيه الذى كان يتقاضاه سلفه السير صمويل بيكر .

فإذا يستنتج من هذه العبارة ؟ يستنتج منها أن اسماعيل عند ما رأى أصحاب الأسهم يريدون اختزال أعماله في السودان التفت يمينه ويسرة باحثاً عن رجل كفء يمكن أن يتمم مهمة السير صمويل بيكر ولكن بمرتبة أقل من مرتبه . فتقدم إليه الكثيرون فوقع اختياره على غوردون باعتباره أقلهم جشعاً . وقد دلت التجارب فيما بعد على أنه كان أكثرهم كفاءة أيضاً . ونحسب أن هذا الاستنتاج معقول وإلا لما قال غوردون في خطابه لصديقه ==



محمد أحمد المهدي زعيم الثورة المهدية

== « فلن أترك مهمتى للغير » وهى عبارة يفهم منها أنه كان له منافسون فى المهمة. وقد علل غوردون نفسه أسباب قبوله ذلك المنصب بذلك المرتب الزهيد بقوله : « إن الخديو رجل أمين وقد أحببته حباً جما ولذلك فلن أترك مهمتى للغير »، ونحسب أن فى هذا الكفاية للتدليل على أن اسماعيل لم يكن مرغماً على تعيين غوردون .

وكانت أول مقابلة بين اسماعيل وغوردون كافية لأن تربط نفسيهما الكبيرتين بأ كبر الروابط وأن تحكم صلات الود والصداقة بينهما أيما لإحكام وأن تجعلهما ينظران إلى مستقبل أواسط أفريقيا بعين واحدة . ويلوح أن ما عاناه السير صمويل يكر من الأهوال — التى شرحنا لك بعضها — فى مطاردة النخاسة جعل الخديو وغوردون يقرران مبدأ جديداً نحوها وهو تنظيمها أولاً ثم منعها فى النهاية . وقد ينجل إليك أن فى هذا شيئاً من المبالغة . ولكن الأمر الثابت هو أن غوردون كان يعتبر مسألة النخاسة مسألة اقتصادية أكثر منها أخلاقية وأن ما ينبغى عمله أولاً هو منع تهريب الرقيق حتى إذا ما انتشرت المدنية فى أنحاء السودان طغى تيارها على تلك التجارة المفقوتة فقتلشى من تلقاء نفسها .

ويجئ إلينا من الخطابات التى أرسلها اسماعيل إلى السير صمويل وسردناها عليك هنا أن الخديو كان يرى أيضاً أن مطاردة النخاسة ليست بالمسألة التى يكتفى لحلها استعمال السيف والمدفع . أولاً لأن القائمين بها كانوا أناساً أقوياء فى السودان يؤيدهم أعيان البلاد وتألف منهم طبقة كبيرة من الأهلين . وثانياً لأن تلك التجارة كانت مصدر ثروة ==

ولكن لا ينبغي أن ننسى أن التلاميذ في المدارس الانجليزية العمومية كانوا



الدرأويش يهاجمون غوردون باشا ويقتلونه أثناء حصار الخرطوم

== للجميع فضلا عن أن عمال الزراعة ورعى الماشية وغيرهم كانوا جلهم من الرقيق . ثم إن أعيان السودان والطبقة الوسطى من أهله كانوا قد ألفوا نظام الرقيق منذ أجيال ماضية . وتواضعوا عليه فكان تحرير الرقيق دفعة واحدة مفاجأة لهم لم يكن غريبا أنهم صمدوا لها وعرقلوا سيرها بكل ما كان في استطاعتهم من حول وقوة لا في زمن اسماعيل فقط بل وفي زمن خلفه توفيق . وإلى هذه الأسباب يعزو بعضهم نشوب الثورة المهدية . ==

فى نفس هذا الوقت يحفظون بدورهم نظريات يوكليدس الهندسية والمرأى اللاتينية عن ظهر قلب . وكان اهتمام اسماعيل الشخصى بهذه النهضة العلمية



اسماعيل باشا صديق الملقب بالمفتش

غوردون يذهب إلى السودان

وما كاد الكولونيل غوردون أن يخرج من حضرة الخديو حتى اعتزم الرحيل إلى السودان لإنجاز المهمة التي كلفه بها اسماعيل . وسرعان ما شخص إلى الخرطوم عن طريق البحر الأحمر وهناك أعد حملة من الجيش المصرى على رأسها الضابط ابراهيم أفندى فوزى (الذى صار لواء فيما بعد) وشهد وقائع السودان من سنة ١٨٧٤ إلى نشوب الثورة المهدية ثم مقتل غوردون فى سنة ١٨٨٥ إلى وقت استرجاع السودان فى سنة ١٨٨٩ ووضع كتابه المسمى « السودان بين يدى غوردون وكنتشر » .
حتى إذا وصلت الحملة إلى فاشودة استأنفت السير إلى محطة سوبات (عند ملتقى نهر سوبات بالنيل) ومنها إلى غوندوكرو جنوبا (الاسماعيليه) حيث رأى غوردون =

عظيما لا بل إنه أخذ بنصيبه العمل فيها . مثال ذلك أنه لم يكتف بمنح التعليم



التعايشي خليفة محمد أحمد المبدى

= أن مناخها غير ملائم فنقل مركز الحكومة إلى « اللادو » وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء .

وبعد أيام قليلة واصل غوردون السير جنوبا إلى بحيرة البرت واستولى على سفن بعض الأهلين واستخدمها في استكشاف شواطئ البحيرة ثم استقدم من الخرطوم ما يلزمه من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها وأنشأ في « الدفلاى » شمالي بحيرة البرت ترسانة لتنظيم الملاحة في أعالي النيل وفي البحيرة وذلك بفك قطع البواخر وتركيبها بالتالى .

ثم شرع غوردون في إنشاء عدة نقط حصينة على شواطئ النيل وحصن النقط التي أنشأها يكر باشا من قبل . وكان مما أنشأه — كما حدثنا الأستاذ الرافعى بك — نقطة « سوبا » و « الناصر » و « شامبه » و « يوره » و « اللادو » و « لانورى » و « الرجاف » و « الدفلاى » و « بحر الجبل » و « مكركة » و « مرولى » و « مقانقو » وكلها مبنية بالخريطة الموجودة في صفحة ٣٣٠ .

وبدئى أن هذه الفتوحات الناتية كلفت الجنود المصرية متاعب لا توصف بسبب رداءة الجو وبعد المواصلات وانتشار الأمراض والأوبئة مما يسجل لهم ولخديوهم اسماعيل أنصع صفحة في سجل التاريخ المصرى .

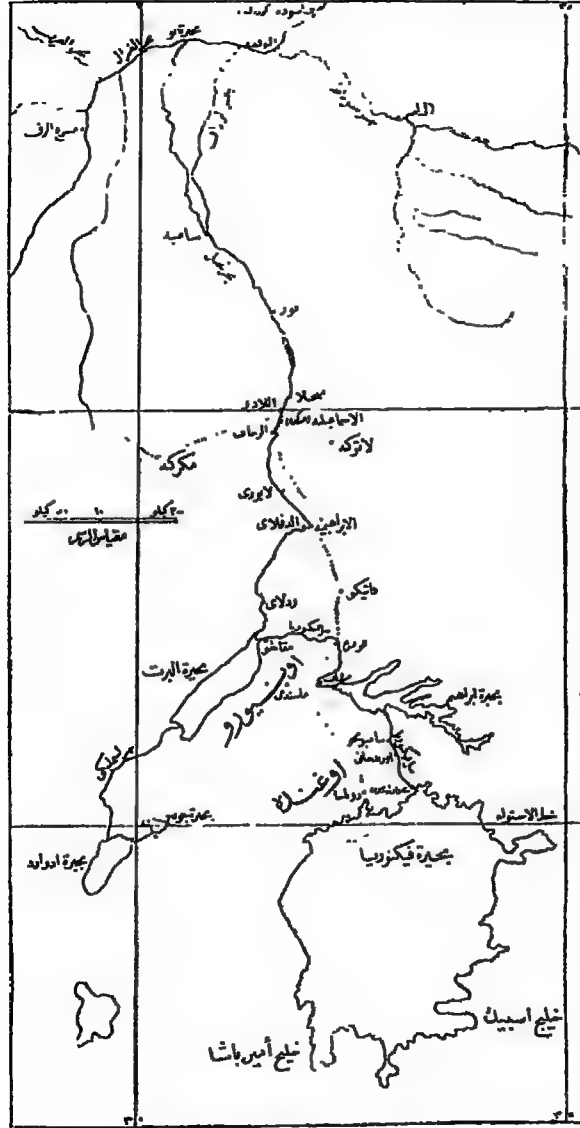


لورد كيتشنر

بسط حماية مصر على أوغندا سنة ١٨٧٤

ذكرنا لك في صفحة ٣١٢ أن ملك أوغندا «أميتى» أعان في شهر مايو سنة ١٨٧٢ ولاءه لخديو مصر وأن الهدايا تبودلت بينه وبين السير صمويل بيكر .
وفي ١٠ مايو من هذه السنة أرسل السير صمويل إلى اسماعيل باشا خطابا من جهة «ماسيندى» ينبئ بنتائج حملته في منطقة البحيرات فكان مما قاله :
« أصبح بينى وبين بحيرة البرت نياز ٢٠ ميلا أى مسيرة يوم واحد إلى الغرب فى حين أن المسافة بينى وبين غوندوكرو (الاسماعيلية) ٣٩٤ عن طريق البر .
ثم استطرد السير صمويل فقال :
« وانى لأرجو يا صاحب السمو أن تكون مرتاحا إلى أعمالى . ولقد كان ماواجهته من المصاعب مما لا يمكن تذليله ولكن لله الحمد قد تغلبت عليها جميعا . والآن وقد قطعنا دابر تجار الرقيق وأقصيناهم عن البلاد فان الأهالى ينظرون بروح الثقة إلى حكومة سموكم .
« وقبل عودتى سأكون وفقت فى وضع الراية المصرية على الأقل عند الدرجة الأولى جنوبى خط الاستواء وبذا يمتد ملك مصر إلى نحو ٣٣ درجة فى جنوبى الاسكندرية . «
ولم يشأ السير صمويل أن يختم خطابه السابق دون أن يشفعه بماحوظة صغيرة المبنى ولكنها كبيرة المعنى وهى :
« لقد اعتنق ملك أوغندا الاسلام وأنشأ فعلا مسجدا للصلاة . وسأشرع من فورى فى بناء مدرسة . »

نصيباً عادلاً من ميزانية الدولة بل ووقف بعض أملاكه الخاصة على المدارس



(خريطة مديرية خط الاستواء)

والخط المنقوط يمثل الطريق الذي سلكه الكولونيل شالي لونج بك
في سيره إلى أوغندا حيث عقد مع ملكها في سنة ١٨٧٤ المعاهدة التي
قبل بمقتضاها حماية مصر على مملكته

وأنشأ مكتبة وطنية ملاءها مما عنده من المحفوظات القيمة والكتب الثمينة

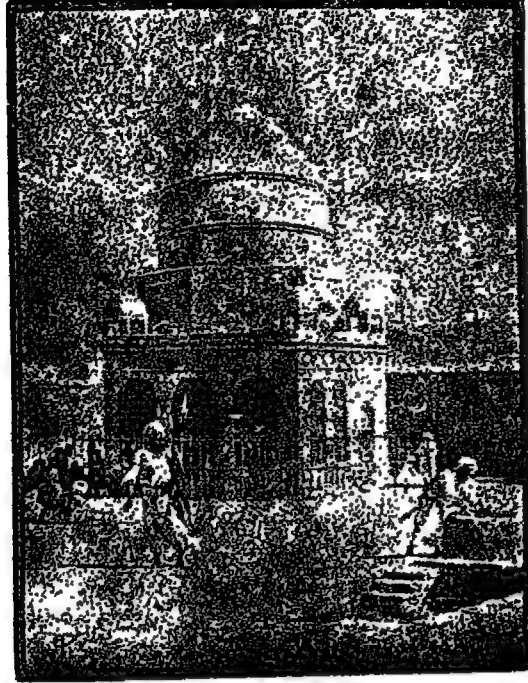


الدرأويش يقدمون رأس غوردون إلى التعايشي

== ومتى علمت أن الملك أميتسى هذا كان من عبدة الأوثان فإن ملحوظة السيرصويل تدل على أن حملته لم تؤد إلى قطع دابر النخاسة فقط بل وأيضا إلى تغلب الدين الإسلامى على الوثنية . ثم إن إنشاء المدرسة المذكورة كان معناه بداية محاربة الآمية . ويظهر أن ولاء ملك أوغندا لخديو مصر أثار القاقى فى نفوس رجال السياسة مما دفع بالجلترة إلى تجهيز حملة غرضها الظاهر معاونة الدكتور ليفنجستون بينما كانت ترى فى الحقيقة إلى الحيلولة دون توطيد العلاقات بين مصر وأوغندا . وقد أدرك اسماعيل هذه الغاية فكان ما كان من تكليفه الكولونيل شالى لونج بك بالأسراع بالذهاب إلى بسط حماية مصر على تلك المملكة كما فصله سمو الأمير البجاجة عمر طوسون فى ص ٣٢٠ ومن حق الكولونيل شالى لونج بك على المصريين أن يذكره بالخير لأن الرجل كما توسم اسماعيل فيه وفى بقية زملائه الأمريكان لم يفتأ يدافع عن مصر فى كافة ما خطه يراعه فى الكتب التى تعتبر من أهم المراجع فى تاريخ السودان الحديث ومنها كتاب « مصر ومديرياتها المضيفة » التى سبقت الإشارة إليه ثم كتاب الأنبياء الثلاثة غوردون والمهدى وعرابى ، وكتاب « افريقيا الوسطى » هذا عدا مئات المقالات التى نشرها بالصحف دفاعا عن مصر .

وبعد المحادثة التى دارت بين شالى لونج وبين اسماعيل باشا ذكر ذلك الضابط الشهم أن غوردون أنفذه إلى عاصمة الملك أميتسى فعقد المعاهدة التى وضع الملك بلاده ==

النادرة كما انه أرسل جميع الأمراء إلى المدارس .



قبة قبر المهدي حيث كان يزورها الدراويش إلى أن أمر لورد كتشتر بنسفها

بمقتضاها تحت الحماية المصرية وقد أرسلها شالي لونج إلى الخديو فأبلغها شريف باشا إلى الدول ولكنها فقدت فيما بعد من وزارة الخارجية المصرية ضمن وثائق أخرى نفيسة!! وبهذا سبق شالي لونج الحملة الانجليزية التي لاحظت عند وصولها إلى أوغندا في ابريل سنة ١٨٧٥ وجود ارنست لينان دى بلفون (بن لينان باشا مهندس القناطر الخيرية) ضمن حاشية الملك اميتى ممثلا للحكومة المصرية وكان الملك اميتى يفاخر بتبعيته لخديو مصر .

وليس يسعنا أن نترك الكلام على الكولونيل شالي لونج دون أن نذكر أنه هو مكتشف بحيرة ابراهيم (ويراها القارىء في الخريطة ص ٣٣٠ شمال بحيرة فكتوريا) وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنه اسم أبي الخديو بعد أن كان يطلق عليها في الماضي اسم « كيوجا » . وما يدعو إلى الأسف أن جغرافي الأفرنج لا يزالون يطلقون الاسم القديم على هذه البحيرة كأنهم لا يريدون أن يسمعوا باسم مصرى بين سلسلة الأسماء الأفرنجية التي أطلقت على البحيرات الاستوائية .

ولا تنس الإصلاح السياسى الذى خططت البلاد فى سبيله خطوة أخرى

= وبينما كانت تجرى هذه الأعمال الباهرة التى يقوم بها الكولونيل شالى لونج بك كانت أعمال الفتح فى أنحاء السودان الأخرى و بالقرب من سواحل البحر الأحمر سائرة على قدم وساق بفضل عزيمة حكامدار السودان اسماعيل باشا أيوب .

اهتمام اسماعيل بشاطئ البحر الأحمر

لم يكن لاسماعيل باشا مفر من متابعة فتوحاته فى أوسط افريقيا لاستئصال شأفة النخاسة وقطع دابر صيادى الرقيق وفتح أبواب مجاهل افريقيا للبدنية . على أنه سرعان ما أدرك أن الحيلة تقضى بسد طريق البحر الأحمر فى وجه تجار الرقيق . ومن هنا أخذ يهتم بالاستيلاء على الجهات المتاخمة لشاطئ ذلك البحر .

ضم زيلع وبربره

فبعد أن أتم فتح دارفور اتجهت نيته إلى ضم زيلع وبربره لانظرا لأهميتهما التجارية لحسب بل لموقعهما الجغرافى والحربى أيضا لأن من يستولى عليهما يستطيع التسلط على الملاحة فى خليج عدن إلى مدخل البحر الأحمر .

وربما يهملك أن تعرف أن من بين بلاد زيلع بلدة (جبرت) التى ينسب اليها أجداد الجبرتي المؤرخ المصرى المشهور وقد هاجرت أسرته إلى مصر واستوطنت بها . ولقد مر بك أن اسماعيل تمكن من حمل الباب العالى على التنازل له عن زيلع وبربره التابعتين للواء الجديدة وذلك بمقتضى فرمان أول يولية سنة ١٨٧٥ فى مقابل زيادة فى الجزية السنوية قدرها ١٣٣٦٥ جنيه مصرى ثم اهتم الخديو بعمران تلك الجهات وأقام فيها عدة منشآت كلفته فى بربره وحدها على حسب تقدير غوردون باشا ٧٠ ألف جنيه . و بضم زيلع وبربره امتدت حدود مصر على سواحل البحر الأحمر من سواكن إلى جردفون على المحيط الهندى .

ولبثت هاتان المحافظتان ملكا لمصر إلى أن أخلتهما الجنود فى إبان الثورة المهدية فى مايو سنة ١٨٨٥ حيث احتلتهما الجنود الانجليزية ولا تزال هما إلى الآن .

الاستيلاء على هرر فى سنة ١٨٧٥

واتجهت نية اسماعيل بعد ذلك إلى الاستيلاء على سلطنة هرر الواقعة شرق الحبشة وغربى زيلع وهى إمارة اسلامية يبلغ عدد سكانها المليونين تقريبا . ولما كان أميرها قد ساق الأهلىن سبل الأرهاق والعسف حتى جأروا يطلب الخلاص =



محمد رؤوف باشا

==منه فانهم لم يبدوا مقاومة تذكر عند ما استولت الجنود المصرية بقيادة محمد رؤوف باشا في سبتمبر سنة ١٨٧٥ على بلادهم . وفي ١١ أكتوبر من السنة نفسها سقطت العاصمة هرر بأيدي المصريين وضمت السلطنة إلى أملاك مصر .

ثم عين رؤوف باشا حاكما عاما عليها كما عين أميرها السابق محافظا لمدينتها . ولكن رؤوف باشا لسبب غير معروف تربص بالأمير وقتله وظل حاكما لتلك الإمارة إلى أن أقاله منها غوردون باشا بعد أن عين حاكما عاما للسودان . ثم ظل الحكم المصري قائما في تلك الجهات إلى أن حان وقت الجلاء عن السودان في إبان الثورة المهدية فانسحبت الجنود المصرية من هرر بأمر الحكومة الإنجليزية في سنة ١٨٨٥ وكان عددهم مع بقية الموظفين ورجال البوليس والعمال نحو ٨٥٧١

وتسلم السلطنة بعد انسحاب المصريين أمير من الأمراء الذين كانوا يحكمونها قبل الفتح المصري ولكن ما لبث أن أغار عليها الأحباش وفتحوها وضعوها إلى بلادهم ولا تزال خاضعة لحكمهم إلى اليوم .

فتح بلاد السومال

غير أن اسماعيل لم يشأ الاكتفاء في الاستيلاء على شواطئ البحر الأحمر بالقوات الموجودة في السودان بل رأى أن يعززها بقوات أخرى يرسلها عن طريق المحيط الهندي . ففي الوقت الذي كانت فيه الجنود المصرية تستولى على هرر اذا بالتحديو - بالاتفاق مع غوردون باشا - يجهز حملة عسكرية بقيادة الكولونيل شالي لونيغ على أن تتولى نقلها عمارة ==

في عهد اسماعيل . فان محمدا عليا كان قد سبقه إلى إيجاد معاهد نيابية وذلك

== مصرية يقودها الاميرال ما كيلوب باشا وكانت الحكومة الانجليزية قد عاقبته على خرق نطاق الحصار البحري في الحرب الأمريكية باحائه على الاستيداع فعينه اسماعيل باشا مديرا للمواني، والمنارات المصرية . وكان في تلك الحملة ضابط أمريكي آخر هو الكولونيل « وورد » من ضباط الاسطول الأمريكي كما كانت تضم أيضا الضابط الإيطالي فريدريكو باشا . وكل ذلك مما يدل على أن اسماعيل كانت له مطلق الحرية في اختيار من يحوز ثقته بين الضباط الأجانب دون النظر إلى جنسياتهم .

وقد حدثنا المستر كراييتس أن الكولونيل شالي لونيغ كان في القاهرة عندما صدرت إليه أوامر اسماعيل في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ بالسفر حالا إلى السويس لقيادة الحملة المصرية المتجمعة هناك على ظهر الباخرتين « طنطا » و « دسوق » ثم جاءه رسول خاص في منتصف ليلة ١٨ سبتمبر يحمل تعليمات سرية محتومة مصحوبة بخطاب من الخديو بالألا يفض الاختتام إلا متى أصبح على بعد ٥٠٠ ميلا جنوبي السويس .

وفي يوم ١٩ سبتمبر سافرت الحملة المصرية قاصدة خليج عدن حتى إذا قضت في البحر ثلاثة أيام قال الأمير ما كيلوب باشا للكولونيل شالي لونيغ إن العمارة قد قطعت المسافة المطلوبة وأنه في انتظار تعليمات جديدة .

وهنا فاض الكولونيل الاختتام وقرأ التعليمات التي أصدرها إليه اسماعيل بخطه في يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٥ فإذا هي كالآتي :

« توكيدا لما صدر إليك من الأوامر الشفوية يتعين عليك السفر إلى السويس حيث ترى ثلاث آلايات معهم ذخائرهم النخ نخذهم إلى بربره على ظهر الباخرتين « طنطا » و « دسوق » . ثم عليك أن تسلم لما كيلوب باشا ما تحمله من التعليمات . وسينزل ما كيلوب باشا الآن إلى البر في بربره ثم يستأنف السفر إلى جوبا فوراً . ولست أراي في حاجة لأن أكرر مرة أخرى بآتي أريد أن يبق أمر هذه الحملة سرا مكتوما إلى أن تصل إلى جوبا . وقد كتبت بهذا المعنى إلى ما كيلوب باشا ولكني أكلفك أيها الكولونيل بأن تكرر هذه الأوامر له شفويا . وإنني أعتمد على غيرتك ونشاطك وذكائك . »

وفي الوقت نفسه كتب نوبار باشا إلى ما كيلوب باشا خطابا بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٥ لافتاً نظره إلى ضرورة تكتم أنباء هذه الحملة . وقد عثر المستر كراييتس على هذا الخطاب في دار المحفوظات الملكية وإليك ما جاء فيه :

بتوسيع سلطة مجلس أو جمعية الأعيان وسلطة الديوان أو المجلس الخاص

== سيلفك الكولونيل لونج الأوامر الخاصة بك . وستجد فيها ما ينبغي عليك عمله . فالمهمة الموكول إليك أداؤها من الأهمية بمكان وهي في حاجة إلى أن يقوم بها رجل يجمع إلى الذكاء طيبة القلب . وهذا ما جعل الخديو يقع اختياره عليك . وليس لي إلا أن أوصيك بأمر واحد وأعتقد أني أصدر فيه عن رأي الخديو وهو أن تتوخى الباقية وأن تكون في منتهى الدهاء والحذر فيما لو اتصل بك الوكلاء السياسيون المعينون في بلاط سلطان زنجبار ودعوك إلى الانسحاب إما باسم السلطان أو باسم دولهم .

و عندئذ هذا الافتراض بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلا إلا إذا كانت الحكومة التي يقوم مندوبها السياسي بمثل هذا المسعى قد عولت على أن تضع نفسها علانية مكان السلطان . وعلى كل فلا توجد حتى الآن حكومة تقدمت بمثل هذا الزعم . ولكن لو افترضنا حدوث هذا الاحتمال فما عليك إلا أن تحيل هذا الوسيط أو المندوب السياسي إلى الخديو فوراً ، فإلى سموه ينبغي أن تكون المكاتبات لأنك إنما تكون مجرد منفذ لأوامره . ولست في حاجة إلى أن أخبرك أن كل ما يمكن أن يدعيه السلطان من المزاعم لأساس له على الإطلاق . وقد كلفني مولاي الخديو بأن أقول لك بأنه ينبغي عليك أن تبقى الغاية من رحلتك سرا مكتوماً بل أكثر من سر مكتوم . وفيما عدا الكولونيل لونج الذي يعلم حقيقة الواقع فلا ينبغي أن يعرف أحد على ظهر السفينة بأنك ذاهب إلى جوبا .

وقد يهملك أن تطلع على ما أرسله ذلك الخديو العظيم من التعليمات السرية إلى ماكيلوب باشا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . ولكيما نطقي ظمناً تظلمك نخبرك أن الخديو بعد أن أشار إلى الخمسة آلايات التي ستكون تحت قيادة الكولونيل شالي لونج قال :

د لكيما تكون تشبعا بروح المهمة التي تقوم بأدائها بحيث تستطيع مواجهة ما عسى أن يواجهك من الظروف الحسنة أرسل لك برفقة هذا صورة من الأوامر التي أرسلتها للجنرال غوردون (أرجو أن يلاحظ الاستاذ الراقى بك هذا ليعلم أن اسماعيل لا انجلترا هو الذي كان يامر غوردون) ولسوف ترى من هذه التعليمات أنها ترمي إلى فتح طريق للمواصلات بين البحيرات والأوقيانوس في وجه التجارة . ففي هذا العمل - المعهود أتمامه إلى غوردون - يجب أن تتعاون .

و أما المنفذ الذي أوضحته لغوردون باشا فهو مصب نهر الجوبا . فإلى هناك ينبغي ذهابك . وعليك أن تنزل إلى البر في تلك النقطة حيث تنتظر وصول الجنرال غوردون ==



الوزير الخطير المغفور له حسين باشا نفري والد معالي محمود
نفري باشا وزير مصر المفوض في باريس وإليه يرجع الفضل في وضع
مشروعات قوانين المحاكم الأهلية في مصر في عهد اسماعيل باشا

== أو وصول تعليماته إليك لأن أول ما ينبغي عليك عمله أن تعرف مكانه وأن تتصل به .
وقد وضحت التعليمات التي ينبغي أن يتبناها ما كيلوب في أثناء انتظاره وصول
غوردون وحددت تحديداً تاماً . وكان من بين هذه الأوامر ما تضمنته الفقرة الآتية :
« في خلال زيارته للقاهرة فاتحنى سلطان زنجبار فيما يزعمه لنفسه بخصوص شاطئ
الاقيانوس لغاية رأس « حقون ، ولم أهتم بمجادلته لأنه كان ضيفي وكان يتعين على
الصمت عملاً بواجبات اللياقة والكرم . وقد أخبرني أن في نيته بمجرد عودته إلى دياره
أن يرفع رايته على جوبا ورأس حقون . فاجتنباً للشاكل الأخرى ولمنعه من تنفيذ
عمل اغتصابي وغزوه أراضينا ، كل هذه الاعتبارات هي التي جعلتني أعجل بترحيلك .
ففي رفعنا رايتنا فوق مصب الجوبا يمكن وقشد بتثبيتنا حقوقنا بهذه الصفة اجتناب ==

ثم ما عثم أن ألقى عباس المجلس المذكور ولكن اسماعيل أعاده من

== ما سوف يترتب على تنفيذ السلطان لنواياه من عواقب داعية إلى الأسف .
« وإني لعلّى يقين بأنك متى هبطت إلى جوبا فلن تجد هناك راية ولا سلطة موطدة .
وأن نزولك إلى البر سيتم بسلام . ولكن علينا أن نحسب حساب احتلال المكان .
اسمياً أو فعلياً . فينبغي عليك في كلا الأمرين أن تقترب من المحتلين بروح ودية وأن تدعوهم
إلى مغادرة المكان . فإن أبوا فإليك إلا الالتجاء إلى ما أودعته تحت تصرفك من
الوسائل العسكرية . لأن علينا أن نعود إلى امتلاك أراضى تابعة لحكومتنا . وأريدك
أن تكون متنبها غاية التنبه إلى هذه النقطة وهي أن مصب نهر الجوبا تابع لنا . نعم إن
نيتي أن أكون في سلام مع سلطان زنجبار ولكنني لا أستطيع أن أسمح بأن يغتصب
السلطان شيئاً من حقوق أو يحتل أرضاً تابعة لحكومتى . »

وليس يسعنا أن نمر بهذه الأوامر الصريحة دون أن نقف هنيئة لنسائل صديقنا
الاستاذ الراقى بك إذا كان لا يزال يظن أن اسماعيل كان في كل معاملاته مع غوردون
يصدر عن رأى السياسة الإنجليزية أو ينفذ رغباتها ؟ وما قول حضرة في موقف اسماعيل
إزاء سلطان زنجبار المشمول برعاية إنجلترا ؟ أليس يعتبر موقف اسماعيل بمثابة تحد
خفى لنفوذ بريطانيا في تلك الجهات ؟

وسواء أكان من حق اسماعيل أن يتطلع إلى امتلاك تلك المناطق أم لم يكن فقد
كان المنتظر أن تعطف أوروبا على مطالب الخديو وأن تفرك يديها تحمسا له
باعتباره يمثل قضية الحرية بدلا من شد أزر سلطان زنجبار الذى كان يعتبر معقد آمال
تجار الرقيق .

وعلى كل حال فقد سافرت هذه الحملة باسم الله مجراها ومرساها قاصدة خليج عدن
ومنها إلى رأس حفون جنوبى رأس جردفون ثم إلى « براوة » حتى وصلت إلى مصب
نهر الجوبا في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ولكن التيار الشديد حال دون نزول الجنود إلى
البر فسار ما كيلوب باشا بالحملة جنوبا إلى جهة « قساو » أو « بور اسماعيل » فاستولى
عليها ودعا القبائل إلى الدخول في طاعة الحكومة المصرية فلبت الطلب .

وقد وجدت الحملة المصرية في قلعة « قساو » اثني عشر مدفعا وكية من الأسلحة
ونحو ٤٠٠ جندي تحفق عليهم راية زنجبار . ولم تبد الحامية أية مقاومة للجنود المصريين
بل سلمت على بكرة أبيها . واذ ذاك عثر الكولونيل شالى لونج على ٥٠٠ من الرقيق داخل
القلعة على أهبة الاستعداد ليشحنهم تجار الرقيق عند سنوح أول فرصة مناسبة .

جديد . نعم إن المجلس لم يجتمع إلا مرة واحدة في العام للموافقة على

== وقد كان طبيعياً أن تزعج هذه الحملة بال سياسة العليا على نحو ما قرره الأستاذ الرافعى بك وبخاصة بعد اعتزامها السير غرباً في اتجاه بحيرة فكتوريا لفتح طريق المواصلات الجديد بين الأقيانوس والبحيرات الذى كان يطمح إليه اسماعيل كما ورد في تعليماته إلى ماكيلوب باشا . وقد تدخلت السياسة البريطانية دفاعاً عن سلطان زنجبار فلم يسع اسماعيل إلا الكف عن متابعة الحملة مجاملة لانيانجرا .

أما تفصيل ذلك فهو أن ماكيلوب باشا تلقى في ٢٩ أكتوبر أمراً بالانتقال جنوباً إلى نقطة تسمى « فورموزا » باعتبارها أصلح مناخاً من جوبا . ثم ما هى إلا أيام قلائل حتى وصلته رسالة من القاهرة بأن سلطان زنجبار احتج للحكومة البريطانية على احتلال المصريين لقسمايو . ثم وصلته رسالة ثالثة بعد ذلك بتوكيد الأبناء السالفة وتضيف إليها بأنه « إذا لم يكن قد ذهب فعلاً إلى فورموزا فالأولى ألا يذهب إليها » .

وبعد أن أورد المستر كراييتس هذه التعليمات التى عثر عليها في دار المحفوظات الملكية استطرد فقال « إن اسماعيل بدأ يشعر بوطأة الضغط من ناحية دولة أخرى أعظم شأنها من زنجبار فاضطر إلى العدول عن تلك الحملة » .

ثم استشهد المستر كراييتس بما ذكره الكولونيل لونج في هذا الصدد إذ قال « لم تكن قسمايو مدينة سيئة السمعة فحسب بل لم تكن للالهالى صناعة سوى التخريب واقتناص الرقيق . وأحسب أن تجريدتنا باحتلالها قسمايو قد استحققت شكر العالم المتمدنين وبخاصة وأنها قد لقيت وأطلقت سراح ما يزيد عن ٤٠٠ رقيق » .

ولكن ... نعم ولكن كل هذه النفقات التى أنفقت في سبيل الخير هذه ذهبت هباء لأن دولة كبيرة كانجلترا لها أسمى اعتبار في نظر الدول الأوروبية وتعد في طلبعة العالم المتمدنين لم تشأ أن يواصل اسماعيل سيره في الطريق التى رسمها لنفسه وهى بسط سلطة مصر على شواطئ المحيط الهندي ومنها إلى منابع النيل . أليس هذا كله معناه أن هذا الرجل العظيم كان يعمل ما يعمل به مستلهماً وحى ضميره وعقيدته لا يتأثر إلا بمقتضيات الإنسانية ولا يبغي جزاء ولا شكوراً على سعيه للوصول بالسودان إلى مصاف البلاد المتمدنية ؟

ولا بد من ملاحظة صغيرة نسوقها هنا رداً على الأستاذ الرافعى بك . فقد ذكر في سياق كلامه عن حملة السومال أن الحملة البرية التى كانت احتلت قسمايو وتأهبت ==

التقرير السنوى المقدم إليه من المجلس الخاص دون أن يكون له الحق

== للسير غرباً قاصدة بحيرة فيكتوريا أبطأت في الزحف من قسمايو وأن شالى بك لونغ قال: إن من أسباب اخفاقها اغضاء غوردون عن الاتصال بها رغم الأوامر الصادرة إليه من اسماعيل ، ويعزو لونغ بك هذا الاغضاء إلى احتمال وصول تعليمات من لندن إلى غوردون توجب عليه عدم التعاون مع هذه الحملة . وراح الأستاذ الرافعى بك يستنتج من هذه الاحتمالات عدم إخلاص غوردون لمصر وعدم ولائه للحكومة المصرية الخ الخ

ولسنا نتولى هنا الدفاع عن غوردون وإنما نرى إحقاقا للحق أن نذكر أن غوردون باشا أثبتت العبارة الآتية في مذكراته اليومية بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ على ماورد في ص ٦٥ من كتاب «الكولونيل غوردون في أواسط افريقيا من سنة ١٨٧٤-١٨٧٩» المطبوع في لندن سنة ١٨٨١ ما نصه :

« لقد اقترحت على الخديو أن يبعث في إحدى السفن بمائة وخمسين جندي إلى خليج عباسا على بعد ٢٥٠ ميلا في شمالي زنجبار وهناك ينشؤون محطة ثم يتوغلون في جهة «معيزة» فان توصلت إلى تحقيق هذه الأمنية اتخذت قاعدتي في عباسا واستغيت عن الخراطوم ومتاعب السفن البخارية . . ومن ثم يمكن فتح أواسط افريقيا بالطريقة الناجعة ... فأرجو أن يفعل الخديو هذا ... »

ومن هذا ترى أنه كان يستصوب فتح منطقة البحيرات من ناحية الأقيانوس بدلا من اتباع مجرى النيل . فاذا كان هذا رأيه وإذا كان هو الذى اقترح على الخديو إرسال الجنود إلى خليج عباسا فكيف يمكن منطقياً اتهام الرجل بالأغضاء لحاجة في نفس يعقوب ؟ ألا إن الواقع هو أن الخديو بعد تدخل الإنجليز بسبب احتجاج سلطان زنجبار هو الذى أمر بوقف الزحف إلى منطقة البحيرات كما ذكرناه لك . ونحسب أن عاقلا لا يمكن أن يلوم الخديو على عدم تورطه في مجافاة السياسة البريطانية وقتذاك .

اعتراف إنجلترا بسلطة مصر في السومال

ثم ما لبثت الحكومة البريطانية أن عقدت معاهدة مع الحكومة المصرية في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وردت نصوصها في قاموس الإدارة والقضاء للأستاذ فيليب بك جلال الجزء الثانى ص ٤٩٠ وفيها تعترف إنجلترا لمصر بامتلاكها سواحل بلاد السومال لغاية رأس جردفون ثم رأس حفون .

في مناقشته هذا فضلا عن أن « الانتخاب » لهذا المجلس كان تعييناً أكثر

== وناب في توقيع هذه المعاهدة شريف باشا عن الحكومة المصرية والمستر فيفيان
قنصل إنجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية .

ويأتى القدر الساخر إلا أن تستولى إنجلترا بعد اخلاء السودان على زيلع وبربره
وملحقتهما كما أخذت فرنسا تاجورا وملحقاتها وإيطاليا رأس جردفون .

معاهدة لمنع الرقيق بين إنجلترا ومصر

كانت إحدى نتائج الحرب الشعواء التى أعلنها اسماعيل باشا وغوردون على النخاسة
أن بريطانيا العظمى عقدت مع مصر فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ معاهدة نصت
بين ما نصت عليه على أن تحرم مصر جلب الرقيق إلى بلادها وأن تتعاون الدولتان
المتعاقدتان على منع النخاسة فى البحر الأحمر .

وبدعى أن العبرة فى المعاهدات هى فى طريقة تنفيذها . وإذا كان اسماعيل يصدر
عن روح مخلص فى كل ماله علاقة بالنخاسة ووسائل منعها فقد أراد أن يظهر من
جديد حرصه على استئصال شأفة هذه التجارة الممقوتة بأن طلب إلى حكومة لندن أن
تمده بأحد الضباط البحريين للتعاون معه على أداء تلك المهمة الإنسانية فى سواحل
البحر الأحمر .

فاقترحت لندن الكومندور مالكولم الذى أنعم عليه اسماعيل برتبة الباشوية
وجعله مديراً عاماً لمصلحة منع تجارة الرقيق .

ويأتى سوء الحظ إلا أن تستحكم حلقات سوء التفاهم بين مالكولم وغوردون
ويصبح التعاون بينهما مستحيلاً إلى حد أن مالكولم قدم استقالته للخديو الذى تردد
أولاً فى قبولها ثم اضطر فيما بعد إلى تلبية صاحبها إلى طلبه مؤثراً الاحتفاظ بغوردون .

استعفاء غوردون باشا

لوجارينا خصوم اسماعيل جدلاً فيما رموه به من المطاعن والمثالب لما رأينا واحداً
منهم - بالغاً ما بلغت خصومته - يجرؤ على اتهام الخديوى بقصر النظر وتجاهل صاحبه
الخصوصية وبخاصة متى كانت متفقة مع المصلحة العامة . بل بالعكس نرى الخصوم
بجمعين على حدة ذكاء الرجل وفرط نباهته وحصافة رأيه .

فانصح أن غوردون باشا كان مدسوساً من ناحية السياسة الإنجليزية على الخديو ==

عما كان انتخابا وكان أعضاؤه عمد القرى ومن عداهم من الأعيان . ومهما

== فما كان أولى بإسماعيل أن يرحب باستغفاء غوردون بل لما كان يعقل أن يسعى ليجعله على العودة إلى خدمته بعد الاستقالة كما حدث .

ولقد ذكر الأستاذ الرافعى بك فى ص ١٣٣ من كتابه القيم تحت عنوان « استقالة غوردون » ما نصه :

« بقى الكولونيل غوردون مديراً لعموم خط الاستواء إلى أن استعفى من منصبه سنة ١٨٧٦ وعاد إلى القاهرة ومنها إلى إنجلترا . ولعله رحل إليها ليطلع حكومته على أحوال المنطقة التى تولى حكمها وليتلقى تعليماتها الجديدة فيما تأمره به فإنه لم يلبث فى إنجلترا ثلاث سنوات إلا قليلا حتى تدخلت الحكومة الإنجليزية لدى الخديو لتعيينه فى منصب أكبر من منصبه القديم إذ جعله حكامدار عموم السودان فصارت أقاليم السودان تحت مطلق تصرفه . »

ولعل غوردون هو أولى الناس بمعرفة الأسباب الخفية الحقيقية التى دفعته إلى الاستقالة كما أنه أيضاً أعرف الناس بالأسباب التى حملته على استئناف التعاون مع الخديو . هذه الأسباب فى كلا الأمرين تتنافى مع ما كتبه صديقنا الكبير الأستاذ الرافعى بك . وإليك البيان :

فى ص ١٢٠ من كتاب « خطابات غوردون لشقيقته » — وهى خطابات لم يكن غوردون يتوقع نشرها يوما ما — وصف غوردون اتجاه مجرى النيل بعد خروجه من بحيرة فيكتوريا ودخوله إلى بحيرة البرت فقال :

« يغطى مدخل بحيرة البرت عدد من الجزر . والماء فى البحيرة ساكن وراكدا ومنظرها غير بهيج . أما الأهالى فى سكوت ونواياهم حسنة بالنسبة لنا . ولقد رأيت قطيعاً من الفيلة اليوم يتناول الطعام ويدل منظره على الاغتراب ، وهو يحشر البرسيم حشرا فى أفواهه بنفس السرعة التى تبصق بها الماء من فك فى حوض واسع . والمكان جد موحش هنا . فلست تسمعين صوتاً ولا ترين أثراً للحياة والمناظر كلها تغم النفس وتقبضها . وفى عزى — إذا شاء المولى — أن أقصد من هنا إلى جهة فويره ثم أرسم تلك الناحية ومن ثم أذهب إلى مرولى فأروندجانى ثم إلى ستزا (أو مساقط ريبون) وأرفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا ثم أرسم مجرى النهر من كوسيتزا إلى أروندجانى ثم منها إلى مرولى . والمسافة من كوسيتزا إلى أروندجانى ٤٠ ميلا بالبر والنهر هناك غير صالح للملاحة ==

كان شأن هذا المجلس فانه كان برغم ذلك معهداً وطنياً مهماً عمل

ولكنه على عكس ذلك بين أروندجانى ومرولى . ولما كنت قد انتهيت من رسم النهر بين مرولى وفويره . فسأكون إذ ذاك قد انتهيت من رسم مجرى النيل بأكله ...

فهل يدرى القارىء ما كان يعانيه غوردون من المصاعب فى سبيل إتمام مهمته هذه ؟ إليك ما كتبه فى هذا الصدد إلى شقيقته فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٦ إذ قال :

« لقد أشرفت على الهلاك . فلقد اقتضى رسم مجرى النيل مسافة ثمانية أو عشرة أميال أن أسير وسط الأخراج مسافة ١٦ ميلاً فى مطر منهمر انساب من السماء كما لو كان قد انساب من أفواه القرب . وعلى كل فقد تم رسم المجرى وفى يقينى أن شخصاً آخر لن يحاول القيام بهذه المهمة مرة أخرى . »

وكان قد كتب إلى شقيقته قبل ذلك بعدة أسابيع ما تراه فى صفحة ١١٩ إذ قال :
ما أسوأ الجو هنا فاقى لا أكاد أذوق للنوم طعماً ... وكل شيء معوج لا يؤدي إلى الغاية المرجوة . ويحتمل أن مرض الكبد هو الذى يجعلنى أظن ذلك ... كم أتمنى أن أتم هذه المهمة . إنه لا يزال أمامى شهران من هذا العناء والنصب . فهل أذل ما أمامى من المصاعب ؟ من يدرى ؟ »

ثم عاد غوردون إلى التكلم عن مرض الكبد فقال مخاطباً أخته :
« فى وسعك أن تقدرى مبلغ غمى لعدم استطاعتى رسم الثغرات فى مجرى نهر نيل فيكتوريا (وهو الاسم الذى يطلقونه على النيل بين بحيرة فيكتوريا وبحيرة ابراهيم) ولست أدري هل أوفق فى هذا أم لا ... فان عاودتى الصحة فعلت ولكنى أشعر من يوم لآخر بثقل وطأة مرض الكبد . »

وبعد ذلك يومين كتب يقول :
« إن حالتى الصحية سيئة بسبب الدماء المنهمة من أنفى وقد كدت أن أختق مساء أمس بسبب هذا الرعاف الشديد . »

ففى سبيل من كانت كل هذه الجهود ؟ قد يقال إن غوردون كان يعمل لحساب انجلترا ولكن هاك ما كتبه إلى خيرى باشا حامل الختم الخاص ومنه ترى مبلغ ما كان يعلقه غوردون من الأهمية على تنظيم الملاحة فى بحيرة فيكتوريا . وهذا الخطاب موجود فى دار المحفوظات الملكية وقد افتحه غوردون بهذه العبارة :

« هناك مسألة ينبغى على مصر النظر إليها بعين الحذر وهى ألا تجرى فى بحيرة فيكتوريا سفن تابعة لدولة أخرى عدا مصر . ولقد سبق أن كتبت لك أنه عند مايم =

اسماعيل على تميمته قبل عزله . وكانت البلاد في ايمان ذلك العهد تحكم بطريقة

= رفع الراية المصرية على بحيرة فيكتوريا - وهو ما سيتحقق في القريب العاجل إن شاء الله - فان أول ما ينبغي أن نغنى به مصر هو أن تحتفظ بملكيتها لبحيرة فيكتوريا وأن تحول دون الملاحة فيها بواسطة سفن غير مسموح لها بذلك من الحكومة المصرية . وكان قد لب لاخته قبل ذلك يقول :

« في نيتي مواصلة السير إلى أن أبلغ البحيرة (يتصد بحيرة فيكتوريا نيانزا) وأن أرفع الراية وأمكن الخديو من إدخالها ضمن أملاكه . »

فهذه الخطابات كلها تضرب على نغمة واحدة هي أن غوردون برغم ثقل المرض وبرغم ما كان يقوم أمامه من المتاعب التي تنوء بها كواهل العصبة أولى القوة كان قد وطد عزيمته على الوصول إلى بحيرة فيكتوريا ورفع الراية المصرية عليها لا باسم إنجلترا بل باسم اسماعيل .

وما نحسب أن غوردون الذي اشتهر باستقامة الخلق كان كاذبا في خطاباته الخاصة لشقيقته أو أنه كان فعلا صحيح البدن معافي عند ما كتب لها بعكس ذلك أو أنه كان ينوى رفع الراية المصرية على البحيرة بينما كان يضمّر رفعها باسم إنجلترا ومصر .

بل إن من الطبيعي بعد أن حقق غوردون مهمته التي انتدبه لها اسماعيل وبعد أن تفاقمت حالته الصحية حتى أصبحت مهددة بالخطر أن يعجل بالعودة إلى وطنه .

فما هو أن وصل إلى القاهرة حتى ذهب - كما كتب بخط يده - إلى مقابلة شريف باشا وطلب إليه أن يخبر سموه بأنه عول على اعتزال الخدمة .

وفي يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٦ وصل غوردون إلى لندن وفي نيته عدم العودة إلى مصر .

فلو صح أنه كان مدسوساً على اسماعيل - وهي حقيقة لانظنها كانت تخفى على ذلك الخديو العظيم - لمد الله على أن خلصه من ذلك الداهية الانجليزية . ولكن اسمع ما نقصه عليك .

لم يكد غوردون يقضى عطلة عيد الميلاد بين أهله وذويه حتى وصلته البرقية التالية من اسماعيل و تراها في ص ١٣٦ من كتاب خطابات غوردون لشقيقته ، وهي كما يأتي :

« عزيزي غوردون باشا .

« لقد أطلعتني المستر فيفيان (قنصل بريطانيا العام في مصر) على الرسالة التي طلبت إليه فيها أن يخبرني بأن العروف لا تسمح بعودتك إلى مصر . ولقد اتخذني العجب كل =

أو تقراطية لأن اسماعيل رغم ثقافته الأوربية كان يحكم البلاد كالحاكم الشرقى

== مأخذ لسماع هذا بعد محادثتنا في قصر عابدين تلك المحادثة التي أرى من حق أن أملق نفسي بشأنها لأنني استطعت في خلالها أن أقنعك بضرورة مواصلة العمل الذي بدأناه سوياً وطلبت إليك أن تعود إلى منصبك في مصر . ولما اقررنا كانت كلمة الوداع الصادرة منك هي « إلى اللقاء . »

« فليس يمكن والحالة هكذا أن أعزو برقيتك إلا إلى ما تشعر به من الارتياح الطبيعي لوجودك في وطنك وبين عشيرتك وأهلك وليس في وسعي أن أصدق أن سيداً كغوردون يحاول - لسبب من الأسباب - التلصص من الوعد الذي قطعه لي . ولهذا لا يمكنني يا عزيزي غوردون النظر جدياً في برقيتك بل سأرغب عودتك حسب وعدك . » الامضاء « المخلص اسماعيل »

فلما تسلم غوردون هذه البرقية ذهب فوراً لاستشارة القائد الأعظم للجيش البريطاني الذي أفهمه أن واجبه يحتم عليه الانصياع لألحاح الخديو . فأبرق غوردون لاسماعيل يبلغه أنه يقبل العودة على شرط أن يعين حاكماً عاماً للسودان بدلاً من اسماعيل باشا أيوب الذي كثيراً ما أقام العقبات في سبيله (غوردون) . ولما كان غوردون يعلم أنه يحطالته الخديو بعزل أيوب باشا يضعه في مركز حرج فانه آثر الاستقالة في الدفعة الأولى .

فعلام تدل كل هذه الحكاية ؟ إنها تدل كما قلنا على أن اسماعيل استخدم غوردون لأنه ارتاح إلى إخلاصه وصدق عزمته . فلو أنه اشتهم منه ولو من بعيد رائحة العمل لحساب السياسة الإنجليزية لما صبر على إبقائه في الخدمة بل ولما كان ألح في المطالبة بعودته بعد الاستقالة .

ولم نكتب هذا دفاعاً عن غوردون بل كتبتاه لتنفى عن اسماعيل تهمة الاستخذاء للسياسة البريطانية والنزول على إرادتها فيما كان له مساس بالفطر الشقيق .

« مديرية خط الاستواء »

وبحسبنا ما كتبتاه في هذا الباب فنتقل بعد ذلك إلى مصير مديرية خط الاستواء . بعد استقالة غوردون في سنة ١٨٧٦ . فانه عين مكانه الكولونيل بروت وهو أحد الضباط الأمريكيين الذين أبلوا أحسن بلاء في خدمة مصر والجيش المصري . ولما عاد غوردون إلى السودان وعين حاكماً له جعل إبراهيم بك فوزى مديراً ==



أمين باشا

== لخط الاستواء . ثم فصله وعين مكانه الدكتور أدوارد شنتزر وكان طبيباً ألمانياً صاحب غوردون في السودان واعتنق الإسلام وأصبح يعرف باسم أمين بك وبقى مديراً لمديرية خط الاستواء إلى أن نشبت الثورة المهدية ولم تفلح في الاستيلاء على تلك المديرية التي ظل يحكمها باسم الحكومة المصرية ونقل عاصمتها من اللادو إلى فراداي جنوباً وبقى في مركزه . وقد أنعم عليه الخديو توفيق بهذه المناسبة برتبة الباشوية جزاء إخلاصه لمصر . ولما تقرر إخلاء السودان أبلغه نوبار باشا رئيس مجلس الوزراء ذلك القرار وتركه وشأنه . ولكن أمين باشا ظل في منصبه مخلصاً لمصر وحكومتها معتمداً على ولاء الضباط والجنود المصريين والسودانيين إلى أن جاء أيتانلي وحمله على الجلاء عن ذلك الاقليم مما ساعد إنجلترا على احتلال أوغندا وبسط حمايتها عليها (سنة ١٨٩٣) وألحقت بها أنجزه الجنوبي من مديرية خط الاستواء .

ولابد هنا من كلمة نقولها عن غوردون بعد عودته من إنجلترا . ذلك أن الخديو لما أجابه إلى طلبه بأحالة اسماعيل باشا أيوب حاكم السودان إلى المعاش ، جعله هو حاكماً عاماً مكانه في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ وخوله سلطة واسعة إذ صدر فرمان لغوردون باشا بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وهرر وسواحل البحر الأحمر مع مصوع وسواكن وزيلع وبربره وخوله - على ما جاء في عدد الوقائع المصرية رقم ٦٩٨ الصادر بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٧ - ==

المنفرد بالحكم . ولم يكن وزير خارجيته - نوبار - إلا عبارة عن وسيط

== في حكمه سلطة مطلقة عسكرية ومدنية . وكان سلطان مصر قد بلغ وقتذاك أقصى مداه إذ امتد من سواحل البحر الأحمر وخليج عدن إلى الأقيانوس الهندي شرقا وإلى حدود وادى غربا والبحيرات الاستوائية جنوبا .

وينبغي ألا يفوتنا هنا أن نقول أن غوردون مع اهتمامه بمحاربة النخاسة قد وجه عنايته إلى احتكار العاج وكان ذلك أحد بذور الثورة المهدية كما ذكره الكولونيل شالى لونج إذ قال في كتابه « مصر ومديرياتها المضیعة » ص ١٨٦ ما نصه :

« إن أمر غوردون باحتكار الحكومة محصول العاج ، قد أثار تجار العاج على الحكومة وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين . فكان هذا العمل المنطوي على الظلم النواة الأولى للثورة المهدية . وكانت إدارة غوردون فوضى . وبالجملة فقد تولى حكم السودان والأمن واليسار يسودانه ولما غادره سنة ١٨٧٩ كان ينوء تحت أعباء الديون والثورة تتمخض في أحشائه . »

ولسوء حظ غوردون أن مدة حكمداريته العامة للسودان - على ما ذكره الأستاذ الرافي بك - كانت مملوءة بالفتن والاضطرابات ، وكان عهده نذيرا بنشوب الثورة المهدية . ومما ساعد على شوب الفتن تشدده في إبطال الرقيق واحتكار العاج ونقص قوة الجيش المصرى فى السودان ، بما أخذته الحكومة من صفوفه من الأمداد التى أرسلتها إلى تركيا فى حرب البلقان (سنة ١٨٧٧) .

ومن الثورات التى نشبت فى عهد غوردون ثورة سليمان بن الزبير رحمت باشا سنة ١٨٧٧ انتقاما لاعتقال أبيه فى مصر ولكن غوردون أخذ ثورته . على أنه عاد إلى الثورة فأنفذ إليه غوردون جيسى باشا فقتل عليه وقتله (يولية سنة ١٨٧٩) بما أحزن أباه الزبير ولكنه ظل على ولائه لمصر .

ثم ثار أحد قواد الزبير واسمه الصباحى ولكن الجنود المصرية طاردته حتى أدركته وحكم عليه بالإعدام أمام مجلس عسكرى (مارس ١٨٧٩) .

وثار فى دارفور الأمير هارون الملقب بالرشيد وبايعه الأهلون سلطانا عليهم فى أوائل سنة ١٨٧٧ فقاتلته الجنود المصرية طويلا مقاتلة أسفرت عن قتله فى أوائل سنة ١٨٨٠ على ما ذكره مسداليا بك فى كتابه « دارفور فى عهد غوردون » .

وسعى غوردون فى الاتفاق مع يوحنا ملك الحبشة على تحديد التخوم بينه وبين مصر فلم يوفق . وفى أواخر سنة ١٨٧٩ عاد إلى مصر وكان ذلك فى أوائل حكم ==



المرحوم السير لى ستاك سردار الجيش المصرى

== توفيق باشا وقدم استعفاه من منصبه فعيّنت الحكومة بدله محمد رؤوف باشا حكاما عاما للسودان فكان آخر الحكام داريين وآخر الولاة المصريين قبل الثورة المهدية . وبعد استرجاع السودان فى سنة ١٨٩٨ أرغمت مصر على توقيع اتفاقية سنة ١٨٩٩ التى جعلت حكم السودان شركة بين مصر والمجلترة وعدلت حدوده فبعد أن كانت تنتهى عند بحيرة فيكتوريا صارت بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ تنتهى عند منجلا شمالي غوندوكرو.

ثم جاءت حوادث سنة ١٩٢٤ المشؤومة ومقتل المرحوم السردار السير لى ستاك فقرر إخراج الجيش المصرى من ربوع السودان بعد أن بذلت مصر فى سبيل فتحه ما بذلت من الأموال والأرواح .

حرب الحبشة

وكيف أرغم اسماعيل على دخولها

لم تهبط مصر لجنة التحقيق المسماة لجنة السير واصطيفان كيف، إلا للبحث فى الميزانية المصرية ولألصاق كل ما تستطيع إلصاقه من التهم باسماعيل باشا وحكومته ورميهم جميعا بسوء الإدارة المالية . ولجنة كهذه لم يكن يعقل ولا ينتظر منها أصلا أن تدافع عن أعمال اسماعيل أو أن تقول كلمة طيبة فيها . ولكن انظر ما قالته فى حرب الحبشة كما ذكره المستر ما كوان فى ص ٣٨٩ من كتابه . قالت :

مالى بينما كان اسماعيل باشا صديق المعروف بالمفتش هو المهيمن الفعلى على

== « لقد تورط الخديو إلى حد معين في هذه المسائل (تقصد حرب الحبشة) بقصد القضاء على تجارة الرقيق. ولهذا نقول إن الحرب الحبشية قد فوجئ بها اسماعيل مفاجأة وأرغم على دخولها إرغاما . »

ولأنه لمن المؤلم حقا أنه بينما توجد لجنة انجمازية كلجنة السير كيف همها التنديد بأعمال اسماعيل والتشهير بها بالحق أو بالباطل تعترف في تقريرها بأن « الخديو أرغم على دخول حرب الحبشة إرغاما ، إذا بمؤرخ مصرى كبير معروف بالانزان والنزاهة كالاستاذ الرافعى بك يقول فى ص ١٥٢ من كتابه مانصه :

« ومن أى ناحية نظرنا إليها (يقصد حرب الحبشة) نجد أن مصر لم تكن فى حاجة إليها ولا مصلحة لها فى خوضها . وإنما ساق إليها النزق وسوء التدبير فانتبت بالهزيمة والخسران . » وقال فى موضع آخر « لم يجاهر اسماعيل بنيتة فى فتح الحبشة ولكن سياسته أزمها كانت تم عن هذه الغاية فقد تحرش بها (كذا) وعمل على إثارة الحرب معها على غير جدوى » الخ الخ
ونكتفى بهذه الملاحظة ونترك للقراء الحكم على أقوال الأستاذ الكبير .

أسباب النزاع بين البلدين

عرض الأستاذ الرافعى بك لأسباب النزاع بين مصر والحبشة وهى تلخص فى أن اسماعيل كان يرغب فى مد خط حديدى بين مصوع وكسلامارا بسنيت ، تسهلا للواصلات بين السودان والبحر الأحمر وأنه كان يعتبر الجهات الواقعة بين البلدين وبخاصة سنيت أرضا مصرية منذ عهد محمد على . ولكن النجاشى تيودورس ملك الحبشة عارض اسماعيل فى المشروع فوقع الجفاء الذى مالبث أن استحسنت حلقاته بوقوع الخلاف بين الانجليز والاحباش فى سنة ١٨٦٧ عندما اعتقل تيودورس بعض التجار الانجليز ومنهم قنصل انجلترا . فلما طالبت هذه باطلاق سراح المعتقلين رفض . فاشتد الخلاف بين الفريقين وانضم اسماعيل باشا إلى الجانب الانجليزى وأرسل فى سبتمبر سنة ١٨٦٧ خطابا للنجاشى يطالبه بالإفراج عن المعتقلين وتهده فى حالة الرفض بنشوب الحرب بينه وبين الانجليز وبأنه فى تلك الحالة لا يمانع الانجليز فى اجتياز الاراضى المصرية لمهاجمته .
ولكن النجاشى أشاح بوجهه عن كل هذا التهديد وإذ ذاك أرسلت انجلترا فى سنة ١٨٦٧ حملة عسكرية بقيادة لورد نايبير . وهنا قرر الخديو مساعدة الانجليز بأن أمر ==

الإدارة . وقد انحصرت مهمته في جباية الضرائب . وهي مهمة برهن فيها

== عبد القادر باشا الطوبجي محافظ مصوع بمعوتهم في النزول إلى البر كما أنه وضع الأسطول المصري تحت تصرفهم فنقل مهماتهم من السويس إلى مصوع .

ودارت رحى الحرب وأسفرت عن فوز الإنجليز واحتلالهم لمدينة « مجدلا » شمالى أديس بابا وقتل النجاشي تيودورس في سنة ١٨٦٨ وبذا آل عرش الحبشة إلى « يوحنا » الذى كان الإنجليز يعاونونه ضد تيودورس .
ثم نشبت الحرب بين يوحنا وبين قبائل الجلا فاعنم منزجر باشا الفرصة وزين لاسماعيل فتح الحبشة .

ومنزجر هذا هو سويسرى الجنس هبط مصر ومنها إلى السودان حيث طاف بأبعائه وأنحاء الحبشة وأقام في مصوع منذ سنة ١٨٦٠ وتزوج بسيدة حبشية من أهالى البوغوس وشغل منصب قنصل فرنسا في مصوع وقدم للإنجليز أكبر معونة في حربهم ضد الحبشة .

ثم عينه اسماعيل في سنة ١٨٧٠ محافظا لمصوع ورقاه فيما بعد محافظا لسواحل البحر الأحمر ومديرا لشرقي السودان وأنعم عليه برتبة البكوية ثم الباشوية . وعين لمحافظة مصوع أراكيل بك نوبار أحد أقرباء نوبار باشا .

فتح إقليم البوغوس

فلما زين منزجر لاسماعيل — كما يقول الأستاذ الرافعى بك — فتح الحبشة نظرا لما كانت عليه من الضعف والفساد عهد إليه اسماعيل بفتح إقليم البوغوس — ويراها القارىء في خريطة مديريات السودان في عهد اسماعيل المذكورة في صحيفة تالية . فذهب منزجر من مصوع في قوة تبلغ ١٥٠٠ مقاتل قاصدا « سنهيت » عاصمة الإقليم واستولى عليها باسم الحكومة المصرية . ثم فتح الإقليم كله وابتاع مقاطعة « ايلت » من حاكمها وكان على خلاف مع النجاشي وأصبحت سلطة منزجر تشمل سواكن ومصوع وبلاد البوغوس والتاكا والقضارف والقلابات وأميديب وبركة أى السودان الشرقى في أقصى حدوده .

وكان بديها أن ينقم يوحنا على مصر هذا التوسع ويضمر لها الشر . وسرعان ما نشبت الحرب بين البلدين . وقد جهز اسماعيل عند الحبشة حملتين في وقت واحد . الأولى تهاجما من الشمال عن طريق مصوع بقيادة الكولونيل ارندروب وهودانمركي ==

على شدة وطأته المقرونة بعدم النزاهة. وبالتضخمت ثروة المقتش وتضاعف

== الأصل جاء إلى مصر للاستشفاء وتعرف بالجنرال إستون بإشارئيس أركان الحرب فرغب إليه الخدمة في الجيش فقبل وتولى قيادة هذه الحملة وعددها ٢٥٠٠ مقاتل . أما الحملة الثانية فبقيادة مننجر باشا نفسه لمهاجمة الحبشة من الجنوب عن طريق تاجورا . هذه هي رواية الأستاذ الرافعي بك . أما المستر كرايتس فيقول إن غارة مننجر على إقليم البوغوس واحتلالها كجزء من محافظة زيلع إنما كان باعته تعليم أظافر الأحباش الذين كانوا يحط آمال تجار الرقيق بعد أن ضيق السير صمويل يكر والكلونيل غوردون عليهم الخناق في أنحاء السودان . فامتداد القتال إلى أراضي الحبشة هو بقصد محاربة النخاسة وهذا ما يتفق تماما مع ما ذهبت إليه لجنة كيف الآتية الذكر .

يوم ١٥ نوفمبر المنحوس

ويظهر أن يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ كان يوم نحس على هاتين الحملتين. فلقد تقدمت حملة أرندروب لغاية « الحماسين » جنوبى سنهت دون أن تلقى مقاومة وتقدمت في ناحية جوندويت حيث التقت بجيش عرمرم جمعه الملك يوحنا ويبلغ عدده ٣٠٠٠٠ مقاتل . فاشتبك الفريقان في القتال في يوم ١٥ نوفمبر على ما ذكره المستر كرايتس ودارت رحى المعركة على ضفاف نهر المارب وقد أسفرت عن ارتداد الجيش المصرى إلى مصوع بعد أن لقي أرندروب بك وأراكيل بك حتفهما .

أما مننجر فقد غادر مصوع إلى تاجورا ومنها إلى بحيرة أوسا حتى بلغها في ١٤ نوفمبر . وفي طريقه إلى البحيرة قابل المدعو ابن الشيخ محمد الحدة أمير ذلك الاقليم فتظاهر الشيخ بالولاء لمصر ليحكم إعداد الثرك المننجر . وقد خدع هذا فيه واتخذ دليلا ومرشدا . وسارت الحملة إلى قرب البحيرة . وفيما كانت الجنود المصريون نياما في منتصف ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ هجم عليهم رجال القبائل غيلة بقيادة ابن الشيخ محمد الحدة وأعملوا فيهم السيف حتى أفنؤهم على بكرة أبيهم ودارت الدائرة على الجيش المصرى وهو في فراش النوم وقتل مننجر وزوجته وارتد الباقيون إلى زيلع .

حملة راتب باشا سنة ١٨٧٦

ولما أن سمع اسماعيل هذه الأنباء المحزنة هاج لها أشد هياج وخشى عواقبها المعنوية والسياسية فصمم على تأديب الأحباش وغسل الاهانة التى لحقت الجيش المصرى .

دهاؤه وخبثه دعاه اسماعيل إلى النزهة وهناك أودع على ظهر الباخرة حيث لقي حتفه .

== فجرد حملة يبلغ عددها مع فلول حملة أرندروب ١٢٠٠٠ وعقد قيادتها لراتب باشا السردار وولى الجنرال لورنج باشا الأمريكى منصب رئاسة أركان الحرب . وصحب هذه الحملة الأمير حسن باشا نجل الخديو وكان قد عاد حديثا من المانيا بعد دراسته مبادئ الفنون الحربية .

ومن تطوع فى القسم الطبى للحملة بعض كبار اطباء مصر فى ذلك العهد كالدكتور محمد على باشا البقلى الذى قتل فى الحملة والدكتور محمد بك بدر ثم السيد محمد عبد الله حكيم باشى الطوبجية المصرية والد الأستاذ على فكرى الأمين الأول بدارالكتب الملكية . وتولت سفن الأسطول المصرى وبواخر الشركة الخديوية نقل هذه الحملة من السويس إلى مصوع فوصلتها فى منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ ونظرا لصعوبة المواصلات وسوء حالة هيئة أركان الحرب لم تستأق الزحف على الحبشة إلا فى منتصف شهر يناير سنة ١٨٧٦ وبعد اجتياز مفاوز شاقة وجبال لا علم للمصريين بها ومناطق لم يعرفوا عنها شيئا من الناحية الطبوغرافية وصلوا إلى أوائل السهل الممتد من ممر (قياخور) إلى قورع وتبعد هذه الأخيرة عن مصوع نحو ٥٥ ميلا . ثم شرع الجيش المصرى يعسكر فى المدينة الأخيرة ويقيم فيها الاستحكامات والحصون .

معركة قورع فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦

ولكن الملك يوحنا جاء فى ٤٠٠٠ من رجاله والتحم فى يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ بالجيش المصرى فى معركة قورع وكانت معركة حامية أصيب فيها الفريقان بخسائر فادحة وأسفرت عن هزيمة الجيش المصرى بعد أن خسر نحو ٤٨٠٠ بين قتلى وجرحى ولم يتمكن من الفرار إلا نحو ٥٣٠ شخص بينهم راتب باشا وبعض كبار الضباط وكانوا قد أشرفوا على الموت .

وكان بين الأسرى محمد بك رفعت رئيس القلم التركى بديوان الجهادية فاستطاع أن يقنع النجاشى بوجوب عقد الصلح على أساس انسحاب الجنود المصرية من أرض الحبشة ورد الأسرى إلى مصر وفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة .

وفلا تم الصلح ، وظلت سنيت فى حيازة مصر وعاد الأسرى مع فلول الحملة إلى مصوع حيث أبحرت إلى السويس وهكذا كانت الحرب الحبشية أول صدمة أصابت الجيش المصرى فى أثناء فتوحاته العظيمة .

ومع أن «أفدينا» كان أوتقراطياً شرقياً فقد عمد إلى إصلاح النظام



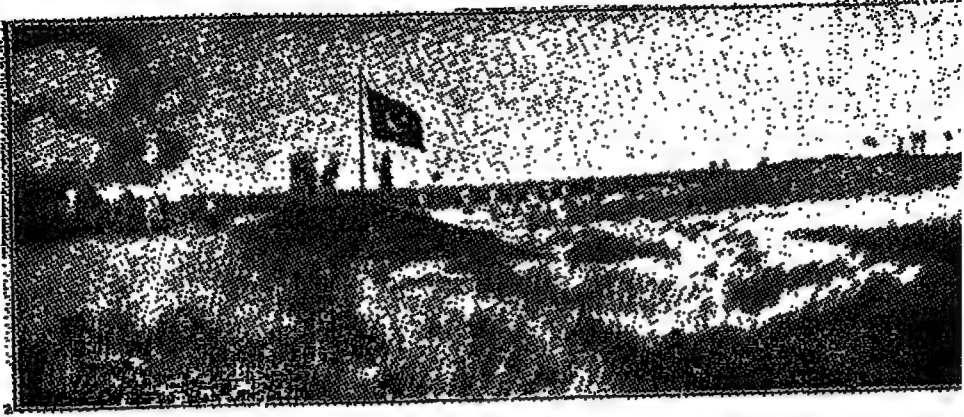
الكولونيل مارشان أمام أهرام الجيزة

== وليس يفوتنا أن نذكر مع الأسف أن ما نزل بالجيش المصرى من الخسائر فى تلك الحرب المشؤومة — التى أرغم اسماعيل على خوضها كما ذكرت لجنة كيف — كانت له عواقب سياسية بعيدة الغور أولها وأهمها إغراء السياسة الانجليزية باحتلال القطر المصرى فيما بعد بعد أن تجلى لها ضعف الجيش المصرى وعجزه عن الدفاع عند الحاجة عن البلاد ضد الخطر الأجنبي .

خلاصة اجمالية عن السودان فى عهد اسماعيل

يصبح بعد كل ما فصلناه لك عن الفتوحات المصرية فى السودان أن نقول إن الفضل يرجع لاسماعيل باشا فى بسط الحكم المصرى فى أنحاء ذلك القطر الشقيق ومد رواق الحضارة فيه ، وليس من سبيل إلى نكران أن الخديو اسماعيل هو الذى وصلت حدود السودان فى عهده الزاهر إلى حدود مصر الطبيعية التى تشمل وادى النيل وملحقاته ==

الاجتماعى الاسلامى على النمط العصرى . وقد كان هذا النظام يقوم



الجنود البريطانية ترفع الراية المصرية على فاشودة

== من البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى منابع النيل والاقيانوس الهندى جنوبا ومن البحر الأحمر شرقا إلى صحراء ليبيا غربا .

فكأنما أكل اسماعيل العمل الذى بدأه محمد على فى السودان . ذلك أن حدود السودان المصرى وصلت فى عهد مؤسس مصر الحديثة إلى البحر الأحمر وضمت اقليم التاكا (كسلا) الواقع شرقى نهر عطبرة ثم وصلت من جهة الحبيشة إلى القضايف والقلايات ودخلت فى نطاقها سواكن ومصوع هذا إلى أن الحملات والتجاريده العسكرية وصلت جنوبا إلى جزيرة (جونكر) تجاه غوندوكرو الواقعة على النيل الأبيض .

أما فى عهد اسماعيل فقد تضمنت الفتوحات المصرية فتح مديرية فاشودة وهى التى أثار احتلال الكولونيل مارشان وكتيبته الفرنسية إياها أزمة شديدة بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٨٩٨ وكادت أن تؤدى إلى الحرب بينهما . وقد غير الانجليز اسمها وسموها ' الآن (كودوك) كما جعلوا اسم المديرية مديرية النيل الأعلى مع أن تشاجر انجلترا مع فرنسا بسببها كان بحجة أن تلك الأراضى تابعة لمصر فلا يحق لفرنسا احتلالها !! وبعد فاشودة ضمت مصر محافظتى مصوع وسواكن نهائيا إلى أملاكها وحصل اسماعيل على فرمان بذلك فى مقابل زيادة الجزية المصرية المقررة للباب العالى على نحو ما فصلناه لك .

ثم استولت مصر على اقليم خط الاستواء وملكه أو نيورو وبسطت حمايتها على ==

على دعامة الاسترقاق وعزلة النساء وساطة رب الأسرة إلى غير ذلك من دعائم



محمد بك المليك من سلالة
ملوك أدفو وهو من انضموا
إلى مصر

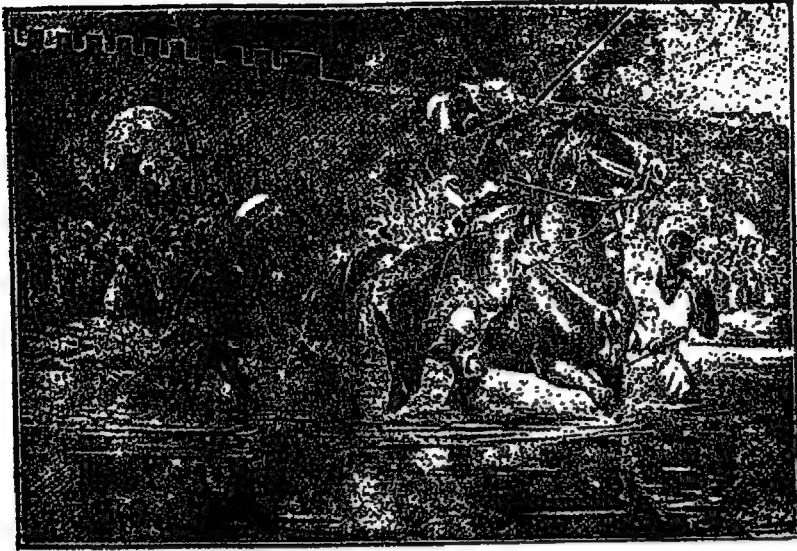


طبيب المهدي

== أوغندا وفكت إقليم بحر الغزال وسلطنة دارفور واتسعت أملاك مصر بين الحبشة والبحر الأحمر بفتح سنهيت وبلاد البوغوس وامتدت سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى بوغاز باب المندب وضمت محافظتي زيلع وبربره كما فتحت سلطنة هرر الواقعة جنوب شرقي الحبشة وأدخلت فيها سواحل السومال الشمالية حتى رأس جردفون على الأقيانوس الهندي ثم إلى رأس حفون. وهكذا وصلت فتوحات مصر جنوبا إلى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا وشرقا إلى البحر الأحمر وخليج عدن وغربا إلى حدود واداي. فاذا ما ذكر المصريون اسماعيل فليذكروا أنه هو معمر السودان وإليه يرجع الفضل في تدمينه وتمصيره كما أنه هو الذي قضى فيه على تجارة الرقيق الممقوتة واستئصال شأقتها. ونذكر بهذه المناسبة حكاية طريفة عن السير صمويل بيكر.

هذه الحكاية هي أن المستر تشارلس ألن سكرتير الجمعية البريطانية الأجنبية لمحاربة الرق أرسل يدعو السير صمويل بيكر إلى حضور حفلة يويل الجمعية المذكورة. ولكن السير صمويل بيكر رد عليه بالخطاب التالي الذي رأينا أن ثبته بنصه لأنه شهادة رجل انجليزي كبير على مالا اسماعيل من الفضل في عمل انساني كادت الشهوات السياسية ==

الدولة الإسلامية (كذا!) . فالاسترقاق الذي كان سبباً في بقاء كثيرين من



عبد الله التعايشي يقطع النيل عند أم درمان ويحرض رجاله على القتال

== أن تحجبه عن الأبصار بينما عين التاريخ لن تغمض عن تدوين الحقائق كما هي . قال السير صمويل في رده الذي أرسله من محل إقامته لسكرتير الجمعية المذكورة :

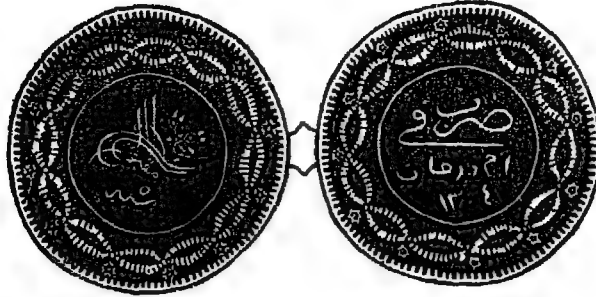
د ساند فورد أورلي

د تحريراً في ٣٠ يولية سنة ١٨٨٤

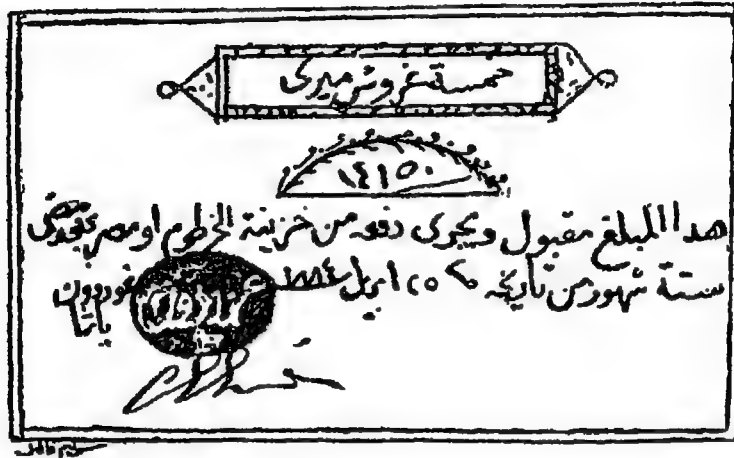
د إني أستشعر الأسف لأن تغيب عن لندن يحول دون حضوري حفلة يويل
جمعية محاربة الرق بمناسبة مرور خمسين سنة على إلغاء الرق في الممتلكات البريطانية ولا
أستطيع أن أعتقد في الوقت نفسه أن أحداً من وزراء جلالة الملكة تسول له نفسه
الحضور في جمعيتكم في الموقف المخجل الذي يوجد فيه السودان الآن . (وعلى كل فأن
الجمعية لاصبغة سياسية لها .)

د فالحكومة البريطانية باصدار أوامرها التعسفية للخدو وإرغامه على التخلي عن
الخرطوم والسودان جملة واحدة قد طعنت طعنة نجلاء كافة ما بذلناه من الجهودات
للقضاء على النخاسة . فهذه التجارة المقنونة لم تستمد الحياة مباشرة من مثل هذه
السياسة فقط بل إن قوة الحماية قد سحبت من كل من أزرنا في العمل الطيب الذي قمت به ==

الممالك على قيد الحياة كان ما يزال يعتبر جزءا من حياة الطبقات الحاكمة.



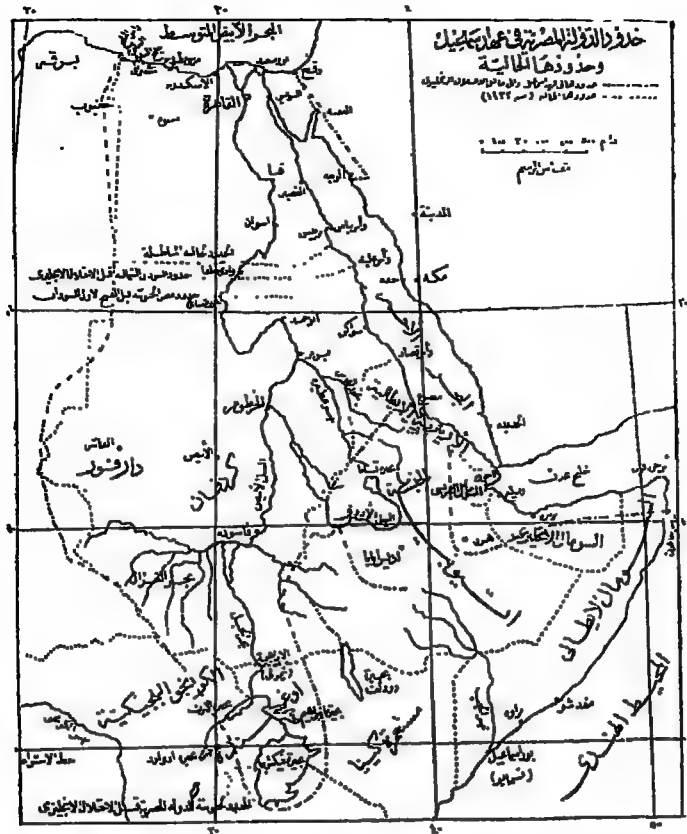
نقود المهدي



نقود غوردون باشا

أنا وغوردون وبذلك بادر أهل الفساد في زهو الانتصار إلى احتلال العرين بعد أن خلا من حماه . فهذا بلا ريب عمل الحكومة البريطانية الصادر عن عمد وسبق نية وهو أن تخلى عن غنائم المعركة وتتنازل عنها لصيادي الرقيق الظافرين وأن تخلى حومة القتال التي يجري فيها التشاد بنفس الطريقة التي انسحبنا فيها من الترنسفال أمام مقاتلة البوير المغاوير .

ولست أستطيع أن أتصور كيف يمكن للفرد الإنجليزي أن يفاخر برفع رأسه أو أن يهني بعضنا بعضا في يويل تقيمه جمعية مقاومة الرق بوصف أننا الذين الغناؤه . ويخيل إلى أن عملا كهذا هو غاية التفاق والرياء . فنحن لم نكتف بالتخلي عن كل شيء لعنصر صيد الرقيق في أفريقيا الوسطى بل إننا فضلا عن ذلك تركنا غوردون يلقى



حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل ومقارنتها بحدودها الحالية

حقيقه وما دامت هذه الصورة المخجلة المنطوية على الجبن والرياء ماثلة أمام عيني فلست أستطيع أن أفهم معنى لا إقامة الاحتفال باليوبيل في إنجلترا .
 ثم إنني أشد ما أكون أسفا لأن التقرير الخاص بما بذل من الجهود المخرقة للقضاء على النخاسة لا يتضمن أى ذكر لصاحب السمو الخديو اسماعيل باشا . مع أن سموه كان أول حاكم شرقي طعن تجارة النخاسة الطعنة النجلاء في الصميم . ثم لا ينبغي أن يتناسى أحد أننى لم أكن أنا وغوردون إلا موظفين من موظفي سموه وأنه إذا كان ثمة فضل فيما قننا به من العمل فإن هذا الفضل يرجع إلى سموه وحده .
 هذا هو اسماعيل وهو بلا ريب الذى أوصل مصر إلى حدودها الطبيعية كما يتبين لك من إلقاء نظرة على الخريطة المنشورة في هذه الصحيفة التى تبين حدود الدولة المصرية في عهده وحدودها الحالية . وهو هو الذى رفع السودان إلى المستوى الذى جعل الأجانب يشيدون به .



الدكتور جنكر



الماجور استيجان

شهادة الثقافات الأجنبية

في الحكم المصري في السودان

وقد تكون أمام مانسجه أصحاب الغايات في حاجة إلى أن نضع تحت عينيك شهادات بعض الثقافات الأجنبية في الحكم المصري في السودان في عهد اسماعيل . فإليك ما كتبه الماجور استيجان الذي حكم مديرية خط الاستواء في العهد الجديد أى بعد قيام الحكم الانجليزى فقد قال في صدد حكم الزنوج في ص ٩٩ من مؤلفه المسمى « خط الاستواء » ما نصه :

« كان الأهالى في عهد الحكومة المصرية القديمة كما يستنتج من التداير الوقتية التي اتخذت في ذلك العهد أكثر عددا وأحسن نظاماً وترتيباً وأشد جنوحاً للسلم منهم في العهد الحاضر . »

أما الدكتور جنكر الروسى الذى قضى عدة سنوات في أواسط افريقيا فقد كان شاهداً عادلاً على حسن الإدارة المصرية في تلك الجهات إذ ذكر في كتابه المسمى « رحلة في افريقيا » ص ٥٥٠ جزء أول ما نصه :

« ... ويرجع الفضل إلى المسلمين الذين تعزى إليهم المطاعن والمثالب في إلزام الزنوج لضرورة المعيشة في هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم وبالأقامة على قدر الامكان في دورهم وبزراعة حقولهم . وما يشرف الحكومة المصرية وضع بلاد الزنوج تحت =

فقد كان الرقيق يشتري بنحو ٤٠ جنياً ثم لا تمر أعوام حتى تتفتح



رودلف سلاطين باشا الذى أسره المهدي ثم تظاهر باعتناق الاسلام

== سيطرتها مما مكنها من أن تفتح فيها بابا لانتشار المدنية في مستقبل الأيام . »
وقد لخص الأستاذ الرافعي بك ما كتبه رودلف سلاطين باشا في كتابه « السيف
والنار في السودان فقال ما نصه :

« إن السودان المصرى يحكمه الآن (١٨٩٥) الخليفة عبد الله التعايشى الرئيس
المستبد لدعاة المهدي . وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية
في نواحيه . ومن الحق أن تقول أن السودان ظل سبعين سنة ونيفا منذ عهد محمد علي
مستظلا بالحكم المصرى مفتوحا للحضارة والمدنية . والمتاجر المصرية والأوربية تزدهر
في عواصمه والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم والسائحون على اختلاف أجناسهم
يجولون خلال البلاد دون أن يلقوا عمانية بل كانوا يلقون عطفًا ورعاية من ولاية
الأمور . وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات وإدارة البريد فسهلت الاتصال
بين أرجاء السودان القاصية ، وأدى الناس الشعائر الدينية سواء في المساجد أو في
الكنائس ، وقامت مدارس البعثات إلى جانب مدارس الحكومة . وعلى الرغم من
تعدد القبائل التي تسكن السودان وما كان بينها من العداة وتحفزها للاقتتال فإن حزم
الحكومة وسلطتها كانا كافيين لتوطيد دعائم الأمن والسلام في مختلف أصقاعه .
وقال في موضع آخر يصف تبدل الحال بعد غلبة الثورة المهدية :



القائد عثمان دجنة من أشهر قواد المهدي

== ه لقد شهدنا في السودان منظرا محزنا إذ رأينا الحضارة الجديدة التي دخلته مع الحكم المصري تنداعى أركانها ويندك صرحها بأيدي أقوام جهلاء يكادون يكونون من الهميج فأسسوا على أنقاض هذه الحضارة حكومة وضعوا لها نظاما يشبه في بعض أشكاله نظام الحكم المصري ولكنهم قضوا على ما ازدان به من العدل والتهديب ، فأقاموا في السودان صرح الظلم والانحطاط . ولا يكاد المرء يشهد في التاريخ الحديث بلاد أخرى سادت فيها الحضارة الناشئة زهاء نصف قرن من الزمان ثم انقلبت إلى حالة أقرب ما تكون إلى الهمجية . فان الخليفة والقبائل التي تناصره بعد أن اغتصبوا سلطة الحكم وانتزعوها من أيدي المصريين يحكمون الآن الأهليين التمساء حكما جائرا ويسوقونهم بعضا من حديد ويسومونهم من الخسف والنكال ما جعلهم يتوقون إلى التخلص من هذه الدولة ويتطلعون إلى حكومة يمدون في ظلها الراحة والسلام . وليس أدل على مبلغ ما عاناه السودان في عهد المهديين أكثر من فناء ما يقرب من ثلاثة أرباع أهله عن اجتاحتهم الحرب والمجاعات والأمراض المختلفة والتقتيل والتكيل .

وكتب سلاطين باشا في موضع آخر من كتابه السالف الذكر بما يعد خير شهادة لحكم اسماعيل باشا في السودان فقال :

ه لقد بعد العهد بحالة السودان تحت حكم اسماعيل إذ كانت الحكومة المصرية تحمل في ربوعه لواء الحضارة والمدنية على حين كانت البقاع الخارجة عن منطقة النفوذ المصري ==

أمامه أبواب الجاه والثروة. أما الرقيقات أو الجوارى فقد كن أربعة أقسام
قوقازيات أو حبشيات أو زنجيات أو جلايات (نسبة إلى قبائل الجلا)



الجنرال هكس باشا الذى قتل على رأس الحملة المصرية ضد المهدي

في حالة الانحطاط والتأخر. فالسودان بعد أن دخلته الحضارة في ظل الحكم المصرى
قد تطرقت إليه الحمعية على عهد المهديين .
وإليك هذه النبذة المهمة التى بين فيها سلاطين رأيه بالنسبة لارتباط السودان بمصر
عما ينبغى ألا ننساه قط نظرا لحاجة كل من القطرين الشقيقين إلى الآخر . قال :
« أرى واجبا على أن أبين وجهة نظرى فى أهمية السودان وقيمته لمصر وأبدى
الرأى الذى ثبت فى قرارة نفسى فأقول إن الأسباب التى دعت محمدا عليا منذ خمس
وسبعين سنة إلى امتلاك السودان لا تزال قائمه إلى اليوم . فالسودان هو مصدر الحياة
لمصر (كذا) وكل جهودها يجب أن تتجه إلى صيانة وادى النيل من أى غارة أجنبية
فإن كل خطوة تخطوها دولة أخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر
السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها
وتعرضها لأعظم المضار . »

وكن بالتوالى أمهات أو محظيات أو خادمات الطبقة الحاكمة . وقد كان نظام

== وقد مر بك مقاله السير صمويل بيكر عن انتشار الأمن في ربوع السودان في عهد اسماعيل وأن السائح الأجنبي لا يتعرض على طول الخط ما بين الاسكندرية والخرطوم إلى الخطر أكثر مما يتعرض له أحد سكان لندن في حديقة هايد بارك بعد الغسق . وإليك قوله في سنة ١٨٧٣ في كتابه (الاسماعيلية) ص ٤١٢ :

« إن مصر وحدها هي التي تستطيع تمدين افريقيا النيلية بإنشاء حكومة نظامية . وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الاستواء وبذلك تضمن حياة السائحين في تلك الأقطار . واليوم وقد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمراً واقعاً فقد انفتحت افريقيا الوسطى للحضارة والعمران . »

أعمال الضباط الأجانب في السودان

لقد مر بك أن اسماعيل استخدم عدداً كبيراً من الضباط الأمريكان وأنه استعان كذلك بضباط من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين مما يدل على أنه لم يكن يستلهم في اختيارهم إلا وحى ضميره فقط وأنه لم يكن تحت تأثير دولة معينة . وقد رأيت بعض ما قام به الكولونيل شالى لونج بك من باهر الأعمال كإكتشاف بحيرة ابراهيم التي لا زالت يسمونها باسمها القديم وهو بحيرة كيوجا وتمكنه من بسط حماية مصر على أوغندا .

كذلك مر بك اسم اردنروب ومزنجر واشترا كهما في الحملة ضد الحبشة ونذكر لك الآن أسماء بعض الضباط الآخرين وطرفاً من أعمالهم .

فالكولونيل جيسى الإيطالى الذى صار فيما بعد جيسى باشا مدير بحر الغزال هو الذى قام بتخطيط شواطئ بحيرة البرت في سنة ١٨٧٩ وإن كان الفضل في تحديدها تحديداً علياً يرجع إلى الكولونيل ماسون الأمريكى في سنة ١٨٧٧ ذلك لأن ماسون هو الذى اكتشف وجود نهر ينبع من بحيرة البرت ويسير متجهاً إلى الجنوب . وقد دلت المباحث فيما بعد على أن هذا النهر هو نهر سيمليكى وهو الحائمة المفقودة فيما أصبح يسمى الآن منابع النيل من بحيرة البرت .

ثم الضابط شبنديل وهو إنجليزى الجنس وكذا زميله وطسون وقد لعبا دوراً مهماً في إكتشاف تلك المنابع وترسم مجرى النيل من ماجونجو حيث يخرج من بحيرة البرت إلى نقطة الدفلاى .

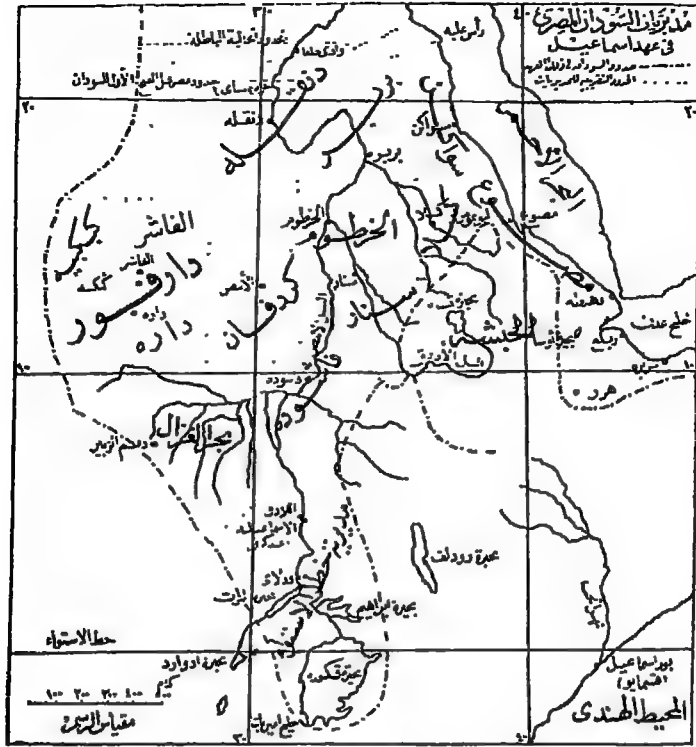


الكابتن لونجارد

== أما السير صمويل بيكر فاسمه مقرون بمحاربة النخاسة هو وغوردون الذى يرجع إليه الفضل فى اكتشاف منبع النيل من بحيرة فيكتوريا على نحو ما بيناه لك .

وقد حدثنا غوردون فى أسباب استقالته الاولى أنه كان على خلاف مع اسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان وقتئذ فلما طلب إلى الخديو إقالته وأجابه اسماعيل إلى طلبه رأى غوردون أن يجعل اعتماده على الموظفين الأجانب فى أنحاء السودان النائية فعين مسداليا بك الايطالى مديراً للفاشر وجيسى باشا الايطالى أيضاً لبحر الغزال وفردريك روسى قنصل المانيا فى الخرطوم مديراً لدارفور وشارل ريجوليه الفرنسى مديراً لداره واميليانى الايطالى مديراً لكبكية والدكتور زورنيجين الالماني مفتشاً للصحة والضابط سلاطين النمساوى مفتشاً للمالية الذى أصبح سلاطين باشا وأسر المهدى وتظاهر فى الأسر باعتناق الاسلام وصار يعرف بالشيخ سلاطين ثم جيكر باشا النمساوى الذى عين مديراً عاما لمنع تجارة الرقيق .

ثم الكابتن لونجارد الذى توجه إلى مديرية خط الاستواء واستخدم الجنود المصرية المتروكة فيها واستولى على أوغندا وعلى القسم الجنوبى من مديرية خط الاستواء . أما الكولونيل بروت الامريكى فقد تولى الحكم فى مديرية خط الاستواء فعين غوردون باشا بدله ابراهيم فوزى (باشا فيما بعد) ثم طلبت أن أقاله وعين بدله الدكتور شنتزر الالماني الذى عرف فيما بعد باسم أمين باشا وكافاه الخديو توفيق على شدة ولائه وإخلاصه لمصر .



مديرية السودان المصري في عهد اسماعيل

== فاشوده بما أحمدها ثورة كسلايين الجنود السودانيين وهي الثورة التي ترجع أسبابها إلى سوء إدارة الحكم وتأخير دفع رواتب الجند ١٨ شهرا مما أدى إلى وقوع بعض القلاقل حتى عين اسماعيل جعفر باشا حاكما فتمكن بواسطة الضابط السوداني آدم بك من قمع الفتنة .

وقد كافأ الخديو آدم بك برتبة اللواء . ثم مرض جعفر باشا وعاد إلى مصر فحل محله جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ - ١٨٧١) فكان من خيرة حكام السودان وكانت ادارته ادارة عادلة مصلحة وأنشأ المدارس والمحاكم للفصل في الخصومات .

وفي عهد مظهر باشا عين آدم بك قائدا للجيش المصري بالسودان وأنعم عليه بالباشوية . وفي عهده أيضاً قام السير صمويل بيكر بما قام به من استيلاء على إقليم خط الاستواء إلى مطاردة الرقيق . وقد كان يتلقى المعونة من مظهر باشا .

وبالجملة فعهد مظهر باشا هو خير العهود في السودان وكان محبوبا من الأهالي لعدائته ==

الاسترقاق على ما يتبعه من العتق بعد سبعة أعوام وما ينتظر الرقيق المعتوق بعد ذلك من ضروب التكسب أشهى إلى النفوس من الخدمة المنزلية . ولم يكن ينتظر طبعاً ان يبقى نظام الحريم وسوق النخاسة طويلاً

== ونزاهته وقد غادر السودان وهو مدين بمبلغ ١٠٠٠ جنيه ما يدل على طهارة يده . ثم عين في سبتمبر سنة ١٨٧١ عضواً بمجلس الأحكام في مصر فغادر منصبه في السودان حيث خلفه فيه ممتاز باشا .

وكان ممتاز باشا من رجال الفرسان في الجيش المصرى واشتهر بسوء سيرته وميله للرشوة حتى اذا بلغ الخديو ذلك أمر بتحقيق ما نسب إليه ثم سجن في الخرطوم رهن التحقيق ومات بالسجن . وكل ما يذكر عنه أنه علم الأهلين زراعة القطن .

ثم عين اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧) الذى اتسعت في عهده فتوحات مصر ففتحت سلطنة دارفور وضمت زيلع وبربره وفتحت سلطنة هرر ، وإليه يرجع الفضل في انتشار الأمن والعمران في روع السودان . وقد نشط الزراعة ووسع تجارة القطن وأنشأ معملين لحليج الأقطان ونسجها . وأنشئت في أيامه نقط عسكرية بين الخرطوم ودارفور إلى حدود وادى وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الأحمر لتأمين سبل المواصلات . وفي عهده أنشئت مكاتب للبريد في أهم العواصم . وقد ظل في منصبه إلى أن طلب غوردون باشا إلى الخديو إقالته فعينه عضواً بالمجلس الخصوص العالى (مجلس الوزراء) ثم ترقى وزيراً للداخلية . ويعزى إليه امتناع الحكومة عن إرسال الجزية التى طلبها عبد القادر باشا حلى حكام السودان لانتهاذ الفتنة المهدية ثم استدعاؤه منه في سنة ١٨٨٣ مما كان سبباً في استفحال تلك الثورة .

وبدیهى أن نقل اسماعيل أيوب لمصر مهد الطريق لتعيين غوردون حكاماً عاماً للسودان فبقى في منصبه من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ حيث جاء إلى مصر في أوائل عهد توفيق وقدم استقالته فقبلت .

مديريات السودان

في عهد اسماعيل باشا قسمت أراضي السودان إلى المديريات والمحافظات الآتية بسبب الفتوحات المصرية وقد ذاك فصارت كما في الجدول الآتى :

على هذه الحالة بعد أن عصفت بها ريح التقلبات الاقتصادية فبدلت من

مديريات السودان		
العاصمة	المديريات والمحافظات	
الخرطوم	مديرية الخرطوم	
سنار	» سنار وفازو غلى	
بربر	» بربر	
دنقلة	» دنقلة	
كسلا	» كسلا أو التاكا	
فاشودة	» فاشودة	
الايض	» كردفان	
الفاشر	مديريات دارفور {	» الفاشر
داره		» داره
كبكية		» كبكية
ديم الزبير		» بحر الغزال
الاسماعيلية (غوندوكرو) ثم اللادو		» مديرية خط الاستواء
ثم ودلاى	وكانت مقسمة إلى مأموريات لاتوكا	
	سوبور ومكركة ومنبوتو وودلاى وفويره	
سواكن	محافظه سواكن	
مصوع	» مصوع	
هرر	حكمدارية هرر	
زيلع	محافظه زيلع	
بربره	محافظه بربره	

نظرة إجمالية فى عمران السودان

لقد حدثناك عن استتباب الأمن وانتشار العمران كما شهد بذلك الثقات الأجانب وانتشار الزراعة الحديثة وخصوصا زراعة القطن وزراعة الدخان (فى القصارف) ولم =



احمد عرابي باشا وقد اشترك في حملة الحبشة

== يكن يقل جودة عن دخان الأناضول واستعمله المدخنون في أنحاء السودان . كما ذكره شيلو بك ص ١٠٥ في كتابه النيل والسودان ومصر ، وقد أنشأ أمين باشا حقولا للتجارب الزراعية بجوار القضايف على ما ذكرته مجلة الجمعية الجغرافية في عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص ٣٢ وقد ازداد غرس النخيل في دنقله وتضاعف محصول التمر وكان يرسل إلى سائر أنحاء السودان .

وتحسنت طرق المواصلات بواسطة القوافل أو السفن كما بينه الكولونيل ستيوارت في تقريره المنشور بالكتاب الأزرق الأنجليزى عن مصر سنة ١٨٨٣ كما أصلح بحرى النيل في الشلال ونسفت الصخور والعقبات التى كانت تعترض السفن فيه فصار صالحا للملاحة النيلية فسهلت المواصلات بين مصر والسودان وأزيل جزء من السدود على النيل الأعلى كما ذكرته الوقائع المصرية فى العدد ٢٦٧

وأصلحت ترسانة الخرطوم التى أنشئت فى عهد محمد على وكثرت بها الوأخر النيلية وبلغ عددها ١٥ عدا عدة ذهيات مصنوعة من الحديد والخشب . وأنشئ فناء فى ميناء بربره على خليج عدن لهداية السفن ولتسهيل الملاحة كما أنشئ فيها رصيف لآيواء السفن .

كذلك عهد اسماعيل باشا إلى جماعة من المهندسين بتخطيط السكك الحديدية التى تصل السودان بمصر وشرع فعلا فى مد الخط الحديدى على طول النيل من وادى حلنا إلى (حك) وأنفق فى ذلك ٤٠٠ ألف جنيه ومد من الخط نحو ١٧ كيلومتر ==

شأنها وأصبح الرجل يؤثر الزوجة المتعلمة والخادمة المحررة على هذا الجيش

== من وادى حلفا . ومهد الطريق على بعد ٤٧ كيلومترا أخرى ثم أوقف العمل في سنة ١٨٧٨ بسبب الارتباك المالى .

وأنشئت المدارس فى بعض أنحاء السودان وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين من مدرسة الخرطوم التى أنشئت فى عهد عباس الأول .

أما التجارة فقد نشطت بنسبة انتشار الأمن فى ربوع السودان حتى بلغت وارداته فى السنة مليونى جنيه وصادراته ١١ ١/٢ مليون جنيه وبلغت البيوتات المصرية التجارية فى السودان ٣٠٠٠ بيت والأوربية ١٠٠٠ بيت

ثم تولى موتشى بك مدير مصلحة البريد فى مصر إنشاء مكاتب للبريد فى السودان وأنشئت فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ إدارة للبريد احتفل بافتتاحها افتتاحا عظيما . وفتحت عدة مكاتب أخرى فى الخرطوم ودقنله وبربر وكسلا وسنار والمسيلية والقضارف وفازوغلى وفاشودة والأبيض والفاشر وظلت هذه المكاتب تؤدي مهمتها إلى أن تعطلت بعد شوبب الثورة المهدية سنة ١٨٨٣ وظل مكتب الخرطوم مفتوحا إلى أن سقطت المدينة فى أيدي الثوار سنة ١٨٨٥

أما خطوط التلغرافات فى السودان فقد بلغت لغاية ١٨٧٠ نحو ٢١١٠ كيلومتر وبلغ عدد المكاتب التلغرافية ٣١ مكتباً وذلك سنة ١٨٧٧ وكان مركز هذه الخطوط فى الخرطوم وظلت قائمة إلى أن عطلت إبان الثورة المهدية .

أما ميزانية السودان فقد قدرها الجنرال غوردون فى رسائله عن سنة ١٨٧٨ بما يأتى :

٣٢٧٠٠٠ جنيه دين السودان

٥٧٩٠٠٠ د إيرادات الحكومة

٦٢١٠٠٠ د مصروفاتها

٧٢٠٠٠ د العجز

الرحلات والبعثات الجغرافية

ليس يسعنا أن نختم ملاحظتنا عن السودان دون أن نشير بكلمة موجزة إلى الرحلات والبعثات الجغرافية التى حفل بها عصر اسماعيل وكانت سببا فى انتشار الحضارة والعمران فى ربوع السودان كما أن إليها يعود الفضل فى تقدم علم الجغرافيا والاكتشافات بما أضافوا إليها من الحقائق المهمة والبيانات المبتكرة والخرائط والرسوم الدقيقة . وقد ==

العرمرم من القريبات الطاعنات في السن وملحقاتهن من شبان الرقيق

== أجملها الأستاذ الراقى بك فيما يلى : كانت بعثة السير صمويل بيكر إلى منابع النيل هي أول هذه البعثات . وفى سنة ١٨٧١ نشطت بعثة برئاسة الأمير الالى بوردى الأمريكى من ضباط الجيش المصرى مصطحباً طائفة من الضباط المصريين فجاءوا الجهات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر من القاهرة والسويس شمالاً إلى قنا والقصر جنوباً فاكشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر فى تلك الجهات .

وفى سنة ١٨٧٣ سار بوردى بك بحراً إلى (يرنيقه) القديمة على البحر الأحمر (غربى رأس بناس) ولحقه بها الأمير الالى الأمريكى كولستن من طريق قنا برا وخططا الجهات بين يرنيقه وبربر .

وفى ١٨٧٤ اكتشف شالى لونج بك بحيرة ابراهيم كما اكتشف معظم مجرى النيل المسمى بنيل فيكتوريا وحقق نقطة كانت غامضة وهى أن نيل فيكتوريا يصب فى بحيرة البرت ورسم الطريق بين اللادو ومكره جنوبى بحر الغزال .

وبعد فتح دارفور فى سنة ١٨٧٤ أرسل اسماعيل ثلاث بعثات لاكتشاف جهات كردفان ودارفور واكتشفت ثالثهما برئاسة المهندس الأمريكى متشل مناجم الذهب فى (الحامة) شمالى قنا .

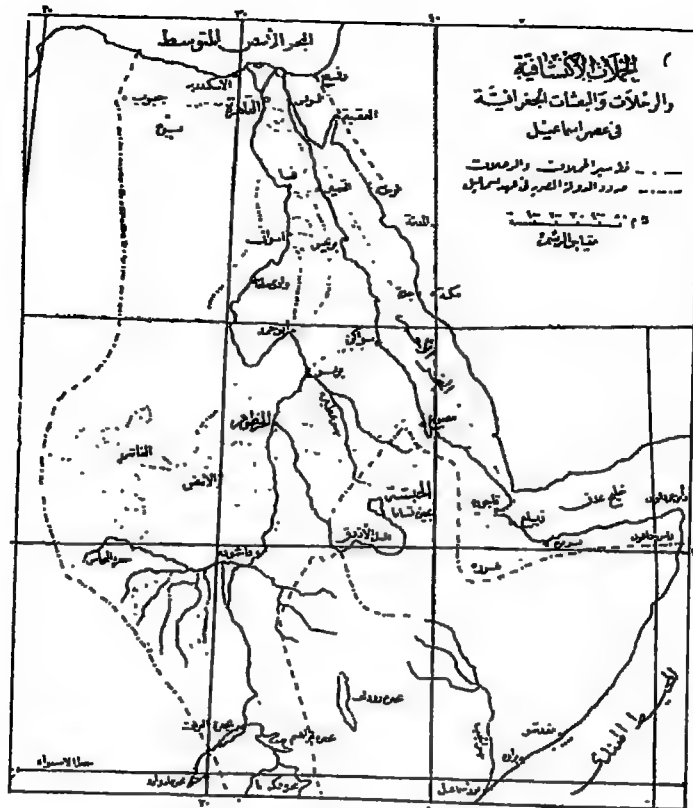
ورسم ارنست لينان دى بلفون (ابن لينان باشا) الطريق بين غوندوكرو وعاصمة أوغندا ، وقتل وهو عائد من مهمته . ومن يانائنه وضع العلامة جورج شونفرت خريطته عن تلك الجهات .

أما الجهات الواقعة بين تاجورا وبحيرة أوسا بالحيشة فقد رسم خريطتها محمد أفندى عزت أحد ضباط حملة منزجر باشا .

ثم بلاد هرر فقد رسم محمد مختار باشا خريطة المدينة بينما رسم عبد الله باشا فوزى خريطة بلاد هرر . كما رسم ضباط أركان حرب نادى باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع . وخريطة بربره وملحقاتها وضعها القائم مقام عبد الرزاق بك نظمى .

أما حملة السومال فقد كشفت فى سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على الأقيانوس ونهر الجوبا . وفى سنة ١٨٧٧ جاب المير الالى ماسون بك بحيرة البرت وأتم الاكتشاف الذى بدأه فيها السير صمويل .

وحقق جيسى باشا مواقع بحر الغزال واكتشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكى الواصل بين بحيرة إدوارد وبحيرة البرت .



الرحلات والاكتشافات الجغرافية

وتوجد بين محفوظات الجمعية الجغرافية خريطة مفصلة لأفريقيا تعتبر أدق خريطة في نوعها عرفت إلى ذلك الحين . وقد اشترك في وضعها عدد من خيار الضباط المصريين . وهذه الخريطة قد وضعت بأمر اسماعيل باشا وطبعتها أخيراً مصلحة المساحة على نفقة جلالة مولانا الملك .

وقد يهملك أن تعرف مدى هذه الاكتشافات والجهات التي جابها ضباط أركان الحرب ورسموا مواقعها . فحسبنا أن نذكر لك ما ذكره الجنرال استون باشا رئيس أركان الحرب في الجيش المصري في عهد اسماعيل إذ قال : « لأنها تبلغ في اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا والمانيا والنمسا والمجر بحدودها القديمة . »

أليست هذه وحدها صحيفة من الصفحات الذهبية في عهد اسماعيل العظيم ؟ كما أنها صحيفة خالدة في تاريخ الجيش المصري والضباط المصريين ومن الصحف التي يصح أن يفاخر بها المصريون إذ هي تكشف عن فترة ذهبية من تاريخهم القومي المجيد .



شاهين باشا
الذى تولى القيادة فى حملة جزيرة كريت

قوات الدفاع فى عهد اسماعيل
الآن وقد فرغنا من التكلم عن السودان فلنعد إلى مصر لنترسم آثار اسماعيل فى
مصالح الدولة وما أدخله من ضروب الإصلاح فى المرافق العامة .
ونبدأ بقوات الدفاع فنقول كلمة إجمالية عنها مقتبسة من كتاب سر هنك باشا جزء ٢
ص ٣٠٧ وما بعدها

فقد كان الجيش موضع عناية اسماعيل فى بداية حكمه . وقد زوده بمختلف الأسلحة
وأحضر له البنادق الحديثة من فرنسا والتفت إلى القلاع - وبخاصة قلاع الاسكندرية -
فحصنها بالمدافع الضخمة التى جلبها من مصانع ارمسترنج بانجلترا . وزاد عدد الجيش =
هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



اسماعيل باشا أيوب

حكمدار السودان الذى طلب غوردون باشا عزله *

== حتى بلغ ١٨٠٠٠٠ بدلا من ١٨٠٠٠٠ كما تقضى بذلك فرمانات .
ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى فرنسا باعتبارها أقوى الدول البرية قبل الحرب
السبعينية بعثة حربية قوامها خمسة عشر ضابطاً من صفوة ضباط الجيش . وقد ذكروهم
اسماعيل باشا سرهنك في كتابه ج ٢ ص ٣٠٧ وهم : شاهين باشا ، ابراهيم باشا السوارى ،
على بك رضا الطوبجى ، على بك وهبى ، يوسف بك صديق ، محمد بك رضا ، محمود بك سامى ،
اسماعيل بك أيوب ، عبد القادر بك حلى ، مصطفى بك فهمى ، عثمان بك غالب ،
أحمد افندى حمدى ، حسن افندى مظهر ، محمد افندى .
ولما وصلت هذه البعثة إلى فرنسا كانت موضع عناية حكومتها وشرعت في درس
النظم العسكرية الفرنسية والاستحكامات والمناورات العمومية ، وجمعت طائفة من
المؤلفات الحربية المشتملة على أساليب الجيش الفرنسى ونظاماته . وعادوا لتطبيقها
في مصر على الجيش المصرى الذى اهتم اسماعيل بجعله نظامه على نظام الجيش الفرنسى
وفي سنة ١٨٦٤ استدعى اسماعيل بعثة حربية من فرنسا من كبار الضباط الفرنسيين ==
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



عبد القادر حلبى باشا
حكمدار السودان سابقا

== وأسند إليهم مهمة تنظيم المدارس الحربية المصرية . وكان على رأس هذه البعثة الكولونيل
« مرشير بك » ، يعاونه ثلاثة ضباط آخرون هم « رباتيل » ، « لارمى باشا » ، « وبولار »
والحق بهم الضابط دوبرناردى بك وكان فى خدمة الحكومة المصرية من عهد سعيد باشا
فتولى هؤلاء الضباط نظارة بعض المدارس الحربية وأخذوا فى تنظيم شؤونها .
وكانت أول خطوة خطاها اسماعيل فى تنظيم تلك المدارس أن أمر بنقل المدرسة الحربية
الموجودة بالقناطر الخيرية إلى قصر النيل ثم إلى العباسية وأنشأ بهذه الجهة عدة مدارس
حربية أخرى بدل المدارس القديمة المنشأة فى عهد محمد على . وإنما أختار جهة العباسية
لقربها من الصحراء وصلاحياتها لتعليم التلاميذ ضرب النار وما إلى ذلك من التمرينات ==
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .

المشاكسين عن أخذوا على الإنسان عهداً بأن يطعمهم ويأويهم طيلة حياتهم .

== العسكرية هذا فضلا عن أن سراى عباس الأول كانت قرية من تلك الجهة وهي تصلح مأوى للتلاميذ والمعاهد والثكنات .

وقد جعل لهذه المدارس إدارة واحدة تدعى إدارة المدارس الحربية ، وإليك بيان المدارس الحربية التي أنشأها في العباسية في بداية عهده بحسب ترتيب تواريخها .

اسم المدرسة	تاريخ التأسيس	عدد التلاميذ
مدرسة الليادة	١٨٦٤	٤٩٠
د السوارى	١٨٦٥	١٦١
د الطوبجية	١٨٦٥	٢٨٠
د أركان الحرب بالعباسية	١٨٦٥	١٠٥
		كانت طلبة هاتين المدرستين ينتخبون من طلبة المهندسخانة ولذا تعدان من أرقى المدارس في عهد اسماعيل
مدرسة الخطرية	١٨٧٤	استخدمت الحكومة عدداً من صف ضباط هاتين المدرستين في الاكتشافات.
د صف الضباط	١٨٧٤	الجغرافية بالسودان
د الطب البيطرى	١٨٦٨	
د قلفوات الشيش		
د الجبخانجية		

ونظرة واحدة يلقيها الانسان على صفحة ٣٠٩ من الجزء الثانى من كتاب سرهنك باشا يدرك المستوى العلمى الراقى الذى بلغت تلك المدارس التى أغلقت أبوابها مع الأسف فى أواخر عهد اسماعيل (فبراير سنة ١٨٧٩) بسبب ما طرأ على البلاد من الارتباك المالى والسياسى والأدارى . وقد حلت المدرسة الحربية المستجدة فى ابريل سنة ١٨٧٩ محل تلك المدارس وعين لارمى بك ناظرا لها وهى المدرسة الباقية إلى اليوم .

هياة أركان حرب الجيش

لعلك تذكر الضباط الأمريكان الذين استخدمهم الخديو اسماعيل فى الجيش المصرى وقد تألفت من هؤلاء الضباط ومن بعض الضباط المصريين الذين عادوا من البعثة الحربية بفرنسا هياة أركان حرب الجيش ووضع على رأسهم الكولونيل استون وهو ==

فالنخاسة كان مقدراً لها أن تموت ميتة طبيعية بسبب تبدل الأحوال

من كبار الضباط الأمريكان وأكفأهم . وقد اختاره اسماعيل سنة ١٨٧٠ لهذه المهمة لما آتته فيه من الكفاءة وأنعم عليه برتبة اللواء فصار يعرف بالجنرال استون باشا . وقد قام الجنرال استون بمهمة خير قيام وأنشأ هيئة أركان حرب الجيش من بين لفي من أكفأ الضباط وألحق بهم بعض الميكانيكيين الاختصاصيين في علم طبقات الأرض . ثم أنشأ في الهيئة المذكورة قسماً للجغرافيا جعل مهمته وضع الخرائط الطبوغرافية الدقيقة عن أنحاء مصر والسودان وهي الخرائط التي أتم تخطيطها ضباط أركان الحرب المصريون والأمريكان ممن قاموا بالرحلات الاستكشافية في السودان . وليس يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بقية الأورطة السودانية التي عادت من حرب المكسيك في تلك الأيام والتحق بالجيش المصري بعد أن احتفل اسماعيل بعودتها وأنعم على أعضائها بالدرجات العالية كما مر بك في تاريخ سعيد باشا ولم يرض اسماعيل على هذه الهيئة بل أنشأ لها مطبعة خاصة لطبع رسومها وخرائطها وأنشأ إلى جانبها مكتبة نفيسة تحتوي على أهم الكتب في الفنون الحربية وألحق بها متحفا حرييا للأسلحة والتحف والتذكارات الخاصة بالجيش . وقد تقدمت هذه الهيئة إلى أن أوقفها الارتباك المالي كما أوقف كل عامل من عوامل النهضة والتقدم بما كان أثره أن ترك استون باشا الجيش في سنة ١٨٨٢ حينما رأى السلطة الانجليزية اعترفت وضع يدها عليه .

وأنشئت للجيش صحيفتان حريتان إحداهما تدعى « جريدة أركان حرب الجيش » المصري وهي مجلة شهرية صدر العدد الأول منها في ١٠ يولية سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر بانتظام لغاية أكتوبر سنة ١٨٧٨ وكان يكتب فيها استون باشا ويصححها العلامة الشيخ حسن الطويل والثانية واسمها الجريدة العسكرية المصرية وكان يحررها هي والمجلة الأولى ضباط الجيش المصري .

تجديد السلاح والمصانع الحربية

لم يكتف اسماعيل بما ابتاعه من البنادق والمدافع من الخارج بل عني أيضا بشأن المصانع الحربية التي كانت في عهد محمد علي باشا فنظم معمل الحوض المرصود وصارت تصب فيه المدافع وتصنع فيه كافة معدات الجيش . كما أنه شيد بطرة معملاً لصنع الأسلحة وآخر لصب المدافع وخرطها وآخر لصنع البنادق عدا معامل الخرطوش والقنابل . وأصلح مصانع البارود حتى طار ذكرها في الآفاق مما جعل سلطان مراکش يرسل البعثات إلى مصر لتعلم صناعة البارود والطباعة . كذلك



وزير الحرية والبحرية « الأمير » حسين كامل في شبابه

== أصلح معمل الأسلحة بالاسكندرية . وفي أثناء تولية « الأمير » حسين كامل وزارة الحرية والبحرية وضع لارمى بك تصميم لإنشاء « البوليجون » وهو ميدان للتمرين على ضرب النار . وكان فيه قسم لتمرين المدفعية على الرماية بالمدافع وآخر لتمرين المشاة على الرماية بالبنادق . وقسم ثالث لصف الضباط ورابع لتعليم التلغرافات العسكرية وقسم للاشارة . وكان اسماعيل إلى أواسط سنة ١٨٧١ يتوخى تنظيم الجيش المصرى طبقاً لأساليب الجيش الفرنسى ولكنه اعتزم استبداله بالنظام الألمانى بعد ما أحرزته ألمانيا من الفوز في الحرب السبعينية وما ناله الجيش الألمانى من الانتصارات الباهرة . ولذا أمر بترجمة القوانين والنظامات الألمانية وتعديل الملابس وتغيير الأسلحة . ولكن الارتباك المالى حال في هذه المرة أيضاً دون المضى في إصلاح شؤون الجيش طبقاً للنظام الألمانى . ولم يكن الضيق المالى هوكل مافت في عضد الجيش المصرى في أواخر أيام اسماعيل بل كان هناك نقص آخر شعر به الجيش طيلة ذلك العهد . هذا النقص هو عدم وجود قائد عام للجيش على غرار ابراهيم باشا أو سليمان باشا الفرنساوى يبعث وجوده الحماسة في نفوس الجنود ويدفعهم — كما حدث في حروب الاستقلال المصرى — إلى أعمال البطولة والبراعة

ولسنا في حاجة إلى أن نخبرك أن حرمان الجيش من مثل هذا القائد العام كان من أكبر أسباب ضعفه كما حدث في حرب الحبشة . فلقد كان المصريون والأجانب مطمئنين إلى ما قبل هذه الحرب إلى بطولة الجيش المصرى وقوته ظناً منهم أنه ما يزال محتفظاً بما ==

الاقتصادية وبفضل انتشار التعليم . بيد أن ما كان يقوم به محبوا الخير بين

== كان له من المسكنة في عهد محمد علي وعهد ابراهيم وخاصة بعد ما أبداه من البسالة في حرب كريت والبلقان بما سذكركه لك قريبا . ولكن حرب الحبشة كشفت عن مواطن ضعفه وأطمعت فيه الطامعين . ومما زاد الطين بلة أن اشتداد الضيق المالي في عهد المراقبة الثنائية حل وزارة نوبار باشا الأولى على تخفيض عدد الجيش توفيراً للنفقات فأحالت ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع وسرحت عددا كبيرا من الجند وخفضت المرتبات بصفة عامة فزاد ذلك في ضعف الجيش رويدا رويدا إلى أن فوجئت البلاد بالثورة العراية ثم الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ فدارت الدائرة على الجيش المصري وهو الذي كتب في عهدي محمد علي وابراهيم صفحات مجد خالدة في تاريخ حروب الاستقلال المصري .

البحرية في عهد اسماعيل

لا نظننا في حاجة إلى الاعتذار للقارىء إذا خضنا في حديث مرافق الدولة في عهد اسماعيل بل نرى ذلك واجبا محتما على كل كاتب يعرض لتاريخ ذلك الخديو . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن من يذهب إلى اتهام اسماعيل بالأسراف وحب البذخ يتعين عليه أن يذكر أيضاً أن أموال الدولة لم تبدد في الكاليات — كما زعموا — بل في أخص شؤون الدولة وأهم مرافقها التي كانت مزدهرة في العهد الاسماعيلي كما نصوره أمامك . لقد كلنناك عن السودان وما أنفق اسماعيل في سبيل تعميره ونشر رواق الحضارة والمدنية والأمن في ربوعه بعد أن قطع دابر النخاسة أو كاد كما شهد بذلك كبار الإنجليز كغوردون وصمويل بيكر . ثم حدثناك عن الجيش وأسباب ضعفه وها نحن الآن نحدثك عن البحرية مقتبسين من كتاب صديقنا الأستاذ الرافعي بك . ورب من يعترض على الأكثر من الاقتباس من الكتاب المذكور . ولكن جوابنا على ذلك سهل للغاية . فالأستاذ الرافعي بك لم يكتب كتابه لأطراء العهد الاسماعيلي أو التغني به بل ليحمل عليه أشد حملة ويتهمة بما لم يتهمة به خصوم اسماعيل أنفسهم . وحسبك دليلا على هذا ما قاله عن حرب الحبشة واتهامه اسماعيل بأنه هو مشعل نارها — معتمدا في ذلك على رواية سرهنك باشا — بينما قررت لجنة كيف الإنجليزية العكس . فكلام الأستاذ الرافعي بك إذن باعتباره ممن قسوا في نقد اسماعيل أبلغ بمراحل في الاعتراف بمآثر ذلك العهد من كلام مؤرخ عرف باطراء اسماعيل والتغني بأعماله .

== ونرجع الآن إلى صلب الموضوع فقول : عند ما تولى اسماعيل الحكم كانت ==

ظهر انينا من الحملات الصادقة ضد النخاسة وهى حملات وإن لم تعطل مصادر

البحرية كغيرها من مرافق الدولة فى حالة تأخر وضعف بماتراً عليها من الاضمحلال فى عهد عباس واستمر فى عهد سعيد بسبب معارضة تركيا .

فما هو أن تولى اسماعيل حتى أخذ يعنى بتجديد الأسطول ونقح من روحه فى دور الصناعة فجدد ترسانة الاسكندرية وجلب لها الصناع من المدينة ومن داخل البلاد واستحضر لها أحدث الأدوات وبالاختصار عاودها النشاط الذى كان لها فى عهد محمد على . فقد أنشئ فيها بين ما أنشئ البارجة « لطيف » و « الصاعقة » . هذا فى حين أن اسماعيل أوصى المصانع الأوروبية المختلفة بصنع عدة بوارج حرية مدرعة .

وأخذ فى تجديد المدرسة البحرية بالاسكندرية وأنشأ مدرسة أخرى جلب لها الأكفاء من المدرسين من خارج البلاد وداخلها وتولى نظارتها ما كيلوب باشا (وقد مر بك اسمه فى محاربة النخاسة) .

وكانت مدة الدراسة فى هذه المدرسة ثلاث سنوات وكان مستوى التعليم فيها عالياً وقد أرسل الخديو بعثة من خريجيها إلى إنجلترا لاتمام العلوم البحرية كانشاء السفن والميكانيكا البحرية الخ . وكان ممن تخرج منها اسماعيل باشا سرهنك صاحب كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » ناظر المدرسة الحربية المستجدة .

وما كاد أن يتم صنع المدرعات الثلاث التى أوصى بها اسماعيل فى فرنسا والمدرعتين الآخرين فى النمسا وأصبح استلامها وشيكاً فى سنة ١٨٦٨ حتى رفعت تركيا - بإيعاز السياسة الانجليزية التى لم تكن مرتاحة لتقوية الأسطول المصرى - عقيرتها بالاحتجاج على عمل اسماعيل زاعمة أن الفرمانات لا تسمح لمصر بانشاء السفن الحربية . ثم حسم الخلاف بأن ابتاعت تركيا هذه السفن .

وقد حدثناك فيما قلناه فى محاربة النخاسة عن بعض خدمات الأسطول المصرى برغم ما قام فى سبيل تعزيزه من الاعتراضات . وبين هذه الخدمات نقل الجنود إلى مختلف ثغور الأملاك المصرية فى البحر الأحمر وخليج عدن والأقياوس الهندى هذا عدا نقل الحملات المصرية لا إلى بلاد السومال فحسب بل وإلى جزيرة كريت والبلقان حيث اشتركت مصر فى الحرب التى كانت بين تركيا وبين تلك البلاد .

وما يذكر بالفخر للأسطول المصرى فى ذلك العهد أن سفنه عبرت الأقياوس

الهندى وطافت حول رأس الرجا الصالح والقارة الأفريقية قبل شق قناة السويس .

وليس يفوتنا أن نسجل عدد قطع الأسطول فى عهد اسماعيل كما أحصاها

اسماعيل باشا سرهنك فى ص ٢٨٧ من الجزء الثانى من كتابه عجائب البحار . فقد قال =

العرض ولا أصلحت من نفسية مراكز الطلب فلم تكن تتيجتها إلا ازدياد

=إنها ١٨ سفينة حربية عدا ثلاث لركوب الخديو وهاك أسماؤها وعدد مدافعها :

اسم البارجة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١ محمد علي	فرقاطة	أمريكا	حديد وخشب	٢٨
٢ شيرجهاد	»	ترينتا	خشب	٢٨
٣ لطيف	قرويت	الاسكندرية	خشب	٦
٤ الخرطوم	مدفعية	انجلترا	خشب	٥
٥ دنقلة	دارعة	»	مدرع	٨
٦ الصاعقة	قرويت	الاسكندرية	خشب	٨
٧ سنار	مدفعية	انجلترا	خشب	٧
٨ نمره ١	زرخ	فرنسا	مدرع	٢
٩ » ٢	»	»	»	٢

ثلاث بوارج حربية لنقل الخديوي

اسم البارجة	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٠ المحروسة	لندن	حديد	٨
١١ مصر	طولون (فرنسا)	»	٦
١٢ الغربية	»	»	٤

طرادات وسفن للنقل

اسم الباخرة	نوعها	محل إنشائها	نوع معدنها	عدد مدافعها
١٣ الطور	رفاس	انجلترا	حديد	٢
١٤ اسوان	دولاب	»	خشب	٤
١٥ شندى	»	»	»	٤
١٦ أسبوط	»	الاسكندرية	»	٢
١٧ الجعفرية	رفاس	انجلترا	حديد	٣
١٨ سمود	»	»	خشب	٢
١٩ نور الهدى	»	»	حديد	٢
٢٠ مخبر	»	»	»	٢
٢١ عجمي	»	»	»	٢

وذائل هذه التجارة المقبولة لأنها دفعتها إلى مسالك خفية غير مستقيمة .
ومن الآن بدأت مصر تشترع للشرق السنة الحسنة ليسير عليها في
مطاردة هذه النخاسة التي نسلم بأنها كانت ألغيت في عهد سعيد بصفتها تجارة .

الأسطول في عهد محمد علي

وقد يكون من المفيد أن نذكر إلى جانب هذا الإحصاء عدد قطع الأسطول كما
كانت في عهد محمد علي . وهاك بيانها نقلا عما أورده اسماعيل باشا سرهنك في الجزء الثاني
من كتابه « حقائق الأخبار » في ص ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥
وقد ذكر سرهنك باشا في ص ٢٥٢ أنه عثر على أسماء هذه السفن في قائمة محررة
من المرحوم حسن باشا الاسكندراني — ناظر ترسانة الاسكندرية (توجد صورته
في ص ٩٩ من الكتاب الحاضر) عند ولده محسن باشا . وإتماماً للفائدة راجع الباشا
يذكر أسماء تلك السفن ومقاساتها وأبعادها وعدد مدافعها وعدد بحارتها وأسماء قباطنها
الخ الخ مما نرى أن نثبته هنا مع حذف الأبعاد والمقاييس وغيرها من التفاصيل :

اسم السفينة	محل انشائها	نوع السفينة	عدد الدافع	عدد رجالها	اسم القبطان في زمن أميرالية سعيد باشا
المحلة الكبرى	اسكندرية	قباق	١٠٠	١٠٣٤	بوزجه أطه لى خليل بك
المنصورة	»	»	١٠٠	١٠٣٤	ظاهر قبودان
الاسكندرية	»	»	١٠٠	١٠٣٤	جر كس محمود قبودان
أبو قير	»	»	٨٤	٧٣٦	حافظ خليل
مصر	»	»	١٠٦	١٠٩٧	شنان
عكا	»	»	١٠٦	١١٤٨	عثمان بك قاح
حص	»	»	١٠٠	١٠٣٤	عثمان بك بونى
يلان	»	»	٨٦	٩٠٠	حسين شرين بك
حلب	»	»	١٠٠	١٠٣٤	ازميرلى محمد قبودان
الفيوم	»	»	١٠٠	١٠٣٤	عبد اللطيف بك
بنى سويف	»	»	١٠٢	١٠٣٤	الأمير محمد سعيد باشا
دمشق	»	»	»	»	حرقت قبل اتمامها

وإليك الفرقاطات والقراويت وقد أضيف إليها بعض السفن التي أشار إليها كلوت
بك وغيره ولم يذكره سرهنك باشا :

غير مشروعة . ولكن اسماعيل عقد عدة اتفاقيات دولية للقضاء عليها قضاء

اسم السفينة	محل انشائها	نوع السفينة	عدد المدافع	عدد رجالها	اسم القبطان في زمن سعيد باشا
منوف	اسكندرية	فرقاطة	٦٤	٥٥٨	عثمان بوتي قبودان
دمياط	"	"	٥٦	٤٧٠	وهو غير الاسم السابق محمد هدايت قبودان
رشيد	تريستا	"	٦٠	٥١٠	السيد علي
الجعفرية	ليفورن	"	٦٠	٥١٠	برغمهلى أحمد
سير جهاد	"	"	٦٠	٥١٠	نورى بك
البحيرة	تريستا	"	٦٠	٥١٠	كلورخورشيد
طنطا	اسكندرية	قرويت	٢٨	١٨٦	ولى خسرو
دمهور	"	"	٢٦	١٨٦	مرجان
واسطة جهاد	جزائر الغرب	"	٢٨	١٨٦	ولى محمد خورشيد
جناح بحرى	جنوه	"	٢٤	١٨٥	زينل قبودان (كانت معدة لتعليم التلاميذ)
بلنك جهاد	مرسيليا	"	٢٤	١٨٥	غير معروف
رهير جهاد	"	"	٣٠	٢٠٠	على رشيد قبودان
بومبة	تريستا	"	٤٥	٣٠٠	بيجان
جهاد يكر	جنوه	"	٢٤	١٨٥	حسن أباطه
فوه	اسكندرية	"	٢٤	١٨٥	مرجان
شاهد جهاد	"	"	٢٤	١٨١	ابراهيم
سمند جهاد	مرسيليا	ابريق	١٨	٨٩	احمد شاهين
بادى جهاد	امريكا	"	٢٤	٨٩	غير معروف
ابريق رقم ٢	غير معروف	"	١٨	٨٩	الياس
شهباز جهاد	مرسيليا	"	١٨	٨٨	حسن الأرتود
صاعقة	ليفورن	غولت	٢٤	٨٨	طاهر
تمساح	مرسيليا	"	١٦	٨٨	غير معروف
غولت جديد	اسكندرية	كوثر رقم ٢	١٢	٥٢	سرهك
النيل	انجلترا	فرقاطة بخارية	٦	٥٢	غير معروف
المجموع	٣٦ سفينة		١٨٥٧	١٦٨٠١	

ونضيف إلى هذه القطع السفن الآتية التي لم يذكرها إحصاء سرهنك وهى : كفر الشيخ وشاهين دريا وأمريكان وقد أسرت قبل وضع هذا الإحصاء ..



النجاشي تيودور الثاني امبراطور الحبشة
وسط ضواريه الاليفة (راجع ص ٣٤٩)
وهي مأخوذة من نداء مقدم للشعب الانجليزى بقلم المسيو جان كوتسيكا
خاص « بمسألة الحبشة »

== واستطرد سرهنك باشا فقال ما نصه :

« وتتبع هذه السفن ثلاث بواخر أخرى وهي وابور برواز بحرى ووابور أسبوط
ووابور جيلان ووابور الشرقية (وسمى فيما بعد بفرقتين مخبر سرور) ووابور
رشيد (وهو قرويت) وسفائن التجارة الأميرية وهي سفن للنقل وغيرها « النخ .
فليقارن من شاء بين هذا الأسطول الضخم والأسطول المصرى فى عهد اسماعيل باشا
وبين ما وصلت إليه حالة البحرية المصرية بعد الاحتلال البريطانى .

الأسطول التجارى

ولم يفت فى عضد اسماعيل مالا قاه من المصاعب فى سبيل إنشاء الأسطول الحربى
بل وجه عنايته إلى إنشاء أسطول تجارى . فألغى الشركة المجيدية المنشأة فى عهد سعيد
وأنشأ الشركة العززية نسبة إلى السلطان عبد العزيز حيث كانت بواخرها تنقل
المسافرين والمتاجر لثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر . وقد وزع رأس ==



السردار راتب باشا
قائد الحملة المصرية في حرب الحبشة
(راجع ص ٣٥١)

== مال الشركة الجديدة على عدة أسهم لتمكين الأفراد من الاشتراك فيها .
وقد أقبل سراة المصريين على الاشتراك في رأس المال وخصص الحديد للشركة سبع.
بواخر كانت موجودة من قبل وأوصى بإنشاء بواخر جديدة في إنجلترا واختار لقيادة.
هذه السفن أكفأ الضباط المصريين الذين تركوا خدمة الأسطول منذ اضمحلاله . ثم
ابتاعت وزارة البحرية عدداً من السفن الشراعية الكبيرة لنقل ما يلزم لوزارتي البحرية
والحرية من الأخشاب من الأناضول .

وبنشاط هذه الشركة نشطت حركة التجارة الخارجية لمصر . وإليها يرجع الفضل في
تسهيل مواصلاتها مع الاقطار الاخرى . وكان طبعاً أن تراحم الشركة شركات
الملاحة الأجنبية وأن تتضاعف أرباحها إلى أن ابتاع الحديد أسهمها وحولها إلى إدارة ==

✽ هذه الصورة مستعارة من حضرة محمد بك طلعت الفرنسي .

مبرماً (كالاتفاقين اللذين عقدهما مع بريطانيا العظمى في ٤ اغسطس

== حكومية وسماها م مصلحة وابورات البوستة الحديدية ، فازداد نجاحها واتسع نطاق أعمالها وصار لها ٢٦ باخرة تخترق البحار رافعة العلم المصرى وتنقل المتاجر والبريد والمسافرين بين ثغور البحر الابيض المتوسط وسوريا وبلاد الاناضول والبلقان وثغور البحر الاحمر إلى خليج عدن وزيلع وبربره .

وهذه أسماء السفن مأخوذة عن كتاب احصاء مصر سنة ١٨٧٣ وهى : التاكا . الفيوم . البحيرة . الشرقية . الدقهلية . طنطا . شندى . شبين . دسوق . كوفيت . سمود . المنيا . الجعفرية . مسير . المنصورة . المحلة . النجيلة . دمنهور . الزقازيق . الحجاز . الحديدية . ينبع . القصير . سواكن مصوع .

والحق بهذه المصلحة الحوض العائم المنشأ بميناء الاسكندرية وخصص لبواخرها (فابريكة) فى ترسانة الاسكندرية لترميم السفن واصلاحها .

وظلت هذه الادارة وملحقاتها ملكاً للحكومة إلى أن ابتاعتها شركة انجليزية فى بداية الاحتلال البريطانى . وهكذا لم تخسر مصر فقط ثروة قومية ضخمة انتقلت إلى أيدي أجنبية بل خسرت أيضاً عليها الذى كان يخترق البحار ويذكر الأمم المختلفة بالامة المجيدة الساكنة على ضفاف النيل .

إتمام ميناء السويس

تذكر أن سعيد باشا شرع فى سنة ١٨٥٦ فى إنشاء ميناء جديد فى السويس لسهولة أيواء السفن . وشرع فى اقامة حوض لعبارة السفن وترميمها وظل العمل سائراً فى إتمام هذه المشروعات إلى أن كملت فى عهد اسماعيل وبلغت نفقاتها ٢٤٠.٠٠٠ جنيه . وللاسف تنازلت عنها الحكومة المصرية فى عهد الاحتلال للشركة الانجليزية التى ابتاعت وابورات البوستة الحديدية .

إصلاح ميناء الاسكندرية

بعد أن أنشئت بور سعيد وقارب مشروع قناة السويس التمام وجه اسماعيل اهتمامه إلى ميناء الاسكندرية فعمل على إصلاحها بعد اتساع حركة العمران وازدياد المواصلات البحرية فيها .

فكانت باكورة أعمال الإصلاح أنه ابتاع من فرنسا فى سنة ١٨٦٨ حوضاً عائماً ==

٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ وما أصدره من الأوامر العالية بتاريخ ٤ اغسطس

= من الحديد لترميم السفن بدلا من الخوض الحجري الذي بناه محمد علي والذي أصبح لا يفي باصلاح السفن الكبرى .

واهتم بعد ذلك بإنشاء حاجز الأمواج الحجري لوقاية السفن من طغيان المياه وجعلها في أمن من العواصف . كذلك أنشأ بداخل الميناء رصيفاً للشحن والتفريغ وعدة أرصفة أخرى ممتدة داخل الميناء . وقد نالت شركة انجليزية تسمى شركة جرنفيلد امتياز أعمال الإصلاح التي بلغت نفقاتها ٣٠٠٠٠٠ ر. جنيه واستغرقت من الوقت من سنة ١٨٧١ لغاية سنة ١٨٧٩

الفنارات

واهتم بإنشاء الفنارات لأرشاد السفن فبلغ عددها في ثغور البحر الأبيض ثمانية وفي ثغور البحر الأحمر خمسة عدا ما أنشأه في خليج عدن .

حروب مصر

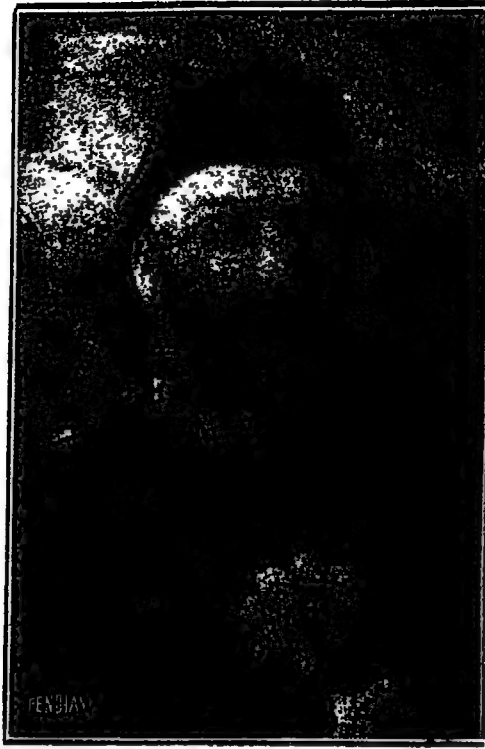
كما تكلمنا عن حروب مصر من عهد محمد علي وابنه ابراهيم إلى عهد سعيد لا نرى بدأ من التكلم عن حروبها في عهد اسماعيل ملخصا عما كتبه سرهنك باشا . وهي تنقسم إلى قسمين حروب خارجية اشتركت فيها تلبية لدعوة تركيا ولم تقد منها شيئا اللهم إلا اتخاذ اسماعيل إياها وسيلة لنيل امتيازات جديدة تدنى البلاد من الاستقلال التام . هذا فضلا عن أنها كانت بمثابة ميادين لمران الجنود المصريين وضباطهم على ممارسة القتال والافادة من تجاريه .

أما القسم الثاني أو الحروب الداخلية فتشمل حروب السودان بما فيها حرب الحبشة وقد أفادت مصر أكبر فائدة من هذا القسم من الحروب إذ بواسطتها وصلت أملاكها إلى حدودها الطبيعية هذا عدا القضاء على النخاسة .

لائخاد ثورة العسير

وقد تكلمنا عن الحروب الداخلية فلا حاجة للعودة إليها . أما الحروب الخارجية فأولها الحرب التي خاضها اسماعيل للائخاد ثورة العسير .

فان تركيا كما سبق أن استنجدت بمحمد علي الكبير لصد الخطر الوهابي قد لجأت إلى حفيده اسماعيل للائخاد الثورة التي رفع عليها الأمير محمد بن عائض أمير العسير وصحت نيته على احتلال تهامة اليمن .



جلالة السلطان عبد العزيز *

== وقد سبق الكلام عما كان بين السلطان عبد العزيز واسماعيل باشا من أوامر الصلة ، فما كاد السلطان أن يلجأ إلى مساعدته حتى لبي الطلب وأنفذ إلى العسير ثلاث أوروپ من المشاة مزودة بالمدافع وكتائب الفرسان بقيادة الميرالاي اسماعيل صادق بك . فما أن وصلت الجنود المصرية إلى جده حتى اتفق قائدها ووالى المدينة على إرسال الحملة المصرية بصحبة الجنود العثمانية لمهاجمة الثوار من جهة « قنفذة » وبذا قصم ظهر الثورة وبادر ابن عائض إلى تقديم الطاعة . ثم توسط اسماعيل في العفو عنه لدى السلطان فعفا عنه وأقره في إمارته وعادت الحملة المصرية وعلى رأسها أكاليل الغار وأرسل السلطان إلى الخديو كتاب شكر وثناء على الجنود المصرية .

حرب كريت

لما كان البلقان أبدا منشأ الفتن والقلاقل فان أمير الجبل الأسود دفع ولاية ==

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



محمود باشا سامى البارودى

== المرسك إلى الفتنة في سنة ١٨٦١ مما دعا تركيا إلى تجريد جيوشها لكبح الثائرين . فلما أن تولى اسماعيل الأريكة في سنة ١٨٦٣ كانت تركيا ما تزال منشغلة في إخماد تلك الثورة فلجأت إلى الخديو لأمدادها ببعض فرق الجيش لتعسكر في الروملى حتى لا يتفاقم أمر الثورة . فلى اسماعيل الطلب وأنفذ فرقة بقيادة اللواء على غالب باشا فاستعرضها السلطان في الأستانة وسارت إلى سلا نيك فناستير حيث عسكرت هناك . ولما كانت الثورات في بلاد الدولة العلية يأخذ بعضها بخناق البعض الآخر في ذلك العهد فان ثورة عامة نشبت في جزيرة ريت في ١٨٦٦ وأخفقت تركيا في كبحها فالتجأت من جديد إلى مصر .

فلم يتردد اسماعيل في إنفاذ جيش مؤلف من ٥٠٠٠ مقاتل بقيادة اللواء شاهين باشا (انظر صورته في ص ٣٧٤) ومعه اللواء اسماعيل صادق باشا وتولت عمارة من الأسطول المصرى تبلغ العشر سفن بقيادة الأميرال قاسم باشا نقل هذه الحملة إلى الجزيرة الثائرة . كما تولت نقل الجنود المعسكرة في مناستير إلى مكان الثورة .

وكان بين ضباط حملة شاهين راشد بك حسنى الذى ساهم بنصيب وافر في الثورة العراقية ، والشاعر المطبوع محمود باشا سامى البارودى بطل الحوادث العراقية فيما بعد . وفي حرب كريت هذه كانت نشأة البارودى الحرية وفيها قال قصيدته المشهورة التي مطلعها أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهما السرى بأعنة الفرسان

ولما نزلت حملة شاهين باشا إلى الجزيرة اشتبكت بالثوار في معركة « أبوقرون » ==



الزنج يهاجمون التماسيح في منطقة السدود أثناء حملة السير صمويل بيكر *

== حيث جرح اسماعيل صادق باشا ونقل إلى مصر وتقرر في الوقت نفسه استدعاء شاهين باشا وتعيين الفريق اسماعيل سليم باشا وزير الحرية محله . ولهذا الاستدعاء حكاية طريفة ذكرها محمود باشا فهمي في الجزء الأول من كتابه البحر الزاخر ص ١٩٩ وملخصها أن الخديو - تنفيذاً لسياسة تقديم المعونة لتركيا كوسيلة للحصول على فرمانات جديدة بامتيازات جديدة لتحقيق الاستقلال المصري اسماً وفعلاً - طلب في أثناء هذه الحملة إلى السلطان أن يخوله حق تعيين سفراء لمصر لدى الدول الأجنبية . ولكن الباب العالي أحس بأن غاية اسماعيل هي تعجيل انفصال مصر عن تركيا فرفض طلبه . فغضب الخديو وهدد بسحب الجيش المصري من كريت أو أن يستحوذ عليها إن لم تجب طلبه .

وزاد اسماعيل باشا سرهتك في الجزء الثاني من كتابه حقائق الاخبار ص ٣٤١ على هذه الرواية - وكان هو ومحمود باشا فهمي معاصرين لهذه الحوادث - أن الخديو أوعز سرا إلى شاهين باشا القائد العام للجيش المصري في الجزيرة بالعمل على ترغيب سكان الجزيرة في الانسلاخ عن تركيا والانضمام إلى مصر . فشرع القائد يتردد على رجال ==

* هذه الصور وما يتلوها من الصور الخاصة بما صادف حملة السير صمويل بيكر من المفاجآت في السودان ومنابع النيل مأخوذة عن كتاب : اسماعيلية ، للسير صمويل بيكر.



عبد الله باشا فكرى

= الأكليروس في المعابد ويفرق عليهم المال والهدايا إلى أن علمت الحكومة التركية بذلك فطلبت إلى الخديو عزل شاهين باشا من القيادة ففعل وأرسل بدله اسماعيل سليم باشا . وعلى كل فأن الجيش المصرى بعد وصول قائده الجديد سليم باشا اشتبك مع الثائرين في موقعة « أرقاذى » وهى من المعارك المشهورة فأنزل بهم الخسائر الفادحة . بعد أن أبلى أحسن بلاء مما دعا الخديو إلى أن يرسل له كتاباً بليغاً من انشاء عبد الله باشا فكرى يثنى فيه على همة الجيش ويسجل له ما أبداه من ضروب الشجاعة والكفاءة . وأنعم الخديو على راشد بك حسنى برتبة اللواء كتقدير خاص لشجاعته . وبعد سجال قصير أخذ الجيش المصرى الثورة نهائياً وقصم ظهرها ثم عاد إلى مصر فاستقبل استقبال الفاتحين وأقام الخديو الولائم لأفراده تكريماً لهم واعترافاً بخدماهم في ساحات القتال .

حرب البلقان (١٨٧٦ - ١٨٧٧)

تعلم أن وصية بطرس الأكبر كانت تقضى بتمزيق أوصال تركيا ليسهل على روسيا امتلاك الأستانة والاستيلاء على بوغازى البوسفور والدردنيل لذلك جعلت محور سياستها في البلقان تحريض إماراته على إشعال نار الفتن والثورات فإذا ما انشغل بال تركيا باخمادها ووزعت قواتها للضرب على أيدي الثائرين سهل على الجيش الروسى الانقضاض بكيته على بقية الجيش التركى وتحقيق مآربه .

ففى سنة ١٨٧٥ أشعلت نار الفتنة فى شبه جزيرة البلقان وما لبثت أن امتدت إلى ==



اللواء راشد باشا حسنى *

== المرسك ومنها إلى البوسنة فانهزت الصرب لشد عضد التأثيرين .
إذ ذاك يمت تركيا وجهها شطر مصر فأمدتها اسماعيل بجيش قوامه ٧٠٠٠ مقاتل
بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ومن ضباطها محمود بك فهمى صاحب كتاب البحر الزاخر .
فسارت الحملة إلى الأستانة ومنها إلى حدود الصرب حيث انضمت إلى الجيش
العثمانى فى الحرب التى دارت دائرتها على الصربيين . وأبلى فيها المصريون أحسن بلاء .
عما حمل الخديو على الأنعام بالرتب السامية على فريق من الضباط والقواد .
وفى خلال هذه الحرب قتل السلطان عبد العزيز وخلف السلطان مراد وصعد الأريكة
العثمانية السلطان عبد الحميد الثانى ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦
ومن ثم عادت الجنود المصرية إلى الأستانة بعد وقف القتال بين تركيا والصرب .
ولكن توقف هذه الحرب كان وقتا ريثما تتم روسيا استعداداتها . ففى إبريل سنة
١٨٧٧ تجدد النزاع بين تركيا وروسيا ونشبت بينهما الحرب البلقانية فالتجأت تركيا ==

* هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



الأمير حسن باشا

== إلى الخديو ولكنه اضطر اضطرارا إلى تخيير رجائها هذه المرة بسبب ارتباطك الأحوال المالية في مصر وعجز الخزانة عن الاتفاق على تلك الحملة . ولكن السلطان عبد الحميد أعاد الكرة ولم يقبل العذر .

وكان اسماعيل صادقا في اعتذاره لأن أصحاب القرائيس ومن ورأئهم الدول تشد أزهم كانوا قد أخذوا يضيّقون الخناق على الحكومة المصرية ويتبارون جميعاً في إرهاب مصر حكومة وشعباً . إذ ذاك رأى الخديو أن من حسن السياسة عدم مغاضبة تركيا ومجاافتها في هذه الظروف العصية فصمم على إجابة طلبها .

ونظراً لأن خزانة مصر كانت وقتئذ خاوية على عروشها عقد اسماعيل مجلس شورى النواب واستشاره في فرض ضريبة جديدة تدعى « ضريبة الحرب » قدرها ١٠ ٪ من مجموع الضرائب لسد نفقات الحملة . فوافق المجلس وأعد الخديو جيشاً ==

هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



محمود باشا حمدي الفلكي

== قوامه ١٢٠٠٠ مقاتل بقيادة نجله الثالث الأمير حسن باشا .
ولما أكلت الحملة معداتها أقلعت بهم السفن المصرية إلى الاسطانة ومنها إلى «وارنه»
أحد ثغور البحر الأسود . وقد أبلى المصريون — كعادتهم — أحسن بلاء في هذه
الحرب وظلوا مشتركين فيها إلى أن وضعت أوزارها في مارس سنة ١٨٧٨ ثم عادوا
إلى مصر .

التعاليم والنهضة العلمية والأدبية

وننتقل الآن إلى ما يصح أن يعتبر أكبر ما امتاز به عهد اسماعيل باشا ألا هو
التعليم وما لحق به من النهضة العلمية والأدبية ملخصاً عن كتاب الأستاذ الراجحي بك .
فلقد كان اسماعيل « كالدینامو » الذي لا يفتأ يأتي من الأعمال النافعة ما تنوء به كواهل
الجبايرة . ولسنا ندرى ماذا كان يكون شأن مصر من هذه الناحية لو أفسح الله في عهد
ذلك الخديو العظيم أو لو لم يتألب عليه أصحاب القراطيس كما فعلوا . ونظرة واحدة
تلقينا على هذه المدارس تكفي لاقعاعك بما كان يمتاز به عصره الزاهر .

✽ هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



حملة السير صمويل يكر تفاجأ بالتماسيح في مناطق أعلى النيل

المدارس العالية المهندسخانة

فلقد حدثناك عن المدارس الحربية ونحدثك الآن عن المدارس العالية التي ازدان بها عصره فمدرسة المهندسخانة (أو الرى والعبارة سابقا) أنشئت بسرأى الزعفران في سنة ١٨٦٦ ثم نقلت إلى سرأى درب الجامين ثم إلى الجيزة وكان أول ناظر لها اسماعيل باشا الفلكي ثم خلفه محمود باشا حمدى الفلكي

الحقوق

أنشئت في سنة ١٨٦٨ وتعتبر من أعظم المعاهد العلية التي أسست في عهد اسماعيل وكانت تسمى في بدايتها مدرسة الإدارة والألسن وحلت محل مدرسة الألسن التي أغلقت في عهد عباس . ولكنها أصبحت منذ سنة ١٨٨٦ تسمى مدرسة الحقوق وكان أول ناظر لها المسير فيدال باشا أحد كبار علماء فرنسا وقد ظل في منصبه ٢٤ سنة أى لغاية ١٨٩١ وتخرج على يديه أقطاب القانون في مصر ونوابغه في عهد اسماعيل وما يليه من العصور . ولهذه المدرسة أكبر فضل على نهضة القانون والتشريع والقضاء وبالجملة على النهضة الأدبية والسياسية في البلاد .



بضربة من أسفل قلب فرس البحر القارب المرافق للذهبية وأغرق
مافيه من الضأن أثناء سفر حملة السير صمويل بيكر إلى أعالي النيل

مدرسة دار العلوم

وأعقب ذلك إنشاء مدرسة دار العلوم في سنة ١٨٧٢ لتخريج أساتذة اللغة العربية
للدارس الابتدائية والثانوية . وقد اختير طلابها من بين نجباء تلاميذ الأزهر .

مدرسة الطب والولادة

وكانت موجودة من قبل ولكنها بلغت درجة سامية في عهد اسماعيل واتسع
نطاقها وتخرج منها رهط من أعلام الطب في مصر .

مدارس البنات

ذكرنا لك اهتمام اسماعيل بتعليم البنات وهو ما يشهد له بالفضل في نهضة الأمة
وكيف انه كان أول حاكم شرقي رفع مستوى المرأة من ناحية التعليم بعد أن كان السواد
الاعظم منهن لا يعرفن عن التعليم إلا ما يتذوقه القادرات منهن على أيدي معلمين
في بيوت آبائهن .

وكانت أول مدرسة أنشئت لتعليم البنات مدرسة السيوفية في سنة ١٨٧٣ وقد
أنشأتها قرية الخديو جشم آفت هانم وكانت تضم في أول افتتاحها نحو ٢٠٠ تلميذة ثم
بلغ عددهن ٤٠٠ في سنة ١٨٧٤ وكلهن يتعلمن مجانا فضلا عن الاتفاق على ما كلهن وملبسهن .
وكانت مواد التعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن والحساب والجغرافيا والتاريخ
والتطريز والنسيج على ما جاء في عدد الوقائع المصرية رقم ٥٧٦

سنة ١٨٧٧ وأول يناير سنة ١٨٧٨) ولم يكن من هيئات الأمور على حاكم

المدارس الصناعية

واهتم اسماعيل بالمدارس الصناعية فأسس في سنة ١٨٦٨ مدرسة الفنون والصنائع وكانت تعرف بمدرسة العمليات . وقد تخرج منها مهندسو الواپورات البرية والبحرية والموظفون الميكانيكيون في مصلحة السكة الحديدية وكذا مهندسو صنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية . وكان برنامجها يشمل العلوم الصناعية والهندسة والتمريبات العملية .

وأسست مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٦٩ ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع . كذلك أسست فرقة نقاشين سنة ١٨٦٩ وفرقة عمليات المرور سنة ١٨٧٠ ثم ألغيت فيما بعد .

المدارس الخصوصية

ومن المدارس الخصوصية التي أسست في عصر ذلك الخديو العظيم

مدرسة المساحة والمحاسبة

أسست في سنة ١٨٦٨ ثم مدرسة الهير وغلغيا في سنة ١٨٦٩ ولكن ألغيت هذه الأخيرة سنة ١٨٧٩ ومن تخرج منها العلامة الأثرى احمد كمال باشا . ثم فرقة الرسم بالمدارس الملكية أسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ ومدرسة الزراعة أسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ ومدرسة العميان والحرس للبنين والبنات أسست سنة ١٨٧٥

المدارس الثانوية

وعدها اثنتان المدرسة التجهيزية بالعباسية أسست سنة ١٨٦٣ ونقلت سنة ١٨٦٨ إلى درب الجمايز وسميت بالخدوية ثم مدرسة رأس التين وقد أسست سنة ١٨٦٣

المدارس الابتدائية

أما المدارس الابتدائية التي ألغى معظمها في أوائل محمد علي ولم يحدد بدلها عباس ولا سعيد فقد لقيت أكبر عناية من جانب اسماعيل حيث عمل على الأكتار منها في العاصمة والأقاليم .

ولعل الفضل في ذلك راجع إلى شريف باشا ثم إلى علي باشا مبارك وقد فكر هذا الأخير في تحويل التعليم في الكتاتيب إلى التعليم الابتدائي النظامي وكان عدد الكتاتيب يبلغ وقتئذ ٥٠٠٠ كتاب .

أوتقراطى مسلم ان يقدم على إصدار أمر عال بتحرير ما كان يعتبر حتى

= واليك بيان ما أنشأه اسماعيل من المدارس الابتدائية :

المدرسة	تاريخ الانشاء
مدرسة المبتديان بالعباسية وقد نقلت إلى الناصرية فيما بعد	أنشئت سنة ١٨٦٣
رأس التين	١٨٦٣
طنطا (بينها)	١٨٦٨
أسيوط	١٨٦٨
بنى سويف	١٨٦٢
المنيا	١٨٧٣
القرية	١٨٧٢
الجمالية	١٨٧٣
الحسينية	١٨٧٩
باب الشعرية	١٨٧٤
عابدين	١٨٧٩
مصر القديمة	١٨٧٩
أبوالعلايولاق تسمى الآن (عباس)	١٨٧٢
السيدة زينب تسمى الآن (محمد على)	١٨٧٢
مدرسة شيخون	١٨٧٣
العقادين	١٨٧٢
النحاسين	١٨٧٢
الأمام الشافعى	١٨٧٩
الجبانية	١٨٧٢
رشيد	١٨٧٦
الفشن	١٨٧٩

ويضاف الى هذه المدارس مدرسة الصليبة وكانت مكتبا أنشأته والدته عباس

الأول وضم إلى المدارس الابتدائية سنة ١٨٧٢ وقلاوون والشيخ صالح للبنين ومدرسة محمد بك سيد احمد ومدرسة حافظ باشا بالاسكندرية ومدرسة البوصيرى ومدرسة راتب باشا بالاسكندرية .



خليل أغا باشا آغاى والده اسماعيل *

== ثم مدرسة خليل أغا التى أنشأها كبير أغوات والده اسماعيل باشا . ومدرسة القبة التى أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ولى العهد على نفقته الخاصة .

الحفلات المدرسية

كان اسماعيل باشا هو مبتكر فكرة اقامة الحفلات المدرسية التى تحتّم بها الامتحانات العمومية . وكان يحضرها الخديو نفسه وكبار رجال حاشيته ووزراء الدولة وتلقى فيها الخطب وتوزع الجوائز وتنشر الوقائع الرسمية تفاصيل كل حفلة مدرسية وما يلقي فيها من الخطب والقصائد وكانت هذه الحفلات من أكبر عوامل النهضة العلمية فى البلاد .

الآزهر

ما أننا نعرف نصيب الأزهر من عناية جلالة الملك فؤاد فى عصرنا الحاضر كذلك نال ذلك المعهد جزءاً كبيراً من عناية اسماعيل . فبعد أن كانت تدرس فيه علوم الدين والفقه واللغة على النمط القديم المتبع من سالف العصور إذا بروح الإصلاح تدب فيه بعد اعتلاء اسماعيل العرش .

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



لبؤة تهاجم الجند فيصرعها السير صمويل بيكر *

== فقد ولي الشيخ محمد العباسي المهدي مشيخته سنة ١٨٧١ فكانت طليعة أعمال الإصلاح أن وضع سنة ١٨٧٢ نظام الامتحان لتخريج العلماء والمدرسين . وبعد أن كان التدريس خلواً من القيود وضع الشيخ العباسي نظاماً لامتحان العلماء وألف لهذا الغرض لجنة برأسته قوامها ستة من كبار العلماء . ومهمة هذه اللجنة امتحان المرشحين للعالمية في مختلف العلوم واعطاء الناجحين منهم إجازة العالمية . وكان تأليف هذه اللجنة أساس النظام الجديد في الأزهر .

وفي سنة ١٨٧١ هبط مصر الفيلسوف الكبير السيد جمال الدين الأفغاني فنفخ في الأزهر روح النهضة وغرس بذور التقدم الفكري والعلي ، ولم تلبث أن أينعت هذه البذور بظهور المدرسة الحديثة التي حمل لواءها الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده في الأزهر وخارج الأزهر .

البعثات

ولم يفت اسماعيل الاهتمام بالبعثات تشبهاً بجده العظيم محمد علي . فنذ اعتلائه الأريكة في سنة ١٨٦٣ وهو يواظب على إرسال البعثات إلى أوروبا حتى بلغ عدد الطلبة في الخارج مدة حكمه ١٧٢

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية ، للسير صمويل بيكر .



معركة ماسيندى . اندحار وهزيمة كبرى (راجع ص ٣٢٩) *

= وأنشأ لأعضاء البعثة فى باريس مدرسة عوضاً عن المدرسة التى أغلقت فى عهد محمد على . وقد أغلقت مدرسة اسماعيل هذه عقب الحرب السبعينية .

مدارس الأقباط الأرثوذكس

ونشط الأقباط إلى إنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ويرجع الفضل فى هذا إلى جهود الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط الأرثوذكس . وصار لهم فى عهد اسماعيل ١٢ مدرسة بالقاهرة كما أنهم نشطوا لتعليم البنات فأنشأوا لذلك مدرستين .

ومنح اسماعيل مدارس الأقباط مساعدات كبيرة أهمها أنه وهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان القطر يخصص ريعها على التعليم فيها .

المدارس الأوربية

وكثر عدد المدارس الأجنبية فى عهد اسماعيل كما لم يكثر فى عهد أحد من أسلافه حتى بلغ عددها ٧٠ مدرسة للبنين والبنات وقد تخرج منها عدد كبير من رجال الأعمال والمهن الحرة وموظفى البريد والسكة الحديدية والمحال التجارية والبنوك وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلفة .

وزارة المعارف

سبق أن ذكرنا أن سعيد باشا ألغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) ولكن =
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيليه » للسير صمويل بيكر .



وزير المعارف سابقا الأمير محمد سعيد طوسون والدسموالا مير عمر طوسون

== اسماعيل أعاده سيرته الأولى . وبتقدم نهضة التعليم خصص لوزارة المعارف قصر الأمير
فاضل بدرب الجاميز نزولا على اقتراح على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ .
وتوالى على وزارة المعارف في عهد اسماعيل الوزراء الآتية أسماؤهم :

الاسم	المدة
ابراهيم باشا أدهم	يناير سنة ١٨٦٣ - يولية سنة ١٨٦٣
شريف باشا	يولية سنة ١٨٦٣ - ابريل سنة ١٨٦٨
على مبارك باشا	ابريل سنة ١٨٦٨ - سبتمبر سنة ١٨٧٠
مصطفى بهجت باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٠ - مايو سنة ١٨٧١
على مبارك باشا	مايو سنة ١٨٧١ - أغسطس سنة ١٨٧٢
الأمير حسين كامل باشا	أغسطس سنة ١٨٧٢ - أغسطس سنة ١٨٧٣
مصطفى رياض باشا	أغسطس سنة ١٨٧٣ - مايو سنة ١٨٧٤



وزير المعارف سابقا محمد ثابت باشا

الاسم	المدة
محمد ثابت باشا	مايو سنة ١٨٧٢ - سبتمبر سنة ١٨٧٤
الأمير طوسون باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٤ - أغسطس سنة ١٨٧٥
يحيى منصور باشا	سبتمبر سنة ١٨٧٥ - يولية سنة ١٨٧٦
مصطفى رياض باشا	يولية سنة ١٨٧٦ - اكتوبر سنة ١٨٧٧
اسماعيل باشا أيوب	اكتوبر سنة ١٨٧٧ - أغسطس سنة ١٨٧٨
علي باشا مبارك	أغسطس سنة ١٨٧٨ - ابريل سنة ١٨٧٩
محمد ثابت باشا	ابريل سنة ١٨٧٩ - يولية سنة ١٨٧٩

ميزانية التعليم

وقد أجمع الكتاب على أن اسماعيل كان ينفق على التعليم بسخاء وهذا ما شهد به المستر يانج وغيره. وقد ذكر المستر ادوين دي ليون القنصل الأمريكي في مصر أن سعيد باشا جعل ميزانية التعليم ٦٠٠٠ جنيه سنوياً ثم زادها إلى ٤٠٠٠٠ جنيه ولكن اسماعيل - كما ذكر علي باشا مبارك في المخطط التوفيقية - خصص لها ٧٥٠٠٠ جنيه منها ٤٨٠٠٠ جنيه من وزارة المالية (أي الميزانية العامة) و ٢٠٠٠٠ جنيه من إيراد تفتيش الوادى و ٧٠٠٠ جنيه من ديوان الاوقاف. وكان التعليم في معظم المدارس مجاناً هذا عدا نفقات اللأكل والملبس في كثير منها.



الأهالي يحرقون المعسكر في جهة ما سيندى
وترى في الصورة السير صمويل بيكر وعقيلته الشجاعة وابن أخيه جوليان *

== على أن ميزانية التعليم هبطت إلى ٢٠.٠٠٠ جنيه في أواخر العهد الاسماعيلي بسبب
الارتباك المالى كما هو معلوم .

أعلام النهضة العلمية في عهد اسماعيل

على باشا مبارك

ليس من المستطاع التكلم عن النهضة العلمية في عصر اسماعيل دون الإشارة إلى
أعلام تلك النهضة ودعائهم من كان لهم أكبر نصيب في رفع مستوى البلاد وجعلها
في مصاف الدول الأوروبية .

ويأتى في طليعة أولئك الأعلام زعيمهم على باشا مبارك (١٨٢٤ - ١٨٩٣)

وقد أفرد له الأستاذ الرافعى بك باباً قماً تلخصه قماً يلى :

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب " الاسماعلية " ، للسير صمويل بيكر .



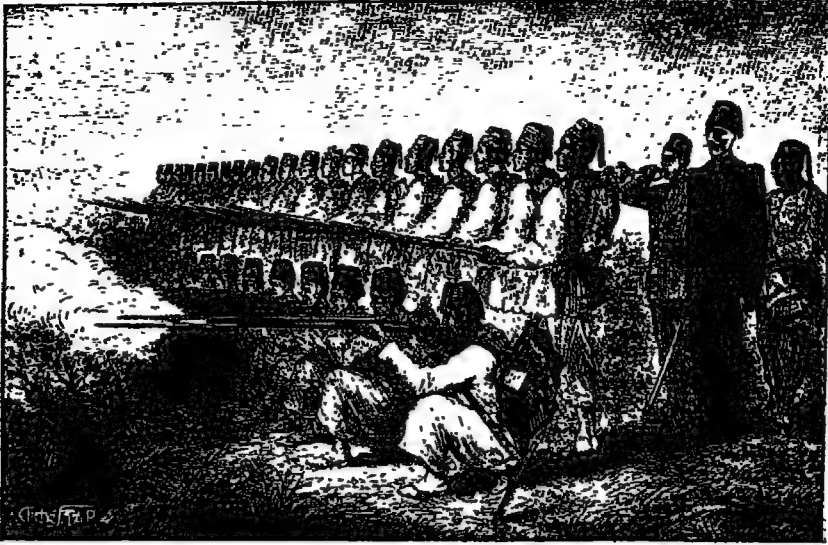
هجوم صيادى الرقيق فى جهة فانكو وتقدم ، اللصوص الاربعين .

== فهو ابن الشيخ مبارك بن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروحى وقد ولد فى برنبال من أعمال الدقهلية وقد تشتت العائلة فيما بعد وكانت تعرف بعائلة المشايخ . وكان الشيخ مبارك شديد العناية بتهديب ولده على حتى تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن .

نشأته الأولى

وليس يتمم المقام لذكر ترجمة حياة على باشا مبارك تفصيلا وبحسبنا أن نقول إن نفسه كانت تواقا إلى المعالى فبعد أن التحق بمدرسة ميت العزحدثه نفسه بالالتحاق بمدرسة القصر العيني أسوة بابناء الحكام ومنها انتقل فى سنة ١٨٣٧ إلى مدرسة أوى زعبل حيث لفت اجتهداه نظر مديرها ابراهيم بك رافت فصار يضرب باجتهداه المثل . وفى سنة ١٨٣٩ اختير على مبارك بين من اختارهم ولاية الامور للاحاقهم بمدرسة المهندسخانة ببولاق وهناك فى سن السادسة عشر أظهر من النجابة والاجتهاد ما أهله للانتظام فى بعثة الانجال فى سنة ١٨٤٤ وهى البعثة الخامسة التى كانت تضم بعض أنجال محمد على وأحفاده ، التى تولى سليمان باشا الفرنساوى اختيار أعضائها بنفسه وكان بينهم الأمير اسماعيل باشا .

هذه الصورة مأخوذة من كتاب ، الاسماعيلية ، للسير صمويل بيكر .



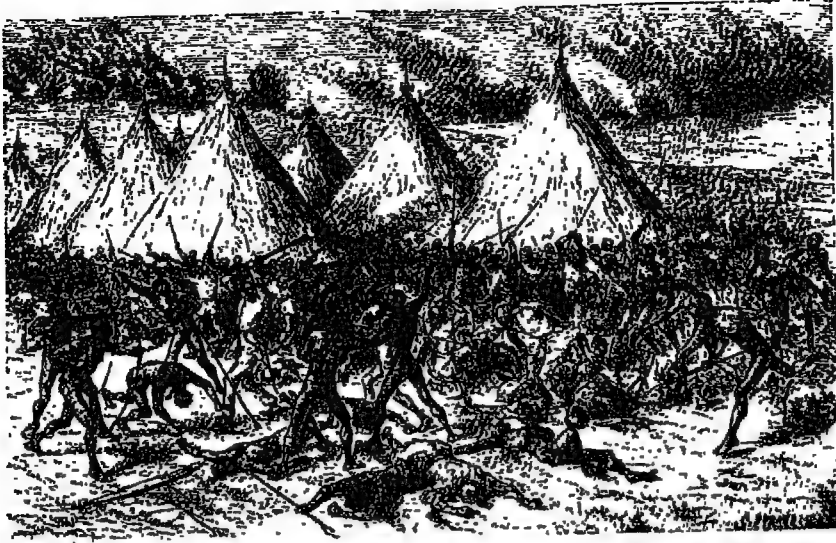
« اللصوص الأربعة » كما يسمونهم يقودهم الكولونيل عبد القادر حلى باشا وهم رهط من خيار الجنود مزودون بالبنادق وعددهم ٤٨ بما فيهم الضباط وأطلق عليهم اسم « اللصوص » بسبب تحفزهم للسطو . ولكنهم كانوا مثال الخلق الطيب حتى أصبحوا دعامة فرقة الحرس . »

سفره إلى باريس

وفي باريس حيث انشئت المدرسة المصرية لتعليم الطلبة اللغة الفرنسية وإعدادهم لدخول المدارس العليا في مدينة النور عانى المترجم الأمرين في تفهم اللغة ولكن ما لبث أن أكب على دراستها حتى أصبح أول البعثة ونال فعلاً الجائزة الثانية التي سلبها إليه إبراهيم باشا قائد الجيوش المصرية عند زيارته لباريس .

وفاؤه لأهله

ولا بد من الوقوف هنيهة لننعم النظر في بر المترجم بأهله ووفاته لهم . فقد خصصت له الحكومة مرتباً شهرياً قيمته ٢٥٠ قرشاً فأوصى بتسليم نصف المرتب لأهله يصرف لهم من مصر كل شهر واكتفى هو — وهو في باريس — بالنصف الآخر . ولما كانت البعثة قد هبطت فرنسا لتعلم الفنون الحربية فإن الثلاثة الأول من أعضائها وهم علي مبارك ، وحامد عبد العاطي ، وعلي إبراهيم أقاموا في باريس عامين ثم التحقوا بمدرسة المدفعية والهندسة الحربية الشهيرة بمتز ونالوا رتبة الملازم الثاني . هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل يكر .



أبادة فصيلة الكولونيل طايب أغا في جهة موجي *

== في الجيش الفرنسي ثم أقاموا عامين آخرين يتعلمون الفنون الحربية .
وبعد اجتياز الامتحان النهائي التحقوا بالجيش الفرنسي حيث رسخت قدم المترجم
في العلوم والمعارف الحربية التي شرب منها حتى ارتوى .

عودته إلى مصر واشترأك في حرب القرم

ولولا وفاة إبراهيم باشا لكان المترجم حج إلى الأقطار الأوربية لتطبيق العلم على
العمل ولكن عباس الأول أمر بإعادة نواحي البعثة فوراً إلى مصر فرجعوا سنة ١٨٥٠
وانتقل المترجم من حياة التحصيل والدراسة إلى دور العمل والإنتاج . ولكنه ظل
خامل الذكر نحو ١٤ عاماً لا تفيد البلاد شيئاً من واسع اطلاعه وصدق عزمته اللهم
إلا كونه تعين مدرساً بمدرسة طره الحربية ثم توسط له سليمان باشا الفرنساوي حتى
التحق بمعية عباس الأول ثم عين ناظراً لمدرسة المهندسخانة إلى أن اختاره سعيد باشا
— وكان متبرماً بالمترجم لا يميل إليه — للاشتراك في حرب القرم على نحو ما مر بك
في تاريخ سعيد باشا .

تجهم الزمن له

ولما عاد المترجم من حرب القرم بعد أن قضى فيها نحو عشرة أشهر وجد الدهر
يعبس له في وطنه مصر فان سعيد كان قد أمر بإخلاء سبيل الجنود وإعادتهم إلى بلادهم ==
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل يكر .



الوزير المشهور محمد شريف باشا

== وورفت كثيراً من ضباط الحملة ومنهم على مبارك الذي اضطر إلى سكنى بيت حقير كان من أسباب تنغيصه وتبرمه بالحياة ومتاعها .

وبينما هو بهم بالعودة إلى قريته للاشتغال بالزراعة صدر الأمر للضباط المرفوتين بالحضور إلى القلعة فكان هو بين من أعيد للخدمة حيث عين معاوناً بوزارة الحرية .
في معية سعيد

ثم التحق بمعية سعيد باشا . ولكن لما سافر هذا إلى أوروبا أمر برفت رجال معيته فكان المترجم ضمن المرفوتين . ولما تجهمت الأيام لعلى مبارك فكر في التجارة واستمر يزاولها مدة شهرين وبخاصة في تجارة الكتب التي كان طبعها أثناء نظارته لمدرسة المهندسخانة وقررت الحكومة بيعها مع أشياء ثمينة أخرى باعتبارها زائدة عن الحاجة، ويعت فعلاً بأنخص الأثمان واشترى المترجم من هذه الأشياء ما أمكنه ابتياعه .
ثم ازداد العمر بعلى مبارك وتألّبت عليه المصائب وهو لا يجد مخرجاً من الضيق إلى أن اختار الله سعيداً لجواره في أوائل سنة ١٨٦٣ فكان هذا الحادث فاتحة فصل جديد في حياة المترجم .

اسماعيل يختار على مبارك

ذلك ان الخديو اسماعيل ما كاد يتبوأ الأريكة حتى ذكر على مبارك زميله القديم في بعثة باريس . وسرعان ما ألحقه بمعيته وبذا مهد الطريق لأفادة البلاد من هذا ينبوع العلى الصافى .

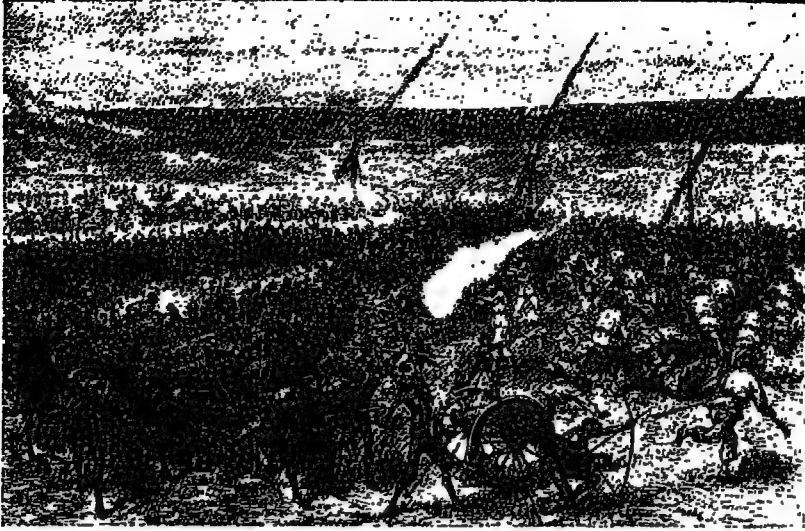


الزحف في داخل منطقة قبيلة « باري » المعروفة بشجاعة رجالها وصلابتهم
(راجع ص ٣١٤) الوصول إلى موجي *

== ثم ما لبث أن عينه ناظراً على القناطر الخيرية فكانت باكرة أعماله أنه خالف إجماع المهندسين بأن القناطر لا تتحمل ضغط المياه قبل تقويتها مما ترتب عليه تحويل المياه إلى فرع رشيد وحرمان فرع دمياط منها . ولكن المترجم أشار بأقوال قناطر فرع رشيد لتغذية فرع دمياط وبذا أحيا موات الأراضي التي يمر بها هذا الفرع . أما الخلل الذي كان متوقعا حصوله في بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه المترجم بإقامة حاجز خشبي أحاط بالقناطر فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظت القناطر من ضغط المياه ، وهكذا تبين للخديو صواب رأي على مبارك الذي تولى فيما بعد عملية حفر رياح المنوفية وإنشاء قناطره ومبانيه على أحسن نظام .

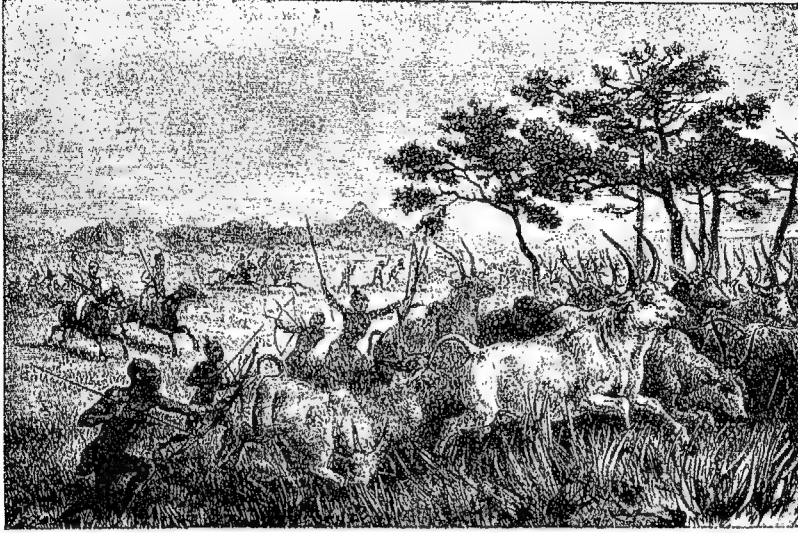
على مبارك والمعارف

وفي سنة ١٨٦٧ عينه اسماعيل وكيلا لوزارة المعارف مع بقاءه محافظاً بظارة القناطر . وكان وزير المعارف وقتئذ هو شريف باشا الوزير المشهور ، وهنا بدأ المترجم يحقق أمانيه الخاصة بالتعليم العام .
==
« مأمورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



رجال قبيلة «بارى» يهاجمون فصيلة الضابط عبد الله ويستولون على أحد مدافعها .
== ثم انتدبه اسماعيل في مهمة قصيرة في باريس استغرقت ٤٥ يوماً وعند عودته
سنة ١٨٦٨ أنعم عليه برتبة الميرمران وعينه وزيراً للعارف والأشغال مع إسناد
إدارة مصلحة السكة الحديدية إليه . وبعد قليل ضمت إليه نظارة الأوقاف كل هذا مع
احتفاظه بنظارة القناطر الخيرية والمتحفة بالمعية .
ويصح أن نصف هذه الفترة من حياة المترجم بالعصر الذهبي . كيف لا وهذه
الفترة هي التي حفلت بما أتاه على مبارك من الأعمال المجيدة والأصلاحات العظيمة
التي تكني لتخليد اسمه كزعيم النهضة العلمية .
ونبادر هنا إلى القول بأنه لولا صدق فراسة الحديو اسماعيل وثقته بملي مبارك لظل
هذا النبوغ مدفوناً ولما أفادت مصر شيئاً من هذا الرجل الفحل .
وزير ثلاث وزارات !!

ولئن حق لبعضنا أن يدعش لأن بعض وزرائنا جمعوا في العهد الأخير إدارة
وزارتين في وقت واحد وظنوا أن ذلك دليل النبوغ الخارق للعادة فما عساه أن يقولوا
في علي مبارك الذي كان في وقت واحد ناظراً للعارف وللأشغال والأوقاف ومدير
السكة الحديدية وناظراً للقناطر الخيرية ؟ ولا تحسب أن المترجم أغفل شأن إحدى
هذه الوزارات لحساب الوزارات الأخرى . كلا بل كان يضطلع بها جميعاً وعلى أحسن ==
هذه الصورة مأخوذة من كتاب «الاسماعيلية» للسير صمويل يكر .



هجوم رجال قبيلة « بارى » واستحواذهم على الماشية *

== وجه كما قال في كلمته المتواضعة وهي « فبذلت جهدى وشمرت عن ساعد جدى فى مباشرة تلك المصالح فقممت بواجبها . »

وقد قسم المترجم أوقاته بين هذه الوزارات فجعل الصباح إلى الظهر للمعارف والأشغال والأوقاف وبعد الظهر إلى الغروب لأدارة السكة الحديدية .

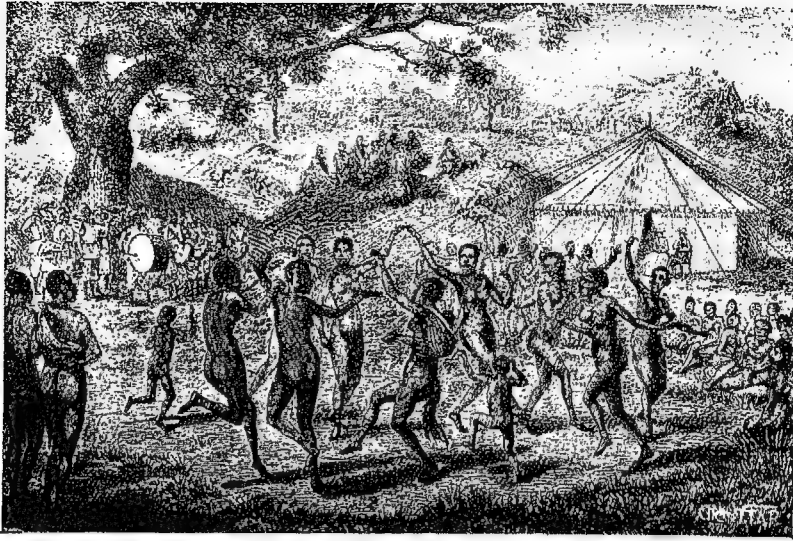
اهتمامه بالمعارف العمومية

فأما فى وزارة المعارف فقد جعل همه ترقية شؤون التعليم فى البلاد وتقريب دوره من التلاميذ . ولذا استأذن اسماعيل فى نقل المدارس من العباسية إلى درب الجمالين وخصص لها سراى الأمير مصطفى فاضل وجعل سلامك السراى لوزارة المعارف ووزع المدارس فى مختلف نواحيها الفسيحة الأرجاء .

وكان لا يفتر عن تفقد أحوال التلاميذ والمعلمين فى المدارس ويغشاها كل يوم ليشهد بنفسه سير التعليم فيها ويطمئن على حسن نظامها وقيام المدرسين بواجباتهم . وعنى المترجم بتحويل أكثر عدد من الكتاتيب إلى مدارس ابتدائية نظامية ودعا المشتغلين بالتعليم لدرس مشروعه . فلما أقروه استصدر فى مايو سنة ١٨٦٨ أمرا من الخديو بإجراء العمل بلائحة التعليم هذه .

وقد انشئت فى عهده عدة مدارس ابتدائية نظامية فى القاهرة والأقاليم على نحو ==

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



سحر الموسيقى . هرع الزنوج والزنجيات لسماعها *

== ماذا كرهناه لك في ص ٣٩٨ .

وقد ساعد اضطراره بشؤون ديوان الاوقاف على إعداد كثير من الامكنة الموقوفة لجعلها معاهد للتعليم بعد اصلاحها كما استطاع أن ينظم معاهد العلم الموقوفة ويحولها إلى مدارس نظامية كما استخدم جانباً من أموال وزارة الاوقاف في الانفاق على التعليم وتكليف المقتدرين من آباء التلاميذ بدفع مصروفات قليلة وإعفاء المعوزين منها مع استيفاء باقى النفقات من الأوقاف الخيرية الموقوفة على المسكاتب وغيرها من وجوه الخيرات . وخصص لها الخديو اسماعيل إيراد أطيان تفتيش الوادى بالشرقية كما منحها بعض الأملاك التى آلت إلى بيت المال من بعض التركات . فكانت هذه الموارد هى التى ينفق منها على المدارس عدا ما خصص لها فى الميزانية العامة وما يدفعه أهالى التلاميذ المقتدرين من المصروفات الضئيلة .

إنشاء مدرسة دار العلوم

وبدئى أن إنشاء مدارس نظامية كان يقتضى إيجاد عدد كاف من المدرسين الكفاء وهذا ما جعل على مبارك ينشئ مدرسة دار العلوم فى سنة ١٨٧١ وهى من أجل منشأته وكان الغرض منها تخريج أساتذة اللغة العربية والآداب للدارس الابتدائية .
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



تمساح يلتهم ذراع أحد الخدم *

== أما الرياضيات والجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية فلقد اختار لتدريسها نجباء التلاميذ المتقدمين ممن أتموا دراستهم في المدارس العليا كالمهندسخانة ومدرسة الإدارة (الحقوق) .

== * هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسيرة صمويل بيكر . وحكاية هذا التمساح أن أحد أعضاء حملة السير صمويل بيكر أرسل خادمته لأحضار الماء من النهر فلم تعد . وبعد ساعات أدرك سيدها أن التمساح لا بد أن يكون قد ابتلعها فذهب إليه في رهط من الزنوج فما كاد أحدهم أن يقترب منه حتى التهم ذراعه وأخيرالما تغلبوا عليه شقوا بطنه فإذا بآثار الخرز الذي كانت تلبسه الخادمة في عنقها لا يزال موجودا مع نحو ٥ كيلو جرام من الحصى . فابتعدوا إذن ب وفاة الخادمة .



الزواج يسحبون تسماحاً ضخماً إلى البر في جهة غوندوكرو *

== وقد اختير تلاميذ دار العلوم من بين من اجتازوا الامتحان من الطلبة الأزهرين. وقد اشتمل برنامج التعليم فيها على المواد التي لا تدرس في الأزهر كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع إتقان العلوم الأزهرية من لغة ونحو وتفسير وفقه وحديث. وقد جعل التعليم في هذه المدرسة مجانياً مع وضع مرتب شهري للتلاميذ. ولأريب في أن إنشاء مدرسة دار العلوم هو أعظم خدمة أسداها المترجم لأحياء اللغة العربية وآدابها في مصر.

إنشاء دار الكتب في سنة ١٨٧٠

كانت مطبوعات الحكومة في عهد محمد علي توضع في مستودع في بيت المال القديم خلف المسجد الحسيني ولكن اسماعيل وجه عنايته إلى إنشاء دار عامة للكتب تجمع شتات الكتب الموزعة بين مخازن الحكومة ومكاتب الأوقاف وفي المساجد وغيرها. وقد ابتاع لها الخديو نحو ٢٠٠٠ مجلد من المخطوطات العربية والفارسية من تركة حسن باشا المناستري هذا عدا ما ابتاعه من الكتب القيمة من تركة أخيه الأمير مصطفى فاضل. وتنفيذاً لأرادة الخديو عنى المترجم بإنشاء تلك الدار في درب الجواميز وجعل لها ناظراً وخدمة ووضع لها قانوناً لضبطها وعدم ضياع كتبها وكان ينفق عليها من ميزانية المدارس. وأصبحت أبوابها مفتوحة لكل من لا تمكنه موارده الخاصة من الاغتراف من بحار العلوم كما يشاء.

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب «الاسماعيلية» للسير صمويل بيكر.



فرس البحر يهاجم القوارب ليلاً

المحاضرات العامة

وعنى المترجم أشد عناية بما كان يلقى من المحاضرات في المدرج (الأنفثياتر) بسراى درب الجمايز سنة ١٨٧١ فعهد بالقائها إلى عدد من الأساتذة الأكفاء من معلى المدارس من أمثال الشيخ حسين المرصنى واسماعيل باشا الفلكى وفرانس باشا وغيرهم وغيرهم ممن ذكرهم أمين باشا ساسى فى كتابه «التعليم العام فى مصر» . وكان كثيراً ما يحضر هذه المحاضرات بنفسه وحذا جذوه كبار موظفى المعارف وغيرها وكان يشهدا طلبة المدارس العالية وطلبة الأزهر :

أعماله الهندسية

كثيراً ما يقرن الناس اسم على مبارك بالتعليم ونهضته متناسين أعماله الهندسية البديعة . فلقد كان فى أثناء تقلده وزارة الأشغال سنة ١٨٦٨ ، كالدنيا موه الذى يستحدث كل يوم حدثاً جديداً . فاليه يرجع الفضل فى تنظيم مدينة القاهرة وتوسيع شوارعها وإنشاء معظم أحيائها الجديدة كشوارع محمد على وميدانه وشوارع الأزبكية وميدانها وشوارع حى عابدين وباب اللوق وغيرها وغيرها .
ثم هو الذى استحدث اضائة الشوارع بغاز الاستصباح واقامة وابور المياه لتغذية
هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



اليفتنات جوليان يكر الذى رشحه السير * المستر ادوين هيجنوتام كبير مهندسى حملة
صمويل يكر ليحل محله (راجع ص ٣١٣) * السير صمويل يكر (راجع ص ٣١٤) «

== سكان العاصمة بالمياه الصالحة بواسطة شركتى المياه والنور . كما أنه هو الذى
وضع تصميم كوبرى قصر النيل الذى ظل أمدا طويلا يعد فى طليعة كبارى العالم .
كذلك لا تنفوتك عنايته بعمران مدينة الاسكندرية والسويس وشق الترع والجسور
فى الأقاليم هذا إلى اقامة مختلف الدواوين فى المديرىات وغيره وغيره . وإليك هذه
النبذة التى كتبها المترجم وهى تبين لك كيف كان الرجل يعمل ليل نهار فى خدمة بلاده
بومليكه وهو هو الذى كان كما قلنا متوليا ثلاث وزارات عدا إدارة السكة الحديدية . قال:
« وهذه الأعمال جميعها أو أكثرها كنت أبأشر أمورها من رسومات وشروط مع
المقاولين ونحو ذلك لتعلقها بديوان الأشغال . فكنت فى مدة إحالة هذه الدواوين على
مشغولا بالمصالح الأميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليل نهارا حتى لا أرى وقتا ألثفت
فيه لأحوالى الخاصة فى ولا أدخل بيتى إلا ليلا بل كنت أفكر بالليل فيما يفعل بالنهار .»
ونظرا لأنه كان وزيرا للأشغال عند افتتاح قناة السويس فقد عهد إليه اسماعيل
باعداد معدات حفلات الافتتاح التاريخية .

أعماله فى الدواوين الأخرى

وفى أثناء تقلده وزارة الأوقاف حكر كثيرا من أراضى القاهرة للراغبين فى بنائها
مقابل حكر ضئيل يدفعونه سنويا وبذا ساعد على تعمير كثير من الأحياء الخربة واقامة ==
« هاتان الصورتان مأخوذتان من كتاب « الاسماعيليه » للسير صمويل يكر .



علم النهضة الأدبية في عهد اسماعيل العلامة علي باشا مبارك *

== المباني والعمارات الكبيرة في مختلف أنحاء المدينة . وفي عهد إدارته للسكك الحديدية مدت عدة خطوط حديدية وأنشئت محطات كثيرة .

الوشاية بالمرجم

كان طبعاً أن تصطدم هذه الشخصية الفذة بالسعايات والوشايات التي روجها خصومه ضده وكان من جرائها انفصاله عن إدارة السكة الحديدية ثم وزارة المعارف في سبتمبر سنة ١٨٧٠ ثم عن الأشغال والأوقاف .

ويرجع السبب في ذلك إلى رغبة اسماعيل صديق (الشهير بالمفتش) في ضم إيراد السكك الحديدية إلى وزارة المالية ومعارضة المترجم في هذا الضم إلا أنها تعهدت المالية بجميع نفقات المصلحة . ثم كانت الوشايات والسعايات مما أدى إلى انفصال المترجم عن الوزارات المذكورة ولزومه عقربه .

ولكن الخديو اسماعيل لم يكن بالرجل الذي ينسى فضل أرباب الفضل أو تقعده الوشايات عن الانتفاع بمواهب اللافعين من رجاله .

ذلك أنه سرعان ما أرسل في طلب المترجم (١٣ مايو سنة ١٨٧١) وعهد إليه بوزارة المعارف ثم بوزارة الأوقاف ثم بالأشغال وظل في وزارة المعارف إلى مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا *



هجوم عام في الليل بمجة غوندكرو ء

== أغسطس سنة ١٨٧٢ حيث لاح للخديو تعيين ابنه الأمير حسين كامل باشا ناظرا لهذه الدواوين مع بقاء المترجم كـستشار لها . ثم مالبث الأمير حسين أن استقل بـديوان الأشغال واتخذ المترجم وكـيلا له .

وفي أغسطس سنة ١٨٧٣ عين المترجم عضوا بالمجلس الخصوصى (مجلس الوزراء وتـشـد) ولكن سرعان ما انفصل عنه بسبب الوشـايات فعاد إلى داره .

وفي مارس سنة ١٨٧٤ جعل رئيسا لقسم الهندسة بوزارة الأشغال . وعند الحاق هذا الـديوان بوزارة الداخلية التى كان يتولاها الأمير محمد توفيق ولى عهد الأريكة الخديوية اتخذ المترجم مستشارا له ثم استقل بـديوان الأشغال فبقى المترجم مستشارا للـديوان (ديسمبر سنة ١٨٧٥) وبذلك تعيين المترجم فى هذه المناصب الثانوية على أنه كان نتيجة الوشـايات فى حقـه للخديو .

وزارة نوبار باشا

ثم كان ما كان من الارتباك المالى وتضييق الدائتين الخناق على مصر حكومة وشعبا ومطالبة لجنة التحقيق الدولية بتنازل الخديو عن سلطته لمجلس الوزراء وتشكيل وزارة == هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل يـكـر .



ساكن الجنان توفيق باشا خديو مصر الأسبق

== نوبار باشا الأولى في أغسطس سنة ١٨٧٧ ودخول الوزيرين الأجنيين فيها وهما السير ريفرز ولسون والمسيو دوبلنير فاشترك فيها المترجم حيث تولى وزارتي المعارف والأوقاف فاستأنف عمله في أحياء نهضة التعليم وأقبل على المدارس الابتدائية ينشئها ويوطد دعائم عمله في هذه الناحية وسط الجوا المضطرب وقتئذ إلى أن تبرم الشعب بوزارة نوبار واعتدى بعض الضباط على الوزيرين الأجنيين مما كانت نتيجته سقوط تلك الوزارة في فبراير سنة ١٨٧٩ تشكيل وزارة توفيق باشا القصيرة الأجل فدخلها المترجم وزيرا للمعارف والأوقاف .

ثم دعى شريف باشا لتشكيل الوزارة فلم يشرك المترجم فيها لأنه كان في وزارة غضب عليها الشعب قبلا .

المترجم في عهد توفيق باشا

ولما تبوأ توفيق باشا الأريكة الخديوية عهد إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل الوزارة فدخلها المترجم وزيرا للأشغال .

الثورة العراية

وبدت طوابع الثورة العراية في عهد وزارة رياض باشا وكان المترجم من الناصحين بالتزام الروية والاعتدال على عكس ما كان يرمى إليه العرايون .

ثم طالب سواد الشعب بسقوط الوزارة الرياضية فسقطت فعلا في سبتمبر سنة ١٨٨١ ==



مصطفى رياض باشا رئيس الوزراء سابقا

= تلبية لأرادة الثوار فألف شريف باشا الوزارة الجديدة .
ومع تقدير شريف باشا لاستقامة المترجم وكفاءته لم يستطع إشراكه في وزارته
لأنه كان عضواً في وزارة حنق عليها الشعب . وهكذا قدر للمترجم أن يشترك في
وزارتين سقطتا نزولا على إرادة الثوار وهما وزارتتا نوبار باشا ورياض باشا .
ثم استقالت وزارة شريف وتلتها وزارة محمود باشا سامي البارودي فظل المترجم
بعيدا عنها . وفي عهد هذه الوزارة وصل الأسطول البريطاني إلى ثغر الإسكندرية
وتعاقبت الحوادث حتى انتهت بالاحتلال البريطاني .
ثم كان ما كان من وقوع الحرب بين العراقيين والانجليز وانعقاد جمعية عمومية
في القاهرة من أعيان البلاد حضرها على مبارك باشا وكان ضمن الوفد الذي اتدبته الجمعية
للسفر إلى الاسكندرية لابلّغ الخديو قرارات الجمعية . فلما وصل إليها حاول تهدئة
الخواطر فلما لم ينجح انضم إلى الخديو أسوة بمن انضم إليه من أعيان البلاد وكبارها .
وفي سنة ١٨٨٢ أى عقب الاحتلال ألف شريف باشا وزارته الرابعة واشترك
فيها المترجم كوزير للأشغال . ثم مالبت أن استقال في يناير سنة ١٨٨٤ متضامناً مع
زملائه أعضاء الوزارة الشريفة احتجاجاً على إخلاء السودان .



محمد باشا السيوفى سر تجار العاصمة

أحمد باشا السيوفى

وقد انضموا إلى الخديو توفيق

وزارة رياض باشا

ظهور و خطط ، المترجم

وفي يونية سنة ١٨٨٨ تولى رياض باشا الوزارة فأشرك المترجم في عضويتها كوزير للمعارف . وفي هذه الفترة ظهر كتابه الخالد « الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة » ويقع في عشرين مجلداً .

وهي دائرة معارف لخطط مصر وآثارها وجغرافيتها وتاريخها في مختلف عصورها القديمة والحديثة وفيه وصف لمدن مصر وقراها ونيلها وسواحلها وتخطيط كامل للقاهرة وأحيائها وشوارعها ودروبها وميادينها وما فيها من المساجد والأضرحة والأسبلة والقصور والتكايا والحمامات والوكائل الخ .

وقد خصص المترجم الأجزاء الستة الأولى للقاهرة والسابع للاسكندرية والأجزاء الأخرى لبقية مدن القطر المصرى وقراه .

ولبت المترجم يعنى بنشر التعليم وإنشاء المدارس إلى أن استقالت وزارة رياض باشا في سنة ١٨٩١ فعاد المترجم إلى بلده لتفقد أملاكه وإصلاحها وهناك مرض بداء المثانة فعاد إلى القاهرة .



فرس البحر يفترس شيخ القبيلة الضرير في منطقة قبائل الشيلوك *

وفاته

ثم اشتدت وطأة المرض. حتى اختاره الله لجواره في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ بمنزله بالخلبية وبهذا انطفأ هذا السراج الذي أضاء البلاد زهاء أربعين عاما وارتجت البلاد لفقد هذا العالم الفحل وشعرت بما أحدثه من الفراغ الكبير .

الجمعيات العلمية

وكما اشتهر عهد اسماعيل بالنشاط بكافة معاني هذه اللفظة كذلك اشتهر بتأسيس الجمعيات العلمية والجمعيات الانسانية ذات المقصد السامي . وقد كتب المؤرخ الكبير الأستاذ الرافعي بك فصلا رائعا في هذا الموضوع اقتبسنا منه مايلي :

يصح أن نذكر ضمن النوع الأول المجمع العلمي الذي أنشأه بونابرت سنة ١٧٩٨ في أوائل عهد الاحتلال الفرنسي . وقد أقفل ذلك المجمع أبوابه عند جلاء الفرنسيين ثم أعيد إنشاؤه سنة ١٨٥٩ بالاسكندرية في عهد سعيد باشا واستمر يؤدي مهمته في نشر المباحث العلمية إلى اليوم ومقره بوزارة الأشغال وأسمه « مجلس المعارف المصري » وله مجلة تنشر مباحثه .

جمعية المعارف (أسست سنة ١٨٦٨)

على أن محمد عارف باشا أحد أفاضل العلماء والعضو بمجلس الأحكام هو الذي =
* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعلية » للسير صمويل بيكر .



أحمد خيرى بك (باشا) مهردار الخديو اسماعيل *

== يرجع إليه الفضل فى تأسيس أول جمعية علمية ظهرت فى مصر لنشر الثقافة بواسطة التأليف والطباعة والنشر فى سنة ١٨٦٨ . وكانت غاية هذه الجمعية نشر العلوم والمعارف لطبع الكتب العلمية وتهذيبها وتلخيصها وكانت تحت رعاية الأمير محمد توفيق باشا ولى عهد الأريكة الخديوية . وقد طبعت الجمعية فعلا طائفة كبيرة من أمهات الكتب العربية فى التاريخ والفقه والأدب .

ونظرة واحدة إلى أسماء بعض من أقبلوا على تعضيد هذه الجمعية والاشتراك فيها تقنعك بما لقيته فى نفوس الملأ من التشجيع . فعندك مثلا من أعضائها الذين بلغوا زهاء السبعائة فى عام ١٨٧٠ :

ابراهيم بك حلیم من قضاة محكمة الاستئناف ، السيد ابراهيم جمعى من أعيان الاسكندرية ، السيد ابراهيم بك المويلحى من أعضاء المجلس الابتدائى ، اترى بك أبو العز من أعضاء مجلس شورى النواب ، احمد طلعت باشا كاتب الديوان الخديو ، احمد رشيد باشا من أعضاء المجلس المخصوص (مجلس الوزراء) ، احمد خيرى بك مهردار الخديو (وهو الذى كان غوردون باشا يعث إليه برسائله الخاصة بالملاحه == مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



شفيق بك منصور وكيل النائب العام في لجنة تحقيق حريق الاسكندرية

= في بحيرة فكتوريا نيازا على ما مر بك في ص ٣٤٣) ، الشيخ احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب ، امين بك فكرى ، جعفر مظهر باشا حكامدار السودان ، جعفر صادق باشا رئيس مجلس استئناف قبل (وجد معالى محمود نغرى باشا) ، الشيخ حسونه النواوى ، حسين بك (باشا) نغرى ، حسن شرين باشا ، خليل يكن باشا ، راشد حسنى باشا ، محمد عرفان باشا ، الشيخ عبد الرحمن الرافعى ، على ذو الفقار باشا وزير الخارجية ، محمد مظهر باشا وكيل مجلس الاحكام ، مصطفى رياض باشا ، السيد حسن موسى العقاد ، شفيق بك منصور ، (الذى كان وكيلًا للنائب العمومى في لجنة تحقيق جنايات حريق الاسكندرية سنة ١٨٨٣) وغيرهم .

ولكن الجمعية انحلت على أثر سفر عارف باشا إلى الآستانة وكان معروفا بميله إلى حلیم باشا المطالب بعرض الخديوية .

الجمعية الجغرافية

وقد سبق الكلام عنها وهى من أهم المؤسسات العلية في عهد اسماعيل أنشأها سنة ١٨٧٥ للأبحاث الجغرافية واختار لرئاستها العلامة الألمانى الدكتور شونفرت ووكيله العلامة محمود باشا الفلكى والجنرال استون باشا . وللجمعية مجلة دورية لنشر مباحثها القيمة . وليس شك في أنها أدت وماتزال تؤدي أجل الخدمات للعلم والجغرافية بفضل عناية جلالة أبى الفاروق بها كما مر بك في ص ١٥ .



السير صمويل ميكر يطلق سراح العبيد بعد استيلائه على القوارب التي كان صيادو الرقيق « شحنوم » فيها وتراه في الصورة وإلى يمينه قرينته »

الجمعية الخيرية الإسلامية

وهي غير الجمعية الخيرية الإسلامية الحالية المؤسسة في سنة ١٨٩٢ . فلقد أسست الأولى في سنة ١٨٧٨ في الاسكندرية بمساعي السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية ومساعدة سعد الله بك حلايه من سراة الثغر (وهو والد الأستاذ شفيق سعد الله حلايه عضو مجلس الشيوخ) .

وجعلت الجمعية غايتها فتح المدارس الحرة بعيدا عن النفوذ الأجنبي وإعانة الفقراء فأنشأت مدرسة بالاسكندرية لتعليم البنين والبنات وعقد فيها محفل للخطابة كل أسبوع ورتبت لها الحكومة إعانة سنوية .

الصحافة

اشتهر عهد عباس وسعيد بالجمود الفكري بينما كنت ترى عوامل النهضة والفلاح تسرى سريان الماء في العود في كل جانب من جوانب الحياة في عهد اسماعيل . فليس غريباً أن البلاد بعد ان لم تكن تعرف من الصحافة في عهدي عباس واسماعيل سوى الوقائع المصرية، أن بدأت تنتشر فيها الصحف العلمية والأدبية ثم السياسية بينما أخذت هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيليه » للسير صمويل ميكر .



محمد قدرى باشا أحد أعلام الفقه والقانون *

== أرباب الأعلام يتبارون في الكتابة فيها . وهنا لا نرى مفرا من الأشادة بفضل العنصر السورى على اللغة العربية وأثره في نهضتها في ذلك العهد . وفي الواقع كانت الصحافة في عهد اسماعيل بمثابة حلبة تتلاقى فيها أقلام أعلام الكتاب والأدباء من أمثال رفاة بك رافع الطهطاوى وابنه على باشا رفاة وعبد الله باشا فكرى والشيخ حسين المرصفى وعلى باشا مبارك ومحمود باشا الفلكى واسماعيل باشا الفلكى والمسويبر وكش ناظر مدرسة اللسان القديم ومحمد قدرى باشا أحد أعلام الفقه والقانون ومؤلف كتاب « مرشد الحيوان إلى معرفة أحوال الانسان » وكتاب « الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية » وكتاب « قانون العدل والأنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف » (وهى التى لاتزال إلى اليوم مرجع المشتغلين بالقانون) والسيد صالح مجدى بك والشيخ حسونه التواوى والشيخ حمزه فتح الله وغيرهم .

ويرجع الفضل في نهضة الصحافة في عهد اسماعيل إلى أنه كان لا يرضى على القائمين بها بالمساعدات الأدبية والمالية وهذا ما كفل لها السير في معارج النجاح والفلاح .

* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



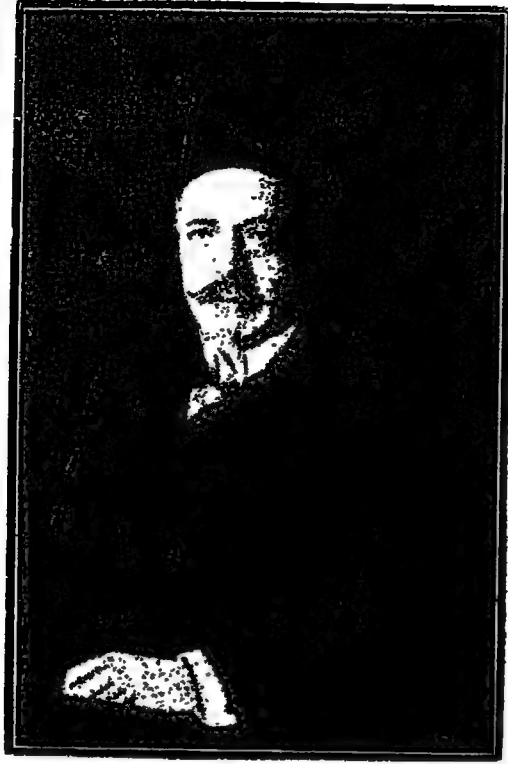
كئين من الزنوج بها جمون مؤخره الحلة ويقتلون أحد الضباط *

== وإذا ذكرت الصحف فلا تنس في طليعتها الوقائع المصرية التي كانت بمثابة سجل للحياة السياسية والاجتماعية في عصر اسماعيل وكان يقوم بتحريرها لفيف من كبار أهل الأدب وأعلام البيان . وهي تعد في الواقع من أهم المراجع التاريخية لا يستغنى عنه الباحث في تاريخ مصر الحديثة . وكثيرا ما استشهدنا بها في عدة مواضع من هذا الكتاب .

وبين الصحف التي أنشئت في عهد اسماعيل صحيفة اليعسوب (سنة ١٨٦٥) وهي مجلة شهرية طيبة أنشأها الدكتور محمد علي باشا البقلي وإبراهيم الدسوقي ولم تعمّر طويلا .

ثم مجلة روضة المدارس التي أنشأها علي مبارك باشا سنة ١٨٧٠ وكان وزيرا للمعارف وهي من أجل أعماله وتولت وزارة المعارف الاتفاق عليها وأصدارها بانتظام والغرض منها إحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة . وقد تولى رئاسة تحريرها العلامة رفاعه بك رافع الطهطاوى وأسند تحريرها إلى ابنه علي بك (باشا) فهمى رفاعه . وكانت ميداناً تصول فيه أعلام فطاحل العلماء وأعلام الأدباء والكتاب في ذلك العصر من أشرنا إليهم في صدر هذه الكلمة .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيليه » ، للسير صمويل بيكر .



الشاعر الفذ اسماعيل باشا صبرى *

== وفد صدر العدد الأول منها في ١٥ المحرم سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠) واستمرت تصدر بانتظام كل نصف شهر مدة ثمانى سنوات فكانت خير معلم للنشر في ذلك العهد كما شهد بذلك المسيو دور بك مفتش التعليم العام في عهد اسماعيل في كتابه " التعليم العام في مصر " ص ٢٥٣ إذ قال : " كانت هذه المجلة توزع مجاناً على التلاميذ وقد ساعدت على نشر العلوم والمعارف لأنها عودت الطلبة ملكة المطالعة والبحث وفتحت صحائفها للناهين منهم لنشر إبحاثهم القيمة فكان ذلك مما يشجعهم ويستحث همهم على المباحث والجهود المستقلة عن دروسهم " .

وبينما كانت صحائف المجلة ميداناً تتلاقى فيه أقلام العلماء والكتاب كما قدمنا كذلك كانت في الوقت نفسه حلبة تتسابق فيها أقلام نبهاء الطلبة . ومن أطف مآذكره الأستاذ الرافعى بك مطلع بعض قصائد رآها في المجلة لفخر الشعراء المرحوم اسماعيل باشا صبرى ==
* مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



الدوق أف كونوت ولى عهد انجلترا سابقا . وفى أثناء زيارته لمصر وسطه اسماعيل باشا
فى حمل السير صمويل يكر على قبول الخدمة لمحاربة النخاسة

وكان يسمى وقتئذ « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى » أحد تلامذة مدرسة الإدارة
(الحقوق) وقتئذ .

قال اسماعيل صبرى من قصيدة نشرت بالعدد ٢٠ من المجلة (بتاريخ آخر شوال
سنة ١٢٨٧) فى مدح الخديو

سارت فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبي المعمود
وقال فى قصيدة أخرى بالعدد ٥ من السنة الثانية :

أغررتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در
وهى قصائد رائعة كانت تسكن لهذا الفتى بالمكانة المبرزة التى كانت تنتظره فى عالم
الشعر الذى أصبح فى طليعة فرسانه .

ثم لانتس بين تلك الصحف صحيفتى أركان حرب الجيش المصرى والجريدة العسكرية
المصرية اللتين سبق الكلام عنهما فى سياق الجيش المصرى ص ٣٧٨
هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيليه » للسير صمويل يكر .

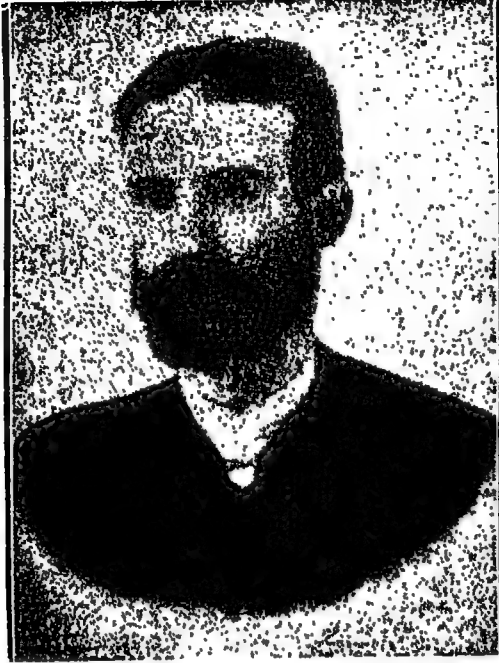


القاضي الكبير محمد بك عثمان جلال
صاحب كتاب «العيون اليواظ»

الصحف السياسية

ولكي نعطيكم صورة صادقة عن هذه الناحية من الحياة الاجتماعية في عهد اسماعيل لانرى بدا من الاشارة إلى ماظهر في عهده الزاهر من الصحف السياسية التي كان لها أكبر فضل في تنبيه الأذهان وشحن الهمم وتوجيه الأنظار إلى العناية بشؤون البلاد العامة وانتقاد ما يستحق الانتقاد وإليها يرجع الفضل في إذكاء الروح الوطني وترقية أساليب الانشاء وتهذيب لغة الكتابة ولهذا تعد بحق من عوامل النهضة الأدبية في العصر الحديث. وتعتبر جريدة وادى النيل لصاحبها الشاعر الناصر عبد الله أفندي أبو السعود أقدم صحيفة سياسية. فقد انشئت سنة ١٨٦٧ وكانت تصدر في شكل مجلة مرتين في الأسبوع إلى أن ألغتها الحكومة سنة ١٨٧٢

ثم جريدة نزهة الأفكار الأسبوعية (١٨٦٩) لمنشئها ابراهيم بك المولىحى ومحمد بك عثمان جلال ولم يصدر منها إلا عددان ثم عطلت.
« مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا



الكاتب الشهير أديب اسحاق *

= وجريدة الوطن المنشأ خليل أفندي عبد السيد (١٨٧٧) وكانت سياستها وطنية ولهجتها حرة واستمرت إلى ما بعد الاحتلال ثم وقفت حيناً واستأنفت الظهور في سنة ١٩٠٠

وفي سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة مصر الأسبوعية محررها أديب اسحق الذي أنشأ في سنة ١٨٧٨ صحيفة « التجارة » وكانت سياسة الصحيفتين وطنية حماسية تجلت فيها تعاليم علامة الشرق السيد جمال الدين الأفغاني وكثيراً ما كان يكتب فيهما إلى أن ألغاهما رياض باشا سنة ١٨٨٠

وعمد محمد بك أنسي بن عبد الله أبي السعود أفندي إلى إنشاء جريدة روضة الأخبار بدلا من صحيفة وادي النيل المعطلة

وجريدة الكوكب الشرق لصاحبها سليم باشا حموي صدرت باسكندرية سنة ١٨٧٣ سولم تعمّر طويلا .

ثم جريدة الاهرام لسليم (بك) وبشاره (باشا) تقلا صدرت في الاسكندرية * مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



صاحب الأهرام المرحوم بشارة تقلا باشا *

== سنة ١٨٧٥ ثم انتقلت إلى القاهرة وكانت في بداية ظهورها أسبوعية وواجهت شتى
المصاعب إلى أن ابتسم لها الدهر ونالت الزواج الذي تستحقه بفضل سهر أصحابها عليها
واهتمامهم بإبلاغها إلى أرقى مكانة في عالم الصحافة حتى أصبحت جديرة بأن تعد مفخرة
صحف الشرق قاطبة .

وجريدة الاسكندرية وقد صدرت أسبوعية في يولية سنة ١٨٧٨
وجريدة الكوكب المصرى للشيخ محمد وقاء .
ومرآة الشرق وهى سياسية أنشأها سليم عنحورى وتحتى عنها في ابريل سنة ١٨٧٩
حيث تولاه ابراهيم بك اللقانى بايعاز السيد جمال الدين الأفغانى .
ثم جريدتا مرآة الأحوال صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ « وأبو نضارة » صدرت ==
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



صاحب الأهرام المرحوم سليم تقي بك

في القاهرة سنة ١٨٧٧ وكانت من الصحف المعارضة للخديو لصاحبها الشيخ يعقوب صنوع الاسرائيلي العقيدة المصرية الجنسية المسمى بالشيخ (أبو نضاره) وكان في بداية أمره ميالاً إلى نقد سياسة الخديو ثم أخذ يحمل على الاحتلال البريطاني فيما بعد إلى أن مات سنة ١٩١٢

وليس يفوتنا أن نسجل هنا أن الخديو اسماعيل كان من أنصار حرية الصحافة ولذا أطلق لها العنان . ولذا رأيت أن معظم الصحف السياسية قد ظهر في أواخر عهده فليس غريباً أن تراها تتنافس في الحملة على المطامع الأوربية والتنديد بالسياسة الاستعمارية .
الصحف الأفريقية

وطهر من الصحف الأفريقية في عهد اسماعيل جريدة الفاردي الكسندري في الاسكندرية (١٨٧٤) ثم البروجريه اجبسيان وكانت معارضة للخديو ثم جريدة الريفورم .
الطباعة

وكما تقدمت كل ناحية من نواحي الحياة المصرية في عهد اسماعيل كذلك تقدم فن الطباعة وبلغ شأواً بعيداً حتى أصبحت مطبعة بولاق تضارع المطابع الكبرى . وكان يتولى نظارتها حسين باشا حسني وإليه يرجع الفضل فيما وصلت إليه من التقدم والكمال .

وقد ذكرت الوقائع المصرية في عددها رقم ٤١٠ الصادر بتاريخ أول يونيه سنة ١٨٧١ أن الخديو اسماعيل أنشأ مصنعاً للورق تولاه حسين حسني باشا وقد أخذ ذلك المصنع



الصحفي المعروف الشيخ أبو نضارة ..

==يورد لمصانع الحكومة كافة ما تحتاجه من الورق وطبع المؤلفات العلمية هذا عدا الأوراق والدفاتر اللازمة للتجار .

وقد تمكن حسين باشا حسنى من الوصول بمصنع الورق الذى ابتاع آلاته من لندن إلى درجة من الاتقان والأحكام مما جعله ينتج من الورق ما كاد أن يعطل على واردات أوروبا . وكانت جميع نفقات المصنع وثمان آلاته تؤخذ من ربح المطبعة والمصنع حتى قال عنه على باشا مبارك إنه أحبي روح المطبعة الأميرية ونشر صيتها في جميع الأقطار .

وقد توفي سنة ١٨٨٥

ثم أنشئت عدة مطابع أخرى في القاهرة وكان من أثرها طبع عدة من أمهات الكتب العربية .

مظاهر النهضة العلمية والأدبية

لملك لاحظت ما بلغته البلاد في عصر اسماعيل من درجة ممتازة في عالم الأدب والعلوم ويرجع الفضل في ذلك إلى عدة عوامل .

منها انتشار التعليم في المدارس والمعاهد وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا في المدارس والبعثات أو في الأزهر على عهد محمد علي وخلفائه . وقد ظهرت ثمار قرائح هؤلاء الأعلام في عهد اسماعيل الذى كان يبالغ في تشجيعهم ولا يفتقر عن هذه الصورة مستعارة من سعادة أحمد شفيق باشا .



الزنج يسحبون الباخرة رقم ١٠ « بالبان ، في الترع وسط الاغشاب »

== مساعدتهم واسناد المرا لزم الممتازة في الحكومة إليهم ويمدحهم بالمنح السخية فكانت أياديهم البيضاء هذه بمثابة أكبر حافز للعزائم وأعظم عضد للنهضة العلمية والأدبية .

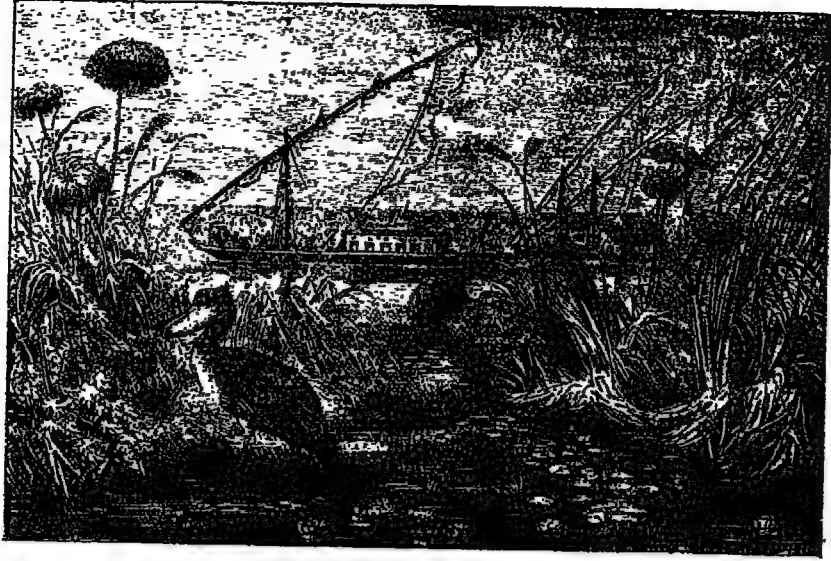
ثم إن انتشار التعليم كان له أثره الظاهر في نمو النهضة العلمية والأدبية . لأن جمهرة المتعلمين كانوا لا يترددون في تأييد تلك النهضة بالأقبال على ما تنتجها قرائح العلماء . وبديهي أنه لولا هذا الأقبال والتشجيع لتعطلت القرائح ولاختل قانون العرض والطلب في هذا الميدان العلمي والأدبي .

ثم لا تنس أثر السيد جمال الدين الأفغاني الذي هبط مصر فكان هبوطه بمثابة بعث جديد للنهضة الفكرية بما نفخه فيها من روح التجديد والنشاط . وقد ظهر أثره في الحياة العلمية والأدبية والسياسية على السواء ، مما دفع الأمة إلى الأمام .

كذلك لا تنس انتشار الجمعيات العلمية وتقدم الطباعة وظهور الصحف والاهتمام بالتأليف والترجمة والنشر مما حفل به عصر اسماعيل . وقد نشط الأدب والشعر وظهرت طائفة من الشعراء بدأ على شعرهم أسلوب العصر الحديث . وقد أخذت أساليب الكتابة ترقى بعد ترك السجع المتكلف والتخلص من شوائب التعقيد والركاكة .

وفي عصر اسماعيل أيضاً ظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمربين ، فنقلوا عدة من طرائف الكتب الأجنبية مما أفادت به البلاد .

• هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية ، للسير صمويل يكر .



الوصول إلى منطقة السدود في أعلى النيل *

== ومناصب الحكومة التي عهد اسماعيل بها إلى أكفاء المتخرجين من المدارس والمعاهد والبعثات مما كانت نتيجة سريان النهضة ومد الحكومة ومصلحتها كالتعليم والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول بما تحتاجه من الرجال الناهين .

وكان بديها أن يكون لهذه النهضة العامة أثرها في تطور الحياة الاجتماعية وبالتالي الحياة الوطنية والسياسية .

أعلام الأدب في عصر اسماعيل

وتسوقنا هذه النبذة التي اقتبسناها من كتاب الأستاذ الراحل بك إلى سرد أسماء من ذكرهم حضرته من أعلام الأدب الذين ازدان بهم العصر الاسماعيلي .
ويأتي في طليعتهم رفاعة بك رافع الطمطاوى ثم علي باشا مبارك ثم السيد جمال الدين الأفغاني .

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل يكر .



فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى *

السيد جمال الدين الأفغانى

ولا بد من الوقوف هنيهة لنقول كلمة عن هذا الحكيم الكبير الذى يعتبر بحق
بأعش نهضة الشرق .

وكتاب كالكتاب الحاضر لا يتسع طبعاً لوفاء حق عبقرى كجمال الدين الأفغانى
كما ينبغي فهو خليق بكتاب يأ كمله بل بعدة كتب . لأن الرجل كان متعدد النواحي
وكان عظيماً فى كل ناحية من هذه النواحي فما بالك وقد اجتمعت كلها فيه . فلا غرو أن
أصبح كبير أعلام الشرق والينبوع الصافى الذى تلقى منه الشرق الحكمة والعلوم حقبة
من الزمن كان لها أكبر أثر فى تطوره التطور المشاهد فى كل أرجائه .

ولقد اعتاد الناس ألا يقدرُوا إنساناً إلا بنسبة اتناجه كما هو المألوف فى شأن من تقدم
جمال الدين من فلاسفة الرومان أو اليونان والفرس والعرب وغيرهم . ولكن قد

* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا .



صيد الظباء بالشباك في منطقة كابرقة *

= يحدث أحياناً أن يذهب فيلسوف بعينه إلى العالم الآخر دون أن يدون بنفسه شيئاً من فلسفته أو كلماته وتعاليمه . وفي هذه الحالة ينقض تلاميذه ومريدوه من ارتووا بسلسيل هذه التعاليم فينثرونها كما تلقوها عن استاذهم ويملاؤن بها أرجاء الأرض فتثمر ثمرها المطلوب ويصبح وجود أولئك التلاميذ رمزا لفلسفة صاحبها فيسلمونها لأبنائهم وأحفادهم .

وهاهو سقراط كبير فلاسفة اليونان مات دون أن يدون شيئاً من كلامه على أن ذلك لم يمنع أن تلاميذه حفظوا فلسفته ودونوها وأذاعوها بين الخافقين وتوارثها الخلف عن السلف .

فلئن كان حكيم الشرق وفيلسوفه العبقري السيد جمال الدين الأفغانى قد مات دون أن يترك طائفة من الكتب فإن ذلك لا يمنع أنه ترك غرساً مشى به مريدوه وتلاميذه بين أنحاء الشرق فأتى أكله .

اسماعيل باشا وتعاليم السيد جمال الدين

وكما أن البذرة لا تؤتي الثمرة الشبية إلا إذا غرست في تربة صالحة فكذلك التعاليم والفلسفة لن تثمر شيئاً إلا إذا بثت في بيئة صالحة وتحضرت الأذهان والأفهام لاستيعابها . =

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



أحد الفيلة الضخمة يهز جزع الشجرة ليحصل على الثمار *

== ومن هنا لا يذكر إنساناً تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى وانتشارها في مصر إلا وذكّر معها الأسرة المحمدية العلوية باعتبارها صاحبة الفضل في تهئية الجو الصالح الذى ولدت فيه تعاليم الحكيم الكبير .

فالتنهضة الفكرية التى وضع أسسها محمد على وتعهدها اسماعيل بكل ما عرف عنه من همة لا تكل ولا تمل كانت خير تربة نبتت فيها تعاليم الفيلسوف الأفغانى وأينعت . ولولا تلك النهضة ولولا ما ازدان به عصر محمد على وبخاصة عصر اسماعيل من فحول أعلام الأدب والبيان كما سردناه عليك في هذه الصفحات ، وبالاختصار لولا المحيط الفكرى والمستوى العلى الراقى الذى وجد في عصر اسماعيل لما أثمرت تعاليم الحكيم الأفغانى شيئاً . بل لجاء إلى مصر غريباً وغادرها غريباً دون أن يلتفت إليه أحد أو يقتبس أحد منه شيئاً .

ولإذا كانت تعاليم ذلك الفيلسوف العبقري قد أثمرت في مصر كما لم تثمر في أى بلد آخر من البلاد التى أقام فيها ، وإذا صح لتلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى أن يفاخروا بما تلقوه من ضروب الحكمة على يد أستاذهم الكبير فجدير بهم ألا ينسوا فضل الخديو اسماعيل . فهو الذى حرص على أن يدنى منهم ذلك الينبوع الصافى وأن يضيف الفيلسوف .==

* هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر

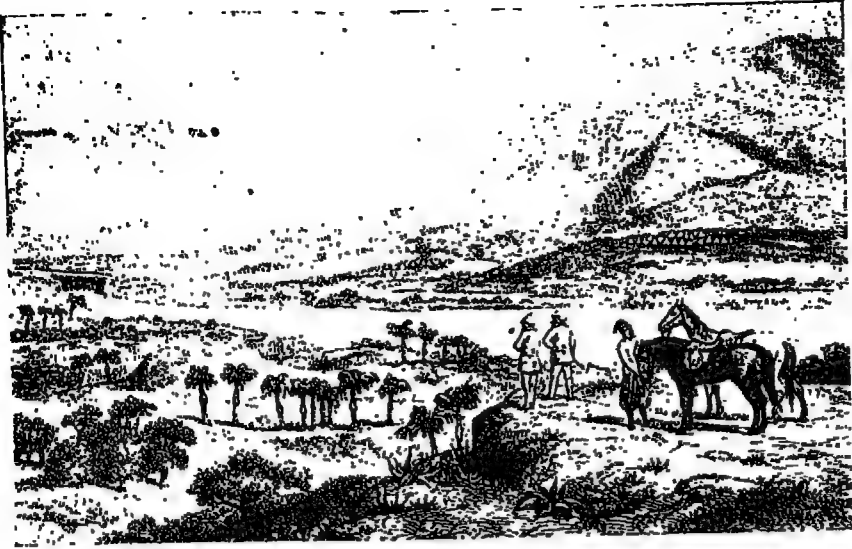


منظر لقطع من القيلة سقط في الماء أمام مطارديه من حملة السير صمويل بيكر *

== الأفغانى فى مصر فى الوقت الذى ضاقت به الأستانة . فلولا سماح اسماعيل بحضور السيد جمال الدين لمصر ورضائه عن بقاءه فيها ، ولولا النهضة الفكرية الراقية التى ازدان بها عصره الزاهر لما عرفت مصر شيئاً عن فيلسوف الأفغان وكبير حكماء الشرق ولعاش ومات دون أن يفيد أحد شيئاً مما حبته به الطبيعة . تلك كلمة حق رأينا أن نسوقها قبل الخوض فى تاريخ حياة السيد جمال الدين وهى قبل كل شئ بمثابة دليل على ميل اسماعيل للعلم ووجه الفطرى لتشجيع أهله . ولادته ونشأته

كانت ولادة المترجم فى سنة ١٨٣٩ بقرية أسعد أباد من قرى كثر من أعمال كابل عاصمة الأفغان . ولا صحة لما تقوله البعض من أن ولادته كانت بإيران وأنه كان إيرانياً . وهو ابن السيد صفتر من سادات كثر (الحسينية) كان من بيت شرف وعلم وحسبه أن نسبه يتصل بالسيد على الترمذى المحدث المشهور ثم يرتقى إلى الإمام الحسين ابن على بن أبى طالب (ر) .

ولآل هذا البيت حرمة كبيرة فى الأفغان بسبب نسبها ومقامها الاجتماعى والسياسى . وكانت تملك جزءاً كبيراً من أراضى الأفغان تتمتع فيه بالأمارة والسيادة إلى أن == هذه للصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيليه » للسير صمويل بيكر .



منظر عام لليل الأيض بعد عبور الشلال الأخير في جهة أفودو»

== انتزعه منها «دوست محمدخان» أمير الأفغان وقتئذ. ثم أمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل والمترجم لايزال في الثامنة من عمره فاستوطنوا بها من ذلك الحين .

وانجهدت عناية الوالد إلى تعليم ولده جمال الدين وتثقيفه فتلقى مبادئ العلوم العربية والتاريخ والفلسفة وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلية والعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والجبر وهياة الأفلاك ونظريات الطب والتشريح الخ الخ . ولما كان المترجم تبدو عليه منذ صباه مخايل الذكاء والنجابة وتوقد القريحة وقوة الذاكرة فانه أتم تعليم ماسلف من المواد وهو يعد في سن الثامنة عشرة من العمر . هذا إلى أنه تعلم أيضا اللغة العربية والأفغانية .

سفره إلى الخارج

ثم عرض له السفر إلى الهند فشنخس إليها وأقام بها سنة وبضعة أشهر وهو يدرس العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة . فنضج فكره واتسعت مداركه .

وإذ كان شغوفا بالرحلات واستطلاع أحوال الأمم فقد عرض له وهو في الهند == هذه الصورة مأخوذة من كتاب «الاسماعيلية» للسير صمويل بيكر .



مظاهرة عدائية فجائية حيث اضطرت الجنود إلى تكوين مربع *

== السفر إلى الحجاز ف قضى سنة يتنقل في البلاد لتعرف أحوالها إلى أن وصل مكة المكرمة في سنة ١٨٥٧ وأدى فريضة الحج .

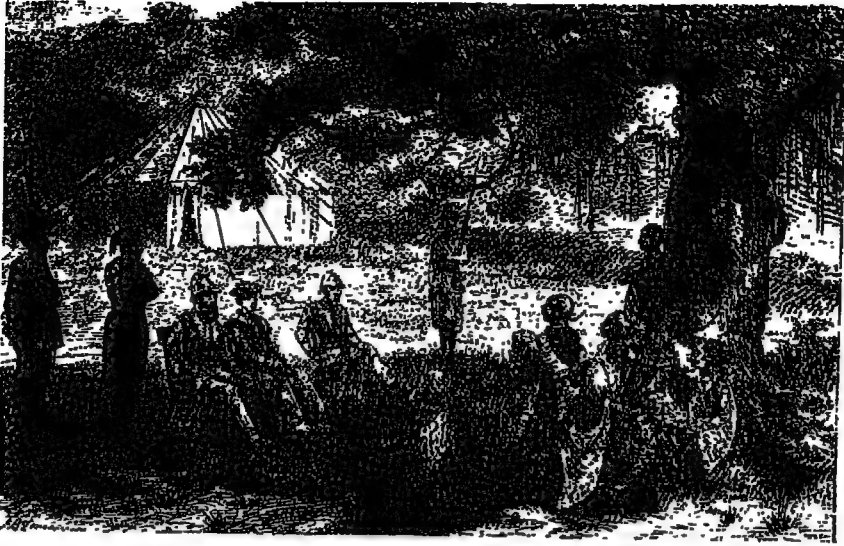
عودته إلى بلاده

ولما عاد إلى بلاده من هذه الرحلة اختاره الأمير محمد دوست خان للعمل في سلك حكومته . ولما عن لهذا الأمير أن يزحف على مدينة هراة من مدن الأفغان استصحب معه المترجم . وقد ضرب الأمير الحصار على المدينة ولكنه لحق بربه أثناء هذا الحصار الطويل . ثم سلمت المدينة فيما بعد .

وكان لاشتراك المترجم في هذه الحملة أثره في حياته المقبلة إذ علمته الشجاعة واقتحام الأخطار والصبر على الخطوب ومقابلتها بصدر رحيب .

فاذا أضفت إلى هذه الصفات نشأة المترجم في كنف أيه ورعايته وتربيته في مهاد العز وهو هو الذي نشأ من أرومة المجد المزدانة بشرف النسب والتي اعتزت بالأماره والحكم — زمناً ليس بالقصير — لرأيت السر فيما كان عليه المترجم من عزة النفس التي كانت أبرز صفاته .

ثم تقلد الأمانة ولى عهدا شير على خان سنة ١٨٦٤ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان بالقبض على إخوته ومنهم الأمراء محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين == هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صهويل يكر .



السير صمويل بيكر وعقيلته وابن أخيه يستقبلون روط جارنا شيخ قبيلة فيرا

== واعتقلهم أثناء الفتنة. وكانت بش المشورة فإن المترجم انضم إلى محمد أعظم واشتعلت نار الحرب الداخلية التي انتهت بفوز محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن ودخولهما العاصمة وإطلاق سراح أخيه محمد أفضل والد الأمير عبد الرحمن من سجنه والمناداة به أميراً على أفغانستان. ثم توفي محمد أفضل بعد سنة وتقلد الأمانة الأمير محمد أعظم الذي أخذ يبالغ في إكرام المترجم اعترافاً منه بحسن رأيه الذي أدى به إلى التغلب على أخيه شير علي خان .

وكادت الأمور أن تستقر لمحمد أعظم بفضل مشورة المترجم وحسن رأيه لولا أن الأمير كان سيء الظن بذوى قريبه مما حمله على تفويض مهمات الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة .

فدفع الطيش أحدهم وهو والى قندهار إلى التحكك بعمه شير علي وكان لا يزال في هراة ولم يكن له من الملك سواها . وقد ظن القتي أنه بتغلبه على عمه يفوز بالخطوة لدى أبيه فيقدمه على سائر اخوته .

فلما التقى بجيش عمه دفعته الجراءة ورعونة الشباب إلى الانفراد عن جيشه في ماتي جندى اخترق بها صفوف أعدائه . فاستولى عليهم الرعب وتملكتهم الحيرة وكادوا أن يولوا الأدبار .

هذه الصورة مأخوذة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



الزنج يعانون السير صمويل بيكر في غوندوكرو دليلا على شدة اعتراهم بجميله *
== ولكن التفاته واحدة من يعقوب خان قائد شير على أقنعه بانقطاع الفتى عن جيشه
فكر عليه وأخذه أسيراً . ومن ثم تشقت جيش قندهار وعاود الأمل الأمير شير على
فاستولى على قندهار واستؤنفت الحرب الداخلية من جديد .
وفي هذه الأثناء كانت السياسة الانجليزية تمد شير على بالمال بلا حساب فراح يتفق
منها على الرؤساء والعاملين في جيش أخيه محمد أعظم ، فبيعت أمانات ونقضت عهود
وجددت خيانات ، كما يقول الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده .
وبعد حروب هائلة تمت الغلبة لشير على وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن
وفر الأول إلى إيران حيث مات بعد أشهر بمدينة نيسابور بينما فر الثاني إلى بحارى .
ومعذرة للقارىء لذكرنا هذه التفاصيل التي قد يراها خارجة عن الموضوع . ==
* أخذت هذه الصورة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



كأبريقة يمتص دم السير صمويل بيكر بعد اللسعة للحيلولة دون سريان السم *

ولكننا نعلمنا اثباتها لتخلص منها إلى أن المترجم برغم زوال الملك الذي شيده لصديقه محمد أعظم لم تحدته نفسه بالفرار من كابل كلاب ظل فيها رابطاً للجأش دون أن يتهيب بطش الأمير المنتصر ودون أن يسعى لتلقه أو نيل رضاه . ومع ذلك فإن شير علي كان لا يجرؤ على مس المترجم بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتفاض العامة عليه . على أن هذه الحروب الداخلية قد تركت طابعها الدائم في نفس المترجم . فلقد رأى بعينه أصبح السياسة الانجليزية فيها وأساليبها المترامية الأطراف في تفريق الكلمة . ومن هنا أشربت نفسه العداء لتلك السياسة بصفة خاصة والمطامع الأوربية عامة . وقد لازمه هذا الكره وصار عقيدة راسخة له طيلة حياته .

* أخذت هذه الصورة من كتاب « الاسماعيلية » للسير صمويل بيكر .



منظر منضدة طبيعية غريبة من الصخر قائمة في جهة الرجاف *

رحلته إلى الهند

على أن شیر علی لم ینفک عن الاحتیال للصدر بالترجم والانتقام منه بوجه یتلبس علی الناس حقہ وباطلہ . فرآی المترجم أن یغادر بلاد الأفغان . فاستأذن الأمير للحج فأذن له علی شرط ألا یمر بایران تغادیا من مقابلة محمد أعظم وكان لا یزال علی قید الحیاة . وهكذا رحل المترجم عن طریق الهند فی سنة ١٨٦٩ (أی بعد هزیمة محمد أعظم بثلاثة أشهر) . ولما كانت شهرته قد سبقته إلى تلك الدیار لما عرف عنه من الحکمة والعلم فأن الحکومة الانجلیزیه - ولم یکن یخفی علیها عداؤه لسیاستها وما یحدثه بحیثه إلى الهند من إثارة روح الهیاج فی النفوس وبخاصة لأن الهند كانت ماتزال فی حالة قلق وقتن بالرغم من اتحاد فتنة سنة ١٨٥٧ المشهورة - رأت تلك الحکومة أن تستقبله عند الحدود الهندیه بمنتهی مظاهر الحفاوة والأکرام ولكن دون أن تسمح له بأطالة مدة إقامته . كما أنها لم تأذن للعلماء بالاجتماع به إلا تحت أعین رجالها . ف قضی فی ربوع الهند شهرا ثم أنزلته الحکومة إحدى سفنها فأقلته إلى السویس .

زیارته لمصر لأول مرة

وصل المترجم إلى مصر فی سنة ١٨٧٠ ولم تكن نیته فی أول الأمر الإقامة بها لأنه کان یقصد مکة کما قدمنا . ولكن الناس ما کادوا یسمعون بمقدمه حتی هرعوا إليه == * هذه الصورة مأخوذة من کتاب « الاسماعیلیه » للسیر صمویل یمکر .



الأمير حلیم باشا المطالب بالآریکة الحدیویة

== لينهلوا من ذلك المورد العذب وتردد السيد على الأزهر وكان يسكن بيتاً بخان الخليلي .
ومن ثم تحول عزمه عن زيارة الحجاز ولبث في مصر . ٤ يوماً قصد بعدها الاستانة .
رحلته إلى الاستانة

وما أن نزل السيد إلى الاستانة حتى لقي كل حفاوة وإكرام من حكومة السلطان
عبد العزيز لأن الصدر الأعظم عالي باشا أحد ساسة الأتراك الأفذاذ كان يعرف
مكاته . ثم أقبل عليه القوم بما لم يسبق له مثيل وأصبح مقرباً من الأمراء والوزراء
والعلماء وتناقلوا الثناء عليه . ولم تمض ستة أشهر حتى أرادت الحكومة الانتفاع
بمواهبه فعيّنته عضواً في مجلس المعارف فأدى مهمته بأمانة وحزم واقترح طرقاً لتعميم
المعارف لم يقره عليها زملاؤه وبينها مأساء شيخ الإسلام وقد ذاك لأنها كانت تمس
شيئاً من رزقه فأضمر له السوء .

وما أن وافى شهر رمضان سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١) حتى رغب إليه مدير دار
الفنون أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات . ولكن المترجم اعتذر بضعفه في اللغة
التركية . فالح عليه المدير فكتب خطاباً طويلاً عرضه قبل إلقائه على نخبة من أصحاب
المناصب العالية فأقروه واستحسنوه .

فلما كان اليوم المعين هرع الناس لسماع الخطاب وبينهم كثير من الوزراء ورجالات ==

ذلك الحين إحدى قواعد الاسلام (كذا) وظاهرة من ظواهر الملكية

الحكومة وأقطاب أهل العلم وأرباب الصحف . فلما اعتلى السيد المنبر وشرع يسحر الألباب بإلاغته بدأ بعض المشايخ يستكرون شيئا من آرائه . واتصل الخبر بشيخ الاسلام . وكان متغيرا عليه كما قدمنا - فرماه بالزيغ في عقيدته وأوصى وعاظ المساجد بذكر كلامه محفوقا بالتنديد والتنديد مما غضب له السيد وطلب إلى الحكومة محاكمته . ولكن الحكومة انحازت إلى شيخها وطلبت رحيل السيد عن الأستاذة بضعة أشهر ونيما تهدأ الخواطر ويسكن الاضطراب ثم يعود إليها إن شاء . فرحل عنها ورغب إليه بعض من كان معه التحول إلى مصر فعمل برأيهم وهبط إلى القاهرة في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (٢٢ مارس سنة ١٨٧١) .

عودته إلى مصر وإقامته بها

ولم يكن في نيته الإقامة في مصر هذه المرة بل جاءها قصد التفرج على مناظرها واستطلاع أحوالها . ولكن رياض باشا - كبير وزراء اسماعيل باشا وقتئذ - مازال يرغب إليه البقاء في مصر وأجرت عليه الحكومة راتبا شهريا مقداره ١٠٠٠ قرش نزلا . أكرمت به لافى مقابل عمل يقوم به . واهتدى إليه كثير من طلبة العلم وحملوه على التدريس . وكان أسلوبه في التدريس مخاطبة العقل وتمزيق حجب الأوهام وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية والاجتماعية والسياسية فتقدم في عهده فن الكتابة في مصر . وظهرت على يده نهضة في العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات . ولم تكن حلقات دروسه ومجالسه قاصرة على طلبة العلم بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان .

وهنا لابد من التنويه بفضل الخديو اسماعيل في استبقاء ذلك الينبوع الصافي في عاصمة الديار المصرية اذ لولا بعد نظره لجاء السيد إلى مصر وغادرها دون أن يحس أو ينتفع به أحد . ثم لا تفوتك أهمية صنيع الخديو هذا . فلقد رأيت كيف بارح المترجم الأستاذة وبأية طريقة فسرعان ماتلقفه اسماعيل باشا وبذا ظهر بحق بمظهر حامي العلم في شخص الفيلسوف الأفغانى . وهو عمل لا يخفى ماله من حسن الأثر وطيب الأحدثه إذ هو يرى الناس بحق أن مصر تأوى العلماء والحكماء حين تضيق بهم دار الخلافة ، وأن =

وأن ينضم إلى الدول المسيحية لألغائه بصفة دولية. ولكن اسماعيل ذهب إلى

==عاهل مصر العظيم أولى من السلطان بالثناء والتقدير لأنه يفسح للعلم رحابه ويوطئ له في وادى النيل أكنافه .

أثر المترجم في السياسة

قد رأيت أن المترجم عاد إلى مصر من الاستانة في أوائل سنة ١٨٧١ . فما أن حانت سنة ١٨٧٦ حتى بدأت مظاهر التدخل الأجنبي أولا بابتياع إنجلترا أسهم مصر في قناة السويس ثم قدوم بعثة كيف الانجليزية لفحص المالية المصرية ثم عجز الحكومة عن أداء أقساطها وما تلا ذلك من انشاء صندوق الدين في ١٠ مايو سنة ١٨٧٦ . فلم يكن عجيبا منه أن يشن الغارة الشعواء على السياسة الانجليزية وأن يحمل عليها الحملات العنيفة . وكان قد انحرف في سلك الجمعية الماسونية ثم أصبح من الرؤساء . فانشأ له محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنسي دعا إليه مريديه من العلماء والوجهاء حتى بلغ عددهم أكثر من ٣٠٠

ونظرا لعداء المترجم للسياسة الانجليزية وتعاضم خطر محفله خشى قنصل إنجلترا العاقبة وخاصة بعد ملاحظته من ظهور روح المعارضة واليقظة في مجلس الشورى على يد نواب من تلاميذ المترجم وعلى رأسهم عبد السلام بك الموليحي (باشا) فوشى به إلى الحكومة وبث الرقباء في المحفل فسعوا فيه فسادا .

ولسنا نغالي إذا قلنا إن ما كان يبعث المترجم من روح التذمر ضد السياسة الانجليزية هو الذى هياأ الأفكار للثورة العراقية المشؤومة . فهو بلا ريب أبو الثورة من الوجهتين الفكرية والروحية ثم إن كثيرا من أقطابها من تلاميذه أو مريديه هذا فضلا عن أنها في ذاتها استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين يد في ظهورها على عهد اسماعيل . وأغلب الظن أنه لو بقي هو واسماعيل في مصر حين نشوب هذه الثورة لكان الأرجح أن يمداهما يارآتهما الحكيمة وتجاربهما الرشيدة ويتكبا بها طرق الزلل والخطل . ولكن شامت الأقدار أن يكونا بعيدين عن مصر فتخسر البلاد نصيحتهما الغالية .

بين جمال الدين وتوفيق باشا

ولا بد من الوقوف ههنا لنطلع القارى على ناحية أخرى من نواحي أخلاق اسماعيل السامية وكيف أنه كان أوسع صدرا من أن يضيق بالعلماء والحكماء مهما أسرفوا في إساءته .

مدى أبعد من مجرد إصدار الأوامر العالية ونجح فعلاً في طعن هذه التجارة



عبد السلام باشا المويلحي
عضو مجلس شورى النواب سابقاً

== فإن الفيلسوف الأفغانى اندفع فى سياق حملته على السياسة الانجليزية إلى التنديد بإسماعيل وبسياسته . ثم غره ما رآه من ميل الأمير محمد توفيق إلى الشورى واستمراره وهوولى العهد على انتقاد سياسة أبيه بما جعل الفيلسوف يتوسم فيه الخير . وقد اجتمعا مرة فى محفل الماسونية وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى .

ومع أن اسماعيل كان على علم بهذا كله لم يشأ أن يتحمل وزر إبعاد المترجم عن مصر برغم الحاح قنصل إنجلترا وقتذاك .

ولكن يأبى القدر الساخر إلا أن يتنكر له توفيق باشا عند ارتقائه الأريكة وأن يصغى إلى ما كان يروجه عنه من الوشايات رسل الاستعمار الأوربى فى مصر لأنهم كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة إلى الحرية والدستور (وهى المبادئ التى تم الاتفاق عليها بينه وبين الأمير محمد توفيق فى محفل الماسونية من قبل) .
والآن فاسمع ما حدث .

إبعاد السيد جمال الدين عن مصر

فإن الخديو توفيق - بعد اصغائه لوشايات الواشين - عقد مجلس الوزراء برئاسة وأصدر أمراً بنى السيد جمال الدين -

• مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا

المرذولة طعنة نجلاء أصابت الصميم معرضاً في ذلك نفوذه وعرشه للخطر.

== لا بل إن النقي تم بشكل هو غاية القسوة والغدر . فلقد ذكرت جريدة الأهرام الصادرة في صبيحة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ٨ رمضان سنة ١٢٩٦) أنه قبض على السيد في ليلة الأحد سادس رمضان وهو ذاهب الى بيته هو وخادمه الأمين (أبو تراب) وقد حجزا في الضبطية ولم يتمكن حتى من أخذ ثيابه . وعند الصباح حمل المترجم في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس وأنزل منها إلى باخرة أقلته إلى بومباي . ومن بومباي قصد المترجم إلى حيدر آباد الدكن حيث كتب فيها رسالته ، الرد على الدهريين .

ولما هبت ريح الثورة العراقية بمصر استدعته السلطة البريطانية من حيدر آباد إلى كلكته وألزمته الإقامة بها إلى أن أخذت ريح هذه الثورة .
رحلته إلى أوروبا

وإصدار جريدة العروة الوثقى

عقب احتلال إنجلترا لمصر أتيح للمترجم السفر إلى أى بلاد أراد . فسافر إلى أوروبا وقصد أولاً لندن . ثم غادرها بعد أيام إلى باريس حيث وافاه إليها تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده وكان منفياً في بيروت عقب إخماد الثورة . وفي باريس شرع الحكيمان يصدران مجلة العروة الوثقى نسبة إلى جمعية العروة الوثقى التي أنشئت في مصر لحث الأمم الإسلامية على التضامن ومجاهدة الاستعمار وتحرير مصر والسودان . وكانت تضم رهطاً كبيراً من أقطاب العالم الإسلامى وكبرائه . وقد كلفتهما الجمعية بإصدار تلك المجلة لتكون لسان حالها .

وقد قامت الموانع دون استمرارها فتعطل صدورها بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عدداً . وسلخ جمال الدين ثلاث سنوات في باريس نشر خلالها المباحث السياسية والمقالات الهامة في اعتداء الدول الأوربية على البلاد الإسلامية .

مقابلته لرينان الفيلسوف الفرنسى

وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسى رينان في موضوع « العلم والسلام » مما جعل رينان يكبر فيه عقريته وسعة علمه وقوة حجته حتى قال عنه « كنت أتمثل ==

لأن النخاسة كانت أهم لمصر منها لآية دولة شرقية أخرى . فلقد كان نهر النيل والبحر الأحمرهما المنفذان الطبيعيان للذان يصل خصيان أواسط

إمامي عندما كنت أخطبه ابن سينا أو ابن رشد أو أحدا من أساطين الحكمة الشرقيين . وسافر إلى لندن بدعوة من اللورد تشرشل واللورد سلسبرى وسألاه عن رأيه في المهدي وظهوره إذ ذاك . ثم عاد إلى باريس حيث تبوأ مقعده اللائق به بين فلاسفتها وعلمائها .

أسفار المترجم

وتأقت نفسه إلى زيارة نجد ولكنه عدل عنها إلى إيران بدعوة من الشاه . فلما بدأ ينحرف عنه أدرك المترجم ذلك فاستأذنه في السفر فأذن له . فقصده إلى موسكو فبطرسبرج وتعرف بعلماء الروس وفلاسفتهم وكبار ساستهم ونشر في جرائدها المقالات الطنانة في سياسة الأفغان وتركيا وإنجلترا وكان لها أكبر دوى وقتئذ في عالم السياسة . وفي سنة ١٨٨٩ افتتح المعرض العام في باريس فعاد إليها المترجم ولكن سرعان ما سافر بصحبة الشاه إلى إيران فقربه إليه ثم وشوا إليه فيه فغير عليه فغادر البلاد إلى البصرة ومنها شخص إلى لندن حيث أقبل عليه كبار الإنجليز وساستهم ثم أصدر مجلة سماها ضياء الخافقين حمل فيها على الشاه إلى أن قتل سنة ١٨٩٦ يد فارسي أهوج وقيل إن للسيد يدا في مقتله .

ثم سافر في سنة ١٨٩٠ إلى تركيا بدعوة من الباب العالي بواسطة رستم باشا سفيرها في لندن على أن يتشرف بمقابلة السلطان ثم يعود .

وهناك طابت له الإقامة وقوبل من الخليفة أحسن استقبال وأغلب الظن أن جلالة كان يرمى إلى استخدامه في ترويج سياسة الجامعة الإسلامية . وقد أنزله السلطان في قصر نخم . وخصص له مرتبا شهريا قدره ٧٥ ليرة عثمانية بما اغناظ له الشيخ أبو الهدى الصيادي ودفعه إلى الوشاية به لدى السلطان حتى تنكر له وأمر بأن تحيط به الجواسيس تحصر عليه غدواته وروحاته وترقب حركاته وسكناته . وأمر السلطان بتشديد المراقبة عليه فلا يقابله أحد إلا بأمره (السلطان) حتى أصبح كالأسير في قصره .

مرضه ووفاته

ثم مرض بالسرطان في فكته في أواخر سنة ١٨٩٦ فأجريت له عملية جراحية ولم تنجح . وما هي إلا أيام قلائل حتى فاضت روحه في صيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ وما =

إفريقيا عن طريقهما إلى الأناضول وبلاد العرب . ومن بين المائتي ألف من هؤلاء الخصيان الذين كان يهلك نحو ثلاثة أرباعهم في أثناء جلبهم ونقلهم ، كان الربع الأخير يمر سنويا بطريق الشقاء هذه . ومع ذلك

== سمعت الحكومة العثمانية بوفاة حتى بادرت بضبط أوراقه وأمرت بدفنه ولا يزال قبره هناك بالقرب من نشان طاش . وبما يؤسف له أن أحدا من عظماء المسلمين لم يفكر في البحث عن قبره إلى أن قبض الله المستركرين من سراة الأتريكان فراح يبحث عن القبر في الاستانة في سنة ١٩٢٦ حتى عثر عليه وأقام عليه شاهدا فخا من الرخام نقش عليه اسم السيد . فكان عمله هذا دليلا على أن الشرقي ما تزال تنقصه صفة تقدير عظمائه وزعمائه .

صفاته وأخلاقه .

كان المترجم أسمر اللون أشبه بأهل الحجاز خفيف العارضين مسترسل الشعر بجملة وسراويل سوداء تطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة . وكان قليل الطعام لا يتناول إلا وجبة واحدة في النهار ويعتاض عما يفوته من الطعام بما يشربه من منقوع الشاي مرارا في اليوم . وكان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزملائه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته نزلا .

وكان حر الضمير صادق اللهجة عفيف النفس وديع الأخلاق مع أنفة وعظمة . ثابت الجأش حتى ليساق إلى القتل فيسير إليه كما لو كان سائرا في طريق الظفر . وكان راغبا عن حطام الدنيا لا يدخر مالا ولا يخاف عوزا . وكان حاد الطبع ولعل ذلك من أثر الوشايات وماتحمله في سيلها من الأذى .

وكان واسع الاطلاع في العلوم العقلية والتقليدية ويتقن من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية هذا إلى إلمامه بالإنجليزية والروسية وكان كثير المطالعة لم تفته مطالعة كتاب كتب بالعربية أو الفارسية في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم .

آمله وأعماله

ويظهر أن الغاية التي وضعها نصب عينيه كانت توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات ==

فبعد التشويه وما يتجشموه من هوان أسواق النخاسة لم يكن يعيش منهم سوى نحو عشرة آلاف تقذف بهم المقادير إلى حياة السعادة النسبية في

المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة إسلامية واحدة تحت ظل الخلافة العظمى .
وفي سبيل تحقيق هذه الغاية انقطع عن العالم فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ولكنه مع ذلك لم يوفق إلى تحقيق غايته ففضى وكأن لسان حاله يقول :
ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن

بقية أعلام الأدب

في عصر اسماعيل باشا

لم يكن في نيتنا عند ما كتبنا عن الحكيم الأفغانى أن نطيل الكتابة ولكن الموضوع جد شيق والبحث طريف فلذا ذكرنا زبدة حياته . ونعود الآن إلى بقية أعلام الأدب في عصر اسماعيل مع ملاحظة أن كتابنا الحالي ينتهى بنهاية عهد ذلك الخديو فلذا نؤثر الإيجاز في ترجمة الأعلام الذين لعبوا دورا مهما فيما بعد عصره كالاستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ومحمود باشا سامى البارودى وإبراهيم بك المولى وغيرهم وغيرهم .

الشيخ حسن المرصنى توفى سنة ١٨٨٩

وهو من لحول الأدباء في عصر اسماعيل وانقطع للتدريس بالأزهر وكانت قوى المحافظة حتى أنه لا يسمع شيئا إلا ويحفظه . وقد تعلم اللغة الفرنسية وألف كتباً فيها .
محمود باشا سامى البارودى

١٨٤٠ — ١٩٠٤

وهو باكورة الأعلام في دولة الشعر الحديثة والذي جمع إلى دقة المعاني جزالة الالفاظ حتى أنك إذا قرأت شعره تخيلت أنك تقرأ لعنزة أو لطرفة . كانت نشأته الحرية في جزيرة كريت كما مر بك ثم أصبح اسمه مقترنا بالثورة العراقية حيث لعب دورا مهما فيها ولذا لا نرى محلا للأسهاب في ترجمته .

عبد الله افتدى أبو السعود

١٨٢٠ — ١٨٧٨

إذا ذكر رجال الصحافة السياسيين في تاريخ مصر ذكر المترجم في طليعتهم وهو طرابلسي الأصل وإن كانت ولادته في دهشور بالجيزة . وهو من تلاميذ رفاقة بك =

بيوتات الشرق الأدنى . فهذه التجارة لم تكن والحالة هكذا مصدراً من



الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

== رافع . حضر بالأزهر وكان يتكلم العربية والفرنسية والإيطالية ووصل في عهد اسماعيل إلى ناظر قلم الترجمة وأستاذ التاريخ بدار العلوم . وكان له نصيب في ترجمة « الكود » أي قانون نابليون وله عدة مؤلفات . وفي سنة ١٨٧٦ عين قاضياً بمحكمة الاستئناف .

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

وهو دأ كتب العلماء وأعلم الكتاب ، كما قال عند السيد مصطفى المنفلوطي . نشأ في عصر اسماعيل واتصل بالسيد جمال الدين منذ أول يوم هبط فيه مصر . ولذا انطبع بطابعه . وقد كان في أثناء الثورة العراقية كالمنار الذي يهتدى برأيه في مداهات الأمور . وهو بلا جدال إمام المصلحين وصاحب الوقفات المشهورة في الذب عن الإسلام تشهد بذلك ردوده على الوزير الفرنسي هانوتو . وقد توفي رحمه الله سنة ١٩٠٥ في وقت أحوج ما تكون فيه البلاد إلى رؤية النير وعزيمة الوثابة .

ابراهيم المويلحي بك

١٨٤٦ - ١٩٠٦

أستاذ المدرسة الحديثة في الأدب والأنشاء . عرني الأصل من أسرة المويلحي المعروفة التي نشأت في جهة « المويلح » من ثغور الحجاز التابعة لمصر وكان جده السيد

مصادر الثروة الخاصة فحسب بل كانت كذلك جزءاً لا يتجزأ من نظام



ابراهيم بك المويلحي

== ابراهيم المويلحي من كبار موظفي الحكومة في عهد محمد علي ميالا للأدب والآداب. فورث المترجم هذا الميل عنه . أما أبوه فكان من سداة مصر وله بيت تجارى اشتهر بصناعة الحرير وتجارته .

وترعرع المترجم في مهاد العز والنعمة ولما مات أبوه تولى تجارة أبيه مع أخيه عبد السلام المويلحي ولكن قلبا يصلح الآداب للتجارة . ولذا تدهورت حالة الأسرة إلى أن أدركها الخديو اسماعيل بعطفه المشهور فأنعم على الأخوين بما يكفى من الأموال لانتفاذ الأسرة من الديون . ثم اختار ابراهيم للقضاء بحكمة الاستئناف وأنعم عليه بالرتبة الثانية كما أنعم على عبد السلام بهذه الرتبة وأبقاه يزاوّل التجارة استبقاء لهذا البيت التجارى القديم .

ولما كان المترجم قد ورث الميل إلى الأدب عن جده فقد اشترك مع محمد بك عثمان جلال في اصدار جريدة نزهة الأفكار ، ثم أصبح من تلاميذ السيد جمال الدين وكان له ضلع في الحركة السياسية في عهد اسماعيل وعين سكرتيراً لاسماعيل راغب باشا وزير المالية في الوزارة الوطنية .

ويظهر أن عطف اسماعيل على بيت المويلحي جعل ابراهيم يخلص له الاخلاص الكلى . ولذا لم يتردد المترجم في ملازمة الخديو سنوات عدة بعد رحيله عن مصر ومن هناك قصد الاستانة فأكرمه السلطان عبد الحميد وعينه عضواً في مجلس المعارف وعاد بعد تسع سنوات إلى مصر يكتب المقالات الشائقة في الأدب والسياسة والاجتماع . وأنشأ جريدة مصباح الشرق الأسبوعية التي لم تبلغ جريدة ما بلغته من المكاة والمرتبة . وتوفى في يناير سنة ١٩٠٦ .

الملكية العامة والخاصة فيها. لأن مصر كانت كلها أعوزتها الحاجة الى



الشاعرة البليغة السيدة عائشة عصمت تيمور

محمد بك عثمان جلال ١٨٢٨ - ١٨٩٨

واضع أساس القصة الحديثة في الأدب المصري وتليذ رفاعة بك رافع . وقد نبغ في العلوم مع الميل إلى الأدب والتعريب وكذا الفن الروائي مع تمصير ما يعربه . وأشهر كتبه « العيون اليواقظ » وهو تعريب شعري لروايات لافوتتين ومواعظه وهو أيضاً « معرب » ترتوف « رواية مولير الشهيرة وسماها « الشيخ متلوف » التي مثلت أكثر من مرة على المسارح المصرية .

وقد أدرك عصر محمد علي وخلفائه وعين سنة ١٨٨١ قاضياً في المحاكم المختلطة وتوفي عن ٧٠ سنة في سنة ١٨٩٨

عائشة عصمت تيمور ١٨٤٠ - ١٩٠٢

وقد وصفها الآنسة مي بأنها « طليعة اليقظة النسوية » في تاريخ مصر الحديث وأول من نبغ من المصريات في الشعر والأدب . وهي من أسرة عريقة كان أبوها اسماعيل باشا تيمور من كبار الحكام في عهد عباس الأول وسعيد واسماعيل وأخوها العلامة المرحوم احمد باشا تيمور وقد لحظ أبوها ميلها إلى الأدب قبل بلوغها العاشرة من السن فعنى بتقفيها وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم . ونظمت الشعر وهي بعد في سن الثالثة عشرة وأكبت على القريض حتى استطاعت أن تنظمه باللغات العربية والفارسية والتركية .

وتأهلت في سن الرابعة عشرة فشغلت عن الأدب بالحياة الزوجية إلى أن عادت إليه بعد ولادة ابنتها توحيدة .

المجندين أو إلى زيادة الأيراد وجدت الطريق مفتوحاً أمامها لتحقيق

== ثم توفي والدها في سنة ١٨٨٢ فتفرغت للشعر والأدب حتى رسخت قدمها فيهما . ولما خطفت المنية ابتها توحيدة رثتها بقصيدة تعتبر من عيون الشعر ، ثم عكفت على الحزن والبكاء سبع سنين عددا جادت فيها قريحتها بأروع القصائد التي تصف لنا مبلغ حب الأم لفلذة كبدها . وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ بعد أن أخرجت ديوانها العربي « حلية الطراز » و « شكوة » وهو ديوان تركي فارسي و « نتائج الأحوال في الأقوال والأفعال » وهي قصة أدبية كتبت بأسلوب المقامات الحريرية .

عبد الله باشا فكري سنة ١٨٣٤ - ١٨٨٩

من أعلام الأدب في عصر اسماعيل ولد في مكة المشرقة وقد تخرج أبوه محمود أفندي بليغ من مدارس محمد علي وأصبح من كبار المهندسين واشترك في حرب المورة حيث عقد فيها على والده المترجم وعاد بها إلى الحجاز . فلما أولدها المترجم أسماه عبد الله وعاد به إلى مصر فأدخله الأزهر حيث درس اللغة والحديث والتفسير والمنطق واللغة التركية . وانتظم في سلك المناصب الحكومية ودخل معية سعيد باشا حيث كان يتولى كتابة الانشاءات الديوانية بالعربية والتركية إلى أن برغ عصر اسماعيل فعهد إليه بملاحظة تعليم أنجاله الأمراء .

وفي سنة ١٨٧١ عين وكيلًا للبعارف واستمر في منصبه إلى سنة ١٨٨١ حيث عين كبير كتاب مجلس النواب في عهد الثورة العراقية .

ولما أُلّف محمود باشا سامي البارودي وزارته سنة ١٨٨٢ اشترك فيها المترجم كوزير للبعارف فكانت عضوا في وزارة الثورة التي غضب عليها الخديو . وقد قبض عليه بتهمة الاشتراك في الفتنة ثم أطلق سراحه بعد ثبوت براءته . وعفا عنه توفيق باشا فيما بعد وانتدبته الحكومة لرئاسة الوفد المصري في مؤتمر استكمل . فسافر إليها مع نجله أمين باشا فكري ومرض في الطريق . ثم اشتدت وطأة المرض بعد عودته فتوفي سنة ١٣٠٧ هـ .

الشيخ عبد الهادي نجا الأياري ١٨٤١ - ١٨٨٨

وهو الذي وصفه على باشا مبارك في خطه بأنه الخبر الهام ونفر العلماء والأعلام الأمام الأديب واللوزعي الأريب الشاعر النائر الحافظ الماهر العلامة الشيخ عبد الهادي نجا كان من كبار الأدباء والكتاب . تلقى العلم في الأزهر وعهد إليه اسماعيل بتتيف أبنائه ومنهم الأمير محمد توفيق .

إحدى الغايتين بشن الغارة على خصيان السودان . وقد كان الباشوات



الشيخ على الليثي نديم اسماعيل باشا الأديب الكبير السيد صالح مجدى بك

ومن تلامذته الشيخ حسن الطويل وغيره . ولما تولى توفيق باشا الأريكة قربه إليه وجعله إماماً للبيعة ومفتياً ، وظل يشغل هذا المنصب إلى وقت وفاته .
ومن تلقى العلم عنه الأديب أحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجى والشيخ ابراهيم الاحدب . وقد بلغت مؤلفاته نحو ٤٠ كتاباً فى الأدب واللغة .

السيد عبد الله نديم ١٨٤٣ - ١٨٩٦

خطيب الثورة العرابية وأحد تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى . كان كاتباً وشاعراً وأديباً وخطيباً يهز أعواد المنابر ويبعث الحمية فى نفوس سامعيه . ولد بالأسكندرية ولعب دوراً مهماً فى الثورة العرابية . وكان ينشر رسائله فى جريدتى مصر والتجارة ثم أنشأ جريدة الأستاذ .

الشيخ على الليثي

شاعر الخديو اسماعيل وشيخ الندماء فى عصره . وكان أديباً حاضراً البديهة طيب العشرة حلو الحديث خفيف الروح عينه الخديو منشئاً للبيعة وكان يستصحبه فى غدواته وروحاته .

ونحسب أن المقام لا يتسع لذكر أسماء الأُدباء الآخرين أمثال أديب اسحاق ١٨٥٦ - ١٨٦٥ والشيخ على أبو النصر المنفلوطى والسيد صالح مجدى بك ١٨٢٧ - ١٨٨١ و ابراهيم مرزوق ١٨١٧ - ١٨٦٦ ومحمود صفوت الساعاتى واحمد بك عيد وتادرس بك وهبى (وقد توفى أخيراً) والشيخ حمزه فتح الله (وهو قريب العهد بنا) وأمين باشا فكرى وغيرهم وغيرهم عن ازدان بهم عصر اسماعيل . وكانوا من دعاة النهضة الفكرية فى عهده .

السودانيون يتناولون ثمن هذه الخصيان أو على الأصح أنهم اقتدوا أنفسهم



المهندس المعروف محمد مظهر باشا



المهندس الكبير حسين حسنى باشا
مدير المطبعة الأميرية سابقا

علماء الهندسة والرياضيات

ومن نبغ في عصر اسماعيل من علماء الهندسة والرياضيات على باشا مبارك ومصطفى باشا بهجت ومحمد مظهر باشا واحمد فايد باشا وحسن باشا فهمى المعيار واحمد بك السبكى وحسن بك نور الدين وحسين حسنى باشا .
وليس يسعنا أن نمر بأسماء هؤلاء الأعلام دون أن نقف برهة أمام اسم محمود باشا الفلكى وترى صورته فى ص ٣٩٥ باعتباره أنبغ من أنجبهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات .

محمود باشا الفلكى ١٨١٤ - ١٨٨٥

كانت ولادته بالحصنة من أعمال الغربية فأدخله أخوه مدرسة الأسكندرية سنة ١٨١٤ ومنها انتقل إلى مدرسة المهندسخانة بمصر فبدأت عليه مخايل الذكاء وحسن الاستعداد حتى فاق أقرانه وكان أول الناجحين فعين استاذاً مساعدا للعلوم الرياضية بها . وكان من تلاميذه إذ ذاك على مبارك . ثم أكب على دراسة اللغة الفرنسية حتى حذقها وحببها إليه الأصل للعلوم الرياضية والفلكية إلى مطالعة ما كتبه علماء الفرنسيين فى الفلك ونقله إلى تلاميذه . ومن بين تلاميذه وقتئذ اسماعيل الفلكى .
وإلى محمود الفلكى يرجع الفضل فى وضع التقويم السنوية وكان أول تقويم وضعه فى سنة ١٠٦٤ وفيه مقارنة بين التاريخ الهجرى والميلادى والقبطى وبين فيه مواقع الشمس والقمر فى تلك السنة . ومن ذلك الحين أصبح محمود يعرف بالفلكى ولازمه هذا اللقب إلى حين وفاته .

بما كانوا يقدمونه منهم (الخصيان). وكان الدلالون وما جوروهم هم في

وصحت نية عباس الأول في سنة ١٨٥٠ على إعادة تنظيم رصدخانه بولاق التي أنشأها محمد علي . فأوفد المترجم إلى باريس ومعه حسين إبراهيم واسماعيل مصطفى الفلكي للتخصص في الفلك وكان الأول مدرساً في المهندسخانة كما قدمنا والآخران قد تخرجا منها . ثم مكث المترجم تسع سنوات في العاصمة الفرنسية استكمل فيها دراسته الفلكية وزار خلالها دور الرصد في معظم أنحاء أوروبا ونشر عدة مباحث فلكية ووضع أثناء دراسته في باريس عدة رسائل مهمة قدم بعضها إلى المجمع العلمي بفرنسا . وفي سنة ١٨٥٩ أى في عهد سعيد عاد المترجم حاملاً أكبر الشهادات فأنعم عليه الباشا برتبة الميرالاي وكلفه بوضع خريطة مفصلة عن القطر المصري فاضطلع بالمهمة خير اضطلاع .

ثم عهد إليه سعيد بالذهاب إلى دنقلة لتحقيق كسوف الشمس الكلى فوضع رسالة عنها قدمها لسعيد باشا وإلى أكاديمية العلوم في باريس لحازت استحسان العلماء . وقد اتهم فرصة وجوده في السودان لحقق المواقع الفلكية على النيل .

والى محمود الفلكي يرجع الفضل في تخطيط معالم الأسكندرية القديمة وموقع سورها القديم . وله في ذلك رسالة بالفرنسية طبعها سنة ١٨٦٦ بين فيها أسوار المدينة وشوارعها ومراسحها ومكتبتها مما لم يسبق له عالم عصرى من الأفرنج . وهذه المباحث مؤسسة على ما قام به من عمليات الحفر والتنقيب ولذا كانت رسالته المذكورة أكثر قيمة وأعظم أثراً مما دونه غيره في هذا الموضوع من مهندسى الحملة الفرنسية . لأن أولئك جميعاً اكتفوا بذكر المشاهدات ودونوا آراء الغير مما نقل عن مؤرخى الأفرنج والعرب بعكس محمود الفلكي الذى استند في أبحاثه إلى ما قام به شخصياً من أعمال التنقيب والحفر . وإذا علمت أن مباحث الفلكي وما قام به من أعمال التنقيب كان في عهد اسماعيل وقبل أن تغطى الاسكندرية بالمباني الحديثة وتضيع معالم الآثار القديمة أدركت ما لعمله الذى كلفه جهوداً شاقة من القيمة الفنية ولذا جاءت خريطته التى وضعها عن الاسكندرية القديمة من أبدع ما رسمه العلماء والمهندسون . ولا غرابة أن تكون مرجع علماء أوروبا في أبحاثهم .

وقد ذكر لنا الأستاذ الرافعى بك أن الفلكي خالف ما ذهب إليه علماء الحملة الفرنسية في معالم الاسكندرية القديمة .

الواقع حكومة السودان والحاكمون بأمرهم في ربوعه . وحدث مرة أنهم



اسماعيل باشا الفلكي اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين سابقا

= ومن اللطف ما ذكر في صدد المترجم أنه وضع رسالة عن مقاييس الأهرام والغرض الرئيسى من تشييدها وتناسبها مع كوكب الشعرى .

وقد ذكر الميرالاي محمد مختار بك (باشا) في هذا الصدد وكان حاضرا مع الفلكي وقت شروعه في أخذ هذه المقاييس وموقعها من تناسب الفلكي أن الأهرام مقابل كوكب الشعرى عند طلوعه . فكأن غرض بانها هو أن تكون كزولة لمعرفة شم نسيم العلماء ولتعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود كوكب الشعرى ليسبغ عليها الرحمة والرضوان باعتباره أحد معبودات قدماء المصريين .

وفي سنة ١٨٧١ عين ناظراً لمدرسة المهندسخانة وناب بصفته وكيلًا للجمعية الجغرافية عن الحكومة المصرية في المؤتمر الجغرافي الذي عقد في باريس سنة ١٨٧٥ والمؤتمر الآخر الذي عقد في البندقية سنة ١٨٨١

والإليه يرجع الفضل في إنشاء مدفع الظهر بالقلعة وقد أنشأ على سطح منزله (بميدان الفلكي) مزولة تبين ساعات النهار نزعته من مكانها بعد وفاته .

وفي سنة ١٨٨٢ تولى نظارة الأشغال وعين وكيلًا لوزارة المعارف في وزارة شريف باشا سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٤ وعين وزيراً للمعارف في وزارة نوبار الثانية سنة ١٨٨٤ وتولى رئاسة الجمعية الجغرافية وظل يشغله مع الوزارة إلى أن حانت منيته في ١٥

يولية سنة ١٨٨٥

وكان الفقيه أثناء حياته يفكر في أعداد قاعة عامة في داره يؤمها من يشاء الاطلاع على ما فيها من نفائس الكتب والخرائط والمحفوظات . وقد تحققت هذه الفكرة في سنة ١٩٢٩ عند ما وهبت كريمته مكتبة المترجم إلى الحكومة .

حاصروا حاكم كسلا في سنة ١٨٦٤ طيلة شهرين كاملين. أما باشاوات



المهندس الشهير مصطفى بهجت باشا



الدكتور محمد الشافعي بك

اسماعيل باشا الفلكي توفي سنة ١٩٠١

من تلاميذ محمود باشا الفلكي ، تخرج من مدرسة المهندسخانة بيولاقي والتحقيق في سنة ١٨٤٥ على عهد محمد علي بالرصدهانة القديمة ثم سافر في عهد عباس إلى باريس مع محمود الفلكي للتعلم في العلوم الفلكية فكت ١٤ سنة بها ثم عاد إلى مصر في أوائل عهد اسماعيل باشا فأنعم عليه بالرتبة الثانية وعهد إليه بنظارة الرصدخانه التي أنشأها في العباسية .

وقد ناب عن الحكومة في مؤتمر الأحصاء الدولي بموسكو سنة ١٨٧٣ وأعجب العلماء بكفاءته وسعة اطلاعه .

ثم تولى نظارة مدرسة المهندسخانة والرصدخانه . وهو الذي أصلح مقياس النيل في اسوان سنة ١٨٧٠ ووضع تصميم سكة حديد بربر - سواكن بالسودان بأمر من اسماعيل باشا ولكن المشروع لم ينفذ .

أما بقية المهندسين وأعلام الرياضيات ففهم سلامة باشا الذي اشترك مع مصطفى بهجت باشا في إنشاء الترعة الابراهيمية ومحمد ثاقب باشا وقد عاون في إنشاء القناطر الخيرية واسماعيل باشا محمد وقد اشترك في آتمام الترعة الابراهيمية وقناطرها وصار رئيساً لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٩ . ثم احمد بك نجيب وحسين افندي على الديك وعلى افندي عزت وعامر بك سعد والسيد عمارة وغيرهم وغيرهم .

حصص فكانوا يأتمرون بأوامر النخاسين ويتناولون منهم مرتبات معينة .
فعند ما نقرأ أن اسماعيل عمل بإشارة البرنس أوف ويلز الدوق

علماء الطب والجراحة

وإذا ذكرنا علماء الطب والجراحة في عهد اسماعيل فليس يفوتنا أن نذكر محمد علي البقلي باشا (راجع ص ٩٦) وأحمد حسين الرشيدى بك ومحمد الشافعى بك وحسين عوف باشا وكبيرهم محمد الدرى باشا (١٨٤١ - ١٩٠٠) الذى تخصص فى باريس (راجع ص ١٠١) وقابل فيها الخديو اسماعيل فشملة بمطقه لما سمع عن نبوغه من أساتذته . ثم عين بعد عودته كبير جراحى القصر العينى . وقد بلغ ذروة الشهرة بما كان يقوم من العمليات الجراحية الخطيرة واهتمامه بتشخيص الداء والبر بالفقراء والمعوزين . وقد أنشأ له مطبعة خاصة لطبع مؤلفاته ورسائله وأسماها المطبعة الدرية وأهم مؤلفاته كتاب « بلوغ المرام فى جراحة الأجسام » فى أربعة أجزاء . وقد توفى فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٥

ثم لا تنس العلامة أستاذ التشريح حسن بك عبد الرحمن والرمدى محمد بك حافظ وسالم باشا سالم الطبيب الخاص للخديو توفيق باشا وجليسة تمرهان خريجة مدرسة القابلات ومحمد بك بدر والجراح احمد باشا حمدى نجل الدكتور محمد على باشا البقلي والدكتور حسن باشا محمود ناظر مدرسة الطب وابراهيم باشا حسن وعيسى باشا حمدى وعبد الرحمن بك الهراوى أستاذ الفسيولوجيا والأمراض الجلدية .

علماء الطبيعات

ومن بينهم احمد بك ندا وعبد الهادى اسماعيل ثم على بك رياض خريج الجامعات الأوربية وكبير صيادلة القصر العينى ومنصور افدى احمد مدرس الكيمياء بالمهندسخانة .

علماء الفقه والقانون

وفى طليعتهم محمد قدرى باشا (سنة ١٨٢١ - ١٨٨٦) وهو من أب أناضولى وأم مصرية (راجع ص ٤٢٧) وتليذ رفاعة بك رافع وقد ظهر ميله من بداية عهده إلى العلم والترجمة وكان صاحب حظوة لدى الخديو اسماعيل الذى اختاره مرياً لولى عهده توفيق باشا . ثم عين بالمعية ومنها انتقل إلى رئاسة قلم الترجمة بوزارة الحفانية حيث اشترك مع رفاعة بك فى تعريب قانون نابليون واختص هو بتعريب قوانين المحاكم

أوف كنوت (راجع ص ٤٣٠) واتخذ إجراءات حاسمة لقطع دابر



الدكتور الشهير حسن باشا محمود

المختلطة تمهيدا لوضع قوانين المحاكم الأهلية الحديثة . وفي سنة ١٨٨١ تولى وزارة الحقانية ضمن وزارة شريف باشا .

وهنا نقطة خلاف فالأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك يقرر بأن قدرى باشا هو واضع مشروع النظام القضائي للمحاكم الأهلية وأن هذه المحاكم افتتحت سنة ١٨٨٣ وصدرت قوانينها وهي القانون المدني وقوانين التجارة والمرافعات والعقوبات . وكان المترجم وقتئذ وزيرا للمعارف في عهد وزارة شريف باشا الرابعة وهي الوزارة التي تخلت عن الحكم احتجاجاً على إخلاء السودان .

أما صاحب بيت العروبة الأستاذ أحمد زكي باشا فقد ذكر في خطبته التي ألقاها في يوم الجمعة ٦ يناير سنة ١٩١١ في الحفلة التي أقامها المجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية بالقاعة الكبرى لمجلس شورى القوانين لتأبين المغفور له حسين نغرى باشا (راجع ص ٢٣٧) أن « نغرى باشا اشتغل في أثناء تقلده وزارة الحقانية (سنة ١٨٨١) بتمهيد السيل لتحويل المجالس القديمة إلى تلك المحاكم الأهلية الزاهرة بيننا الآن ووضع مشروعات القوانين الخاصة بهذا التنظيم تلك القوانين التي ستبقى نغرا خالدا له مهما اعتورها من التعديل والتبديل لأنه تشرف بوضع اسمه عليها في وزارته الثانية . »

وقال صاحب العروبة في موضع آخر من خطبته « وفي ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ انتظم حسين نغرى باشا مرة ثانية في سلك الوزارة التي ألفها ذلك الرجل الغني عن التعريف وأعني به الوزير الشريف شريف طيب الله ثراه وجعل اللجنة مشواه . فصدرت القوانين التي أشرنا إليها (قوانين المحاكم الأهلية) وصدر القانون النظامي وقانون الانتخاب =

النخاسة بسد طريق النيل في وجهها ومنع الغارات على السودان لجلب
الخصيان ، نستطيع من كل ماتقدم أن نحكم بأن إسماعيل كان في الواقع يذل

==ظهرت المحاكم الأهلية في ثوبها القشيب ونظامها الجديد . وكان صاحب الترجمة متقلدا
نظارة الحقانية إلى أن قضت الظروف بسقوط الوزارة في ٧ يناير سنة ١٨٨٤ ،
إزاء هذا الالتباس لم نجد بدا من استطلاع رأى معالي محمود باشا نغرى في الموضوع
فأكد لنا معالي صحة ماذهب إليه شيخ العروبة . وقد أيد رأى معالي الأسناذ أحمد بك
قحة وكيل مدرسة الحقوق سابقا .

الشيخ محمد العباسي المهدي (١٨٢٧ - ١٨٩٧)

وقد سبقت الإشارة إليه ص ٤٠١ وهو شيخ الإسلام ومفتي الديار المصرية وصاحب
الفتاوى المهدية التي تعتبر أكبر مرجع للعلماء في الفقه الإسلامي وهو ابن الشيخ محمد
أمين المهدي مفتي الديار المصرية الأسبق ابن محمد المهدي أحد كبار علماء مصر في عهد
الحملة الفرنسية (انظر ص ٣٨) .

وقد تلم في الأزهر ونبع في علوم الفقه وعلت مكاتته لما عرف عنه من التمسك
بالحق والكرامة حتى استهدف أحيانا لغضب بعض الولاة الذين سبقوا إسماعيل باشا .
فلما ارتقى إسماعيل الأريكة قربه إليه . وحسبك أنه جمع في عهده بين الأفتاء
ومشيخة الأزهر (١٨٧١) وكان مرجع الخديوي في كل ماله مساس بالشريعة الإسلامية .
وعرف له توفيق باشا مكاتته ولكن العرايين — ولم يكن من أنصارهم — أقصوه
عن منصبه ثم أعاده إليهما توفيق باشا . ثم حنقت عليه حكومة توفيق باشا بعد ذلك
وأبعدته عن المشيخة والأفتاء . ولكنه عاد فتقلد وظيفة الأفتاء وحدها وظل فيها إلى
أن اختزمته المنية في رجب سنة ١٣١٥ هـ .

ولا تنس بين علماء ذلك العهد الشيخ محمد عليس والشيخ إبراهيم السقا والشيخ
عبد الرحمن البحراوي والشيخ حسونة النواوي وغيرهم .
علماء الفنون الحربية والبحرية

وهم علي باشا إبراهيم وحامد باشا عبد العاطي ثم كبيرهم محمود باشا فهمي المتوفى
سنة ١٨٩٤ وهو أحد زعماء الثورة العرابية . كانت ولادته ببلدة الشنتور بمركز بيا
وهو خريج مدرسة المهندسخانة . وقد نبغ في الفنون الهندسية والحربية وانتظم في سلك
الجيش ثم عين أستاذاً لعلم الاستحكامات والفنون العسكرية في المدارس الحربية في
عهد سعيد وإسماعيل .

تضحيات هائلة ويعرض نفسه وعرشه لمخاطر جمة في سبيل جعل مصر



محمود باشا فهمى المهندس العسكرية الكبير
وكان يعتبر بمثابة العمودى الفقرى فى الجيش العراقى

وقد قلنا لك إن الخديو اسماعيل كان ينوى الانفصال عن تركيا فعهد إلى المترجم بتحسين شواطئ مصر الشمالية من أبى قير إلى البرلس فقام بالمهمة خير قيام . وقد اشترك فى الحرب البلقانية .

وفى أثناء الثورة العرابية انضم إلى العرابيين وتولى وزارة الأشغال فى وزارة محمود باشا سامى البارودى سنة ١٨٨٢ وأسر قبل واقعة التل الكبير . وليس شك فى أن محمود فهمى كان بمثابة العمود الفقرى فى الجيش العراقى ولذلك كان أسره من أكبر أسباب هزيمة ذلك الجيش . وقد حوكم ضمن زعماء الثورة ونفى مع عرابى إلى سيلان وهناك وضع كتابه البحر الزاخر فى تاريخ وأخبار الأوائى والأواخر ، وهو فى أربعة مجلدات وقد اقتبسنا منه كثيراً .

ثم لانتس محمد مختار باشا (سنة ١٨٣٠ - ١٨٩٧) وكان أدنى إلى صناعة القلم منه إلى صناعة الحرب . فلقد انتظم فى خدمة الجيش وهو فى سن الثانية والعشرين وظل يرتقى فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة اللواء سنة ١٨٨٦ واشترك فى حملة هرر (راجع ص ٣٢٣) ثم عين رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالسودان وعين مأموراً للخاصة الخديوية فى عهد الخديو السابق عباس الثانى وبقي فى هذا المنصب إلى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٩٧

دوله متمدينه حديثه وجعل نفسه حاكماً متوراً عصرياً ، نعم إن السير



الكاتب العسكرى اللواء محمد مختار باشا

== وقد وضع كتاباً قيماً يسمى «التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفريقية والقبطية» من السنة الأولى للهجرة لغاية سنة ١٥٠٠ هـ

وقد حرص على أن يضع إزاء كل شهر أهم ما وقع في مصر وفي العالم من الأحداث هذا عدا كتباً ورسائل عديدة أخرى ومقالات ممتعة في مجلة الجمعية الجغرافية .

ومن نوابغ رجال الفنون الحربية شحاته عيسى بك ناظر مدرسة أركان حرب في عهد اسماعيل ومحمد صادق باشا وهو من كبار المهندسين وقد التحق بالجيش وسافر في معية سعيد باشا لزيارة الحجاز وعين مفتشاً بمصلحة المساحة برئاسة استون باشا . ثم سليمان قبودان حلاوة (توفي سنة ١٨٨٥) وهو خريج المدرسة الحربية القديمة وأحد نوابغ الملاحين وقد عين رباناً للباخرة «سمنود» فبرع في قيادتها وطاف بها حول القارة الأفريقية . وفي سنة ١٨٧٠ عينه اسماعيل مدرساً للفنون البحرية والفلكية في المدرسة البحرية . وقد ألف كتاباً في الملاحة .

النهضة الفنية

إذا ذكرت الفنون الجميلة ذكرت معها ما قطعت الأمة من شتى المراحل في سبيل الحضارة والتدين . لأنها تعتبر بحق المقياس الرئيسى لما تبلغه الأمة من تهذيب النفوس ونشاط العقول وسعة المدارك وترقية الأحاسيس والعواطف . وإذا لم يكن للفنون ==

صمويل بيكر الذى أرسله إلى السودان لهذه الغاية (١٨٦٩ - ١٨٧٣) لم يفعل أكثر من أن قام بأعمال تمهيدية عند مامد سلطة مصر لغاية غوندوكرو وأنشأ مخافر على النيل الأعلى . ولكن خلفه غوردون قد

== سوى أنهاهى التى تستثير احساس الجمال وتنمى ملكته لكفهاها أن تعتبر المرأة الحقيقية لكل ما هو صالح فى الأمة .

وبدئى أنك متى تكلمت عن الفنون الجميلة فقد عنيت الموسيقى أو الغناء والتثيل والرسم والتصوير والنقش والزخرفة والعمارة .

وقد نال الرسم حظا من عناية المدارس الهندسية والصناعية والبعثات فى عهد محمد على ولكن نهضة الرسم والتصوير لم تزدهر كما ينبغى فى ذلك العهد .

أما فن العمارة فتشهد بتقدمه تلك القصور والمساجد والدواوين والعمائر الجميلة التى أنشأها مهرة المهندسين فى النقش والبناء . هذا إلى ما سيبدو من القناطر على النيل والرياحات والترع والكبارى .

التثيل والغناء

ولما كان اسماعيل باشا نفسه برغم ما سردناه عليك من جوانبه العديدة ميالا بطبيعته للفنون الجميلة وفى طليعتها الموسيقى والغناء لم يكن غريبا أن يشتهر عصره بالمرح والحبور وأن ينمو الفن فى عهده .

ولما كانت النهضة التمثيلية فى النصف الثانى من القرن الغابر ماتزال فى بدايتها فقد راح اسماعيل يساعد الجانب الأوروبى منه آملا فى أن يؤدى ذلك إلى نهضة التمثيل فى مصر . وفى الحق إنه لم يستكثر أية مساعدة على المسرح المصرى ولذا أنشأ فى القاهرة مسرح الكوميدي بالأزبكية وقد شرع فى بنائه فى نوفمبر سنة ١٨٦٧ واحتفل بافتتاحه فى ٣ يناير سنة ١٨٦٨ ثم دار الأوبرا فى سنة ١٨٦٩ لمناسبة حفلات افتتاح قناة السويس .

وتم بناء الأوبرا فى خمسة أشهر ومثلت فيها فى مساء ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٦ أول أوبرا واسمها ريجوليتو شهدتها الأميرة أوجينى نابليون الثالث وأعجبت بها . ولم يفت اسماعيل أن يعهد للموسيقى الإيطالى « فردى » بأن يضع أوبرا مصرية وضع العلامة مارييت باشا موضوعها وهى رواية « عابدة » وقد مثلت فعلا فى القاهرة لأول مرة فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١ ومنذ ذلك الحين أخذت الحكومة تجلب الفرق ==

دخل إلى أوغندا فعلا وبسط سلطة مصر الفعلية على السودان . وقد تمكن تدريجاً وهو يشغل منصب الحاكم العام في الخرطوم من منع الغارات لاقتناص الخيضان وقضى على النخاسة قضاء مبرما . وكان يساعده في أعماله

== الأجنبية وتنفق عليها المال . أما في الاسكندرية فقد أنشأ الخديو مسرح زينا ومسرحا آخر اسمه الفيروى .

الموسيقى والغناء

إلى ذلك العهد كان المغنون يتبعون الأساليب والتواشيح القديمة حتى بزغت شمس عبده الحولى فأحدث ظهوره نهضة فنية صحيحة وانتقلت الأغاني من طور إلى طور آخر .

عبده الحولى

كانت ولادته بطنطا في سنة ١٨٤٥ وكان أبوه تاجر بن يسىء معاملته هو وشقيقه إلى أن ضاقا ذرعا بهذه المعاملة ورحلا عن طنطا هائمين على وجهيهما .

وقد أرادت الصدقة أن يلتقى بهما شخص يشتغل بالغناء ويعزف على القانون . فما أن سمع صوت عبده حتى أعجبه وعاد به إلى طنطا يعملان سويا . حتى إذا حضر إلى مصر وتسامعت به أوساط الطرب هرعت إليه تشنف أسماعها من نغامت ذلك البلبل الصداح . وما كادت أن تظهر عليه علام النبوغ والموسيقى حتى ترك أستاذه القديم إلى أستاذ جديد وهو (الشيخ المقدم) فاشتغل على تحته وبدأت شهرته تطبق القاهرة كما أنه بدأ يبتكر الأساليب الجديدة المستمحة التي أعجب بها أهل الفن وعشاق الطرب .

ثم سمع به الخديو اسماعيل فقربه إليه وجعله في معيته . ومن ثم بدأت شمس تعلقو ويزداد شهرة . وقلبا كان اسماعيل يفتقر عن سماع صوته المشجى بل كان يصحبه في سهراته وحفلاته وأغدى عليه كثيرا من المنح والعطايا .

ثم استصحبه معه إلى الأستانة حيث التقى عبده بكبار الموسيقيين الترك فأخذ الكثير من ألحانهم واقتبس منها ما يلائم الذوق المصرى وراح يبتكر ألحانا جديدة هى مزيج من التركية والعربية .

وقد أصبح يلقب بحق بزعيم المجددين فى الموسيقى المصرية وظل أكثر من ثلاثين سنة وهو ملك الغناء بلا مدافع .

كان طيب المعشر دمث الأخلاق شديد المروءة يلبى دعوة الفقراء وقد عرف عنه أنه ==

لوتون بك في بحر الغزال وسلاطين (راجع ص ٣٦٠) في دارفور وأمين
(شنتزلر) في المناطق الاستوائية (راجع ص ٣٤٦) وتملقا للزير (راجع
ص ٣٢١) أقوى النحاسين نفوذا وقتئذ وهو الذي نصب نفسه حاكماً على

== تطوع لأحياء ليلة ، أقامها أحد الفقراء ودفع عبده نفقاتها جميعاً من جيبه الخاص
وكانت وفاته سنة ١٩٠١ وقد أنشد فيه بعضهم قوله :

هذا الذي ملك القلوب بأنسه وأعز شأب العود والألحان
ترك التخت حزينه من بعده تبكى السرور بمدمع هتان
السيدة الماس

التي اشتهرت بين النساء في عصر عبده . ويقال إن عبده لما رأى من شهرتها وإقبال
عليه القوم على سماعها دفعته الغيرة منها إلى الاقتران بها ومنعها عن الغناء .
محمد العقاد القانونجي

وفي هذا العهد نشأ محمد العقاد القانونجي المشهور الذي يعتبر سلطان العازفين .
على هذه الآلة . ولم تكتمل شهرته إلا بعد عصر اسماعيل . وقد عاش العقاد عبده
المحولى فترة طويلة اكتسب منه الشيء الكثير في التوقيع والأنغام .
كل هذا يدل على أن عصر اسماعيل الذهبي اتسع لكل شيء حتى الفنون الجميلة
فهى شهادة كافية لاسماعيل ولما بذله من الجهود في رفع شأن أمته .
الأعمال العمرانية

في ص ٢٧١ إلى ٢٨٠ من كتابنا الحالى يرى القارئ الشيء الكثير من الأعمال
العمرانية التي تمت في عهد اسماعيل والتي تكلفت بطبيعة الحال نفقات باهظة ليس غريباً
أن تكون استنفذت مجموع ما اقترضه الخديو .

فالترع وبخاصة ترعنا الابراهيمية وطولها ٢٦٧ كيلو متر والاسماعيليه وطولها
٢١٨ كيلو متر وانشاء مالا يقل عن ٤٢٦ قنطرة واصلاح القناطر الخيرية والتوسع
في زراعة القطن والقصب وزيادة مساحة الاراضى المزروعة وانشاء ١٧ معمل
لصناعة السكر وتكريره وانشاء معامل النسيج والطوب والدابعة والزجاج والورق
والخطوط الحديدية والأسلاك التلغرافية وانشاء مصلحة مصرفية للبريد بعد أن كان
لكل جالية أجنبية مكتبها للبريد وعناية اسماعيل بالمتحف وتكليفه ماريت باشا باصلاح مخازن
بولاق وتوسيعها وانشاء دار الآثار العربية ودار الرصد بالعباسية ومصلحة الأحصاء ==

دارفور (١٨٧٥) أنعم عليه اسماعيل برتبة الباشوية وأغراه بالحضور إلى مصر حيث زج في غياهب السجون (كذا !) فما لبث أن رفع ابنه

== ومصلحة المساحة وإنشاء المستشفيات في كافة أنحاء القطر لمكافحة الأمراض والأوبئة وتجميل مدينتي القاهرة والاسكندرية بما شقه فيهما من الشوارع الجديدة وشيده فيهما من القصور المنيفة كقصر عابدين وسراى الجزيرة وسراى الجيزة وسراى بولاق الدكرور وقصر القبة وقصر حلوان وسراى الاسماعيلية وسراى الزعفران وقصر النزهة (بشبرا) وهو المدرسة التوفيقية الآن) وسراى المسافر خانة وقصر النيل بالقاهرة وسراى رأس التين وسراى الرمل بالاسكندرية - نقول إن هذه القائمة الطويلة من الأعمال العمرانية يضاف إليها سعيه للقضاء على تجارة الرقيق وماتلاها من الفتوحات السودانية التي وصلت بمصر إلى حدودها الطبيعية ، كان جديرا ألا تتسع له الخزانة المصرية وأن يستنفذ - بشهادة ختوم اسماعيل أنفسهم - الكثير مما عقده من القروض في الخارج .

الأستاذ الرافعى وعصر اسماعيل

ذكرنا في ص ٢٦٣ ملاحظات عامة عن قروض اسماعيل خرجنا منها برد الحملات التى وجهها بعض الكتاب الأجانب المتحيزين ضد الخديو . وقد جئنا على كثير مما كتبه الكتاب الأجانب انصافا لاسماعيل . وانه لمن أكبر دواعى الأسف حقا أن زى كاتب كبير كالأستاذ الرافعى بك لا يأبه لما يكتبه بعض الأفرنج فى إنصاف اسماعيل بينما نراه من الناحية الأخرى يحاول اقناع قرائه بأن ما كتبه بعض المؤرخين قدحا فيه هو الحق الذى لا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكأنما فاته أن بعض هؤلاء القادحين ربما أوغر صدرهم أن اسماعيل لم يغدق عليهم العطايا كما أغدقها على كثيرين غيرهم بمن يقول الأستاذ فيهم نقلا عن مجلة العالمين أنهم ، ما كادوا يستقرون فى القاهرة ويأوون إلى إحدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين . .

فهو كثيرا ما اقتبس من كتاب « تاريخ مصر المالى » ووصف صاحبه (المجهول الاسم) بالاعتدال والاتزان فى رأى . كأنما ينبغى أن يعتبر القدح فى اسماعيل اعتدالا فى رأى وتمدح أعماله تهورا !

وكتاب آخر لا يقل عن سابقه سخفا وإن كان طالما استشهد به الأستاذ الكبير ==

سليمان راية العصيان (راجع ص ٣٤٧) ولكن غوردون سرعان ما هزمه وقتله (١٨٧٩). وهنا ثارت حفيظة الأقباش لقيام المضاعب في سبيل غاراتهم للحصول على الرقيق. فاجتاحوا مصوع (راجع ص ٣٤٨)

== وهو كتاب مدام أولمب أدوار المسمى كشف الستار عن أسرار مصر، وهو لعمر ك كتاب إذا كان قد كشف - ترشيء - فإنه كشف عن خبيثة نفس هذه السيدة الموتورة وأظهرها للملا بظهر التحيز القبيح وأنها لا تصدر عن غاية شريفة أو قصد نبيل .
يهتم الأستاذ الراقى بك بأقوال مؤلف كتاب « تاريخ مصر المالى » ويغض طرفه عما كتبه سيدة فاضلة كاللادى دوف غوردون . فصاحب كتاب « تاريخ مصر المالى » يزعم أن ما تدرج به اسماعيل لعقد أول قرض (سنة ١٨٦٤) لمقاومة الطاعون البقرى كان حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين تحملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون (كذا)

هكذا يزعم جنابه وهكذا يؤمن الأستاذ الراقى بك على تلك المزاعم في حين أن اللادى غوردون - على نحو ما ذكرناه لك في ص ٢٨٠ من كتابنا الحالى - قد قدرت منازل بالمواشى من الخسائر في ذلك الطاعون بنحو ١٢ مليون جنيه . ثم إن ميزانية ١٨٧٣ - ١٨٧٤ ذكرت بين ما ذكرت أن اسماعيل دفع لأصحاب المواشى كتعويض لهم عن خسائرهم في الطاعون البقرى المذكور ٣٨٣٧٥٦٢ ر ٣٨٣٧٥٦٢ جنيه لا ١٢٥٠٠٠٠ جنيه كما زعم صاحب « تاريخ مصر المالى » الذى كانت غايته الرئيسية من وضع كتابه المشار إليه ليست استعراض تاريخ مصر بل المقارنة بين المالية الفرنسية والمالية الإنجليزية .
أما مدام أولمب فبدلك على تحيزها أنها نسبت إلى اسماعيل عكس ما أجمع عليه الناس ومنهم خصومه . فهى تهمه باستعمال السخرة صراحة عند قولها « إنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين وكان يقتنى الأتبان في كل ناحية قدر ما استطاع ويلجأ إلى السخرة في زراعتها واستصلاحها (كذا كذا !) ويعقد القرض تلو القرض لأجل طويلة تاركاً لمن يخلفه في الحكم أن يسدد ديونه حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن بعده (كذا) .
فهل سمعت بأغرب من هذا الهوس الذى تردده هذه السيدة الموتورة ؟ اسماعيل الذى كان يلقب قبل اعتلاء الأريكة بـ « أمير الفلاحين » لبره بهم وعطفه عليهم يلجأ إلى السخرة في زراعة أراضيه واستصلاحها وهو هو الذى كانت طبيعته - حتى وهو أمير - ==

ولكنهم مالبثوا أن أرغموا على مغادرتها وتعقبهم المصريون بدورهم إلى داخل الحدود الحبشية وهو اعتراف بأن اسماعيل دخل حرب الحبشة مرغما . وهذه الحملة وإن كانت بمثابة نكبة فادحة على المصريين إلا أنها

== تنفر من هذه السخرة ولذا لم يدخر وسعا في محاربتها عند اعتلائه الأريكة بما عرضه للاضطدام بفرتسا كبيرة دول أوروبا وقتذاك ! ثم فم كان اسماعيل ينفق هذه القروض ؟ أليست في اصلاح شأن البلاد وعمرانها ؟ أكان يعقدها لمصلحته الخصوصية ؟ لقد كان حسبه أن يحكم البلاد معتمدا على إيرادات ثروته الطائلة التي بلغت قبل جلوسه على العرش ما لا يقل عن نصف مليون فدان . ولكنه شاء أن يجعل مصر قطعة من أوروبا فأضاع ثروته واضطر إلى الاقتراض في سبيل هذه الغاية النيلة . فكيف تميز هذه السيدة لنفسها أن تكتب ما كتبه كأنها تحسب أن مهمة الأمراء والملوك لا تتعدى الجلوس على عروشهم والتمتع بما جمعه من الثروة دون أن يعملوا على رفع مستوى بلادهم ؟

وبمناسبة مدام أولب هذه فكم كنا نتمنى ألا يشرفها الأستاذ الراحل بك بالنقل عنها وهو يعلم من هي . فلعله اطلع على ما كتبه عنها المسيو جان - ماري داريه في ص ٢٥١ من الجزء الثاني من كتابه المسمى « السياح والكتاب الفرنسيون الذين زاروا مصر » . فلقد أفرد لها المؤلف زهاء ثلاث صفحات لا يكاد يقرأها الإنسان إلا ويخرج منها ساخظا على تلك السيدة التي لم تدخر وسعا في جعل كل قارئ يتبرم بما تكتب . فكان مهمتها كانت مضايقة القراء وإدخال الهم على نفوسهم .

نشأت هذه السيدة في الريف الفرنسي ثم افتزقت عن بعلمها وحطت رحالها في باريس وكان أول ما طلعت به على أهل سكان تلك العاصمة رواية منافية لحرمة الآداب اسمها « كيف يحب الرجل » والأسم كفيف لتعرف موضوع الرواية . ولم يخطئ المؤلف عند ما وصفها بأنها سيدة غير متزنة الأعصاب لأنها كانت ممن يزاولون مخاطبة الأرواح وكانت مصابة بنوع من المألوخوليا يجعلها تتوهم أنها مصابة بعدة أمراض .

أما السر في تحاملها على اسماعيل فقد عرفناه من المسيو كاريه . فقد قال إنها كانت على اتصال دائم بكافة خصوم ذلك الحديو ولذا كانوا يغذونها على الدوام بكل ماهو في حيز الأفك والبهتان .

أدت إلى قطع دابر النخاسة في داخل الحبشة بشكل لانظير له لا قبل الموقعة ولا منذ حدوثها . على أن ما قام به من جهود خارجة عن طوق البشر لم يكن من شأنه أن يؤدي إلى أكثر من تحويل النخاسين عن الطرق

== وأكثر من هذا أنها كانت محل عطف ورعاية الأمير مصطفى فاضل أخ الخديو اسماعيل كما كان هو محل إعجابها وتقديرها . فليس غريباً — وهو الذي كان يطالب بالآريكة — أن يجعل مدام أولمب من نفسها مطية لهذا الأمير بصفة خاصة وللخصوم اسماعيل بصفة عامة لتشويه سمعة الخديو واتهامه بكل ما يبتكره ذهنها الخصب من الفضائح والمساوى .

ثم إنها كانت لصلتها الوثيقة بالأمير مصطفى فاضل تؤمل أن يعتلى العرش يوماً ما ولذا كنت تراها تستعجل نهاية العهد الاسماعيلي وتظن أن تشويهها إياه يحقق آمالها . ولم يسلم من قلبها الجراح واسانها العاثر حتى واطنوها الفرنسيون في مصر . فقد رمت بعض التجار الفرنسيين بالسرقة لأنهم — على زعمها — أحضروا لاسماعيل طاقماً من خرف سيفر بمبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك وباعوه له بنصف مليون فرنك !! كما أنها تناولت القناصل الأوروبيين في مصر بفاحش القول ووصمتهم بالصلف حيال مواطنيهم وزعمت أنهم كانوا على استعداد لتضحية أولئك المواطنين ومصالحهم في سبيل التمتع برضا الخديو !! وبالجملة فهذه السيدة لم يسلم أحد من اتهاماتها إلا من كانت تربطهم بها علاقات خاصة من خصوم اسماعيل وكلهم ذو منفعة تطبع أقواله بطابع التحيز والغرض . هذه هي مدام أولمب التي كثيراً ما نقل عنها الأستاذ الرافي بك وهذا ما كتبه عنها أحد مواطنيها ممن يعرفونها جيد المعرفة .

حقيقة قروض اسماعيل

ونقف عند هذا الحد في الرد على تلك السيدة التي كانت تصدر عن رأى جامع وعاطفة متوترة وننتقل إلى ما يسميه الأستاذ الرافي بك : «أساة الديون» . وهي «أساة» حقاً لأن اسماعيل اقترض — فهاهي دول الأرض قاطبة قلباً ونجد واحدة منها خالية من الديون التي تبلغ في كثير من الأحوال مليارات الجنيهات دون أن تفكر الدولة الدائنة في الاعتداء على استقلال الدولة المدينة — بل لأن ذئاب المالين أقرضوه المال بشروط فاحشة كانت تسوقهم حتماً إلى المحاكم والقصاص لو أنها وقعت في بلادهم . وإليك هذه القروض كما أحصاها المستر مطول وهي مدعمة بالأحصاء الرسمي ==

الرئيسية المؤدية إلى الشمال وإقصاء المغيرين إلى المناطق النائية في الجنوب .
وفي الواقع لم يكن من سبيل للقضاء على النخاسة إلا باستغلال موارد

= الموجود في خزانة صندوق الدين المصري . ونظرة واحدة إلى هذه القروض
وما دخل خزانة الحكومة منها فعلاقتك بأن اسماعيل كان يتعامل مع ذئاب بشرية .

تاريخ القرض	اسم البنك	مقدار القرض	المبلغ المدفوع فعلا
١٨٦٤	بنك غوشن	٥٧٠٤٠٠٠	٤٨٦٤٠٠٠
١٨٦٥	بنك الأجلو اجبسيان	٣٣٨٧٠٠٠	٢٧٥٠٠٠٠
١٨٦٦	بنك غوشن	٣٠٠٠٠٠٠	٢٦٤٠٠٠٠
١٨٦٧	البنك العثماني الأمبراطوري	٢٠٨٠٠٠٠	١٧٠٠٠٠٠
١٨٦٨	بنك أوبنهايم	١١٨٩٠٠٠	٧١٩٣٠٠٠
١٨٧٠	بنك يشوفهايم	٧١٤٣٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠
١٨٧٣	بنك أوبنهايم	٣٢٠٠٠٠٠٠	١٧٠٨١٠٠٠٠

مجموع القروض ٦٥٢٠٤٠٠٠ ٤١٩٥٧٠٠٠

فعلام يدل ذلك ؟ إنه يدل على أن المصارف المالية اقتطعت وكمولة ، أو سمسرة ،
مبلغ ٢٣٢٤٧٠٠٠ جنيه من قروض بلغ مجموعها ٦٥٢٠٤٠٠٠ جنيه . فأي
قانون يسوغ هذه العمولة الفادحة ؟ حقا إنها دلماسة .

وعما يضاعف أثر دلماسة القروض ، الفائدة الفاحشة التي طلبها أصحاب القروض .
فإن سعرها الاسمي لكافة تلك القروض مع استثناء قرض سنة ١٨٦٥ كان ٠.٧٪ أما
قرض سنة ١٨٦٥ فكان سعر فائدته ٠.٩٪ .

ولكن تقرير بعثة كيف يذهب إلى أبعد من ذلك . فقد ورد في ص ٣٩٥ من
التقرير بصدد القروض مانصه :

« إن أحدا من القروض المصرية لم ينقص سعر فائدته عن ١٢ ٪ سنويا ولم يزد
عن ١٣ ٪ ١ ٪ . ولكن قرض السكة الحديدية بلغ سعر فائدته ٢٦٩ ٪ سنويا
مع الاستهلاك ١١ »

فاذا أضفنا إلى مجموع القروض ما يسمونه بالديون السائرة وقد قدرها لورد كرومر =

السودن استغلالاً اقتصادياً حاسماً بدلاً من مطاردة الرقيق واصطياد الفيلة . كذلك كان لابد أن يبقى العاج بنوعيه الأسود والأبيض المادة الوحيدة الصالحة للتصدير في ذلك القطر إلى أن توجد طرق أخرى

== نفسه بـ ٢٦ مليون جنيه بلغ المجموع ٩١٢٠٤٠٠٠ جنيه وهو دين وإن لم يتسلم اسماعيل الا نصفه أو مايزيد عن النصف بقليل فلا يمكن أن يعتبر من الفداحة بحيث لا تستطيع مصر - مع ما عرف عن تربتها الخصبة - أن تهض بأعبائه كاملة لو حسنت إدارة ماليتها .

ولسنا نقول هذا اعتباطاً بل إن تقرير بعثة ذيف نفسه - وستكلم عنه فيما يلي - يؤيد قولنا هذا . فقد اختتم بهذه الفقرة . وهي

« نستنتج من كافة ما استطعنا الحصول عليه من المعلومات أن في وسع مصر النهوض بأعباء جميع ديونها الحاضرة بشرط تعديل سعر الفائدة تعديلاً معقولاً . (كذا !)
لذلك يمكننا الاسترسال في اقتراض ديون سائرة جديدة بفائدة ٢٥ ٪ . وعقد قروض بفائدة ١٢ ٪ - ١٣ ٪ . لسداد هذه الديون الجديدة وخاصة وأن هذه القروض لا يدخل قرش واحد منها إلى الخزانة » .

وإذا كان بعض الكتاب وفي مقدمتهم الأستاذ الرافعي بك يعززون مع الأسف - ارتباك مالية مصر لغاية سنة ١٨٧٥ إلى بذخ اسماعيل وميله إلى الترف والاسراف » فمن العدل أن نجابههم هنا بأقوال المستر كيف في تقريره حيث تكلم عن الفوائد والمزايا الفاحشة التي نالها حملة الأسهم إذ قال :

« يلوح أن الخديو حاول بدخل الخزانة المحدود أن يتم في بضع سنوات قليلة أعمالاً عمرانية كان ينبغي توزيعها على مدة أطول لأنها أعمال جديدة بأن تنوء بها خزانات أغنى بكثير من الخزانة المصرية » .

وهذه الملاحظة قد أيدها السير صمويل بيكر في رسالته التي ظهرت في عدد الفور تينيلي ريفيو في شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ بعنوان « اصلاح مصر » ، إذ قال مانصه :

« لقد جاء اسماعيل باشا قبل أوانه . وقد عقد نيته على التعجيل بانجاز أعمال تستغرق سنوات عديدة من العمل التدريجي المصحوب بالتأني . مثال ذلك أنه اعتزم أن يصل السودان بالوجه البحري وبذا يفتح في وجه التجارة العالمية تلك الاصقاع الخصبة التي كانت إلى ذلك الحين بعيدة عن العمران . وقد تضمنت فكرته مشروعات ضخمة ==

للدواصلات أصلح من طريق النيل الأعلى وشلالاته وسدوده . ونحسب أن مدسكة حديدية كان من شأنه أن يجعل من المجدى استخدام السودانين في إنتاج المواشى وزراعة القطن وهو الذى كان يباع القنطار الواحد منه

= هائلة ولقد كان عهده عهد الركض بمنتهى السرعة . وفى الحق إن اسماعيل كان الروح الحى للنهضة والرقى .

وذكر السير صمويل بيكر فى ص ٢٨٥ من « مذكراته » المطبوعة فى سنة ١٨٩٥ مافضه : « هذه الأعمال الهائلة ابتكرتها دماغ الخديو اسماعيل الذى استطاع أن ينجز فى خلال ١٧ عاماً أكثر مما تم فى القطر المصرى منذ الفتح الإسلامى . »

بل إن المستر ادوين دليون القنصل الأمريكى كتب لحكومته فى تقرير رسمى يخبرها : « إن مصر فى استطاعتها أن تستعيد انتعاشها فى أية لحظة لو وقفت ما تنفقه من المصروفات الهائلة على المشروعات العامة والأصلاحات الداخلية وتوخت قواعد الاقتصاد العادية . » وأكثرت من هذا أن مالياً كبيراً هو السير جورج إليوت عضو البرلمان الإنجليزى وكان قد ذهب إلى مصر قبل بعثة بكيف بعامين بدعوة من اسماعيل باشا لدراسة حالة مصر المالية درساً دقيقاً ، صرح فى مجلس العموم — كما ورد فى الماقتشات البرلمانية لهنسارد المجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٥٢ و ٦٥٣ — بأن تحقيق لجنة كيف كشف الستار عن حقيقة الحالة فى مصر فإذا بها حالة لاندعو إلى اليأس . بل إنها حسنة (كذا !) ونعنى بذلك أن يكون دخلها كافياً لوفاء الديون وفاء عادلاً . وأقصد بهذا أنه بضمان معقول ولكن مع تخفيض الفائدة . فلو عمل بالمشروع الذى عرضته على الخديو فاقى لأشك فى أن مصر تستطيع أداء جميع الفوائد وأقساط الاستهلاك ويكون تحررها منها فى مدة خمسة وستين عاماً هذا مع ترك مبلغ كاف لإدارة البلاد إدارة حسنة . (كذا !) إنى أعتقد تماماً أن حالة مصر ثابتة لأن لها موارد كافية قد نمت فى الماضى وزادت زيادة عجيبة وليس ثمت ما يحول دون نموها ورقبها كذلك فى المستقبل . »

وهذا صحيح فإن السنيور شالويا والد السنيور شالويا السياسى الإيطالى المشهور عرض فى عهد اسماعيل أن ينظم المالية المصرية ويوازن الميزانية ويسدد الديون كاملة مع فوائدها الفادحة من إيرادات مصر المحدودة وبدون الالتجاء إلى قروض جديدة . ولكن أحداً لم يلتفت إلى اقتراحه لأن النية كانت مبيتة ضد اسماعيل بقصد التخلص منه بعد أن أفسد على السياسة الاستعمارية خططها وأوقعها فى الارتباك =

في الخرطوم بريالين في حين أنه كان يباع في القاهرة بستة عشر ريالاً .
وعليه بدىء بإنشاء القسم الأول من السكة الحديدية الممتدة بين وادى
حلفا والخرطوم (وطولها ١١٠٠ ميل) ولكن الأزمة المالية ما عثمت

== فكان طبيعياً وفداحة الفوائد كما رأيت أن تشح موارد اسماعيل وتصبح خزائنه خاوية
بعد أن ناءت بما حملتها إياه همته القعساء من مختلف المشروعات التي كانت جديرة بأن
تتوء بها خزانات أغنى بكثير من الخزائن المصرية » كما جاء في تقرير بعثة كيف .
لذلك لم يتصرف شهر نوفمبر سنة ١٨٧٥ — كما ذكر المستر كرايتس — حتى بعث
لورد دربي وزير الخارجية البرقية الآتية إلى الجنرال استاتون قصله العام في القاهرة
وهي مقتبسة من كتاب المسيو شارلس ليساج المسمى « ابتياع أسهم قناة السويس » ص ٦ :
وهذا نصها :

« وزارة الخارجية »

« ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ »

« لقد نمتي إلى حكومة صاحبة الجلالة أن نقابة فرنسية أظهرت استعدادها لابتياع
حصة الخديو في أسهم قناة السويس وأنه يحتمل موافقة سدوه على الصفقة . فأرجو
التحرى عن حقيقة الأمر وإرسال تقرير بالنتيجة » .
وقد استورد المستر كرايتس فقال ما ملخصه :

لم يكن قرار اسماعيل التخلص من حصته في أسهم القناة من جراء اسرافه أو تبذيره
كلاً . فقد كان يملك نحو ١٧٦٠٢٠٢ من مجموع الأسهم وعددها ٤٠٠.٠٠٠ إنما كان
قراره هذا باعتة أن أرباح هذه الأسهم بما فيها الربح الذي يوزع في أول بولاية سنة
١٨٩٤ كانت مرهونة لشركة القناة لسداد أقساط الغرامة التي حكم بها نابليون الثالث على
الحكومة المصرية كما سبق بيانه . وعليه أصبحت هذه الأسهم شبه « ميتة » من الناحية
الاقتصادية العملية . وما زاد الدأين بلة أن مجلس إدارة حملة الأسهم عقد في يوم ٢٤
أغسطس سنة ١٨٧١ اجتماعاً عاماً تقرر فيه حرمان الخديو من حق التصويت إلا بعد
أداء الغرامة المذكورة بأكملها .

أو بعبارة أخرى أن الخديو مع أنه كان يمتلك ما يقرب من نصف مجموع الأسهم
لم تكن له كلمة في إدارة هذه الشركة التي قدم لها أجل الخدمات والتي كان أكبر مساهم
فيها . فاحتج على هذا القرار لأنه قرار ظالم وغير قانوني .

أن حالت دون إتمامها بعد أن أنفق في سبيلها ما يناهز ٤٠٠.٠٠٠ ر. ٤٠٠.٠٠٠ جنيه.
ومن ثم عاد السودان إلى أحضان النخاسة مدة عشرين سنة أخرى .
ولقد ألفنا أن نعدم مصر ممثلة في شخص اسماعيل بلا تدبير وإسراف

== وهنا يقول المسيو ليساج ، إن الخديو أراد أن يتفادى الاحتكاك بالشركة فوافق على توكيل المسيو فردينان دلسبس في الاقتراح بدله .

وكان معنى هذا التصرف في غير لغة السياسة أنه بعد أن أصدر نابليون الثالث حكماً جائراً كان موضع انتقاد الدوائر النزيهة جاء مجلس إدارة حملة أسهم قناة السويس في يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ فأصدر قراراً مشكوكاً في صحته من الناحية القانونية . فلما امتنع اسماعيل عن التقيد بهذا القرار العرفي أقنعوه بوجوب توكيل دلسبس عنه . وهو تصرف يرى إلى حل الخديو على إبرام ما يقرره حملة الأسهم .

وكانت نتيجة هذه الظروف يجتمعة أن الخديو أصبح يعتقد بحق أن الشركة أساءت معاملته وأنه لذلك يرى أن من مصلحته التخلص من هذه الأسهم التي تقرر أن تبقى « ميتة » لغاية أول يولية سنة ١٨٩٤ . يضاف إلى هذا أنه لم يكن مرتاحاً إلى تصرف الشركة بتوكيل دلسبس وجعله السيد الأمر الناهي في هذه الحصة الهائلة .

ولا تنس بعد هذا كله أو قبله أن المبلغ الذي عرض على اسماعيل في سنة ١٨٧٥ ثمناً لهذه الأسهم كان مبلغاً لا يستهان به إذا روعيت الظروف العالمية وقتذاك . فكون الخديو صمم على التخلص من حصته كان بلا جدال عملاً راجحاً من الوجهة التجارية هذا فضلاً عن أنه يربح عن قلبه الغمة التي كان يشعر بها من جراء توكيل دلسبس في الاقتراح بدله .

ولكيما تدرك مبلغ ما كان يشعر به اسماعيل من الأوجاف نخبرك أن المادة ٥١ من القانون الأساسي لشركة القناة نصت على أن يكون لكل من يملك ٢٥ سهم صوت واحد على ألا يكون لصاحب الأسهم إلا صوت واحد فقط مهما كان عدد الأسهم التي يملكها . وقد أريد بوضع هذه المادة في بداية الأمر أن يعرف الملاك أن سعيد باشا — مع احتفاظه بحصة مصر المذكورة وقدرها ١٧٦٦٠٢ سهم ليس في وسعه فرض إرادته على الشركة . وكانت النتيجة العملية لهذا التشريع العجيب أن اسماعيل بصفته أكبر مساهم في الشركة لم يكن له سوى صوت واحد في حين أنه كان في ==

أديا بها إلى خراب عاجل احتاجت معه إلى أن تتدخل لأصلاح شؤونها
انجلترا بالنيابة عن الدائنين الأجانب ولفائدة المدينة المصرية نفسها
ولكن هذا الاعتقاد ليس من العدل في شيء لا بالنسبة لاسماعيل ولا بالنسبة

== استطاعة رجلين من أسرة واحدة لا يملكان إلا ٥٠ سهماً فقط أن يمليا إرادتهما على
اسماعيل !

فهذه الاعتبارات مع حرمان مصر من أرباح حصتها ما يقرب من ٢٠ سنة (أى
لغاية أول يولية سنة ١٨٩٤) وملازمة ثمن الصفقة جعلت اسماعيل يصمم على بيع الحصة
المذكورة خصوصاً وأن الصفقة لا يمكن أن تخول المشتري حقوفاً أكثر مما كان لاسماعيل
في القناة .

تلكؤ النقابة الفرنسية في ابتياع الأسهم

ويمحسن قبل الاسترسال في الحديث أن نقول كلمة عما كان يذلل وراء الستار من
المساعي لحصول النقابة الفرنسية التي أشار إليها لورد دربي في برقيته في ص ٤٨٠ على
هذه الصفقة .

فإن المسيو اندريه درفيو من رجال المال في الاسكندرية اتصل بأخيه ادوار في
باريس وحاولا حمل إحدى النقابات المالية الفرنسية على ابتياع الأسهم . وفعلا
تدخل المسيو دلسبس وطلب إلى الدوق دى كاز وزير الخارجية الفرنسية أن يستحث
النقابة المذكورة على إتمام الصفقة ، ولكن الوزير - وكان يحرص على مودة انجلترا
لاستخدامها ضد ألمانيا - رأى بثاقب رأيه أن تدخل فرنسا لا يمكن أن تنظر إليه انجلترا
بعين الارتياح وخاصة وأن النقابة المذكورة أضاعت كثيراً من الوقت في اختيار
الصيغة التي يكتب بها العقد وهل تكون صيغة مبايعة أم صيغة ارتهان . فلما لم يهتم
الوزير بالأمر وبأدركت انجلترا بتقديم المبلغ المطلوب فوراً راح رجال النقابة يعضون
بنان الندم على ما أضاعوا من وقت ثمين في مناقشات أفلاطونية سخيفة .

وأخيراً لما انتقلت حصة اسماعيل إلى يد الحكومة البريطانية لم تجرؤ الشركة أن تطبق
عليها ما كانت تطبقه على اسماعيل من الشروط المجحفة . هذا إلى أن الفقهاء القانونيين ==

لمصر . لأن اسماعيل لو كان مبدداً عقينها كما يصفونه لتخلصت منه مصر
كما تخلصت من سلفه عباس أو كما تخلصت تركيا من معاصره عبد العزيز
== أفوا بأن لا معنى لمنع توزيع أرباح الأسهم المذكورة إلى أن تنتهى مدة الرهن أو
ألا يكون للمالكها إلا صوت واحد .

على أن اسماعيل وإن كان قد باع أسهمه فقد احتفظ بحصته الـ ١٥٪ من صافي
الأرباح . ولكن خلفاءه في حكم مصر سرعان ما تخلصوا من هذه الحصة مع أنهم
كانت لهم ندحة عنها . فلقد باعوها للبنك العقاري الفرنسى بمبلغ ٢٢ مليون فرنك
أى ٨٨.٠٠٠.٠٠٠ جنيه . وإذا كان الأستاذ الرافعى بك ينعى على اسماعيل بأشباع أسهم
مصر فى القناة بنحو ٤ ملايين جنيه مع أن ثمنها بلغ ٧٢ مليون فى سنة ١٩٢٩ ،
فلماذا لا ينعى على خلفاء اسماعيل بيع هذه الحصة التى بلغت أرباحها فى سنة ١٩٣١
برغم نزول سعر الجنيه الأسترلىنى ١٠.٢٠.٥٤٤ ر.٢٠.٠٠٠ جنيه مع أن ثمنها الأصيل هو كما
قدما ٨٨.٠٠٠.٠٠٠ جنيه ؟ أليس من المعقول أنها لو ظلت باقية لمصر لدرت عليها
فوائد جسيمة ؟

فالذين يلومون اسماعيل على بيع الأسهم محتجين بأن ثمنها بلغ ٣٢ مليون جنيه
فى سنة ١٩٠٥ وأن هذا الثمن صعد فى سنة ١٩٢٩ إلى ٧٢ مليون جنيه يتناسون هذه
الحقائق المريرة الآتية :

أولاً : تدهور أسعار الأسهم فى سنة ١٨٧٥ كما يئناه لك مفهلاً فى ص ٢٩٨
ثانياً : أن الأسهم أصبحت « ميتة » لا يمكن أن تأتى بأرباح لغاية سنة ١٨٩٤
ثالثاً : أن اسماعيل أصبح وليست له كلفة فى مجلس إدارة شركة كثير ما خدمها
مع ارتباطه فى الوقت نفسه بما تصدره من القرارات .
رابعاً : إن الثمن المعروض عليه كان مغرياً ويزيد بنحو نصف مليون جنيه عن ثمن
الأسهم الأصيل .

خامساً : موقف تركيا وهذه نقطة على جانب عظيم من الأهمية وإن تكن فاتت
على كثير من الكتاب المصريين . فى يوم الجمعة ٥ أكتوبر سنة ١٨٧٥ أى قبل اتمام
الصفقة بنحو ستة أسابيع نشرت جريدة التيمس فى صدر صحيفتها أخباراً لمكاتبها فى
الإستانة البرقية الآتية :

ولو غرضنا النظر عما دفعه اسماعيل مؤقتاً من ثمن فادح لوجدت الحقيقة التي لا غبار عليها تنطق بأن ما حدث من التقدم مدة حكمه التي لم تتجاوز

== وقرر الباب العالي أنه في السنوات الخمس التي تبتدىء من أول يناير المقبل (سنة ١٨٧٦) سيدفع نصف سندات الدين العام وقسط استهلاكه نقداً والنصف الآخر سندات ذات ٥ ٪ .

فهل تدري ماذا كان أثر هذه البرقية ؟ لقد كانت بمثابة إعلان إفلاس الحكومة العثمانية . ففي الحال تدهورت السندات التركية وتبعثها السندات المصرية (الخاصة بقروض اسماعيل) وأصبح ذلك اليوم يعرف يوم « الجمعة الأسود » في تاريخ المالية المصرية . وحسبك ما كتبه التيمس في العدد نفسه في مقال بعنوان « الحالة المالية » نقله عن كتاب « خراب مصر » للستر رودستين إذ قالت :

« استولى الذعر اليوم على سوق السندات الأجنبية ولم تعلق فيها النشرة الصادرة من البنك العثماني الإمبراطوري الخاص بالدين التركي إلا في منتصف النهار وإذ ذاك تدهورت السندات التركية أولاً وأعقبها السندات المصرية تدهوراً هائلاً كانت نتيجته إحداث ذعر شديد . ولم يشاهد أى تحسن عند إقفال البورصة بل استمرت السندات المصرية في تدهورها إلى ما بعد ساعات العمل . وليس ثمة أنباء عن مصر ولكن الدولتين مرتبطتان في ذهن الجمهور ارتباطاً تاماً بحيث يعتبرهما كتلة واحدة . »

وماذا عساك أن تقول إذا علمت أن السندات المصرية ظلت تتدهور حتى بلغت سندات سنة ١٨٦٨ (الخاصة بقروض اسماعيل) إلى ٥٧ وسندات سنة ١٨٧٣ (الخاصة بها أيضاً) إلى ٥٧ ¼ ؟

فهل تعجب إذن أن يقدم اسماعيل على بيع أسهم مصر أم أن وجه العجب كان يكون حقاً لو أنه تأخر عن بيعها وسط كل هذه الظروف القاسية ؟

بعثة كيف وهل طلبها اسماعيل ؟

في يوم ٨ أكتوبر سنة ١٨٧٥ أى بعد ثلاثة أيام من يوم الجمعة الأسود بعث الجنرال استاتون قنصل بريطانيا العام في القاهرة يخاطر لورد دربي « بأن الخديو أعرب له عن حاجته إلى موظف من موظفي الحكومة له للمام تام بالنظام المتبع في نظارة المالية لحكومة جلالة الملكة لمعاونة ناظر المالية المصرية على معالجة الفوضى ==

الاثني عشر عاما كان في الواقع عملا مشرفا . فثلاثا ضعفت خطوط السكك الحديدية بنحو ١٣٠٠ ميل وأنشئت طرق جديدة تبلغ بضعة آلاف من الأميال . أما الخطوط التلغرافية فبعد أن كانت ٦٠٠ ميل في سنة

== التي يعترف سموه بأنها ضاربة أطنابها في تلك النظارة .

ثم عدل الجزال استاتون الطالب بعد بضعة أيام فقال إن الخديو يطلب استعارة رجلين ، يشرفان على الدخل والخرج تحت إشراف ناظر المالية على شريطة أن تكون لأحدهما على الأقل دراية تامة بعلم الاقتصاد السياسي الذي رسم للأمم في العصور الحديثة المبادئ الصحيحة التي تنمو بها موارد الدول .

ثم انقضت ثلاثة أسابيع وأخيراً رد لورد دربي في ٢٧ نوفمبر بأن الحكومة الانجليزية ترى أن تبعث إلى مصر بعثة خاصة تنظر هي والخديو فيما يسأله سموه من النصح في الشؤون المالية .

وبعد أسبوع آخر تشكلت بعثة « كيف » من خمسة من كبار موظفي الحكومة برئاسة المستر (وقد أصبح فيما بعد السير) ستيفن كيف رئيس الخزانة العام . وفي يوم ٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥ أرسل اللورد دربي إلى المستر كيف خطاباً شرح فيه تاريخ الطلب وما يتعلق به إلى أن قال : « فينبغي أن توضح حكومة الخديو مكانة السידين المطلوبين وسلطتهما . ولما لم يكن من المستطاع الوصول إلى التفاهم عن طريق التراسل فقد رأينا أن نرسل رجلاً تثق به جلالة الملكة وهو فوق ذلك مشهود له بالكفاءة في الشؤون المالية والأدارية ليقاوض الخديو وحكومته في إدارة مصر ومركزها المالي وبذلك تكون حكومة جلالة الملكة أقدر على مد الخديو بالمعونة التي يريدها بمقتضى تقريره » . واسترسل لورد دربي فقال : « ولا تشك حكومة جلالة الملكة في أن الخديو سيكون صريحاً صراحة تامة في معاملته لكم وأنه سيسهل لكم كل التسهيل الوقوف على حقيقة شؤون مصر المالية وبذلك تستطيعون أن ترفعوا إليها تقريراً وافياً » . وختم لورد دربي خطابه إلى المستر كيف قائلاً : « ولو أن الغرض الأول من بعثتك هو الاتفاق مع الخديو على المعونة الإدارية التي طلبها سموه فلا يفوتك أن تصيد معلومات جمة كبيرة الأهمية لمصر أو لهذه البلاد . وعلى ذلك فحكومة جلالته لا ترى ضرورة لتزويدك بالتعليمات التفصيلية لأنها تفضل أن تترك شؤون اللجنة بقدر المستطاع إلى فطنتك وبعد نظرك » .

١٨٦٢ قد أصبحت في سنة ١٧٨٨ تناهز ٦٠٠٠ ر٠٠ ميل وأنشئت مصلحة

= ولقد بيعت أسهم القناة لبريطانيا العظمى في يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ (أى قبل أن تغادر بعثة ، كيف ، إنجلترا) وفي اليوم التالى أى في اليوم الذى ذهب فيه اسماعيل صديق ومعه الصناديق السبعة التى تحتوى على الأسهم المصرية فى القناة لتبليغها لتفصل بريطانيا العام بعث لورد دربي إلى القاهرة مقترحاً إرسال البعثة المذكورة .

فهل كان بيع تلك الأسهم بعد تدهور السندات المصرية فى يوم الجمعة الأسود سبباً فى تحول الحكومة البريطانية عن إرسال رجلين يشرفان على عملية الدخل والخرج إلى إرسال بعثة للبحث فى نفقات مصر وإدارتها والوقوف على حقيقة حالة المالية المصرية وإسداء النصح للخديو ؟

إن الإنسان لا يسعه إلا أن يسأل هذه الأسئلة إذ فى هذا اليوم نفسه (٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥) عقدت التيمس فصلاً افتتاحياً بمناسبة ابتياع الأسهم قالت فيه :
« إن الجمهور هنا وكذلك فى البلاد الأخرى سينظر إلى هذا العمل العظيم الذى قامت به الحكومة من وجهته السياسية لا من وجهته التجارية . فهو بمثابة مظاهرة .
إنه لإعلان عن نيات معينة (كذا) والمبادرة بالعمل إلى تحقيقها . فمن المستحيل أن نفرق فى أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات إنجلترا المقبلة بمصر أو بين مصر وما يحيط بمستقبل الامبراطورية العثمانية فاذا أدت الثورة والاعتداءات من الخارج والرشوة من الداخل إلى سقوط تلك الامبراطورية سياسياً ومالياً فقد يتعين علينا اتخاذ الوسائل التى تكفل سلامة ذلك القسم من أملاك السلطان لما لنا به من الصلة الوثيقة » .

سفر بعثة كيف

ومهمتها فى نظر التيمس

وفعلاً سافرت البعثة إلى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ وبدأت بفحص حسابات الحكومة كما كان يعرضها عليه اسماعيل باشا المفتش .

وبينما البعثة منهمكة فى عملها وقبل أن تضع تقريرها إذا بجريدة التيمس تطلع فى يوم ٥ يناير سنة ١٨٧٦ على الملا فى افتتاحيتها المالية بمقال لا ريب فى أنه موعز به . وقد رأينا أن ننقل نص فقراته الأولى عن كتاب مستر رودستين المسمى « خراب مصر » . قالت التيمس :

للبريد تزيد مكاتبها في الجهات عن المائتين وأنشئ نحو ٥٠٠ من الجسور
(الكبارى) و ١٥ من المنائير وأسست مدينة بور سعيد وأنشئت ميناء

== والنتيجة ألا شئ. أضمن لسلامة موقف مصر من إحداث تغيير أساسى فى
الحكومة المصرية ومالياتها (كذا ! كذا !) ولا شك أنه لو كانت الثقة بمصر فيما
مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائئها على خير من الشروط
التي انفقت وإياهم عليها . فالمسألة إذن هى كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر أن كل
ما يقال فى هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بأن الخديو يخضع بطريقة ما صاغراً
للأرشاد الأنجليزى (كذا) وأنه سيعهد إلى انجلترا بإدارة مالية مصر وأنه سيتحول
إلى مصر بعض الثقة بانجلترا فتتمكن من نقص فائدة ديونها ونقص أقساطها السنوية
نقصاً كبيراً . ولكن لا بد لذلك من علاقة بين الحكومتين ليس ثمة أى ضامن لها
ولا بد من عطف من والى مصر لا ترى على وجوده دليلاً ما .

فكانما كانت التمس ترمى من بعيد إلى استعداد انجلترا للقيام بأدارة مصر مايا
فى نظير خضوع الخديو « لأرشاد انجلترا » .

التنافس بين انجلترا وفرنسا

ونحسب أن القارئ يتوق إلى معرفة تفاصيل ما كان يجرى وراء الستار أثناء وجود
بعثة كيف فى مصر ونشاط السياسة الفرنسية عند ما سمعت بالغاية المقصودة كما نهتها
التمس إليها . فان حكومة باريس سرعان ما أرسلت الميسر أوترى قنصلها العام فى
القاهرة سابقاً لتحويل نظر الخديو عما تعرضه عليه بعثة كيف . وقد جعل يتبارى مع
زميله المندوب الأنجليزى فى استرضاء الخديو حتى أن سموه صرح للستر كيف بأنه
يستطيع الاستغناء عن إرشاد انجلترا .

وعرض الميسر أوترى على الخديو مشروع إنشاء مصرف وطنى مصرى تحت اشراف
مندوبين تعينهم انجلترا وفرنسا وايطاليا لتحويل الديون السائرة إلى دين واحد بغائدة
٩ ٪ وأن يقوم بكافة أعمال البنوك وتبادلها مع الحزاة كتسلم الأيرادات ودفع
الكوبونات الخ .

واتجهت نية فرنسا إلى إشراك انجلترا فى هذا المصرف واقترحت فعلا على لورد
دربى أن تعمل الحكومتان جنبا إلى جنب ولكن اللورد المذكور أدرك أن اشتراك
انجلترا فى هذا المصرف لا يتفق مع مصلحة حملة الأسهم الأنجليز وجلهم من حملة قراطيس==

الاسكندرية ومدت فيها وفي القاهرة أنابيب الغاز والمياه والمجارى وانثىء
خط للملاحة النيلية بالبوأخر كما انثىء خط لنقل الركاب عبر البحر

الموحد فليس من مصلحتهم أن يضاف إلى هذا الدين معظم ديون الخديو السائرة
وجملها مستمد من المصارف الفرنسية .

لا بل إن اللورد دوى ذهب إلى أنعد من ذلك فأبلغ الخديو في ٦ مارس سنة
١٨٧٦ بأن ايجلترا لا تشترك في هذا المصرف بشكل ما . وإذ ذاك آثر سموه إهمال
المشروع بمذاقيره مما هلل له الرأسماليون الأجلين كما شهدت بذلك جريدة «اىكونومست»
ونقلته عنها التيمس في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٦ إذ قالت :

« اننا يسرنا جدال سرور هبوط مشروع القرض الفرنسى وكذا اللجنة الفرنسية لأن
نجاح أحد هذين المشروعين كان يؤدى حتما إلى أوخم العواقب ويكنى أنه يؤدى إلى
صيرورة الفرنسيين حكام مصر الحقيقيين وهو الأمر الذى حمل بالمرستون في بداية
الأمر على مقاومة حفر قناة السويس ثم دفعنا فيما بعد إلى إنفاق أربعة ملايين من
الجنيتات خشية أن تصبح أسهم الخديو في القناة أسهما فرنسية » .

تقرير بعثة كيف

هذه بعض ملاحظات رأينا اثباتها إتماماً للفائدة وايضا حاللناحية السياسية في ابيع
أسهم القناة .

ونعود الآن الى بعثة كيف فنقول إنها ظلت في مصر بقية شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥
وطيلة شهر يناير سنة ١٨٧٦ وغادرت القاهرة في أوائل فبراير . أى أنها قضت زهاء
شهر ونصف في بحث مالية مصر ودراستها وهي مدة قصيرة جداً خصوصاً وأن
الحسابات لم يكن يتبع في تقيدها النظام الأوروى الحديث بل كانت من النوع الذى
اعتاده كتبة الأقباط في الزمن الغابر المسمى بصورة الفدان . هذا إلى أن الأرقام
والتفاصيل كانت كلها بلغة لا يفهمها أحد من أعضاء البعثة .

فليس عجيباً إذن أن يأتى التقرير ناقصاً في بعض نواحيه . على أن أهم ما جاء فيه
اعترافه بأن مصر في استطاعتها سداد ديونها لو خفضت الفوائد تخفيضاً معقولاً ثم
تنديده الشديد بالقرض المشؤوم المعقود في سنة ١٨٧٣ والذى كانت قيمته الاسمية ٣٣
مليون جنيه لم يدفع منه نقداً إلا تسعة ملايين فقط في حين أن ١١ مليون جنيه
صدرت به سندات . أما الباقي وقدره ١٢ مليون فقد تسرب إلى جيوب السامسة وغيرهم .

المتوسط . وقد انشئ من الترع الجديدة نحو المائتين وزادت ترع الري من ٤٤٠٠ ميل إلى ٥٢٤٠٠ ميل بينما اصالح نظام الري من اساسه وانتشت

ولسنا نريد الدخول في تفاصيل هذا التقرير ولا ماسرده من الأرقام التي اقتبسنا الكثير منها في مختلف أنحاء الكتاب الحالي . وبحسبنا أن نقول إن التقرير جاء على العموم في مصلحة اسماعيل باشا .

وقد اختتمته البعثة بتقديم نصيحة للرأسمالين ألا يتشددوا في المطالبة برطل اللحم كما ملاحيفة أن يؤدي تشدهم إلى تعطيل الآلة المالية في مصر وتحطيمها نهائياً .
الاتفاق على عدم نشر التقرير

وقد وضع السير ستيفن كيف تقريره في باريس . وكان المتفق عليه بين الخديو والحكومة الانجليزية أن يظل التقرير في طي الكتمان .

ولكن الحكومة الفرنسية شرعت من جديد تفاوض اسماعيل لمساعدته على تنظيم ماليته وقد أرسلت فعلاً مندوبها المسيو فيليه لهذه الغاية في الوقت الذي استقر فيه رأى لندن على ارسال المستر ريفرز ولسن إلى القاهرة لأصلاح مالية اسماعيل .

ولما وصل ولسن طلب إيجاد لجنة مراقبة مالية في مقابل توحيد الدين كله ونقص فائده في حين أن منافسه الفرنسي بعد أن أهمل مشروع المصرف الذي كان سبب الخلاف في الماضي ، اقترح تأليف لجنة تفرغ للدين العام وحده وتعين حكومات متعددة أعضائها وتقتصر مهمتها على تسلم الأيرادات المخصصة لدفع الكوبونات هذا إلى توحيد جميع الديون السائرة والثابتة على شروط معينة وضمانها ببعض موارد دخل الحكومة المصرية .

وسرعان ما طلب لورد دربي تفاصيل هذا المشروع . فلما اطلع عليها أعلن عدم موافقته عليها لأن اللجنة لن تكون مسيطرة فعلاً على المالية بل يكون عملها قاصراً على استلام الأموال بالنيابة عن الدائنين هذا إلى أن شروط تحويل الدين السائر إلى دين ثابت ضارة بمصالح حملة أسهم الدين الموحد .

ولكن الخديو كان ميالاً للشروع الفرنسي فأرادت الحكومة الانجليزية صده عنه . فلما لوحث بنشر تقرير المستر كيف احتج اسماعيل قائلاً إنه وثيقة ليس لأحد عدا حكومة جلالة الملكة حق الاطلاع عليها وخاصة وأن الاتفاق لم يكن تم بعد مع الممولين الانجليز على أساس المساعدة المراد تقديمها للخديو .

المصارف فحالت دون استمرار استغلال المرايين للفلاحين كما أنفقت الأموال بسخاء هائل لمساعدة المشروعات التجارية والصناعية المختلفة . أما أن النفقات التي ذهبت في هذا السبيل وتقدر بنحو ٥ مليون جنيه

== فأصغت الحكومة البريطانية إلى الاحتجاج . ولكن حدث ما هو أدهى وأمر . ذلك أن نائباً أوعز إليه بأن يسأل الحكومة عن السرف في عدم نشر تقرير كيف . فبدلاً من أن يجيب المستر دزرائيلي بأن التقرير وضع بشرط ألا ينشر أجاب - على ما جاء في المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد الأول ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٣٩ - بأنه لا يمانع في نشره إنما الخديو هو الذى يعارض فى ذلك أشد المعارضة .

تدهور السندات المصرية

ويمكنك أن تدرك ما أصاب سوق الأسهم المصرية من الذعر وتدهور أسعارها من جراء هذا التصريح الذى فهم منه رجال المال أن التقرير المشار إليه لا يبعث على الرضا . ثم انقضت عشرة أيام أحس بعدها اسماعيل بحرج الموقف فطلب نشر التقرير قائلاً إنه يجهل محتوياته ويتطلع إلى نشره ثقة منه بأن المستركيف لم يقرر سوى الواقع بلا تحريف ولا زيادة ، ولعله بأن نشر التقرير كفىل بتبديد مخاوف الجمهور التى لا يوجد ما يبررها .

ولكن كم كان اسماعيل شديد التفاؤل . فان الجمهور أبى أن يحسن الظن بموقف مصر المالى بعد تصريح المستر دزرائيلي المذكور . ولم يجد اسماعيل ما يرد به على هذه المناورة إلا قوله « لقد حفروا لى القبر » كما أن المستركيف - وهو الذى كان يقصد بتقريره إيجاد مخلص للخديو - لم يجد مناصاً بعد تصريح المستر دزرائيلي من أن يعترف - كما ذكر فى المناقشات البرلمانية لهنسارد المجلد ٣٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٢٧ و ٦١٠ - « بان بعثه بدلاً من أن تساعد الخديو على الاقتراض قد اغلقت في وجهه أسواق العالم » . وما حل اليوم الثالث من شهر ابريل سنة ١٨٧٦ حتى نشر التقرير وتبين للناس أنه لم يكن غير مريض كما فهدوا لأول وهلة . ولكن كان قد سبق السيف الزل وتدهورت السندات المصرية كما قدمنا .

التوقف عن الدفع

وفى يوم ٧ ابريل سنة ١٨٧٦ وقعت الواقعة . ذلك ان الخديو أصدر مرسوماً بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقه على الحكومة فى شهرى ابريل ومايو لمدة ==

قد كانت تعتبر على وجه العموم عملية مالية رابحة فيتجلى لك من مراجعة قليل من الأرقام . فلقد ازداد الأيراد من دون خمسة ملايين جنيه

== ثلاثة أشهر . ثم أعلن هذا المرسوم في بورصة الاسكندرية في اليوم التالي فكان هذا إيذانا بالتوقف عن الدفع .

ونحسب أن من الأنصاف لاسماعيل أن نذكر ما كتبه التيمس بعد ذلك بأيام خاص بهذا الموضوع وكانت كما تعرف من الدخضومه . قالت في يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨٧٦ كما رواه مستر رودستين :

« لقد تسببنا في هبوط الأسهم المصرية إلى أبعد مما كان يمكن أن تهبط إليه لولم تتدخل في مالية مصر . فلو لاح لاسماعيل مثلاً أن يبعث إلى وزارة خارجيتنا يوماً ما ويقول لها بصريح العبارة إن تردد سياسة انجلترا الخارجية وتذبذبها هو الذى أضعف به الثقة في البورصات الأوروبية وعليها وحدها تقع المسؤولية إذا رأى نفسه الآن عاجزاً عن تسوية ديونه السائرة - وما كان ليعجز عنها لولا تدخلنا - إنه لو فعل ذلك لما وسعنا إلا أن نقره على لومه وتقريره » .

فأين هذا الاعتراف الصريح من زعم لورد كرومر - الدخضوم الخديو - في ص ١٢ من المجلد الأول من كتابه « مصر الحديثة » اذ قال : « لقد ظهر قبيل حلول الكارثة العامة أن ادارة اسماعيل باشا السيئة لمالية البلاد لابد أن تؤدي إلى انهيار مالى عاجل أو آجل . ولقد وقع المحذور في ٨ ابريل اذ أجل الخديو دفع سندات الخزينة » .

انشاء صندوق الدين

٢ مايو سنة ١٨٧٦

سردنا عليك من أقوال المالى الانجليزى الكبير السير جورج البوت وغيره ما يستتبع منه أنه كان في استطاعة مصر التغلب على ديونها وارضاء كافة دائئها لو حول دينها السائر إلى دين ثابت وعدلت فائدة الدين الموحد كله . وهذا ما اقترحه المسيو غبليه فعلاً بالنيابة عن الدائئين الفرنسيين فضلاعن انشاء لجنة تتفرغ للدين وحده وتبتم الأيرادات المخصصة لأداء الكوبونات .

وبعد تجارب الخديو في صدد تقرير كيف مال إلى الاقتراح الفرنسى وترك الدائئين الانجليز ينظرون ماترسمه لهم حكومتهم من الخطط .

وفي يوم ٢ مايو سنة ١٨٧٦ صدر مرسوم خديو بانشاء صندوق الدين وهو ==

فى سنة ١٨٦٢ الى ٨٥٠٠٠ ر ٨٥٠٠ ج فى سنة ١٨٧٩ . وقد قدره المستر كيف ، فى وقت متأخر أى فى سنة ١٨٧٥ أن مصر قادرة على سداد ديونها حتى بدون الالتجاء إلى الضغط على مؤسسات اسماعيل المالية .

== بمثابة خزانة فرعية لخزانة الدولة تكون مهمته قاصرة على استلام الإيرادات المخصصة للديون .

وقد خصص لهذا الصندوق إيراد مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط وعوايد الدخولة فى القاهرة والاسكندرية وإيراد جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش وإيراد السكك الحديدية ورسوم الدخان وضريبة الملح ومصايد المطرية (دقيلة) ورسوم الكبارى وعوائد الملاحة فى النيل وإيراد كوبرى قصر النيل وإيراد أطيان الدائرة السنوية (وكان ريعها السنوى ٦٨٤٠٠٠ جنيه) وبالجمله فقد خصص لصندوق الدين من الدخل ما يبلغ ٨ مليون جنيه سنويا وذلك لأداء الفوائد وأقساط الاستهلاك .

وكان بين مانص عليه مرسوم انشاء الصندوق : أنه مخصص بتسلم النقود المخصصة لسداد الديون ، وأن يتولى ادارته مندوبون أجانب تنفذهم الدول الدائنة ويعينهم الخديو وفقا لهذا الاتفاق ، وأن يورد الموظفون المختصون بتحصيل الأيراد ما يجمعونه إلى صندوق الدين رأسا ، وأن الحكومة بمنوعة من تعديل الضرائب التى خصصت لإيراداتها لصندوق الدين تعديلا يفضى إلى انقاص الوارد منها الا بموافقة أعضاء صندوق الدين ، وألا حق للحكومة فى عقد قرض أو اصدار افادات مالية على الخزانة إلا لأسباب تقضى بها حاجة البلاد وبعد موافقة صندوق الدين ، وللحكومة الحق فى الاقتراض بالحساب الجارى مالا يزيد عن ٥٠ مليون فرنك (مليونى جنيه) للقيام بخدمة الخزانة .

وقد نص المرسوم المذكور على جعل الحاكم المختلطة مختصة بنظر ما يرى صندوق الدين اقامته على الحكومة من الدعاوى خدمة لمصالح أصحاب الديون .

مشروع توحيد الديون

مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦-

وفى يوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ أصدر اسماعيل مرسوما آخر بتوحيد ديون الحكومة ودين الدائرة السنوية والديون السائرة إلى دين واحد سمي (الدين الموحد) وقدره ==

ثم أن الأهالي ازداد عددهم من ٤٨٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ ر٥
وتضاعفت مساحة أراضي الزراعة من ٤٠٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ ر٥
فدان كذلك تضاعف عدد المواشي. ثم يلاحظ أن ازدياد العناية بحل

== كما قال لورد كرومر — ٩١ مليون جنيه انجليزي بفائدة ٧ في المائة على أن يستهلك في ٦٥ سنة مع بقاء القروض الطويلة الأجل وهي قروض سنوات ١٨٦٢ و ١٨٦٨ و ١٨٧٠ و ١٨٧٣ على حالها بأن تستبدل بسندات جديدة من الدين العام بحساب المائة مائة بينما يعطى أصحاب القروض القصيرة الأجل وهي قروض سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ سندات جديدة تحسب لهم بواقع مائة لكل خمسة وتسعين من قيمتها الاسمية وذلك في مقابل إطالة أجل سدادها. أما سندات الدين السائر فتستبدل بها سندات جديدة مع اضافة ٢٥ في المائة إلى قيمتها أى بواقع ١٠٠ لكل ٨٠ جنيه من قيمتها الاسمية وذلك مقابل إطالة أجل السداد.

مرسوم ١١ مايو سنة ١٨٧٦

وكانت هذه ولا ريب تسوية عادلة للدائنين لا للمصريين وبخاصة وأن الخديو — كما جاء في القاموس العام للأدارة والقضاء لصاحبه فيليب بك جلاد — أصدر في ١١ مايو مرسوماً ثالثاً بإنشاء مجلس أعلى للمالية مركب من عشرة أعضاء نصفهم من المصريين والنصف الآخر من الأجانب عدا الرئيس الذى يعينه الخديو ، وأن يكون مقسماً إلى ثلاثة أقسام أحدها لمراقبة خزائن الحكومة والثانى لمراقبة إيراداتها ومصرفاتها والثالث لمراقبة الحسابات . ولهذا المجلس الحق في إبداء رأيه في الميزانية السنوية التى يضعها وزير المالية باسم الحكومة على أن يكون ذلك قبل نهاية السنة بثلاثة أشهر . وقد اختار الخديو لرياسة هذا المجلس السنيور شالويوا أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإيطالى .

ولم يفعل الخديو كل هذا إلا لأقامة الدليل على حسن نيته وطمأنة الدائنين على حسن الإدارة المالية .

بعثة جويير غوشن

لم تكن الحكومة الانجليزية شديدة الارتياح لأنشاء صندوق الدين ولا لتوحيد الديون . ولذلك امتنعت عن تعيين مندوب لها في صندوق الدين مع أن الدول

« الشفالك » قرب الفلاح من تحقيق بغيته الكبرى وهى أن يكون له فدان من الأرض وبقرة . وإذا كان لدى الفلاح الانجليزى ما يحمله على أن يحسد الفلاح المصرى برغم الكرباج والسخرة فإن لدى نساج

== الأخرى الثلاث عينت مندوبيها فعينت فرنسا المسيدوبلير والنمسا فون كريبير وإيطاليا السنيور بارافلى .

وبعد مناورات طويلة من وراء الستار سافر فى خلالها اللورد درى إلى باريس للاجتماع بالدوق دى كاز وزير الخارجية واقناعه بوجوب وضع نظام جديد يتضمن ادخال تعديلات جديدة تكفل جعل مصر فى سياستها وفى تصرفاتها الداخلية أكثر خضوعاً للدول الأجنبية .

ولم يكتف اللورد درى بذلك بل بعث إلى باريس بالمستر غوشن (وهو اللورد غوشن فيما بعد) عضو الوزارة السابقة وابن المالى الشهير غوشن . فقام هذا بمفاوضة الدائنين الفرنسيين إلى أن ضمهم إلى وجهة نظر اللورد درى .

وكم كان ابتهاج بورصة لندن عند وصول الأنباء بموافقة الدائنين الفرنسيين على رأى المستر غوشن الذى أقام فى اكتوبر سنة ١٨٧٦ حفلة وداع وأقسم فيها للدائنين الانجليز الحاضرين — كما ذكرت التيمس — « ليحصلن لهم على أعظم ما يستطيع تحصيله » . ثم سافر المستر غوشن بعد أيام إلى القاهرة ممثلاً للدائنين الانجليز يصحبه المسيو جويرير ممثلاً للدائنين الفرنسيين لحمل الخديو على قبول التعديلات الجديدة .

وتنفيذاً لحفلة موضوعة من قبل أفهم القنصل البريطانى العام الخديو مكانة المندوبين وبخاصة مستر غوشن الذى قال إنه يحتمل عودته إلى الوزارة قريباً . كل ذلك للتأثير فيه وحمله على الأذعان .

وهنا ظل مشروع جويرير غوشن فى كفة القدر عدة أيام بسبب الموقف العدائى الذى وقفه حياله اسماعيل المفتش .

موت اسماعيل المفتش

ونظراً لما كان للمفتش من النفوذ فى أنحاء البلاد فقد رأى فيه أصحاب المشروع الجديد دأداً عدواً للإصلاح ، ملحقين بذلك إلى وجوب إبعاده . يدلك على ذلك ما بعثه مراسل التيمس الأسكندرى إلى صحيفته فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ قائلاً : « إن سقوط المفتش سواء أكان بحق أم بغير حق ، أصبح مرغوباً فيه . ولعمري ليس أدعى إلى ==

لنكشير ما يحمله على تمى الخير لمصر . فتمد كان قطن الدلتا هو الذى أنقذ لنكشير من الخراب التام فى إبان الحرب الأمريكية الداخلية . أما الصادرات القطنية فلم تتضاعف قيمتها إلى أربعة أمثالها فقط

==إنعاش بورصة الاسكندرية الكاسدة من تحقيق تلك الأشاعة التى رددت كثيراً عن سقوط المفتش .

وفى هذا مافيه من التحريض على وجوب التخلص من المفتش وأخيراً لما مات المفتش إذا ببورصة الاسكندرية تنشط حركتها حتى أن الاسهم المصرية - كما ذكر مراسل التيمس - ارتفع سعرها ثلاثة بنوط فى نصف ساعة . وحكاية موب المفتش ما تزال من الأسرار الغامضة التى لم يعرف الناس ولن يعرفوا كتبها ولا حقيقتها . والأقوال فيها متضاربة ومتناقضة .

مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ لتسوية الدين العام
كان طبيعياً بعد موت المفتش فى منتصف شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ أن يرقص طرباً أنصار مشروع غوشن - جووير بعد أن زالت العقبة الكثود - وهى اسماعيل المفتش - من الطريق . وما هى إلا أيام قلائل حتى صدر مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ باقرار ما أدخله غوشن وجووير من التعديلات على مرسوم مايو سنة ١٨٧٦ وفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية .

أما التعديلات فتتضمن اخراج ديون الدائرة السنية وقدرها ٧٠٠٠٠٠ ٨١ ٧٠٠ جنيه من الدين الموحد وعقد اتفاق خاص بشأنها ، و اخراج القروض القصيرة الأجل من الدين الموحد وتسديدها فى مواعيدها ، وتخفيض العلاوات المقررة لأصحاب الدين السائر من ٢٥٪ إلى ١٠٪ وما تبقى من الدين المصرى يقسم إلى قسمين أحدهما الدين الممتاز ومقداره ١٧ مليون يستهلك فى ٦٥ سنة من إيرادات السكة الحديدية وميناء الاسكندرية وتعطى سنداته بالأفضلية لحملة أسهم القروض الطويلة الأجل . وثانيهما الدين الموحد وقد خفض إلى ٥٩ مليون جنيه وجعل فائدته ٧٪ . يستهلك من الإيرادات المينة فى مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ . ثم إعادة العمل بقانون المقابلة وإبقاء صندوق الدين بصفة دائمة إلى أن يستهلك الدين العام بأكمله . ولأعضائه الحق فى استلام الأيراد المخصص لاستهلاك الدين وأرساله رأساً إلى بنكى إنجلترا وفرنسا وأن يكون تعيين أعضائه بطلب حكوماتهم .

بل زادت الصادرات بصفة عامة من ٤٠٠٠٠٠ ر. إلى ١٤٠٠٠٠ ر. جنيه كما زادت الواردات من دون المليونين إلى ٥٠٠٠٠ ر. ٥ جنيه وبالجمله فان ما أحدثه رأس المال الأجنبي من النشاط أدى باقترانه بالصناعة الوطنية إلى تنمية الاقتصاد الوطني بسرعة تدعو إلى الدهشة. وقد كتب القنصل

= وفي ١٢ و ١٣ يولية سنة ١٨٧٧ عقد اتفاقان لتسوية ديون الدائرة السنية والدائرة الخاصة .

المراقبة الثنائية

وليس المهم في هذا المرسوم ما وصل إليه الدائنون من تعديلات ولكن وجه أهميته - وهذا ما كان يعارض فيه المفتش - تعيين مراقبين أجنيين بوظيفة مفتشين عموميين أحدهما انجليزي ويسمى مفتش الإيرادات والثاني فرنسي لمراقبة المصروفات ويسمى مفتش الحسابات والدين العمومى .

ووظيفة الأول كما يفهم من التعبير تحصيل إيرادات الحكومة وتوريدها للخزائن المخصصة لها وله أن يعزل ويولى من يشاء من مأمورى التحصيل - ماعدا محصلى الرسوم القضائية فى المحاكم المختلطة - بعد تصديق اللجنة المالية المؤلفة من وزير المالية ومن المراقبين الأجنيين .

ووظيفة الثانى ملاحظه القوانين واللوائح المتعلقة بالدين العام وبالجمله تفتيش حسابات الخزانه . وليس لأحد من الوزراء أو رؤساء المصالح أن يأمر بصرف ما يصدر عنه من أذونات أو تحاول إلا بعد تأشيرة المراقب. وله حق الاعتراض على صرف أى مبلغ يتجاوز المربوط فى الميزانية .

ولهذا المراقب أن يقوم بوظيفة المستشار المالى لوزارة المالية وهو نفس المنصب الذى لا يزال يحتفظ به تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كما أن للمراقبين الحق فى الاشتراك فى تحضير ميزانية الحكومة .

وزاد المرسوم على هذين المراقبين أمراً آخر وهو وضع إدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة مركبة من خمسة مديرين . منهم اثنان انجليز ومصريان وواحد فرنسى على أن يكون رئيس اللجنة أحد المديرين الانجليزين وهذه اللجنة تسلم إيرادات السكك الحديدية لصندوق الدين ولها السلطة العليا على كافة موظفى الإدارة .

العام الأمريكى ادوين دليون فى كتابه « مملكة الخديو سنة ١٨٨٣ »

تنفيذ المرسوم الجديد

وبمقتضى المرسوم الجديد عين المستر رومين القاضى السابق فى الهند مراقباً إنجليزياً عاماً للأيرادات وعين البارون دى مالاربه مراقباً فرنسياً للبصروفات كما عين الجنرال الإنجليزى ماريوت رئيساً للجنة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية .

وأبت الحكومة البريطانية أن تتحمل مسؤولية تعيين الموظفين السابقين كما أنها لم تعين عضواً إنجليزياً لصندوق الدين . ولكن اللورد دغوشن والسير لويس ماليت اقترحا على الخديو تعيين السير افلن باريج عضواً إنجليزياً فى ذلك الصندوق إلى جانب المسيو دويلبير العضو الفرنسى وفون كريمر العضو النمساوى وبارفالى العضو الايطالى . وبديهي أن توقف مصر عن الدفع لم يكن من الحوادث التى تبرر اتخاذ كل هذه الشروط المهيئة ووضع ادارة البلاد فى أيدي جماعة من الأجانب مهما حسنت نياتهم فانهم كانوا يعملون قل كل شئ لمصلحة الدائنين .

وهانحن نرى فى عصرنا الحاضر حكومات عديدة تتوقف عن الدفع لجأه دون أن يتحرك الدائنون أو تحدتهم نفوسهم بوضع حكومة الدولة المدينة تحت رقابة أجنبية . ومن الملائم أن نذكر هنا أن الحكومة الفرنسية ظنت بادىء ذي بدء أن الشركة الثنائية تخدم مصالحها المالية ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أنها إنما سخرت لخدمة المصالح الإنجليزية التى أصبحت ذات الحول والسلطان إلى أن انفردت بحق البت فى مستقبل وادى النيل . وما ألفت ما كتبه فى هذا الصدد الوزير الفرنسى الخطير دوفريسيني فى كتابه المسألة المصرية ص ١٦٨ وأدناه إلى الحق إذ قال :

« اتنا ارتكبنا فى هذا الصدد خطأين . اولهما أننا جعلنا التدخل فى مصر مقصوراً على أنفسنا وعلى الإنجليز . والعمل الثانى هو فى ذاته عمل متعب وخاصة اذا كان بين شريكين يختلفان فى الطباع والمناهج ووجهات النظر مثل فرنسا وإنجلترا ولا بد فى مثل هذه الاتفاقات من ضحية ، وكان من الواجب علينا أن نشرك معنا الدول الأخرى ، وتتخذ فى هذه المسألة وسائل مالية على النحو الذى حدث فى انشاء صندوق الدين والمحاكم المختلطة أو كما حدث بعد ذلك فى قانون التصفية . أما الخطأ الثانى فأننا أسرفنا فى جعل سياستنا تابعة للمسألة المالية فانه وإن كان يحسن بالحكومة أن يحى مصالح =

ما نصه : « إن ما أدخل من التحسينات على المشروعات العامة التي ابتدأت



المسيو دو فرسينيه وزير خارجية فرنسا سابقا
وصاحب كتاب المسألة المصرية

رعاياها لكن الحالة تختلف اذا كان أصحاب الديون لا يكتفون ما تنطوى عليه أعمالهم
للمسألة من المغامرة . ففي هذه الحالة لا يطلب من الحكومات أن تتدخل في شؤون
الدول الأخرى إلى هذا الحد . فتحن لم نحارب تركيا أو البرتغال أو البلاد الأخرى
التي توقفت عن أداء أقساط ديونها ، فلماذا كنا قساة نحو مصر مع أنها كانت أقل
اخلاقا بتعهداتها المالية من تلك الدول ؟ »

إرهاق البلاد وإعانتها

وفي أواخر سنة ١٨٧٦ دخل النظام الجديد في دور التنفيذ . ولا تسلم عما مر
البلاد من ضروب الإعانت ولا مصادفه الفلاحون والمنتجون من شتى أنواع
الإرهاق في سبيل الحصول على أقساط الكوبون . نعم دفع كوبون يناير سنة ١٨٧٧
في ميعاده المقرر ولكن ذلك لم يكن على حساب تخفيض مصروفات البلاط والحريم
إلى أدنى حد فحسب بل وتأجيل دفع مرنبات معظم موظفي الحكومة وحل جزء من الجيش
وهذه المسألة الأخيرة ينبغي ألا تقوت القاري . متى تذكر ما انتشر في الجيش من
أسباب التذمر والتبرم بأعمال الموظفين الأجانب على نحو ما سنبينه فيما بعد .

وتمت في خلال الأثنى عشر عاما الماضية كان فوق الوصف » واعترف
مراسل التيمس (٦ يناير سنة ١٨٧٦) بفضل اسماعيل فقال مانصه :
« تعتبر مصر مثالا باهرا للتقدم . فلقد فاق تقدمها في سبعين سنة تقدم
كثير غيرها من الممالك في خمسمائة عام » .

ولكن لم يكن يستطيع أن يكفي هذا التقدم ولا المكاسب لدفع

== وإذا رأت المراقبة الثنائية أن ما لجأت إليه من وسائل العنف والأرهاق لا يكفل
تجهيز كوبون بولية سنة ١٨٧٧ في مياده فقد اضطرت إلى زيادة رسوم الجمر بالاسكندرية
بنسبة ١٠٠٪ . وزيادة أجور الشحن بالسكك الحديدية بهذه النسبة وغيره وغيره
بما كانت نتيجته الاخفاق في تحقيق النتيجة التي كانت المراقبة تعمل لها . لأن الزيادة
الجرمكية وأجور الشحن أدت إلى نقص الواردات وتحول الناس عن السكك الحديدية
إلى الشحن بالسفن في النيل . ولكن هذه الاجراءات حفزت أعضاء المراقبة إلى تضيق
الخنق على الفلاحين وخاصة في المديرية المخصص لإيرادها الدين وذلك برغم
تحذيرات الخديو ولفته نظر أولئك الأعضاء إلى أنهم بتعنتهم هذا يسوقون البلاد سريعا
إلى الهاوية .

وفد دفع كوبون بولية بتمامه . ولكن القنصل الانجليزي العام أرسل في صده
إلى حكومته يخبرها بأن مصر قد دفعت في خلال ثمانية أشهر ما يقرب من ستة ملايين
من الجنيهات وهي شهادة ناطقة بحسن النظام الجديد . ولكن أخشى أن نكون قد حصلنا
على هذه النتائج بعد هلاك الفلاحين بسبب بيع حاصلاتهم قبل حصادها قسرا وجباية
الضرائب مقدما قبل مواعيدها . هذا فضلا عن أن مرتبات الموظفين الوطنيين التي يعد
دفعها بانتظام شرطا أساسيا لحسن الإدارة قد أجل دفعها لسداد الكوبيون . وبهذا
تكدر ما للمستخدمين من متأخرات ؟ بل إن مراسل التيمس اضطرت أن يحذر المستر
رومين « ألا ينسى الفلاحين في غمرته على مصالح الدائنين وإلا رأى نفسه يوما ما قد
جاوز حدود قدرة البلاد على الإنتاج » .

وكانت نتيجة هذا الأرهاق أنه قبل أن يمضي عام واحد على تنفيذ مشروع غوشن جوير
كانت حركة البلاد قد أصبحت مشلولة . ففي سنة ١٨٧٧ بلغ إيرادها العام ٩٥٤٣٠٠٠
جنيه ذهب منه للدائنين ٧٤٧٣٠٠٠ جنيه . فإذا خصمت مبلغ الجزية وفوائد أسهم
قناة السويس لا يكاد يتبقى مليون جنيه واحد لإدارة شؤون البلاد .

اقساط الصفقات التي عقدها اسماعيل مع المالين الأجانب . وسرعان ما أصبح مركز مصر من الحرج حتى صار شبيهاً بمركز متجر صغير وطيد



لورد كرومر

== من أجل ذلك اضطر المستر فيفيان قسّل بريطانيا العام أن يكتب إلى حكومته يخبرها بأن الخزنة قد باتت خاوية على عروشها . وأن مرتبات الجنود وموظفي الحكومة لم تدفع منذ أشهر وأن البؤس والشقاء يخيمان على البلاد التي أصبحت حركتها مشلولة . وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٧٧ حل ميعاد الكوون فأجل دفعه إلى أسبوعين . وهنا وجد المستر رومين — وكان كما قلنا قاضياً يدفعه ضميره إلى التسديد بالمظالم — أن الوقت قد حان لكتابة مذكرة مطولة لحكومته أثبت فيها أن الضرائب التي يدفعها الفلاحون فاقت كثيراً مقدرتهم الاقتصادية .

وكانت مذكرة المستر رومين خليقة برفع الغت عن كاهل الأهالي وخاصة وأن كاتبها كان مراقب الإيرادات ، أي أنه يعلم جيداً ما يكتب . ولكن الماجور بارنج (لورد كرومر فيما بعد) — ووظيفته كانت في صندوق الدين كما تعلم — رأى أن يكتب مذكرة يعارض فيها ما ذهب إليه المستر رومين وراح يزعم أن الضرائب المفروضة على فلاحى مصر لاتعتبر باهظة إذا قيست بالضرائب في البلاد الأخرى ==

الدعائم اضطر صاحبه في سبيل تنمية أعماله إلى الاستدانة من المرائين
الأسافل. أما أن اسماعيل مالت نفسه كما مالت نفوس معاصريه من أمراء

== وخشية من أن تجد مذكرة المستر روهين نقطة حساسة في قلوب الدائنين المتحجرة
فان الماجور بارنج اتفق هو وزميله المسيو دوبلنير العضو الفرنسي في صندوق الدين
على السفر إلى أوروبا لمباحثة الدائنين وإقناعهم بوجوب ابقاء الحالة على ما هي عليه
وعدم التأثير بملاحظات المستر رومين.

الديون المحلية والمحاكم المختلطة

وقد مر بك ما بذله اسماعيل من الجهود لحل الدول على الموافقة على إنشاء نظام
المحاكم المختلطة لوضع حد للقوضى الضاربة أطنامها في مصر من جراء استغلال الامتيازات
وإساءة استخدامها في القطر المصري . وقد كانت الحكومة المصرية اقترضت من
الأجانب المقيمين في مصر بعض قروض يجمعها كلها ما يسمى بالديون السائرة . فلما
جاء موعد سدادها في أواسط سنة ١٨٧٧ وحالة مصر المالية كما شرخناها هنا أخذ
أولئك الأجانب يجأرون مطالبين بالسداد . فلما لحظوا شيئا من التلكؤ الناشئ لا عن
سوء النية بل عن العجز عن الدفع هددوا بالالتجاء إلى المحاكم المختلطة. ومن ثم اضطر
اللورد فيفيان بناء على تعليمات حكومته أن يخطر الحكومة المصرية في أغسطس سنة
١٨٧٧ بأن الدائنين سيلجأون إلى استعمال حقهم وهو الشكوى للمحاكم المختلطة ومن
ثم تجد الحكومة نفسها أمام جملة أحكام قضائية تعين عليها تنفيذها جميعا وفورا وإلا أحدث
أسوأ تأخير في نفس الحكومات التي أيدت إدخال ذلك الإصلاح القضائي .

وهكذا شاء القدر الساخر ألا يمضي عام ونصف عام على ما بذله اسماعيل من جهود
وأموال لا إنشاء هذه المحاكم المختلطة حتى تصبح سبعا مضاعفا يستعمله لورد فيفيان لحل
اسماعيل على أداء الدين وفعلا بدأت الدول تلجئ في وجوب أداء هذه الديون وكانت
ألمانيا أشدها إلحافا بفضل تشدد البرنس بسمارك .

لجنة التحقيق العليا

٢٧ يناير سنة ١٨٧٨

ويظهر أن الماجور بارنج والمسيو دوبلنير لما سافرا إلى أوروبا أفهما حكومتهما
أنه برغم ما وقعت فيه مصر من الارتباك لا تزال توجد موارد مالية أخرى يصبح أن==

الشرق إلى استغلال ما استدانته دولته من الرأسماليين الأجانب الذين لم تكن معاملتهم لمصر أفضل من معاملتهم لغيرها من الدول الشرقية فأمر مفهوم . ولكن اسماعيل كان متفقاً في أساليب المالية العليا ووصل في الأمام

== تمتد إليها أيدي المراقبين . فكان من جراء ذلك أن قررت الحكومات إجراء تحقيق في المالية المصرية تتولاه مايسمونه لجنة التحقيق العليا .

فلما عاد بارنج ودوبلنير إلى القاهرة قدما لاسماعيل يوم ٩ يناير سنة ١٨٧٨ ذلك الاقتراح الذي يمكنك أن تتصور وقعه عليه . على أنه وافق بشرط ألا تتجاوز اللجنة البحث عن موارد جديدة . ولكن الدائنين لم يقبلوا شيئاً من هذا بل طلبوا البحث في مصروفات الحكومة أيضاً عليهم يجدون وسيلة لتخفيضها إلى الحد الأدنى الذي يضمن دفع الكوبونات .

وبالجملة فإن الاقتراح الجديد كان في مجموعه أشبه شيء بطلب تعيين وصى على قاصر وحسبك أنه يضع ميزانية البلاد في أيدي الأجانب ويسمح لهم بالتصرف كما يشاؤون في أمور البلاد . أو بالأحرى كان بمثابة وضع مصر تحت الحماية الأوربية المشتركة وفي ذلك مافيه من القضاء على استقلالها وكيانها .

== على أن اسماعيل ظل يقاوم هذا الاقتراح ولكن اللورد غوشن بدأ يلجأ إلى التهديد فنشرت له التيمس في أوائل يناير سنة ١٨٧٨ تصريحاً بأننى سأبذل ما في وسعى ونفوذى للقضاء على محاولة الحكومة المصرية حصر دائرة التحقيق . ثم أخذت التلغرافات الواردة من باريس تلوح باسم الأمير حلیم باشا عم الخديو وإمكان إعادته إلى العرش الذي يطالب به .

لا بل أن اللورد غوشن هدد اسماعيل في خطاب آخر أرسله إلى النيمس باتخاذ إجراءات معينة في مؤتمر برلين المقبل حيث ستتناول المناقشة بلا ريب مركز مصر . ومع أنه كان يصعب على الإنسان التأكد من إمكان تنفيذ هذه التهديدات الغامضة إلا أن الخديو كان على ما يلوح قد استولى عليه الهم من توالى هذا الانذارات والتهديدات فأصدر في يوم ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ مرسوماً بتأليف لجنة أوربية للتحقيق في أسباب العجز في الإيرادات وأوجه النقص في القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب ووسائل إصلاحها وتحقيق موارد الميزانية عن سنة ١٨٧٨ مع تحويل اللجنة حق الاتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع من ترى لزوماً لسماعه لجمع البيانات التي تطلبها .

بمختلف ألغازها وأسرارها إلى غور بعيد يحسده عليه كثير من أمراء الشرق

== ولما واصل الدائنون تهديداتهم وتدخلت فرنسا وانجلترا لمصلحتهم وأصرتا على أن تتناول تحقيقات اللجنة الإيرادات والمصروفات أصدر الخديو في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ مرسوما آخر بتعميم اختصاص اللجنة وفرض على الوزراء وسائر موظفيها تزويدها بما تطلبه من البيانات وتقديمها إليها رأسا وبلا إبطاء .

وقد عين هذا المرسوم الأشخاص الذين تألف منهم اللجنة ولكن الأجانب المحلين طالبوا بتعيين مندوبى صندوق الدين وبعثوا إلى ممثلى الدول العظمى عريضة كتبت بلهجة بذئنة حللوا فيها حملة شعواء على الحكومة المصرية وبلغ من قبحها أن تحصل بريطانيا العام رفض استلامها .

ولكن اسماعيل لم يعر سفاهة السفهاء أى التفات وكان أكبر همه أن يكون بين أعضاء اللجنة رجلا انجليزيا وآخر فرنسيا يكنى اسمهما لبعت الثقة لدى حكومتى لندن وباريس . ولذا اقترح تعيين الجنرال غوردون وفردينان دلسبس . فبادرت فرنسا بالموافقة بينما اعترض اللورد فيفيان باسم حكومته على طلب تعيين الجنرال غوردون بحجة أنه « رغم مايتحلى به من الصفات السامية والمقدرة الممتازة فإنه لا علم له بالشؤون المالية » .

كفاح غوردون من أجل اسماعيل

عما يدلك مرة أخرى — إن كنت فى حاجة إلى دليل جديد — على أن تعيين غوردون فى منصبه الكبير كان بمحض إرادة اسماعيل أن الخديو — بعد أن ضاق صدره بما كان يراه من تهجم الدائنين على سلطته وبعد إصدار المراسيم الخاصة بتعيين لجنة التحقيق العليا لجأ إلى صديقه غوردون يستدعيه إلى القاهرة ليكون إلى جانبه فى الساعات العصية التى كانت تمر بها البلاد .

وقد وصف غوردون بقلبه البليغ وبعبارات مؤثرة كيفية وصوله إلى القاهرة وتأثره بما طالع فى تقرير بعثة كيف عن جشع الدائنين وما جرته الفوائد الفاحشة على البلاد من الخراب واعتزاه الدفاع عن اسماعيل إلى آخر قطرة من حياته ورد مطامع الدائنين مهما كلفه ذلك ومقابلته لقناصل الدول وتحذيرهم له من قبول رئاسة لجنة التحقيق بدون أن يشرك معه مندوبى صندوق الدين ومقابلته للسير افلن بارنج وعدم اتفاقهما فى الرأى وما أبداه من النصح له — يو بألا يدفع الكوبون بل يبادر بدفع ==

والغرب ثم إنه كان يفحص بنفسه تفاصيل كل صفقة على حدة . بل بلغ به

==المراتب المتأخرة للوظفين وتبرم اسماعيل به لا تخفاه في حمل إنجلترا على قبول وجهة نظره ، ذلك لأن المستر فيفيان تسلم من لورد دربي برقية يكلفه فيها بأن يشترك مع زميله القنصل الفرنسي في ابلاغ الخديو بأن حكومة جلالة الملكة ترجو ألا يفعل سموه شيئاً إلا بالاتفاق مع الدائنين .

تشكيل اللجنة ومواصلة اجتماعاتها

وإذ ذلك لم يجد الخديو مناصاً من الاذعان لرغبة أوربا المتحدة . فتعين المسير دلسبس رئيساً والسير ريفرز ولسن ورياض باشا وكيلين وأعضاء صندوق الدين وهم بارفيللي وبارنج ودوبلنير وفون كريم .

ثم عقدت اللجنة أول اجتماع لها في ١٣ ابريل سنة ١٨٧٨ وأخذت تواصل اجتماعاتها وأصبحت الرأسة الفعلية للسير ولسن نظراً لكثرة تغيب دلسبس في باريس . ووقعت أزمة وزارية انتهت باستقالة شريف باشا (ناظر الخارجية والحقانية) لرفضه المثول أمام اللجنة وإصراره على أن تكون أجوبته على أسئلتها بطريق المكاتب .

ثم حل ميعاد دفع كوبون شهر مايو سنة ١٨٧٨ فاقترح المستر رومين والمستر فيفيان تأجيله ولكن فرنسا أصرت على دفعه في ميعاده تماماً في الساعة التاسعة يوم أول مايو فدفع بتأجيله وفي ميعاده . ولكيما تعرف بأية طريقة دفع هذا الكوبون فإليك ما كتبه المستر فيفيان إلى رئيسه إذ أخبره : إن الادارة الأوربية ربما كانت تعمل بغير علم على خراب الفلاحين خراباً تاماً وهم هم مصدر ثروة البلاد . وعندى أننا معشر الإنجليز لمسؤولون مسؤولية كبرى عن هذا التخريب . ،

اللجنة تقدم تقريرها

ولما انتهت اللجنة من أبحاثها وضعت تقريراً أرسلته للخديو وطلبت فيه تنازل بعض الأمراء والأميرات عن جزء من أملاكهم لسد عجز قيمته ٩٢٤٣٠٢٦٣ جنيه وكلفت الخديو بدفعه وهو يشمل أولاً مبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه قيمة مطلوبات متأخرة على الحكومة لتجار ومقاولين ورواتب متأخرة للوظفين وأرباب المعاشات ، ثانياً مبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه عجز في ميزانية ١٧٧٨ وثالثاً مبلغ ٣٨١٠٢٦٣ جنيه عجز في ميزانية سنة ١٨٧٩ .

الأمر أنه طرد نوبار وأبعده عن خدمته عدة سنوات لأنه تبين له أنه قدر الفائدة على أحد القروض بسعر ١٤ ٪. وأنه كان يخصم سندات الخزانة

== ثم طلبت اللجنة كذلك إحداث تغيير في نظام الحكم وأن ينزل الخديو عن سلطته المطلقة ولكن لا لممثلي الشعب المنتخبين كما قد يتبادر إلى الذهن أول وهلة بل لوزارة كانت في الاسم تحت رئاسة ناظر مصرى وهو نوبار باشا على شريطة أن ينضم إليها السير ريفرز ولسن كناظر للمالية .

الخديو يقول

إن بلادى لم تعد في أفريقيا

في يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ تشرف السير ولسن بمقابلة الخديو لاستطلاع رايه في الموقف السياسى والمالى بعد الاطلاع على تقرير لجنة التحقيق . فأدلى إليه سموه بتصريحه الخالد الذى تقتبس منه هذه الفقرة المهمة كما ذكرها الأستاذ الرافعى بك :
« فيما يتعلق بما انتهت إليه من النتائج والمقترحات فأنتى أتقبلها إذ من الطبيعى أن أفعل ذلك . فانتى أنا الذى رغبت في هذا العمل لصالح بلادى . وعلى الآن أن أفقد هذه المقترحات . وكن على يقين بأنتى عازم على ذلك عزماً جدياً . إن بلادى لم تعد في أفريقيا بل نحن الآن قطعة من أوروبا فطبيعى أن نطرح الاستعلاء وأن نسير على نظام يتفق وحالتنا الاجتماعية . وسترى عن قريب تغييرات هامة تحدث بأسهل مما يظنون وقوامها وضع الأمور في نصابها واحترام القانون . ومن الواجب ألا نكثر في الكلام . وأنا من جهتي قد اعتزمت أن أتوخى الحقائق العملية وإني بادىء عملي بتكليف نوبار باشا أن يؤلف لي وزارة لكي أفتح بها العهد الجديد وأظهر مبلغ ما أنا عازم على عمله .

« وقد يبدو أن هذا التغيير ليس من الأمور الهامة ولكن ترون أنه إذا حسن فهمه سينشأ منه الاستقلال الوزارى . وليس هذا بالأمر الهين فإنه أساس نظام جديد في الحكم الخ الخ .

مراعى السياسة الإنجليزية .

قلنا إن السير ريفرز ولسن كان يرأس جلسات لجنة التحقيق في أغلب الأوقات وكان هو صاحب الرأى الأول في اجراءاتها وتصرفاتها التى كانت ترمى إلى تمكين النفوذ البريطانى في مصر وأقصاء النفوذ الفرنسى تدريجاً .

في الوقت عينه بسعر ٣٠ ٪. فكيف أمكن اسماعيل مع عليه هذا وعلو

= واستطاعت السياسة الانجليزية أن تقنع فرنسا بالنظام الذي يحل محل المراقبة الثنائية وهو تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا كما استطاعتا إبعاد البحث في المسألة المصرية من أجندة أعمال مؤتمر برلين الذي كان منعقدا وقتذاك . كذلك اتفقتا على تقسيم نفوذهما في الوزارة المصرية .

على أن هذا الاتفاق جاء في مصلحة إنجلترا أكثر مما جاء في مصلحة فرنسا . وقد أقنعت تصرفات السير ريفرز ولسن أثناء التحقيق فحصل فرنسا العام في مصر وهو البارون دى ميشيل بأن الأمور سائرة لخدمة مصالح إنجلترا مما جعله يكتب إلى حكومته كما ذكر المسيو دوفريسينيه - ما نصه : « فهذه الأعراض - يقصد تصرفات السير ريفرز - جعلتني قليل الثقة في مقاصد حلفائنا . فان المسألة موضع النظر ليست في الواقع مصالح الدائنين وتسوية الشؤون المالية بل صارت تتناول مصير مصر بأكمله . من أجل ذلك يبدو المستقبل أمامي في صورة تدعو حقا إلى أشد القلق . »

وكان من رأى القنصل المذكور إحلال نظام أوربي مشترك محل المراقبة الثنائية بعد إلغائها . فقد قال : « إن المراقبة الثنائية كان يمكن أن تؤدي إلى اتفاق سعيد . ولكن ما دام الضعف قد وصل بنا إلى ترك الانحلال يتطرق إليها - وكل الدلائل تدل على أن الانجليز عادوا إلى مطامعهم الذاتية واستثارهم بالمنافع - فقد حان الوقت لنطرح الضعف جانبا وننظر إلى الأمور نظرا أعلى فنعرض على ممثلي الدول المجتمعين الآن في مؤتمر برلين جعل مسألة مصر مسألة دولية . »

ولكن تحذيرات القنصل الفرنسي وقعت على آذان صماء لأن المسيو وادنجتون وزير الخارجية كان ضعيف الرأي فترك الأمور تجري على غارها مكتفيا بأن يكون المسيو دوبلنير مندوب فرنسا في صندوق الدين ووزيراً للأشغال في الوزارة المختلطة .

إنشاء مجلس الوزراء

وفي يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أي بعد خمسة أيام من مقابلة السير ولسن للحديدو أصدر اسماعيل أمره بإنشاء مجلس النظار وتخويله مسؤولية الحكم . وقد عهد إلى نوبار بتشكيل الوزارة على هذه القاعدة .

ومن ذلك الحين صار ذلك الأمر أساس نظام الحكم في القطر المصري ولذا نرى أن ثبتته هنا لأهميته . وقد صدر بالفرنسية ونشرته جريدة المونيتور اجبسيان بعددها ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٨ وترجم إلى العربية ضمن وثائق الحكومة .

كعبه وخبرته النادرة أن يقع في الارتباك الذى أوقع فيه نفسه بهذا العمر ك موضوع خليك لا يبحث رجال السياسة بل يبحث علماء البسيكولوجيا

خطاب الحديو لنوبار باشا

« وزيرى العزيز »

« إلى أطلت الفكرة وأمعنت النظر فى التغييرات التى حصلت فى أحوالنا الداخلية والخارجية الناشئة عن تقلبات الأحوال الأخيرة وأردت فى وقت مباشرتك للمأمورية تشكيل هيئة الوزارة الجديدة التى فوضت أمرها إليكم أن أؤكد لكم ماتوجه قصدى إليه وثبت عزمى عليه من إصلاح الإدارة وتنظيمها على قواعد ماثلة للقواعد المرعية فى إدارات ممالك أوروبا . وأريد عوضاً عن الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة المصرية سلطة يكون لها إدارة عامة على المصالح تعادلها قوة موازنة فى مجلس الوزراء . بمعنى إلى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً باستعانة مجلس الوزراء والمشاركة معه . وعلى هذا الترتيب أرى أن اجراء الإصلاحات التى نهت عليها يستلزم أن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلاً فان ذلك أمر لازم لا بد منه . »

« يجب على مجلس النظار أن يتفاوض فى جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطرويرجع رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل عدداً فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الأغلبية وبتصديق عليها اقرار الرأى الذى تكون عليه الأغلبية .

« يتعين على كل ناظر من النظار أن يجرى قراراته المجلس المصدق عليها منا فى الإدارة المنوطة به

« تعيين المديرين والمحافظين ومأمورى الضبطيات يكون بالمداولة بين الناظر التابعين هم لآدارته وبين رئيس المجلس وما يستقر عليه الرأى يعرض علينا بواسطة رئيس المجلس لأجل تصديقنا عليه .

« الناظر الذى يكون المأمورون وأرباب الوظائف السالف ذكرهم تحت إدارته مباشرة له الحق فى توقيفهم عند الاقتضاء عن اجراء وظائفهم وذلك بعد اتفاقه مع رئيس هيئة النظار . وأما انفصالهم عن وظائفهم فلا يكون إلا بعد اتفاق الناظر التابعين له مع رئيس المجلس والتصديق عليه منا .

« للنظار أن ينتخبوا المأمورين ذوى المناصب العالية اللازمين لآدارتهم وأن يعرضوا ذلك علينا للتصديق عليه منا . وأما الوظائف الصغيرة فيكون تعيين المستخدمين اللازمين لها مخطاب أو قرار من ناظر الديوان .

وبالاختصار كان مستنقع الدين الذي أوقع اسماعيل نفسه فيه سحيقا لا قرار له .
وتدل قائمة الديون التي اقترضتها الدولة من بيت آل غوشن (في سنة ١٨٦٢
وسنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦) وفي بيت آل ييشو فسهايم (في سنة ١٨٧٠)

== أعمال كل ناظر تجرى في الأمور التي تكون من خصائصه لا غير وأرباب الوظائف
والمستخدمين في كل فرع من فروع الإدارة لا يتلقون الأوامر إلا من رئيس المصلحة
التي هم مستخدمون بها وتابعون لها ولا يجب عليهم طاعة أمر غيره .
• ينعقد مجلس النظار تحت رياستكم لأنني فوضت هذا التنظيم الجديد تحت عهدكم
وجعلت مسؤوليته عليكم .

• ولأنني أرى تشكيل هيئة نظارة حائزة لهذه الخصوصيات ليس مخالفاً لعوائدنا
وأخلاقنا ولا لآرائنا وأفكارنا بل موافقا لأحكام الشريعة الغراء وبتعميم ترتيب
محكم الحقاينة تكون فيها الكفاءة لحاجات هيأتنا الاجتماعية والمساعدة على تسييم مقاصدنا
الحقيقية ونياتنا الخيرية .

وأن معتمد عليك في اجراء الإصلاحات التي صممت عليها مؤملا أن تكفل للبلاد
جميع التأمينات التي لها الحق في انتظارها والحصول عليها من حكومتنا .
٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ اسماعيل ،

ولعلك تلاحظ ما في هذا الأمر من المسائل الجوهرية وهي :
أولا : إن مجلس النظار هو هيئة مستقلة عن ولي الأمر تشاركه في الحكم وتحتمل
مسؤوليته .

ثانيا : إن أعضاء مجلس النظار متضامنون في المسؤولية الوزارية .
ثالثا : إن قراراته بالأغلبية .

رابعا : إن رئاسة المجلس من حقوق رئيس المجلس فلا يرأسه الخديو .
ومنذ ذلك الحين ظل هذا الأمر دستور الحكومة إلى أن ألغى الخديو توفيق باشا
مجلس النظار مؤقتا بعد استقالة شريف الثانية بمقتضى الأمر الصادر في ١٨ أغسطس
سنة ١٨٧٩ وعين نظارا منفصلين تحت رأسته هو . ثم أعاد هيئة المجلس بتكليفه رياض
باشا تأليف الوزارة في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وحفظ لنفسه في كتابه لرياض باشا
الحق في حضور جلسات مجلس النظار وتولى رأسته عند الاقتضاء .

وفي بيت آل روتشيلد (في سنة ١٨٧٩) على أن مصر لم تتسلم من الديون
التي استداتها وقدرها ٧٧ مليون جنيه إلا نحو ٥٠ مليون جنيه فقط كذلك



السير ريفرز ولسن وزير المالية

== وجرت العادة منذ ذلك الحين بأن تعقد جلسات المجلس تارة برأسه ولى الأمر
وطورا برأسه رئيس النظار .

نوبار باشا يشكل الوزارة المختلطة

تنفيذا لأمر الخديو شكل نوبار الوزارة المختلطة كما يأتي :

نوبار باشا رئيسا لمجلس النظار وناظر الخارجية والحقانية

رياض باشا للداخلية

راتب باشا للحرية

السير ريفرز ولسن للمالية

المسيو دوبلنير للأشغال

على باشا مبارك للمعارف والأوقاف

وبتشكيل الوزارة وقف العمل مؤقتا بنظام المراقبة الثنائية ووافق الخديو على

إعادتها حتما إذا فصل أحد الوزيرين الأجنيين بدون موافقة حكومته .

كان صافي ما تسلمته من أحد القروض المعقودة في بيت آل أوبنهايم (في سنة ١٨٧٣) دون ١٨ مليون جنيه مع أن الدين قدر بـ ٣٢ مليون جنيه



المسيو دوبلنير وزير الأشغال في الوزارة المختلطة

قرض الدومين

قبل أن يتربع السير ريفرز ولسن في منصبه الجديد كناظر للبالية شذر حال السفر إلى باريس لمفاوضة بيت روتشيلد في عقد قرض جديد قيمته الأسمية ٨٥٠٠٠٠٠ ر. ٨٥٠٠٠٠٠ ويعرف بقرض الدومين ورهنت في مقابله الأملاك التي تنازل عنها بعض أفراد الأسرة الخديوية ومقدارها ٤٢٥٧٢٩ فدان وعهد بإدارتها إلى لجنة مختلطة تسمى قومسيون الدومين وهي مؤلفة من عضو مصري وعضو انجليزى وثالث فرنسى .

وتعهد السير ريفرز لبيت روتشيلد بأداء كوبون نوفمبر سنة ١٨٧٨ في ميعاده ولو من أصل القرض الجديد إن اقتضى الحال وبعدم البحث في تخفيض فوائد الديون قبل انتهاء عام سنة ١٨٧٨

وقد تسأل عما خسرته مصر من هذا الدين فهاك تفاصيله :

فأولا : لم تسلم من الـ ٨٥٠٠٠٠٠ ر. ٨٥٠٠٠٠٠ جنيه إلا ٥٩٩٢٠٠٠ ر. ٥٩٩٢٠٠٠ جنيه فقط أى أن الدائنين أقطعوا من القرض ٢٥٠٠٠٠٠ ر. ٢٥٠٠٠٠٠ جنيه لأن أسهمه صدرت بسعر ٠.٧٣ . هذا عدا السمسة والمصاريف .

وبلغت أقساطه السنوية ٥٠٠.٠٠٠ ر ٣٥٠٠ جنيه. أما الصفقات التي لم تكن لها صبغة رسمية فكان الغرم فيها على مصر أفدح من ذلك بكثير. ولعمري إن مصر لم يسبق أن انتهت بهذا الشكل المعدوم النظير بواسطة الشعب المختار.

ثانياً : بلغت الفائدة ٠.٧٪

ثالثاً : لما حل ميعاد كوبون نوفمبر صمم السير ريفرز على دفعه . فلما رأى أنه ينقصه أكثر من مليون وربع جنيه سحب العجز من القرض الجديد لإرضاء للدائنين . رابعاً : سحب السير ريفرز مليون جنيه من القرض لتسديد قسط الرهن على الدائرة السنوية .

خامساً : دفعت الجزية من القرض المذكور .

وأخيراً لم يبق معه بعد كل هذا من القرض لأصحاب سندات الدين السائر سوى ٥٠٠.٠٠٠ ر ٢٣٠٠ جنيه ومع ذلك رفض بيت روتشيلد دفع هذا المبلغ ما لم تعف الدائرة السنية المرهونة للأجانب من الضرائب .

ولم يفكر ناظر المالية في صرف شيء من المرتبات المتأخرة للوظفين الأجانب كما أهمل شأن دائني الحكومة الخصوصيين بل لم يخصص شيئاً لمرافق الدولة .

وكان تحصيل الضرائب في الأرياف يجرى في أثناء ذلك بتمتة القسوة مما دفع الناس إلى الشكوى والتذمر وانحدر إلى القاهرة كثير من عمد البلاد ومشايخها وقد حاصروا أبواب الوزارات ويدهم العرائض لتخفيض الضرائب وهم يرقبون دخول الوزراء وخروجهم .

وفي أثناء عهده الوزارة التي كان الشعب يعرف أنها وجدت للأجانب ولمصلحة الأجانب استأنفت لجنة التحقيق أعمالها بدعوة من الوزارة نفسها مع تخويلها سلطة أوسع مما كان لها من قبل وهي وضع المشروعات المالية للبلاد .

وفي ٦ يناير سنة ١٨٧٩ أصدر الخديو مرسوماً فهم الناس منه أن لجنة التحقيق باقية إلى ما شاء الله وأنها أصبحت لجنة دائمة خاصة بوضع التشريع للبلاد مما تارت نائرة الشعب وكان موضع اعتراض مجلس شورى النواب .

وفي الوقت الذي جعلت الوزارة تقصى فيه الموظفين المصريين وتعزل منهم من تشاء بحجة الاقتصاد راحت تعين طائفة كبيرة من الأجانب بمرتبات باهظة . كل هذا في حين أن مستوى النيل هبط إلى درجة ضاعفت من ضيق الأهالي وكربهم .

وفضلاً عما تقدم فإن قسماً كبيراً من هذه الديون عاد من فوره إلى الخارج بصفة مكاسب ناتجة عن المقاولا الأجنبية . خذ مثلاً أعمال ميناء



لورد سلسبرى
وزير خارجية بريطانيا سابقاً

وكانت الوزارة تبالغ في غل سلطة الخديو وتلج في إقصائه عن جلسات مجلس الوزراء إجابة لتعليمات حكومتى باريس ولندن بحجة أن حضور سموه لجلسات المجلس المذكور يعطل الإصلاحات التى كانت تبغها الوزارة .
ثم وقر في نفس حكومتى لندن وباريس أن اسماعيل لا يولى الوزارة عطفه الكلى ولذا أرسل لورد سلسبرى — وكان قد حل في وزارة الخارجية عل لورد دبرنى — إلى لورد فيفيان خطاباً كلفه باطلاع سموه عليه . وهو كما يأتى :

الاسكندرية فهمى خير دليل على صحة ما نقول لأن البناء وضع تصميمه وأنجزه مقاولون انجليز أكفاء . فقد قدرت نفقات هذه الأعمال بمبلغ

== « الحكومة جلالة الملكة مطلق الثقة في موارد البلاد وليس يخامرها أى شك في نجاح النظام الجديد فيما لو جرب تجربة عادلة . فإذا ما أقيمت العقوبات في سبيله من الجالسين في كراسى الحكم أو حتى إذا أظهروا شبه ميل للتشكيك فيه فإن متاعب نوبار باشا ومستشاريه ستضعف كثيرا تبعا لذلك ومن ثم يعرض المسؤولون عن فشل تلك الوزارة أنفسهم لما يترتب على هذا الفشل من العواقب الوخيمة . »

بين اسماعيل باشا وفيقيان

وهنا حدثت مناقشة هامة تمس صميم الحكم الدستوري لا نرى بأسا من ذكرها . ذلك أن سموه لما اطلع على هذه الرسالة أظهر امتعاضه منها وأسف لأن حكومة جلالته استعملت هذه الالفة ضده بغير سبب ولا مبرر . لأن المسؤولية التي أرادوا تحميله إياها لم تكن معقولة ولا منطقية . ثم راح يحدث القنصل العام كما جاء في كتاب « مصر الحديثة » عما آل اليه مركزه في بلاده قائلا : « إنه قل النزول عن سلطته المطلقة وشكلت وزارة تشترك معه في الحكم فإذا كان لا يخطئ . فهم المبادئ الأولية للحكومة الدستورية فإن المسؤولية عن شؤون الدولة تقع على النظار لا على رئيس الدولة . وقد تحاشى التدخل في أعمال الوزراء . ثم إنه كان على استعداد لأبداء النصيحة لوزرائه إن طلبوها دون أن يسعى إلى فرضها عليهم . فإن لم يكن الوزراء مسؤولين عن أعمالهم فمن عسى أن يكون المسؤول وإذن ما معنى المسؤولية الوزارية ؟ حقا إنه يكون مسؤولا فيما لو حاول التدخل في عمل حكومة البلاد . أما وهو لم يفعل ذلك فلا يمكن تحميله أية مسؤولية . »

وليس يسع منصفاً أيأ كان ألا يعترف ان الحق كان في جانب اسماعيل . فالموقف لم يكن يسمح إلا بأحد احتمالين . فاما أن يكون هناك حكم دستوري بالمعنى الصحيح وإذن فالوزارة وحدها هي المسؤولة وإذا ذلك لا يطلب من رئيس الدولة إلا أن يقف في معزل عنها وهو ما حرص عليه اسماعيل وإذن فلا غبار عليه . ولما أن يكون الأمر بالعكس وإذن فلا بد من اشتراك الخديو في الحكم ليكون مسؤولا عن إدارة البلاد بنسبة اشتراكه في حكمها . أما أن يطلب إليه الاتعاد عن الحكم ثم يطالب في==

٣٠٠٠٠ ر. جنيه بينما كان من رأى السير « ريفرز ولسن » ان نصف هذا المبلغ كان كافياً لإنجازها . ومع ذلك فان الأحاح في دفع نفقات هذه المقالة هو الذى عجل بحدوث الأزمة النهائية .

== الوقت نفسه يبذل النصح لوزرائه دون أن يستشيروه حتى إذا قامت أمامهم مصاعب ما تحمل هو التبعة فليس في ذلك شيء من الانصاف .

ولذا كان جواب لورد فيفيان على حديث اسماعيل المفهم جواب مداورة فقد قال : « إن سموه لا يفوته أنه وان كان حقيقة تنازل عن سلطته المطلقة وأعلن الحكم الدستورى في مصر الا أن النظام الجديد ما يزال في دور الطفولة وأن الوقت لم يحن بعد لتطبيق مبدأ الحكم الدستورى كما هو مفهوم في أوروبا . وبرغم ما حدث فلا يزال سموه يتمتع بكل ما لرئيس دولة شرقية من الهية والنفوذ مقرونا بالخبرة ومعرفة شؤون دولته أكثر من أى شخص آخر . فالأمر الذى ترجيه حكومة جلالة الملكة هو أن سموه بدلا من أن يظهر بمظهر عدم الاهتمام والتأقف من النظام الجديد يتعين عليه أن يضع معرفته الكاملة بأحوال البلاد وماله فيها من النفوذ والخبرة تحت تصرف وزرائه وأن يتعاون معهم باخلاص وولاء في دائرة حقوقه الشرعية . »

فهل رأيت أعجب من هذا المنطق ؟ فهم لم يطلبوا منه — وهو صاحب الكلمة المسموعة بين عامة الشعب — أن يتعد عن ادارة البلاد فقط — كما قال المسترزدوستين — بل أن يسمح بأن يستخدموا اسمه لستر دسائس الوزيرين الأجنيين ، أو بعبارة أخرى إنهم أرادوا منه مساعدة الدائنين على القيام بأعمالهم الشيطانية في مأمن من العذل واللوم بينما تقع على كاهله تبعة نتائج تلك الأعمال !

على أن ملاحظات لورد فيفيان هذه لم تذهب دون أن يرد عليها اسماعيل الرد المنطقي الذى يصح أن يكون درسا في نظام الحكم الدستورى . قال الخدبو :

« لقد أصرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية على ادخال نظام الحكم الدستورى في مصر . وقد قبلت النزول على رغبتهما . ثم إن هاتين الحكومتين صفتا لى لما قلت « إن بلادى لم تعد من افريقيا وأنها أصبحت قطعة من أوروبا ، فما على إلا أن أقف الآن موقف المتفرج حتى تتم تجربة هذا النظام الدستورى . إننى أعرف ببلادى من هؤلاء السادة الانجليز أو الفرنسيين ولكنى برغم هذا أريد اعطاءهم الفرصة ليقوموا ==

على أن ماجعل هذا الفشل يؤدي إلى الخراب بصفة خاصة فيرجع سببه إلى أن اسماعيل كان قد أحيا كثيراً من نظام اتجار الدولة الذي كان

== الدليل على خطأ رأي . فان كانت النية معقودة على تجربة الحكم الدستوري فينبغي أن يكون حكماً دستورياً بالمعنى الصحيح المفهوم من هذه الكلمة .»

رأيان في حكم البلاد

وقد استرسل لورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة » يحدثنا عن الرأيين السائدين وقتئذ لحكم البلاد حكماً صحيحاً .

أما الرأي الأول فكان يرمى إلى إبعاد الخديو بتانا عن مجلس الوزراء واعتباره صفراً على يسار العدد وحكم البلاد بدونه بل وفي بعض الأحيان بطريقة مخالفة لرغباته وآرائه الشخصية . وكان من أنصار هذا الرأي القائل بتطبيق المبدأ الدستوري إلى النهاية نوبار باشا والسير ريفرز ولسن .

أما الرأي الآخر فهو وإن كان أبعد عن السكال من الوجهة النظرية من الرأي الأول إلا أنه كان له ما يبرره في الأحوال السائدة في مصر وقتئذ . وكان يقول به لورد فيفيان . إذ كان يرى أن النظام الوحيد الذي يرجى له أي نجاح ليس بالذي يقضى بإبعاد الخديو بتانا بل بالترحيب بمعاوئته مع تحديد استعمال سلطته في الوقت نفسه .

ولم يكن في وسع لورد فيفيان أن يروج لرأيه لأن حكومته بدأت تتبرم به لأنه لم يكن يدافع في نظرها بجرارة كافية عن مطامع الدائنين . هذا عدا أن كل انسان كان متبرماً بالحالة .

التبرم بالحالة العامة

فنونبار باشا كان لا يفتأ يقول : « إننا نأف في دائرة خيبة » . بينما كان الخديودائب الشكوى والتذمر من الموقف الشاذ الذي كان يراد وضعه فيه وهو مركز أصبح مع مرور الزمن لا يطاق . وقد لاحظ — بحق — أن من الجور أن تحميله الحكومتان البريطانية والفرنسية التبعة شخصياً عن مسائل لا يستشير فيها الوزراء . ثم إن الشعب كان في حالة قلق وسخط شديدين .

وكان قنصل بريطانيا العام لا يفتأ يلوم الخديو على القاق المستحوذ على ريف البلاد . وحواضره . وكان مما كتبه إلى حكومته ما ذكره لورد كرومر في كتابه مصر الحديثة وهو :

معمولا به في عهد محمد علي . مثال ذلك انه أصبح يمتلك خمس مساحة الأراضي المزروعة في مصر مما جعله يحاول توزيع المحاصيل في الأسواق بطريق المضاربة . ثم انه احتكر السكر وأنشأ عدة خطوط للملاحة بواسطة البواخر .

== و تعم البلاد حركة قلق واضطراب كما يدل على ذلك وصول عدد كبير من وفود الأقاليم للاحتجاج ضد استعمال أى ضغط لتحصيل الضرائب في هذا الوقت العصيب . فان كان هذا القلق حقيقيا وغير مفتعل فهو إذن علامة سيئة للحالة . ولكن لدى مايجملنى على الاعتقاد بأنه مفتعل ولاعوان الخديو يد خفية في إثارتة . ،

وقد رد المستر كرايتس على هذه المزاعم رداً مفحماً فقال ما ملخصه : إن أولئك الأعيان لا بد أن يكونوا تحسبوا من مصادر أنبائهم المسترة قبل مجيئهم إلى القاهرة وتحققوا من أن الخديو لن يعارض في طلبهم ولذا تشجعوا على الحضور أفواجاً أفواجاً . ثم استطرد المستر كرايتس فقال هذه الكلمة السديدة وهى إن الفلاحين ليسوا في حاجة إلى أى ضغط للتدبر من دفع الضرائب . وهذا ينطبق على الفلاحين في فرنسا بقدر ما ينطبق على فلاحي مصر . كما أن هذا صحيح الآن بقدر ما كان صحيحاً في سنة ١٨٧٨ .

تبرم الموظفين

لما كانت مهمة الوزارة النوبارية السعى لتدبير أقساط الكوبونات فقد كان طبعياً ألا تهتم بشيء إلا بجمع الأموال اللازمة لسداد الأقساط .
فهى قد أغضبت الخديو بأبعاده كلية عن الحكم . وأغضبت سواد الشعب والفلاحين بالضرائب التى تشددت في تحصيلها قبل موعد حلولها مستعملة ما شاءت من الأعنات وضروب الأرهاق . وأغضبت مجلس شورى النواب وسكان العواصم بتخويلها لجنة التحقيق الأوربية الاستمرار في عملها بدون تحديد أجل معين للفراغ من مهمتها . وأغضبت الموظفين لأنها كانت تضن عليهم بالمرتبات ولا تدفع مرتباتهم المتأخرة في الوقت الذى تغدق فيه المال على كبار الموظفين الأجانب الذين عيّنهم في دوائر الحكومة دون أن تكون طبيعة العمل في حاجة إليهم هذا إلى أن أولئك الموظفين الأجانب قد بدأوا يظهرن الغطرسة والكبرياء للموظفين الوطنيين مما أدى إلى تعقيد الحالة .

تبرم الجيش

ولما كانت الوزارة مطالبة بتدبير قسط ابريل سنة ١٨٧٩ فاهما صممت على ضرب ==

وإذا جاز أن نعتبر نظام محمد علي نظاماً اشترى كياً تمارسه الدولة لأن نظام البلاد الاقتصادية كان وقتئذ كنظام محل تجارى أما نظام اسماعيل كان شيئاً غير هذا بالمرّة . لا بل كان نظاماً طالما أدى في الماضى إلى خراب كثير من أرباب العقول الكبيرة من رجال الأعمال برغم من كان حولهم من أهل الرأى الألفاء . ولكن اسماعيل كان كعابر سبيل أوقعه سوء الحظ وسط عصابة من اللصوص .

وإذا ما أنعمنا النظر فيما يسمونه نفقات اسماعيل الخاصة كطاقم المائدة الذهبى المرصع بالجواهر الذى أهدها للسلطان أو ما أقامه من الحفلات

== آخر من ضروب الاقتصاد فاندفعت - بعلم أو بغير علم - إلى إغضاب الجيش وفى ذلك الخطر كل الخطر .

وكان من بين ما اقترحت لجنة التحقيق العليا أن تدفع الحكومة للموظفين المدنيين مرتب كل شهر فى ميعاده مع نصف شهر من الأشهر المتأخرة . وقد نفذت الوزارة هذا الاقتراح بالنسبة لبعض الموظفين المدنيين ولكنها أغفلت ضباط الجيش . وكان مفهوماً ألا تعطف الوزارة على الجيش باعتباره قذى فى عينها ومجر عثرة فى سبيل مرامها . فلم تكتف بالأساءة إلى ضباطه بل قررت تخفيضه من ١٥ ألف إلى سبعة آلاف جندى .

ثم دفعتها الحاجة المألحة لتدبير قسط الكوبون إلى ضرب جديد من ضروب الاقتصاد فقررت ذات يوم جمعة إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع وتخفيض مرتباتهم إلى النصف هذا مع أن هؤلاء الضباط كانت لهم مرتبات متأخرة منذ عشرين شهراً . وقد كان هذا التصرف شاذاً وغير عادل حتى أنه باء بانتقاد اللورد كرومر نفسه إذ قال فى كتابه « مصر الحديثة » ما نصه :

« إن هذا التصرف كان يعتبر فى غاية الأجحاف فى أى ظرف من الظروف مهما كانت الضرورة تقضى به نظراً لحالة الارتباك التى كانت تسود الخزانة المصرية وقتذاك . ولكن هذا التصرف فضلاً عن أنه محجف كان بعيداً عن المهارة لأنه قضى بإبعاد هذا العدد الكبير من الضباط قبل دفع مرتباتهم المتأخرة . فلم يكن عجيباً أن تكون نتيجة أن عدداً كبيراً من هؤلاء الضباط أصبحوا هم وعائلاتهم فى حالة عوز وفاقة . »

الفخمة لاستقبال إمبراطورة فرنسا وإمبراطور النمسا لعرتنا الدهشة لما أتاه المقاولون والممولون من ضروب النصب وأعمال الاحتيال البعيدة عن الحياء. هذا طبعاً مع تسليمنا بأن كل من يلجأ إلى أمثال هذه النفقات التي هي من قبيل الفخفخة رغبة في توطيد سمعته المالية لا بد أن يتوقع استغلال الغير له . فالتأثير في نفس أحد كبار الرأسماليين الأجانب أنشأ اسماعيل مصنعا لتكرير السكر جلب إليه كافة الآلات والأدوات الحديثة (كذا) . وقد

= وبديهي أن يؤدي هذا التصرف إلى سريان روح التبرم والتمرد . لأن الضباط لا هم حصلوا على مرتباتهم المتأخرة ولا بقوا في الخدمة على أمل أن تقدم الحكومة . ويشاء حظ الوزارة العاثر أن ينفذ القرار بأسلوب يساعد على وقوع التمرد. فبدلاً من تنفيذ القرار على الضباط في مراكزهم الموزعة في مختلف أنحاء القطر فيدع كل منهم سلاحه في ثكنته ويعود إلى بلده ، فإن وزير الحرية استدعاهم جميعاً إلى العاصمة وكلفهم بتسليم سلاحهم في ثكنات القلعة أو العباسية ثم بالانصراف بعد ذلك . وهكذا احتشد في عاصمة البلاد هذا العدد الكبير من الضباط المحالين إلى الاستيداع وكلهم ساخط على الوزارة .

وقد أشار لورد فيفيان في تقرير أرسله إلى لندن وقتذاك إلى هذا التصرف ورمى الوزارة بالحق على فعلتها هذه ثم قال :

« كان من أثر ذلك التصرف الذي لا نظير له في الحق أن وزير الحرية أضاف ٢٥٠٠ من الضباط الساخطين إلى حامية القاهرة وعددها ٢٦٠٠ جندي وليس بينهم إلا من يعطف من صميم قلبه على مطالب الضباط المتمردين . »
ولسوء حظ الوزارة اجتمع هذا الحشد من الضباط في ساحة واحدة وفي ساعة عودة المحمل من الحج أي في وقت احتشاد الجماهير حيث يسهل الهاب شعور الحامية في نفوس الأهليين .

ثورة الضباط

على الوزارة في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩

وكان طبعياً بعد أن استشرع الضباط بهذه الظلامة أن يلجأ أ كثرهم حماسة إلى القيام بمظاهرة كبيرة على أبواب وزارة المالية بحجة رفع ظلامتهم إلى نوبار باشا =

أهمل شأنها فيما بعد وتركت للصدايا كلها. ولكيما يظهر بذخه أمام



لطيف باشا سليم وولده فؤاد بك *

== والسير ريفرز ولسن . ففي صبيحة يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ - كما ذكره
الاستاذ الرافعي بك - اجتمع نحو ٦٠٠ ضابط برآسة البكباشي لطيف بك سليم
(باشا فيما بعد) أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية وقد اشتهر بالشجاعة والكفاءة ==
* هذه الصورة مستعارة من سعادة احمد شفيق باشا

إحدى الرؤوس المتوجة شيد قصرأ على طراز قصور لويس الرابع عشر



المغفور له محي النهضة المصرية مصطفى كامل باشا

== واستقلال الفكر وكان من أكبر أنصار المغفور له مصطفى كامل في الحركة الوطنية الحديثة ووالد الأستاذ فؤاد بك سامي .
وقف لطيف بك سليم وظل يخطبهم بعباراته الحماسية ويحثهم على التعاون والشجاعة .
وبوصيهم بالثبات والجلد حتى ينالوا مطالبهم . ثم غادروا ثكناتهم وساروا جميعاً
يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو ٢٠٠٠ جندي قاصدين إلى وزارة المالية .
وأراد الضباط أن يكسبوا حركتهم صبغة قومية فطلبوا قبل الوصول إلى الوزارة
إلى بعض أعضاء مجلس شورى النواب مرافقتهم إلى حيث يقصدون . وفي ذلك ما ينم
عن حسن تدبير الحركة . ولكن اكتفى أربعة منهم بالتسير في موكب المظاهرة راكبين
حميرهم فكان في هذا العمل شيء من التضامن بين حياة المجلس والمتظاهرين .
وما أن وصل المتظاهرون إلى وزارة الخارجية — وكانت وقتئذ قربية من وزارة ==

وحشر فيه جيشا من الخدم ذوى الشعور المستعارة والملابس الفاخرة المناسبة للمقام (كذا) . وقد ترك القصر بعد ذلك تعبت به يد الخراب . (كذا ! كذا !) على أن محاولات اسماعيل لم تقف عند حد التأثير في زوار

== المالية -- حتى وقع نظرم على نوبار باشا فى مركبته فبادروا إلى الاحاطة بها وسدوا عليها الطريق مما امتعض له نوبار وأمر السائق بالمسير . فأكاد السائق يضرب الجياد بسوطه تمهيدا للمسير حتى انهال عليه الضباط بالضرب وأنزلوه عن مقعده وهجموا على نوبار وأمسكوا بخناقه وطرحوه أرضاً وأعدوا عليه بالضرب .

وبعد أن حى وطيس المعركة اذا بالسير ريفرز ولسن يطلع على المتظاهرين وكان فد عاد من مقابلة الخديو قاصدا وزارة المالية . فما هو أن رأى صديقه نوبار فى أيدي الضباط حتى هروا لنجدته وضرب المتظاهرين بعصاه . فسرعان ما التفتوا اليه وجذبوه من لحيته وأدخلوه هو ونوبار إلى سراى الوزارة واقتحموا أبوابها واحتلوا غرفها وحبسوا نوبار ورياض والسير ريفرز فى احدى حجر الدور الأعلى وصار الموظفون الأجانب تحت رحمة الثوار .

وفى تلك الاثناء ترامت أنباء الهياج ووصلت أسماع قناصل الدول فأسرع اللورد فيفيان إلى سراى عابدين حيث قابل اسماعيل فوراً . ويمكنك أن تتصور وقع هذه الأنباء من نفسه وما جال بخاطره فى تلك الساعة الرهبة نحو السادة الذين أدخلوا النظام الجديد .

فها هو رجل أبى خصومه إلا أن يبعده عن حكم البلاد بحجة اقامة نظام دستورى حتى إذا تركهم وشأنهم ووقف يتفرج على أعمالهم إذا بهم يلجأون إليه فى ساعة الشدة ولسان حالهم يقول إنهم لاغنى لهم عن سلطته لأتقاذ الوزارة وإعادة الأمر إلى نصابه وفى ذلك ما فيه من اعتراف مذل من ناحية القناصل بالا سبيل إلى ضبط الأمن بدون تدخل سيد البلاد الأعلى اسماعيل .

اسماعيل يخمد الفتنة

ولو شاء الخديو لاشتراط وقتند مطالب معينة قبل نزوله لاختداد الفتنة . ولكن النخوة حركته بعد ما رأى أمامه اللورد فيفيان فى موقف التوسل والابتهاال . فاستصحبه إلى مركبته وانطلقا إلى موطن الهياج بوزارة المالية وكان يحاصرها حشد كبير من الناس كما ذكر لورد فيفيان فى تقريره الذى بعث به ذلك اليوم إلى لندن بتفاصيل الحادث . فما كاد ==

مصر الأجانب كلا بل تعدتها إلى الخارج ، فثلا كان أهم ما حاز إعجاب زوار معرض باريس في سنة ١٨٦٧ هو مدينة الأهرامات والفساطيط التي أمر اسماعيل بإقامتها فيه وأسكن فيها رهطاً من البدو على ظهور الأبل البيضاء . على أنه برغم ذلك كله فإن مجموع ما أنفق في هذا السيل بما في ذلك رسائل

== المتظاهرون أن يصروا سموه حتى استشعروا الهبة التي له في النفوس - وكانت هذه الهبة من أخص مزاياه - فهتفوا له وأفسحوا له الطريق واحتشدوا في الشوارع المجاورة للوزارة .

ثم استطرد لورد فيفيان يقص ما حدث فقال : ثم سعدنا إلى الطابق الأول في الوزارة فوجدنا حشداً من الثوار يحيط بالحجرة التي اعتقلوا فيها نوبار والسير ريفرز ورياض . فافسحوا لنا الطريق فدخلنا الحجرة فلم نجد أحداً من الرجال الثلاثة قد أصيب بسوء وإن كان نوبار والسير ريفرز قد لحقتهما بعض كدمات من جراء سحبهما بعنف من الشارع إلى داخل بناء الوزارة . ولما استوثق الخديو من سلامتهما التفت إلى الثوار وطلب إليهم مغادرة البناء والاعتماد عليه في تحقيق مطالبهم المشروعة ثم قال : « فان كنتم ضباطي حقيقة فأنتم ملزمون بالقسم الذي أقسمتموه باطاعتي . أما إن عصيتموني فاني آمر بطردكم من هنا » . وقد أطاعه الضباط وسكنت نائرة معظمهم ولكن على مضض . وقد ابتهلوا إليه أن يسمح لهم بأن يسوا مع الوزارة حسابهم على طريقتهم الخاصة . ولما هتف بعضهم قائلاً « فليمت كلاب المسيحيين » أمر سموه بانزالهم إلى حوش الوزارة وخارجها فوقوا على زملائهم المحتشدين في الخارج وكانوا يحاصرون أبواب الوزارة . وهنا أمرهم الخديو بالانصراف فاقرب أحدهم منه يريد أن يمسكه بذراعه فاجفل منه اسماعيل وأمر الحرس بتفريق المتظاهرين بالسلاح . فشرروا سلاحهم ودوت طلقة رصاصة لم يعرف مصدرها وأطلق الجنود النار في الهواء . فأصيب بعض المتظاهرين بضربات السونكي وجرح بعض الجنود كما جرح تشريفاتي الخديو وهو إلى جانب مولاه وقد أصابته ضربة من سيف أحد الضباط .

ثم تفرق المتظاهرون وأمر الخديو بحراسة الوزراء الثلاثة إلى منازلهم وعاد بسلام إلى قصر عابدين .

اسماعيل لم يدبر الفتنة

لم يكن للخديو يد في تدبير هذه الفتنة خلافاً لما ذهب إليه بعض المؤلفين المغرضين ==

الصدقات إلى الأستانة ونفقات الحملة إلى جزيرة كريت واقامة الحفلات
للملوك أوربا وأمرائها - كل هذا لم يكن ليلغ مجموعه ١٥٠٠٠٠ ر. ١٥ جنيه
وهو مبلغ يكفل أن يغطيه وزيادة ثمن أراضى الدائره السنیه التى تنازل

== وفى طليعتهم السير ريفرز ولسن الذى ذهب فى ص ١٨٦ من كتابه المسمى " فصول من
حياة الرسمية " إلى أن اسماعيل هو مدبر الفتنة وأنه هو الذى حرص الضباط المتورين
على القيام فى وجه الوزارة المختلطة . وقد ذكر السير ريفرز أن الخديو دخل عليه فى الحجرة
التي كان معتقلا فيها مع نوبار ورياض ومد له يده لمصافحته والاستفسار عن صحته ولكن
السير ريفرز رفض مصافحة سموه " لأننى لم يخامرني شك فى أن الهجوم على نوبار كان
بتدبيره أو برضاه . "

ومما يدعو إل الأسف أن مثل هذا الاعتقاد رسخ فى نفس السير ريفرز دون
الاستناد إلى دليل محسوس أو شبه محسوس مع أن الظروف كلها كانت تدل على عكس
ذلك . فقد روى السير ريفرز نفسه " أن أحد الضباط هجم على الخديو وأمسك
بسترته وراح يصب كلاما عنيفا . تغير له وجه سموه واستحال إلى غضب ظاهر أصدر
بعده أوامره إلى الحرس باطلاق النار على المتظاهرين وتفريقهم بالقوة " . أليس يكنى
هذا الحادث لاقاع السير ريفرز بفساد مزاعمه ؟

ونرانا فى حل بعد هذا من أن نسقط شكوك واعتقادات السير ريفرز من الحساب
بعد أن عجز عن إقامة دليل واحد على أن لاسماعيل بدأ فى فتنة الضباط . ويشجعنا
على إغفال تلك الشكوك أن السير ريفرز قد خاتمه قواه - على ما يظهر - بعد تلك
الفتنة فلم يكتف باتهام الخديو بتدبيرها بل راح يتهم اللورد فيفيان بأنه هو الذى شجع
اسماعيل فى الموقف العدائى الذى وقفه سموه حيال الوزارة التوبارية .

فان اللورد فيفيان - كما حدثنا السير ريفرز فى كتابه السالف الذكر - " كان يناقض
نوبار فى رأيه . فهذا الأخير كان يشير باستعمال الضغط على الخديو بينما كان لورد فيفيان
يرى العكس " . ثم راح السير ريفرز فى ص ١٧٩ يلوم اللورد فيفيان لأنه " لم يؤد واجبه
كقنصل عام لحكومة جلالة الملكة وأنه لم يقدم المساعدة الكافية للوزارة التوبارية التى
كانت لحكومة جلالته ثقة فيها . بل ظل (أى فيفيان) ينظر إلى الوزارة التوبارية شذراً
مما شجع الخديو على أن يقلب لها ظهر المجن ويدبر لها فتنة الضباط . " (كذا !)
هذا بعض ما وجهه السير ريفرز من الاتهامات إلى اللورد فيفيان . فهل لنا إذن ==

في النهاية عنها للدائنين. هذا في حين أن ما أنفق في سبيل إنشاء قناة السويس وقدره ٠٠٠.٠٠٠ ر. ١٦ جنيته وفي القضاء على تجارة النخاسة في السودان وقدره ٠٠٠.٠٠٠ ر. ٢ جنيته أنفق في الواقع لخدمة أوروبا أكثر مما كان لخدمة مصر .

== أن نأخذ جدياً أقواله ضد الخديو إذا كان لا يتورع عن اتهام قنصل بريطانيا العام بكل هذه التهم وبلا دليل ؟

وقبل أن نسدل الستار على هذا الحادث لا نرى مفراً من أن نستشهد بأقوال اللورد كرومر ولم يكن الرجل يوماً ممن يصح اتهامهم بالميل أو التحيز لاسماعيل . فان صاحب «مصر الحديثة» ينفي ما ذهب اليه المؤلفون المتحيزون من الآوهام ويقول بان تلك المزاعم لا تقوم على أساس ولا تخرج عن دائرة الظن والتخمين . بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ قال : « إن ما أبداه اسماعيل من القلق حين سمع بخروج الضباط عن الحد كان طبعياً وصحيحاً وأن الخديو نفسه كان في خطر كبير حين واجه الضباط الثائرين وأمرهم بالكف عن الهياج » .

وهاك ماورد في التقرير الرسمي الذي بعث به لورد فيفيان ونشرته الحكومة البريطانية ككتاب أبيض بعنوان « مصر ، رقم ٥ سنة ١٨٧٩ ص ٣١ قال : يزعم أعداء الخديو (لاحظ جيداً هذه التسمية) أن له ضلعاً في المؤامرة وهذا مايعل تساهله مع المسؤولين عن الفتنة . فان صح ذلك فقد أقدم فعلاً على أمر خطير لا يستبعد أن يكلفه ضياع عرشه . ولكن مسلكه في يوم الفتنة الأول ينفي هذه التهمة في حين أن مانشأ عن تسريح عدد كبير من الضباط بلا وسيلة لكسب العيش مع أن لهم مرتبات متأخرة ليبرر سخطهم كل التبرير » .

على أنه إن جاز للسير ريفرز أن يفترض في السير بارنج واللورد فيفيان نوعاً من التحيز لاسماعيل فما قوله في شهادة مراسل التيمس بالقاهرة اذ بعث إلى جريدته يقول : « إن مطالب الجيش قد أهملت اهمالاً تاماً بالرغم من التصريح الرسمي الصادر في شهر مايو الماضي (سنة ١٨٧٨) بوجوب دفع كافة المرتبات المتأخرة . وقد كانت نتيجة هذا الإهمال أن أشد عناصر الدولة خطراً قد أصبح في حالة تمرد له مسوغ . (كذا ١) وعبثاً حاول المستر فيفيان التنديد بحماسة الرأي القائل بتسريح جيش لم تدفع مرتباته . وأخيراً قرروا تسريح الجنود والضباط فكانت النتيجة حدوث فتنة يوم ١٨ فبراير » .

ولما كان اسراف اسماعيل قد أدى في نهاية الأمر إلى احتلال مصر بالقوات البريطانية مدة ربع قرن من الزمان فانك تجد ما كتب عن تاريخ إدارته لشؤون مصر لا يخلو إما من دفاع عن السياسة البريطانية وإما من

تلك لعمري شهادات دامغة من أشخاص انجليز لم يعرفوا يوماً بميلهم إلى اسماعيل . فاذا كان السيد ريفرز قد أغفلها فلائنه كان يحس أن اعترافه بالواقع ربما كان سبباً في التعجيل باسترجاعه إلى بلاده وأنهاء لجنة تحقيقه . ومن يدري أنه لو حدث هذا لكان خيراً لمصر ولما تطورت الحوادث تطورها المشؤوم الذي كان للسير ريفرز أكبر يد فيه .
النظر في ظلامة الضباط

وعلى كل فقد ذهب الأمير حسن باشا بن الخديو بصفته قائد الجيش الأعلى إلى انقضية البريطانية في اليوم التالي واعتذر للورد فيفيان وللسير ريفرز عما فرط من الضباط . فقبلاً الاعتذار .

ثم اقترضت الحكومة ٤٠٠ ألف جنيه من بيت روتشيلد دفعت منها متأخرات الضباط . ونظر المجلس العسكري في أمرهم وفي مقدمتهم لطيف بك سليم وسعيد بك نصر فقضى ببرائتهم ولم يعاقب أحداً من النائرين .
سقوط الوزارة النوبارية

١٩ فبراير سنة ١٨٧٩

وفي اليوم التالي لفتنة الضباط أى في يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٧٩ افتتح القنصلان عملهما البومى بالتوجه إلى قصر عابدين حيث طلبا إلى سموه أن يقطع لهما وعداً بالمحافظة على الأمن . وإذ ذاك صارحهما الخديو بأنه لا يكون مسؤولاً عن الأمن العام إلا إذا عدل مركزه وأعيدت إليه السلطة التى من حقوقه وسمح له برئاسة مجلس الوزراء بنفسه أو بتعيين من يثق فيه لرئاسة المجلس . ثم أصر على استقالة نوبار باشا لأنه أصبح بغضاً للشعب .

وهنا يقول السير ريفرز ولسن (ويقصد غمز فيفيان) : إن الخديو بأصراره على استقالة نوبار كان يعلم بتبرم اللورد فيفيان بالرئيس الأرمنى .

وقبل أن يوافق القنصلان على هذه الشروط عادا إلى دار اللورد فيفيان حيث كان فى انتظارهما نوبار باشا والسير ريفرز ولسن والمسيو دويلتيير والسير افلن بارنج فدأوا لواجبهما فى الموقف وأبلغهم فيفيان أن الخديو صرح لها بوجوب تغيير مركزه وإعادة سلطته إليه .

حملة شعواء عليها . ففي الحالة الأولى يصور المؤرخ اسماعيل بصورة « شيطان » الرواية . بينما يظهره في الحالة الثانية بمظهر الضحية . ولكن الواقع أن كلتا صورتين تظهران اسماعيل بغير حقيقته لأن مركزه الحقيقي

== فقرر المجتمعون الاستفسار من سموه عن التغيير الذي يريده . ولذا ذهبوا جميعاً إلى سراى عابدين لمقابلته . وفي إحدى حجر الدور الأول انتظر نوبار وريفرز ولسن ودوبلنير وبارنج وصعد فيفيان وجودو (قنصل فرنسا) إلى الطابق الثانى حيث قابلا سموه . ثم عادا إلى زملائهما فأخبراهم أن الخديو قال إنه لا يكون مسؤولاً عن صيانة الأمن العام إلا بخروج نوبار من الوزارة وأن يعاد إليه (سموه) حقه من السلطة في حكومة البلاد .

وهنا التفت الجميع إلى نوبار وسأله هل يضمن الأمن إذا أصر القنصلان على بقاءه فأجاب إنه لا يضمنه . فلم يجد القنصلان بدا من التخلي عنه . وإذا ذلك قدم نوبار استقالته ورجا إلى القنصلين رفعها إلى الخديو وأن يطلبوا له كفالة حياته في مصر . فقبل سموه هذا الرجاء على شريطة ألا يعود نوبار إلى الدسائس أو التدخل في الأمور السياسية .

فأنت ترى أن حل الأزمة كان مشروطاً بخروج نوبار من الوزارة ولكن صديقه السير ريفرز يحاول أن يجادل في هذا الحل الطبيعي فيقول : إن نوبار عند مارآى القنصلين يتخليان عنه لم يسعه إلا تقديم استقالته برغم إلحاحى عليه أنا ودوبلنير في عدم تقديمها ١١ وهذه كانت أول خطوة في سبيل تحقيق الغاية التي كان الخديو يرمى إليها . فانه عرض الوزارة للخذلان بعد أن حرم منها أقوى عامل فيها . ثم إنه تبين له - لسوء الحظ - أن حكومتى بريطانيا وفرنسا لم تكونا على استعداد للآصرار على بقاء نوبار في الوزارة إذ لم يكن في وسعهما إلا أن تعملأ بما يشير عليهما به قنصلاهما في مصر وهما اللذان آمنا - خطأ أو صواباً - بصدق دعوى الخديو بأن استقالة نوبار أمر لا مفر منه . وقد نقلنا هذه العبارة بنصها من ص ١٩٠ من كتاب السير ريفرز لثريك مبلغ استهتاره في سرد الوقائع التي كان هناك شهود عدول عليها . لأنه يتكلم عن تخلي القنصلين عن نوبار فهلا ذكر أن تخليهما هذا كان بعد أن سألاه إذا كان يضمن المحافظة على الأمن فما لو تمسكا ببقائه في الوزارة ؟ فلما أجاب بأنه لا يضمن ذلك لم يسعهما إلا التخلي عنه . أفكان السير ريفرز ينتظر أن يتمسك القنصلان بنوبار حباً في سواد عينه حتى ولو لم ==

هو بين عبد العزيز سلطان تركيا وعبد العزيز سلطان مراکش كما أن مكان الأزيمة المصرية هو بين مجرى الحوادث في تونس ومجراها في الاستانة . أما أن الإنجليز هم الذين احتلوا مصر بدلا من الفرنسيين فليس يرجع هذا

== يضمن الأمن ؟ إذن من كان يمكن أن يعتبر مسؤولا عن صيائه إذا كان رئيس الوزارة لا يضمنه وإذا كان سيد البلاد الأعلى قد منع من الاشتراك في الحكم ؟ أغلب الظن إن هذا التحيز الذي أظهره السير ريفرز لنوبار كان يراد به تعقيد الأمور وحدث الاضطرابات وإلقاء تبعثها بالحق أم بالباطل على الخديو .

ونحسب أن السير بارنج الذين لم يكن من محبي اسماعيل - وقد كان حاضرا الاجتماع كما قدما - لو رأى في مسلك القنصلين أعوجاجا أو ما يستحق المؤاخذه لما ألزم الصمت أو على الأقل لا شارك مع السير ريفرز والمسيو دوبلنير في الأحاح على نوبار بعدم تقديم استقالته ولكن الرجل - وهو غير مدله بحب نوبار كما كان شأن السير ريفرز - رأى أن مكان نوبار بعد أن صرح بأنه لا يضمن الأمن هو في عقر داره لا في كرمى الوزارة .

بعد استقالة نوبار

فلما اتفقت كلفة القنصلين على خروج نوبار من الوزارة صدرت للورد فيفيان تعليمات بأن يقول للخديو ما يأتي :

« إن في نية حكومتى فرنسا وإنجلترا أن تعملتا سويا في كل ماله علاقة بمصر ولد فانهما لن توافقا على أحداث أى تغيير من جهة المبدأ فيما أقره سموه من الترتيبات السياسية والمالية . ويفي أن يكون مفهوما أن استقالة نوبار باشا إنما تنحصر أهميتها في نظر الحكومتين في الأشخاص فحسب بمعنى أن استبدال شخص بشخص لا يمكن أن يفهم منه أحداث أى تغيير في النظام » .

وقد رأى اسماعيل بحق في هذه اللهجة أنها بمثابة إنذار له . وإذ لم يكن يسعه مقاومة باريس ولندن في وقت واحد فانه أثر الأذعان . ولكن نشأت صعوبتان . الأولى من عسى أن يكون رئيس الوزارة الذى يحل محل نوبار . والثانية اصرار السير ريفرز ولسن بتشجيع الحكومة البريطانية على اشتراك نوبار باشا في الوزارة المعدة . وكان طبعيا أن يتضايق اسماعيل من الطلب الثانى فكان رده عليه بالعارة الآتية :

« إنه ليس في وسعه إلا الأذعان لأرادة حكومتى إنجلترا وفرنسا لأنه لا يمكنه مقاومتهما إذا أصرتا على عودة نوبار إلى الوزارة . ولكنه لا يرى بدا من أن يحذرهما ==

إلى تفوق سياسة الفريق الأول على سياسة الفريق الثانى فى الأقدام أوفى
القدرة على الدسائس كلا بل يرجع إلى ظروف الأحوال فهى التى دفعت
الإنجليز لا الفرنسيين إلى العمل وإذا كان ثمة لوم على إسماعيل فى نظر

== سلفا من العواقب حتى لا يحملوا على تبعة فى المستقبل فيما لو فشل النظام الجديد أو
لو تجددت القلاقل مرة أخرى .

هناك رأيت الحكومة الفرنسية بعد ما قاله الخديو أن ليس من الحكمة التمسك
بأشترك نوبار فى الوزارة الجديدة . ثم جارتها الحكومة البريطانية فى رأيها ذلك .
ولكنها أرسلت مع هذه الموافقة ، تحذيرا للخديو بأنها تعتبره مسؤولا عن القلاقل
الآخيرة فى مصر وأن العواقب - كما ذكر لورد كرومر فى كتابه - تكون جد وخيمة
بالنسبة له فيما لو تجددت اضطرابات من هذا القبيل .

ثم استطرد اللورد كرومر يقول : إن الفصلين شفعا هذا التهديد بوضع برنامج للعمل
المشترك يتضمن ما يأتى :

أولا : لا يحضر الخديو جلسات مجلس الوزراء بحال من الأحوال .

ثانيا : يعين رئيسا لمجلس الوزراء الأمير محمد توفيق ولى العهد والمرشح من قبل
الخديو لرئاسة المجلس .

ثالثا : للوزيرين الأوربيين حق (الفيتو) أى رفض أى قرار يصدر من مجلس
الوزراء بدون موافقتهما .

وزارة توفيق باشا

١٠ مارس سنة ١٨٧٩

وعلى هذا الأساس صدر أمر إسماعيل فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ بتشكيل الوزارة
الجديدة مع اسناد رئاستها إلى ولى العهد محمد توفيق باشا وأرسل إليه كتابا متضمنا
قواعد ماتم عليه الاتفاق مع الدوليين . ولا بأس من اثنائه بنصه لأنه يعتبر مكملا ومعدلا
لأمر إسماعيل الصادر لنوبار باشا فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . وقد ذكرته الوقائع
المصرية فى عدد ٨٠٣ فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩

• لما أحلت على عهدة أمانتكم رئاسة المجلس وتشكيل هيئة النظر رأيت من المهم
أن استجلب دقتكم فيما يجب من اتحاد الراى بين أعضاء ذلك المجلس وأن أحيطكم علما
بما فى أفكارى فيما يتعلق بأدراة المصالح طعا لما هو مدون فى الذكرى المؤرخ ٢٨ ==

المصريين فهو إنه لو أبدى من الشجاعة ورباطة الجأش ما أبداه من الذكاء وحصافة الرأي لتمكن من درء الاحتلال الأجنبي عن القاهرة كما درأته الاستانة من قبل .

== أشطس الماضى الذى هو أساس حياة الحكومة . فأنى عند تأسيس هذا الترتيب الجديد لم يخطر بفسرى قط الانفراد عن وكلائى . بل غاية قصدى أن أكون معهم باتحاد تام ولذلك ينبغى أنه قبل أن يقر مجلس النظار على أى قرار فيما يتعلق بالوائح أو الأحكام التى تقدم من أحد النظار أن تعرض على مع أساندها من طرف الناظر الذى همى من خصائصه حتى يمكننى أن أحيط المجلس علماً بجميع ما يترامى لى من التدابير اللازمة اتخاذها . وعلى كلا الأمرين يجتمع المجلس عند صدور ارادى بذلك لينظر بالاتحاد معى فى المسائل التى عرضت على . إنما لأجل التأمين على تمام استقلال المجلس لا أحضر وقت المذاكرة .

• وحيث أن النظار الوطنيين حائزون الأغلبية فى المجلس فلاجل التعادل هناك يكون للنظار الأوروبيين تأثير فى رأى ولهم الحق فى المعارضة وعدم قبولهم رأى الاغلبية .
• هذا وفى أملى أن ذلك الترتيب الجديد يكون كافياً فى سير المصالح وظهور الفائدة للقطر المصرى وليكن مجلس النظار مطمئناً فى سائر الأحوال على مساعدتى له وحسن مساعى كما أنى مطمئن على اجتهاده وحسن مساعيه فيما فيه نفع العموم
عابدين بمصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ . اسماعيل ،

استدعاء لورد فيفيان

وبالرغم من أن الخديو أصبح يملك دون أن يحكم ومع أن وزارة توفيق باشا راحت تحكم البلاد مع خضوعها لحق القيتو من ناحية السير ريفرز ولسن والمسيو دولنير إلا أن مسافة الخلف أخذت تتسع تدريجاً بين لورد فيفيان والسير ريفرز . ذلك لأن الفصل العام كان يستصوب عدم معاملة الخديو كما لو كان صغراً على يسار العدد . وقد اشتد الخلاف حتى أصبح ولاية الأمور فى دوتنج ستريت مقتنين بأر الحالة لم تعد محتملة ولذا صدر الأمر فى ١٥ مارس سنة ١٨٧٩ باستدعاء لورد فيفيان . وبعد ذلك بخمسة أيام (وهى سرعة لم يعهد مثلها فى استبدال القناصل) وصل سيرفرائك ==

لأن الاحتلال المذكور بدأ دون أن ينتبه إليه احد بجزء من اعمال
اسماعيل المالية . فقد كان الخديو في عام ١٨٧٣ رغباً من ازدياد الأيراد



أفلاطون باشا وزير الحرية سابقاً

== لاساز القنصل العام الجديد ليحل محل لورد فيفيان . وقد أفهم قبل سفره - كما قال لورد
كرومر - بأنه يقدم معونته الودية للسير ريفرز ولسن في معاملاته مع الخديو .

تشكيل الوزارة التوفيقية

قضى الأمير محمد توفيق اثني عشر يوماً في اختيار أعضاء وزارته وذلك بسبب
اعتراضات الوزراء الأجنيين وتدخلهما في كل شيء . وفي يوم ٢٢ مارس (أى بعد
وصول القنصل البريطاني العام الجديد ييرمين) تم تشكيل الوزارة التوفيقية على
النحو الآتي :

الأمير محمد توفيق باشا للرئاسة
رياض باشا للداخلية والحقانية
السير ريفرز ولسن للمالية
المسيو دوبلتير للأشغال العمومية
على باشا مبارك للمعارف والأوقاف
ذو الفقار باشا للخارجية
أفلاطون باشا للحرية

وارتفاع أثمان القطن غارقاً في الدين وإن لم يكن طبعاً بشكل يدعو إلى

موقف مجلس شورى النواب

إزاء الوزارة التوفيقية

لم يكن ينتظر بعد ما سردناه عليك من ضروب الآغاث والأرهاق وتبرم كل بيته من بيئات الأمة أن تبقى الأمور هادئة وخاصة بعد فترة الضباط في يوم ١٨ فبراير ١٨٧٩ وكان طبعياً أن تجد هذه الحوادث الخطيرة والاعتداءات المتواصلة على سلطة حاكم البلاد الشرعي وسيدها الأعلى صدى في مجلس شورى النواب وبخاصة بعد ما أصبح معروفاً لدى الخاص والعام أن الوزارة التوفيقية الجديدة ستكون مجرد آلة مسخرة لرغبات الوزيرين الأجنيين .

لذلك ظل المجلس المذكور يوالى اجتماعاته طيلة المدة التي اشتغل فيها توفيق باشا باختيار أعضاء وزارته وقدم في يوم ١٩ مارس (أى قبل تشكيل الوزارة بثلاثة أيام « إيهاء » أو قراراً بتوقيع ٤٩ نائباً متضمناً ما وضعوه من الاقتراحات لتخفيض عبء الضرائب والأتاوات قائلين إنهم أرسلوا اقتراحات لوزارة الداخلية دون أن يصلهم ردها عليها ولذا فالمجلس يوافق على هذا « الانتهاء » ويرسل صورته إلى الداخلية . وهنا تبين للوزيرين الأوربيين أن المجلس المذكور حجر عثرة في سبيل ما أراداه فاقترحا التخلص منه وانضم إليهم رياض باشا . وقررت الوزارة فض المجلس بحجة أن مدة نيابته وهي ثلاث سنوات قد انتهت ولذا استصدرت من الخديو مرسوم فضه وعهدت إلى رياض باشا بإبلاغه إلى المجلس . فلما نعى إلى الأعضاء ما اعتزمت الوزارة صمموا على مخالفة إرادتها . وعقد مجلس شورى النواب جلسة تاريخية في يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ عند ما حضر رياض باشا لتلاوة أمر الانقضاء .

ودارت مناقشة بين الأعضاء وبين رياض باشا كان من فرسانها النائب محمد أفندي (بك) راضى وعبد السلام بك المولى بى وبدينى أفندي الشريعى ومحورها أن المجلس لم ينته بعد من مهمته ولذا لا يمكن للنواب أن يعودوا إلى بلادهم قبل إتمام النظر في المسائل المالية وفي الميزانية . وقالوا إنهم لا ينفضون إلا بعد إعطاء مجلس النواب حقوقه واجابة طلباته وأنهم سيظلون منتظرين جواب الحكومة . ثم أرسلوا صورة من محضر هذه الجلسة التاريخية إلى الخديو وصورة أخرى إلى الوزارة .

اليأس كما كانت إيرادات السكة الحديدية والدائرة السنية مرهونة للغير .
ثم تبين أن الدين المستهلك كان أكثر مما تستطيع البلاد أن تضطلع بأعبائه .

عريضة النواب لاسماعيل باشا

٢٦ مارس سنة ١٨٧٩

وقدم النواب في ٢٩ مارس عريضة للخديو وقع عليها كافة من كان في القاهرة من أعضاء وفيها احتجاج شديد على تصرف الوزارة وامتثالها لحرمة المجلس وعلى مشروع الوزارة المالي الذي كانت تنوى إصداره ويتضمن إعلان إفلاس الحكومة المصرية وإلغاء قانون المقابلة . وقد أعلن النواب عزمهم على رفض هذا المشروع والامتناع عن تنفيذه وطلبوا إلى الخديو أن يعمل بحكمته على تلافى الحالة قبل استفحال الخطر .

اجتماع الجمعية الوطنية

ولما أيقن الناس أن الوزارة التوفيقية لا تريد بالبلاد خيراً بدليل أنها أقدمت على حل مجلس شورى النواب قبل أن يمضى على تأليفها خمسة أيام دون أن تحدد ميعاداً للانتخابات الجديدة ، هذا إلى ما يتمتع به الوزيران الأجنيان من حق الفيتو ، يضاف إلى ذلك أن السير ريفرز وضع لائحة تتضمن مشروع تسوية مالية تجعل مصر في حالة عجز كلي عن سداد ديونها أى وضع البلاد تحت الرقابة الأجنبية بصفة دائمة وبقاء الوزارة الأوروبية تتولى الحكم كما تشاء وتهوى — لما أيقن الناس بذلك كله وذكروا أن السير ريفرز بصفته وزيراً للمالية لم يتنازل مرة واحدة بالحضور أمام مجلس شورى النواب عما اعتبر ماساً بكرامة ذلك المجلس ، اتجهت الأفكار إلى العمل للتخلص من هذه الوزارة الأوروبية . ومن ثم أخذ قادة الأفكار من النواب والأعيان والعلماء والتجار يجتمعون ويتشاورون في الحالة السياسية وما ينبغي عمله لانتقاذ البلاد من ورطتها .

وكانت دار البكرى في بداية الأمر مكان اجتماع الأحرار ثم تحولوا إلى دار اسماعيل باشا راغب وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب في أول نشأته . فاجتمعت في داره الجمعية الوطنية — أو الحزب الوطنى — كما أسمته جريدة التجارة في عدد ٢٦١ — وكانت تضم كبار البلاد وأهل الرأى فيها . فانفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم وهو يتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع السير ريفرز ولسن ويحمل البلاد =

وبما أن نشوب الحرب البروسية الفرنسية كان قد حال دون عقد قروض أخرى فقد أخذت أقساط الدين السائر تتكدس بشكل خطر . فلم يك ثمة مناص لاسماعيل من استعجال الأيراد . ولهذا الغاية سن قانون المقابلة

== قادرة بضمانتهم وكفالتهم على سداد ديونها والمطالبة بتأليف وزارة وطنية وإبعاد الوزيرين الأجنيين عنها وتقرير نظام دستوري للبلاد أساسه جعل الوزارة مسؤولة أمام مجلس النواب .

المطالبة بتأليف وزارة وطنية

وانتهجت الأنظار إلى شريف باشا لتأليف الوزارة الوطنية نظر الموقف الأليم الذي وقفه أمام لجنة التحقيق ورفضه المثول أمامها وإثارته الاستقالة احتفاظاً بكرامته . وكان شريف معروفاً بكرهه للتدخل الأجنبي .

اللائحة الوطنية

وفي يوم ٢ أبريل اجتمع بدار اسماعيل باشا راغب الأحرار من الأعيان والنواب والعلماء وغيرهم وكان في مقدمة من حضر شريف باشا وشاهين باشا وحسين باشا واسم وجعفر باشا والسيد علي البكري وغيرهم واتفقوا على ماسمى اللائحة الوطنية وتتضمن :
أولاً : مشروع تسوية مالية معارض لمشروع السير ريفرز لأن أساسه أن إيرادات الحكومة تكن مصروفاتها بما فيها أقساط الديون في حين أن مشروع الوزارة كان يعتبر البلاد في حالة إفلاس .

ثانياً : المطالبة بتعديل مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية في أوروبا وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه .

ثم وقع المجتمعون على عريضة ضم إليها مشروع التسوية المالية واتفقوا على تقديمها للأخديو . وقد ختموا اللائحة الوطنية بطاب تعديل مجلس شورى النواب .

وقد وقع على اللائحة ٦٠ من أعضاء مجلس شورى النواب و ٦٠ من العلماء والهيئات الدينية وفي مقدمتهم شيخ الإسلام وبطريك الأقباط وحاخام الأسرائيليين و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٣ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من ضباط الجيش .

وليس يفوتنا أن نذكر أن اللائحة الوطنية فضلاً عما تضمنته من الإصلاح الدستوري لم تنس مصالح الدائنين . فبينما هي طالبت بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب قبلت نظام المراقبة الثنائية لتأمين حقوق الدائنين وذلك بتعيين مفتشين أوربيين ==

الذى يقضى بأن ينزل الخديو لملك الأراضى الزراعية عن نصف الضرائب

== لايرادات ومصروفات الحكومة . فهى لم تنقض ماقطعتها الحكومة المصرية على نفسها للدول من التعهدات .

ثم إن المشروع المالى الذى تضمنته اللائحة لا يختلف عن لائحة السير ريفرز إلا فى أنه أبقيت ضريبة المقابلة بيننا ألغاهامشروع السير ريفرز ولسن كما أن هذا المشروع الأخير فرض ضريبة جديدة على الأطنان العشورية لم يقرها مشروع اللائحة الوطنية . ولا بد من كلمة إيضاحية هنا عن قانون المقابلة ومسألة الأراضى العشورية .

فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧١ سن الخديو اسماعيل قانون المقابلة ويقضى بأنه إذا دفع أصحاب الأطنان الضرائب المربوطة على أطنانهم لمدة ست سنوات مقدماً تعفى الحكومة أطنانهم على الدوام من نصف المربوط عليها (مادة ٣) . وقد تعهدت الحكومة فى ذلك القانون (مادة ٣ ومادة ٢٠) بأن الملاك الذين يدفعون المقابلة لا يزداد سعر الضريبة على أطنانهم فى المستقبل ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة الخ .

أما الأراضى العشورية فقد كانت فى بداية أمرها أراضى بورا وزعها الولاة السابقون على أتباعهم بشرط أن يصلحوها فى مقابل إعفائها من الضرائب اعفاء تاماً دائماً . ولا ريب أن الرجوع فى هذه الهبة مستحيل بمقتضى أمر خديو عال وبخاصة إذا كان إصدار هذا الأمر بناء على طلب الأجانب ولمصلحة « المرايين » الأجانب .

وبمناسبة اقتراح إلغاء قانون المقابلة كما جاء فى مشروع السير ريفرز ولسن نقبس من كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى للمستتر بلنت ص ٤٤ قوله : « إن مشروع إلغاء نظام المقابلة الذى لو تم لكان معناه مصادرة أراضى تبلغ قيمتها ١٥ مليون جنيه أقلق بال كل مالك وحمل الناس على الاعتقاد بأنه قد يناهضهم على يد ناظر المالية الانجليزى أسوأ مما نالههم على أيدي سابقه . »

فلا جرم إزاء هذا القلق العام أن يبق مشروع اللائحة الوطنية ضريبة المقابلة التى اقترح مشروع السير ريفرز إلغائها .

الخديو يقبل اللائحة الوطنية

فأنت ترى أن الخديو كما أنه لم تكن له يد فى تدبير فتنة الضباط كذلك لم تكن له يد فى الاجتماعات التى انتهت بوضع اللائحة الوطنية . فكما أن الأولى قامت من تلقاء نفسها احتجاجاً على تخفيض مرتبات الضباط بعد تأخير دفعها عشرين شهراً ، كذلك ==

المفروضة عليهم نزولا تاماً في مقابل أن يدفعوا إليه مقدماً في وقت معين



المستر ولفرد بلنت

صديق العراقيين وصاحب كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطاني

== قامت الثانية من تلقاء نفسها بعد أن أبصر كل ذى عينين الهاوية التي كانت الوزارة الأوربية تدفع البلاد إليها .

ولكن السير ريفرز وقد استشرى في جسمه الحقد على اسماعيل لم ير في كل هذه الحركات والاجتماعات — كما زعم — إلا تدبيراً من ناحية الخديو تمهيداً للضربة الأخيرة التي كانت سمومه يعدها والتي ادعى أنها كانت نزولاً على إرادة الرأي العام المتبرم بالوزارة الأروبية . (كذا ، كذا)

وقد ذهب وفد من الأمراء إلى الخديو وقدموا له اللائحة فاستجاب إلى مطالبهم وأقرها وأمر بترجمتها وكتابة عدة نسخ بالفرنسية منها لأرسالها إلى قناصل الدول ووقع على هذه النسخ راغب باشا بالنيابة عن الموقعين من النواب والأعيان واحمد رشيد باشا بالنيابة عن أعضاء مجلس شورى النواب والسيد على البكرى بالنيابة عن العلماء والتجار وراتب باشا بالنيابة عن الضباط . وقد اعتزم الخديو تشكيل وزارة برئاسة شريف باشا نزولاً على إرادة الأمراء . وتمهيداً لذلك استقال توفيق باشا بحجة أن الوزيرين الأوربيين أهملوا كلية كائن لا وجود له .

وأما السير ريفرز فانه لم ير في أصحاب هذه التوقعات إلا جماعة من الموظفين ==

سنة أمثال هذه الضريبة. فجمع بهذه الطريقة مبلغ ١٦٠٠٠.٠٠٠ ر. جنيه

== والاعيان والعلماء جمعهم الخديو لقضاء مآربه . وكانت لجنة التحقيق العليا التي استأنفت أعمالها قد وضعت مشروعا للتسوية المالية (وهو الذى عرف بمشروع ولسن) جذبه الماجور بارنج ورآى السير ريفرز من باب اللياقة والمجاملة إرساله إلى الخديو للاطلاع عليه قبل توقيعه بشرط أن يعد سموه الأيفشى شيئا من محتوياته . ولكن سموه - هكذا زعم السير ريفرز - جمع الموظفين والاعيان والعلماء وأطلعهم على صورة التقرير وكلفهم بوضع مشروع مضاد لمشروع لجنة التحقيق .

وفى يوم ٦ أبريل طلب السير ريفرز وزميله دويلنيير مقابلة الخديو واحتجا رسميا على تصرفه وقالوا إن ما فعله يزعزع سلطتهما . فقبل سموه ملاحظتهما باحترام كما قال . السير ريفرز ، دون أن يفسر لها سبب حشيه بالوعد لانه كان قد أحرق سفنه ، ثم كلف شريف باشا بتشكيل وزارة كل أعضائها من الوطنيين .

فهل رأيت إلى أى حد تقلب الحقائق وتمسخ الوقائع الملبوسة ؟

اسماعيل يستدعى القناصل

وفى يوم الاثنين ٧ ابريل استدعى سموه قناصل الدول إلى سراى عابدين وحضر الاجتماع السيد البكرى وراغب باشا وشريف باشا وعبد السلام بك المويلحى ومحمد بك راضى . وحدث الخديو القناصل فى شأن اللائحة الوطنية التي رفعت إليه من أحرار البلاد وقال إنه إزاء الرغبة العامة من جميع الطبقات وإزاء السخط المتغلغل فى سائر أنحاء البلاد يرى أن الأمر قد وصل إلى درجة لا تطاق يتعين معها اتخاذ إجراءات حاسمة ثم قال : « إن الأمة تحتاج أشد الاحتجاج على إعلان حالة الافلاس التي فكر فيها السير ريفرز ولسن وتطالب بتشكيل وزارة مصرية صحيحة تكون مسؤولة أمام مجلس النواب . » ثم أضاف الخديو : « إن الأمير محمد توفيق رغبة منه فى عدم مصادمة عواطف الأمة قد استقال من رئاسة الوزارة وأنه عهد بتأليف الوزارة الجديدة إلى شريف باشا . »

واستطرد سموه فصرح للقناصل بهذه العبارة :

« ولن أتحول عن حكم البلاد طبقا للرسوم الصادر فى ٢٨ أغسطس الذى قرر مبدأ المسؤولية الوزارية . » ثم إن مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ الذى وضع بعد الاتفاق مع بعثة غوشن جويير (الخاص بإنشاء المراقبة الثنائية) سيظل محترما . »

أنفق في استهلاك الدين السائر . ثم إنه لجأ إلى عقد قرض إجبارى بمبلغ

وقد أرسل الوزيران الأوربيان إلى الخديو في نفس ذلك اليوم احتجاجهما على قبوله اللائحة الوطنية إذ يعتبرانها مخالفة لسلطة مجلس النظار ويتنافى مع ما وعد به سموه من معاونة الوزارة حين تأليفها .

ولكن الخديو رد على هذا الاحتجاج في اليوم نفسه بدعوة شريف باشا لتشكيل الوزارة .

كتاب الخديو إلى شريف باشا

اسماعيل يقرر مبدأ الشورى

وإنه لما يطرأ له كل مصرى غيور ويخفق له فؤاده أن يقرأ ذلك الخطاب التاريخى الذى أرسله اسماعيل إلى شريف باشا يكلفه فيه بتشكيل الوزارة . فهو والحق يقال من أهم الوثائق في تاريخ النهضة المصرية وحسبك أنه يقرر مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب باعتبارها أساس النظام الدستورى الحديث . وهذا تكون مصر قد نالت في سنة ١٨٧٩ هذا الحق الهام الذى هو قوام الدساتير العصرية ويكون اسماعيل الذى انشئ مجلس شورى النواب في أوائل عهده (١٨٦٦) ضعيف الحول معدوم القوة ناقص السلطة هو نفسه الذى لم يرض على أمته بتشكيل سلطة مجلسها المذكور بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه سنة ١٨٧٩

ولعل نفسك قد تافت إلى مطالعة ذلك الكتاب التاريخى لشريف باشا فإليك نصه كما جاء معرباً في الوثائق الرسمية عن أصله الفرنسى ننقله عن كتاب الأستاذ الرافعى بك . قال اسماعيل مفاخرًا بوطنيته وبمصريته :

« إني بصفة كونى رئيس الحكومة ومصرياً أرى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية . لكن لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لي غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الأمة والأهالى حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى في جميع القلوب وحركا وكانت قبل ذلك في غاية الهدوء والسكون . وطالما أخبرت النظار وكلاء الدول ونهتهم على تلك الملاحظات فلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا إليها . وزيادة عن ذلك فإن النتيجة التى حررها ناظر المالية وأظهر بها أن القطر في حالة العدم وأبطل العمل بمقتضى القوانين المعتمدة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة ، كانت سيئاً في تغير قلوب الأمة ونفورها من هيئة النظارة كل النفور »

٢٠٠٠ ر ٢٠٠٠ جنيه . ثم لم يحل شهر نوفمبر من عام ١٨٧٥ حتى كانت

وحقول ذلك المحضر الذى تقدم لى فى هذا الخصوص . فاجابة لما عرض على بذلك
وبالنظر لثبوته عندى قد وكلتم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الأرادة الصادرة فى ٢٨
أغسطس سنة ١٨٧٨ وأن تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء أهليين مصريين يتبعون
فى سيرهم الطرق المنصوص عليها فى الأرادة التى يجب المحافظة عليها بكل دقة مع زيادة
نوكيدها وتثبيتها بجعل الوزراء مسؤولين مسؤولية حقيقية أمام مجلس الأمة الذى ستنظم
طريقة انتخابه وتقرر حقه على النحر الذى يكفل مقتضيات الأحوال الداخلية ويحقق
الأمانى القومية . ولتجند النظارة قبل كل شئ فى أن تستعد لاستحضار قوانين مماثلة
للقوانين الجارى عليها العمل فى أوربا مع مراعاة عوائد الأهالى وأخلاقهم وما يلزم
هم . وتلتفت أيضا تلك الوزارة كل الالتفات لتنفيذ ترتيب المالية الذى رتبه أعيان القطر
وكبرائه وحصل التصديق عليه منى ولا تتأخر عن اجراء اللازم فى إيجاد مصلحة لتفتيش
الإيرادات والمصروفات (أى نظام المراقبة الثانية) لأنها هى التأمين اللازم للقطر
والمنافع الموهونة عليه ومنصوص عنها فى الأرادة الصادرة فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٦
هذا ولعلنى بحسن اخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا على تلك المأمورية
بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع لتتم بكم المقاصد المؤدية إلى
التقدم والعمارة التى أريد أن يقرن بها اسمى ولتكن دولتكم على يقين من عظيم تقديرى
وصادق محبتي .

د اسماعيل

١٧ ابريل سنة ١٨٧٩

هذا هو ماسماه مروجو الدساتر « بالانقلاب الحكومى » وهى تسمية ولا شك
عربية ! إذ هل حاول اسماعيل بعمله هذا أن يمس مصالح الدائنين ؟ كلا . وهل أدل على
حرصه على هذه المصالح من إشارته الصريحة إلى وجوب إيجاد مصلحة لتفتيش الإيرادات
والمصروفات (أى نظام المراقبة الثانية المقرر بمرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦) ؟ إن
كل ما فعله بذلك الانقلاب الذى هال له الشعب المصرى لا يخرج عن إبعاد العناصر التى
ضجت منها البلاد وضافت ذرعا بها . نعم لم يفعل أكثر من استبدال الوزيرين الأجنيين
ووزارة كانت مهمتها قبل كل شئ خدمة المرايين بوزارة وطنية مسؤولة أمام برلمان
الشعب . فهل يصح أن يسمى هذا انقلابا مع أن الرجل لم يخطر له المساس بالمصالح الأجنبية
أم أن الانقلاب الحقيقى هو تبرم الدائنين بهذه الوزارة الوطنية وتأميرهم على خلع
اسماعيل بلا رجه حق كما حدث بعد ؟

السندات المصرية قد هبطت إلى ٥٤٪ بينما كانت سندات الخزينة تنضم

اسماعيل يعمل داخل حدود سلطته

ويحق لنا أن نتساءل هل كان اسماعيل باشا باسقاطه الوزارة الأوربية يعمل في داخل حدود سلطته الشرعية أم أنه تجاوزها؟ إننا إذا نظرنا إلى ص ١٩٢ من مذكرات السير ريفرز ولنسن لرأيانه يذكر في كثير من الآلم حقيقة مرة كانت منسية لدى سواد الجمهور إلى أن أعلنها السير ستافورد نورثكوت وزير مالية إنجلترا . تلك الحقيقة هي أن السير ريفرز عند ما ذهب إلى مصر كما أعلن السير ستافورد في مجلس العموم « ذهب بصفته ناظرًا من نظار الخديو فلمسوه الحق المطلق في عزله إذا اقتضت المصلحة ذلك » . إذن لم يتجاوز اسماعيل حدود سلطته عند ما عزل السير ريفرز بعد أن رأى المصلحة تقتضي ذلك . يسلم السير ريفرز بهذه الحقيقة ولكنه يقول « لا ينبغي أن يصرح الإنسان دائماً بالحقيقة كلها » . فليكن هذا رأيه ولكن بما لاجدال فيه أن اسماعيل لم يرتكب أمراً إذا وبخاصة متى ذكرنا أنه اتفق - كما مر بك - مع الحكومتين الانجليزية والفرنسية على أن تعاد المراقبة الثنائية حتماً إذا فصل أحد الوزيرين الأجنيين من منصبه من غير موافقة حكومته . وقد رأيت إشارة الخديو الصريحة في خطابه لشريف باشا إلى إيجاد نظام المراقبة الثنائية مما يدل على أن الرجل لم يبحث باتفاقه ولم يفعل إلا ما هو من حقه المشروع .

تقرير لجنة التحقيق العليا

حدث كل هذا في يوم ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ . وفي اليوم التالي كانت لجنة التحقيق العليا قد أتمت تقريرها وأعلنت فيه أن مصر في حالة إفلاس فينبغي معالجة حالتها المالية على هذا الأساس .

ولما كانت الوزارة قد استقالت فلم يقدم التقرير لها لانشغال شريف باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . ولكن أعضاء لجنة التحقيق أرادوا أن يقوموا بمظاهرة ضد الخديو ولاجترائه على الانتفاع بحقه في اسقاط الوزيرين الأجنيين . ففي يوم ١٠ ابريل قدموا إلى اسماعيل استقالتهم مشفوعة بخطاب يتضمن التقرير الذي وضعوه . فما كاد الخديو يحيل نظره فيه حتى أعلنهم أنه لا يستطيع قبول ما وصلوا إليه من النتائج من أن بلاده أصبحت في حالة إفلاس . ثم رد عليهم باعلان المشروع المالي الذي تضمنته اللائحة الوطنية وسبقت الإشارة اليه .

بسعر ٣٠ ٪. وفي ابريل سنة ١٨٧٦ تبين استحالة أداء الكوبون حتى
برغم جلد الفلاحين وهكذا توقف الدفع لأول مرة .

== ولقد أخذ الاسيائ من اسماعيل مأخذه حتى أنه احتج على دعوى الافلاس وقال
فيما قال :

« لقد تنازلت أسرقى عن الجزء الأكبر من أراضيها مساعدة للدولة ولا تزال على
استعداد لبذل تضحيات أكثر من هذا . فجوهرات أميرات الأسرة الخديوية تحت تصرف
دائني مصر . فكل فدان في حيازتنا بل وكل جوهرة في حيازة أميرتنا هي رهن إشارة أو كلة
من الدائنين . كل هذه التضحيات نقدها على مذبح الوطن عن طيبة خاطر ولكننا
نرفض بتاتا التسليم بالافلاس . »
وهي لعمر ككلمات صادرة من ذلك القلب الكبير المفعم بالآسى . ولكنها وقعت
ويا للأسف على آذان صماء .

الأضراب عن العمل

قد رأيت إذن أن اسماعيل لم يخرج في تصرفاته عن استعمال الحق الذي له كرئيس
للدولة وسيدها الاسمي كما أشار إلى ذلك وزير المالية البريطانية . فبعد أن استقال أعضاء
لجنة التحقيق وسقط الوزيران الأجنيان كان المعقول أن تعاد المراقبة الثنائية طبقاً
للاتفاق المفقود بين الخديو وحكومتي فرنسا وانجلترا في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٦ .
ولكن هل تعلم ماذا حدث ؟

عند ما أدهج الوزيران الأجنيان في وزارة نوبار تقرر إلغاء منصب المراقبين
العموميين . ومع أن الخزانة العمومية كانت خاوية على عروشها فقد رؤى « جبر نجا طر »
المستر رومين المراقب الانجليزى وزميله الفرنسى البارون دو مالاريه باعطاء كل منهما
مبلغ ٤٠٠٠ جنيه ١١ ولما كان اتفاق ٨ نوفمبر يحتم إعادة العمل بنظام المراقبة الثنائية إذا
سقط أحد الوزيرين بدون موافقة حكومته رأى اسماعيل أن يدعو السيرافين بارتيج العضو
البريطاني بصندوق الدين وزميله الفرنسى المسيو بليج دي بوجاس للقيام بأعمال المراقبين .
فامتعا وأجابا بالرفض التام . فكان امتناعهما هذا لعلامة متفق عليها . لأن كبار الموظفين
الأجانب في القاهرة سرعان ما أعلنوا شبه اضراب عن العمل لشل حركة الوزارة التي
كان شريف جادا في تشكيلها انتقاما من اسماعيل لجرأته على استعمال حقه المخول له .
وهو الحق الذي لم يجادل فيه وزير المالية البريطانية نفسه .

فصدر أمر عال في ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بتلبية مطالب الدائنين الأجانب

اسماعيل يحبس نبض الاستانة

كان اسماعيل من الدهاء وبعد النظر بحيث أدرك أن أعماله هذه كلها لا غبار عليها من الناحية القانونية . كذلك أدرك أن فرنسا وانجلترا بل والدول الأوربية مجتمعة لن تستطيع أن تمسه بسوء ظالمها أن جلالة السلطان لا يمالئ الخصوم ضده . ولذا راح اسماعيل يحبس النبض في الدواوين الرسمية في الاستانة . ولعلك لم تنس مندوبه ابراهيم الأرمني . فبينما كانت الأمور التي سردناها عليك تحدث في القاهرة كان اسماعيل قد اتصل بمندوبه الأرمني المذكور للوقوف منه على مدى ما تبذله الدولتان الكبيرتان من التأثير ضده لدى الباب العالي .

وفي يوم ١٣ ابريل تلقى سموه هذين الردين وقد جاء في أولهما العبارة الآتية :
« تلقيت أوامر مولاي السامي القدر فقامت من فوري لتنفيذها حرفياً . وقد قابلت الصدر الأعظم في هذا الصباح . فقال لي ما يأتي : « لم نسمع بشيء من فرنسا ولا من انجلترا بصفة رسمية . وليست للكاتبات الغير رسمية أية قيمة ولا وزن لها في نظر مجلس الوزراء » .
واليك نص الرد الثاني وفيه إشارة إلى مساعي حلیم باشا حيال الأريكة الخديوية .

قال ابراهيم :

« تجري هنا دسائس كثيرة ومعقدة . حلیم باشا يذهب إلى السراي ويلبث في حضرة جلالة السلطان ساعات عديدة كل يوم . ولست أظن أن الأمير يتكلم عن مولاي الخديو كلاماً طيباً ولكن من حسن الحظ أن رأى جلالة السلطان في حلیم باشا لا يشرف . »
ومنذ هذا التاريخ إلى اليوم الذي غادر فيه اسماعيل مصر ظل اسم حلیم باشا يتردد على الألسن . وليس شك في أنه لولا فرمان الذي حصل عليه اسماعيل بتغيير نظام الوراثة لنجحت مساعي الأمير في الحصول على العرش . وقد أفرغ كل ما في جعبته للاستفادة مما كان يحيط باسماعيل من المتاعب . وقد تقدم فعلاً باقتراح لخلع سموه وإحلاله هو مكانه . ويؤخذ من الخطابات والبرقيات التي تبودلت مع ابراهيم أن «سفيرين من سفراء الدول العظمى كانا يرقبان هذه المساعي بأكثر من مجرد الاهتمام الأفلاطوني» على حد تعبير المستر كرايتس .

تدبير القنصل الأمريكي بالدسائس ضد اسماعيل

ولما كانت الحقيقة لا تعدم أنصاراً فإن هذه الدسائس التي ظلت تحاك خيوطها =

بتعيين حراسة أجنبية تسمى لجنة الدين . وقد قبلت حكومات فرنسا

== أمدا طويلا ضد اسماعيل لم تمر دون أن يندد بهارجل محايد لا مصلحة له وهو القنصل أمريكا العام في القاهرة المستر فارمان الذى عينته حكومته فيها بعد قاضيا في المحكمة المختلطة بمصر . ولم يكن المستر فارمان ينتظر أن ترى ملا حظاته ضوء الشمس يوماً ما ولذا كتب ما كتب بصراحة غير مألوفة في لغة رجال السياسة . وقد أرسل في ٢١ مارس سنة ١٨٧٩ (أى قبل سقوط الوزيرين الأوربيين) للمستر وليام ليفارت وزير خارجية الولايات المتحدة خطابا غير رسمى قال فيه :

• يستحيل على المرء تحليل المسلك الذى تسلكه إنجلترا وفرنسا حيال مصر أو إرجاعه إلى اسباب مالية بحتة . للجماعات المضارين في باريس ولندن وهم الذين يقدمون المعلومات هم المشرفون على الصحف ولذا صار في استطاعتهم إيجاد رأى عام إلى حد ما بالنسبة للشؤون المصرية . فليس هؤلاء الجماعات بالطبع أى اهتمام بشيء عدا الشؤون المالية وكل غايتهم هى زيادة قيمة سنداتهم . ولكن حكومتى هؤلاء المضارين - وبخاصة الحكومة الانجليزية - لا بد وأن تكون لها غاية أخرى محتمرة لديها . وقد يلوح للشخص الذى يقف من الحوادث موقف المتفرج المجرد من المصلحة أن المقصود هو إيجاد فتنة أو ثورة - إن أمكن - لاتخاذها ذريعة للاستيلاء على البلاد (كذا)

• ومهما أنحى الانسان على الخديو باللائمة لتسببه في تحميل مصر هذه الديون فليس شك - على ما يلوح لى - فى أنه قد بذل أقصى ما فى استطاعته فى خلال العامين الماضيين لتخفيض المصروفات مرضاة للدائنين .

فيما كان السير ريفرز يثير الغبار حول اسماعيل ويتضجر منه ويحرض دولته عليه كان الشهود العدول المحايدون يؤكدون أن الخديو بذل كل ما فى استطاعته لأرضاء دائنيه .

ولم يقف المستر فارمان عند هذا الحد . بل إليك رسالة أخرى كتبها إلى حكومته بين لها كيف أصبح اسماعيل ضحية الدائنين . قال :

• لقد استخدمت إنجلترا وفرنسا سلطتهما فى إرغام مصر على دفع فوائد لاقبل لها بهل وخارجة عن طاقتها بالكلية . والأدهى من ذلك أن هذه الفوائد هى عن ديون لم تسلمها مصر قالاً لهم بيعت فى البداية بسعر يتراوح بين ٦٠ - ٧٠٪ . بل إن العالمين بحقائق الأمور يؤكدون أنه بعد دفع البقشيش والعمولة وما إليهما من النفقات لم يدخل الخزنة أكثر ==

والنمسا وإيطاليا أن يكون لكل منها مندوب في هذه اللجنة . ولكن إنجلترا



عمر باشا لطفي الذي كان فيما بعد وزيرا للحرية وقت حريق الاسكندرية

== من ٥٠ ٪ لا بل إن الكثير من حملة القراطيس الحاليين لم يدفعوا سوى ٤٠ أو ٣٠ ٪
عن الأسهم ومع ذلك فانهم يطالبون بفائدة ٦ ٪ على اعتبار أنهم دفعوا ثمن السهم كاملا .
ثم إن كثيرين من حملة الاسهم الحاليين — وبخاصة ذوى النفوذ منهم كانت لهم مصلحة
في عقد القروض الأصلية وقد جمعوا ثروة هائلة من جراء مضارباتهم في السندات المصرية .
ولم يشأ ذلك القنصل النزيه أن يحتم كلامه دون أن يشفعه بالملاحظة الآتية وهي
نصيحة قدمها للحكومات الأجنبية بأنها بدلا من أن ترهق الفلاحين وترغمهم على أن
يردوا إلى الدائنين أموالا لم يتسلمها الخديو بتاتا وأن تخاطب الدائنين بهذه الالفة
الحازمة فتقول لهم « لقد ارتكب خطأ موق ضد الشعب المصرى وبالفما ما بلغ نصيب
حكومتهم من ذلك الخطأ فليس ريب في أنكم تتحملون قسطا من تبعه ذلك الخطأ . وقبل
أن تنتظروا حتى مساعدتنا الادبية لتحقيق مطالبكم ينبغي عليكم أولا تخفيض تلك
المطالب إلى القيمة التي أقرضتموها فعلا . »

حقا كان هذا كلاما صريحا وعادلا ولكن هيات أن يكون له أى أثر في قلوب .

الدائنين بعد أن أصبحت متحجرة من جراء الاسراف في المطامع ١١

تشكيل وزارة شريف باشا

قلنا إن الخديو كلف شريف باشا بتشكيل وزارة وطنية فقام الباشا بهذه المهمة

وألّفها على النحو الآتي :

مانعت فيها وارسلت رجلا من رجال المصارف يدعى المستر كيف فوضع

شريف باشا - الرأسة والداخلية والخارجية
شاهين باشا للجهادية - (الحرية والبحرية) انظر ص ٣٧٤ وكان من أركان الجمعية الوطنية
زكى باشا - للأشغال العمومية

ذو الفقار باشا - للحقانية
محمد ثابت باشا - للعارف والأوقاف انظر ص ٤٠٤

عمر لطفي باشا - لتفتيش عموم الآلة ليم البحرية والقبلية

وعرض شريف باشا قائمة الوزارة على الخديو مشفوعة بالخطاب التالي :

« مولاي . إننى طبقاً للأمرورية التى تنازلتم بتقليدى إياها أتشرف بأن أعرض على
سموكم تأليف الوزارة على النمط الآتى (الاسماء) فأوئل أن هؤلاء الأعضاء المكتسبين
اعتبار البلاد وثقتها والمحترمة سلطتهم فى مطلق أنعمائها يصادفون من سموكم القبول والتصديق
فتنازلوا . مولاي واقبلوا علامات احترامى الفائق فانى خادماً سموكم الأمين
٨ ابريل سنة ١٨٧٩ شريف »

ابتهاج البلاد بتأليف الوزارة

ثم صدر المرسوم الخديوى بتأليف الوزارة على النحو السابق . ولا تسئل عن مبلغ
ابتهاج البلاد بقبول الخديو للأمتة الوطنية وتشكيل الوزارة الشريفة . وفى يوم تشكيل
الوزارة (الثلاثاء ٨ ابريل) اجتمع العلماء والكبراء والأعيان والتجار بمنزل السيد
البكرى وذهبوا بعد الظهر إلى قصر عابدين لتقديم شكرهم للخديو فاستقبلهم بالرعاية
والأكرام وحشهم على التضامن والتعاون . وخطب السيد البكرى بين يدى سموه وكان
مما قاله « إن ذلك اليوم الذى يصح أن يجعل ذكر الحضرة الخديوية غرة فى جبهة التاريخ
لهو يوم عيد للوطن وللحرية . » وتعاقب بعده الخطباء . وأخيراً قام الخديو فقال « إن شاء الله
تنال مدعواتكم الصالحة غاية المراد وتوطد الراحة والنظام . » ثم استقبل سموه التجار
وحضهم على التضامن .

وعمت الأفراح أنحاء البلاد فأقيمت الحفلات ابتهاجاً بالعهد الجديد . وأقام السيد
البكرى فى مساء الأربعاء (٩ ابريل) مأدبة شائقة حضرها الوزراء والكبراء والعظماء
وبطيريك الأقباط ومثلو الأمة . وحضر الخديو نفسه المأدبة ليلاً وجلس نحو خمسة
وعشرين دقيقة فى الدار يؤانس العلماء والكبراء ويتبسط معهم فى الحديث مما كان له أكبر
وقع فى نفوس الحاضرين

تقريراً عن حالة مصر وقال إن البلاد يمكن جعلها قادرة على تسديد ديونها .

== وأقام ابراهيم بك المويلحي (ص ٤٥٧) ومحمود بك العطار شاه بندر التجار والسيد محمد السيوفى (ص ٤٢٣) وغيرهم زينات فاخرة أمام منازلهم ابتهاجاً بالعهد الجديد .
رأى السير ريفرز واسن فى هذه الحفلات

بعد سقوط الوزارة المختلطة عاد السير ريفرز إلى بلاده لاستئناف أعماله فى إدارة الدين الأهل . ثم دعى فى أواخر يونية سنة ١٨٧٩ (أى قبل خلع الخديو) لأبداء رأيه فى الشؤون المصرية بمناسبة تشكيل لجنة النصفية . ونظرة واحدة إلى الفصل العشرين من مذكراته تبين لك أن الغرض جعله غير قادر على ذكر اسماعيل بكلمة طيبة واحدة !! فقد أخبرنا فى الفصل المذكور أنه أرسل خطاباً مطولاً بتاريخ ٢٥ يونية إلى وزير المالية البريطانية السير ستافورد نورثكوت . والخطاب كله مديح وتغنى بأخلاق نوبار وشجاعة نوبار وأمانة نوبار وما كان ينتظر على يديه لمصلحة مصر ومصلحة الدائنين لو كانت سنده انجلترا وفرنسا إلى النهاية !!

وهذا التمدح ليس بمستغرب من السير ريفرز لأن نوبار كان لا يصدر فى أمر إلا عن إرادة زميله الانجليزى . إنما المستغرب فى خطاب السير ريفرز أن يصف كل هذه الحفلات السابق ذكرها بأنها جزء من المهزلة التى دبرها الخديو حيث قام بمظاهرة من العلماء ومشايخ الدين برآسة السيد البكرى مع أن المسألة كلها — كما يعرف الناس جميعاً — لم تكن سوى لعبة اخترعها اسماعيل وعمل على تشجيعها ، !!

ثم راح السير ريفرز يحدثنا عن حكم نوبار وشعور البلاد نحوه وراح يتساءل قائلاً هاملاً ملخصه : لقد زعم البعض أن نوبار كان مبغوضاً فى مصر . فان كان المقصود أنه مبغوض من لفيف الباشوات وهم نصف أجناب فان الجواب بالإنجاب . أما إنه كان مبغوضاً من الشعب ، فالجواب سلبي الخ .

ومع أننا لم نكن نأخذ ما يكتبه السير ريفرز عن اسماعيل وحكمه إلا بالاحتياط الشديد فقد كنا نستبعد أن يأكل الحقد صدر هذا الرجل إلى حد يجعله يسترسل فى الخيال ويمسح الحقائق إلى هذا الحد ويخط أشياء لا تثير إلا الازدراء والسخرية .

زأى القنصل الأمريكى فيها

نوبار غير مبغوض فى مصر ! هذا ما يتدعه خيال السير ريفرز . ولكن ما قولك فى القنصل الأمريكى السالف الذكر وهو كما تعلم رجل بعيد عن التحيز ولم تكن ==

وقد أكد لورد دربي « أن مهمة مستر كيف لا تنطوى على أية رغبة في التدخل في شؤون مصر الداخلية » (أوراق الدولة ٨٣ سنة ١٨٧٦ ص ٢)

== لبلاده أية مصلحة في النزاع الجارى كما يشهد بذلك كتابه إلى وزير خارجية بلاده في ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٩ ؟ فانظر ماذا قال عن نوبار ووزارة نوبار وأصدقاء نوبار . قال بعد الديباجة :

..... وإلى لا أعلم أن هذه البلاد (يقصد مصر) بعيدة عن شواطئنا وأن مصالحنا فيها من التفاهة بحيث لا تقابل تفاصيل ما يحدث فيها بنفس الاهتمام الذى تقابل به فى أوروبا . فرجوا أن يلاحظ القارىء قول القنصل « إن مصالح امريكا فى مصر هى من التفاهة الخ ، وهذا ما يجعل ملاحظات القنصل بعيدة عن التحيز لأنها مجردة عن المصلحة . والآن فإليك بقية خطابه :

« ولكنى أرى برغم ذلك (أى برغم تفاهة المصلحة) أنه ينبغى على ألا أترك إخطاركم ببعض ما يجرى مشفوعاً برأى فى الحكم الانجليزى الفرنسى القائم فى مصر

« فهذه الحركة كلها (يشير إلى سقوط الوزيرين الاجنبيين) قوبلت هنا بمنتهى الارتياح . أما السر فى أن الشعب قد رحب بها فرجعه إلى حد كبير إلى أن هذه المحاولة الشاذة وهى حكم البلاد بواسطة وزارة مختلطة وغير مسؤولة لمصلحة الدائنين الاجانب قد قام البرهان القاطع على أنها محاولة فاشلة .

« ولست أدرى إذا كان هذا النظام سيستمر العمل به اذا استخدمت القوة . ولكن هذا لن يغير الحقيقة الواقعة وهى أنه نظام فاشل وأن المسألة بخلافها كانت غلطة سياسية وفى الوقت نفسه خطأ موبق . .

ثم راح القنصل النزيه يفسر ما أراد فقال :

« أما إن النظام كان غلطة سياسية فلا أنه كان تدخلاً فى شؤون الحكم الداخلى فى بلاد أجنبية لا لشيء سوى مصلحة جماعة من الدائنين الاجانب ممن سعوا للأثر على حساب سندات منخفضة الثمن تحمل فوائد غير مسموح بها فى بلادهم

« وأما إنه كان خطأ موبقاً فلا أنه كان بمثابة محاولة لا رغام المصريين على دفع أموال خارج عن طاقتهم دفعها بل إنهم فضلا عن ذلك يرون أنها تفوق بمراحل ما هم ملزمون أدبياً بدفعه . ولا توجد فى أوروبا أمة واحدة كانت تحتل ضروب الابتزاز هذه . ولو أن ما تعرضت له مصر من الضغط والارهاق تعرضت لربعه إحدى ولاياتها لكانت ==

ولم يكن حملة قراطيس دين الدائرة السنية الأنجليز أقل تشككا . فظراً

== النتيجة ثورة عامة تحرق الأخضر واليابس .

فإذا عسى أن يكون رأيك بعد الآن في أقوال السير ريفرز وهو الذى استساغ الاختلاق على الواقع المحسوس ؟ لا نظن أن أقواله أجدر بأن توضع في أرق من مستوى أقوال مدام أولمب أدوار ومن هم على شاكلتها .

وزارة شريف باشا تواجه مجلس النواب

ويمس الآن أن نترك تعقب السير ريفرز في أقواله الدالة على التحيز الشنيع و نلتفت إلى ما حدث بعد تشكيل الوزارة الشريفة .

فأنت تذكر أن الوزارة المختلطة كانت عولت على فض دورة مجلس النواب وأن الأعضاء أبوا الانصراف إلى ديارهم عند مجاء رياض باشا يقرأ عليهم أمر الانقضاء . فلما تشكلت الوزارة الجديدة كانت با كورة أعمالها اقرار مجلس النواب على استمرار انعقاده احتراماً لقراره الذى أعلنه في مواجهة رياض باشا . وبهذا أبدت الوزارة المجلس في موقفه التاريخي .

وفي يوم ١٠ ابريل (أى بعد تشكيل الوزارة يومين) اجتمع المجلس وتليت عليه المكاتبة الواردة من وزارة الداخلية . وهي كما ذكرت في كتاب الأستاذ الرافعي بك : « ولو أنه كان تقرر بمجلس النظار السابق انقضاء عقد مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسباً تحرر لسعادتكم في ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٢١ لكن حيث مقتضيات الأحوال مستلزمة بقاءه لهذا كره والمفاوضة معه في بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره واقتضى تحريره لسعادتكم للاحاطة بذلك وتفهم حضرات أعضائه بعدم الانصراف . »

ومن ثم استقر رأى المجلس على مواصلة الحضور لهذا كره فيما تقدمه الحكومة من المواد . وبينما كانت حوادث مهمة تقع في نواح أخرى ظل المجلس يوالى اجتماعاته إلى أن كان يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ حيث رأس اجتماعه وقتاً حسن راسم باشا ناظر الدائرة السنية بدلا من أحمد رشيد باشا المريض فأبلغ الأعضاء أن رئيس مجلس النظار سيحضر اليوم لتقديم اللائحة الأساسية الجديدة للمجلس .

خطاب تاريخي لشريف باشا

وفعلا حضر شريف باشا وقال إنه مكلف من قبل الحكومة السنية بتقديم اللائحة ==

لعدم ارتياحهم للأمر الصادر في ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الديون

الأساسية (الدستور) ولائحة الانتخاب الجديدتين وقد وضعنا بناء على اللائحة الوطنية. ثم قال « وقد أحضرت معي اللائحة الأساسية . أما لائحة الانتخاب فهي تحت التمييز والنظر في مجلس النظار وستقدم لمجلس النواب بعد بضعة أيام . ولا يلزمني أن أوضح لحضراتكم أهمية هذه اللوائح لأن المقصود منها أن تكون القوانين واللوائح التي تعمل وما يلزم تنقيحها في الموجود من الأول يكون كل ذلك بعد رؤيته بمجلس النواب والافرار عليه منه وصدر الأمر بذلك . نعم وإن كان تأخير تقديم اللائحتين اللتين ذكرنا عنهما بهذا إلا أن هذا كان لداعي المشغولية التي كانت حاصلة فيما يتعلق بتسديد الكوبون . والله الحمد قد تيسر ذلك . والمأمول أنه بعناية الله وباتحاد الأفكار والقلوب تحصل مزيد الراحة والعمارة للأهالي كما أنه جاري النظر بالمالية في مسألة تسديد الديون السائرة . وبنهوها لابد من حصول كل من أرباب المطالب على حقوقهم . وحيث كان المقصود من تلك اللوائح إنما هو رؤية ما يلزم رؤيته لما يترتب على ذلك من الفوائد والمنافع للأهالي والبلاد فالمرجو من حضراتكم النظر فيها بعين الدقة التامة وإن تراءت لكم ملحوظات ولزم الحال للذاكرة معنا بالمجلس من أجلها فنحن مستعدون لذلك . »

وهكذا أصبح للمجلس سلطة « جمعية تأسيسية » لأنه لا يوضع قانون جديد ولا يعدل قانون قديم إلا بأقرار المجلس وهذا يسرى أيضاً على القوانين الأساسية التي تقرر النظام الدستوري .

وبعد هذا البيان التاريخي تبارى الأعضاء في شكر الحضرة الخديوية على إجابة طلبات الأمة وتألفت لجنة قوامها ١٥ عضواً لبحث هذه اللائحة فكانت بمثابة اللجنة الدستورية .

وفي ٢ يونية سنة ١٨٧٩ قدمت الحكومة لائحة الانتخاب فقبلت على المجلس وأحيلت على اللجنة الدستورية . ولكن أبي الحظ أن يصدر المرسوم بذلك لأن الدول تأمرت على خلع الخديو فغادر مصر في ٣٠ يونية سنة ١٨٧٩

تقدم الحياة النياية في عهد اسماعيل

كثيراً ما أشرنا إلى وجوه التشابه العديدة بين عصر اسماعيل وعصر فؤاد . وتأتى في طليعة هذه الوجوه الحياة النياية والحكم الدستوري . فكما أن جلالة مولانا الملك قد امتاز عصره بالاعتراف باستقلال مصر وقيام الحياة النياية ، كذلك امتاز عصر والده =

طلبوا وضع تسوية على انفراد وحصلوا من المحكمة المختلطة على حكم بنزع
العظيم عن عصور أسلافه بنشأة تلك الحياة وبعثا بعثاً جديداً بما يصح أن يعتبر من أجد
نواحي اسماعيل وأكثرها نفعا لأمته وبلاده . ولا مفر لنا من أن نقول كلمة نحسب
أنها جديرة بأن تملأ كل مصرى فخارا كلما ذكر عهد اسماعيل .

فعند ما اعتلى سموه الأريكة في سنة ١٨٦٣ لم تكن في مصر هيئة نيابية تمثل الشعب
وتشارك في مظاهر الحكم . وقد حرمت البلاد من مثل هذه الهيئة منذ إبطال « مجلس
المشورة » الذي أسسه محمد علي سنة ١٨٢٩

وقد مر عهد عباس وسعيد دون أن يجتمع مجلس المشورة مرة واحدة . فلما تولى
اسماعيل فكر في إنشاء مجلس شورى النواب .

فصير اسماعيل يمتاز إذن عن عصر عباس وسعيد بأنه العصر الذهبي الذي نشأت فيه
الحياة النيابية وتدرجت حتى أتيحت وأنت أطيب الثمرات كما سند لره هنا . ونحسب
أنه لولا العواصف الهوجاء التي عصفت بالحكم الاسماعيلي في آخر يونية سنة ١٨٧٩
لجنت البلاد أطيب الثمرات من هذه النفحات التي أغدقها اسماعيل على شعبه الكريم .

مجلس شورى النواب

ففي سنة ١٨٦٦ وضع اسماعيل لهذا المجلس لائحته . الأولى اللائحة الأساسية
مؤلفة من ١٨ مادة تبين سلطته وطريقة انتخابه وميعاد اجتماعه والثانية اللائحة النظامية
(وهي أشبه بلائحة داخلية للمجلس) مكونة من ٦١ مادة .

ولم يكن رأى المجلس قطعيا بل كانت قراراته مجرد رغبات ترفع إلى الخديو للفصل
فيها . وليس للمجلس أن يبحث في موضوع لا تعرضه عليه الحكومة ، وأن يكون عدد
الأعضاء ٧٥ ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويجتمع المجلس في القاهرة شهرين في كل سنة
من ١٥ كيهك إلى ١٥ أمشير (أى من ١٥ ديسمبر — ١٥ فبراير) ويعين الخديو رئيسه
ووكيله على أن يفتحه سموه بمقالة (خطبة العرش) ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب
لا يقطع فيه بشيء من الأمور التي يقتضى نظرها المجلس الخ

فأنت ترى أن اسماعيل منح البلاد هذا بينما كانت الأمة تغط في نومها فلم تبدر منها
حركة مطالبة . فان دل هذا على شيء فانه يدل على ميل الرجل الغريزي إلى الشورى .
ولم يكن يمكن في ذلك الدور الابتدائي أن يخول اسماعيل المجلس سلطة واسعة دون
أن يسبق ذلك تربية الأمة تربية سياسية وهو ما حدث في أثناء حكمه إلى أن كان دستور
سنة ١٨٧٩ الذي قدمه شريف للمجلس .

ملكية الاراضى المرهونة . وهنالك أرسلوا المستر «غوشن» الذى تمكن

بهم أجريت الانتخابات وافتتح المجلس بخطبة العرش فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ وكان اجتماعه بالقلعة برأسه اسماعيل باشا راغب وحضر الخديو حفلة الافتتاح .

الخديو وخطبة العرش الأولى

وتليت خطبة العرش التى تعتبر من أهم الوثائق فى تاريخ الحياة النيابية . ونظرا لأنها تضمنت قواعد أساسية كحكم الشورى واستنادها فى تقريره إلى آيات القرآن الكريم وإشادة بمزايا ذلك الحكم والتتويه بأن غايته منفعة الجمهور ، وبالجملة فهى تصح أن توصف بأنها فذلكة تاريخية . ولذا رأينا أن نثبتها هنا بنصها لظرافتها كما وردت فى المضبطة الأصلية للجلسة افتتاح مجلس شورى النواب المحفوظة بدار النيابة . قال اسماعيل :

« من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية عن آثار العمار . ووجد أهلها مسلوبي الأمن والراحة ، فصرف المهم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد بإيجاد الأسباب والوسائل اللازمة إلى ذلك ، حتى وفقه الله تعالى لما أراده من تأسيس عمارية الاقطار المصرية ، وكان والدى عوناً له ونصيراً فى حياته ، فلما آلت إليه الحكومة المصرية اقتضى أثر آبيه فى إتمام تلك المساعي الجليلة بكال الجد والاجتهاد ، فلو ساعده عمره لأكملها على أحسن نظام . ثم انقلبت أحوال مصر بعدهما ، إلى أن قدر الله تعالى تسليم زمام إدارة حكومتها إلى يدي . ومن حين تسلمته إلى الآن رأيتم دوام سعي واجتهادى فى إكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية ، بتكثير أسباب العمارية والمدنية أعاننى الله على ذلك ، وكثيراً ما كان يخطر ببالى إيجاد مجلس شورى النواب ، لأنه من القضايا المسلية التى لا ينكر نفعها ومزاياها أن الأمر شورى بين الراعى والرعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات ، وكفىنا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » ، وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ، فلذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر ، تتذاكر فيه المنافع الداخلية ، وتبدى به الآراء السديدة ، وتكون أعضاؤه متركبة من منتخبى الأهالى ، يعقد بمصر فى كل سنة مدة شهرين ، وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم المبارك على يدنا ، الذى أتم فى أعضائه منتخبون من طرف الأهالى ، وإلى أشكر الله على ما وفقنى لهذا الأمر المبرور ، ووافق بقطاتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية ، وفقنا الله تعالى لما فيه منفعة الجمهور ، وعليه الاعتماد فى كل الأمور ،

في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ من توحيد الديون من جديد بطريقة أكثر ملاءمة لهم . ولكن الأرهاق بالغ ما بلغ لم يجد في انتزاع الأموال من

لجنة الرد على خطاب العرش

صادف يوم افتتاح المجلس يوم عيد ميلاد الخديو فوافق المجلس على عدم العمل في ذلك اليوم وتألقت لجنة من عشرة أعضاء لتقديم الجواب على خطبة العرش . وفي اليوم التالي (٢٦ نوفمبر) ذهب رئيس المجلس مصحوباً بأعضاء اللجنة إلى السراي لتقديم الجواب على خطاب العرش وهو طويل مسجع مليء بعبارات الشكر لولي النعم .

الدور الأول

وانقضى معظم الدور الأول في المداولة في مقترحات الأعضاء وهي موجودة كاملة في المضابط الأصلية المحفوظة بمكتبة البرلمان . وفي جلسة ٢٤ يناير سنة ١٨٦٧ أعلن الرئيس ختام الدور . ومن المهم أن نذكر أن البحث في هذا الدور تناول مسألة السخرة وتقسيم الأموال الأميرية وتعميم المدارس الابتدائية . ولم يعرض المجلس للميزانية ولا طلب من الحكومة إطلاعها .

الدور الثاني

١٦ مارس سنة ١٨٦٨ — ٢٣ مايو سنة ١٨٦٨ تأخر افتتاح المجلس في هذا الدور بسبب مرض الخديو . وقد افتتح اسماعيل الجلسة وتليت مقالة الافتتاح . وفي هذا الدور تناول المجلس البحث في ميزانية البلاد وكان اسماعيل باشا صديق (المفتش) يتولى الرد على ما يطلبه الأعضاء من البيانات .

دور الانعقاد الثالث

٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ — ٢٢ مارس سنة ١٨٦٩ افتتح هذا الدور بخطبة العرش وهي أغزر خطب العرش مادة بسبب ما احتوته من البيانات عن أعمال الخديو منذ تبوؤه الأريكة في سنة ١٨٦٣ لغاية سنة ١٨٦٩ . وكما كانت خطبة اسماعيل في الدور الأول بمثابة فذلك تاريخية عن أعمال محمد علي وإبراهيم باشا كذلك كانت خطبة الدور الثالث بمثابة فذلك عن أعماله هو في خلال السنوات الست التي انقضت قبل هذا الدور .

الفلاحين لوفاء أقساط الدين المستهلك أو الدين السائر أو سد المطالب الأخرى . ويلوح أن اسماعيل رأى أن يرفع عن عاتقه تبعة الرفض ويلقيها على عاتق الأجانب فقرر في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ تعيين السير ريفرز ولسن»

الهيئة النيابية الثانية

انتخابات سنة ١٨٧٠

كانت أول انتخابات لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٦٦ فلما انتهت السنوات الثلاث أجريت انتخابات جديدة للهيئة النيابية الثانية في أوائل سنة ١٨٧٠ وفي أول فبراير سنة ١٨٧٠ افتتح الحديو دور الانعقاد الأول بالقلعة كالمعتاد وانهى في ٣١ مارس سنة ١٨٧٠

دور الانعقاد الثاني

١٠ يونية سنة ١٨٧١

افتتح هذا الدور في الصيف متأخراً عن مياعده بنحو ستة أشهر وجاء الحديو من مصيفه في الاسكندرية لافتتاحه . ونظر المجلس في الميزانية وانهى دور في ١٦ أغسطس سنة ١٨٧١ ثم مر عام سنة ١٨٧٢ دون أن يعقد فيه المجلس .

الدور الثالث

٢٦ يناير سنة ١٨٧٣ — ٢٤ مارس سنة ١٨٧٣.

وقد افتتح الدور كالمعتاد وبحث المجلس في مشروع سكة حديد السودان ونظر الميزانية.

وقف الحياة النيابية سنتين

ويظهر أن الارتباك المالى في سنتي ١٨٧٤ و ١٨٧٥ حال دون انعقاد المجلس فيهما . وكانما كان وقف المجلس هاتين السنتين هو لتحضيره للقيام بالدور الخطير الذى قدر له أن يلعبه في قضية مصر بعد أن تجمعت ذئاب المرابين حول سيد البلاد . ولا تنس العوامل الفكرية التى ظهرت في هذا العهد كانتشار الصحف وحملاتها على السياسة الاستعمارية وهبوط الفيلسوف السيد جمال الدين الأفغانى أرض مصر واجتماع أهل العلم به وظهور آثار النهضة العلمية والادبية بأبهى مظاهرها بما كان له أثر كبير في تطور الأفكار .

والمسيو « دوبلينير » مراقبين ماليين مع تحديد سلطتهما التنفيذية . ولكن الحكومة البريطانية رفضت ما اقترحه من التوسع في استخدام الأجانب في الأعمال التنفيذية ورشحت الماجور « بارنج » (لورد كرومر فيما بعد) لتمثيلها في لجنة الدين (في مارس سنة ١٨٧٧) وفي أغسطس سنة ١٨٧٨

المجلس يعقد اجتماعاً غير عادي

في طنطا

وبعد انقضاء أكثر من عامين دعى المجلس لعقد جلسة غير عادية في أغسطس سنة ١٨٧٦ بمدينة طنطا التي وقع عليها الاختيار بمناسبة قيام المولد الأحمدى . وكان الغرض من الاجتماع البحث في قانون المقابلة وهل يجرى أو لا يجرى العمل به . ولم يحضر الخديو افتتاح المجلس ولا تليت خطبة العرش ووافق الأعضاء على استمرار العمل بقانون المقابلة المذكور مع أن مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ قضى بوقف تنفيذه .

الهيئة النيابية الثالثة

الدور الأول

نوفمبر سنة ١٨٧٦ — مايو سنة ١٨٧٧

في ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ أفتتح الخديو اجتماع المجلس وكان بصحبته الأمير محمد توفيق وزير الداخلية والأمير حسين كامل وزير المالية والأمير حسن باشا وزير الحرية وشریف باشا وزير الحفانية والخارجية وتليت خطبة العرش فأشارت إلى اجتماع طنطا وحضور المستر غوشن والمسيو جويير وعرضت لمسألة تسوية الديون . والمهم في هذه الخطبة أن اسماعيل عملاً بسنة التدرج في ترقية المجلس ورفع مستواه جعل له حقاً ثابتاً في الاشتراك في إدارة شؤون الحكومة وتصريفها وذلك باعلانه أن ابقاء المقابلة مبنى على قرار مجلس شورى النواب في اجتماع طنطا . مما يدل على أن الرجل كان ميالاً بفطرته إلى الشورى وأنه كان يرى من نفسه حافزاً يحفز به لتوسيع العمل بها في بلاده .

ثم انتهى الدور في ١٦ مايو سنة ١٨٧٧

الدور الثاني

مارس سنة ١٨٧٨ — يونية سنة ١٨٧٨

في ٢٨ مارس افتتح الخديو اجتماع المجلس بخطبة العرش وانتخب لرئاسة المجلس =

اجتمع مندوبو الدول في لجنة الدين والمراقبان وغيرهم بصفة لجنة تحقيق وأصدروا تقريراً انتقدوا الحكومة فيه أشد انتقاد وطالبوا بادخال عدة اصلاحات . فرد اسماعيل على هذا التقرير بأنه سوف يحكم البلاد من الآن فصاعداً كأمره بتعيين « ولسن » لوزارة

== جعفر مظهر باشا حاكم دار السودان سابقاً بدلا من قاسم رضى باشا المتوفى ولم ينظر المجلس في الميزانية لأنها لم تكن وضعت بعد انتظارا لنتيجة مباحث لجنة التحقيق .

الدور الثالث

يناير سنة ١٨٧٩ - يولية سنة ١٨٧٩

هذا هو آخر أحوار الانعقاد في عهد اسماعيل . فقد افتتح في يوم الخميس ٢ يناير سنة ١٨٧٩ بعد أن بلغ التدخل الأوربي مبلغه في شؤون مصر المالية وبعد أن شكلت وزارة نوبار المختلطة في أغسطس سنة ١٨٧٨ وجاءت لمواجهة المجلس في دور انعقاده الثالث هذا .

ولقد استبشر الناس خيرا باجتماع المجلس وراحت الصحف تستثير حماسة الشعب وتلهب شعوره الوطنى بما كانت تنشره بأقلام قادة الأفكار الوطنية .

وافتح الاجتماع وحضره الخديو يصحبه توفيق باشا والأمير حسن باشا ونوبار باشا والسير ريفرز ولسن والمسيو دوبلنير وراتب باشا وزير الحرية ورياض باشا وزير الداخلية وعلى مبارك باشا وزير المعارف .

وتليت خطبة الافتتاح فكانت أقصر خطبة وهى تترجم فى إنجازها عما كان يحول فى صدر اسماعيل العظيم من روح التضجر والتبرم بسبب أعمال المراهين الأجانب . وهاهو نص تلك الخطبة :

« أبدى لكم ممنونيتى من اجتماعكم بهذا المجلس وأخبركم أن سبب اجتماعكم هو أن نظار حكومتى سيتندا كرون معكم فى بعض مسائل مالية وأشغال داخلية . فترجو من المولى الكريم أن تتم المذاكرة فى ذلك على أحسن حال والله الموفق للصواب . »

ومع أن خطبة العرش كانت فى غاية الإنجاز فإن الرد عليها كما دون فى مضبطة ٦ يناير سنة ١٨٧٩ جاء مطولا وسامياً . وقد نوه فيه النواب بفضل اسماعيل فى تشييد الحياة النيابية وإبلاغها المستوى الذى وصلت إليه من تشكيل مجلس وزراء أصبح مسؤولاً أمام الأمة .

المالية و «دوبلنير» لوزارة الأشغال في وزارة مسؤولية. وقد عمل ولسن بدوره على تخفيف الضائقة المالية بالحصول من بيت آل روتشيلد على قرض بمبلغ ٥٠٠.٠٠٠ ر. ٨ جنيه بضمان أراضي الأسرة الخديوية التي سبق أن فصلها اسماعيل عن أملاكه الخاصة.

جواب تاريخي للمجلس

وكانما أراد الأعضاء أن يستبقوا الحوادث فجعلوا خطابون اسماعيل بلفظة «صاحب الجلالة» متخطين لقبه الرسمي وهو «صاحب السمو» . ولما كان بعض خصوم اسماعيل أرادوا أن يظهروا للملأ بأن مجلس شورى النواب هذا لم يكن إلا ألعوبة رأينا أن نثبت جوابه التاريخي على خطبة العرش . وها هو بنصه :

« نحن نواب الأمة المصرية ووكلاؤها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ، التي هي في نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع إلى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجليل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذي هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية التي هي منبع التقدم والترقي ، وهو الباعث الحقيقي على تلك المساواة في الحقوق ، التي هي جوهر العدل وروح الأنصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزارة جعلته مسؤولاً كافلاً أمام الأمة تأييداً لمجلس النواب ، وتميماً له ، ولذلك حينما تعلقت إرادتها السامية بأن ينظر الوزراء في أمور المالية والأشغال الداخلية ، دعت نواب الأمة ليتداولوا معهم في ذلك ، حفظاً لحقوق الرعية ، ومصلحة الحكومة .

« ولما نبك أيضاً عن الأمة عموماً ، وعنا خصوصاً ، مزيد الثناء على هذه الحضرة المعظمة ، لما تعظفت به من تشريف ركبها الرفيع لافتتاح هذا المجلس احتفالاً به في يوم ستجني الأمة من غرسه ثمار الرفاهية والراحة .

« ونعلن من صميم القواد سرورنا وكال ابتهاجنا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتك الذي أنبأ عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزي إلى إصلاح الأمة المصرية ، والرغبة الخالصة في صعودها على معارج التقدم وترقيها إلى ذروة السعادة ونيلها الحرية في تصرفاتها قولاً وفعلًا حيث أبانت عظمتكم أن الغرض =

ولا ريب في أن الخديو بتعيينه وزيرين أجنيين وقبوله أن يكون أميراً دستورياً قد رهن آخر وديعة بقيت له ألا وهي نفوذه الشخصي . ولكنه لم يكن ينوى حقيقة أن يتنازل عن النفوذ بل كان مراده أن يلقى على عاتق الوزيرين الأجنيين تبعة الرفض المنتظر في الخارج وتبعة

== من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم في المسائل المتعلقة بالمالية والأشغال الداخلية ، فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، وأحيا آمال هذه الأمة التي لا تزال راجية أن تنال شرفها التليد الذي شهدت به التواريخ وأنبأت به الآثار بمساعي الحضرة الخديوية ومهمها العلية . »

« ولنا لأنالو جهداً في دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياماً بأداء واجباتنا التي هي في الحقيقة مقاصد ولي النعم .

« فليحي الخديو المعظم وأنجاله الكرام ولتحى الحرية تحت ظل رعايته وحمايته آمين . »
فهذا الخطاب التاريخي وهتاف الأعضاء للخديو وللحرية ، وإشارة النواب إلى تأليف الوزارة المسؤولة أمام الأمة ، مما يبد تأييداً لمجلس النواب ، وتخطي الأعضاء لقب « صاحب السمو » ومخاطبتهم الخديو بلفظ « جلالتم » مما يدل على رغبة عميقة في الوصول بمصر إلى مراتب الدول المستقلة وعلى رأسها ملك يلقب بصاحب الجلالة ، نقول إن هذا الخطاب يبين لك سمو روح النواب وقثد ومبلغ ما كان يساورها من الآمال في الوصول بالبلاد إلى أسمي المراتب . وهو لعمر ك خطاب تاريخي يصح أن يظل محفوظاً كصفحة مجيدة في سجل الجهاد القوي لما يتضمنه من الروح الوطني السامي .

أعمال المجلس

الاصطدام بالسير ريفرز ولسن

ولما كان هذا الدور هو آخر أدوار الانعقاد في عهد اسماعيل ونظراً لأن أهم الحوادث قد وقع في أثنائه رأينا ألا نمر سراعاً بأعماله كما فعلنا في الأدوار الماضية بل أن نلجأ إلى شيء من التفصيل .

فلقد عني المجلس بالشؤون المالية إذ وقف محمود بك العطار بمجلسة ٥ يناير سنة ١٨٧٩ ونبه الحكومة إلى أن أغلب الأعضاء يريدون فتح بعض المسائل للبدولة فيها وأنهم كتبوا للوزارة بذلك طالبين منها عرض بياناتها ومشروعاتها ، وأنهم طلبوا تحرير ==

تخفيض المصروفات وزيادة الإيرادات في الداخل وقد سلك الوزيران المذكوران مسلكاً مساعداً على تحقيق هذه الغاية فقد نسباً كل المتاعب إلى هؤلاء الشخصين وفاتهما أن هذا النفوذ هو ضمناً لهما الوحيد للبقاء في

== استعجال لأرسال مشروعات المالية والأشغال الداخلية التي يقتضى النظر فيها . ولكن وزارة المالية - وكان يتولاها السير ريفرز ولسن وقتئذ - تلكأت في الرد وتعللت بعدم الانتهاء من تحضيرها وأنها مهتمة باتمامها .

أما وزارة الأشغال ووزيرها المسيو دوبلنير فانها أسرعت بأرسال تقريرها وطلبت اشتراك المجلس معها في بحثها . وحضر المسيو دوبلنير بعض الجلسات وتداول مع النواب فكان بذلك أقل خشونة من زميله السير ريفرز الذي لم يشأ الحضور إلى المجلس ، بل اقترح إرسال بعض النواب إلى وزارة المالية للاسترشاد بمعلوماتهم وتجاربهم ولفاوضتهم في بعض الشؤون المالية .

ومع أن النواب غضبوا لهذا المسلك فقد اقترح محمود بك العطار إرسال خمسة نواب على ألا يتقيد المجلس بأعمالهم وأقوالهم بل عليهم أن يعرضوا على المجلس بكامل هيئاته ما يرونه ويسمعونه من ناحية الوزارة .

ولبت المجلس ينتظر مشروعات وزارة المالية فلم تصل ، مما جعل عبد السلام بك المويلحي يثير المسألة في جلسة ٢٦ محرم وطلب استعجال إحضارها . ثم تأخر السير ريفرز في إرسالها مما جعل سبعة عشر نائباً يتقدمون إلى المجلس بإبداء السخط على هذا التلكؤ مع مضي عشرين يوماً على افتتاح المجلس .

وأخيراً استقر رأى المجلس على وجوب حضور السير ريفرز ولسن لمناقشته . ولكن هذا تباطأ وظهرت نيته في الامتناع عن مواجهة المجلس . ولذا صمم الأعضاء على المناقشة في غيبته فيما عرضه النواب من المشروعات المالية وأهمها تخفيض الضرائب والغاء بعضها بعد أن بلغت نحو ٣٥٠ - ٥٥٠ قرشاً في السنة عن الفدان الواحد .

وأرسل المجلس بصورة من هذه المشروعات إلى وزارة الداخلية وانتظر ردها . وبما يدلك على شدة نشاط النواب أنهم قرروا نقل مكان الاجتماع من القلعة إلى داخل المدينة وطلب أحدهم تكليف حكيمباشي المديرية بالكشف على العضو الذي يعتذر بالمرض عن حضور الجلسات .

واحتج المجلس في جلسة ١٠ صفر على إغفال اسمه في مرسوم ٦ يناير سنة ١٨٧٩ ==

مركزيهما ولذا رأيا أن يسهلا مهمتهما الإدارية بإبعاد الخديو عن أعمالهما. وكان أكبر معضد لهما في هذه السياسة نوبار الأرمني وهو الذي شجع عباس من قبل على المغالاة في الأعمال الرجعية كما شجع اسماعيل على المغالاة في

الخاص بتحويل لجنة التحقيق الأوربية حق وضع مشروعات القوانين للبلاد ومن ثم تصبح نافذة بعد عرضها على مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو بدون حاجة إلى عرضها على مجلس النواب . وقد طالب المجلس بأن يطلع على هذه المشروعات قبل إقرارها وتنفيذها لأنها من أخص شؤون الأهالي ومن المسائل التي أصبحت بمقتضى خطاب العرش من حقه الخوض فيها .

ودوت قاعة المجلس بالتصفيق والهتاف لهذا الاحتجاج الذي اقترحه عبد السلام بك المويلحي ومحمود بك العطار ووافق عليه بالاجماع وتقرر طلب دعوة رئيس الوزراء للحضور أمام المجلس للمفاوضة معه بشأنه .

وفعلا حضر نوبار في جلسة ١٤ صفر وقدم احتراماته للمجلس فشكره الأعضاء . ثم أدلى ببيان مبهم محاولا التهرب من بحث الموضوع إذ قال إن الموضوع الذي أثاره المجلس سياسى يقتضى البحث فيه في مجلس الوزراء ثم عرضه على ولى النعم وأنه ما كان يتردد في الإجابة لو كان الأمر خاصاً بالداخلية أو المالية أو الحاقانية أو الأشغال . ووعد بعرض هذه المسألة الدستورية على مجلس الوزراء .

ثم ظل يداور المجلس إلى أن قام عبد السلام بك المويلحي فخطب مؤيداً حقوق المجلس وقال إن المسألة نظراً لأنها سياسية فهي إذن أدعى إلى عدها من حقوق المجلس . ولكن نوبار تهرب بمهارته المعروفة وغير مجرى الحديث بالخوض في ترتيب المحاكم واختيار الأشخاص اللاتقين لتوليتهم مناصب القضاء ، وطلب إلى المجلس مساعدته على اختيار من تتوفر فيهم صفات العفة والصدق والحرية .

وتبين للمجلس فيما بعد أن نوبار إنما كان يرمى إلى اكتساب الوقت عند ما وعد بعرض المسألة الدستورية على مجلس الوزراء .

وأخذ التبرم بوزارة نوبار باشا يزداد يوماً بعد يوم كما مر بك . وساعد على نمو هذا التبرم تعطيل جريدتى التجارة لأديب اسحاق والوطن لميخائيل عبد السيد لموقفهما الوطنى ثم وقوع ثورة الضباط التى انتهت بسقوط الوزارة على نحو ما ذكرناه .

الأسراف فكان مسلك نوبار على حد ما جاء في أحد الأمثال التركية إذ يقول (إذا ولى الصدارة العظمى أرمنى فابشر بالخراب العاجل) وقد كان نوبار في نظر المصريين أجنبيا بقدر ما كان ولسن. كما أن ولسن أو دوبلنير

== ثم كان ما كان من تشكيل وزارة توفيق باشا وذهاب رياض باشا لمجلس النواب في يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ لتلاوة أمر الانقضاء وإصرار المجلس على استمرار جلساته بعد الرد البالغ الذى رد به النائب محمد راضى حيث شكر سعادة الوزير وأخبره بأنه لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر في المسائل التى حرر عنها إلى الوزارة وفى الميزانية .

ولإلى هذه الجلسة التاريخية أشار مراسل التيمس فى القاهرة إذ كتب إلى صحيفته يبين لها فائدة هذا البرلمان للشعب فقال كما رواه المستر رودستين :

« ينبغى ألا تنظر بعين الازدراء إلى البرلمان ، بعد ما أظهره النواب من دلائل الحياة العديدة والجناح إلى الاستقلال فى رأى . وليس هذا بالأمر العديم الأهمية . »
وتلا هذا تقديم عريضة النواب للخديو فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٩ بالاحتجاج على مسلك الوزارة التوفيقية وامتنانها لحقوق المجلس وعقد الجمعية الوطنية فى دار البكرى والمطالبة بتشكيل وزارة برئاسة شريف باشا وتشكيل هذه الوزارة فعلا وإبتهاج الشعب بها وتقديم اللائحة الأساسية (الدستور) والوعد بتقديم اللائحة الانتخابية فيما بعد .

دستور سنة ١٨٧٩

فاذا ذكر الذاكرون الحياة النياية ومنشأها وتطورها فى مصر من مجرد مجلس شورى النواب المتواضع المقيد السلطة إلى مجلس نواب عام يكون بنفسه جمعية تأسيسية تتولى وضع الدستور — نقول إذا ذكر الذاكرون ذلك فأخلق بهم ألا ينسوا ما لاسماعيل من اليد البيضاء والفضل الا كبر فى هذا كله . فدستور سنة ١٨٧٩ هو أول دستور يصح أن يقال إنه وضع « على أحدث المبادئ العصرية » . وإذا لم يكن قد صدر به مرسوم خديوى فهو مع ذلك دستور ويعتبر تقديم الحكومة إياه للمجلس مباشرة لإقراره مبالغة منها فى التعظيم من اختصاص المجلس وحرصها على رفعة شأنه .
وبمقتضى دستور سنة ١٨٧٩ أصبح للمجلس سلطة البرلمان العصرية وأساسها حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية وجعل الوزارة مسؤولة أمامه .

لم يختلفا في شيء عن هذه الحشرة الأرمنية التي سممت ونمت على حساب مصر . ولم يكن هذان المراقبان ومن معهما من مندوبي الدائتين في نظر المصريين إلا كالرخم التي حطت على الجيفة بعد أن انتزع عينيها قناصو الامتيازات ومن عداهم من غربان الجيف .

== وما يلفت النظر في هذا الدستور انه خول أهالي السودان حق انتخاب ممثلين عنهم في مجلس النواب أسوة بسائر سكان مصر . وهذا يدل على مارى إليه المشرع من ربط القطرين ربطا لا إنقسام له .

وقد جاء الدستور الجديد في نحو ٤٩ مادة وهو يختلف اختلافاً كلياً عن لائحة مجلس شورى النواب الذى أنشأه اسماعيل في بداية حكمه . ومن أهم أحكام هذا الدستور جعل كل نائب وكيلاً عن الأمة لا وكيلاً عن دائرته الانتخابية لحسب ، وإطلاق الحرية للنواب للتكلم في الشؤون العامة دون خوف من وعيد ، وحل مجلس النواب إذا اختلف مع الوزارة ولم تستقل هذه ، بشرط إجراء انتخابات جديدة في خلال أربعة شهور من يوم انفضاضه إلى يوم اجتماعه ، فان أيد المجلس الجديد رأى المجلس المنحل وجب تنفيذ رأى البرلمان . وترك أمر انتخاب رئيس المجلس ووكيله إلى هيئة المجلس نفسها ، وتقرير علنية الجلسات ، وجعل مكافأة النائب عشرة آلاف قرش سنوياً ، مع العلم بأن دور الانقضاء هو من أول كيهك إلى برمهات (أى من ديسمبر - مارس) وتحريم الجمع بين وظيفة حكومية وعضوية المجلس ، والسماح لأى مصرى حائز لحقوق الانتخاب أن يعرض على المجلس بواسطة أحد النواب ما يراه من الاقتراحات ، ووجوب عرض جميع اللوائح والقوانين والمنشورات الجارية العمل بها في الحكومة في أول اجتماع للمجلس للنظر فيها وتنقيحها وإصدار قرار فيها ثم عرضها على الخديو للتصديق عليها ، ولا يصبح القانون معمولاً به إلا إذا وافق عليه مجلس النواب بنداً بنداً ، وللنواب حق تعديل وتنقيح وتغيير أى قانون ومن ضمنها هذه اللائحة الأساسية (مادة ٢٧ - وهذا أساس من أهم الأسس التى قام عليها دستور سنة ١٨٧٩) . ولا يعاد للمجلس في أثناء دور انعقاده في تلك السنة قانون رفضه مجلس النواب . وقد قررت المادة ٣٦ مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب والتنبيه إلى وضع قانون لمحاكمة الوزراء وعرضه على مجلس النواب ، كما خولت المادة ٤٦ للنواب حق طلب تقديم الميزانية العمومية المستوفية (الإيرادات والمصروفات) إلى المجلس عقب افتتاح الدورة ، وتركت المادة ٤٨ ==

على أن الأمر الذى يدعو حقاً إلى الدهشة هو أن آلام المصريين وبؤسهم لم يدفعهم إلى الثورة ضد ظالمهم أجنب كانوا أم مصريين . فقد كان الأجانب يتناولون مرتباتهم ويتمتعون بالمعيشة وسط جالياتهم التى لا تسرى عليها قوانين البلاد دون أن يدفعوا ملياً واحداً من الضرائب . كذلك فعلت الطبقة العليا (التركية) فقد كان همها جمع إيجارات أملاكها

== لمجلس النواب وحده حق تفسير أى إلهام فى مواد الدستور .

عدم صدور الدستور

ويشاء حظ مصر العاثر ألا يصدر المرسوم الخديوى بهذا الدستور العصرى لأن الدول الأوربية كانت انتمرت بالخديو اسماعيل مما انتهى بمأساة تنازله عن العرش وجلس ولى عهده الأمير توفيق باشا على الأريكة وإصدار دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ مكان دستور سنة ١٨٧٩ . وبدى أن الدستور الجديد كان أكثر تقييداً لأنه وضع وشبح الثورة العرابية والاحتلال البريطانى يبدو للعيان .

ويمكن أن نجمل عهد اسماعيل من الناحية النيابية فى هذه الجملة البسيطة . وهى أن اسماعيل رأى البلاد محرومة من التمثيل النيابى فأنشأ فى بداية عهده مجلس شورى النواب الذى ظل يترعرع تدريجاً ويحصل مع تقدم الزمن وارتفاع مستوى الأمة الأدبى على حقوق جديدة إلى أن كانت خاتمة المطاف وضع دستور سنة ١٨٧٩ الذى يعتبر بحق أرق دستور عصرى عرفته مصر . أليس فى كل هذا ما ينطق بفضل ذلك الخديو العظيم ؟

عود إلى وزارة شريف باشا

نعود الآن إلى وزارة شريف باشا ونذكر كيفية اصطدامها بالدول . فقد قلنا إن باكورة أعمالها كانت إقرار مجلس شورى النواب على استمرار انعقاده وما ترتب على ذلك من سن دستور سنة ١٨٧٩ .

هذا من الناحية الداخلية أما فيما يخص بموقف الوزارة إزاء الدائنين ووكلائهم فإن الدوائر الأجنبية لا فرق بين السياسة منها والمالية أثار نائرها استعمال الخديو لحقه باقالة الوزيرين الأجنيين لاعتقادها أنه أصبح لها حق مكتسب بادماج وزيرين أوربيين فى الوزارة المصرية . ولذا بدأت تناوى الوزارة الجديدة .

وتشبهت بالأجانب في عدم دفع الضرائب . ولقد استطاع الخديو ان يجمع إيراداً بالغ في سنة ١٨٧٨ مليون جنيه . وهذه الأموال جمعت من الفلاحين طبعاً برغم سوء حالهم . ولقد تسرب إلى جيوب الدائنين الأجانب من التسعة الملايين جنيهات التي انتزعت من هؤلاء الفلاحين التعساء في

محاولة عرقلة أعمال الوزارة

ففي يوم ٨ ابريل رفض السير بارنج والمسيو بليج دي بوجاس (عضوا صندوق الدين) قبول منصب المراقبين مؤقتاً حتى يرد رد حكومتها . وفي يوم ١٠ منه رفعت لجنة التحقيق استقالتها الاجتماعية إلى الخديو وكانت حجة الجميع أن الاصلاحات المالية لا يمكن تنفيذها إلا بتمثيل العنصر الأوربي في الوزارة المصرية ثم سرت روح الاضراب بين كبار الموظفين الأجانب في الحكومة كالستر فترجرالد مدير حسابات الحكومة والمسيو بلوم وكيل وزارة المالية والسير أوكلند كولفين مدير المساحة . أما رياض باشا وكيل اللجنة فقد عزل من منصبه .

ولسنا في حاجة إلى الأسهاب بأن موقف لجنة التحقيق إزاء الوزارة الشريفة إنما قصد به الإحراج ليس غير . لأن الوزراء المذكورين لم يدخلوا الوزارة بصفة دائمة كلا بل كان بناء على اتفاق بين الخديو وبين حكومتى إنجلترا وفرنسا بوقف العمل بنظام المراقبة الثنائية مؤقتاً على أن يستأنف عند عزل أحد الوزراء بدون موافقة حكومته . وقد صرح السير ستافورد نورثكوت وزير المالية الانجليزية بهذا كما مر بك . وهو أيضاً ما قاله وزير خارجية فرنسا المسيو وادنجتون في رسالته إلى القنصل الفرنسي بمصر بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨ فقد جاء فيها : « طبقاً للاتفاق المبرم بين فرنسا وإنجلترا ومصر بتاريخ ١٤ اكتوبر الماضى قد أوقف العمل بنظام المراقبة الثنائية ولكن على شرط إعادته حتما إذا عزل أحد الوزراء الفرنسى أو الإنجليزى من منصبه من غير موافقة دولته » .

فحق اسماعيل في إقالة أحد هذين الوزراء أو كليهما معا كان حقاً مقررأ ومعترفاً به . ولم يكن ثمة ما يدعو إلى التخوف من تشكيل الوزارة الشريفة لأنها لم تنقض تعهدات الخديو بل كانت هي التي اقترحت إعادة العمل بالمراقبة الثنائية طبقاً للاتفاقات السابقة . ولكن لجنة التحقيق ظلت سادرة في تعنتها . فلم يسع الخديو إلا بقبول استقالة أعضائها .

سنة ١٨٧٨ مبلغ لا يقل عن السبعة ملايين جنيه . ولم يكن بوسع الفلاح طبعاً أن يدفع إلا ما يتناسب مع ما يملكه . وكان العمدة يحجوب قريته شاهراً كراباجه في يده وبصحته المرابى اليونانى . وإذا كانت يد الفلاح خالية من الأصفر الرنان - كما كانت حالتهم وقتذاك - لم يكن بد من انتزاع أثاث داره والاستيلاء على المخزون من تقاوى قمحه لا بل حتى ملبوساته جردوه منها . ولم

مرسوم ٢٢ ابريل

لتسوية الديون

ولعل أبلغ دليل على هذا التعنت الرسالة التى بعث بها المسيو دانتون إلى القنصل الفرنسى العام فى مصر بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٨٧٩ إذ قال مشيراً إلى المشروع المالى الذى تضمنته اللائحة الوطنية « إنه لا يختلف فى النقط الجوهرية عن مشروع السيريريفرزلسن . » وقد قلنا إن لجنة التحقيق لم تقدم تقريرها الذى أعلنت فيه افلاس البلاد إلى الوزارة لأنها لم تكن شكلت بعد بل رفعته إلى الخديو . فلما تشكلت الوزارة وتسلمت التقرير ردت عليه بالمشروع الوارد فى اللائحة الوطنية . ولكن لورد كرومر قال إن المشروع المذكور يستحيل تنفيذه لأنه يتضمن اقتراحاً بتخفيض الفائدة على الديون من ٦ ٪ إلى ٥ ٪ مع الأمل باستشاف الدفع بسعر الفائدة الأعلى فى المستقبل القريب ، هذا إلى إغفال ذكر مخصصات السراى مع أن تقرير اللجنة حددتها .

وفى يوم ٢٢ ابريل أصدر الخديو مرسوماً افترضه بقوله « بناء على المحاضر والتقارير التى عرضت علينا من الأمانة ومعارض من مجلس النظار أصدرنا أمراً بموافقة وإجراء تسوية ديون الحكومة على الوجه الآتى الخ

وفى هذا إشارة صريحة بأن نية الخديو باتت منعقدة على العمل بمشروع اللائحة الوطنية . وقد رأى الدائتون فى اغفال ذكر مخصصات السراى تحدياً صريحاً لحكومتي إنجلترا وفرنسا لأنهم اعتبروه بمثابة عودة اسماعيل إلى عهد السلطة المطلقة . وإذا ذاك احتج أعضاء صندوق الدين على الرسوم ورفعوا على الحكومة قضية أمام المحاكم المختلطة .

مساعى شريف لطمانينة الدائنين

• وكان شريف فى أثناء هذا يذل كل ما فى وسعه لطمانينة الدائنين من ناحية القوانين التى يراد إصدارها . وفى يوم ٢٣ ابريل استصدر مرسوماً بإنشاء « مجلس شورى الحكومة » مهمته وضع مشروعات القوانين على أن تكون غالبية أعضائه من الأجانب .

يكن ما يعثرون وقتئذ عليه من ذهب سوى ثمن حلى نسائه .
ولقد كان الموظفون البريطانيون من الأمانة بحيث أنهم رأوا أن من
الشجاعة أن يرفعوا عقيرتهم منبهين إلى أن رفض الدفع والأصلاح لامناص
منهما خدمة للشعب . وقد أغضبتهم جد الغضب عملية قتل الأوزة التي
تضع البيض الذهبي بانتزاع ريشها وهي على قيد الحياة واعتبروها عملية
وحشية من جهة وغير رابحة من الجهة الأخرى ولكن الدائنين الفرنسيين

أول إنذار من إنجلترا

ولكن حكومتى إنجلترا وفرنسا أصرتا على موقف الرفض . وفي يوم ٢٥ أبريل
تسلم السير فرانك لاسلز القنصل البريطاني العام من لورد سلسبرى ما يصح أن يسمى
أول إنذار بريطاني للخديو . وهو كما يأتي :

« إن سمو الخديو يعلم حق العلم أن الاعتبار التي حملت حكومة جلالة الملكة على
الاهتمام بمصائر مصر قد دفعها على ألا تتبع سياسة أخرى عدا تنمية موارد البلاد وحكمها
حكما صالحا . وقد كانت حكومة جلالته ترى إلى هذه اللحظة أن استقلال الخديو والاحتفاظ
بأسرته من أهم الشروط التي تكفل تحقيق هذه الغاية . وقد تثبتت حكومة جلالته من أن
هذه الأحاساسات هي أيضاً إحساسات الحكومة الفرنسية . ولهذا كله نرجح أن القرار
الذي تعجل سموه بأخذه سواء فيما يختص بسياسة الإصلاح في المستقبل أم في الموقف
الذي ينوي وقفه لإزاء الحكومتين ليس قرارا نهائياً »

ثم راح وزير الخارجية يخبر قنصله بأن يوضح لسموه بأنه إذا استمر على رفض
« مساعدة الوزيرين الأجنيين اللذين قد تقترح الحكومتان وضعهما تحت تصرفه » فإن
إنجلترا وفرنسا تشعران إذن بأن لها مطلق الحرية في التفكير في « الترتيبات التي
تكفل رخاء البلاد وحكمها حكما صالحا » .

شريف يهدد بالاستقالة

فلما أطلع القنصلان الخديو على موقف حكومتيهما كما أشار إليه اللورد سلسبرى
أجابهما اسماعيل بأن ليس في مقدوره اجابة الطلب نظرا لتبجح الرأي العام . وأصر
شريف على الرفض وهدد بالاستقالة إن سلم الخديو بمطالب الدول وأعاد الوزيرين .
وقد ظاهر الخديو شريف وأيده في موقفه . وهنا اشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها
وأخذت الدول تفكر في التخلص من الخديو وحمله على التنازل عن العرش .

لم يشاطروهم هذا الراى بل اعتقدوا أن اسماعيل لاتزال لديه كنوز مخبوءة . ولقد كان يمثلهم تحت سلطة حكومتهم التى كانت رهن إشارة دائئى مصر . وكان الموقف فى مؤتمر برلين وخاصة بعد إفشاء نبأ الاتفاق الذى عقده دزرائيلى خلصة فى صدد قبرص بحيث يجعل إظهار المقاومة للسياسة الفرنسية فى مصر عملاً منافياً للحكمة السياسية . لذلك لم يكن يستطيع عمل أى شئ سوى الحصول على الأيراد مع تخفيض المصروفات بشكل ما .

الخديو يحس نبض السلطان

ويرجح أن الحكومة الأنجليزية بعثت إلى جلالة السلطان بصورة من إنذارها السابق الذكر . لأن أوربا كانت تعرف وقتئذ أن ليس فى وسعها مس الخديو بسوء إلا بموافقة السلطان . ومن هنا بدأ الفريقان يحسان نبض الاستانة .

وفى أول مايو سنة ١٨٧٩ بعث اسماعيل إلى مندوبه فى الاستانة ابراهيم بك الأرمنى مذكرة لعرضها على الصدر الأعظم . وقد تضمنت الرسالة وجهة نظر الخديو وكيفية تشكيل الوزارة المختلطة . وقد جاءت بين محتويات المذكرة هذه الفقرة البارزة :

«... وعلى عكس ما كان ينتظر منهما فإن هذين الوزيرين -دوبلنير وولسن- خصصا وقتهما وجهودهما للسياسة بدلا من تخصيصهما للعمل . فلقد سعيا لإبعاد الخديو من حكمته وأصرأ فى الوقت نفسه على تحميله المسؤولية . وبطريقة عرفية محضة أبعدا من خدمة الحكومة كل رجل ذى تجربة أو نفوذ . ثم إنهما لم يتورعا عن جرح الشعور القومى برفضهما الزى الوطنى وبظهورهما فى وزارتهما وفى الاجتماعات الرسمية متقبعين بدلا من لبس الطربوش التقليدى معلنين فى نفس الوقت أنهما وزيران أجنبيان فهما لهذا السبب غير مكلفين بمراعاة شعور العنصر التركى . وقد كانا قدوة احتذى حذوها كافة الموظفين الأجانب . وبمجرد تربعهما فى كرسى الوزارة شرعا فى عزل عدد كبير من الموظفين الوطنيين . وقد حاولا تسويغ تصرفهما هذا بحاجة الخزانة إلى الاقتصاد ولكنهما استبدلا أولئك المعزولين بموظفين أجانب بمراتب فادحة . كذلك لجأت الوزارة المختلطة نفسها إلى تسريح الجزء الأ كبر من الجيش بدون دفع المرتبات المتأخرة لرجاله وأصبحت مستحقة . وبالجملة فإن الوزارة المذكورة فقدت ثقة الأمة على مختلف طبقاتها .»

وهو ما لم يكن ثمة من سبيل إلى تحقيقه إلا بفرض ضريبة على الطبقة المصرية الراقية وتسريح ضباط الجيش .

ولقد كان يستحيل طبعاً أن يوافق اسماعيل على اجراءات من هذا القبيل أملاها عليه موظفان أجنبيان في زى وزيرين مصريين . ولم تكن في نيته الموافقة على هذا بتاتا فلقد كان لديه من الدهاء والحنكة الشرقية ما يجعله يترك الخنازير تقتل نفسها بنفسها .

وسرعان ما شرع يحرض الأعيان على المعارضة في زيادة ضرائب

== ثم استطردت المذكرة فأشارت إلى ثورة الضباط في ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ وكيف أنها أدت إلى سقوط وزارة نوبار ، ولكن الوزيرين ولسن ودوبلنير حملا حكومتهما على إرغام الخديو على اشتراك نوبار في الوزارة بعد تعديلها ومن ثم اضطرا توفيق باشا رئيس الوزارة الجديد على قبول رياض باشا ناظرا للداخلية . ثم ختمت المذكرة بقولها إن الاستياء قد بلغ أشده في البلاد بما حمل توفيق على تقديم استقالته ومن ثم تسلم شريف مقاليد الحكم حيث قبلت وزارته بمظاهر الارتياح العام في كافة أنحاء البلاد .

وقد علق المستر كرايتس على هذه المذكرة التي عثر عليها في محفوظات قصر عابدين بأنها صفت مسلك الوزيرين الأجنيين وصفاً صادقا . ثم شفع جنابه تعليقه هذا بملاحظات الصدر الأعظم عند ما وقع نظره عليها . وقد عثر أيضاً في محفوظات السراى على هذه الملاحظات . قال نخامة الصدر :

« إن الوقت حان فعلا لحل الوزارة القديمة لأننى أستخلص من هذه المذكرة أن مسلك الوزيرين لم يكن إلا بمثابة احتلال أورنى ومحاولة لاغتصاب سلطة الخديو . وليس يسعنى إلا تقديم أخلص التهانى لسمو الخديو لنجاح مجهوداته . وإنى أقر النظام الحاضر إذ بواسطته يكفل سموه مستقبل البلاد . وعليه أن يبذل ما فى وسعه لصيانة ذلك النظام وستبذل حكومة جلالة السلطان كل تضحية وستعمل على تأييد الخديو إلى النهاية » .

ولا ريب فى أن هذه الرسالة المتضمنة رضا الصدر الأعظم عن سلوك اسماعيل كانت مصدر ارتياح كبير لسموه . فعمل على تعزيز مركزه بتكليف ابراهيم بأن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان عند أول فرصة وأن يرفع إلى أسماعه الكريمة هذه العبارة :

الأراضي العشورية كما شجع الضباط على مقاومة أمر الأحالة على الاستيداع



البرنس بسمارك المستشار الحديدي

« عند ماتشكلت وزارة نوبار لم يتورع عن إخبارنا بأن هذا النظام (أى نظام المسؤولية الوزارية) قد أدخل إلى مصر بقصد تجربته فان نجح طبق في بقية أنحاء الامبراطورية العثمانية. نعم لقد بدأ ذلك النظام في مصر متكتأعلى ذراع المالية ولكن السياسة هي غاية مرماه . . وليس شك في أن أطماع المرائين يضاف إليها تخوف الدول الأوروبية من نمو الحركة الوطنية المصرية واشتداد ساعدها بعد أن رأت من اسماعيل نصيراً كل ذلك كان من شأنه استعجال الفصل الختامى من هذه المأساة .

ظهور بسمارك على مسرح السياسة المصرية

ذلك أنه بعد مرور عدة أسابيع على سقوط الوزارة الأوربية ظهر عامل جديد على المسرح السياسى وهو البرنس بسمارك . فان ذلك المستشار الجديد لم يكتف بما أحرزه من الفوز العسكرى ضد فرنسا بل أراد أن يكسب لالمانيا فوزاً سياسياً بزجها في غمار المسائل الدولية .

ثم كان أذ وزير الحرية أرسل يدعو نحو ٢٠٠٠ ضابط للحضور إلى القاهرة لسبب تافه. فلما هبطوها انضم إليهم نحو ٥٠٠ من زملائهم الساخطين في العاصمة وتألفت من هذا الجمع مظاهرة استياء عجزت حامية القاهرة عن تفريقها. ولما جاء هؤلاء الضباط الحانقون ومعظمهم من الجراكسة ومن إليهم من شذاذ الناس يطالبون بمرتباتهم المتأخرة أحالهم اسماعيل على «وزرائه» فكانت النتيجة الاعتداء على نوبار (كذا!) وما كادولسن يهرول

== فقد كلف قنصله في ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ بأن يحتج للخديو على مرسوم ٢٢ ابريل باعتباره مرسوما باطلا وأن سموه لا يملك اصدار قوانين مالية تمس مصالح الأجانب دون موافقة الدول طبقا للاتحة ترتيب المحاكم المختلطة. فلما اطلعت الدول على وجهة نظر بسمارك بادرت بقبولها. ولذا رأينا قنصل النمسا في اليوم التالي (١٩ مايو) يقدم احتجاجا باسم دولته ثم تلاه القنصل الانجليزي في ٧ يونية والقنصل الفرنسي في ١١ منه والقنصل الروسي في ١٢ منه والقنصل الايطالي في ١٥ منه. فكان جواب شريف باشا على هذه الاحتجاجات أنه أرسل للقناصل صوراً من مرسوم ٢٢ ابريل للتصديق عليه فكان جوابهم الرفض.

خاتمة المسألة

الدول تطلب تنازل الخديو

ويظهر أن إنجلترا وفرنسا استشعرتا شيئاً من الخجل إذ رأتا ألمانيا وليست لها إلا مصالح ضئيلة في مصر إذا قيس بمصالحهما، قد سبقتهما إلى العمل الإيجابي. ولذا أرادت أن تبزاهما في ذلك الميدان. فلم تكتفيا بطلب إلغاء المرسوم المشار إليه بل طلبتا تنازل الخديو.

ففي يوم ١٩ يونية ذهب السير فرانك لاسلز قنصل إنجلترا إلى قصر عابدين ليبلغ الخديو الرسالة الآتية الواردة من لورد سلسبرى وهي :

« اتفقت حكومتنا فرنسا وإنجلترا على أن تشيرا على سموكم بالتنازل عن العرش ومغادرة مصر. فاذا ما أصغيتم سموكم إلى هذه النصيحة تعمل الحكومتان المذكورتان سويا على أن تضمننا لكم مخصصات سنوية لائقة وألا يحدث أى تغيير في نظام توارث العرش الذى يقضى بأن يكون الأمير توفيق باشا خلفاً له. ولا ينبغي أن نخفى على سموكم =

إلى نجاته حتى أصابه ما أصاب زميله من المتجهرين الذين ألقوا القبض عليهم وسجنوهما . هناك نزل اسماعيل من القصر وأطلق سراجهما فوراً .

== أنه في حالة رفض التنازل عن العرش أو إذا أرغتم حكومتى لندن وباريس على مفاتحة السلطان رأساً فليس يسعكم الاعتماد على نيل المخصصات أو على صيانة نظام التوارث بحيث يكون الأمير توفيق خلفاً لكم .

فلما تسلم سموه هذا الإنذار طالب مهلة للتفكير في الأمر فأعطيت له مهلة ٤٨ ساعة . وفي يوم ٢١ يونية أبلغ الخديو قنصلي فرنسا وانجلترا أنه أحال المسألة إلى علم السلطان وأنه ينتظر أمره حتى إذا جاء الرد سيدعوهما لمقابلته لأخبارهما بالنتيجة إذ أنه لا يستطيع أن يتخلى عن تبعة حكم البلاد بدون أمر جلالته .

ويقول القنصل الأمريكي في رسالة بعث بها إلى حكومته وقتذاك إن القنصل الفرنسي تغيط من هذا الرد الغير متظر فسأل الخديو « منذ أى زمن كنتم سموكم الخادم المطيع للباب العالي ؟ » فأجابه الخديو فوراً « منذ ولادتي ياسيدي . »

ثم جاء قنصل المانيا والقائم بأعمال القنصلية النمساوية في اليوم التالي وطلباً تنازل الخديو وحذا حذوهما القنصل الإيطالي في اليوم التالي .

وذكر القنصل الأمريكي أن القناصل لجأوا إلى الضغط بل إلى التهديد لحل الخديو على التنازل عن العرش قبل وصول جواب السلطان . وقد تهددوه في حالة الامتناع بحرمانه من المخصصات وبتولية عمه حلیم باشا .

وتستطيع أن تفهم أنه بينما كان الساسة يستخدمون مختلف الوسائل لحل اسماعيل على التنازل عن العرش كان سموه على اتصال مستمر بمندوبه ابراهيم بك . ففي يوم ٢٢ يونية تسلم الخديو برقية من مندوبه بأنه قد سمع من عثمان باشا بأن الصدر الأعظم أخبره أن جلالة السلطان قال له إن كل ما يتمناه ألا يحدث ما يكدر الخديو وأن على سموه إذن أن يقدم فوراً لجلالته وللباب العالي أى اقتراح تتقدم به الدول . فالأولى بمولاي إذن أن يجيب القناصل بأنه خابر الباب العالي في الأمور وأنه لا يستطيع فعل أى شيء قبل تلقي جوابه . ووردت للخديو في اليوم نفسه برقية أخرى من المندوب المذكور بأن مجلس الوزراء عقد اجتماعاً والمظنون أن السلطان سيحتاج على موقف الدول لأنه بمثابة اعتداء على حقوق سيادته .

وقد أصيب الثوار والجنود بعدة جراح في هذا الشجار (١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)

وفي اليوم التالي طالب اسماعيل باسترداد سلطته الحكومية وإبعاد نوبار ليعود النظام سيرته الأولى. وبناء على إرشاد لورد « فيفيان » والماجور

== ثم وردت برقية ثالثة في اليوم نفسه بأن الحكومة الشاهانية قد أرسلت احتجاجها لكل من فرنسا وإنجلترا . وجاء في البرقية الرابعة التي أرسلت في ساعة متأخرة من هذا اليوم نفسه أن البرنس لوبانوف سفير روسيا أخبر ابراهام بصفة سرية أن روسيا لم توافق على المسعى الذى قامت به إنجلترا وفرنسا .

وكان طبيعياً أن تقوى هذه البرقيات من عضد اسماعيل وتشد أزره فأبرق إلى ابراهام في اليوم نفسه يقول :

« لى أعتد كما اعتدت دائماً على غيرتك وإخلاصك . فعليك أن تحيطنى علماً - ليس يوماً يوماً - بل ساعة بساعة بكل ما يحدث وبكل ما يقال عن مصر في دور السفارات وفى السراى وفى الباب العالى . فأبذل كل ما استطعت من المجهود للحصول على هذه المعلومات وأبرق بها إلى تفصيلاً وبلا تحفظ إذ من الضرورى فى الأحوال الراهنة أن ألقى بكل التفاصيل مهما كانت دقيقة . »

وفى يوم ٢٣ يونية وصل إلى علم السلطان أن الخديو تنازل عن العرش . وقد انقضت ٢٤ ساعة قبل أن تكذب هذه الاشاعة رسمياً . ولكن هذا التكذيب لم يضع حداً لنشاط المندوب ابراهام . وبينما هو يقيم الدنيا ويقعدها لأحاطة الخديو بكل صغيرة وكبيرة وردته برقية من الخديو يشير فيه إلى التصرف الشاذ الذى بدا من جانب قناصل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وطلب إليه الذهاب فوراً إلى السراى لتحرى الحقيقة .

أما هذا التصرف الشاذ فقد رواه القنصل الأمريكى لحكومته إذ قال :

« فى ليلة ٢٤ يونية ذهب القنصل الألمانى (البارون دى سورما) والقنصل الفرنسى (المسبو تريكو) (ولم يذكر الكاتب اسم القنصل الإنجليزى مع أن الخديو ذكره صراحة) إلى سراى عابدين فى الساعة الثانية صباحاً وطلباً لإيقاظ الخديو . فحدث مجيئهما فى تلك الساعة المتأخرة ذعراً بين سيدات القصر وخشياً أن تكون هناك نية ميئة لاغتيال الخديو . وقد ذكر أنهما جاءا لأعطائه آخر فرصة للتنازل لابنه عن ==

« بارنج » أيدته الحكومة البريطانية ضد ولسن وضد فرنسا . ثم تقرر في النهاية ألا يكون اسماعيل رئيس مجلس الوزراء بل توفيق ورثه . ولقد أبعد نوبار ولكن في مقابل ذلك استدعى فيفيان .
فهذا النجاح الذى أصابه اسماعيل شجعه على إعادة الكرة . وإذا كان

== العرش وإلا فلن تمضى بضع ساعات حتى تتم تولية الأمير حلیم وإذ ذاك يكون قد سبق السيف العذل . فأخبرهما الخديو أنه يرى أن الوقت لا يزال فسيحاً للتنازل وأنه سيقابلهم في الصباح ثم حياهم وانسحب إلى مخدعه .

وترك للقارىء الحكم على هذا التصرف الشاذ وهل كان لائقاً .
فلما علم إبراهيم من مولاه بهذا التصرف لم يضع الوقت سداً . وفى يوم ٢٦ يونية وصل إلى القاهرة الرد الآتى :

« لقد أذن لى جلالة السلطان أن أبرق لسموكم بأن ما ذكره قنصلنا إنجلترا وفرنسا (وقد أغفل ذكر قنصل ألمانيا) لانتصيب له من الصحة . وستصلكم التفصيلات بعد . »
وليس يوجد بين المحفوظات الملكية أى ذكر لهذه التفصيلات . ويلوح أن الحوادث كانت تسير بسرعة رؤى معها عدم وجود مسوغ لأرسال أنباء جديدة .

تولية الخديو توفيق

وفى ضحى يوم ٢٦ يونية - وبعد وصول برقية إبراهيم السالفة الذكر - بعث السلطان إلى القاهرة برقتين إحداهما باسم « اسماعيل باشا خديو مصر السابق » ، والأخرى باسم « توفيق باشا خديو مصر » .
وقد جاء فى البرقية الأولى ما يأتى :

« إن الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيراً فى مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً يودى استمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية . ولما كان الباب العالم يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته وما يقضى به فرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالة السلطان « إرادته » بناء على قرار مجلس الوزراء باسناد منصب الخديوية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا وأرسلت الأرادة السنية فى تلغراف آخر بتنصيبه خديوياً لمصر وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطاني . . . »

قد استرد بواسطة الجيش نصف سلطته فانه صمم الآن على استرداد النصف الثاني بواسطة جمعية الأعيان . وكان قد طال انتظار الناس لنشر التقرير الذى وضعته لجنة التحقيق وهو وإن لم يكن قد قدم بعد إلى الدول العظمى فقد كان معلوماً أنه يوصى بتخفيض الفائدة على الدين إلى خمسة فى المائة وتخفيض كافة المطالب بمقدار ٥٠ ٪ . وإنكار الديون التى للهلاك بمقتضى قانون المقابلة وزيادة الضريبة العشورية على الطبقات الغنية . وكان ينتظر بدهشة أن يقيم الدائنون الأجانب الدنيا ويقعدوها احتجاجاً على أول وثائى الاقتراحات

== أما البرقية الأخرى فقد وصلت إلى الأمير توفيق باشا وتتضمن الإرادة السنية باسناد منصب الخديوية إليه .

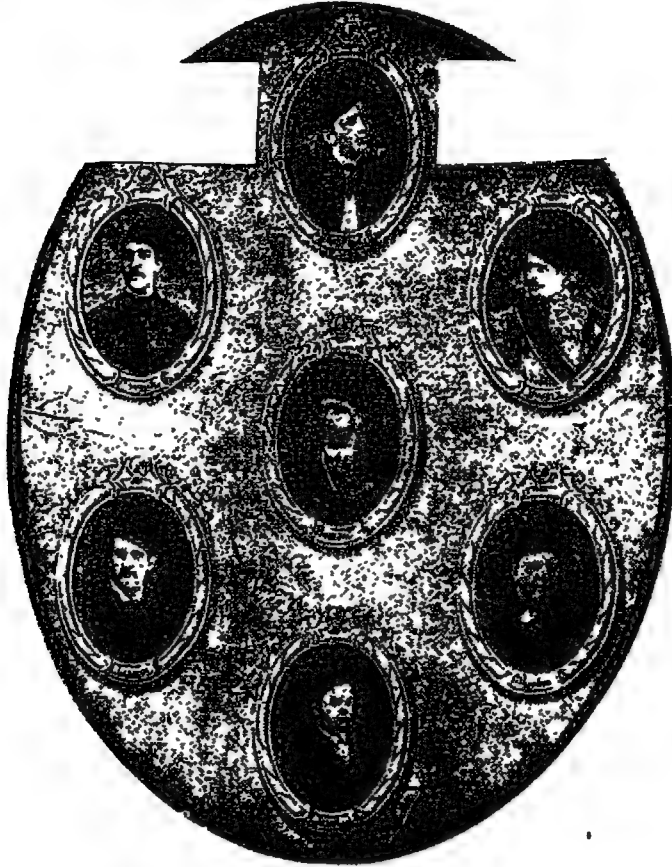
خرق السياسة العثمانية

هنا أدرك اسماعيل أن المقاومة لم تعد تجدى نفعا . فلم يسعه إلا الأذعان . وليس يسع من يقرأ هذه الحوادث إلا أن يرى السياسة العثمانية بالخرق وقصر النظر . فهى قد نزلت على إرادة الدول الأجنبية التى كانت ترى إلى تجريد الخديو من سلطته . وقد يكون فى إقدام تركيا على المطالبة بتنازل الخديو ما يتعلق كبرياءها بعد أن ظل أمرها بخلع محمد على الكبير جبراً على ورق ، ولكنها بانزالها اسماعيل عن العرش تلبية لأرادة دول أجنبية قد حفرت لنفسها هاوية لم تلبث أن تردت فيها . فان نفس الدول التى تدخلت فى شؤون مصر لم تكن بواذى النيل بل ما عتمت أن وجهت أنظارها شطر تركيا نفسها حتى ذاقت تركيا الأمرين من سياسة التدخل . ولعلها كانت تلوم نفسها على أنها أفسحت المجال للتدخل الأجنبى فيما يعتبر أنه من أخص شؤونها فى مصر . ولكن هيهات أن ينفع الندم !

* * *

أما اسماعيل فنحسب أنه ذكر فى هذه المحنة جده العظيم محمد على عند ما تأملت عليه الدول الأجنبية وفى مقدمتها تركيا . ولكن محمد على لم يحفل بتأبها ولا وهنت عزيمته لذلك . بل امتشق حسامه حتى نال لمصر استقلالها الداخلى بمقتضى معاهدة لندن . فلو ظل الجيش المصرى فى نهاية حكم اسماعيل كما كان فى بدايته إذن لما اكترث الخديو بانضمام تركيا إلى الدول الأوروبية ولا حفل « بإرادة » السلطان . ولكن هكذا شامت الأقدار .

بينما يشير الأعيان ضجة وأى ضجة ضد الاقتراحين الثالث والرابع .



صورة فريدة للخديو اسماعيل وسط أولاده الستة
وهم إلى يمينه توفيق لحسين وإلى يساره حسن فابراهيم وفوق محمود
وتحت فؤاد (جلالة الملك) *

اسماعيل ضحية الوطن والدستور

والآن وقد قررت تركيا انزال اسماعيل عن العرش فلابد من الوقوف هنيهة منحنى
الرؤوس أمام تلك الصحيفة الذهبية الخالدة التي خطها ذلك الرجل الباسل حتى في ساعة
المحنة وكم كانت له صحائف ذهبية خالدة في أيام العز والاقبال . نعم نقف مطأطء الرؤوس
أمام تلك العظيمة وتلك المهمة الوثابة والوطنية النادرة التي استخفت بكل شيء وضحت
بكل شيء ولم يقل من حديثها وعيد أو خوف من النقي والتشريد .

* مأخوذة من مجلة المصور

وكان يرجح أن تتخذ الضجة شكل هياج ضد المسيحيين وهنالك يتدخل الخديو والجمعية لأنقاذ الموقف . وإلى هذا أشار « لاسل » المعتمد البريطاني في تقرير له في أول ابريل سنة ١٨٧٩ إذ قال : « يوجد هنا هياج شديد ويواصل الشيخ البكرى (نقيب السادة الأشراف) عقد الاجتماعات مع الأعيان والعلماء لاهاجة الخواطر ضد الوزيرين الأجنيين (كذا) . ثم زاد على ما تقدم في ٤ ابريل قوله « يوجد اتصال وثيق بين الخديو وبين الأشخاص الرئيسيين الذين يحضرون تلك الاجتماعات التي يلوح أن غايتها حمل الشعب

== لقد كان بوسع اسماعيل — لو شاء — أن يظل على عرش مصر إلى آخر حياته ، فان الدائنين لم يضايقهم وجوده على العرش بقدر ما ضايقهم اسقاطه وزارة نوبار وتشكيل وزارة شريف على أساس دستور سنة ١٨٧٩ .

لأنه ما كاد أن يقتنع بسوء نية الدول الأوروبية حتى نشط لمقاومتها . وقد أصرت الدول على بقاء الوزيرين الأجنيين وأصر اسماعيل على الرفض وفي ذلك ما فيه من الشجاعة الخارقة والاستخفاف بالمخاطر .

ولو شاء لأخنى رأسه للقوة القاهرة ولكن نفسه الكبيرة جعلته يغامر بالعرش والتاج دفاعا عن استقلال البلاد ومناصرة للحركة الوطنية .

إن التاريخ لا يروى أمثلة كثيرة عن مقاومة الملوك لأصحاب المطامع الاستعمارية فمثل اسماعيل إذن هو من الأمثلة النادرة ولذا فهو خليق بأن يوضع في صفوف الأبطال . انظر بربك إلى رقعة مصر وملحقاتها في عهد اسماعيل ثم فكر قليلا في أن الخديو كان في استطاعته الاحتفاظ بهذا الملك العريض لو أنه أخنى رأسه قليلا لضغط الدول الأجنبية صاحبة الحول والسلطان .

ولكنه أبى الأذعان والاستسلام وأبى في سبيل استقلال بلاده إلا أن يصمد للمستعمرين ويستهدف لغضبهم ولو ضحى بعرشه وتاجه .

فاسماعيل هو ضحية كبرى في سبيل الاستقلال والدستور واسماعيل هو الذى أغرم بحب بلاده حتى ضحى بثروته الخصوصية وتحمل غصص الاقتراض وما أدى اليه من تدخل الدول — كل ذلك لرفعها من مستواها المتواضع الى مستواها العظيم الذى بلغته في عهده .

على تأييد المشروع المالى الذى يجهزه الخديو ليعارض به مشروع السير ريفرزولسن وتشجيعهم على إرسال العرائض لسموه لتنفيذ الدستور التركى الذى أعلن فى سنة ١٨٧٧ وهو الذى ظل منذ ذلك الحين ورقة مهمة . أما الأغنياء فقد قيل لهم « إن مشروع ولسن لو دخل دور التنفيذ لضوعفت

== فاذا ذكر الذاكرون اسماعيل واصلاحاته وما خطه فى تاريخ مصر من صحف خالدة فلنذكروا أجد هذه الصحائف وأبلغها ، ليدذكروا الصحيفة التى اختتم بها عهده الزاهر وحسبك صحيفة تتضمن التضحية بملك عظيم وعرش وتاج واختيار النقي فى سبيل رفع شأن الوطن ومقاومة المعتدين عليه .

إبلاغ إرادة السلطان لاسماعيل

ولما كانت رسالة السلطان بانزال الخديو عن العرش قد وردت إلى سراى عابدين فى ضحى يوم ٢٦ يونيه فقد وقع الاضطراب بين رجال البلاط وهلعت قلوبهم عند مارأوها مصدرة بعنوان « اسماعيل باشا خديو مصر السابق » .

وبهذه المناسبة ذكر الأستاذ الرافعى بك تفاصيل موجعة خاصة بالموقف المؤثر الذى وقفه الخديو فى الساعات الأخيرة قبل مغادرته البلاد . وما يذكر بالفخر لاسماعيل أنه صمد لهذه المحنة وقابلها بما يليق برجل باسل مثله حتى أن خصومه لم يجدوا بدا من التنويه بموقفه ورجولته فى ساعة المحنة . وإنا لنداكرون هنا بمجل ما ذكره الأستاذ الرافعى بك ونعقبه بأقوال شهود العيان من الخصوم .

فعند ما وصلت رسالة السلطان اختلف رجال البلاط فى قصر عابدين فيمن يوصلها إلى الخديو . وفيما كان الجدل مستمرا اذا بشريف باشا رئيس الوزراء قد وصل فتسلم الرسالة وصعد بها إلى الطابق الثانى حيث سلمها إلى الخديو . فلما فضاها وعلم خوارها قابلها بالصمت والجلد وكلف شريف باشا بدعوة الأمير توفيق باشا إليه فوراً .

نخرج شريف قاصداً سراى الاسماعيلية حيث كان الأمير توفيق وكان قد تلقى رسالة السلطان الثانية باستناد منصب الخديوية إليه . فبادر الأمير من فوره بالذهاب إلى سراى عابدين يصحبه شريف باشا . وصعد الأمير وحده إلى الطابق الثانى فلتقاه اسماعيل مخاطباً إياه « يا أفندينا » ثم سلمه سلطة الحكم وغادر اسماعيل قاعة العرش إلى دار الحرم .

الضرائب على الأراضي العشورية فتضيع به - ذا المزايا الممنوحة لهم بمقتضى قانون المقابلة وأن . . . الغاية التي يسعى إليها الوزيران الأجنيان هي تسليم البلاد للأجانب فيتعرض الدين الإسلامي وقتئذ للخطر .
واقترح اسماعيل بأن ساعة العمل قد حانت عندما جاءه الوزيران الأجنيان ليفهماه بدورهما خطورة هذا الهياج . فدعا إليه مندوبى الدول السياسيين

وفي منتصف الساعة السابعة من اليوم نفسه أقيمت فى سراى القلعة حفلة تولية الخديو توفيق بينما كان اسماعيل يتأهب للرحيل من البلاد . وفى ذلك يقول لورد كرومر فى ص ١٤ من الجزء الأول من كتابه « إن الموقف بين والد الولد كان مؤثراً جداً . وقد أبدى كل منهما شدة انفعاله . وكان من المرغوب فيه ألا تأخر الإجراءات الخاصة بتولية الخديو الجديد . ولذا بدأت فوراً . وفى منتصف الساعة السابعة من مساء يوم ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ أبرق السير فرانك لاسلز إلى لورد سلسبرى ينبئ بما حدث فقال : « بمناسبة اعتلاء سمو الخديو توفيق العرش أطلقت المدافع مساء اليوم من القلعة حيث استقبل سموه رسمياً وفود المهتمين وفى طليعتهم رجال السلك السياسى والسلك القنصلى والوزراء وموظفى الحكومة وعدد كبير من أعيان الأهالى وكبرائهم . »

رحيل اسماعيل

٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩

فى يوم الخميس ٢٦ يونية وصل الأمر بانزال اسماعيل عن العرش وفى يوم الاثنين ٣٠ منه غادر القاهرة إلى الاسكندرية حيث كانت « المحروسة » معدة لركوبه .
وكان يوم الرحيل يوماً مشهوداً . فقد خرج الناس أفواجا أفواجا وكأنهم جاؤوا لتحية ذلك الأسد المحصور الذى أثر النقي على تسليم البلاد للأجانب . ومنذ الصباح الباكر زحرت سراى عابدين بمجمهرة المودعين من كبار القوم وعليتهم . وما كادت تنصف الساعة الحادية عشرة حتى أقبل الخديو توفيق لوداع أبيه . وانقضت نصف ساعة فى وداع الابن لآبيه والوالد لولده .
وفى الساعة الحادية عشرة خرج الأب متوكئاً على ذراع ابنه توفيق . فركب العربى وإلى يساره توفيق . وتبعهما رتل من المركبات تقل كبار المودعين وأعيانهم وسار الموكب قاصدا المحطة حيث اصطف الجند على الجانبين يحيون مولاها اسماعيل .

في ٩ ابريل وابلغهم أن الحالة تتطلب علاجاً عاجلاً . فاستقال توفيق ثم أبلغ اسماعيل الوزيرين بأنه نزولاً على إرادة الأمة قد رأى أن يعهد إلى شريف باشا بتشكيل وزارة وطنية بحتة (٢٢ ابريل) وقد طلب إلى الماجور بارنج وزميله المندوب الفرنسي أن يستأنفا أعمالهما كمرافقين ولكنهما رفضا . ثم استقال بارنج وحذا حذوه عدد من الموظفين الإنجليز وصدرت الأوامر إلى شريف بأعداد الدستور .

وداعه في المحطة

وعند المحطة ترجل اسماعيل ووقف توفيق يودعه وعيناه مغرورتان بالدموع . وفي وسط هذا المنظر المؤثر وقف اسماعيل يخطب المودعين خطاباً مؤثراً ثم التفّت إلى توفيق يودعه ويعظه بهذه الكلمات المؤثرة المقتبسة من كتاب « مصر للمصريين » لسليم النقاش قال :

« لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوم مصر فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برا . واعلم أنني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التي أخاف أن توجب لك الارتباك . على أنني واثق بجزمك وعزمك فاتبع رأي ذوى شورك وكن أسعد حالاً من أيك . »

ويقول الذين شهدوا هذا المنظر أن كلمات اسماعيل أبكتهم جميعاً . وليس يفوتنا مغزى هذه الكلمات الحكيمة يلقيها ذلك العاهل العظيم في ساعة الرحيل الأخير . فهو يعظ ابنه باتباع الشورى ويود لو استطاع إزالة بعض المصاعب التي كانت سبب هذه الرزايا .

سفره إلى الاسكندرية

ثم استقل القطار فوصل الاسكندرية في الساعة الرابعة بعد الظهر وكان في استقباله في محطة القبارى محافظ الثغر وبعض الرؤساء والكبراء . فركب الزورق المعد له وتبعته زوارق المودعين حتى وصل إلى المحروسة . فلما وصلها أطلقت المدافع إنيذناً بوصوله ورفعت البوارج الحرية أعلامها تحية له واستقبل على ظهر الباخرة بعض المودعين . وقد وصف القنصل البريطاني العام هذه المظاهر ونوه بما أبداه اسماعيل من الرجولة والشجاعة في ساعة المحنة حتى أنه كان يتسم لمودعيه ويشكر لهم ما تجشموه =

وما لبث الإنجليز أن فتحوا باب المفاوضات فبعث لورد سالسبرى إلى اسماعيل في يوم ٢٥ أبريل برسالة طلب فيها إعادة الوزيرين الأجنيين ثم أردفت هذه المذكرة بالمناقشة في التدابير الأخرى الواجب اتباعها . ولا ريب في أن الاجراءات الماهرة التي تتبع في هذا العصر لتنظيم الاحتلال « الغير المنظور » لو طبقت وقتذاك لأدت إلى حل عملي بسهولة . ولـ من تعقدت الأمور بسبب ما كان من التنافس بين انجلترا وفرنسا واقتناع مندوبي كل منهما بعدم انتظار فائدة من الجمعية أو فعل شيء ضد الخديو .

== من أجله من التعب والنصب . بل إن لورد كرومر نفسه اعترف بما كان يبدو من « الهيبة والجلال على اسماعيل وهو يصافح مودعيه » . وهكذا أسدل الستار على الفصل الأخير من هذه المسألة .

ذهابه إلى نابولي

ثم أقفلت به المحروسة إلى نابولي حيث أعد له ملك إيطاليا قصرا خاصا لسكناه هو وأسرته وحاشيته . ثم أخذ يتنقل بين عواصم أوروبا . وقد روى السير ريفرز ولسن أنه قابله مرة في إحدى سفراته فلم يلاحظ منه أى حقد على أحد . بل بالعكس كان اسماعيل لا يذكر الناس جميعا إلا بالخير . وفي هذا ما فيه من معنى العظمة النفسية .

ذهابه إلى الأستانة

وفي سنة ١٨٨٨ انتقل إلى الأستانة حيث استقبل أنخم استقبال فأقام بقصر أمرجيان على البوسفور .

وفاته

وقد ظل مقبلا في الأستانة إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ عاماً . وقد حزنـت عليه البلاد أكبر حزن . ثم نقل جثمانه إلى مصر في يوم ١٠ مارس في الباخرة « توفيق رباني » تحرسها بأمر السلطان عبد الحميد البارجة العثمانية وعز الدين ، واحتفل في الاسكندرية ثم في العاصمة بتشيع الجنازة احتفالا رسميا فخما . واشترك سمو الخديو السابق في تشييع الجنازة في الاسكندرية ثم عاد بقطاره إلى العاصمة . وكان بين المشيعين في القاهرة بعد الجنود السوارى والموسيقى السوارى والبطارية السوارى وكبار التجار والأعيان الأجانب وموظفو النظارات والمصالح ==

وفضلا عن ذلك فقد كانت اقتراحات اسماعيل أكثر ملاءمة للدائنين الأجانب مما اقترحتة لجنة التحقيق كما عرف اسماعيل ذلك عندما احتاط لوصول اقتراحاته إلى أوروبا قبل وصول اقتراحات اللجنة ولم تكن الانتقادات التي وجهت ضد اقتراحات اسماعيل حتى الصادرة من لورد كرومر نفسه

== الأميرية ورجال المحاكم المختلطة والأهلية والمحامون ومدير صندوق الدين وناظر ومراقبو الدائرة السنية ومديرو مصلحة الدومين ومديرو السكك الحديدية والرؤساء الروسيون وكبار ضباط جيش الاحتلال ووكلاء الدول والقناصل والنظار والمستشاران المالي والقضائي ومستشار نظارة الداخلية ثم سمو الخديو السابق عباس حلمي فاصحاب السمو الأمراء والغازي مختار باشا وحاشية السراي ورجال الغازي والعلماء والأعلام وحلة التياقم والمباخر والمصاحف ثم سرير الجنازة محمولا ومحاطا بحرس الخديو وموسيقى يادة وأورطة يادة وكوكبة من البوليس . وسارت الجنازة من ميدان المحطة حتى ميدان الأوبرا وهنا تركها سمو الخديو السابق والقناصل .

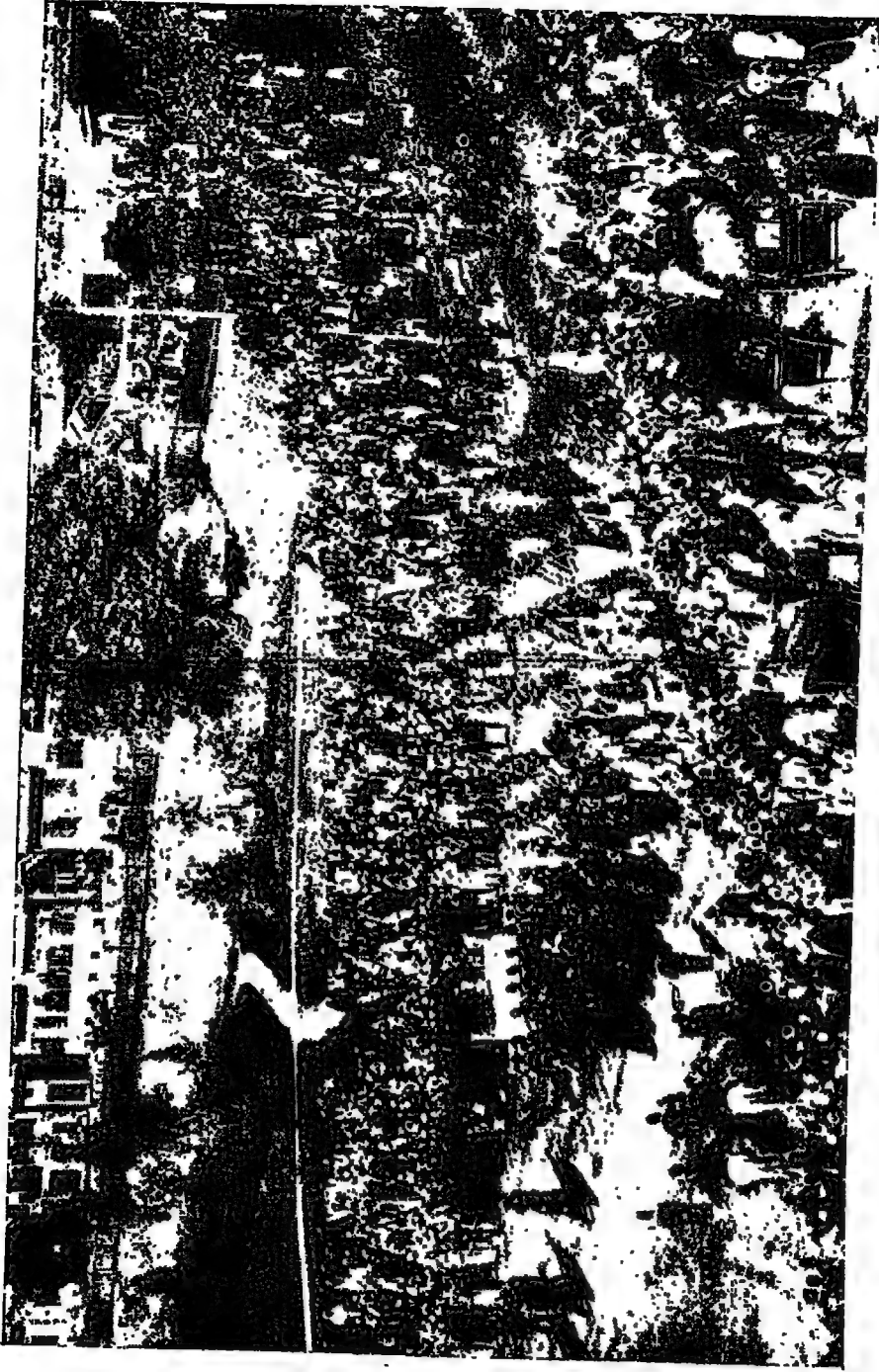
ثم استأنف الموكب السير من شارع البوستان فشارع محمد علي إلى الرفاعي حيث ووريت الجنة التراب .

وتبارى الشعراء في القاء المراثي ومن بينها مرتبة المغفور له أحمد بك شوقي الغراء وقد ختمها بقوله :

لما الموت منتهى كل حي	لم يصب مالك مع الملك خلدا
سنة الله في العباد وأمر	ناطق عن بقائه لن يردا
وإلى الله ترجع النفس يوما	صدق الله والنيون وعدا

وأقيمت حفلة العزاء ثلاث ليال سويا في سراي القصر العالي وتصدر القاعة الكبرى البرنس حسين كامل (المغفور له السلطان حسين) والبرنس أحمد فؤاد (جلالة مولانا الملك) وأقبل أعضاء الأسرة الخديوية والنظار والقناصل وغيرهم يقدمون التعازي . وأعلن سمو الخديو السابق الحداد في المعية أربعين يوما .

وهكذا انتقلت إلى دار الخلد تلك الشخصية البارزة التي طمحت إلى تحقيق استقلال البلاد وما زالت دائبة في مسعاها حتى أوشكت — لولا تألب الدول الأجنبية — أن تحقق أمنيتها .



تشجيع جنازة المغفور له ساكن الجنان اسماعيل باشا ويرى النعش إلى يسار الصورة

مقنعة بتاتاً . وبديهي أن المسألة الرئيسية لم تعد مسألة الرفض المالي بل كانت مسألة الإصلاح السياسي الذي كان كما لا يخفى يتطلب وقتاً في حين أن بريطانيا وفرنسا كانتا شديديتي النفور من تحمل تبعة الحكم في مصر بحيث أنه كان من رأيهما ترك حبل الأمور على الغارب مرة أخرى لولا عامل ثالث طرأ على الموقف واضطرهما للتدخل .

أخلاق اسماعيل وشخصيته

ولا بد من كلمة هنا عن أخلاق اسماعيل وشخصيته ومنها تستطيع أن تحكم على الرجل الذي قال فيه السير صمويل بيكر : « إنه جاء قبل أوانه » . ولا نجد خيراً من أن نقتبس ما كتبه الأستاذ الراجي بك في هذا الصدد . وإنما ذكرنا أقوال حضرة لتكون أبلغ في الإشادة بفضل هذا الحديو المظلوم . قال الأستاذ :

« كان اسماعيل بلا مرأى في الذكاء والفهم وسرعة الخاطر ، وقوة الذاكرة ، ومضاء العزيمة وعلو الهمة ، وكان شجاعاً ، لا يعرف الجبن والأحجام ، قوي الشخصية عظيم المهابة .

« أما ذكاؤه فكان يشع من عينيه البراقين ، وقد لحظ هذا الذكاء وتبينه كل من عاشروه أو حادثوه من الأصدقاء والأعداء على السواء .

« كان يفهم مراد محدثه ويحيط بالأمر ويدرك الأشياء بسرعة خاطر تشبه البرق الخاطف وكان قوى الذاكرة ، يدهش محدثه بقدرته على استيعاب التفاصيل والدقائق عن الحوادث الماضية ، كبيرها وصغيرها ، رغم مضى السنين على وقوعها .

« وتبدو لك قوة إرادته ومضاء عزمته من الهمة التي كان ينفذ بها مشاريعه ، فلم يكن يعرف التردد والأحجام ، وإذا أراد أن ينجز عملاً لا تقف في سبيله عقبة إلا ذلها ، أما شجاعته فحسبك أن تبينها من السياسة التي رسمها لنفسه في السنوات الأخيرة من حكمه ، حين أدرك سوء نية الدول الأوروبية واعتزم مقاومتها . وقد رأيت كيف وقف اسماعيل موقف المعارضة من الوزارة المختلطة وأتبع حيالها خطة المقاومة . وهي سياسة تقتضي حظاً كبيراً من الشجاعة والاستخفاف بالمخاطر . وفي سبيل هذه المقاومة غامر بمرشه وضحي به فعلاً . وقليل من الملوك من يضحون بعروشهم في سبيل مقاومة المطامع الاستعمارية .

فان بسمارك طالما فاخر بان في وسعه إيقاع الشجار بين انجلترا وفرنسا بسبب مصر وهذا ما جعله شديد الحرص على عدم ترك المسألة المصرية تحل من تلقاء نفسها. وقد حسب أن الفرصة سنحت له الآن لإيقاع الشقاق بينهما ولتمكين ألمانيا من لعب دور رئيسى فى السياسة العليا يجعل المالية العليا مدينة لها بالجميل . ولقد روى المستر ولفرد بلنت فى كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى » ص ٦٥ رواية تستند إلى أساس صحيح

== « وكان اسماعيل بلا نزاع محباً لبلاده ، راغباً فى تقدمها ، عاملاً على أن يسير بها فى مضمار الحضارة والعمران ، ساعياً فى توسيع ملكها ، وإعلاء شأنها . »
« فالذكا ، وقوة الإرادة والشجاعة والاقدام والرغبة فى إعلاء شأن مصر هذه هى الصفات التى تمتاز بها شخصية اسماعيل

» ظهرت تتأجج هذه الصفات فى مختلف الاعمال التى تمت على يده ، فقد سعى ووفق فى الحصول من تركيا على أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا ، كيما يصل بمصر إلى الاستقلال التام ، فهذه نزعة مجيدة تدل على شدة حبه لعظمة مصر ورفعة شأنها . (نرجو أن يذكر القارىء هنا انتقادات الأستاذ الرافعى بك لسياسة القرماتات التى حصل بها اسماعيل على هذه الحقوق والمزايا) .

« واتجهت همته إلى توسيع أملاك مصر فى افريقيا ، فأكمل فتح السودان ووصل بحدود مصر إلى منابع النيل ، وشواطئ المحيط الهندى ، أى إلى حدودها الطبيعية ، وبذل فى هذا السبيل أقصى ما لديه من عزيمة وقوة ، وهى صفحة مجيدة من صحائف اسماعيل ، تزين تاريخه ، بقدر ما يزدان بها تاريخ مصر القومى .

« وعنى بقوة البلاد الحربية بتنظيم الجيش وإنشاء المدارس الحربية العالية وتسليح الجند بأحدث الأسلحة وتزويد الحصون والقلاع بالمدافع الضخمة .

« ووجه أيضاً همته إلى انهاء البحرية المصرية حربية كانت أو تجارية . فرفع علم مصر على مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والأقيانوس الهندى .

« وله على العلم والأدب أباد يضاء بما أنشأه من المدارس العالية والمعاهد العلمية ، وتجديده عهد البعثات ، فدرسة الحقوق ، ومدرسة المهندسخانة ، ودار العلوم ، ومدارس البنات ، والمدارس الصناعية ، والمدارس الثانوية والابتدائية ، ودار الكتب ، والمتحف المصرى ، ودار الآثار العربية ، والجمعية الجغرافية ، والنهضة العلمية والأدبية ، والحركة ==

ملخصها» أن ولن قد أغضبه عزل اسماعيل إياه وإغضاء الحكومة البريطانية عن مناصرته فذهب إلى بيت آل روتشيلد فأدخل في نفوسهم الذعر من احتمال ضياع القرض عليهم وهو القرض الذى لم يكونوا سددوا بعد إلى مصر إلا نصفه فقط وبقي النصف الثانى فى أيديهم ، وأن آل روتشيلد بعد أن يتسوا من حمل الحكومتين البريطانية والفرنسية على التدخل فى الأمر اضطروا للالتجاء إلى بسمارك . ومهما كانت الأسباب التى ارتكن إليها المستشار الألمانى فانه فاجأ العالم بتصريح خطير

== الفكرية التى ظهرت فى عهده ، ونهضة الصحافة ، والتأليف ، والطباعة والبشر ، تعترف بآثاره الخالدة .

« وأعمال العمران التى تمت على يده كفتح الترع ، وإقامة الجسور ، والعناية بزراعة القطن ، واستحداث مصانع السكر وإصلاح القناطر الخيرية ، وزيادة مساحة الأقطان الزراعية وإنشاء السكك الحديدية والكبارى ، والأسلاك البرقية ومصلحة البريد ، وتعمير المدن وتخطيطها ، وتنظيمها ، كل هذه الأعمال قد نهضت بعمران مصر وتقدمها .

« كل هذه مآثر عادت على البلاد بالخير العميم . وإن نس لا ننس آخر صفحة ختم بها حياته السياسة ، إذ قاوم المطامع الاستعمارية التى بدت من الدولتين الانجليزية والفرنسية ، ولو أنه آثر الأذعان والاستسلام لبقى على عرشه يتمتع بهذا الملك العريض ولكنه أبى على الدول طلباتها ، وأصر على أن تكون الوزارة خالصة للبصريين ، واستجاب إلى مطالب الأحرار وعهد إلى شريف باشا تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأوروبى ، وأقر مبدأ مسؤولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب .

« ولا شك أن موقفه فى هذا الصدد هو دفاع عن استقلال البلاد ومناصرة للحركة القومية . وفى هذا السبيل استهدف لغضب الدول الأجنبية حتى فقد العرش والتاج . فهو من هذه الناحية ضحية كبرى فى سبيل الاستقلال والدستور .

« إذ الأقدام على هذه التضحية العالية ، وما أعقبها من النفي والتشريد والحرمان ، عمل جليل يزين تاريخ اسماعيل .

اتهم فيه اسماعيل بأنه « أخل إخلالا علنيا مباشرا بتعهد دولي . . . » ، إذ
ذاك اضطرت بريطانيا العظمى وفرنسا إلى القيام بعمل حاسم لاستعادة
مركزهما . ومن ثم كان تورطهما في مظالبة اسماعيل في يوم ١٩ يونية سنة
١٨٧٩ بالتنازل عن العرش .

ولا ريب في أن اسماعيل لو أبى النزول على هذا الطلب لأيده سلطان
تركيا . لأن الخليفة باعتباره الشخص الوحيد الذي لا تستطيع الدول
الأجنبية خلع خديو مصر إلا عن طريقه كان شديد التردد في التدخل
ضد أمير مسلم بناء على تحريض دولتين مسيحيتين كانت كل منهما منهمكة
وقتذاك في حرب عوان ضد المسلمين .



== « فالصفحة التي ختم بها اسماعيل حياته السياسية جديرة بأن تسجل في صحائف الحركة
القومية بالفخر والأعجاب . »

هذا ما كتبه الأستاذ الرافعي بك متغنياً بصفات اسماعيل وأخلاقه . على أنه انتقل
بعد ذلك إلى ما سماه صحيفة « الأخطاء والسيئات » فتولى انتقاده في صدد مسألة الديون
بما لا يخرج عما اقتبسناه عنه في صفحات هذا الكتاب وتولينا الرد عليه في مكانه .

على أن اسماعيل إذا كان قد وضع الأساس والدعائم فقد جاء بعده أبو الفاروق
ليتمم البناء . وقد أصبحت مصر والحمد لله معترفاً باستقلالها دولياً . وبعد أن كان النواب
في آخر دور انعقاد مجلس النواب يخاطبون اسماعيل بصاحب الجلالة ، متخطين لقبه الرسمي
وهو « صاحب السمو » فقد أصبح لمصر والحمد لله ملكها وهو جلالة مولانا الملك فؤاد
كما أن البلاد في عهده قد استعادت دستورها بعد أن ظل عشرات السنين معطلاً .

تنبيه مهم

في فصلين اثنين فقط حاول المستريانج (مؤلف الكتاب الحاضر) أن يروى تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل باشا أى من سنة ١٧٦٠ إلى سنة ١٨٧٩ . ويدهى أن محاولة من هذا القيل مهما كانت موفقة بالنسبة لما يسمونه « رؤوس موضوعات » فانها لا تتسع طبعاً لذكر التفاصيل التى قد تهتم الرأى العام المصرى أكثر مما تهتم الرأى العام الانجليزى وهو الذى قصد المستريانج إلى تنويره يذكر رؤوس الموضوعات .

وقد رأينا أن نسد النقص بذكر التفاصيل فى شكل حواشى مذكورة بالهامش ومقتبسة عن المصادر التى ألعنا إليها فى سياق الحديث . ومن هنا سيجد القارىء فى الفهرست شيئاً من التقديم والتأخير فى ترتيب الحوادث التى ذكرها المستريانج والتي أوردناها فى الهامش .

فهرست الكتاب

صفحة

١

مقدمة المعرب

أهمية تدوين التاريخ - اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر - نظرة إجمالية
في تاريخ مصر - محمد علي باشا - اسماعيل باشا - جلالة الملك فؤاد - بعض
أعمال جلالة الملك

الفصل الأول

مولد مصر الحديثة

٢٢

نابليون بونابرت

كلية إجمالية عن الممالك - نابليون والحملة على مصر - معركة أبي قير البحرية
بين الفرنسيين والإنجليز - زحف نابليون على القاهرة - معركة الأهرام
بين الفرنسيين والمماليك - دخول نابليون القاهرة - تفكيره في اعتناق
الإسلام - إنشاء ديوان العلماء وخلاصة ترجمة حياتهم - ثورة أهل القاهرة
ضد الفرنسيين - دخول الفرسان الفرنسيين إلى صحن الجامع الأزهر

٤٤

غزوة نابليون لسوريا

مقتل حامية يافا بأمر نابليون بعد تسليمها - حصار عكا ونهاية أحلام نابليون

٤٨

عودة نابليون من سوريا

معركة أبي قير البرية بين الفرنسيين والأتراك - عودة نابليون إلى فرنسا

٤٨

الجنرال كليبر

تولية الجنرال كليبر - معركة هليوبوليس بين الفرنسيين والأتراك - بعد
انسحاب نابليون من مصر - اتفاقية العريش الأولى - نقض الاتفاقية -

صفحة

- ٥٢ مقتل كبير
معركة كانوباس بين الفرنسيين والإنجليز - انسحاب الحملة الفرنسية - المعلم
يوسف القبطي - إلى ماقيل ظهور محمد علي .
- ٦١ محمد علي مؤسس الأسرة العلوية
نشأته وشيخته - محمد علي وخسرو باشا - الآلني والبرديسي - خورشيد باشا -
رواج الدسائس للخاع محمد علي - الإنجليز يقاومون محمد علي - محمد علي يصد
حملة الجنرال فريزر الإنجليزى - مذبحه الممالك .
- ٧٧ اصلاحات محمد علي
الاصلاح الادارى - الاصلاح الزراعى - الاصلاح التجارى - إحتكار
حاصلات البلاد
- ٨٥ استعائته بالعلماء والفنانين الفرنسيين
شامبليون والعتور على حجر رشيد - ترجمة الكتابة التى على الحجر -
الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) كلوت بك
- ٩٧ التعليم فى عهده
الأرساليات - تأليف مجلس المعارف - تأليف ديوان المدارس
- ١٠٣ صفات محمد علي
- ١٠٦ الحرب الوهاية
ظهور زعيم الوهايين - التعاليم الوهاية - استعدادات محمد علي لصد الوهايين
- ١١٣ فتح السودان
قبائل الزنوج عند خط الاستواء - حملة أحمد بك الدقتر دار - حرق معسكر
اسماعيل باشا - فتح سنار وكوردفان
- ١٢١ فتح سوريا
الامير بشير الشهابي - ابراهيم باشا يفتح يافا - ثم عكا - ودمشق - وحصص

صفحة

وحلب - معركة ييلان - الزحف على الاستانة - معركة قونية - وضع
اتفاقية كوتاهيا - قيام الفتن وقبورها .

١٣٦

إخراج ابراهيم باشا من سوريا

تركيا تحاول إخراج من سور - فوز القوات المصرية في معركة نازيب -
ومعركة نصيبين - تسليم العماراة التركية لمصر - بشائر الصلح بين محمد علي وتركيا

١٤٠

بالمريستون

كيد الدول الأوربية لمحمد علي - معاهدة لندره - محمد علي يرفض المعاهدة -
انسحاب ابراهيم باشا من الشام - فرمان محمد علي على ولاية مصر - فرمان
الولاية على السودان - محمد علي في أواخر أيامه - مرض ابراهيم باشا ووفاته
عناية محمد علي بالفلاح

١٦١

نظرة إلى تاريخ ابراهيم باشا

الحرب اليونانية - تدخل الدول الأوربية - وصول الحملة المصرية إلى نافارين -
معركة نافارين بين تركيا ومصر - بعد الموقعة

الفصل الثاني

المفلسون والسماصرة

١٧٩

عباس

ولادته ونشأته - وقف حركة التقدم - ماتم من الإصلاحات في عهده -
مقتله .

١٨٨

سعيد باشا

ميلاده ونشأته - أخلاقه

١٩٠

إصلاحاته

الإصلاحات العمرانية - الاهتمام بالجيش - ضعف البحرية - شركات
ملاحة أجنبية .

صفحة

١٩٧

اشتراك مصر في الحروب الأجنبية

حرب القرم - حرب المكسيك

٢٠٠

السودان

٢٠٣

نظام الحكم في عهد عباس وسعيد

الوزارات - النظام القضائي - مجاس الأحكام - مجاس الأقاليم

٢٠٦

قناة السويس

موجز تاريخ المشروع - دلبس في مصر - منح الامتياز بسبب قفزة جواد -

منح الامتياز - مساعي دلبس المالية - شروط الامتياز - انجلترا تقاوم

المشروع - سعيد يعضده - تأليف الشركة - بدء العمل في القناة

٢٢٣

سعيد وسنة الاقتراض من الأجانب

٢٢٤

وفاة سعيد

٢٢٦

اسماعيل باشا

جلالة الملك والوثائق المصرية - ميلاد اسماعيل باشا في ١٢ يناير سنة ١٨٣٠ -

نشأته - ثقة سعيد باشا به - اسماعيل يصبح ولي العهد بعد غرق أخيه البرنس أحمد

رفعت - اعتلاء اسماعيل الأريكة في ١٩ يناير سنة ١٨٦٣ - سياسة

اسماعيل الخارجية

٢٣٨

سياسة المال مع تركيا أفعل من سياسة المدفع

٢٣٩

زيارة السلطان عبد العزيز لمصر في أبريل سنة ١٨٦٣

الهدايا لحاشية السلطان فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بتغيير نظام توارث

العرش - فرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧ والحصول على لقب حديو - مسعى

اسماعيل للانفصال عن تركيا - فرمان ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ بتقييد سلطة

الحديو - فرمان الجامع ٨ يونية

٢٤٨

نظرة إجمالية في اصلاحات اسماعيل وما تكلفته من النفقات

اعتراف الأجانب بتقديم مصر في عهد اسماعيل - دحض الأكاذيب القديمة

الخاصة بلسماعيل - المستر كرايس وكتابه عن اسماعيل الخديو المظلوم -

صفحة

رواية المستر كرايتس عن صداقة دلبس لسعيد باشا وكيفية حصوله على امتياز حفر قناة السويس .

٢٥٤

أصحاب السمو الأمراء

مسؤوليتهم حيال التاريخ - سمو الأمير محمد علي وعباس باشا الأول - بين العرب وسمو الأمير عمر طوسون

٢٥٧

ملاحظات سمو الأمير محمد علي

عباس باشا الأول وبغضه للفرنسيين - شهامة عباس - عنايته بجوارى البلاط

٢٦٣

حب اسماعيل باشا في الاقتصاد

ديون اسماعيل

أقوال لورد ملنز - تفنيد المستر كرايتس لهذه الأقوال - هل كان اسماعيل مبذراً؟ - صورة من نشاطه وجدءه بأفلام بعض الكتاب الأجانب - أعراف الأجانب بفضل اسماعيل - التلاعب المالي في عهد اسماعيل - أقوال لجنة كيف - المستر كرايتس يمرض لتحليل أقوالها .

٢٨١

السخرة

اسماعيل يعمل على إلغائها في مشروع قناة السويس - موقف بريطانيا وفرنسا إزاء المشروع - اسماعيل يستهدف لغضب فرنسا - الخلاف بين اسماعيل وفرنسا - التحكيم - نابليون الثالث يحكم على مصر .

٢٩١

قناة السويس

افتتاح القناة للملاحة في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ - حفلات الافتتاح الباهرة - الرغبة في اعلان استقلال مصر - انشاء المحاكم المختلطة - خسائر مصر في القناة .

٢٩٦

بيع الأسهم المصرية في القناة

بين دزرائيلي وروتشيلد - موقف اسماعيل حيال بيع الأسهم المصرية - ما كسبه لمصر من مشروع القناة

٣٠٢

محاربة النخاسة

السير صمويل بيكر

صفحة

لماذا التجا اسماعيل الى الاغانب لمحاربة النخاسة - رحلات السير صمويل
يكر في أواسط أفريقيا - الخديو يستخدم السير صمويل في محاربة النخاسة -
سفر السير صمويل إلى السودان - فتوحاته في السودان

٣١٥ التوسع في السودان

تخوف أوروبا من توسع اسماعيل - الخديو يستخدم الضباط الأمريكان -
شالي لونج بك - اسماعيل لم يكن منفذا للسياسة الانجليزية - أعمال الضباط
الأمريكان - الزبير رحمت باشا - فتح سلطنة دارفور

٣٢٣ غوردون باشا

اسماعيل يعينه بمحض إرادته - سفر غوردون إلى السودان - بسط الحماية
المصرية على أوغندا

٣٢٧ اهتمام اسماعيل بشاطئ البحر الأحمر

ضم زيلع وبربرة - الاستيلاء على هرر - فتح بلاد السومال - اعتراف
انجلترا بسلطة مصر في السومال

٣٤١ معاهدة لمنع الرقيق بين انجلترا ومصر

٣٤١ استعفاء غوردون الأول

الخديو يستدعيه مرة أخرى

٣٤٨ حرب الحبشة

الخديو يرغم على دخولها - أسباب النزاع بين مصر والحبشة - فتح إقليم
البوغوس - يوم ١٥ نوفمبر المنحوس - حملة راتب باشا سنة ١٨٧٦ - معركة
قورع يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦

٣٥٣ حكم اسماعيل في السودان

خلاصة إجمالية عن حكم اسماعيل - السير صمويل يكر ينوه بفضل
اسماعيل في محاربته النخاسة - شهادة الثقات الاغانب

٣٦٦ حكم دارو السودان في عهد اسماعيل

موسى باشا حمدى - جعفر باشا صادق - جعفر مظهر باشا - ممتاز باشا -
اسماعيل باشا أيوب -

- صفحة
- ٣٦٨ مديريات السودان
- ٣٦٩ نظرة إجمالية في عمران السودان
تحسن طرق المواصلات - إنشاء المدارس - نشاط التجارة - إنشاء مصلحة البريد - التلغرافات
- ٣٧١ الرحلات والبعثات الجغرافية
- ٣٧٤ قوات الدفاع في عهد اسماعيل
تنظيم الجيش - تنظيم مدارس الحرية - هيئة أركان الحرب - تجديد السلاح والمصانع الحربية - البحرية .
- ٣٨٥ الأسطول التجارى
اتمام ميناء السويس - اصلاح ميناء الاسكندرية - الفنارات .
- ٣٨٨ حروب مصر
اتحاد ثورة العسير - حرب كريت - حرب البلقان .
- ٣٩٥ التعليم والنهضة العلمية
المدارس العالية - المهندسخانة - الحقوق - دار العلوم - الطب والولادة - مدارس البنات - المدارس الصناعية - المدارس الخصوصية - مدرسة المساحة والمحاسبة - المدارس الثانوية - المدارس الابتدائية - الحفلات المدرسية - الازهر - البعثات - مدارس الأقباط الارثوذكس - المدارس الأوربية - وزارة المعارف - ميزانية التعليم .
- ٤٠٥ على باشا مبارك
- ٤٢٣ الجمعيات العلمية
المجمع العلى - جمعية المعارف - الجمعية الجغرافية .
- ٤٢٦ الصحافة
مجلة روضة المدارس - الصحف السياسية - الصحف الأفرنجية - الطباعة .
- ٤٣٥ مظاهر النهضة العلمية والأدبية
- ٤٣٧ أعلام الأدب في عصر اسماعيل

صفحة

- جمال الدين الأفغانى - الشيخ حسن المرصنى - محمود باشا سامى البارودى -
عبد الله أفندى أبو السعود - الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده - ابراهيم
بك المويالى - محمد بك عثمان جلال - السيدة عائشة عصمت تيمور -
الشيخ عبد الهادى نجا الأيارى - السيد عبد الله نديم - الشيخ على الليثى وغيرهم .
- ٤٦١ علماء الهندسة والرياضيات
محمود باشا الفلكى - اسماعيل باشا الفلكى - حسين باشا حسنى وغيرهم .
- ٤٦٥ علماء الطب والجراحة
محمد الشافعى بك - محمد الدرى باشا - محمد على البقلى باشا - الدكتور حسن
باشا محمود وغيرهم .
- ٤٦٥ علماء الفقه والقانون
محمد قدرى باشا - حسين نقرى باشا - الشيخ محمد العباسى المهدي وغيرهم
- ٤٦٧ علماء الفنون الحربية
على باشا ابراهيم - حماد باشا عبد العاطى - محمود باشا فهمى - محمد مختار باشا
وغيرهم
- ٤٦٩ النهضة الفنية فى عهد اسماعيل
التنيل والغناء - الموسيقى - عبده الحولى - السيدة الماس - محمد العقاد
- ٤٧٣ دحض المفتريات ضد اسماعيل
- ٤٧٦ حقيقة قروض اسماعيل
قروض لم يستلم اسماعيل إلا نصفها - فوائد فادحة - استطاعة مصر النهوض
بأعبائها - أقوال القنصل الأمريكى العام فى مصر
- ٤٨٠ حصّة مصر فى قناة السويس
وزارة خارجية إنجلترا تجس النبض - لماذا أقدم اسماعيل على بيع الأسهم ؟
شركة القناة تضايق اسماعيل
- ٤٨٤ بعثة كيف
هل طلبها اسماعيل ؟ - سفر البعثة إلى مصر - التنافس بين إنجلترا وفرنسا -

صحيفة

- تقرير البعثة - الاتفاق على عدم نشر التقرير - انجلترا تزعم أن اسماعيل يعارض في النشر - تدهور السندات المصرية - التوقف عن الدفع
- ٤٩١ انشاء صندوق الدين
- ٤٩٢ مشروع توحيد الديون
- ٤٩٢ بعثة جويير غوشن
- تسوية الدين العام - موت اسماعيل المقتش - المراقبة الثانية
- ٥٠١ الديون المحلية والمحاكم المختلطة
- ٥٠١ لجنة التحقيق العليا
- كفاح غوردون من أجل اسماعيل - تشكيل اللجنة - اللجنة تقدم تقريرها - المطالبة بتشكيل وزارة مختلطة برئاسة نوبار
- ٥٠٦ انشاء مجلس النظار
- ٥٠٧ خطاب الخديو لنوبار
- تشكيل الوزارة النوبارية وادخال سيرريفرز ولسن والمسيو دوبلنير فيها
- ٥١٠ قرض الدومين
- ٥١٣ بين اسماعيل وفيفيان
- رأيان في حكم البلاد
- ٥١٥ التبرم بالحالة العامة
- تبرم الموظفين - تبرم الاهالي - تبرم الجيش - ثورة الضباط - اسماعيل يخمد الفتنة - اسماعيل لم يديرها - النظار في ظلامه الضباط - سقوط الوزارة النوبارية
- ٥٢٧ بعد استقالة نوبار
- ٥٢٨ غضب انجلترا وفرنسا
- ٥٣١ موقف مجلس النواب من وزارة توفيق باشا
- عريضة النواب لاسماعيل باشا - اجتماع الجمعية الوطنية - المطالبة بتأليف وزارة وطنية - اللائحة الوطنية - الخديو يقبل اللائحة - اسماعيل يستدعى

صفحة

- القناصل - كتابه إلى شريف باشا - الخديو يعمل داخل حدود سلطته .
٥٣٩ تقرير لجنة التحقيق العليا
- ٥٤٠ إضراب الأجانب عن العمل لأحراج وزارة شريف
- ٥٤١ اسماعيل يحبس نبض الاستانة
- ٥٤١ تنديد القنصل الأمريكي بالدسائس ضد اسماعيل
- ٥٤٣ تشكيل وزارة شريف باشا
- ابتهاج البلاد بالوزارة - رأى السير ريفرز - رأى القنصل الأمريكي -
خطاب تاريخي لشريف باشا .
- ٥٤٨ تقدم الحياة النيابية في عهد اسماعيل
- مجلس شورى النواب - خطبة العرش الأولى - أدوار انعقاد المجلس من
سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٧٣ - وقف الحياة النيابية سنتين - الحياة النيابية
لغاية آخر دور في يناير سنة ١٨٧٩ - جواب تاريخي لمجلس النواب - أعمال
المجلس والاصطدام بالسير ريفرز ولسن - دستور سنة ١٨٧٩ - عدم
صدور الدستور
- ٥٦١ عود إلى وزارة شريف باشا
- محاولة عرقلة أعمال الوزارة - مرسوم ٢٢ ابريل لتسوية الديون - مساعي
شريف لطمأنينة الدائنين - أول إنذار من إنجلترا - شريف يهدد بالاستقالة -
الخديو يحبس نبض السلطان - ظهور بسمارك على مسرح السياسة المصرية .
- ٥٦٨ خاتمة المأساة
- المطالبة بنزول الخديو عن العرش - تولية الخديو توفيق - خرق السياسة
العثمانية - اسماعيل ضحية الوطن والدستور .
- ٥٧٥ ابلاغ إرادة السلطان لاسماعيل
- رحيل اسماعيل - وداعه في المحطة - سفره إلى الاسكندرية - ذهابه إلى
ناپولى - وفاته
- ٥٨١ أخلاق اسماعيل وشخصيته

فهرست الصور

جلالة مولانا الملك

صاحب السمو الملكي الأمير فاروق أمير الصعيد

المغفور له الحاج محمد علي باشا مؤسس الأسرة المحمدية العلوية

بطل حروب الاستقلال ابراهيم باشا في لباسه العسكري

الخديو المظلوم ساكن الجنان اسماعيل باشا

« أبو الفلاح » المغفور له السلطان حسين كامل

صفحة

٢٤	الأوطه باشى (أبوطبق) سائراني موكبه إلى القلعة
٢٧	أحد جنود الممالك بملابسه الثمينة
٢٩	نابليون بونابرت
٣٠	معركة النيل أو معركة أبوقير البحرية
٣١	منظر ثان من المعركة نفسها
٣٢	البارجة جوين
٣٢	البارجة برسلاو
٣٣	الأميرال نلسون قائد الأسطول البريطانى
٣٣	بونابرت في معركة ايلاو (وضعت في هذا الكتاب خطأ)
٣٤	نابليون وجنوده في معركة الأهرام
٣٥	الجنرال ديزيه
٣٧	الديوان الخصوصى الذى أنشأه نابليون في مصر سنة ١٧٩٨
٣٧	الجنرال (أو الحاج عبد الله) مينو
٣٨	الشيخ عبد الله الشرقاوى
٣٨	الشيخ خليل البكرى

٣٨	الشيخ عبد الله المهدي
٣٩	مراد بك
٤٠	نابليون يشهد حفلة افتتاح الخليج
٤١	نابليون بلباسه الشرقى
٤٢	نابليون يشهد حفلة مولد النبي
٤٣	حضور نابليون وحاشيته حفلة وفاء النيل
٤٣	بركة حديقة الأُزبكية قبل تجفيفها
٤٤	نابليون يحتفل بعيد الجمهورية في القاهرة
٤٥	الشيخ السادات
٤٦	جيش الجنرال ديزيه يتعقب المماليك إلى اسوان
٤٦	حيفا وخليج عكا
٤٨	معركة أبوقير البرية
٤٩	الجنرال كليبر
٥٣	الجنرال كليبر يستحث جنوده على القتال
٥٤	سليمان الحلبي قاتل كليبر
٥٦	السيف الذى أهداه الجنرال ديزيه للمعلم يعقوب
٥٦	المعلم يعقوب القبطى
٥٩	المعلم يعقوب ومعه اثنان من كبار الطائفة القبطية
٦٠	أرناؤوط محمد على
٦٥	ساكن الجنان محمد على باشا منشىء الأُسرة العلوية
٦٨	محمد على يسير في شوارع القاهرة بعد تولية الحكم
٦٩	المعلم جرجس الجوهري
٧٠	ساكن الجنان السلطان محمود
٧٣	أمين بك المملوك الشارد
٧٤	محمد على بعد مذبحه المماليك
٧٥	خروج موكب محمد على باشا من القلعة
٧٦	زوجة محمد على باشا وأم ابراهيم باشا تصل إلى مصر آتية من قوله

صفحة

٨١	يوسف أفندى مدير حدائق شبرا (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
٨٢	لينان باشادى بلفون مهندس القناطر الخيرية (« « « « «)
٨٣	بوغوس بك (« « « « «)
٨٦	حجر رشيد
٨٨	سليمان باشا الفرنساوى (« « « « «)
٨٩	سليمان باشا يوبخ الممالك لأخفاهم فى أصابته بالرصاص
٩١	محمد على باشا فى مركبه وخلفه سليمان باشا الفرنساوى وابراهيم باشا
٩٢	كلوت بك
٩٣	كلوت بك يلقى أول درس فى التشريح على تلاميذه فى مدرسة الطب
٩٦	الدكتور محمد على باشا البقلى
٩٧	أول بعثات محمد على العلوية إلى أوربا
٩٨	مصطفى مختار بك أول ناظر للمعارف (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
٩٨	يوسف بك حكيكان ناظر مدرسة المهندسخانة (« « « « «)
٩٨	رفاعة رافع بك أول ناظر لمدرسة اللغات والألسن (« « « « «)
٩٩	نمير بك ناظر مدرسة المهندسخانة (« « « « «)
٩٩	حسين باشا الاسكندراني ناظر مدرسة البحرية (« « « « «)
١٠٠	عبدى شكرى باشا ناظر المعارف (« « « « «)
١٠١	الدكتور درى باشا
١٠٢	بعض السفن المصرية أمام عكا
١٠٣	محمد على باشا يستقبل سفراء الدول
١٠٤	قواد جيش محمد على يقسمون على القرآن بالتفانى فى خدمته
١٠٦	الشيخ محمد عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابى
١١٠	محمد على ينذر مندوبى الوهابيين
١١٢	ابراهيم باشا يستقبل فى خيمته أمير الوهابيين
١١٤	الملك كاريقه يعود من زيارة بعض أصدقائه
١١٨	السفن المصرية التى اشتركت فى معركة نافار
١٢٠	البطل ابراهيم باشا فاتح سوريا

صفحة

١٢١	الأمير بشير الشهابي
١٢٢	قصر الأمير بشير الشهابي الذي استضاف فيه إبراهيم باشا
١٢٤	إبراهيم باشا يدخل عكا على رأس جيشه
١٢٥	صورة تذكارية لدخول إبراهيم باشا عكا (مهداة من معالي محمود فخري باشا إلى دار الكتب الملكية)
١٢٦	البوابتان الشبيرتان عند مدخل مقاطعة كليشيا في الأناضول
١٢٧	محمود بك الأرنؤوطي ناظر الجهادية (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
١٢٧	السيد محمد باشا شريف وإلى ألوية الشام
١٢٨	أدهم بك مدير المهمات (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
١٢٨	سريزي بك باشمهندس دار الصناعة
١٢٩	صحراء الصفا في جهة جبل الدروز
١٣٠	جيش محمد علي بلباسه العسكري
١٣١	صورة العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية
١٣٢	صورة العدد التاسع عشر منها
١٣٣	أرتين أفندي والد يعقوب باشا ارتين
١٣٤	أحد مشايخ الدروز
١٣٥	أنموذج من سحر إبراهيم باشا على العدالة
١٣٦	حسين محمد الكيماي (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
١٣٦	جيش إبراهيم باشا في نصيين
١٣٨	ميدالية لمحمد علي باشا تذكرا للمعركة نصيين (مهداة من معالي محمود فخري باشا إلى دار الكتب)
١٤١	لورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا
١٤٥	إبراهيم باشا يؤاسي الجرحى
١٤٧	خريطة المواقع التي غاضها إبراهيم باشا أثناء افتتاحه الشام
١٦٢	خريطة الجهات التي فتحها إبراهيم باشا أثناء الحرب الوهاية
١٦٣	خريطة السودان في عهد محمد علي
١٦٦	خريطة اليونان والجهات التي استولى عليها إبراهيم باشا

صفحة				
١٦٧	خريطة موقعة نافارين
١٧٠	استقبال محمد على باشا في الأستانة
١٧١	محمد على باشا قبل سفره إلى باريز
١٧٢	محمد على يستعرض الجنود الفرنسية في باريز
١٧٦	محمد على باشا على جواده الأبيض المشهور
١٨٠	المغفور له عباس باشا الأول
١٨٢	المغفور لها الأميرة أمينة إلهامى (أم المحسنين)
١٨٩	المغفور له سعيد باشا
١٩٣	مرييت باشا
١٩٩	الأورطة المصرية في المكسيك
٢١١	صورة فريدة لسعيد باشا بالزى الشرقى
٢١٣	المسيو موجيل مهندس القناطر الخيرية
٢١٨	ابتداء العمل في حفر قناة السويس
٢٢٥	ساكن الجنان الخديو اسماعيل باشا
٢٢٦	الامبراطور نابليون الثالث
٢٢٩	معالم الزينة والابتهاج بإنشاء قناة السويس
٢٣١	المستر كراييتس صاحب كتاب اسماعيل الخديو المظلوم
٢٣٢	حفلة افتتاح قناة السويس
٢٣٣	أول سفينة تعبر القناة
٢٣٤	بعض الرؤوس المتوجه في حفلة افتتاح القناة
٢٣٥	وليمة اسماعيل باشا لملوك أوروبا
٢٣٦	نزهة الملوك في صحراء السويس
٢٣٧	الامبراطور يوجيى في قصر الجزيرة
٢٣٨	المستر دزرائيل رئيس الوزارة البريطانية
٢٥٦	سمو الأمير عمر طوسون
٢٥٧	السيد عبد الله نديم
٢٥٨	سمو الأمير محمد على

صفحة					
٢٥٩	المستر غلادستون رئيس الوزارة البريطانية	
٢٥٩	المستر جون بریت الوزير البريطاني	
٢٦٠	الأميرال نايبير ...	
٢٦٥	لورد ملتر ...	
٢٧٤	السير صمويل بيكر باشا	
٢٨٤	نوبار باشا ...	
٢٨٩	دخول البواخر المقلّة للبلوك والأمراء في قناة السويس	
٢٩٠	خريطة قناة السويس	
٢٩٢	بعض ضيوف اسماعيل باشا ...	
٢٩٤	اسماعيل باشا يحتفل بضيوفه ...	
٣٠٩	نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الأبل ...	
٣١٠	الأسطول النيل	
٣١١	حفلة رفع العلم المصري	
٢١٢	المعسكر المصري في غوندوكرو	
٣١٣	ريونجا ملك أونورو يصفح بيكر باشا	
٣١٥	الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي	
٣١٨	الكولونيل شالي كونج (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)	
٣١٨	ستانلي الرحالة المعروف (« « « «)	
٣٢٠	السير ريجنالد ونجيت	
٣٢١	الوزير رحمت باشا	
٣٢٢	الأمير عبد الحميد نجل السلطان ابراهيم	
٣٢٣	الجنرال غوردون باشا	
٣٢٥	محمد أحمد المهدي	
٣٢٦	قتل غوردون باشا	
٣٢٧	اسماعيل باشا صديق	
٣٢٨	التعايشي خليفه محمد أحمد المهدي	

صفحة					
٣٢٩	لورد كنشتر ...
٣٣٠	خريطة مديرية خط الاستواء ...
٣٣١	تقديم رأس غوردون إلى سلاطين باشا ...
٣٣٢	قبة قبر المهدي ...
٣٣٤	محمد رؤوف باشا (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
٣٣٧	المغفور له حسين باشا غرى ...
٣٤٦	(«	«	«	أمين باشا)
٣٤٨	المرحوم السير لى ستاك ..
٣٥٣	الكولونيل مارشان ...
٣٥٤	الجنود البريطانية على فاشوده ...
٣٥٥	طبيب المهدي ...
٣٥٥	محمد بك المليك ...
٣٥٦	عبد الله التعايشي ...
٣٥٧	نقود المهدي ...
٣٥٧	نقود غوردون باشا ...
٣٥٨	حدود الدولة المصرية في عهد اسماعيل
٣٥٩	الماجور استيجان (مهداة من سمو الأمير عمر طوسون)
٣٥٩	(«	«	«	الدكتور جنكر)
٣٦٠	رودلف سلاطين باشا ...
٣٦١	القائد عثمان دجنة ...
٣٦٢	الجنرال هكس باشا ...
٣٦٣	موقعة أم درمان في الهجوم الثاني
٣٦٣	موقعة أم درمان في أثناء هجوم الدراويش
٣٦٣	موقعة فنك بالسودان
٣٦٥	(«	«	«	الكابتن لونجارد)
٣٦٦	خريطة السودان في عهد اسماعيل
٣٦٧	خريطة السودان وبها المديرات

صفحة					
٣٧٠	أحمد عرابى باشا
٣٧٣	خريطة الحملات الاكتشافية ...
٣٧٤	شاهين باشا ...
٣٧٥	اسماعيل باشا أيوب
٣٧٦	عبد القادر حلى باشا
٣٧٩	الأمير حسين كامل فى شبابه
٣٨٥	التجاشى تيودرس الثانى أمبراطور الحبشة وسط ضواريه ...
٣٨٦	السردار راتب باشا
٣٨٩	جلالة السلطان عبد العزيز
٣٩٠	محمود باشا سامى البارودى
٣٩١	الزنوج يهاجمون التماسيح
٣٩٢	عبد الله باشا فكرى
٣٩٣	اللواء راشد باشا حسنى
٣٩٤	الأمير حسن باشا
٣٩٥	محمود باشا حمدى الفلكى
٣٩٦	مفاجأة التماسيح لحمة السير صمويل ييكر
٣٩٧	فرس البحر يفرق أحد قوارب السير صمويل ييكر
٤٠٠	خليل آغا باش آغاى والده اسماعيل باشا
٤٠١	الوحوش تهاجم السير صمويل ييكر
٤٠٢	معركة ماسيندى
٤٠٣	الأمير محمد سعيد طوسون والد سمو الأمير عمر طوسون (مهدة من سموه)
٤٠٤	محمد ثابت باشا
٤٠٥	إحراق المعسكر فى جهة ماسيندى
٤٠٦	هجوم صيادى الرقيق
٤٠٧	« اللصوص الأريعون »
٤٠٨	إبادة فصيلة من جنود السير صمويل ييكر
٤٠٩	محمد شريف باشا

صفحة					
٤١٠	الزحف فى داخل منطقة قبيلة « بارى »
٤١١	رجال قبيلة (بارى) يهاجمون حملة السير صمويل بيكر
٤١٢	هجوم قبيلة « بارى »
٤١٣	سحر الموسيقى ...
٤١٤	التهام التماسح لذراع أحد الخدم ...
٤١٥	اصطياد التماسح ...
٤١٦	مهاجمة فرس البحر للقوارب ليلا
٤١٧	الليفيتينات جوليان بيكر
٤١٧	المستر دوين سين هيجنو بوتام
٤١٨	على باشا مبارك
٤١٩	الزواج يهاجمون غوندوكرو ...
٤٢٠	توفيق باشا خديو مصر
٤٢١	مصطفى رياض باشا
٤٢٢	أحمد باشا السيوفى
٤٢٣	فرس البحر يفترس أحد مشايخ القبائل
٤٢٤	أحمد خيرى بك (باشا)
٤٢٥	شفيق بك منصور
٤٢٦	إطلاق سراح العبيد
٤٢٧	محمد قدرى باشا
٤٢٨	كمين الزنوج يهاجمون مؤخرة الحملة
٤٢٩	اسماعيل باشا صبرى
٤٢٩	الدوق أوف كونوت
٤٣١	محمد بك عثمان جلال
٤٣٢	الكاتب أديب اسحاق
٤٣٣	بشاره تقلا باشا صاحب الأهرام
٤٣٤	المرحوم سليم تقلا بك صاحب الأهرام
٤٣٥	الشيخ أبو نصارة

صفحة					
٤٣٦	الزواج يسحبون الباخرة
٤٣٧	الوصول إلى منطقة السدود
٤٣٨	السيد جمال الدين الأفغانى
٤٣٩	صيد الظباء بالشباك
٤٤٠	أحد القيلة الضخمة يهز جزع الشجرة
٤٤١	منظر لقطيع من القيلة سقط في الماء
٤٤٢	منظر عام للنيل الأبيض
٤٤٣	مظاهرة عدائية لجائية
٤٤٤	السير صمويل بيكر وعقيلته
٤٤٥	الزواج يعاقبون السير صمويل بيكر
٤٤٦	كأبريقه يمتص دم السير صمويل بيكر
٤٤٧	منظر منضدة طبيعية
٤٤٨	الأمير حلیم باشا
٤٥١	عبد السلام باشا المويلحي
٤٥٦	الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
٤٥٧	إبراهيم بك المويلحي
٤٥٨	السيدة عائشة عصمت تيمور
٤٦٠	الشيخ على الليثي
٤٦٠	الأديب السيد صالح مجدى بك
٤٦١	المهندس حسين باشا حسنى
٤٦١	المهندس محمد مظهر باشا
٤٦٣	اسماعيل باشا الفلكي
٤٦٣	اسماعيل باشا محمد
٤٦٤	الدكتور محمد الشافعى بك
٤٦٤	المهندس مصطفى بهجت باشا
٤٦٦	الدكتور حسن باشا محود
٤٦٨	المهندس محمود باشا فهمى

صفحة				
٤٦٩	الكاتب العسكري محمد مختار باشا ...
٤٩٨	المسيو دو فريسيه ...
٥٠٠	لورد كرومر ...
٥٠٩	السير ريفرز ولسن ...
٥١٠	المسيو دوبلنير ...
٥١٢	لورد سلسبرى ...
٥١٩	لطيف باشا سليم وولده فؤاد بك
٥٢٠	المغفور له مصطفى كامل باشا
٥٣٠	أفلاطون باشا ...
٥٣٥	المستر ولفر د بلنت ...
٥٤٣	عمر باشا لطفى ...
٥٦٧	البرنس بسمارك ...
٥٧٣	اسماعيل باشا وأولاده ...
٥٨٠	جنازة اسماعيل باشا فى القاهرة ...

مراجع الكتاب

هذه أسماء الكتب التي اقتبسنا منها في التعليقات التي بهامش الكتاب

- | | | | | |
|--------|---|---|-------------|-------------------------------|
| (١) | كتاب تاريخ مصر الحديث | { | تأليف | المرحوم جورجى زيدان |
| (٢) | كتاب مشاهير الشرق | | مؤسس الهلال | |
| (٣) | • تقويم النيل | | | سعادة الأستاذ أمين باشا سامى |
| (٤) | • تاريخ الحركة القومية | { | | الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك |
| (٦) | • عصر اسماعيل | | | |
| (٥) | • حقائق الأخبار عن دول البحار | | | المرحوم اسماعيل باشا سرهنك |
| (٧) | • مراسلات ويوميات | { | | المسيو فرديناند دلسبش |
| | • ووثائق عن قناة السويس | | | |
| (٨) | • مصر | | | المستر تيودور روذستين |
| (٩) | • اسماعيل الخديو المظلوم | { | | القاضى كرايتس |
| (١٠) | • السودان والنخاسة وغوردون | | | |
| (١١) | • مصر | | | المستر ستانلى لين بول |
| (١٢) | • مصر كما هى | | | المستر ماكوان |
| (١٣) | • مصر - الحكام الوطنيون والتدخل الاجنبى | { | | البارون دى مالورنى |
| (١٤) | • انجلترا فى مصر | | | |
| (١٥) | • اصلاح مصر | { | | السير صمويل يكر |
| (١٦) | • الاسماعيلية | | | |
| (١٧) | • السيف والنار | | | سلاطين باشا |
| (١٨) | • البحر الزاخر فى تاريخ وأخبار الاوائل والاواخر | { | | لصاحبه محمود باشا فهمى |
| (١٩) | • السياح والكتاب الفرنسيون الذين زاروا مصر | | | |
| | | { | | جان - مارى كاريه |
| | | | | |

- (٢٠) كتاب مصر الحديثة . تأليف لورد كرومر
- (٢١) د المسألة المصرية المسيو دوفريسينيه
- (٢٢) د فصول من حياقي الرسمية السير ريفرز ولسن
- (٢٣) د د د د أدوين دليون
- (٢٤) د كشف الستار عن أسرار مصر مدام أولمب أدوار
- (٢٥) د التاريخ السرى للاحتلال البريطانى للبستر ويلفرد بلنت
- (٢٦) مذكرات دزرائيلي .
- (٢٧) تقرير كيف عن مالية مصر بقلم المستر كيف
- (٢٨) تقرير عن شؤون مصر للقنصل الامريكى العام المستر بيردس
- (٢٩) تقارير قنصل أمريكا العام المستر فارمان
- وغيرها وغيرها

هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم المصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)

- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فزلكة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي النطرون ورجائه وأديرته ومختصر البطاقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية

Bibliotheca Alexandrina



0354381

MAVBOULI BOOKSHOP

مكتبة مطبول

٦ ميّدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١ Tel. : 5756421 6 Talat Harb Sq.